الدكتور مصطفى أبو ضيف احمد

دراسات في تاريخ الدولة العربية

عصور الجاهلية والنبوة والراشدين والأمويين

(1 ـ 132 هـ / 622 ـ 749 م)

1986

مزيدة ومنقحة

الطبعة الأولى 1982
الطبعة الثانية 1983
الطبعة الثالثة 1984
الطبعة الرابعة 1986

طبع
بدار النشر المغربية
5-13 زنقة الجندي روش
الهاتف: 24-51-47
الدار البيضاء
الايداع القانوني رقم 1986/18.

اهداء الكتاب

الى روح والـدي

«وقل ربِّ ارحمهما كما ربّياني صغيرا»

صدق الله العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير الطبعة الثالثة

لم يدر بخلدى وانا اقوم بتاليف كتاب «دراسات في تاريخ الدولة العربية» انه سوف يلاقى مثل هذا الرواج بين الباحثين وطلبة الجامعات، اذ نفذت الطبعة الاولى التي صدرت سنة 1982م في خلال شهور من صدورها، وكذا الطبعة الثانية التي صدرت في 1983م

ولا املك في هذه المناسبة الخاصة باصدار الطبعة الثالثة غير شكر الزملاء على حسن ظنهم بي كما اجيب على تساؤلات البعض الاخر، عن فائدة ظهور كتاب جديد، يضاف الى كل الكتب السابقة للدولة العربية. فاولا يلاحظ ان قلة من الكتب العلمية هي التي استطاعت ان تجمع بين الاجاز وقدر معقول من الشمول، وبالطبع فان هناك ابحاث تاريخية كثيرة تعالج كل موضوع باسهاب اكيد وتفاصيل ادق، ومن الواضح ان كتابنا هذا لايعتزم ان يدخل معها في منافسه.

اما العامل الثاني، فهو ان الاتجاه الراهن الذي يميل الى الاغراق المتزايد في التخصص، يؤدي بالباحثين الى ان ينسوا او يتجاهلوا فترات تاريخية، ويركزون على فترات اخرى، او يتخصصوا في منطقة ما محددة. وان جاز ذلك في العلوم غير التاريخية، فمن الصعب تطبيقه على تاريخ الاسلام اذ لايمكن تفسير الاحداث التاريخية بالمغرب الاسلامي مثلا دون التعرض لاسبابها وعللها بالمشرق الاسلامي، وهدف هذه الدراسة هو محاولة التمهيد والربط بين احداث العالم الاسلامي، شرقا وغربا، ومد جسور الاتصال بين التخصص الدقيق والشامل.

وما التوفيق الا من عند الله، انه نعم المولى ونعم النصير.

الدار البيضاء في 1984.2.13م

مصطفى أبو ضيف أحمد

مقدمة

يقول حاجي خليفة في كتابه كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ج 1 ص 35 : «ينبغي لكل مؤلف كتاب في فن قد سبق اليه أن لا يخلو كتابه من خمس فوائد : استنباط شيء كان معضلا، أو جمعه ان كان مفرقا، او شرحه ان كان غامضا، او حسن نظم وتاليف، او اسقاط حشو وتطويل».

ونظرا لان تاريخ الدولة العربية سبق وألف فيه سواء في المصادر الأصلية ونقصد بها الانتاج الاصلي من الكتب لمؤرخي الدولة العربية مثل كتب السيرة النبوية والمغازي والفتوح والطبقات والانساب والاخبار والتاريخ. أو في المراجع الحديثة التي تعتمد في كتابتها على التحليل والتفسير واتباع قواعد المنهج الحديث للتاريخ ومن رواد هذه الدراسات من المستشرقين والمسلمين : يوليوس فلهوزن Julius Wellhousen في كتابه «تاريخ الدولة العربية من ظهور الاسلام الى نهاية الدولة الاموية» ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريده، وكتاب احزاب المعارضة السياسية الدينية في صدر الاسلام «الخوارج والشيعة» ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي، لامنس Lammens في

— Etudes sur le règne du Calife Omoalyade Mo'awa Ier .
— Etudes sur le siecle des Omeyyades.

وغيرهم من المستشرقين... وحسن ابراهيم حسن في تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، الجزء الاول، وجمال الدين سرور في قيام الدولة العربية الاسلامية ، والحياة السياسية في الدولة العربية . والسيد عبد العزيز سالم في تاريخ الدولة العربية. وعبد المنعم ماجد في التاريخ السياسي للدولة العربية وغيرهم من الباحثين العرب.

ولذلك فقد رحبت بالمساهمة بكتابي هذا في تاريخ الدولة العربية منذ قبل الاسلام الى ظهور العباسيين حينما أسند الى تدريس تاريخ العرب في العصر الوسيط في بعض الجامعات العربية، محاولات توفير بعض الشروط التي ذكرها حاجي خليفة من استنباط المعضل وجمع المفرق وشرح الغامض واسقاط الحشو بهدف توفير كتاب في تاريخ الدولة العربية بين ايدي طلاب الجامعة والمثقفين، شامل لتاريخها.

وقد قسمت كتابي الى مقدمة اشتملت على هدف الدراسة، اتبعتها بدراسة لمصادر. ومراجع الدولة العربية ثم خمسة أبواب رئيسية على النحو التالي :

الباب الاول وعنوانه « العرب قبل الاسلام» وفيه حاولت أن ألقي بعض الاضواء في وصف جزيرة العرب وما تميزت به من النواحي المناخية والتضاريسية وتأثير ذلك في النواحي الاقتصادية والحياة الاجتماعية والهجرات البشرية من الجزيرة العربية الى كل من وادي النيل الخصيب وبلاد الرافدين. وعلاقة كل ذلك بظهور العصبية العربية والتقسيم القبلي.

ثم تناولت الحالة السياسية بالجزيرة العربية قبل الاسلام.وبدات بالممالك الجنوبية. مثل الدولة المعينية (1300 ــ 630 قم) ثم الدولة السبئية (800 ـ 115 ق م) ثم الدولة الحميرية (115 قم ـ 525م) وأوضحت أهم أحداث الدولة الحميرية الاولى من الحملة الرومانية ·في24قم الى التنافس حول الطريق البحري عبر البحر الاحمر الى قيام الفتن والاضطرابات التي ادت الى ظهور الدولة الحميرية الثانية وبداية الصراع مع الحبشة وانتشار المسيحية واليهودية وكيف كان اظطهاد أصحاب الديانة المسيحية سببا في الغزو الحبشي لبلاد اليمن في 525م. ومقاومة أهل البلاد له والاستعانة بالفرس للقضاء على النفوذ الحبشي وادراك أهل البلاد انهم استبدلوا سيدا أجنبيا با خر .

وانتقلت بعد ذلك لتناول ممالك شمال الجزيرة وهي مملكة الانباط أو النبط (587 قم تقريبا ـ 106م) وأوضحت المظاهر الحضارية المركبة لهذه الدولة من النواحي اللغوية والدينية والفنية والمعمارية... ثم مملكة تدمر (300 قم تقريبا ـ 273م) ودورها التجاري المحايد بين كل من الامبراطوريتين الفارسية والبيزنطية وبداية ظهور النفوذ الروماني بها ومحاولتهما الاستقلال والثورة ثم تدهور العلاقات التدمرية الرومانية والمواجهة الحربية بينهما ووقوف تدمر كند ومنافس خطير للامبراطورية الرومانية، وكيف سقطت أخيرا تحت السيطرة الرومانية.

كما تناولت بعد ذلك امارة الغساسنة على الحدود العربية البيزنطية وأوضحت كيفية ظهورهم وهجرتهم من جنوب الجزيرة الى شمالها وتأسيس امارتهم والعلاقة التي ربطتهم بالامبراطورية البيزنطية ثم اشهر ملوكهم. وامارة الحيرة أو المناذرة واهم مميزات هذه الامارة وعلاقتها بالامبراطورية الفارسية ودارسة تشكيلها السكاني المتميز.

ويلي ذلك وصف الحالة الاقتصادية بالجزيرة العربية سواء التجارية أو الزراعة أو الصناعة. تم التعرض للحياة الاجتماعية ودراسة النظام القبلي أوأضاع القبيلة العربية وأملاكها واختصاصات رئيس القبيلة وأهم مميزاته وعاداتها وتقاليدها مثل الدعي والجوار والموالي وغير ذلك. ثم نحاول ان نتعرف، على النظام الطبقي للمجتمع ونحلل طبيعة هذه الطبقات مثل الرقيق والعبيد ثم الفقراء ثم الاشراف والاغنياء ثم طبقة رجال الدين، تم نستعرض الحياة الدينية وتطورها عند العرب قبل ظهور الاسلام وأهم آلهتهم.

أما الباب الثاني فعنوانه « الدعوة النبوية وتأسيس الدولة العربية » فقد تحدثت فيه عن مولد الرسول (ص) وشبابه واهم الاحداث التي عاصرها خلال تلك الفترة ثم زواجه وبداية الدعوة ومراحل هذه الدعوة من سرية وعلنية موضحا دوافع كل مرحلة وعداوة قريش والكفار للرسول (ص) والاسلام وكيف ان هذه العداوة كانت سلمية أولا بهدف اغراء الرسول (ص) عن التخلي عن دعوته أو تخلي حماته عن اجارته ثم عملية ترمي الى النيل من الرسول (ص) واتباعه بالاذى والمقاطعة وأخيرا تآمرية تهدف إلى التخلص نهائيا من الرسول (ص) ودعوته.

واوضحت مبايعة أهل يثرب الرسول (ص) والهجرة وتأسيس الدولة العربية بالمدينة سواء ببناء المسجد وتحديد القبلة والاتفاق على الاذان الى الصلاة أو بالمؤاخاة بين المهاجرين من مكة والانصار ,أهل يثرب من الاوس والخزرج الذين ناصروا الرسول (ص) ودينه، بالاضافة الى تنظيم الحياة الاجتماعية بالمدينة بين مختلف السكان من المسلمين ومن بقي مشركا من العرب ويهود بني قينقاع وقريظة والنضير، وتطور العلاقة بين الرسول (ص) وهؤلاء اليهود ومحاولة الرسول استمالتهم الى الاسلام والتساوي مع المسلمين في الحقوق والواجبات وتمردهم ونفاقهم وتحالفهم مع أعداء المسلمين مما أدى الى طردهم من المدينة.

ثم ننتقل الى الطور الثاني من الدعوة النبوية وهو الصراع بين المدينة ومكة وبداية مرحلة الاستطلاع وارسال السرايا لجس نبض قريش والتمهيد لشن الحملات النظامية المباشرة وبداية المواجهة الحربية بين المسلمين وقريش مكة فقط ووقوف بقية

القبائل العربية على الحياد أو العمل لحسابهم الخاص ثم تطور هذه المواجهة لتشمل قريش مكة وبقية القبائل العربية الوثنية وانتهاء هذا الطور باستيلاء المسلمين على مكة في 8 هـ/630م.

وقيام الرسول (ص) بتوحيد الجزيرة العربية فبدأ بغزوة حنين ثم حصار الطائف في نفس عام فتح مكة ثم غزوة تبوك في العام التالي، في (9هـ / 630 – 631م) وتتويج هذه الانتصارات بوفود القبائل من مختلف انحاء الجزيرة العربية للدخول في الاسلام وطاعة الرسول (ص) وحجة الوداع في 10هـ ووفاة الرسول (ص) في 13 ربيع الأول 11هـ/8 يونيه 633م.

أما الباب الثالث فعنوانه « الخلفاء الراشدون » وأولى الموضوعات التي درست الخلافة ومؤتمر السقيفة في 11هـ / 632م وصراع مختلف الاحزاب حول الخلافة والنتائج التي ترتبت على هذا الصراع مثل ارساء مبدأ الشورى والانتخاب المباشر لخليفة رسول الله عن طريق المبايعة والمصافحة كدليل على الرضا وتقدم الخليفة بخطاب يعلنه على الامة موضحا سياسته وأهدافها وثاني هذه الموضوعات، تناول حركة الردة وأسبابها ثم تطورها والقضاء عليها ونتائجها التي استمر اثرها حتى الان، الا وهو جمع القرآن الكريم من صدور الصحابة بعد موقعة اليمامة ومقتل الكثير منهم.

وثالث هذه الموضوعات الفتوحات الاسلامية في عصر الراشدين ودوافع هذه الفتوحات سواء كانت مباشرة مثل، الجهاد ونشر الاسلام، وأحوال البادية الاقتصادية والاجتماعية وأثرها في ظهور الغزو بين القبائل كركن من أركان البناء الاجتماعي القبائلي وتحريم الاسلام له وضرورة الاتجاه الى الخارج، والتفاوت في تقبل عامة العرب تعاليم الاسلام فالبعض تقبل روح هذه التعاليم ومبادئها والبعض الاخر تقبل هذه التعاليم دون التمثل لروحها وبالتالي اعتبر ولاءه للاسلام شكلي وأخيرا أصحاب الولاء الاجباري للاسلام من الاعراب فكانت الفتوحات الوسيلة لتحويل أصحاب المرتبة الثانية والثالثة الى المرتبة الاولى، ثم مناقشة الدوافع الاقتصادية للفتوحات الاسلامية وتفنيد آراء المستشرقين الذين جعلوا من هذه الدوافع السبب الاول والاخير للفتوحات الاسلامية.

أو دوافع غير مباشرة تدور حول دراسة كل من أوضاع الامبراطورية الفارسية والامبراطورية البيزنطية المتدهورة.

أما عن الفتوحات الاسلامية فقد تناولنا فتوح العراق وفارس وأوضحنا دور خالد ابن الوليد وسعد بن أبي وقاص في هذه الفتوح ثم تأسيس القواعد العسكرية في كل من

البصرة في 14 هـ والكوفة 17هـ . لتنطلق منهما الحملات الاسلامية لاخضاع فارس وما وراء النهر.

وكذا فتوح الشام ودور خالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان وعبيدة بن أبي الجراح وموقعة اليرموك وموت أبي بكر في جمادى الاولى 13 هـ/21 يوليه 634م. وتولية عمر بن الخطاب وعزل خالد ومناقشة أسباب عزل خالد ومغزاها. ثم اخضاع بيت المقدس وفلسطين وبلاد الجزيرة والاسباب التي دفعت المسلمين الى الزحف لغزو مصر وطرابلس وبرقة ودور عمرو بن العاص في هذه الفتوح.

والموضوع الرابع **تنظيم ادارة الدولة الاسلامية والمناطق المفتوحة** في عهد كل من أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب والاتفاق على لقب«أمير المؤمنين» واجلاءاليهود والنصارى من شبه الجزيرة العربية وأسبابه والمحافظة على الوحدة العرقية للقبائل العربية التي انتقلت الى الولايات المفتوحة عن طريق اقامة مدن خاصة بهم وعدم السماح لهم بالاشتغال بالزراعة وتملك الارض، واقرار النظم الادارية التي كانت مطبقة بفارس والعراق والشام ومصر ونظرا لكثرة الموارد المالية في الدولة الاسلامية، قرر عمر فرض العطاء لجميع المسلمين وارساء القاعدة الاولى في نظام القضاء الاسلامي والفصل بين السلطة التنفيذية والقضائية ثم الاتفاق على جعل هجرة الرسول (ص) الى مدينة يثرب بدء التاريخ الاسلامي.

والموضوع الخامس «**خلافة عثمان والفتنة**» اذ تناولنا اغتيال عمر وقصة الشورى وخلافة عثمان وأهم ما تميزت به فترة حكم عثمان الاولى من فتوحات خارجية وانشاء البحرية الاسلامية وتوزيع المصحف على الامصار للقضاء على الاختلافات في القراءات القرانية. ثم الاضطرابات في الفترة الثانية من حكمة ومناقشة ما اخذ على عثمان من تصرفات شخصية ومحاباة للاقارب والأسباب التي أدت الى ظهور الفتنة، مثل طريقة الشورى وما خلفته في نفوس البعض من اعتراضات وموقف زعماء قريش وأحوال أمصار الكوفة والبصرة والفسطاط وحركة السبئية وظهور المعارضة واغتيال الخليفة عثمان في 35هـ / 656م.

والموضوع السادس «خلافة علي بن أبي طالب والصراع على الخلافة» وموقف علي من مبايعة المسلمين لمن سبقه من الخلفاء والظروف الغير طبيعية التي تمت فيها مبايعته وظهور معارضة كل من أصحاب الجمل ومعاوية وأهل الشام ومبررات كل حزب من أحزاب المعارضة ونجاح علي في القضاء على معارضة الحزب الاول وفشله أمام الحزب الثاني

نتيجة للتحكيم وتخاذل أنصاره من أهل العراق مما أدى الى ظهور الخوارج كحزب معارض ثالث تمكن في النهاية من قتل علي في 40هـ / 661م.

أما الباب الرابع فعنوانه « الامويون 40 ـ 132هـ) وقد تناولت فيه قيام الدولة الاموية بعدتنازل الحسن بن علي بن أبي طالب عن الخلافة لمعاوية ثم صراع الامويين مع الخوارج واخضاعهم العراق وفارس بسبب اعتمادهم على أعوان مخلصين لهم مثل المغيرة بن شعبة الجهضمي وزياد بن أبيه الذي . نسبه معاوية الى أبيه أبي سفيان. وعمرو بن العاص الذي تولى امور مصر.

ثم تناولنا التعريف بحكام العصر الاموي وأهم اعمالهم واهتممنا بشكل خاص باعمال معاوية بن ابي سفيان كمؤسس للدولة الاموية ومنظم للدولة الاسلامية، مستكملا ما بداه الخليفة عمر بن الخطاب، في عصر الخلفاء الراشدين. ثم عالجنا مرحلة حكم ابنه يزيد وتعدد الثورات ضده بقيادة كل من الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير ووفاته وتولية ابنه معاوية بن يزيد الذي تنازل عن الحكم وترك الامر شورى بين عامة المسلمين مما أدى الـى موتـه مسمـومـا وبذلـك انتهت مرحلة الحكم السفيائي التي استمرت من 41 هـ الى 64 هـ وبدأت مرحلة الحكم المرواني والتي استمرت من 64 هـ الى 132 هـ وهي تنسب الى مروان بن الحكم الذي استولى على الحكم بعد مؤتمر الجابية وموقعة مرج راهط في64هـ/683م. وأهم خلفاء هذه الفترة عبد الملك بن مروان (65 ـ 68 هـ) المعروف «بأبي الخلفاء» اذ في عهده وعهد بنيه الاربعة الذين خلفوه بلغت الدولة الأموية اوج عزها ومجدها سواء بالنسبة للنواحي المعمارية او استكمال الفتوحات الاسلامية فقد وصلت الامبراطورية الاسلامية الى اقصى اتساعها في عصر هؤلاء الخلفاء. كما تميز عهد عمر ابن عبد العزيز (99 ـ 101 هـ) الخليفة التقي الورع برد المظالم عن عامة الناس، حتى استكانت المعارضة من الخوارج والشيعة في عصره، كما رفع الجزية عمن أسلم من شعوب البلاد المفتوحة من الفرس والنصارى والبربر، مما أدى الى انتشار الاسلام في خراسان والشام ومصر وبلاد المغرب.

ثم تناولت الفتوحات الاسلامية في عصر بني أمية، وأوضحت كيف ان معاوية ابن ابي سفيان ترك امور المشرق لولاة العراق، بينما اهتم هو بامر بلاد المغرب والحرب مع بيزنطة. وبدأت بفتوح افريقية والمغرب والاندلس . ثم دور الحجاج بن يوسف الثقفي أمير العراق والمشرق كله في وضع خطة فتح اقليم ما وراء النهر بمعرفة قائده قتيبة بن مسلم الباهلي في 86 هـ/705 م لمدة سبع سنوات وفتح بلاد السند، بمعرفة قائده محمد ابن

القاسم الثقفي في 89 هـ/707 م مما آدى الى الاصطدام بدولة الصين، اذ يروى ان الحجاج قد وعد كل من قائديه بامارة الصين لمن وصلها قبل الآخر.

وتطرقت بعد ذلك الى العلاقات مع الدولة البيزنطية وكيف كانت هذه العلاقات قبل الاسلام وبعده، وأوضحت تطور البحرية الإسلامية وبداية نشاطها كتمهيد للصدام العسكري البحري بين الدولة الأموية والبيزنطية الذي انتهى بمحاصرة العرب للقسطنطينية العاصمة البيزنطية الحصينة وأسباب فشل هذا الحصار، ثم اوضحت انه بالرغم من العلاقات الحربية بين الطرفين الا أنه كانت هناك علاقات تجارية بينهما وأن كانت ضئيلة.

وأخيرا تناولت كيفية تعريب الدواوين والنقود الى اللغة العربية في خراسان والعراق والشام ومصر ودور كل من عبد الملك بن مروان وأخيه عبد العزيز بن مروان والحجاج بن يوسف الثقفي في حركة التعريب.

والباب الخامس ويتناول المعارضة السياسية والدينية وسقوط الدولة الأموية والموضوع الأول الخوارج وكيف تطورت الى حزب معارض وشوكة في حلق معاوية بن ابي سفيان طوال فترة عهده، وفي جنب الأمويين من بعده، وأوضحت آراء الباحثين حول منابع أصول الخوارج ودوري كل من المغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه وابنه عبيد الله من بعده في العمل للقضاء على ثوراتهم، وتطورها بعد وفاة يزيد بن معاوية في 64 هـ بسبب الفوضى الشاملة وثورة عبد الله بن الزبير والصراع بين عنصري العرب، اليمنية والقيسية وانقسام حركة الخوارج الى أزارقة ونجدية وصفرية وأباضية وجهود الحجاج بن يوسف الثقفي في القضاء على ثوراتهم. وأسباب عدم نجاحها. مما ادى الى استئناف حركة الفتوحات الاسلامية في فترة حكم الوليد بن عبد الملك (86 ـ 96 هـ).

والموضوع الثاني، الشيعة من أهل الكوفة، أسباب تأييدهم لعلي بن أبي طالب ولأولاده من بعده وزعماء هذه الحركة مثل حجر بن عدي وتنكيل معاوية به وقتله والحسين بن علي بن ابي طالب وثورته في عهد يزيد بن معاوية ومقتله في 61 هـ بكربلاء وآثر استشهاده في حركة الشيعة، اذ نظر الى استشهاده على أنه أهم من استشهاد ابيه، لان اباه لم يكن ابن بنت النبي. ولذلك سرعان ما قاد سليمان بن صرد الخزاعي حركة الشيعة سرا للمطالبة بدم الحسين الشهيد وهي الحركة المعروفة «بالتوابين» وما ان هزموا حتى تزعم المختار بن ابي عبيد الثقفي الشيعة، وأوضحت

تباين نظر المؤرخين القدماء والمحدثين بشأن حركة المختار اذ كان ينعت بأنه ساحر او دجال وكذاب بينما اعتبره البعض الآخر انسان مخلص عمل على ازالة الفوارق الاجتماعية بين العرب والموالي مما ادى الى القضاء على حركته وقتله والزام الموالي حدودهم.

والموضوع الثالث معارضة الزبيريين وحاولت تتبع نشأة هذا الحزب بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان وأسباب تطلع عبد الله بن الزبير الى الخلافة واعتماده على قرابته الى زوجات الرسول وابي بكر الصديق مما دفعه الى الثورة، خصوصا بعد مقتل الحسين في كربلاء وتطور هذه الثورة حتى شملت معظم العالم الاسلامي في شبه الجزيرة العربية والعراق ومصر واستمرارها لمدة تسع سنوات خلال عهود اربعة خلفاء من بني امية الى ان تمكن عبد الملك بن مروان من القضاء عليها في 73 هـ. والاسباب التي ادت الى فشلها.

والموضوع الرابع هو سقوط الدولة العربية، وأوضحت ان هذا السقوط يرجع الى عوامل ستة، منها الصراع بين الامويين حول السلطة مما ادى الى ضعف الدولة الأموية واندلاع ثورات الخوارج وتطورها من مجموعات صغيرة في بداية العصر الأموي الى تجمعات كبرى في اواخر هذا العصر وشاركهم الشيعة في ذلك وازدادت الأمور سوءا باندلاع العصبية القبلية بين اليمنية والقيسية من جهة وبين العرب والموالي من جهة ثانية بسبب سياسة الأمويين المجحفة تجاههم مما دفع الموالى الى الانضمام الى كل ثورة تقوم ضد الأمويين بداية من الانضمام الى الخوارج والشيعة وفي النهاية الانضمام الى الدعوة العباسية مما ادى الى نهاية الدولة الأموية على ايدي العباسيين في 132 هـ.

والله أسال ان يوفقني لمتابعة البحث في تاريخ العرب والاسلام سواء في المشرق العربي او المغرب العربي. والله ولي التوفيق

مصطفى أبو ضيف أحمد

دراسة المصادر ومراجع البحث

القرآن والتفسير والحديث :

وأهم مصادر الدولة العربية، مصدرين هامين قائمين بذاتهما. الأول القرآن وهو كتاب المسلمين الديني، ظهر منذ أن كلف النبي بالدعوة، وقد تم جمعه في عهد أبي بكر الصديق، اذ لما كثر القتل في الصحابة يوم اليمامة خلال حروب الردة قال عمر لابي بكر : «ان القتل قد كثر واستحر بقراء القرآن يوم اليمامة، وإني اخشى ان يستحر القتل بالقراء فيذهب من القرآن كثير، وإني ارى ان تأمر بجمع القرآن، فأمر ابو بكر، زيد ابن ثابت فجمعه من الرقاع والعسب وصدور الرجال» وحفظت الصحف عند ابي بكر ثم عند عمر بن الخطاب، فلما توفي عمر حفظتها ابنته حفصة (1).

وفي عهد عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين (24 ـ 35 هـ/644ـ656 م لاحـظ ابو عبد الله حذيفة بن اليمان العبسي احد اصحاب رسول الله، خلال زيارته للشام والعراق «أناسا من أهل حمص يزعمون أن قراءتهم خير من قراءة غيرهم، وأنهم أخذوا القرآن عن المقداد. ورأيت أهل دمشق يقولون ان قراءتهم خير من قراءة غيرهم، ورأيت أهل الكوفة يقولون مثل ذلك وأنهم قرأوا على ابن مسعود، وأهل البصرة يقولون مثل ذلك وأنهم قرأوا على أبي موسى ويسمون مصحفه لباب القلوب...» حتى اقسم العبسي قائلا : « والله لئن عشت لاتين أمير المؤمنين، ولأشيرن عليه ان يحول بين الناس وبين ذلك».

وما أن علم عثمان حتى جمع الصحابة وأخبرهم بالأمر، فأعظموه فأرسل عثمان الى حفصة بنت عمر في طلب القرآن الذي جمع في أيام ابي بكر وشكلت لجنة من زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن ابن الحرث بن هشام، للقيام بكتابة نسخ اخرى من القرآن وتوزيعها على الامصار (2).

---

(1) ابن واضح : تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 135، ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء الزمان ج 3 ص 68، السيوطي : تاريخ الخلفاء ص 77.

(2) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 3 ص 111 ـ 112

والقرآن الذي يعتبر مصدرا رئيسيا لدراسة التاريخ الاسلامي منذ بدايته وحتى أيامنا هذه، على أساس أنه دستور الاسلام الذي ينظم الحياة العامة والخاصة لكل المسلمين ، مهم أيضا بالنسبة لدراسة العصور العربية السابقة على الاسلام.

ففيما يتعلق بديانات العرب ومعتقداتهم، في العصر الجاهلي، توجد الآيات الكثيرة التي تشير الى أصنام العرب وآلهتهم وطقوسهم الدينية، الى جانب عاداتهم، من وأد البنات وشرب الخمر ولعب الميسر، وغير ذلك.

هذا كما توجد آيات تشير الى معرفة العرب لعدد من الديانات القديمة، من سماوية مثل اليهودية والنصرانية والحنيفية، وغير سماوية مثل المجوسية والصائبية.

وفيما يتعلق بحياة العرب اليومية، هناك ذكر لنشاطاتهم الاقتصادية وعلاقاتهم التجارية، كما تشير الآيات الى سير قدامى الانبياء وشعوبهم، وفي هذا المجال ذكر لعدد من القبائل العربية القديمة التي لم يكن لها ،وجود عند ظهور الاسلام، مثل عاد وثمود ورام وغيرها، وبيان للظروف التي أدت الى فناء هذه الشعوب من تقلبات طبيعية شديدة او انهيارات للسدود (3).

وتظهر أهمية القرآن التاريخية (4) في أنه يبين تطور دعوة النبي (ص)، ويشير في مناسبات عديدة الى الدور الذي قام به الرسول (ص) في تكوين الدولة الاسلامية، بحيث ان كل سورة فيه تذكر بفترة معينة في حياته أو حادثه (5). وفوق ذلك تضمن القرآن معلومات هامة عن الجاهلية وأخبار دولها – أيدتهما الكشوف الأثرية الحديثة – بحيث نجد سورة على اسم مملكة في جنوب الجزيرة قبل الاسلام اسمها «سبأ» (6).

---

(3) سعد زغلول عبد الحميد : في تاريخ العرب قبل الاسلام ص 27 – 28 .

(4) لقد جمع القرآن على أساس تلاوة الرسول، وليس بحسب ترتيب السور التاريخي، واعتبارا من القرن الحادي عشر بدأ في ترجمة القرآن الى اللغات الاجنبية اللاتينية والانجليزية والفرنسية وغيرها. ولقد حاول بعض المستشرقين في ترجمتهم للقرآن ترتيب سوره ترتيبا تاريخيا حسب نزولها. أنظر عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ج 1 ص 18.

(5) هيكل : حياة محمد، القاهرة 1947 ص 18

(6) سورة 34 وهي مكية ماعدا آية رقم 6 فهي مدنية

ولكن لما بعـد المسلمون عن عهد النبي اصبحوا في حاجة ملحة الى توضيح ما يستغلق عليهم من معاني القرآن وتعابيره، مما كان سببا في ظهور علم «التفسير» بحيث ان الكتب التي الفت في هذا العلم تـلقي لنا ـ هي الأخرى -ضوءا سـاطعـــا على مضمونه وتفيد في السرد التاريخي (7).

والمصدر الثاني هو الحديث ويقصد :بهاقوال الرسول، (ص) وأفعاله التي نقلت عنه في مناسبات عديدة بالرواية الشفوية، أو من صحائف قديمة دونت فيها، ومن المعروف أن المسلمين الاوائل تجنبوا بأمر من الرسول تدوين الحديث كي لا يشغل المسلمون بشيء آخر غير كتاب الله. وقد ظل الحال على هذا الوضع معظم القرن الأول الهجري. غير ان هذه السياسة لم تمنع بعض المسلمين من كتابة بعض الاحاديث بصفة شخصية، وكانت النتيجة ان وضعت أحاديث نبوية لا يعرفها كبار الصحابة والتابعين. لهذا رأى الخليفة عمر بن عبد العزيز الأموي جمع وتدوين الأحاديث الصحاح. (8)

وهكذا ظهر مجموعة من العلماء، لتصنيف كتب الحديث امثال يحيى ابن زكريا بن أبي زائدة الوادعي (ت 184 هـ/700م) بالبصرة. وعبد الله بن محمد ابن ابي شيبة العبسي الكوفي (159هـ/235هـ / 775 ـ 849 م)، كان معلما بالرصافة. وقد فاق كل العلماء وسحب على مؤلفاتهم ذيل النسيان كتاب صحيح البخاري، وهو أبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة ابن يردوبة (وتعنى الفلاح او البستاني بالفارسية) من مدينةبخاري وأصله من الفرس (194 هـ 256 هـ/810 ـ 870 م) (9).

والحديث يعتبر من أصح المصادر في تاريخ القرنين الاولين في الاسلام، بسبب الدقة التي اتبعت في نقله. فقد كانت الاحاديث تروى عن طريق سلسلة

(7) انظر الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن 30 جزءا و السيوطي : كتاب الاتقان في علوم القرآن، عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ج 1 ص 18 ـ 19.

(8) احمد مختار العبادي : في التاريخ العباسي. والاندلسي ص 11

(9) ابن النديم : الفهرست ص 230، الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج 2 ص 4 ـ 34، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج 1 ص 576، ابن السبكي : طبقات الشافعية ج 2 ص 2 ـ 19، احمد أمين : ضحى الاسلام ج 2 ص 110 ـ 119، بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ج 3 ص 39، 163 ـ 164.

الحفاظ، أو ما يعرف بالسند أو الإسناد، حتى تصل الى النبي (ص) أو السلف الاول من الصحابة أو التابعين أو تابعي التابعين.

وقد استحدثت هذه الطريقة حتى يطمئن جامعو الحديث الى صحتها ويعرف الحديث باسم آخر هو «السنة» أي ما تعود عليه المسلمون، وان كان الشيعة يسمونه بالاخبار، حيث ان الأحاديث لا تنتقل عندهم بالسند من الحفاظ الموثوق بهم، وانما عن أئمة الشيعة وحدهم (10).

وعن طريق الحديث هذا انتشرت في العالم الاسلامي انواع من الثقافة عدة، فالتاريخ الاسلامي بدأ يشكل حديث كالذي ترى في كتب الحديث من مغاز وفضائل أشخاص وفضائل أمم ثم تطور التاريخ الى أن صار كتبا قائمة بنفسها، والدليل على ذلك أن كتب التاريخ الاولى كسيرة ابن اسحق وما يرويه الطبري في تاريخه والبلاذري في فتوح البلدان، يكاد يكون نمطها وأسلوبها، نمط حديث وأسلوب حديث (11).

كتب السيرة والمغازي والتاريخ العام :

أول من صنف كتابا في غزوات الرسول (ص) هو إمام المغازي موسى بن عقبة ابن ابي العباس الأسدي، مولى بني الزبير بن العوام بالمدينة، الذي قضى القسم الأكبر من حياته في زمن خلافة بني امية وتوفي بسنة 141هـ/758 م. (12)

وسلك طريقه موسى بن عقبة، ابو عبد الله محمد بن اسحاق بن يسار.. كان جد ابن اسحاق عراقيا وقع مع آخرين من بني وطنه أسيرا لملك العجم في النقيرة عند عين التمر. وبعد الفتح كان مع من سباهم خالد بن الوليد بعين التمر، فقدم المدينة اسيرا سنة 12 هـ الى أن اعتقه آل قيس بن مخرمه.

ولد محمد بن اسحاق في حدود سنة 85 هـ/704 م، وأقبل على دراسة الحديث وروايته، واختتم هذه الدراسة في مصر سنة 115 هـ/733 م ثم عاد الى المدينة موطنه، فتمم بها كتابه في سيرة النبي (ص).

---

(10) عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ج 1 ص 19 ـ 20
(11) احمد أمين : فجر الاسلام ص 233.
(12) الذهبي : تذكرة الحفاظ ج 1 ص 132 بروكلمان: تاريخ الأدب العربي ج 3 ص 10.

ومن ثم كان كتابه هذا مسندا كله الى حديث اهل المدينة. وبهذا الكتاب لقي ابن اسحاق معارضة مالك بن انس، لعنايته بغير حديث الفقه والكلام، كما رماه مالك بالقدر والتشيع. ولهذا اضطر ابن اسحاق ان يهاجر الى العراق سنة 132 هـ / 749 م ، وقدم نسخة من كتابه الى الخليفة المنصور في مدينة الهاشمية. ثم زار ولي عهده المهدي بالري، وأخيرا نزل ببغداد. الى ان توفي بها سنة 150 أو 151 هـ/767 أو 768 م (13).

وينقسم كتاب محمد بن اسحاق الى ثلاثة اقسام :

1 ـ كتاب المبتدأ (أو المبدأ) وقصص الانبياء التى لم يستفد منها ابن هشام الى اول نسب النبي (ص) منذ ابراهيم، ولكن احتفظ بنقول كثيرة منها كل من الطبري في تاريخه وتفسيره والأزرقي. في كتابه اخبار (أو تاريخ) مكة المشرفة، والمطهر بن طاهر (الملقب بالبلخي).

2 ، 3 ـ كتاب سيرة رسول الله والمغازي (أو كتاب المبعث والمغازي) وقد بقي لنا أكثره ـ عدا رواية ابن هشام ـ في ما نقله الطبري.

أما رواية يونس بن بكير (ت 199/814م) لكتاب ابن اسحاق فقد قام بنشرها سهيل زكار في 1978 م عن مخطوطة مكتبة القرويين بفاس رقم 727.

وقد اتهمه هشام بن عروة عالم المدينة بالكذب لانه كان يروي عن زوجته فاطمة بنت المنذر بن الزبير، وكان هشام بن عروة ينكر سماع ابن اسحاق لها ويقول : اهو كان يدخل على امرأتي ؟

كما طعن محمد بن سلام الجمحي في طبقات الشعراء في ابن اسحاق وحمله كل غثاء من الشعر فأجاب : لا علم لي بالشعر وإنما أوتي به فأحمله. (14).

ويبدو ان ابن اسحاق، كان قد صنف السيرة أو جزءا منها قبل مغادرة المدينة، وعندما نزل بالكوفة حدث عنه كوفيون كثيرون، ثم انتقل الى بغداد بعد

---

(13) ابن قتيبة : المعارف ص 247 ابن النديم : الفهرست ص 92، الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد جـ 1 ص 214 ـ 234، أحمد أمين : ضحى الاسلام جـ 2 ص 328 ـ 333، بروكلمان : تاريخ الادب العربي جـ 3 ص 10، 11.

(14) ابن اسحاق : كتاب السير والمغازي ص 10، بروكلمان : تاريخ الأدب العربي جـ 3 ص 11 ـ 12.

بناء المدينة فحدث عنه بها آخرون. وبالتالي يمكن القول بوجود ثلاث «نسخ من السيرة» تلك الاولى من العهد المدني برواية يونس بن بكير 199 هـ/814م في الغالب. والثانية من العهد الكوفي برواية زياد بن عبد الله البكائي 183 هـ/799 م. والثالثة من العهد البغدادي، برواية محمد بن سلمة الحراني 191 هـ/807 م.

وفي الوقت الذي توفرت بعض اجزاء من رواية كل من يونس بن بكير ذات الطابع الشيعي الشديد، ورواية محمد بن سلمة الحراني، ذات الميول العباسية. فلم تصل الينا رواية البكائي .في شكلها الأول حتى يمكن دراستها. اذ نالها التعديل والاختصار على يد ابن هشام (15).

وتتجلى عبقرية ابن اسحاق وتفوقه على الذين سبقوه في ترتيبه لكتابه بشكل فيه منطق ونظام، وترتيبه هذا وان جاء غير مثالي تماما، يكفي صاحبه فخرا الابداع، والدنو من درجة الكمال.

ومادة ابن اسحاق غنية للغاية تكاد تكون حاوية لجميع ما تجمع لدى العرب المسلمين من أخبار، وهذه فضيلة لابن اسحاق سبق بها وقد صنف من بعده قوم آخرون في نفس الموضوع فلم يبلغوا مبلغه، ومادة ابن اسحاق، رغم المآخذ ، كبيرة الفائدة اعتمدها غالبية الذين كتبوا أو اهتموا بسيرة النبي بعده، وكانت دائما موضع دراسة وعناية.

ويقول في هذا الصدد ابن عدى في كتابه «الكامل» : «ولو لم يكن لابن اسحاق من الفضل الا أنه صرف الملوك عن كتب لا يحصل منها علم، وصرف أشغالهم حتى اشتغلوا بمغازي رسول الله (ص)، ومبتدأ الخلق، ومبعث النبي (ص) فهذه فضيلة لابن اسحاق سبق بها، ثم بعده صنفه قوم آخرون، ولم يبلغوا مبلغ ابن اسحاق ولا عمله، وقد فتشت أحاديثه الكثيرة ، فلم أجد في احاديثه ما يتهيأ ان يقطع عليه بالضعف، وربما اخطأ، أو وهم في الشيء بعد الشيء كما يخطئ غيره، ولم يتخلف عنه في الرواية عند الثقات والائمة، وهو لا بأس به» (16).

---

(15) عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي (ت 581 هـ/1185 م) : الروض الانف الباسم ج 1 ص 7، ج 3 ص 106، سهيل زكار : مقدمة كتاب السير والمغازي لابن اسحاق ص 13 ــ 14.

(16) ابن اسحاق : كتاب السير والمغازي. مقدمة المحقق سهيل زكار ص 17 ــ 18.

وبلغت مغازي محمد بن اسحاق من الشهرة، وانشغال الناس بها ، أن قـام أبو عصمة نوح بن ابي مريم بوضع احاديث في فضائل القرآن سورة، سورة، فلما سئل من اين هذه الاحاديث، قال : رأيت اشتغال الناس بفقه ابي حنيفة، ومغازي محمد بن اسحاق، واعرضوا عن حفظ القرآن، فوضعت هذه الاحاديث حسبة لله تعالى (17) .

وأشهر الروايات لسيرة ابن اسحاق، هي رواية ابي محمد عبد الملك بن هشام ابن أيوب الحميري البصري، التي قرأها في الكوفة على زياد بن عبد الله.

ويروي السهيلي صاحب «الروض الأنف» انه كان مشهورا بحمل العلم، متقدما في علم النسب والنحو، وهو حميري معافري بصري الأصل، مصري المنشأ والوفاة، وأنه توفي في 213هـ، بينما يضيف ابن خلكان نقلا عن ابن يونس صاحب تاريخ مصر انه توفي في 13 من ربيع الآخر سنة 218 هـ/1 من مايو 834 م (18).

ولقد اعتمد ابن هشام على رواية البكائي لسيرة ابن اسحاق وقام بتهذيبها موضحا خطته في القيام بعمله هذا فهو «تارك بعض ما ذكره ابن اسحاق في هذا الكتاب مما ليس لرسول الله (ص) فيه ذكر، ولا نزل فيه من القرآن شيء، وليس سببا لشيء من هذا الكتاب ولا تفسيرا له ولا شاهدا عليه لما ذكرت من الاختصار، وأشعار اذكرها لم أر احدا من أهل العلم بالشعر يعرفها، وأشياء بعضها يشنع الحديث به وبعض يسوء بعض الناس ذكره، وبعض لم يقر لنا البكائي بروايته، ومستقص — ان شاء الله تعالى — ما سوى ذلك منه بمبلغ الرواية له، والعلم به» (19).

ومما يؤسف له قيام ابن هشام بخذف الكثير من مادة ابن اسحاق التي اعتبرها غير ضرورية، والى تعديل البعض الآخر ليكسبها قبولا أو وضوحا، رأى انها تفتقر اليهما.

ولاشك ان تعديلاته وشروحه هذه تأثرت ببيئته الثقافية وطبيعة العصر الذي عاش فيه، هذا وإن يكن جيله هو الجيل التالي لجيل ابن اسحاق.

---

(17) أنظر شرح مسلم جـ 2 ص 125، أحمد أمين : فجر الاسلام ص 214، 215.

(18) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ 1 ص 290، السهيلي. الروض الانف جـ 1 ص 7. بروكلمان : تاريخ الأدب العربي جـ 3 ص 12.

(19) سيرة ابن هشام تحقيق مصطفى السقا وآخرون جـ 1 ص 4.

كانت اهتمامات ابن هشام اهتمامات لغوية. وقد اثر ذلك تأثيرا كبيرا على طريقته في اختيار الاخبار وفي ايرادها . وقد ذهبت بعض اهتمامات ابن اسحاق التاريخية والاخبارية ضحية دقة ابن هشام اللغوية (20) .

ابو عبد الله محمد بن عمر الواقدي (130 ـ 207 هـ/747 ـ 823م) ولد في المدينة، وكان من الحناطين (بائعي الحنطة)، ففسدت تجارته وثقل عليه الدين، وكان الخليفة هارون الرشيد قد حج مع وزيره يحيى بن خالد البرمكي، فورد المدينة، فأراد رجلا عارفا بالمدينة والمشاهد، فدله الناس على الواقدي، فأزارهما كل المشاهد، وعجب منه هارون الرشيد وأمر له بعشرة آلاف درهم وقال له : نحن على الرحلة اليوم، ولا عليك ان تلقانا حيث كنا، واستقرت بنا الدار ان شاء الله. فقضى الواقدي دينة واتسع. ولكن الدهر عضه بعد ذلك، فأشارت زوجته عليه ان يرحل الى العراق ويلقى الوزير، فأتى بابه بالرقة، فأعطاه وأدنى مجلسه، وجعله قاضيا في الجانب الشرقي من بغداد، ثم نقله المأمون الى معسكر المهدي، وهي محلة بغداد التي عرفت بعده بالرصافة ومات بها. وكان الواقدي شيعيا، ولكنه انكر التشيع تقية في مصنفاته.

وأهم مصنفاته «كتاب المغازي» برواية ابن عمر بن العباس بن محمد ابن خالوية المكي في القرن الرابع الهجري، نشر قطعة منه كريمر A. Kremer في 1850 م. وهناك كتب كثيرة في الفتوح نسبت الى الواقدي، وكثر انتشارها خصوصا في أيام الحروب الصليبية لبث الشجاعة والحمية في نفوس المجاهدين (21)، منها فتوح الشام وقد نشر في جزئين بدار الجيل ببيروت. ومنها فتوح مصر، نشر في كلكتا 1277 هـ، وفتوح أرمينية وبلاد ما بين النهرين، نشر وتُرجم Niebuhr و Ewald في جوتنجن 1827/1847 ، فتوح البهنسا ونُشر بالقاهرة عدة مرات آخرها سنة 1311 هـ.، فتوح افريقية ونشر بتونس 1315 هـ، فتوح العجم والعراق، وفتوح الاسلام ببلاد العجم وخراسان (22) .

---

(20) راجع عبد العزيز الدوري : علم التاريخ عند العرب ص 27 ـ 28

(21) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج 5 ص 314 ـ 321، ابن قتيبة : المعارف ص 176، بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ج 3 ص 15 ـ 17.

(22) بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ج 3 ص 18 ـ 19.

وكان ابو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الزهري تلميذ الواقدي ومساعده، فلقب من أجل ذلك، كاتب الواقدي. وتوفي ابن سعد في بغداد سنة 230 هـ/845م.

وله كتاب الطبقات الكبير. وهو يحتوي على سيرة مطولة للرسول (ص)، وعلى تراجم مقسمة الى طبقات مختلفة للصحابة والتابعين وتابعي التابعين الى سنة 230 هـ (23).

خليفة بن خياط الليثي العصفري البصري (ت 240هـ/854م) المعروف بشباب، يكنى ابا عمر. عالم ومؤرخ ثقة.

ويرجح أن خليفة لم ينهد الى رحلة، او لم يكن واسع الرحلة على أقل تقدير انما اقتصر في التلقي على علماء البصرة بلده. ولعله لم يدخل بغداد قط اذ لم نجد له ذكرا عند الخطيب البغدادي في تاريخه.

وهو من بيت علم وحديث ينحدر من الجد الى الاب فالحفيد درس على شيوخ كثيرين مثل يزيد بن زريع من ثقات اهل البصرة مع ميول عثمانية. ولكنه عانى الكثير من العنت بسبب عدائه للمعتزلة في عصر المأمون، كما عانى الكثير من الحسد بسبب سعة علمه وثقته.

ومن يستعرض تاريخ خليفة وطبقاته يلحظ ان معظم الذين نقل خليفة عنهم من رجال البصرة، مما يؤكد انه لم يرحل في طلب العلم. بل قضى حياته في البصرة وتوفي عن عمر يناهز ثمانين سنة (24).

يذكر ابن النديم ان خليفة صنف أربعة كتب :

1 ـ كتاب التاريخ. 2 ـ طبقات القراء

---

(23) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج 5 ص 321 ـ 322، ابن تغرى بردي : النجوم الزاهرة ج 2 ص 258.

(24) أنظر ابن سعد : الطبقات الكبرى ج 7 ص 289، السمعاني : كتاب الانساب ورقة 392ب. الذهبي : : تذكرة الحفاظ ج 2 ص 23.

3 ـ تاريخ الزمني والمرضى والعميان.

4 ـ كتاب أجزاء القرآن واعشاره وأسباعه وآياته (25).

ولم يبق منهم غير كتابان، الأول: تاريخ خليفة بن خياط (26) وهو أقدم كتاب حولي ينشر حتى الان باللغة العربية، وأهم وثيقة متميزة تتحدث عن اثنين وثلاثين ومائتي سنة من تاريخ الاسلام، منذ هجر النبي (ص) دار الشرك الى دار الايمان حتى ثماني سنوات سبقت وفاة المؤلف.

وقد بدأ بحديث عن وضع التاريخ وميلاد الرسول (ص)، ثم اخذ يسوق أخبار كل سنة على حدة ابتداء من السنة الاولى للهجرة باسطا ما جرى فيها من احداث ومغاز وثورات، حتى اذا فرغ من ذلك ذكر من ادركتهم الوفاة في تلك السنة. واذا مـــا استوفى الحديث عن عهد خليفة من الخلفاء اتبع ذلك، فذكر من ولوا كل اقليم من أقاليم الدولة على عهده، ثم من ولوا القضاء في الامصار ولاسيما في المدينة ومكة والبصرة والكوفة، وقد يذكر احيانا من ولوا في الشام، ويصل ذلك بذكر من تولوا حجابة الخليفة، والشرطة، والكتابة، وبيوت المال، والخاتم، والبريد، ثم يسوق اسماء الرسل (السفراء). وهو يتسع في ذلك كله اتساعا لا نصيبه عند غيره من المؤرخين.

هكذا يقدم لنا خليفة الاساس الاول لدراسة تاريخ الادارة والقضاء في الدولة الاسلامية في قرونها الاولى، كما يقدم لنا احصاءات لا نجدها عند غيره، اذ عقب حديثه عن كل معركة كبيرة هامة مثل بدر وأحد والحرة، يذكر لنا اسماء من لقوا حتفهم في هذه المعارك.

ويعتمد ابن الخياط على مجموعة من اوثق الائمة في الحديث والاثار مثل الوليد بن هشام، ويزيد بن زريع، وابي يقظان واسماعيل بن علية وغندر محمد بن جعفر، والمدائني.

---

(25) ابن النديم: الفهرست ص 232.

(26) هناك طبعتان لكل من كتاب التاريخ وكتاب الطبقات لخليفة بن خياط الاولى من تحقيق سهيل زكار، صدرت في دمشق 1966 ـ 1967. والثانية، تحقيق اكرم ضياء العمري، صدرت في النجف وبغداد 1967 وتتميز الثانية بدراسة مطولة نقدية لكتابي خليفة، ذات فائدة كبرى.

ويلاحظ ان خليفة بن الخياط قد أولى اخبار الدولة الاموية عناية خاصة، بينما يسرد اخبار بني العباس التى عاصر قسما كبيرا منها سردا سريعا ودونما عناية ،مما يفسر ان المؤلف بصري الموطن وذو ميول عثمانية.

وهذه الأمور التي انفرد بها خليفة منهجا وعرضا تجعل من تاريخه مصدرا هاما لدراسة الدولةالعربية (27).

والثاني كتاب الطبقات فهو في علم الرجال ، وابن الخياط يكشف عن علم واسع بالانساب ولكنه يضيف اليها الاخبار . وقد رتب كتابه على ثلاثة اسس : التنظيم على النسب وعلى الطبقات وعلى المدن. وقد اتبعت كتب الطبقات فيما بعد هذه الاسس مجتمعة أو منفردة في تنظيم مادتها.

وابن الخياط مع ابن سعد هما اقدم من وضعا أسس علم الانساب من المصنفين، اذ كانا متعاصرين.

وقد قسم ابن خياط رجال الطبقات على أمصارهم. وتأتي المدينة في الطليعة لوفرة علمائها . وكلما قل العلماء نزلت منزلة البلد. لهذا تأتي الكوفة بعد المدينة ثم البصرة ثم المدن الاخرى.

وقد اخذ الكثيرون عن ابن الخياط، فثقته لدى المحدثين جعلته مصدرا للبخاري ولاحمد بن حنبل والطبري وابن سعد.

ويغطي خليفةفي طبقاته نسب كل شخص من جهة ابيه وامه، كما يذكر محل اقامته ورحلاته وأسفاره وتاريخ وفاته ومشاركته في الفتوحات والحملات اضافة الى المناصب الادارية التي تقلدها وخاصة اذا كان قاضيا او واليا (28).

أبو العباس (ويكنى أيضا : ابا بكر، وأبا الحسن، وأبا جعفر) احمد بن يحيى بن جابر البلاذري، وسبب نسبته الى البلاذري، يذكر

---

(27) أنظر تاريخ خليفة بن خياط مقدمة سهيل زكار بنسخة دمشق ، مقدمة صالح أحمد العلي بنسخة بغداد ص 11.

(28) أنظر مقدمة اكرم ضياء العمري لطبقات خليفة بن خياط ص 22 (النجف)، شاكر مصطفى :التاريخ العربي والمؤرخون ج 1 ص 236.

فستنفلد، انه تسمم مرة بالبلاذر بينما يعارضه بروكلمان ان جده جابر هو الذي انتسب الى البلاذر وهو المعروف في اللاتينية باسم Atrops belladonna والذي يستعمل في مراكش لتقوية الذاكرة. ويقول الجاحظ في كتاب الحيوان ج 5 ص 156، ابن البلاذر يؤخذ لتقوية العصب.

كان جده جابر، كاتب الخصيب والي مصر، وهو فارسي الاصل وكان ابو العباس احمد بن يحيى ينادم الخليفتين المتوكل والمستعين العباسيين، وعمل مؤدبا لعبد الله بن المعتز وتوفي في 297 هـ/892 م (29).

وأولى مؤلفاته كتاب فتوح البلدان (الصغير) ونشر هذا الكتاب عدة مرات، كما ترجم الى عدة لغات . ويذكر المستشرق دي جويه، كما ان البلاذري قد عرف له قدره معاصروه ومواطنوه، فلا يسع المؤرخون الا الاقرار له بالجميل. اذ يؤخذ من كثير من مروياته في مؤلفه انه لم يقصر قط في جعل هذه المرويات محلا للثقة، جديرة بالتصديق، فانه لم يكتف بسماعه إياها من اوثق علماء بغداد، بل كان يتكبد الاسفار، ويجوب البحار، بحثا عن الحقيقة التي هي ضالته المنشودة.

أما تاريخ الاقاليم والاقطار التي فتحها العرب فقد اتى على ذكره بطريق الايجاز، ونحن لا يسعنا ان نوجه الى المؤلف ادنى لوم على ذلك، اذ لم يكن كتابه هذا الا ملخصا عن الاصل الذي لم يتمه، وربما كان بسط فيه الكلام على جميع الموضوعات التى اختصرها في هذا الكتاب، ودليل ذلك انه يبدو ان ابن خلكان قد استفاد منه في كتابه وفيات الاعيان (30).

ويقيم المسعودي الجغرافي (ت 345 هـ/956م) الكتاب بقوله : «لا يعلم في فتوح البلدان احسن منه» (31).

ويزودنا البلاذري في فتوح البلدان بمعلومات هامة تتعلق بالنواحي الادارية للاقطار المفتوحة متناولا مسائل عديدة مثل الضرائب واستعمال اللغة العربية، لغة

---

(29) الجاحظ : كتاب الحيوان ج 5 ص 156، ابن عساكر : تاريخ دمشق ج 2 ص 109، الجهشياري : الوزراء ص 323 ؛ بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ج 3 ص 43.

(30) أنظر البلاذري : فتوح البلدان ص 10 ــ 11 . ومقدمة فستنفلد لكتاب ابن خلكان، وفيات الأعيان ص 127 وما بعدها.

(31) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ج 1 ص 22.

رسمية في الامبراطورية وضرب النقود العربية. وبالاضافة الى ذلك فان الكتاب يحتوي على معلومات تاريخية مبعثرة،اذا ما أخذت سويا مع المعلومات المتعلقة بالنواحي الادارية لاعطت صورة اكثر اكتمالا وتماسكا (31 م).

وثاني مؤلفات البلاذري،أنساب الاشراف،وهو يتناول انساب العرب ويشرحها ويتناول الاخبار ويستقصي في ذلك ، فهو من جهة يعد كتاب انساب ، ومن جهة اخرى يعد كتاب أخبار أو تاريخ.

ويوجد الكتاب كاملا بمكتبة عاشر أفندي (الاستانة) بتركيا تحت ارقام 557 ـ 598، وقد قامت دار الكتب بالقاهرة بتصويره في اثنى عشر جزءاً في 2454 صفحة. ونشر من الكتاب الاجزاء التالية :

1 ـ الجزء الأول، تحقيق محمد حميد الله، دار المعارف بالقاهرة 1959.

2 ـ قام Della Vida بنشر القسم الخاص بمعاوية مترجما الى الايطالية في رومه 1938 م.

3 ـ قام الشيخ محمد باقر المحموديبنشر الجزء الثالث والذي يبتدئ بترجمته الحسن بن على بن ابي طالب عليهما السلام. وينتهي بترجمة محمد بن الحنفية، بدار المعارف ببيروت 1977 م .

4 ـ ونشر Schloessinger الجزء الرابع منه في القدس 1938 م.

5 ـ ونشر Goitein الجزء الخامس منه في القدس 1936 م.

6 ـ ونشر آلورد Ahlwardt الجزء الحادي عشر في جرايفسفلد في 1883 م. (32).

وما زال بقية الكتاب مخطوطا ينتظر جهود الباحثين والمحققين للانتفاع بما يحتويه من معلومات جديدة وروايات تضيف الكثير الى ما كتب عن الدولة الاموية والخلافة العباسية.

(31م) عبد الامير عبد حسين دكسن : الخلافة الاموية ص 12

(32) راجع البلاذري : أنساب الاشراف، ج 1 ص 23 وما بعدها، ج 3 ص 5، 296، بروكلمان : تاريخ الادب العربي ج 3 ص 44.

وكتاب انساب الاشراف، مصدر غني، وثمين لتاريخ العصر الاموي، اذ ان اكثر من ثلث المخطوط، مخصص للتاريخ الاموي، منها صفحات عديدة للخلفاء الامويين وأبرز رجالهم . على سبيل المثال فقد ترجم لابي بكر في 20 صفحة، ولعمر بن الخطاب في 72 صفحة وعلى بن أبي طالب وبنيه في 300 صفحة ولمعاوية بن ابي سفيان في 122 صفحة ولعبد الملك في 130 ورقة والحجاج بن يوسف الثقفي في 40 ورقة.

وبالرغم من طول الفصول، فهي تتميز بنوعية ما تحويه من معلومات تاريخية فان البلاذري احد المؤرخين القلائل الذين تناولوا تاريخ الدولة الاموية، بصورة موضوعية.

ومع ان الكتاب خاص بالعرب، فاننا نجده عند ذكر الخلفاء سواء كانوا أمويين أو عباسيين، يتناول من كان في عهدهم من رجلات وثائرين ولو لم يكونوا عربا.

وقد عنى البلاذري بذكر الخوراج عناية كبرى فلم يترك خليفة امويا يترجم له الا بعد ان يعنون بما يأتي «الخوارج في عهده» (33).

ورواة البلاذري الاساسيينهم : هشام بن محمد الكلبي وابنه عباس بن هشام والمدائني وابو مخنف وعوانه بن الحكم والواقدي.

وهشام بن محمد الكلبي (ت 204 هـ/819 م أو 206 هـ) وهو ابن محمد بن السائب الكلبي ت 146 هـ/ 763 م الذي شارك في محاربة الحجاج الى جانب عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث، فخاض معه موقعة دير الجماجم سنة 82هـ/701 م. وقد الف كتابا في تفسير القرآن، ولكنه كان يميل على وجه الخصوص الى جمع الاخبار عن انساب العرب القدماء وتاريخهم.

أما ابنه هشام بن محمد الكلبي فقد ولد بالكوفة، وسكن بغداد زمانا واقتفى خطوات ابيه وسار على أثره، وحاول ان يتم ما جمعه بالبحث والتنقيب في الآثار التي كانت ولاتزال باقية بكنائس الحيرة، ليستكمل بذلك تاريخ اللخميين ومشاهدهم، وصنف ما وصل اليه من ذلك.

---

(33) انظر انساب الأشراف جـ 1 ص 26 ـ 28، 36، جـ 5 ص 188 ـ 379، 204 ـ 269.

وكان هذا المنهج غير المألوف في البحث حينئذ سببا في اثارة التهم وتوجيه المطاعن اليه من قبل المعاصرين له. وعلى الرغم من ذلك فقد تحمس له البعض وأشاد بآرائه.اذ يقول ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان عنه «لله دره ما تنازع العلماء في شيء من امور العرب الا وكان قوله اقوى حجة، وهو مع ذلك مظلوم وبالقوارض مكلوم» . واكد البحث العلمي الحديث، كثيرا من اقواله التي وجه اليها معاصروه التشكك المريب، والنقد اللاذع حتى وصموه بالكذب.

ويدل كتاب الاصنام الذي وصل الينا من مؤلفات هشام بن محمد الكلبي، على سعة اطلاعه على أخبار ما قبل الاسلام، ومعرفته التى لا تحد بأحوال العرب في الجاهلية. ويعرف الكتاب بكل ما كان يعبده العرب في تلك العصور القديمة من الاحجار والانصاب والاوثان الى جانب بيوت العبادة المعظمة عند العرب، كالكعبة، وكعبة نجران، ورئام، وهو يعرف بطقوس العبادة من الاهلال، وتقديم الذبائح والقرابين، والشعائر الخاصة بالحج القديم. ويعرف ايضا باليهودية والنصرانية بين العرب، وبقايا ديانة ابراهيم واسماعيل مما عرف بالحنيفية (34).

وقد روى ان هشام بن محمد نال حظوة الخليفة المهدي بما اشاعه من مثالب الامويين التي استخدمها الخليفة في الرد على كتاب أرسله الامويون بالاندلس في هجاء العباسيين (35).

أما المدائني (135 ـ 243 هـ/753 ـ 849 م)، فيروى أنه عاش زمنا قليلا في المدائن، ولكنه قضى أكثر حياته في البصرة وبغداد. وكانت وفاته ببغداد في منزل اسحاق بن ابراهيم الموصلي، وكان المدائني منقطعا اليه.

وكان المدائني، غزير الانتاج، حتى ذكر له ابن النديم في الفهرست 239 مصنفا بين كتاب ورسالة، في سيرة النبي عامة، وبعض آثاره بوجه خاص، وفي

(34) سعد زغلول عبد الحميد : في تاريخ العرب قبل الاسلام ص 44

(35) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج 6 ص 249، الطبري : تاريخ الامم والملوك ج 2 ص 13، 14، الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج 14 45 ـ 46 ياقوت الحموي : معجم البلدان ج 2 ص 158، احمد امين : ضحى الاسلام ج 2 ص 27، بروكلمان : تاريخ الادب العربي ج 3 ص 30 ـ 31.

تاريخ قريش وبعض القبائل والاشخاص، وتاريخ الخلفاء وبعض المعارك والابطال. ونقل عنه كثيرا من كتابي المغازي وتاريخ الخلفاء كل من البلاذري والطبري وياقوت الحموي. ولم يبق من كتبه سوى الجزأين الاول والثاني من كتاب المغازي بالمكتبة الظاهرية بدمشق (36).

وأما أبو مخنف لوط بن يحيى (ت 175 هـ/774 م) فقد بدأ في عصر بني امية بتأليف كتب مفردة في بعض الاحداث التي وقعت في تاريخ الاسلام وتأثر به كثير من المتأخرين في العصر العباسي ومنهم البلاذري الذي نقل عنه عن طريق هشام بن محمد الكلبي وابنه عباس (37).

وكل مانعرفه عنه أنه ولد بالكوفة وأنه تخصص في جمع اخبار الدولة العربية، من فتوح وحوادث. وقد ضاعت معظم كتب ابي مخنف، ويذكر ابن النديم لابي مخنف 35 كتابا من مصنفاته وينسب اليه «كتاب مقتل الحسين بن على عليه السلام» و «رسالة اخذ الثأر وانتصار المختار على الطغاة الفجار» ويدلان على أن ابا مخنف كان من الشيعة المتحمسين للعلويين وقد قام محمد الشيرازي بنشر الكتابين ببومباي 1361 هـ (38).

أبو حنيفة أحمد بن داود بن ونند (ومعناه الكاسب) الدينوري (ت 282 هـ/895م). وتميز الدينوري بتعدد نواحي العلم واتساع معارفه وكثرة تصانيفه وهو اعجمي الأصل بدلالة اسم جده.

نبغ في علوم النحو والعربية وتتلمذ على استاذه الكوفي ابن السكيت، واهتم ايضا بعلوم الحساب والنجوم والجغرافية فوسع بكل ذلك دائرة ثقافته وعلمه، الذي سوف ينعكس في كتابه التاريخي الاخبار الطوال.

---

(36) ابن النديم : الفهرست ص 101، الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج 12 ص 54 ـ 55، بروكلمان: تاريخ الأدب العربي ج 3 ص 38 ـ 39.

(37) بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ج 3 ص 36.

(38) ابن النديم : الفهرست ص 93، عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ج 1 ص 26. بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ج 1 ص 253 ـ 254.

ويفتح ابو حنيفة كتاب الأخبار بنبذة موجزة في التاريخ القديم، يبرز فيها تاريخ الاسكندر والفرس، ثم يتحدث باسهاب عن تاريخ الساسانيين، وينتقل من ذلك الى فتح العراق مع وصف نابض بالحياة لمعركة القادسية، كما يتعرض بتفصيل للحروب بين على ومعاوية، وبينه وبن الخوارج، ولا يتوسع في تاريخ الامويين الا عند مقتل الحسين وثورات الازارقة والمختار بن ابي عبيد ، ويختتم الكتاب بلمحة موجزة الى الخلفاء من عبد الملك بن مروان الى المعتصم، فلا يطيل في شيء من ذلك ما عدا كلامه عن سقوط الامويين واضطرابات العلويين خصوصا في خراسان (39) .

ويلاحظ ان الدينوري يبالغ في دور الموالي في ثورة المختار الى الحد الذي يجعله يفسر الصراع بين مصعب بن الزبير والمختار وكأنه صراع بين العرب والفرس. وان اتجاهه هذا المؤيد للموالي ربما كان ناتجا عن أصله الفارسي او الى المصادر التي استفاد منها كانت في غالبها فارسية. ورغم ذلك فان بعض ما اورده له قيمة تاريخية كما جاء على سبيل المثال في رواياته عن ثورة عمرو بن سعيد ابن العاص الاشدق وعن الازارقة من الخوارج. فالروايات التي يذكرها متكاملة صحيحة ويلاحظ ان الدينوري لا يذكر مصادره التي اعتمد عليها (40).

احمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب اليعقوبي (تب 284 هـ/897م) من زربه واضح مولى المنصور. وكان واضح يتشيع سرا على الرغم من صلاته الوثيقة بالعباسيين ومناصبه الرفيعة. فقد قلد الولاية على ارمينية واذربيجان اولا ثم على مصر، وقد عوقب على تشيعه بالموت بعد ان يسر لادريس العلوي الفرار الى المغرب بعد معركة فخ. وقد توارثت اسرته التشيع، فاعترف احمد بولائه للموسوية. وهم فرقة من الامامية المعتدلين.

قضى احمد شبابه في ارمينية وفي خدمة الدولة الطاهرية بخراسان، وقد مجد اعمالها في كتاب خاص. ويبدو انه الف ايضا في ذلك الوقت كتابه عن تاريخ العالم

---

(39) ابن النديم : الفهرست ص 78، ياقوت الحموي : ارشاد الاديب جـ 1 ص 123 ـ 127، السيوطي : بغية الوعاة ص 132، احمد أمين : ضحى الاسلام جـ 1 ص 406، بروكلمان : تاريخ الأدب العربي جـ 2 ص 230 ـ 231.

(40) انظر الأخبار الطوال ص 285 ـ 289، ص 294 ـ 295، ص 296 ، 298، 300 ـ 306.

الذي وصل فيه الى سنة 259 هـ/872م وبعد سقوط الدولة الطاهرية ذهب الى مصر، وفيها كتب كتابه في الجغرافيا سنة 278 هـ/891 م.

ويتناول كتابه في التاريخ المكون من جزأين، الاول ضاعت مقدمته، جزء من قصة آدم. ويليها تاريخ آباء بني اسرائيل وبخاصة بعد مغارة الكنز، وتاريخ المسيح والرسل، وملوك السريانيين وأشور وبابل والهند واليونان والروم وفارس، وشعوب الشمال حتى الترك، وملوك الصين ومصر والبربر والحبشة والبجة والزنج، وأخيرا تاريخ عرب الجاهلية.

أما الجزء الثاني، وهو ضعف الاول تقريبا، فقد خصص لتاريخ الاسلام، ولا يغض من قيمته ما فيه من ميل الى الشيعة، ولكن لا تذكر فيه المصادر، وهو يقتصر فيما يتعلق بالتاريخ المعاصر اليعقوبي، وكثرا ما يتضخم فيه العرض التاريخي بالخطب والرسائل، ولكنه يشتمل على كثير من المعلومات القيمة المستقاة من مصادر قديمة جيدة (41).

وتمتاز روايات اليعقوبي بالاقتضاب، والتركيز وتكشف عن شعور معتدل مؤيد للعلويين الذي يتحول احيانا الى شعور معاد للامويين. ويظهر ذلك حين يتناول اعتلاء عبد الملك بن مروان الخلافة ويتطرق لسياسة الحجاج في كل من الحجاز والعراق.

هذا وان شعوره المؤيد للعلويين قادة الى ذكر بعض الرواياتالمعادية للزبيريين وخاصة عندما تسوء العلاقة بين عبد الله بن الزبير من جهة وبين كل من عبد الله بن عباس ومحمد بن الحنفية من جهة اخرى.

ورغم تحيزه الواضح هذا فان بعض ما يورده في تاريخه اصيل وذا قيمة تاريخية، مثل العوامل الاقتصادية الكامنة في تأييد اهل المدينة لابنالزبير والاضطرابات في خراسان وكذلك القوائم باسماء الولاة والفقهاء التي ينهي بها عهد كل خليفة. ومن قائمة رواة اليعقوبي نستطيع ان نتبين ان بعضهم كان في الواقع عباسيا (42).

---

(41) ياقوت الحموي : ارشاد الأريب جـ 2 ص 156، بروكلمان : تاريخ الأدب العربي جـ 4 ص236،237.

(42) تاريخ اليعقوبي جـ 2 ص 320، 325 ـ 326، 336. وانظر مشاكلة الناس لزمانهم، عبد العزيز الدوري : بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ص 52.

أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (224 أو أوائل 225 ـ 310 هـ / خريف 839 ـ 923م).

ولد ببلدة امل من بلدان طبرستان. ومما يدل على اصله الفارسي ذكره الموافقات التاريخية بين ما يعرضه من أخبار بدء الخلق المستقاة من الكتب المقدسة وبين اخبار الاساطير الفارسية.

رحل الطبري في طلب العلم الى العراق والشام ومصر، ثم نزل بغداد، فكان يعلم فيها الحديث والفقه، وكان في اول أمره يتفقه على مذهب الشافعي، ثم نجح بعد ذلك في تأسيس مذهب خاص به تبعه عليه بعض العلماء، وعاداه بسببه الحنابلة المتعصبون لاهل الحديث. وكان الوزير الخاقاني أراد أن يجعله قاضيا، فابى ذلك ليستطيع ان يقصر جهده على العلم والتعليم.

وكان الطبري كاتبا خصب النشاط، ومؤلفا جم النتاج الى حد غير مألوف، ولم يقتصر جهده واثماره على علوم الحديث والتاريخ، بل تجاوز ذلك الى تفسير القرآن وعلوم الفقه. وندين لجده واجتهاده في الجمع والتصنيف ببقاء مواد علمية بالغة النفاسة، واحياء كثير من معارف القدماء (43).

والطبري يعرض تاريخه في شكل حوليات، ويجمع مادته على طريقة المحدثين وأهل السيرة في شكل روايات يؤيدها الاسناد، قويا كان ام ضعيفا، دون تفضيل رواية على أخرى الا بالاشارة الى صحة الاسناد او ضعفه، مما يجعل من تاريخه مادة اولية يقع على عاتق المؤرخين دراستها لاستخلاص النتائج.

وفي التاريخ القديم وأحوال الامم السابقة على الاسلام يبدأ الطبري بالكلام في الزمان، وفي عمر العالم، مما يشكل حاسة تاريخية ممتازة، اذ لما كان الزمان هو الاطار الذي يحدد مجرى الاحداث فهذا يعني في ثناياه ان الاحداث متصلة لا تنفصل. ثم يتحدث في المبتدأ (بداية العالم) من آدم واولاده الى الانبياء من نوح الى

---

(43) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج 2 ص 162 ـ 170، ياقوت الحموي : ارشاد الأريب ج 6 ص 423 ـ 462، ابن السبكي : طبقات الشافعية ج 2 ص 135 ـ 140، الذهبي : تذكرة الحفاظ ج 2 ص 251 ـ 252.

De Goeje : Inc. Brit. 1, page 5.

، بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ج 3 ص 45، 46.

ابراهيم واسماعيل ومن عاصرهم من الامم والملوك من العرب والعجم والاسرائيليين الذين يخصهم بفصول مطولة (44).

وهو ينقل مادة من الاخباريين وأصحاب السير والمحدثين الأوائل مثل عبد الله بن عباس (ت 68 هـ/668 م وقيل سنة 69 هـ أو 70 هـ) الذي استخدم روايات أهل الكتاب لتفسير القرآن، كما استشهد على الصيغ اللغوية بأبيات من الشعر الجاهلي.

وسفيان الثوري ومحمد بن عبد الله بن الحكم المصري (182 ـ 262 هـ/798 ـ 875 م). وأبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الأوزاعي (88 ـ 157 هـ / 707 ـ 774 م) ولد في بعلبك وأصله من عرب اليمن. أخذ عن عطاء بن ابي رباح مفتي مكة سنة 115 هـ/733 م والزهري (ت 124 هـ / 742 م) وغيرهما وأخذ عنه سفيان الثوري ومالك بن أنس، وبعد ان جال في البلاد لطلب العلم رجع الى وطنه بالشام وتوفي ببيروت، وله كتاب السير وهو يتناول أحكام الجهاد والقتال.

وابن اسحق صاحب السيرة، وهشام بن محمد الكلبي (45) ووهب بن منبه (ت 114 هـ/732م). ولد في صنعاء. وقيل انه كان من الابناء وكان فقيها، وتولى قضاء صنعاء، ويقول ياقوت انه توفي وهو قاض بها. وقيل انه زيادة على اشتغاله بتاريخ ما قبل الاسلام، عنى بدراسة العقائد، والف كتابا في القدر ثم ندم عليه. واهم آثاره «كتاب التيجان في ملوك حمير» (46) وهو موسوعة هامة في تاريخ بلاد اليمن قبل الاسلام وفي تاريخ الجزيرة العربية واحوالها.

أما روايته الخاصة فتأتي منسوبة اليه مباشرة، بينما تنسب اخبار أخرى، الى مازعمه اليهود، وما قاله اهل الكتاب. ونظن ان الروايات التي سبقتها عبارة «وزعم بعضهم» او «وقال آخرون» هي التي لم يرض عنها الفقيه الورع (47).

وأما عما كتبه الطبري عن الفترة الاموية، فنجده يركز بعضه خاصة على

---

(44) سعد زغلول عبد الحميد : فى تاريخ العرب قبل الاسلام ص 49 ـ 50

(45) راجع مصادر البلاذري في انساب الاشراف.

(46) بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ج 1 ص 251 ـ 252، ج 3 ص 307 ـ 308.

(47) انظر الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج 1 ص 8

الحوادث في العراق والاقاليم الشرقية. ويمكن تفسير هذا بأن هذه المناطق كانت مركز المعارضة للحكم الاموي ومسرحا للاحداث الجسام (48).

ويذكر فلهوزن أن أهم الرواة الذين اعتمد عليهم الطبري هو لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف من أزد الكوفة . الراوية المحقق الذي يعتبر اقدم وأحسن ناشر عربي....، والأغلب ان مخنف بــن سليم ، رئيس الأزد في موقعة صفين، كان جده، وان محمدا وعبد الرحمن ابن مخنف كانا أخوين لجده.

وأهمية ابن مخنف لا تتمثل في اعتماده على رواة آخرين اقدم منه أو معاصرين له، مثل عامر الشعبي وأبي المخارق الراسبي ومجالد بن سعيد ومحمد ابن السايب الكلبي، بل تتمثل أهميته في جمع روايات من سماعه لها بنفسه ومن السؤال عنها في مختلف مظانها وعند كل من استقاها من مصادرها أو حضرها بنفسه من الناس.

ومما يتميز به ابو مخنف أن رواياته لا تبتدئ بصدر الاسلام، بل هى لا تبدأ الا بعصر الفتوحات، وأنه يخبرنا في الاغلب عن فترة كان هو نفسه يعيش فيها، وهي تبدأ بموقعة صفين. ويرجع ذلك الى ان اهتمامه اقتصر على المكان الذي كان يعيش هو فيه، اعنى على العراق وعاصمته الكوفة.

ونظرا الى ان الكوفة والعراق كانت مقر الحزب المعارض لحكومة الدولة فان ابا مخنف يتكلم خصوصا عن ذلك، والموضوعات التي يتناولها بتفصيل وشغف خاص هي ثورات الخوارج والشيعة.

فأبو مخنف يمثل الروايات العراقية، هواة في جانب اهل العراق على أهل الشام وفي جانب على ضد بني أميه.

أما عن بقية موضوعات تاريخ الدولة العربية ،فان ابا مخنف لا يقدم المادة الغزيرة التى يستطيع المؤرخ ان يستفيد منها، وليست الروايات الكوفية هنا هي احسن مرجع، بل اصدق مرجع هو الروايات المدنية، فهي اهم الروايات القديمة، وهي من حيث اصولها اقدم من الروايات الكوفية، واهم حملة هذه الروايات المدنية : ابن اسحاق وابو معشر والواقدي.

(48) انظر عبد الأمير عبد حسين دكسن : الخلافة الأموية ص 14

ولاشك انه قد كان هناك عند اهل الشام (عرب الشام) مأثور من الروايات، ولكن هذا المأثور ضاع ولم يصل الينا، ويجد الباحث آثارا لهعند البلاذري في كتابه انساب الاشراف،. وربما وجدها ايضا عند عوانة بن الحكم الكلبي الذي بالرغم من استقراره بالكوفة فقد كان على صلات بالشام عن طريق قبيلته المستقرة بها. ويذكره الطبري في كثير من الاحيان عند روايته لاخبار الشام. أماروح هذا المأثور الشامي فيستطيع الانسان ان يعرفه احسن معرفة اذا رجع الى كتب التاريخ النصرانية خصوصا الى كتاب الصلة لتاريخ ايزيدور (49). فالامويون في هذه الكتب النصرانية يظهرون في ضوء آخر مغاير كل المغايرة لما في الكتب الأخرى.

ويعتمد الطبري في ذكره لاحداث البصرة وخراسان على رواية المدائني، المؤرخ العالم، و هو يتميز بالاسهاب في الرواية، وله اهتمام اقليمي ظاهر فيما يتعلق بالبصرة وخراسان ، وتكاد كل الروايات المتعلقة بهما تكون مأخوذة عنه (50).

أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي (345 هـ/956 م وقيل 346هـ).

على أن أشهر كُتاب هذا العصر جميعا، وأكثرهم جوانب علم ومعرفة، هو المسعودي. ولد في بغداد، وهو ينتمي الى اسرة يرجع نسبها الى عبد الله ابن مسعود صاحب النبي (ص).

وكان أسلوب الثقافة الذي درج عليه علماء الحديث في زمانه يتطلب منهم الرحلة الى أهم حواضر الاسلام طلبا للحديث والعلم، فلم يقنع المسعودي باقتفاء أثرهم، بل دفعه تطلعه العلمي الى تجاوز البلدان الاسلامية والتجوال فيما وراءها بحثا عن اخبارها وجمعا لمعارفها.

وبعد ان طاف ببلاد فارس وكرمان، وأقام في اضطخر سنة 303 هـ / 915 م، رحل الى الهند فزار اولا «مُلطان» و «المنصورة» حتى وصل الى «صرنديب» في جزيرة سيلان، ثم أبحر مع رفقة من التجار الى الصين، ثم رجع أدراجه الى زنجبار وعمان..

---

(49) انظر Continuatio des Isidor von Hispalis

(50) راجع فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص تنوما بعدها.

وبعد جولة قصيرة له في البلدان المحيطةببحر الخزر، نلتقي به سنة 314 هـ / 926 م عند طبريه في فلسطين. وفي سنة 332 هـ / 943 م طاف في انطاكية وثغور الشام، ثم رجع الى البصرة، وذهب بعد ذلك، سنة 334 هـ الى دمشق، وفي السنة عينها نزل بمدينة الفسطاط وظل يتردد مرارا بين الشام والفسطاط، حيث استقر اخيرا وتوفي بالفسطاط(51).

ولقبه ابن خلدون بـ «إمام الكتاب والباحثين» وفون كريمر بـ «هيرودوتش العرب» وهذا ما حدا بالمؤرخ فازيلييف ان يقرر «ان كتب المسعودي لمما يقرأه المسلمون والأوروبيون على السواء، لما فيها من متعة ورواء» (52).

وأهم مؤلفات المسعودي، «كتاب أخبار الزمان عن الأمم الماضية والممالك الدائرة» (53) وهو يقع في نحو 30 مجلدا، وقد اختصره المسعودي وسماه «مروج الذهب ومعادن الجوهر» الذي انتهى من كتابته في 332 هـ /947 م واعاد النظر فيه في 345 هـ / 956 م. قبل وفاته.

وثان هذه المؤلفات التي وصلت الينا هو «كتاب التنبيه والاشراف» وهو آخر مصنف له ويمكن ان يقال انه جمع فيه خلاصة مجهودهالأدبي والفه سنة 345 هـ/956 م (54)

ويعتبر كتاب مروج الذهب من المصادر الاساسية بالنسبة لتاريخ العرب قبل الاسلام، وذلك بفضل ما كتبه من تاريخ العالم القديم وفي العرب قبل الاسلام مما يستغرق حوالي الجزء الاول ومعظم الثاني.

---

(51) ابن النديم : الفهرست ص 154، ياقوت الحموي : معجم الادباء ج 5 ص 147 ـ 149، ابن السبكي : طبقات الشافعية ج 2 ص 307 ، ابن تغرى بردي : النجوم الزاهرة ج 3 ص 315، جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ج 2 ص 313.

(52) انظر مجلة ثقافة الشرق ج 2 ص 423، فازيلييف : العرب والروم ص 283.

(53) ويعرف هذا الكتاب باسم كتاب«أخبار الزمان ومن ابادة الحدثان من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الدائرة»

(54) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ج 1 ص 1
، بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ج 3 ص 59.

ويتميز كتاب المسعودي بالمقدمة الجغرافية التي عرف فيها بالبلاد وبأثر البيئة على الانسان والحيوان والنبات. ومرة أخرى انفرد بها المسعودي دون غيره من كبار المؤرخين، وهي انه لم يهتم بتاريخ الملوك، وكبار الرجال فقط، بل اهتم بأحوال الناس والجماعات بشكل عام. فهو لا يركز على التاريخ السياسي، بل يسجل انواعا من النشاط الاقتصادي والاجتماعي والعادات والتقاليد والمعتقدات وغيرها، فكأنه فهم التاريخ في شكل حضارة؛ أي على انه تفاعل عدد عديد من العوامل البيئية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية بل والنفسية أيضا. فهو من هذا الوجه «أستاذ ابن خلدون» حسب تعبير استاذنا الدكتور سعد زغلول عبد الحميد، اذ لا نشك ان مقدمة مروج الذهب التي تعتبر خلاصة لمعارفه، كما يشير المسعودي الى ذلك في مقدمته هي التي اوحت الى ابن خلدون كتابة مقدمته الفريدة، وهذا ما يكاد يقوله المؤرخ المغربي الكبير في حديثه عن المسعودي» (55).

أما بالنسبة لمروج الذهب كأحد المصادر الأساسية للدولة العربية فاعتبارا من النصف الثاني للجزء الثاني يتناول ذكر مولد النبي (ص) ونسبه (56) وحتى منتصف الجزء الثالث يذكر المسعودي «ذكر مقدار المدة من الزمان وما ملكت فيه بنو امية من الاعوام» (57)، اي يتناول المسعودي تاريخ الدولة العربية في 401 صفحة، هذا بخلاف المواد المتفرقة التي وردت عن الامويين في تاريخ الدولة العباسية.

ويبدو ان المسعودي كان مواليا للعلويين ، كما تدل على ذلك روايته. اذ ان معلوماته عن العلويين ينقلها عن بعض الرواة من ذوي الميول الشيعية.

ومع ذلك فالمسعودي يمدنا بمعلومات قيمة عن علاقة المختار ابن ابي عبيد الثقفي مع ابن الزبير من جهة، وعلاقة المختار وكل من محمد ابن الحنفية وعبد الله بن عباس وعلي بن الحسين من جهة أخرى. ونقطة أخرى مهمة يكشفها كتاب

---

(55) أنظر المسعودي : مروج الذهب ج 1 ص 18 ــ 19.
، ابن خلدون : المقدمة الفصل الخاص «فيما يعرض للمؤرخين من المغالط»
، سعد زغلول عبد الحميد : في تاريخ العرب قبل الاسلام ص 52.
(56) المسعودي : مروج الذهب ج 2 ص 265.
(57) المسعودي : مروج الذهب ج 3 ص 236.

المروج هي السبب في تأييد القبائل العربية الجنوبية (اليمنية) لمروان بن الحكم في مرج راهط (64 هـ / 683 م).

أما كتابه التنبيه والاشراف فيمدنا بمعلومات جديدة ومهمة مثل تبني عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث لقب القحطاني وناصر المؤمنين وكذلك قوائم الكتاب والحجاب والقضاة في نهاية عهد كل خليفة. وجدير بالذكر هنا ان المسعودي يشير صراحة في كتابه هذا الى أنه كان قد اطلع على بعض المصادر الاموية التي يقول عنها انها متحيزة ضد بني هشام، سواء الفرع العلوي او العباسي (58).

ابن الأثير، عز الدين ابو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري (555 ـ 630 هـ / 1160 ـ 1233 م) هو أوسط اخوته الثلاثة الذين يحملون لقب ابن الأثير وكانوا من البارزين: أكبرهم مجد الدين وأصغرهم ضياء الدين، وقد عمل الاثنان في الوظائف الحكومية. وقد اشتهر الأول بالعلوم الدينية كما عرف الثاني بالتخصص في العلوم الأدبية والانشاء (59). أما الأوسط عز الدين المؤرخ فقد بعد عن الوظائف الحكومية حتى يتفرغ لأعماله العلمية وساعده على ذلك انه كان ميسور الحال.

ويقول ابن خلكان ان ابن الأثير كان حافظا للتواريخ المتقدمة والمتأخرة، وخبيرا بأنساب العرب وأيامهم وأخبارهم لا سيما الصحابة، وقد اشتهر بذلك وعقد الصلات مع علماء الشام والعراق لكثرة تردده بالزيارة على دمشق وحلب وبغداد والى الحج.

---

(58) انظر المسعودي: التنبيه والاشراف ص 335 ـ 336.
، عبد الأمير عبد حسين: الخلافة الاموية ص 18 ـ 19.

(59) يطلق هذا الاسم على ثلاثة اخوة يعتبرون من مشاهر علماء العرب واعاظم مؤلفيهم. اكبرهم مجد الدين ابو السعادات المبارك بن محمد (544 ـ 606هـ/1149 ـ 1210 م) وكرس حياته لدراسة القران والحديث والنحو. واصغرهم الاخ الثالث ضياء الدين ابو الفتح نصر الله (558 ـ 637 هـ/1163 ـ 1239 م) وترجع شهرته على الاخص الى جودة أسلوبه أما كتابه في البلاغة «المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر» فيعتبر من أهم المراجع في العالم الاسلامي، اتصل بخدمة صلاح الدين وسرعان ما أصبح وزير الملك الأفضل بن صلاح الدين.

بينما يتهمه القفطي بأنه حين اودع ياقوت عنده كتبه وأوراقه ومجموعاته قبل موته بحلب، أوصاه ان يسيرها الى وقف الزيدي ببغداد، أخذ بن الأثير الكتب والأوراق وتصرف بها، فلما طالبوه من بغداد بها، سير بعضها وأعرض عن بعض» (60).

ويعتبر ابن الأثير من ابرز المؤرخين المسلمين بعد الطبري ومؤلفاته التاريخية توضح ذلك ويهمنا منها:

الكامل في التاريخ،وقد لخص به كتاب الطبري في أخبار الامم والملوك، اذ أنه كان عمدة التواريخ بالنسبة للقرون الهجرية الثلاثة الأولى فجل اعتماده في الأجزاء السبعة الأولى من تاريخه على ابي جعفر الطبري. وابن الأثير مؤرخ موهوب يعرف اصول التحقيق التاريخي، وهو خبير في جمع المادة الصحيحة . وهو لذلك لا يكتفي بتلخيص الطبري فيرفع منه الاسناد الذي كان يثقل الرواية التاريخية ويقطع أوصالها، بل انه عرف كيف ينتقي الروايات الموثوق بها منه ويستغني عن الفضول، كما أنه سد الثغرات التي وجدها في كتاب الطبري بمعلومات احسن انتقاءها حتى صار كتابه هو الآخر من اهم مصادر التاريخ الاسلامي حتى بالنسبة لعصر صدر الاسلام ولتاريخ الدولة العربية، وبالنسبة لكل الاقطار في المشرق وفي المغرب على السواء،اذ استمد معلومات اضافية من مصادر اخرى كابن الكلبي والمبرد والبلاذري والمسعودي، تركها الطبري عن قصد او غير قصد وذلك مثل أيام العرب قبل الاسلام والوقائع بين قيس وتغلب في القرن الأول الهجري وغزو العرب السند.

وحرص ابن الأثير بقدر الامكان على تعليل بعض الظواهر التاريخية وعلى نقد بعض الأخبار بل ونقد بعض السلوك من الناس ونجد لديه النقد السياسي والحربي والاخلاقي والعلمي، يدرج عفوا بين ثنايا الاحداث مما جعل شخصيته التاريخية واضحة على الدوام في الكتاب . وأما بقية اجزاء الكتاب فقد انتفع ابن الأثير فيتأليفها بكلالمصادر العربية التي وصلت الى يده، لذلك يعتبر كتابه بحق خلاصة وافية لما كتبه المسلمون في تاريخهم السياسي حتى سنة 628 هـ.

(60) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج 1 ص 494 ـ 495.

وأهمية كتاب تاريخ الكامل تعود الى ان صاحبه تخير له المصادر التي تصل الى حوالي اثنين وثلاثين مصدرا، قام ابن الأثير بنقد بعضها مثل الطبري. يضاف الى هذا مقدرة فائقة على تلخيص الاخبار واختيار اصحها،واذا شك في بعضها اورد الرواية الاخرى وترك للقارئ الحكم بين الروايتين،وقليلا ما كان يفعل ذلك، وساعد ابن الأثير على ذلك، اسلوبه النثري،موجز العبارة، واضح الاسلوب، سهل الفهم.

ويذكر ابن الأثير في مقدمته سبب تأليفه ، لولعه بالتاريخ والى أنه وجد في التواريخ المطول الممل والمختصر المخل وأن بعض المؤورخين شغلوا بصغائر الأمور عن العظيم من الحادثات. وان بعضهم ارخ لزمانه وبعضهم ارخ لناحيته ومكانه، فان كان من المشرق افتقر الى تاريخ المغرب والعكس .

وعلى هذا الاساس جعل منهجه : التسجيل الحولي وذكر الاحداث الصغرى وبعض الوفيات في نهاية كل سنة.

أما الأحداث الهامة فيغطيها عناوينها ضمن السنة ولا يخرج بالاحداث من سنة الى أخرى الا عند الحاجة الى الربط ودون تفرق الخبر.

واقام بين هذا وذاك وبقدر استطاعته توازنا في الحجم بين أخبار المشرق والمغرب وبين أخبار الدول والملوك المختلفين مما اعطى كتابه طابع التاريخ العام اكثر من أي تاريخ عام لغيره (61)

---

(61) انظر مقدمة الكامل في التاريخ لابن الاثير ج 1 ص 3 وما بعدها.

، شاكر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون ج 2 ص 112 ـ 113.

الباب الأول

العرب قبل الإسلام

أولا : جزيرة العرب والجنس السامي والعصبية العربية
ثانيا : الحالة السياسية (ممالك الجنوب ، ممالك الشمال)
ثالثا : الحالة الاقتصادية (التجارة، الزراعة، الصناعة)
رابعا : الحالة الاجتماعية (النظام القبلي وطبقات المجتمع)
خامسا : الحالة الدينية

العرب قبل الإسلام

أولا : جزيرة العرب والجنس السامي والعصبية العربية

1 ـ جزيرة العرب

ليس ببين أشباه الجزر شبه جزيرة تنيف على شبه جزيرة العرب في المساحة فهي أكبر شبه جزيرة في العالم، ويطلق العلماء العرب عليها تجوزا اسم (جزيرة العرب) (1) تحيط بها المياه من أطرافها الثلاثة، ومع ذلك لم يستطع الجو البحري أن يخفف من حدة الحرارة فيها، ويتغلب على جفافها (2) .

وبلاد العرب شبه جزيرة، في الجنوب الغربي من آسيا ويرى علماء الجيولوجيا أن الجزيرة تكملة طبيعية لصحارى بلاد المغرب التي يفصلها عنها الآن منخفضي وادي النيل والبحر الأحمر وكذا المنطقة الرملية التي تطوق آسية وتتمثل في أواسط إيران وصحراء غوبى .

وبلاد العرب يحدها من الشمال بادية الشام ومن الشرق الخليج الفارسي وبحر عمان ومن الجنوب المحيط الهندي ومن الغرب البحر الأحمر .

أما عن تضاريسها فهي اعلى ما تكون غربا ثم تنحدر إلى الشرق إلا عند عمان وليس فيها أنهار دائمة الجريان، ولكن أودية يجري فيها الماء حينا ويجف حينا .

---

1) الهمداني : صفة جزيرة العرب ص 47، الالوسي: بلوغ الأرب ج 1 ص 184 وما بعدها، معجم البلدان ج 3 ص 100

2) جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج 1 ص 140.

وتتميز بلاد العرب بتنوع صحرائها وتعددها إلى ثلاثة :

أ ـ بادية السماوة وهي تعرف اليوم بإسم «صحراء النفود» وهي تقع في شمال بلاد العرب ورمالها غالباً ناعمة تغيب فيها القدم عند السير، ليس بها إلا القليل من آبار وعيون، والسير فيها شاق عسير لطبيعة أرضها، ورغم انها جافة الا في واحاتها القليلة فانه يصيبها في بعض السنين أمطار تكفي لتغطيتها ببساط من الخضرة يحولها إلى جنة للإبل والأغنام التي يرعاها البدو الرحل .

وجنوبي بادية السماوة مايسمى الآن جبل شمر، وهو هلالي الشكل ومناخه معتدل، وأمطاره غزيرة، وأعشابه كثيرة، قامت به عدة قرى وبلدان وهذا الجبل هو المعروف عند العرب بجبل قبيلة طيء، وهما أجا وسلمى سمي بشمر وهو فرع حديث من فروع طيء.

ب ـ صحراء الجنوب وتسمى الدهناء وهي أرض رملية حمراء تمتد من بادية السماوة شمالا إلى صحارى الربع الخالي جنوباً على شكل قوس ويطلق على الجزء الغربي منها اسم الاخقاف ، والجزء الواقع بين شرقي اليمن وحضر موت يسمى صيهدا، وتسمى الآن بالربع الخالي (3).

وإذا هطلت أمطار الشتاء في نواحيها غنيت الأرض بالمراعى التي ينتابها البدو وماشيتهم مدة الموسم التي تطول بضعة اشهر غير أن تلك البقاع في الصيف خالية خاوية .(4) .

ج ـ صحارى الحرار أو الأرض البركانية : وقد تكونت بفعل البراكين سواء فجوات البراكين نفسها أو حممها التي كانت تقذفها ثم بردت، وكونت ركاماً من الحجارة البركانية يغطي الأرض بطبقات قد تكون سميكة وقد تكون رقيقة .

---

3) لقد قام الرحالة الانجليزي برترام توماس Bertram Thomas باختراق صحارى الربع الخالي وقد تم رحلته في 58 يوماً من بحر العرب حتى خليج فارس وقد ذكر ظاهرةغريبة اطلق عليها الرمال المغردة كما اكتشف بحيرة من المياه المالحة انظر
Arabia Felix, Across the Empty Quarter of Arabia.

4) أحمد أمين : فجر الاسلام جـ 1 ص 2 ، فليب حتى : تاريخ العرب جـ 1 ص 17 .

وقد وصف العلماء العرب الحرار فقالوا : الحرة أرض ذات حجارة سود نخره، كأنها احرقت بالنار ومنها حره النار في عهد الخليفة عمر كانت لاتزال ثائرة تخرج النار منها ، وقد ذكر أن سحب الدخان كانت تخرج في عهد الخليفة عثمان من بعض الجبال القريبة من المدينة وهذا يدل على أن فعل البراكين في جزيرة العرب، لم يكن قد إنقطع إنقطاعاً تاماً، وأن باطن الأرض، كان مازال قلقاً، لم يهدأ .

وقد ذكر ياقوت الحموي مالا يقل عن ثلاثين حره أشهرها حرة المدينة حيث انتصر الأمويون على العلويين وانصارهم من أهل المدينة المنورة في 63هـ (683م) (5).

أقسام جزيرة العرب :

ويقسم المؤرخون المسلمون جزيرة العرب إلى خمسة أقسام :

الحجاز، وتهامة، واليمن، والعروض، ونجد ويزيد إبن حوقل في اقسامها بادية العراق، وبادية الجزيرة، فيما بين دجلة والفرات، وبادية الشام (6).

القسم الأول ـ الحجاز :

الحجاز مابين نجد وتهامة، وهو جبل يمتد من اليمن حتى يتصل بالشام وسمى بهذا الإسم لأنه يحجز بين نجد وتهامة، وامتداده بينهما بحذاء الساحل (7) ويضم الحجاز من المدن، المدينة والطائف وخيبر وفدك وتيماء .

القسم الثاني ـ تهامة :

وتشمل المنطقة الساحلية الضيقة الموازية لامتداد البحر الأحمر من اليمن

---

5) ياقوت الحموى : معجم البلدان: ج 3 ص 256 ، 357، ج 7 ص 323.
وقد كتب العلماء في (الحرار) كتبا. مثل كتاب الحرة المنسوب الى أبي عبد الله محمد الغلابي، وكتاب الحرات لأبي عبيدة انظر ابن النديم : الفهرست ص 58 ، 108.
. جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج 1 ص 145 ـ 149

6) الهمداني: صفة جزيرة العرب ص 47، الالوسى : بلوغ الارب ج 1 ص 187، جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام ج 1 ص 167، السيد عبد العزيز. سالم : تاريخ العرب قبل الاسلام ج 1 ص 70 .

7) ياقوت الحموي: معجم البلدان ج 2 مادة حجاز ص 219

جنوباً إلى القلزم شمالاً، ويحجزها عن داخل شبه الجزيرة سلسلة جبال السراة أعظم جبال العرب .

وقد سميت تهامة بذلك الإسم من التهم، وهو شدة الحر وركود الريح، لشدة حرها وركود ريحها، ولإنخفاض أرض تهامة سميت بالغور.

ويتألف إقليم تهامة من عدة تهائم، منها مايدخل في اليمن، ومنها ما يدخل في الحجاز. ومن مدنه الساحلية الحديدة وينبع وجدة (8).

القسم الثالث ـ اليـمـن :

منطقة واسعة تمتد حدودها من تهامة الى العروض وسميت بذلك الاسم لتيامن العرب اليها ، لأنها ايمن الأرض. والارجح انها سميت اليمن من يمنات أو يمنت، منطقة صغيرة ذكرت في نص يعود عهده الى أيام الملك (شمر يهرعش)، المعروف في الكتب الإسلامية بشمر يرعش، كما عرفت عند اليونان ببلاد العرب السعيدة (9) .

القسم الرابع ـ العـروض :

وهي تشمل اليمامة والبحرين وشبه جزيرة قطر والاحساء والكويت، وأغلب أراضي العروض صحارى وسهول ساحلية وقد تحتوي على بعض الواحات القليلة حيث يزرع السكان في بعض الأماكن على مياه الآبار .

وقد سميت عروضاً لأنها تعترض بين اليمن ونجد و العراق (10)

القسم الخامس ـ نـجـد :

هي الهضبة التي تكون قلب الجزيرة وأوسع أقاليمها، شمالها العراق والشام، وجنوبها تهامة واليمن، غربها إقليم الحجاز .

---

8) الالوسي : بلوغ الأرب ج 1 ص 194 ـ 195، 206، عبد الوهاب عزام : مهد العرب ص 93، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب قبل الاسلام ج 1 ص 70، 71.

9) الهمداني : صفة جزيرة العرب ص 51، الالوسي : بلوغ الأرب ج 1 ص 203

10) ياقوت الحموي : معجم البلدان، مادة عروض ج 4 ص 112، جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج 1 ص 174 ـ 177

تتخللها أودية وتلال متعددة منها، وادي الرمة وروافده ووادى حنيفة (فلجا) ووادي عاقل ولذلك كانت نجد أطيب أراضي الجزيرة العربية .

ويتألف إقليم نجد من جزئين: نجد العالية، ونجد السافلة، وكانت نجد حتى القرن السادس للميلاد ذات أشجار وغابات.

وبنجد جبلان مشهوران صعبا الارتقاء هما جبلا أجأ وسلمى المنسوبان إلى طيء وبأدنى جبل أجأ مدينة حائل، وعلى سفح جبل سلمى بليدة فيد، الواقعة في طريق الحاج العراقي. (11).

2 ـ الجنس السامي

وسكان شبه الجزيرة العربية، هم العرب، وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن العرب ومن حولهم كانوا من أصل واحد، ثم تحضر من حولهم وتخلفوا هم، وقد تحضر سكان الفرات، وتحضر وادي النيل، وظل العرب تغلب عليهم البداوة وذلك بسبب إنعزال شبه الجزيرة العربية لما يحاط بها من جبال وبحار . (12).

ان العرب أحد الشعبين الباقيين اللذين يمثلان الجنس السامي، قد احتفظوا أكثر من اليهود بالمميزات الطبيعية والخاصيات العقلية لهذا الجنس .

وأما لغتهم فعلى الرغم من أنها أحدث اللغات السامية آدابا فانها قد احتفظت بخصائص اللسان السامي الأصلى ـ بما في ذلك التصريف ـ أكثر مما احتفظت العبرية وأخواتها من اللغات السامية الأخرى .

ومن هنا كانت اللغة العربية أحسن مدخل لدراسة اللغات السامية. وكذلك بلغت الديانة السامية في الإسلام كمالها الطبيعي . (13).

والسبب في أن عرب الجزيرة والبدو منهم بنوع خاص هم خير من يمثل السلالة

---

11) الالوسي : بلوغ الارب ج 1 ص 299، عبد الوهاب عزام : مهد العرب ص 77، جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج1 ص 181 ـ 183.

12) أحمد أمين : فجر الاسلام ص 4

13) 19 ـ 218. J.h. Breasted : Ancient Times P.P. وترجمته ص 175 ، 178.
فليب حتى : تاريخ العرب ج 1 ص 8.

السامية من النواحي البيولوجية والنفسية والإجتماعية واللغوية راجع إلى انعزالهم الجغرافي واتساق الحياة المطرد في الصحراء، فكأن النقاوة السلالية هي المكافأة التي تمنحها البيئة المقفرة الشديدة النكران كتلك التي في أواسط جزيرة العرب .

ويحق لنا أن نتساءل أين كان الموطن الأصلى للساميين؟

وهناك عدة نظريات حول الموطن الأصلى أهمها :

النظرية الأولى : وهي تقول بأن الموطن الاصلى للساميين في افريقية الشرقية وتعتمد على العلاقات الاثنولوجية بين الساميين الذين يعيشون في شرق إفريقية والساميين الذين يعيشون على سواحل شبه الجزيرة العربية الجنوبية والشرقية .

أما النظرية الثانية : التي تعتمد على رواية العهد القديم وتنادى ان الموطن الأصلى للساميين العراق تجد كثيرا من المعارضين لها بسبب افتراضها انتقال شعب من مرحلة الحياة الزراعية على ضفاف نهر الى حياة البداوة وذلك عكس ما تقضي به النظم الإجتماعية .

أما النظرية الثالثة : المؤيدة من قبل معظم علماء اليوم المختصين فهي تقول ان بلاد العرب هي مهد الجنس السامي (14) للأسباب التالية :

أ – ان معظم سطح شبه الجزيرة العربية صحراء تحيط بها حافة ضيقة من الأرض التى تصلح للسكن ويحيط البحر بهذه الحافة نفسها فاذا مازاد عدد السكان عن طاقة الأرض لاحتمالهم كان على الفائضين أن يبحثوا لهم عن مناطق جديدة يعيشون فيها ولم يكن بإستطاعتهم التوسع في وسط البلاد وهو صحراء ولا اجتياز البحر حين لم يكن في تلك الأزمان من وسائل لذلك، فلم يبق إلا أن يسلكوا طريق الساحل الغربي من الجزيرة نحو الشمال حيث يتفرع عند شبه جزيرة سيناء إلى وادى النيل الخصيب .

(14 Bertram Thomas: The Near East and India P.P. 516 - 19.
C. Leonard Woolley: The Sumerians P.P. 5 - 6.

انظر الدراسة التفصيلية لوطن الساميين والنظريات المتعددة ونقدها بالمفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام لجواد علي ج 1 ص 229 وما بعدها .

وقد سلك هذا الطريق أو طريق افريقية الشرقية مهاجرون ساميون حوالي سنة 3500 ق.م واستقروا في مصر مع سكانها الحاميين واختلطوا بهم فكان من نتيجة هذا الاختلاط أن ظهر المصريون القدماء الذين وضعوا كثيرا من العناصر الأساسية في مدنيتنا فكانوا أول من شادوا الأبنية الحجرية وانشأوا التقويم الشمسي .

وفي تلك الغضون اي في أواسط الالف الرابع قبل الميلاد اندفعت إلى الشمال موجة أخرى من المهاجرين .سلكت طريقًا شرقيًا موازيًا للآخر واستقرت في وادى الرافدين الذي كان يسكنه في ذلك الزمن شعب عريق المدنية هم السومريون.

وقد حل الساميون هذا الوادى وهم في حالة البداوة والجهل فما عتموا أن تعلموا من السومريين مؤسسي حضارة الفراتين فن بناء المنازل والسكنى بها ووسائل الري وفوق ذلك فقد تعلموا منهم كيف يكتبون .

ولم يكن السومريون من الشعوب السامية ولكن اختلاطهم بهؤلاء العرب الذين نزلوا عليهم في وادي الرافدين انتج الشعب البابلي الذي شاطر المصريين الفخر في وضع الأسس لميراثنا الثقافي.

ومن جملة ما استحدثه لنا البابليون هندسة القناطر والاقبية ـ وان كان من المرجح انها سومرية الأصل ـ والعربة ذات العجلات ونظام المقاييس والموازين .

وحوالي منتصف الالف الثالث ق.م حدثت هجرة سامية أخرى حملت الامورييين الى الهلال الخصيب وكان بين العناصر التي تألفت منها هذه الموجة الجديدة الكنعانيون وقد حلوا غربي الشام وفلسطين بعد 2500 ق.م والساحليون الذين سماهم الاغريق الفينيقيون .

وكان هؤلاء الفينيقيون أول من نشر في العالم نظامًا خاصًا للكتابة بالحروف الهجائية المجردة وعددها 22 وكانت هذه الحروف أساسًا لكل الحروف الهجائية التي يكتب بها اليوم أبناء أوربا أو آسية أو أميريكا أو افريقية بحيث صح قول القائل أن هذا أعظم اختراع إخترعه البشر على الإطلاق .

وبين سنتى 1500، 1200 ق.م تسرب العبرانيون إلى جنوب الشام أي فلسطين وتسرب الاراميون (السريان) إلى الشمال إلى سهل البقاع (جوف سورية) الواقع بين جبلي لبنان الشرقي والغربي .

وكان العبرانيون قبل أي شعب آخر أول من كشف للعالم فكرة جلية عن الله الأوحد وقد صار التوحيد الذي دعوا إليه أصلا للتوحيد في العقيدتين المسيحية والإسلامية .

وحوالي سنة 500 ق.م نزل الانباط الأرض الواقعة الى الشمال الشرقي من شبه جزيرة سيناء ونستطيع أن ندرك مدى الرقي الذي بلغته حضارتهم فيما بعد ذلك بتأثير الرومان، بما يبدو من آثار البتراء عاصمتهم المنحوتة في الصخر من عظمة ومجد .

وجاء القرن السابع للميلاد فاذا نحن أمام موجة جديدة هي آخر الهجرات وقد جرت تحت راية الإسلام وهنا تحطمت السدود أمامها فلم يقتصر فيضانها على أرض الهلال الخصيب، هذا القوس الممتد من رأس الخليج العربي إلى زاوية البحر المتوسط الشرقية الجنوبية، بل تعداه وغمر مصر وافريقية الشمالية واسبانية وفارس وبعض أنحاء من آسية الوسطى (15) .

ب ـ وهؤلاء العلماء يعززون قضيتهم بما لاحظوه من احتفاظ العرب بمميزاتهم السامية خالصة وان اللغة العربية هي اقرب ما تكون إلى ما يرتأيه علماء اللغات بشأن مزايا اللغة السامية الأم وشكلها البدائي .

وبمقارنة تاريخ هذه الهجرات اتضح لعلماء السامية فكرة ان الجزيرة العربية كانت في حقب متعاقبة تبلغ الواحدة منها ألف سنة تقريبا تزدحم بالسكان كخزان هائل ضاق فلم يجد محيصا عن الفيضان .

---

15) يعتبر هوغو فنكلر Hugo Winckler من أوائل العلماء الذين شرحوا نظرية الهجرات السامية التي تعاقب خروجها من شبه الجزيرة العربية راجع.

Hugo Winckler: The History of Babylonia and Assyria P.P. 18 - 22

. كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص 15.

. سهيل زكار : تاريخ العرب والاسلام ص 18.

واذا سلمنا أن نجد الجزيرة أو يمنها هي الموطن الأصلي للشعوب السامية والمركز الذي توزعت منه فإن هذا لايحول دون إمكان أنهم كانوا مرة في العصور السابقة، مع فرع آخر من الجنس الأبيض هو الفرع الحامي، شعبا واحدا في ناحية من نواحي افريقية الشرقية، وانه من هذا الشعب تفرع مادعوناهم بعدئذ بالساميين وعبروا إلى الجزيرة العربية عن طريق باب المندب فيما يظن. وهذا يجعل افريقية الموطن المرجح للجنس السامي الحامي والجزيرة العربية المهد للشعب السامي والمركز الذي تفرعوا منه أما الهلال الخصيب فهو مربع الحضارة السامية . (16) .

3 ـ القبائل العربية والعصبية

رتب علماء الانساب، قبائل العرب على مراتب، هي : شعب، ثم قبيلة، ثم عمارة، ثم بطن، ثم فخذ، ثم فصيلة .

والقبيلة هي الوحدة التي بنى عليها كل نظامهم الإجتماعي، وهذه القبائل في نزاع دائم، وقد تتحالف القبيلة مع قبيلة أو قبائل أخرى للاغارة على حلف آخر أو لرد غارة، أو نحو ذلك من الأغراض، وقد تمر الأجيال وتنسى القبائل المتحدة أسماءها وشخصياتها وتنضم تحت إسم واحد هو إسم أقواها، ثم قد يزعمون فيما بعد انهم من أب واحد وأم واحدة .(17).

وقد عنى المؤرخون بنسب القبائل وتفرعها، وألفوا فيها الكتب الكثيرة، ولكن هذه الانساب في مجموعها كانت ولا تزال مجالا للشك الكبير. «سئل مالك رحمه الله عن الرجل يرفع نسبه الى آدم فكره ذلك وقال : من أين يعلم ذلك ؟فقيل له: فإلى اسماعيل فانكر ذلك وقال : ومن يخبره به ؟» (18) .

واعتاد النسابون أن يقولوا : ان قبائل العرب ترجع نسبها إلى شعبين عظيمين :

---

16) George A. Barton: Semetic and Hamitie Origins P. 27.
. فليب حتى : تاريخ العرب ج 1 ص 14.

17) الالوسى : بلوغ الأرب ج 3 ص 187، ابن عبد ربه : العقدالفريد ج 3 ص 283، جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج 1 ص 509 ـ 512 .

18) أحمد أمين : فجر الاسلام ج 1 ص 5.

الأول : عرب الشمال من نسل إسماعيل بن إبراهيم ويطلق عليهم العدنانيين أو النزاريين أو المعديين. ويسكنون مكةوماجاورهامن أرض الحجاز وتهامة.

وقد تفرقت بطونه من نزار بن معد فمنه إياد وربيعة ومضر وهذان هما اللذان كثرت بطونهما .

وكان من ربيعة قبائل كثيرة لها شهرة وذكر عظيم في تاريخ العرب حيث كانوا ينافسون مضر في الشرف والرفعة، ومنهم كان أكثر الخوارج في الإسلام .

ومن ربيعة، عبد القيس بن قصى، ومنها بكر، وتغلب، ابنا وائل، ومن بكر، حنيفة وعجل ابنا جيم .

وتشعبت قبائل مضر إلى شعبتين : قيس عيلان بن عيلان بن مضر وبطون الياس بن مضر. ومن الشعبة الأخيرة جاءت قريش ومنها عبد مناف .

وجاء من عبد مناف أربع فصائل : عبد شمس ونوفل وعبد المطلب وهاشم. وبيت هاشم هو الذي كان منه سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، والعباسيون أولاد عباس بن عبد المطلب، والعلويون أولاد علي بن ابي طالب ابن عبد المطلب. أما الامويون فهم ينتمون إلى معاوية بن أبي سفيان بن صخر بن حرب ابن امية بن عبد شمس بن عبد مناف .

ويذكر النسابون أنه لما تكاثر أولاد عدنان رأوا أن البلاد التي نبتوا بها لم تعد تكفيهم فأخذوا يهجرونها متتبعين مواقع المطر ومنابت العشب .

فهاجرت عبدالقيس ـ منربيعة وبطون من بكر بن وائل ـ الى البحرين ورافقهم بطون من تميم. وأقامت سائر بكر بن وائل من اليمامة الى البحرين، وأقامت تغلب بالجزيرة الفراتية وسكنت بنو تميم ببادية البصرة وأقامت بنو سليم بالقرب من المدينة. وسكنت ثقيف بالطائف وهوازن في مكة .

واستقرت بنو أسد شرقي تيماء وغربي الكوفة وسكنت ذبيان بالقرب من تيماء الى حوران وبقى بتهامه بطون كنانة وأقام بمكة وضواحيها بطون قريش (19).

19) محمد الخضري : محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية ـ الدولة الأموية ج 1 ص 11 ـ 16 . ج 2 ص 99 جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج 1 ص 514 ـ 15.

والثاني : عرب الجنوب ومهده بلاد اليمن ويعرفون بشعب قحطان وقد تشعبت قبائله وبطونه من سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان فكان منه بطون حمير وأشهرهم زيد الجمهور وقضاعة والسكاسك ومنه بطون كهلان وأشهرهم همدان وأنمار وطيء ومذحج وكندة ولخم وجذام والازد الذين منهم الأوس والخزرج .

وكور بلاد اليمن تسمى مخاليف والواحد منها مخلاف ويضاف إلى إسم القبيلة التي استقرت به وبينما يذكر اليعقوبي أن عددها أربعة وثمانون مخلافا ويعدد اسمائها نجد أن ياقوت الحموي يذكر منها 36 مخلافا فقط (20).

المهم أنه نتيجة للإنهيار سد مأرب المشهور اضطر أهله الى الهجرة صوب الشمال ومنهم : ثعلبة بن عمرو الذي استوطن المدينة ومن أبناء ثعلبة هذا الاوس والخزرج ابنا حارثة بن ثعلبة.

أما حارثة بن عمرو – وهو خزاعة – فاستقروا بالحرم، واستقر عمران بن عمرو بعمان وبنوه هم أزد عمان .

وسارت قبائل نصر بن الأزد نحو تهامة وجفنة بن عمرو إلى الشام وبنوه أبو الملوك الغساسنة نسبة لغسان وهو ماء.

ومنهم قبيلة لخم بن عدى الذين منهم نصر بن ربيعة أبو الملوك المناذرة بالحيرة .

ومنهم طيء الذين رحلوا إلى الشمال ونزلوا بالجبلين أجأ وسلمى لخصبهما وحصانتهما .

ومنهم قبيلة كلب بن وبره من قضاعة أقامت ببادية السماوة وهي في شمال نجد .

وهكذا تفرقت هذه القبائل اليمانية واحتلت اخصب الأراضي العربية في الشمال والغرب وبقي باليمن كثير من قبائل حمير وكندة ومذحج وكان لحمير السيادة على البلاد . (21).

---

20) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي المجلد الأول ص 201، جواد على : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج 7 ص 364.

21) محمد الخضرى : محاضرات في تاريخ الأمم الاسلامية، الدولة الاموية ج 1 ص 12 – 13.

وينقسم العرب بالنسبة الى مساكنهم إلى قسمين وهناك فوارق حقيقية بين القسمين من وجوه متعددة :

أ ـ ان القسم الجنوبي منهم كان يعيش عيشة قرار، وتغلب عليه الحضارة وأهل الشمال تغلب عليهم البداوة وعدم الإستقرار.

ب ـ انهم مختلفون أيضاً في اللغة، فلغة اليمن كانت تخالف لغة الحجاز في أوضاعها وتصاريفها، وكانت لغة اليمن أكثر اتصالا باللغة الحبشية والاكادية ولغة الحجاز أكثر اتصالا باللغة العبرية والنبطية .

جـ ـ انهم مختلفون في درجة الثقافة العقلية تبعاً لماهم عليه من عيشة بدوية أو حضرية، وتبعاً لإختلافهم في اللغة والأمم المجاورة لهم .

وليس يعنى ذلك أن هذين القسمين كانا منفصلين تمام الإنفصال، وان كل قسم كان يسكن بلاده ولا يرحل عنها إلى الاخر، بل كان الأمر على عكس ذلك كما سبق أن أوضحنا عند ذكر منازل العدنانية والقحطانية وهجرات كل منهما (22).

---

22) أحمد أمين : فجر الإسلام جـ 1 ص 665 .

ثانياً : الحالة السياسية

ممالك جنوب الجزيرة

1 ـ الدولة المعينية 1300 ق.م ـ 630 ق.م

تعتبر الدولة المعينية أقدم الدول العربية التي قامت في جنوب الجزيرة، إذ تذكر ارجح الروايات أن نشأتها تمت في 1300 ق.م تقريباً في منطقة الجوف بين نجران وحضر موت وهي منطقة خصبة منبسطة وذكر الهمداني جملة مواضع منها ؛ معين، ونشق ، وبراقش، وكمنا وغيرها. وقد كانت عاصمة تلك الدولة (القرن) أو (قرن) أو قرنو) (23) ثم أصبحت بعد ذلك معين (24).

وبالرغم من توصل البحاث المتخصصين في الدراسات القديمة الى وضع قائمة بأسماء ملوك معين، غير أنهم لقوا صعوبات كبيرة حالت بينهم وبين الاتفاق على وضع قائمة موحدة متفقة. فذهبوا في ذلك جملة مذاهب، ووضعوا تواريخ متباينة مختلفة . (25).

أما بالنسبة لنظام الحكم والادارة بالدولة المعينية، فقد كانت حكومة معين، حكومة ملكية يرأسها حاكم يلقب «ملك»، غير أن هذه الحكومة وكذلك الحكومات الملكية الأخرى في جنوب الجزيرة، سمحت أن يشترك شخص أو شخصان أو ثلاثة مع الملك في حمل لقب «ملك»، اذا كان حامل ذلك اللقب من أقرباء الملك الادنين، كأن يكون ابنه أو شقيقه .

ويظهر من الكتابات المعينية أيضاً أن الحكم في معين، لم يكن حكما ملكياً تعسفياً، السلطة الفعلية مركزه في أيدى الملوك، بل كان الحكم فيها معتدلا استشارياً يستشير الملوك أقرباءهم ورجال الدين وسادات القبائل ورؤساء المدن ثم يبرمون أمرهم، ويصدرون أحكامهم على شكل أوامر ومراسيم تفتتح بأسماء آلهة معين، ثم يذكر اسم الملك، وتعلن كتابة ليطلع عليها الناس .

---

23) Philby: The Back - ground of Islam P. 141
، الهمداني : صفة جزيرة العرب ص 167 ، 168، 203.

24) جورجي زيدان : العرب قبل الاسلام ص 30 ـ 31.

25) راجع القوائم المتعددة لملوك معين لجواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج 2 ص 81 ـ 106.

وقد كان لكل مدينة حكومتها الخاصة بها، وبالتالى أطلق على حكومة معين، حكومات المدن، فكل مدينة فيها حكومة صغيرة لها آلهة خاصة بها تتسمى بإسمها، وهيئات دينية، ومجتمع يقال له : (عم) بمعنى أمة وقوم وجماعة. ولكل مدينة مجلس استشاري يدير شؤونها في السلم وفي الحرب، وهو الذي يفصل فيما يقع بين الناس من خصومات وينظر في شؤون الجماعة (عم).

ولهذا اتخذ رؤساء القبائل دورا، يجتمعون فيها للبت في الأمور والفصل بين اتباعهم في خلافاتهم، وتعرف هذه الدور باسم (مزود) أو (مشود) وهي شبيهه بدار الندوةعند أهل مكة، وهي دار قصى بن كلاب التي كانت قريش لاتقضى أمرا الا فيها، ، يتشاورون فيها في أمور السلم والحرب .

وتتألف مملكة معين من مقاطعات، على رأس كل مقاطعة ممثل عن الملك يعرف عندهم بـ (كبر) ، أي (الكبير). ويرد اسمه بعد اسم الملك في النصوص على عادة أهل معين وغيرهم. (26).

أما الضرائب فهي متنوعة أهمها الضرائب التي تفرضها الحكومة وتشكل الدخل الرئيسى لها وهي تفرض على الاراضي الزراعية والتجار وسائر طبقات الشعب الأخرى. ويقوم بجمعها مشايخ القبائل والحكام وبعد استقطاع حصصهم الخاصة بهم والمتفق عليها ، يقدمون بقية الضرائب إلى الملك .

والنوع الثاني المفروض لصالح المعابد بالاضافة إلى النذور التي تقدم إليها بإسم آلهة معين عند شفاء مريض أو رجوعه سالمًا من سفر أو حرب . (27).

ولقد سدد المعينيون الضرائب المستحقة عليهم بالمقايضة العينية سواء للحكومة أو المعابد وبها أيضًا دفعت أجور الموظفين والمستخدمين والعمال والزراع وقد استمرت هذه العادة حتى الأيام التي ظهرت فيها النقود وذلك بسبب قلة المسكوكات التي قامت الحكومة بسكها .

---

26) Eduard Glaser, Reise nach Marib 1083, 1144, 1150, 1155

27) Glaser : 1150, Joseph Halevy, in Bulletin de la Sociéti de Géographie, 1873, et 1877, Rapport sur une Mission Archéologique dans le Yemen, in Journal Asiatique, Series o, Vol xix

وكان في كل مدينة معبد، وأحيانًا عدة معابد خصصت لآلهة شعب معين. وقد يخصص معبد لعبادة اله واحد، ويسمى بإسمه، وتنذر له النذور، ويشرف على إدارته رجال دين وأعوانهم، يقومون بالشعائر الدينية ويشرفون على ادارة أوقاف المعبد (28).

أما عن علاقة المعينيين بجيرانهم فقد اشتغل المعينيون بالتجارة وسيطروا على الطرق التجارية بين الشمال والجنوب، ولم يلبث نفوذهم السياسي أن ادرك شمال الحجاز، وفي ذلك يقول موسل :

«خلال الالف الأولى قبل الميلاد كان الجزء الأعظم من التجارة العالمية في بلاد العرب واقعًا في يد السبئيين والمعينيين الذين كانوا يسيطرون على الجزء الجنوبي الغربي من الجزيرة العربية، وكان السبئيون والمعينيون أبناء جنس واحد، ولكنهم كانوا يتنافسون السيادة لا في بلادهم فحسب، بل في الواحات التي تمر بها الطرق التجارية أيضًا، فكانت تقيم في كل واحة من الواحات المهمة ـ التي تقع على طول الطريق التجاري ـ جالية من عرب الجنوب، وكان يقيم مع هذه الجالية مقيم من أهل الجنوب كذلك، وكانت مهمته الإشراف على ملوك الإقليم ورؤسائه، ومراقبتهم لكي لايفعلوا شيئًا من شأنه أن يضر بمصالح سيده السبئي او المعيني الذي قد يكون على رأس المملكة الجنوبية السبئية أو المعينية، تبعًا لإختلاف العهود التاريخية، (29)».

ومن المعروف أن الطريق التجاري البري الموصل بين اليمن والشام ومصر كان يمر غربي تيماء، وكان هذا الطريق الأعظم أحيانًا في سيطرة المعينيين وأحيانًا أخرى في أيدي السبئيين الذين كانوا يعاصرونهم، وفي جميع الواحات التي يمر عليها هذا الطريق في الشمال الغربي من بلاد العرب مثل واحة مدين وواحة ديدان المذكورة في الكتاب المقدس بإسم دون أو ديدن والتي تقع قريبًا من واحة العلا، ومثل واحة معون أي معان الحديثة، كانت تقيم طائفة من حكام معين أو سبأ

(28 George Francis Hill, Catalogue of the Greek coins of Arabia Mesopotamia and Persia London 1922 P.132.

(29 الوييس موسل : شمال الحجاز ص 2،1، السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب قبل الاسلام ص 103 .

تؤيدها حاميات عسكرية وجاليات جنوبية من الأوساط التجارية، كما كانت تقيم معها جالية من الافريقيين الكوشيين باعتبار أن هؤلاء الكوشيين كانوا يمارسون التجارة مع المعينيين أو السبئيين بحكم الجوار (30).

وأدى توسع المعينيين في الشمال الى احتكاكهم بأشور وفينيقية ومصر، وكان حكام أشور بسورية بحكم إقامتهم بعيدا عن طريق التجارة الرئيسى يتفاوضون مع المقيمين المعينيين في هذه الواحات لا على أنهم يمثلون ملكا معينا وإنما على أساس أنهم الملوك الجنوبيين.

وتعد الكتابات المعينية التي عثر عليها في جزيرة (ديلوس) Delus ذات أهمية كبيرة كذلك، في بحثنا هذا، اذ انها تدل على وصول المعينيين الى الجزر اليونانية واقامتهم فيها، واتجارهم مع اليونان. ومن جملة هذه النصوص، نص يدل على وجود جالية معينية في جزيرة (ديلوس)، وعلى تعلق هذه الجالية بدينها وبآلهتها وعدم تركها لها حتى في هذه الأرض البعيدة عن وطنها. وليس من المستبعد أن هذه الجالية كانت على إتصال تجاري ببلادها تصدر إليها حاصلات اليونان، وتستورد منها حاصلات اليمن والعربية الجنوبية وافريقية والهند، وتتعاون مع اليونان في أسواق التجارة العالمية لذلك العصر (31).

وفي 630 ق.م انقرضت الدولة المعينية وحلت محلها دولة سبأ غير أن هذا لايعنى انقراض شعب معين، اذ ورد اسم المعينيين في عدد من الكتابات المعينية التي يرجع عهدها إلى مابعد سقوط حكومتهم كما ورد إسمهم في المؤلفات الكلاسيكية التي تعود إلى القرن الأول للميلاد. ولذلك تباينت آراء العلماء حول السنة التي سقطت فيها الدولة المعينية فحددها البعض في 100 ق.م والآخر في 50 ق.م. (32).

---

30) الوبيس موسل : شمال الحجاز ص 2 ترجمة الدكتور عبد المحسن الحسيني الاسكندرية في 1952.

31) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج 2 ص 123 ـ 124.

32) Philby : le Muséon, LXII 3 - 4, 1949 P. 231 South Arabian chronology.

2 ـ الدولة السبئية (800 ق.م ـ 115 ق.م)

جاء ذكر السبئيين في الكتب المقدسة والكتب اليونانية واللاتينية وفي الكتابات الاشورية ولذلك يعتبر السبئيون أول شعب عربي جنوبي يصل خبره الينا منذ الالف الثالث قبل الميلاد. ولقد اختلف الباحثون حول موطن السبئيين الاصلى فقد ادعى البعض أن موطنهم العربية الصحراوية أي البادية ومنها ارتحلوا إلى اليمن. بينما ادعى البعض الآخر أن موطنهم الأول العربية الشمالية وأنهم ارتحلوا في القرن الثامن ق.م الى جنوب جزيرة العرب حيث استقروا في الأماكن السبئة (33) ويذكر فيليب حتى أن موطنهم القديم في الجنوب الغربي من الجزيرة العربية.

استغل السبئيون ضعف المعينيين وتمكنوا من توسيع منطقة نفوذهم حتى تمكنوا في النهاية من القضاء على الدولة المعينية، وأقاموا دولتهم على انقاضها، وورثوا لغتها وديانتها وتقاليد شعبها وساعد السبئيون عدة عوامل منها :

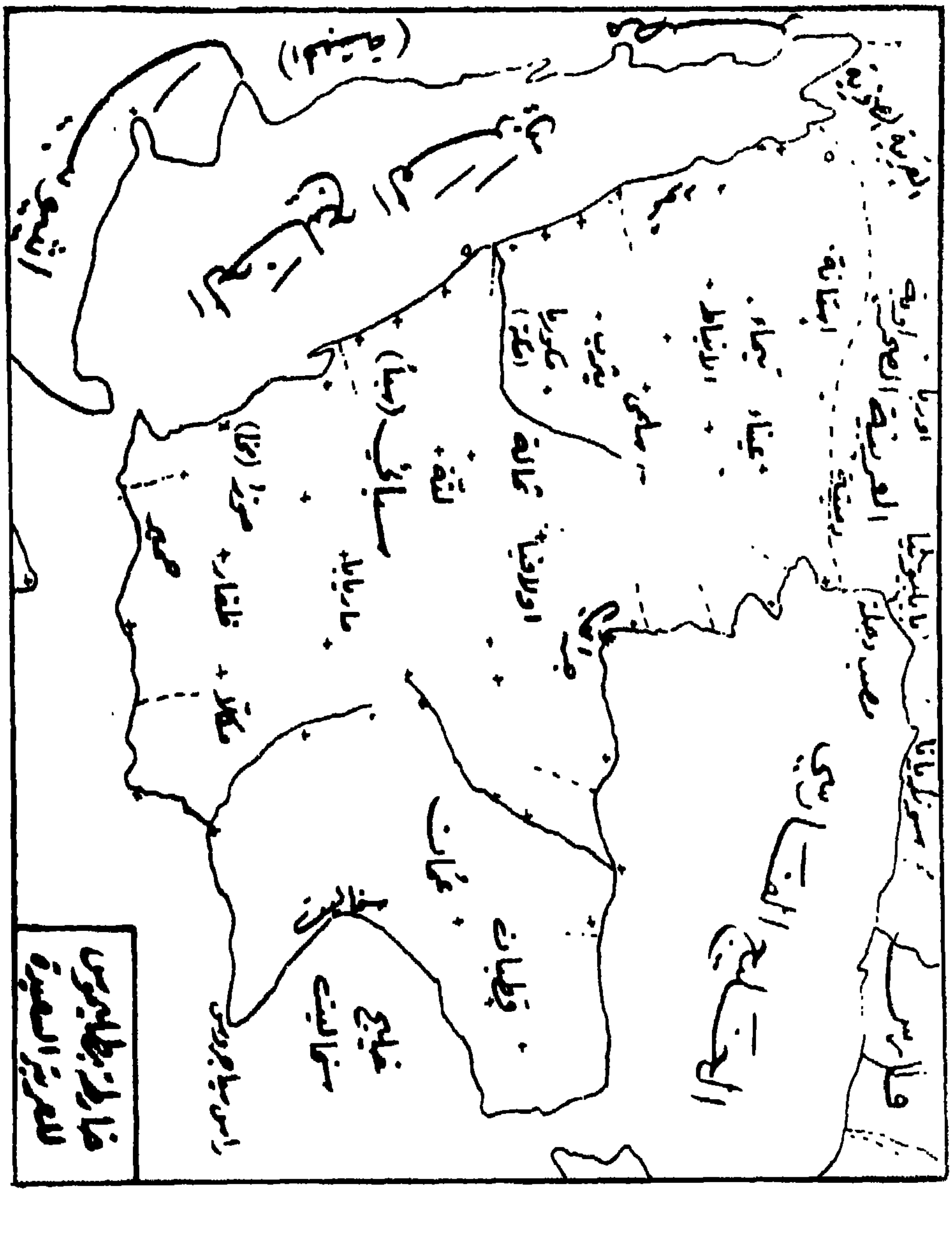
تميز المنطقة التي استقروا بها بأمطارها الوفيرة وقربها من البحر ومركزها الجغرافي الهام على خط الاتصال البحرى بالهند مما مكنهم من الاشتغال بنقل التجارة بين الهند والحبشة ومصر والشام والعراق، حتى أصبحوا في القرون الأولى قبل الميلاد أعظم وسطاء التجارة بين الحبشة والهند وبين الشام ومصر وسيطروا على الطريق التجارى البرى الذي يربط الجنوب بالشمال واستحقوا بجدارة لقب «فينيقي البحر الجنوبي» (34).

وقد تبين من الكتابات السبئية أن لقب حكام سبأ، لم يكن لقبا ثابتا مستقرا بل تعرض للتطور وبالتالى يمكن أن نقسم عصر الدولة السبئية إلى مرحلتين :

---

33) Burton : Rayal Inscriptions of Sumer and Akkad P. 115.
Hommel : Geographie und Geschichte des Alten Orients, 1 ; S, 142.
جواد علي:المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج 1 ص 258 ـ 260.

34) فليب حتى : تاريخ العرب ج 1 ص 63. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب قبل الاسلام ج 1 ص 108، 109.



المرحلة الاولى : (800 ـ 650 ق.م) مرحلة حكم المكارب أي المقربين من الآلهة فكان (المكرب) هو مقرب أو وسيط بين الآلهة والناس. وقد كان هؤلاء المقربون في الواقع كهانا واستمرت فترة حكمهم من 800 ق.م الى 650 ق.م وتمكن العلماء من جمع سبعة عشر مكربا، وردت أسماؤهم في الكتابات العربية الجنوبية. وكانت عاصمة الدولة السبئية من تلك المرحلة مدينة «صرواح» وهي على مسيرة يوم من مأرب وكان أهم بناء فيها هيكل المقه ـ الاله القمر يقوم على انقاض ابنتيها الرئيسية اليوم المعروفة بالخربة قرية صغيرة .

ومن أهم أعمال المكارب في هذه المرحلة الأعمال العمرانية العديدة التي قام بها بعض منهم وعلى رأسها سد مأرب وذلك بالإستفادة من مياه الأمطار وهو من المشروعات الخطيرة التي ترينا تقدم الشعوب العربية الجنوبية في فن الري وتحويل الأراضي القاحلة الى مزارع .

وقد ظل حكام سبأ يهتمون بالسد ويحدثون اضافات به ويرممون ما يتصدع منه. وتشير النقوش الى بعض الترميمات التي أجريت في عهد ابرهة الحبشى في (542 ق.م) الا أن تصدعا آخر وقع له بعد هذه السنة فأتى عليه واضطر أهالي مأرب إلى الهجرة إلى أرض جديدة. (35).

المرحلة الثانية : 650 ق.م ـ 115 ق.م

وهي مرحلة حكم «ملوك سبأ» ويبدأ في 650 ق.م ويمتد إلى 115 ق.م ويمتاز هذا العهد بإنتقال الحكومة من «صرواح» عاصمة المكربين العاصمة الأولى القديمة، إلى «مأرب» العاصمة الجديدة حيث استقر الملوك فيها متخذين القصر الشهير الذي صار رمز (سبأ)، وهو قصر (سلحن) أو (سلحين)، مقاما ومستقرا لهم، منه تصدر أوامرهم إلى أجزاء المملكة .

كما يمتاز هذا العهد بتجرد الحاكم من صفته الكهنوتية وبعد أن كان يجمع بين الكهانة والملك معا، أصبح ملكا علمانيا فقط وأطلق القوم عليه لقب ملك سبأ

---

35) جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج 1 ص 284 ـ 285، فليب حتى : تاريخ العرب ج 1 ص 70 ، 71 ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب قبل الاسلام ج 1 ص 109 – 111

أي أن الدولة السبئية بدأت كدولة تيوقراطية وانتهت علمانية على حد تعبير فليب حتى (36).

كما بدأت تظهر اسرات قوية لعبت دورا خطيرا في سياسة بلاد العرب الجنوبية، من بينها اسرة همدانية تمكنت من اغتصاب العرش من ملوك سبأ.

كما ظهرت آلهة جديدة لم يكن لهم شأن في الفترة السابقة مثل الاله (تالب ريام) وهو اله همدان، والاله (ذو سماوى) وهي أسماء تدل على وجود تطور دينى وفكري وإجتماعي وسياسي في الدولة السبئية.

ومنذ 350 ق.م تدهورت مكانة ملوك «سبأ» لأسباب متعددة منها احتكار الدولة البطلمية بمصر للتجارة الشرقية، منافسة الهمذانيين ورؤساء القبائل للدولة اذ كان ملوك سبأ يهدفون الى القضاء على استقلال الامارات ودمجها في المملكة ولكن عمل رؤساء القبائل على مقاومة هذه السياسة خوفاً على مصالحهم الاقطاعية مما ادى الى تعدد الثورات والأضرار بالحياة الاقتصادية للبلاد ومكن الدول الأجنبية من التدخل في شؤونها وانتقال السيطرة على التجارة البحرية الى اليونان والرومان.

وفي أواخر عصر ملوك سبأ ازداد الصراع حول العرش السبئي بين أمراء البيت المالك مما زاد الاضطراب في الدولة واهمال الأراضي الزراعية وتدهورها وتمكن الريدانيون والحميريون من استغلال هذه الظروف وانتزاع العرش السبئي. وأسسوا في سنة 115 ق.م اسرة جديدة لقب ملوكها «ملوك سبأ وذى ريدان» وهم الحميريون (38).

3 ـ الحميريون (115 ق.م ـ 525م)

والحميريون شعب لعب دورا خطيرا في سياسة العربية الجنوبية وكانت جمير من القبائل العربية المعروفة في جنوب الجزيرة عند الميلاد، فقد اعتبرها (بلينيوس) أكثر الشعوب العربية الجنوبية عددا وذكر عاصمتهم (ظفار). كما ذكر

36) فليب حتى : تاريخ العرب جـ 1 ص 70، 71.

37) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب قبل الاسلام جـ 1 ص 113.

38) وريدان هي التي تعرف الآن باسم «ظفار» وهي منطقة الساحل البحري.

مؤلف كتاب «الطواف حول البحر الارتيري» أن سلطتهم شملت منطقة واسعة من ساحل البحر الأحمر وساحل المحيط حتى حضر موت، كما كانوا يمتلكون ساحل (عزانيا Azania) في افريقية أي قسما من الساحل الشرقي. أما (مرقيانوس Marcianus) وقد عاش في القرن الرابع الميلادى فقد اعتبرهم من جملة قبائل الحبشة وتبعه في رأيه هذا كثير من الكتاب البيزنطيين. (39)

وقد عرفت الأرض التى أقام بها الحميريون بـ (ذى ريدان) نسبة إلى (ريدن) (ريدان) (40) قصر ملوك حمير بعاصمتهم (ظفار). وهو عند حمير بمثابة قصر (سلحن)، وقصر (غمدان) عند السبئيين .

وقد اتفق المؤرخون على أن عصر «ملوك سبأ وذى ريدان» والعصر التالي له المعروف بعصر «ملوك سبأ وذى ريدان وحضر موت ويمنت» هما العصران اللذان برز فيهما الحميريون على مسرح الأحداث في بلاد العرب الجنوبية، ولذلك اصطلحوا على تسمية هذين العصرين بعصرى الدولتين الحميرية الأولى والثانية .

الدولـة الحـميريـة الاولـى :

ومؤسس هذه الدولة التي استمرت من 115 ق.م إلى 300 م هو آل شرح يحضب الذي ينسب إليه الأخباريون بناء قصر غمدان أشهر قصور اليمن (41) وقد تميزت هذه الدولة بالأحداث التالية :

أ - الحملة الرومانية في 24 ق.م :

بعد استيلاء روما على مصر بعد القضاء على دولة البطالسة عنيت بالتجارة البحرية في البحر الأحمر وأوعزت إلى حاكم مصر (أوليوس جالوس) بغزو العرب للاستيلاء عليها والسيطرة على ثروتها العظيمة التي اشتهرت بها من تجارة المر

(39) Ency, Vol II, P. 310

(40) وقد أخذ حصن ريدان اسمه من حصن اقدم عهدا منه كان في قتبان بني عند ملتقى أودية ولما كان الحمريون يقيمون في هذه الأرض المعروفة بذى ريدان وذلك حينما كانوا اتباعا لمملكة قتبان، لذلك أطلقوا على الحصن الذي بنوه بظفار اسم حصن ذي ريدان تيمنا بإسم قصرهم القديم. انظر جواد على : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام جـ 1 ص 516 - 517.

(41) الهمداني : الاكليل جـ 8 ص 19 .

واللبان والبخور والأفاوية وكذا القضاء على قراصنة البحر المختبئين بسواحل الحجاز واليمن .

وقد رافق الحملة سترابون الجغرافي الشهير الذي قام بوصفها كما رافق الحملة صالح النبطى كدليل ومستشارا للرومان ممثلا لدولة النبط المتحالفة مع الرومان .

وقد شكلت الحملة من عشرة آلاف جندى من الرومان والمصريين والنبطيين و 500 من اليهود. وانتقلت الحملة بحرا من الساحل المصرى إلى الساحل العربي ولكنها فقدت الكثير من السفن بالبحر الأحمر وبعد مرور 15 يوماً رست بميناء (لويكة كومة) (42) حيث تفشت الأمراض بين الجنود .

سلكت الحملة الطريق البرى عبر الحجاز، وخلال ستة شهور تعرض الجنود خلالها لأمراض وأوبئة فضلا عن متاعب الطريق القاحل ومقاومة الاعراب، ثم عادت الحملة بعد ذلك إلى مصر عن طريق نجران بعد أن فقد قائد الحملة معظم رجاله من الجوع والمرض والمعارك كذلك برغم من انكار مؤرخ الحملة ذلك . وهكذا اخفقت الحملة الرومانية والقيت تبعتها على عاتق صالح النبطى الذي اتهم بالخيانة وسوء المشورة، كما اتهم بالسعى عمدا لهلاك جنود الرومان (43).

ب ـ التنافس حول الطريق البحرى عبر البحر الأحمر :

ونظرا لضعف الدولة الحميرية الاولى تطلع الرومان إلى احتكار الطريق التجاري عبر البحر الأحمر، والتخلص بذلك من اعتمادهم على تجار العرب في اليمن وحضرموت، اذ اعتقد الرومان أن «بلاد العرب كلها كانت تفوح بالعطر والطيوب» وخاصة بلاد «السبأيي» وهي اخصب تلك الأراضي على الإطلاق ثمارها المر واللبان والقرفة. حتى فاقت «السبأى الجميع ثروة بما يتوافر في أرضها من ادغال ذات

---

42) وميناء لويكة كومة هو ميناء النبط منه تنقل البضائع إلى بترا وهو المعروف بالحوراء أو ينبع على ساحل الحجاز .

43) جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج 2 ص 44 ـ 47، فليب حتى : تاريخ العرب ج 1 ص 58 ـ 59، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب قبل الاسلام ج 1 ص 114 ـ 115 .

عطور ومناجم ذهب وامواه للري وهي تنتج العسل والشمع بكثرة ... فلو تحريت هذه الأقطار تماماً علمت أنها أغنى بلدان الأرض قاطبة بما يتوارد اليها من كنوز»(44)»

وكان ميناء لويكة «كـومة أو المـدينة البيضـاء» أهم الموانىء التجارية على سواحل الحجاز في أيام البطالسة، ومن هذا الميناء كانت السفن تصل إلى الساحل المصري لتفرغ حمولتها هناك، فتنقل منه بالقوافل البرية أو السفن عبر القناة القديمة الموصلة بين البحر الأحمر والنيل إلى داخل البلاد .

ورأى الرومان بعد أن اخفقت حملتهم على اليمن أن يقتصروا على السيطرة على الطريق التجاري البحري المذكور وإقامة علاقات ودية مع حكومة الحبشة. وقد أضر ذلك باقتصاديات اليمن إضرارا بالغاً أكثر مما اضربها تهدم سد مأرب (45).

جـ ـ قيام الفتن والاضطرابات :

وقد وقعت اضطرابات في هذا العهد، دامت حوالي قرن ونصف لم تنعم اليمن في خلال هذه المدة بالراحة والاستقرار. فنجد في الكتابات التي وصلت إلينا عن هذا العهد ذكر فتن وحروب وأوبئة وغزوات. ونجد ملوكاً واقطاعيين يحاربون بعضهم بعضاً. ويعزو الباحثون سبب ذلك إلى إدخال الخيل في الحروب واحلالها محل الجمل. مما ساعد على حركة القتال. وفي نقل الحروب بصورة أسرع إلى جبهات كان الجمل يصل إليها بصعوبة وبطء وكذا إلى تحسين صناعة السروج التي كان يستعملها المحاربون الفرسان في هذه الحروب والاضطرابات .

فقد أدى استعمال الخيل في الحروب وتحسين سروجها الى تطور خطير في أسلوب القتال. كما ادى إلى ظهور قوة محاربة صار لها نفوذ في الأحداث وفي سياسة جزيرة العرب، هي قوة الأعراب .

فقد أدى استخدام البدو للخيل إلى امعانهم في الغزو والى اغارتهم على الحضر طمعاً في أموالهم وفي ما عندهم من أمتعة ومال. كما ادى الى الاكثار من

---

44) انظر وصف هيرودوس وسترابو وبلينيوس بكتاب تاريخ العرب لفليب حتى جـ 1 ص 59 ـ 60.

45) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب قبل الاسلام جـ 1 ص 116.

غزوهم بعضهم بعضاً، والى التدخل في شؤون الحكومات. وصار لهم نفوذهم في الأمور السياسية والعسكرية في العربية الجنوبية واضطرت حكومات على أن تحسب لهم حسابا، كما استخدموا الأعراب في قتالهم مع الحكومات الأخرى المنافسة لها (46).

الـدولـة الحميريـة الثانية :

استمرت هذه الدولة من 300م حيث أصبح اللقب الملكي في جنوب بلاد العرب هو «ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنات» ويستنتج من ذلك أن حضرموت في تلك المرحلة كانت فقدت استقلالها. ثم أضيف إلى هذا اللقب قسم آخر «وعربهم في الجبال وفي التهامة» وسقطت الدولة في 525م على أيدي الأحباش.

أ ـ الغـــزو الحبـشي الأول :

وقد تميزت الدولة الحميرية الثانية بالتعرض لغزو الأحباش المتكرر اعتبارا من القرن الثاني والثالث للميلاد وأهم هذه الغزوات خلال الفترة من (340 ـ 378م) حيث تلقب ملك الحبشة «ملك اكسوم وحمير وريدان وحبشة وسلح وتهامة» (47) ولكن الأحباش مالبثوا أن فارقوا اليمن واسترجعت حمير سيادتها واسترد ملوكها القابهم إلى ما يقارب 525 م.

ومن أشهر ملوك حمير الثانية شمر يهرعش المعروف عند الاخباريين المسلمين باسم «تبع الأكبر» وقد نسبوا اليه اخضاع الأقطار حتى سمرقند وبسط نفوذه على الهند وأرض الصين (48) وتدل هذه الروايات الأسطورية على قوة شمر يهرعش واخضاعه لمناطق كثيرة في بلاد العرب الجنوبية.

ب ـ انتشار المسيحية واليهودية :

أخذت المسيحية في الانتشار والتسرب إلى الجنوب منذ بدأيتها مع رجال الدين السوريين الهاربين من الاضطهاد الروماني الوثني وبعد أن اتخذت الدولة

---

46) Le Muséon, 1964, 3 - 4, P. 462.

47) Nielsen : Handbuch, vol I, P 104.

48) الهمداني : الاكليل جـ 8 ص 225 .

البيزنطية من المسيحية ديانة رسمية للدولة عمل الاباطرة على تشجيع ارسال البعثات التبشيرية والارساليات الدينية الى بلاد العرب بهدف تقوية نفوذهم فيها وضرب النفوذ الفارسي .

ففي 356م أوفد الامبراطور قسنطيوس بعثة تبشيرية بقيادة ثيوفيلس الآريوسى لادخال قبائل جنوبي الجزيرة الى المسيحية وقد نجح هذا الراهب في عدن وأرض حمير حيث تحول بعض سكانهما الى المذهب الاريوسى اما نجران فقد اعتنقت المذهب المنوفيزى على يد رجل ورع قدمها في نحو 500م من سورية يسمى فيميون وقد أورد كل من ابن هشام والطبرى حكاية هذا الزاهد وقصة اسره بمعرفة قافلة عربية نزلت به نجران (49).

ويستفاد من أقدم المصادر السريانية أن المسيحية لم تقتصر على نجران فقط بل تعدتها الى ظفار وحضرموت ومأرب أيضاً (50).

أما بالنسبة للديانة اليهودية فقد انتشرت أيضاً في اليمن في عهد الدولة الحميرية الثانية اعتبارا من خضوع فلسطين لإدريانوس وبعد تدمير بيت المقدس على يد ادريانوس في 70م ولو لاحظنا اسماء اليهود المقيمين في الجزيرة لرأينا أن معظمهم اراميون وعرب متهودون وليسوا من ذرية ابراهيم الخليل .

وأخذ ساعد اليهودية يشتد حتى اذا أقبل القرن السادس للميلاد صارت لها صولة في اليمن بحيث أن آخر ملوك حمير وهو ذو نواس (سليل تبع اسعد كامل) كان يهوديا .

واشتدت المنافسة بين عرب الجنوب الذين انضموا تحت لواء هاتين الديانتين (المسيحية واليهودية) فانقلبت عداء مريرا ويبدو أن ذا نواس اليهودى ادرك أن الاحباش يطمعون في السيطرة على بلاد اليمن لضمان توزيع البضائع الحبشية وضمان عدم تعرض تجارهم للاعتداءات التي كان يمارسها الحميريون ويبدو أن نفوذ الأحباش على اليمن ظل قوياً بالرغم من تحرير اليمن من حكمهم، ولعل هذا النفوذ أو الضغط السياسي الذي كان يمارسه ملك الحبشة على اليمن جعل ذو

---

49) انظر سيرة ابن هاشم ص 20 ـ 22، تاريخ الرسل والملوك ج 1 ص 919 ـ 952 .

50) راجع، Axel Moberg : The Book of the Himyarites P. 175 - 180.

نواس يربط بين انتشار المسيحية في اليمن وبين ازدياد نفود الاحباش السياسي في البلاد ولذلك عول على تحويل نصارى نجران عن دينهم بالقوة .

قام ذو نواس بمهاجمة نجران أكبر مركز للمسيحية في اليمن في سنة 523م وخير أهلها بين نبذ المسيحية أو القتل حرقا، فتخيروا القتل، وأثروا الاستشهاد، فحفر لهم اخاديد احرقهم فيها وأحرق إنجيلهم، وقد ذكرهم الله تعالى في القرآن الكريم في سورة البروج اذ يقول تعالى : «قتل أصحاب الاخدود. النار ذات الوقود. اذهم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم الا ان يؤمنوا بالله العزيز الحميد» (51).

استنجد المسيحيون بدولتى الحبشة وبيزنطة المسيحيتين اذ يذكر وهب ابن منبه أن «رجلا يقال له ذو ثعلبان واسمه دوس، سار في البحر الى ملك الحبشة فأخبره بما فعل ذو نواس بأهل دينه، فكتب ملك الحبشة الى قيصر يعلمه بما فعل ذو نواس ويستأذنه في التوجه إلى اليمن» (52) بينما يروى اليعقوبي «فسار رجل منهم الى النجاشى، وهو على دين النصرانية، فوجه النجاشي الى اليمن بجيش عليهم رجل يقال له أرياط وهم في سبعين ألفا» (53) وذكر الطبرى أن دوس «أبو ثعلبان» سار الى ملك الروم، فكتب إلى النجاشى ملك الحبشة يأمره بنصر ذى ثعلبان وأخذ ثأر المسيحيين (54).

وكيفما كان الأمر فقد هاجمت الحبشة، اليمن «فسار اليهم ذو نواس، فلما التقوا انهزم ذو نواس، فلما رأى ذو نواس افتراق قومه وانهزامهم ضرب فرسه، واقتحم به البحر، فكان آخر العهد به» وهكذا انتهى آخر ملوك حمير الثانية. (55).

ولهذه الحملة أهمية في دراسة العلاقات الخارجية بين اليمن وجيرانه وتطور الأوضاع وتطلع بيزنطة الى الاستعانة بالحبشة لكي تبسط سلطانها على قبائل العرب وتستعين بهم في منافسة الفرس .

---

51) القرآن الكريم : سورة البروج (86) آية 4 ـ 8.

52) كتاب التيجان ص 301 .

53) أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب (ابن واضح) : تاريخ اليعقوبي ج 1 ص 199 .

54) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج 2 ص 927 ـ 928.

55) ابن واضح : تاريخ اليعقوبي ج 1 ص 199 ـ 200 .

وانتصر الأحباش سواء في موقعة 523م أو موقعة 525م وانتهى بهذا الانتصار عصر استقلال اليمن .

4 ـ الاحتلال الحبشي والفارسي لليمن 525م ـ 628م

أ ـ الاحتلال الحبشي 525م ـ 575م :

صلات العرب بالحبشة صلات قديمة ترجع إلى ما قبل الميلاد. فبين السواحل الافريقية المقابلة لجزيرة العرب وبين السواحل العربية اتصال وثيق قديم، وتبادل بين السكان. اذ هاجر العرب الجنوبيون إلى السواحل الافريقية وكونوا لهم مستوطنات هناك، وهاجر الأفارقة إلى العربية الجنوبية، وحكموها مرارا، وقد كان آخر حكم لهم عليها قبل الإسلام بأمر قصير .

ويرى بعض الباحثين أن أصل الحبش من غرب اليمن من سفوح الجبال، وفي اليمن جبل يسمى (حُبَيْش) ، قد يكون لإسمه صلة بالحبش الذين هاجروا إلى إفريقية وأطلقوا اسمهم على الأرض التي عرفت بإسمهم، أي (حبشة أو الحبشة (56) وان كان يمكن الرد على هؤلاء الباحثين بأن وجود الجبل المسمى (حُبَيْش) قد ترجع تسميته الى الأحباش الذين انتقلوا إلى اليمن وليس العكس والأمثلة التاريخية تدل على أن كثيراً من الأماكن نسبت إلى من نزل بها وأشهرها جبل طارق نسبة إلى طارق إبن زياد فاتح الأندلس .

وكان ملوك الحبشة (اكسوم) وثنيين الى القرن الرابع الميلادي ويعتقد أن الملك (عزانا) Ezana هو أول ملوك الحبشة الذين اعتنقوا الديانة المسيحية كما فرض سيطرته على اليمن وما جاورها اذ تلقب «ملك أكسوم وحمير وريدان وسبأ وسلحن» ويبدو أن اليمنيين تمكنوا من طرد الأحباش، الى أن عادوا مرة أخرى في 525م (57).

فقد دخل الاحباش اليمن أعوانا ثم مالبثوا أن أصبحوا فاتحين ونشأ صراع بين قواد الأحباش حول الحكم فالمصادر العربية تذكر انقسام الجيش الحبشي الى

---

56) انظر جواد على:المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج 3 ص 449.

57) فليب حتى : تاريخ العرب ج 1 ص 83 .

قسمين الأول بقيادة أرياط والثاني بقيادة أبرهة وحسم هذا الصراع بتبارز كل من القائدين وانتصر أبرهة وأقره النجاشي على سلطان اليمن . (58) .

أما رواية المؤرخ (بروكوبيوس Procopius) المتوفى في حوالي 560م المعاصر لأحداث الحملة الحبشية فتذكر أن الذي حكم حمير بعد مقتل ذو نواس رجل من نصارى حمير يدعى السميفع أشوع اختاره النجاشي، غير أن جنود الحبشة باليمن ثاروا عليه وأقاموا بدلا منه ابرهة وحاول النجاشي القضاء على ثورته وحينما توفى، صالح ابرهة خلفه على دفع جزية سنوية مقابل الإعتراف به نائبًا باليمن لملك الحبشة. (59) .

فرض ابرهة سيطرته على اليمن وتلقب باللقب الرسمي لملوك حمير «أبرهة نائب ملك الجعزيين ..... ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنت وأعرابها في النجاد وفي تهامة» مع الإعتراف بنيابته للنجاشي.

وحينما أصبح ابرهة الرجل الأول باليمن خطب جيرانه وده لاستقطابه وتنفيذ سياسة كل منهم فوفدت عليه بمأرب وفود نجاشي الحبشة رئيسه الأسمى ووفود امبراطور بيزنطة الحليف الدينى ووفود امبراطور فارس الذي حاول استمالته ووفود كل من امارتي الحيرة والغساسنة العربيتين بشمال شبه الجزيرة .

وقضى ابرهة على ثورة يزيد بن كبشة أحد زعماء الحميريين والذي أنابه ابرهة عنه لحكم قبيلة كدة ودا، فانضم اليه غيره من زعماء الحميريين فأرسل ابرهة حملات متتالية للقضاء على الثورة مما اضطر زعيمها يزيد بن كبشة الى الاستسلام .

توج ابرهة أعماله ببناء كنيسة كبيرة بصنعاء اطلق عليها القليس (60) وعقد النية على تحويل البلاد الى الديانة المسيحية والقضاء على مكانة مكة مركز الحج في الحجاز والمزار المقدس لمعظم القبائل العربية وتحدثت العرب بذلك، فغضب رجل من بنى فقيم وآخر من بنى مالك من أهل مكة فخرجا حتى اتيا القليس

---

58) الدينوري : الأخبار الطوال ص 62، ابن واضح : تاريخ اليعقوبي ج 1 ص 199 ـ 200، الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج 1 ص 933، المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ج 2 ص 78 .

59) Procopius : History of the Wars, Musil, Palmyrena, I,XX,1 2,9 - 13.

60) القليص من اكليسيا اليونانية وهي تعني البيعة من الوثنيين لاعتناق المسيحية .

فدنساها ثم عادا إلى مكة، وعلم ابرهة بما حدث للقليص فأقسم لَيَسِيرَنّ الى البيت الذي تحج إليه العرب ويهدمه. ثم أمر بتجهيز جنده من الحبشة للحرب. وتعرف سنة حملة ابرهة بعام الفيل (570 أو 571م) – وهي سنة مولد الرسول ـ لأن ابرهة اعتمد في تكوين جيشه على الفيلة ولم تكن الفيلة مألوفة عند عرب الحجاز.

لما اقترب ابرهة من مكة بث طائفة من جنده للغارة، فأصابوا إبلا لعبد المطلب وعندئذ اتاه عبد المطلب وكان وسيمًا فعظمه ابرهة وهابه وسأله عبد المطلب ابله فقال له ابرهة الاتسألني الرجوع؟ فقال عبد المطلب: أنا رب هذه الابل، وللبيت رب سيمنعه منك.

وعندما عزم ابرهة على هدم الكعبة برك الفيل بالمغمس «فلم يحرك، ونخس بالرماح، فلم ينهض، ثم بعث الله على الجيش طيرا، مع كل طير ثلاثة أحجار، فألقتها عليهم، فلم ينج منهم شفر» (61).

ويربط الباحثون بين ما أصاب جيش ابرهة بسبب هذه الطيور وبين وباء تفشى في جيشه مما كان سبباً في هذه الكارثة، فقد اشارت بعض المصادر العربية الى أن وباء الحصبة والجدري أول ما عرف بأرض العرب في عام الفيل. كما يذكر المؤرخ بروكوبيوس أن الجدري ظهر في بيلوز سنة 544م وفي القسطنطينية في سنة 569م وهو قريب من الوقت الذي ظهر فيه الوباء في جيش أبرهة حول مكة. (62).

كما يذكر بعض الباحثين أن حملة أبرهة قامت بتحريض من بيزنطة التي

---

61) وقد ذكر الله تعالى في كتابة العزيز قصة أبرهة وأصحابه بقوله تعالى: «ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل. ألم يجعل كيدهم في تضليل. وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل. فجعلهم كعصف مأكول.»

انظر القرآن الكريم: سورة الفيل 105.، البلاذرى: انساب الأشراف ص 67.

62) ابن هشام: السيرة ج 1 ص 56، ابن سعد: الطبقات ج 1 ص 56، وهب بن منبه: كتاب التيجان ص 303، الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج 2 ص 945، يوسف أحمد: المحمل والحج، ص 77، جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج 3 ص 507 ـ 520، السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب قبل الاسلام ج 1 ص 139 ـ 143.

كانت تتوق إلى الاشتباك بعدوتها القديمة، فارس، في الجنوب أيضا وذلك عن طريق اختراق بلاد العرب (63)..

وكيفما كان الدافع لحملة أبرهة إلى مكة فقد عاد إلى اليمن منهزمًا وهلك بعد عودته فخلفه ابنه يكسوم واستمر حكمه الى أن توفى (64) فخلفه اخوه مسروق وتميزت فترة حكم كل من الاخوين بالظلم الغاشم واتباع السياسة التي تقوم على اذلال أهل اليمن والاعتداء على أعراض الناس وأموالهم، حتى ضج أهل اليمن وثاروا عدة مرات في مواضع متعددة غير أنهم فشلوا بسبب اختلاف زعماء حمير وتعدد الثورات وبعدها عن بعض مما سهل على الأحباش القضاء عليها تلو الأخرى .

ب ـ النفوذ الفارسي 575م ـ 628م

وفي خلال هذه المرحلة ظهر سيف بن ذي يزن (معد يكرب ابن أبي مره) وكان من اشراف حمير (65) وتفيد الرواية العربية ان سيفا تطلع للحصول على المدد من امبراطور بيزنطة لتحرير بلاده ولكن بيزنطة كانت دولة مسيحية تربطها أواصر الاخاء الديني بالحبشة، فرفض طلبه، فصار الى ملك الحيرة الذي قدمه إلى امبراطور الفرس بالمدائن الذي أمده بثمان مائة محارب عاونوه على هزيمة الأحباش واخراجهم من اليمن في 575م.

ونشأت على انقاض ذلك حكومة مزدوجة تقلد سيف فيها ولاية اسمية على البلاد وأقام لنفسه مجلسًا في قصر غمدان القديم وكان الفرس يتدخلون في شؤون اليمن حتى جعلوها ولاية خاضعة لفارس ففقد العرب جلية الأمر وأدركوا أنهم بدلوا سيدا أجنبيًا بآخر .

---

63) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص 16 .

64) حازت سيرة سيف وأنباء حروبه مقاما عظيما في حكايات الفروسية عند العرب، ثم [illegible] في مصر من نقح مادتها وهذب ألفاظها وحسن فصولها وذلك في أثناء القرن 14م وأصبحت موضوع بهجة السامعين تتناولها السنة القصاصيين إلى اليوم في مجالس القاهرة وبيروت وبغداد. انظر فليب حتى: تاريخ العرب ج 1 ص 86.

65) يذكر كل من المسعودى ان فترة حكم يكسوم استمرت 20 عامًا والدينوري 19 عاما وحمزة الاصفهاني 17 عام. الا آن ذلك يتعارض مع حملة سيف بن ذي يزن والفرس على اليمن في 575م.

انظر: مروج الذهب ومعادن الجوهر ج 2 ص 80، الأخبار الطوال ص 63، تاريخ بنى ملوك الأرض والانبياء ص 89، جواد على: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج 3 ص 524 ـ 531.

اذ إشترط الامبراطور الفارسي على ابن ذي يزن، ان يتزوج الفرس من نساء اليمن، ولا يتزوج اليمنيون من نساء الفرس، وان يحمل ابن ذى يزن الخراج اليه، ولضمان تنفيذ ذلك بقي قائد حملة الفرس المعاونة ويدعى وهرز في صحبة ابن ذي يزن .

ويبدو أن الفرس طمعوا في ملك اليمن لأهميته الاقتصادية ولعل سيف ابن ذي يزن أحس بتدخلهم في شؤون البلاد، فعمد الى التخلص منهم، وفطن الفرس الى ما ينتويه، فتآمروا على قتله مع العبيد الاحباش الذين خصصهم ابن ذي يزن للسير بين يديه بالحراب اذا ركب، فاختلوا به يومًا، فقتلوه، وفروا الى الجبال .

وتتابع على اليمن ولاه من قبل الأكاسرة بفارس اختلف المؤرخون العرب في ذكر أسمائهم، إلى أن دخلت اليمن في الاسلام ففي سنة 628م اعتنق باذان، عامل الفرس على اليمن الاسلام. (66).

---

66) حمزة الاصفهاني : تاريخ سنن ملوك الأرض والأنبياء ص 90، المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر ج 1 ص 80 ـ 88، الطبرى، تاريخ الرسل والملوك ج 2 ص 947 ـ 958، جواد على المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج 3 ص 521 ـ 531، فليب حتى : تاريخ العرب ج 1 ص 86 ـ 87.. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب قبل الإسلام ج1 ص 150 ـ 151.

ممالـــك شـمـال الجـزيرة

1 ـ مملكة الانباط (النبط) (587 ق.م تقريبًا. 106م)

نشأت دولة النبط في المنطقة الشمالية الغربية من جزيرة العرب، في المكان الذي يعرف بإسم (العربية الحجرية) عند اليونان والرومان. واتخذت من مدينة البتراء Petra وهي تعني الحجر أو الصخر عاصمة لها وهي تقع على بعد 50 ميل جنوب البحر الميت الآن وتدل بقايا العاصمة على أهميتها وما بلغته من مستوى حضاري رفيع مثل (خزنة فرعون)، وقوس النصر، وهياكل، وقبور عدة. وبقايا آثار مسرح عظيم منحوت في الصخر يتسع لاربعة آلاف متفرج .. بعضها على الطراز النبطي القديم، وبعضها متأثرة بالفن المصري أو الآشوري أو اليوناني أو الروماني .

والانباط (النبط) من الشعوب العربية، نزحوا من البوادي الى أعالي الحجاز فاقاموا بها، ثم سرعان ما استقروا وتحضروا وأقاموا يفلحون الأرض ويزرعون وأقاموا لهم مستوطنات زراعية، واستقروا في المدن والقرى، ثم احترفوا التجارة وقيادة القوافل التجارية التي تنقل التجارة بين مختلف الأمكنة. وفي مطلع القرن السادس قبل الميلاد نزح الانباط من موطن استقرارهم (شرق الأردن الحالية) إلى أرض الادوميين ثم امتدت سلطة الأنباط من قاعدتهم البتراء الى النواحي المجاورة .

فقد كان ميناء (غزة) ميناء النبط المفضل على البحر المتوسط، اذ كان الميناء الوحيد لتصدير تجارة العرب في حوض البحر المتوسط وقد استفاد الأنباط من ذلك فصاروا يشترون منه مايرد اليه من بضائع موانئ البحر المتوسط، ثم يحملونها الى بلادهم فيبيعونها للتجار العرب القادمين من الحجاز ومن العربية الجنوبية ومن أماكن أخرى من جزيرة العرب مقابل ما عندهم من تجارة ثم يحملونها الى ميناء (غزة) لبيعها في أسواقه، وبذلك حصلوا على أرباح طائلة من وساطتهم التجارية. (67) .

وتتميز بلاد الأنباط بأنها بلاد جبلية قفراء، قليلة المياه، تكثر فيها المرتفعات الصخرية الوعرة، وقد انعكست هذه الطبيعة الوعرة على النبط، فطبعتهم بطابعها، ولذلك عرف الأنباط بشده المراس والعنف، كما عرفوا بميلهم إلى الغزو. وساعدتهم

67) انظر جواد على: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج 3 ص 53،10،9،6 .

هذه البيئة الصخرية على مقاومة اعدائهم، فصعب على الأشوريين أو الفرس أو الاغريق قهرهم.

وقد استغل الأنباط الانقسام بين قواد الاسكندر، بعد موته على توسيع حدود مملكتهم من غزةالى ايله، ففي عهد الحارث الثالث النبطي (87 ـ 62 ق.م) اشهر ملوك الأنباط امتدت سلطة الأنباط إلى مدينة دمشق وعلى الأقاليم الملحقة بها بما فيها منسهول مثل سهل البقاع. ولقد بلغت مملكة الأنباط أوج عزها في عهد الحارث الرابع (9.ق.م) ـ 40م)) (68).

ولقد عاصرت دولة الأنباط كلاً من الدولة السلوقية بالشام والبطالسة بمصر والرومان بعد السيطرة على البطالسة. وبينما تميزت علاقتهم بالسلوقيين بالعداء في حوالي 312 ق.م استطاعوا صد حملتين أرسلهما عليهم انتجونس ملك سورية. الا أنهم حالفوا الرومان. فقد التمس يوليوس قيصر من ملكهم كتيبة من الخيالة لمعاونته على غزو الأسكندرية في 47 ق.م، كما اشتركوا في حملة ايليوس جالوس الروماني على بلاد العرب في سنة 24 ق.م، وانتهى هذا التحالف حينما قضى الامبراطور تراجانوس الروماني على مملكة الأنباط.ففي 106م غزا النائب الروماني لسورية، العاصمة البتراء واستولى عليها وادمجت في الممتلكات الرومانية. (69).

وحضارة الأنباط حضارة مركبة على حد قول فليب حتى فهي عربية في لغتها، آرامية في كتابتها، سامية في ديانتها، ويونانية رومانية في فنها وهندستها المعمارية، ولكنها مع كل ذلك عربية في جوهرها .

فلغة الأنباط لهجة عربية شمالية، فكثير من الكلمات الواردة في النقوش النبطية المكتشفة عربية خالصة، بل ويلاحظ في بعض النقوش أن عبارات بأكملها تكاد تكون عربية .

---

68) لانكستر هاردنج: آثار الاردن ص 117، رينيه ديسو : العرب في سوريا قبل الاسلام ص 10، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب قبل الاسلام ج 1 ص 158 ـ 159 .

69) W. Glueck : The story of the Nabateans P. 542 - 43
Sir Alexander B.W. Kennedy : Petra, its History and Monuments, London, 1925, p. 30 - 33 Murry : The Rock city Petra, P, 80.
فليب حتى : تاريخ العرب ج 1 ص 89 ـ 90، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ج 1 ص 419 ـ 420.

كما أن أغلب الأسماء الشائعة عندهم تشبه الأسماء التي كان يستعملها عرب الجنوب وعرب الشمال في شبه الجزيرة، من هذه الأسماء حارثه ومالك وكليب وقصى وعدى وعمرو وعميرة .

كما شارك الأنباط العرب، في عبادة بعض الأصنام المعروفة في الحجاز في العصر الجاهلي مثل : «ذى الشرى»، المعروف عندهم «بذو شرى» وهو الاله الرئيسى عندهم، والات «الت» اله القمر وهى أم الالهة، ومناة «منوتن»، وهبل «هبلو»، و «شيع القم» أي حامى القوم وهو إله القوافل (70).

وحضارة الأنباط تقوم أساسًا على التجارة، إذ أن البتراء كانت المركز التجاري والاقتصادي الرئيسى للطرق التجارية مابين غزة وبصرى، ومابين دمشق وأيله، وقد امتد النشاط التجاري للأنباط الى مناطق نائية، فقد عثر على آثار تجارتهم في سلوقية والأسكندرية وردس ومليتوس وموانئ سورية.

وكانت أهم السلع التي يقومون بالتجارة فيها العطور والطيوب اليمنية، والمنسوجات الحريرية من دمشق والصين، والحناء العسقلاني، واللآلئ من الخليج العربي، هذا بالإضافة إلى بعض المنتجات المحلية كزيت السمسم، والذهب والفضة .

ومن ناحية الصناعات كانت صناعة الأوانى الفخارية أهم ماكانوا يشتغلون به من صناعات، وكان فخارهم من الرقة ودقةالصناعة بحيث كان لايقل في الجودة عن الخزف الصيني، وتعتبر القطع الخزفية التي أسفر عنها الكشف الأثري سواء كانت هذه القطع خاصة بالكؤوس أو الصحون عن تفوق في هذه الصناعة، فهي من الرقة بحيث تشبه قشر البيض . (71).

أما بالنسبة لنظام الحكم فالملك هو رئيس الدولة والشخص الوحيد الأعلى للحكومة، وهو الذي يختار من يوكل إليهم ادارة الأعمال وتسيير أمور الرعية وأطلق على الملوك صفات تدل على العلاقة الأبوية بين الملك وشعبه مثل (الملك المحب لشعبه) أو (الملك الرحيم بشعبه).

---

70) جواد على:المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج 1 ص 29، 96، 47، فليب حتى : تاريخ سورية ج 1 ص 426. صالح أحمد العلى : محاضرات في تاريخ العرب ج 1 ص 42، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب قبل الاسلام ج 1 ص 167 ـ 168.

71) فليب حتى : تاريخ سورية ج 1 ص 425 ، 431، لانكستر هاردنج : آثار الأردن ص 116

وللملك حاشية مقربة منه، يوكل إليها النظر في المسائل العليا للدولة وتقديم الاستشارة ويطلق على أفراد هذه الحاشية (اخوة الملك) ويبدو انها تكونت من أفراد الطبقة الأرستقراطية بالمجتمع النبطي .

ويلاحظ أن المرأة النبطية كانت تتمتع بمكانة عالية، ومنزلة رفيعة، فقد كان من عادة الأنباط ذكر أسماء الملكات على نقودهم بجانب أسماء الملوك مثل (شقيلة أخته، ملكة النبط) أو (شقيلة أمه، ملكة النبط) وهكذا بالإضافة إلى رسم رأس الملك ورأس الملكة معه على وجهي العملة المضروبة .

ويبدو أن الأنباط كانوا مولعين بالشراب والخمور، فصور الكروم تنتشر فوق ما نقشوه من حجارة، وقد اظهروا براعة فائقة في حفر صور الكروم وعناقيدها على الألواح الحجرية. (72).

2 ـ مملكة تدمر (300 ق.م تقريبا. 273م)

وتعرف تدمر باسم Palmyra عند الرومان واليونان، التي أتت من لفظة Palma اللاتينية ومعناها نخل أو نخلة. ويقال أن الذي أطلق عليها إسم Palmyra أي مدينة النخل هو الاسكندر الأكبر بعد أن استولى عليها وذلك لما يكتنفها من غابات النخل العظيمة .

أما عن تأسيس المدينة فيرى علماء التوراة أن سليمان هو الذي قام ببناء تدمر وقد أيد ذلك كل من المؤرخ يوسفوس اليهودي والروايات العربية التي اعتمدت على ما استقته من أهل الكتاب فقد ذكر ياقوت الحموي أن قوماً يزعمون انها مما بنته جن سليمان. (74) مما يدل أن المدينة (تدمر) قد اكتسبت شهرة كبيرة فيما بين 300 ق.م، 200 ق.م .أيام تدوين أسفار (أخبار الأيام).

وبعد موت الاسكندر صارت تدمر من نصيب السلوقيين، وقد حاولت تدمر أن تقف على الحياد بين الفرس والرومان ويبدو أنها نجحت لفترة من الزمن، اذ كان من

---

72) J. Cantineau : le Nabatéen, I, 1932, P. 5 - 6

جواد على : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج 3 ص 51 ـ 53 .

73) Dhorme : Palmyre dans les Textes Assyriens, Revue Biblique, 1924, p.p. 166.

74) ياقوت الحموي : معجم البلدان ج 2 ص 369 ، الدينوري : الأخبار الطوال ص 20.

مصلحة كل من الفرس والرومان وجود ولاية فاصلة محايدة بينهما، كي يتمكن تجار الامبراطوريتين من التجارة فيه ومن التسوق منه .

وهكذا ظهرت تدمر كحلقة هامة في سلسلة عالم التجارة تمر بها القوافل تحمل أثمن البضائع.وكانت على إتصال بأسواق العراق وما يرد إليها من بضائع إيران والهند والخليج والعربية الشرقية، كما كانت على إتصال بأسواق البحر المتوسط وخصوصاً أسواق الشام ومصر، كما كانت على إتصال بالعربية الغربية وبأسواقها الغنية ببضائع افريقية الشرقية والعربية الجنوبية والهند .

وقد اقتضت هذه الأعمال التجارية الواسعة تكوين علاقات سياسية واقتصادية مع الفرس والرومان والقبائل العربية في البادية التي لم يكن من الممكن مرور قوافلها في أرضها بسلام مالم يتفق مع سادتها على دفع اتاوة سنوية. ثم قام التدمريون بتكوين جيش قوى لحماية قوافلهم واستغنوا عن دفع الأتاوة السنوية لزعماء عرب البادية (75).

ويمكن أن نلاحظ أن تاريخ تدمر ينقسم الى مرحلتين :

الأولى مرحلة النفوذ الروماني : (41 ق.م ــ 250 م)

ففي سنة 41 ق.م حاول القائد الرومانى مركوس انطوينوس أن يستولى على تدمر ولكنه هزم وحل الخراب بالمدينة التي أصبحت ركاماً .

والراجح أن تدمر دخلت ضمن النفوذ الروماني منذ 17م، وذلك لصدور قرارات رومانية رسمية بشأن الرسوم الجمركية التي تجبى عن البضائع. ولكنها لم تفقد الحكم الذاتي قط بل بقيت تدير شؤونها بنفسها ولم يكن اعترافها بسلطان رومة إلا اعترافاً اسمياً. بيد أن أهلها لذلك العهد اخذوا ينتحلون لأنفسهم أسماء رومانية .

كما كون الرومان فرقاً من الجنود التدمريين المرتزقة الذين التحقوا بالجيش الروماني، اذ اشتهروا بفن الرماية وكانوا خيرة الرماة بالسهام وكذا في قتال البوادى والقبائل العربية الثائرة .

---

(75) Dhorme : Palmyre dans les Textes Assyriens, Revue Bibilique, 1924, P P 106
Ency Brita, Vol, 17, P. 161
جواد على المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ج 3 ص 76 ــ 78

وقد زارها الامبراطور هدريانوس Hadrianus (117 ــ 138م) في سنة 130م وأمر بتنظيمها، حتى قيل أنه المؤسس الثاني للمدينة، ووصلت تدمر الى أوج عزها بين سنتي 130 و 270م والى هذه الحقبة يرجع معظم النصب التذكارية فيها وما عليها من نقوش. وبلغت صلاتها التجارية شرقاً حتى الصين وبإعتبار انها مدينة خلقتها خطوط القوافل فقد أصبحت الوارث الحقيقي للبتراء (76).

والثانية مرحلة الثورة والاستقلال والتوسع (250م ــ 273م)

فقد استغل التدمريون قيام الدولة الساسانية في 226م بفارس وتجدد الحروب مع الرومان واستطاعت تدمر بفضل تأييدها للرومان وتقربها إليهم ان تحصل على مكانة عالية عند القياصرة الرومان، واستفادت اسرة اذينه التدمرية وهي قديمة الأصل بما أنعم على زعيمها من ألقاب وأوسمة مثل لقب عضو في مجلس الشيوخ الروماني. وفي 250م تقريباً تلقب اذينه زعيم الأسرة بلقب (ملك) والتف التدمريون حوله وأدرك الرومان ماوراء هذه الحركة من خطر على مصالحهم فأوعزوا الى أعوانهم باغتياله.

وبعد وصول حفيده أو ابنه في رواية أخرى وسمية ــ اذ كان اسمه اذينة كذلك ــ الى حكم تدمر تطلع الى الأخذ بثأر الزعيم التدمري المقتول وتقدم بشكوى للامبراطور الروماني للتحقيق في الاغتيال ولكن الامبراطور لم يأبه للشكوى وكان اذينه شجاعاً فارساً آلف حياة البداوة جزئيا، محباً لصيد الذئاب والفهود والأسود حتى اسندت إليه قيادة جيوش تدمر والقوافل قبل توليه الحكم، فغضب لتجاهل الامبراطور لطلبه وعول على الانتقام.

وحدث في ذلك الوقت أن انتصر الفرس الساسانيون على الجيش الروماني بقيادة فالريانوس الامبراطور الروماني بالقرب من الرها، ووقع الإمبراطور وسبعين ألفاً، من الرومان، في قبضة الفرس، سنة 260م. وسيطر الفرس على بلاد آسيا الصغرى وشمال سورية حتى انطاكية.

(76 Jean Stracky: Palmyre, Paris, 1952, P. 27

فيليب حتى: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين جـ 1 ص 436، جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام جـ 3 ص 86 ــ 89.

حاول اذينه التحالف مع الإمبراطور الفارسي فرفض الامبراطور وأهان رسل اذينه مما أساء إليه فجمع اذينه جيوشه وباقي جند الرومان وهاجم الفرس بجوار ضفاف الفرات وهزمهم هزيمة ثقيلة وتتبعهم الى أسوار عاصمة الفرس . مما دفع الامبراطور الروماني الجديد بالانعام على اذينه بلقب قائد عام على جميع جيوش الشرق في 262م، ونجح اذينه في استرداد أراضي الإمبراطورية الرومانية من الفرس فكافأه على اخلاصه مرة ثانية بلقب «امبراطور على جميع بلاد المشرق» في 264م، ولقب اذينه نفسه «ملك الملوك»، ومنحه مجلس الشيوخ الروماني لقب اغسطس، وهو لقب أباطرة الرومان. وفي ذروة مجده اغتيل اذينه في 266 ـ 267م.

تولى الحكم بعد مقتل اذينه ابنه القاصر وهب اللات بوصاية زينوبيا (77) (زباء أو زينب) زوجته الثانية الجميلة الطموحة، فأتبعت سياسة زوجها وأشرفت على شؤون الدولة واتخذت لنفسها لقب ملكة الشرق .

ونظرا لأن أذينه زوجها ترك لها ملكا ممهدا، وجيشًا قويًا على رأسه قائدان من أكف قواد العصر هما «زبدا» قائد الخيالة الأكبر و «زباي» قائد خيالة تدمر. فقد تطلعت زينوبيا لتوسيع رقعة بلادها شمالا وجنوبًا واستغلت الضعف الذي دب في كيان الامبراطورية الرومانية بسبب حروبها ضد الفرس. فسيرت جيشًا كثيفًا عدده 70 ألف مقاتل إلى مصر، تمكن من هزيمة الرومان، والاستيلاء على مصر حوالي 270م حيث عثر على عملة تدمرية ضربت في الأسكندرية في نفس العام.

وفي نفس الوقت تمكنت زينوبيا من بسط نفوذها على آسيا الصغرى وأرغمت الرومان على التراجع حتى أنقره وأخذت تحصن حدودها مع الفرس، فأقامت مدينة على نهر الفرات عرفت بإسم «زينوبيا»، Zenobia .

أثارت سياسة زينوبيا، الرومان وتجلى ذعرهم في صياح أعضاء مجلس الشيوخ بصوت واحد سبع مرات في أثناء مبايعة القيصر الجديد : «ياقلوديوس أغسطس نّجنا من فكتوريا (78) ومن زينوبيا، ياقلوديوس اغسطس اغثنا من التدمريين ».

---

77) تعددت آراء المؤرخين حول أصل زينوبيا فمنهم من يذكر انها مصرية، ومنهم من يعتقد انها من العماليق، ومنهم من يدعى أنها ادومية من نسل هيرودس وانها يهودية الدين، وآخرون يرجحون انها من أب عربي وأم مصرية والذي عليه أكثر هم انها عربية الأصل .

78) فكتوريا عاهلة اقليم الغال.

أعدت روما جيشًا قويًا للقضاء على زينوبيا وتمكن الجيش الروماني من إلحاق أول هزيمة بجيش تدمر بمصر، وفي نفس الوقت كانت جيوش روما تكتسح آسيا الصغرى وتدخل سورية، وهزم زيدا في واقعة انطاكية وواقعة أخرى بجوار حمص ثم دخل أورليانوس تدمر ظافرا في ربيع 272م أو في مطلع 273م، رغم نجاح زينوبيا في الهروب والوصول إلى ضفاف الفرات الا أن الرومان نجحوا في القبض عليها. وحملت أسيرة الى روما حيث غلت يدها بأطواق من ذهب وقد خلع الدهر حول هامتها هالة من نور الأساطر وخلد اسمها مضافًا الى أسماء الأبطال في تقاليد الأمة العربية أمثال سيف بن ذى يزن وعنترة وصلاح الدين وبيبرس وكلهم حي في الأدب القومي العام .

كانت الحضارة التدمرية خليطا من عناصر سورية .. ويونانية وفارسية، على الرغم من أن التدمريين كانوا قبائل عربية، وأهمية تلك المدينة لاتقوم على مافيها من مزايا العظمة فحسب، بل هي كمدينة الانباط التي تقدمتها تمثل ذرى الثقافة التي باستطاعة العرب من بنى البادية أن يبلغوها اذا ما تسنت لهم المهيئات .

والقول أن التدمريين هم من العرب تثبته أسماؤهم العلمية وورود ألفاظ عربية جمة في آثارهم الارامية. وكانت اللغة التي يتكلمونها لهجة من اللهجات الارامية الغربية ليس بينها وبين لغة الأنباط والارامية المصرية إلاّ بَوْنٌ يسير.

أما ديانتهم فقد اتصفت بمزايا النظام الشمسي الذي تركزت عليه ديانة عرب الشمال وسورية الشمالية، فمن الاصنام التي وردت أسماؤها في الكتابات التدمرية أصنام بعضها كان معروفًا عند العرب، وبعضها الآخر آرامي. وأعظم آلهة تدمر وأقواها جميعًا الآلهة شمس، والاله بل أو بعل، واللت أي ايلات، ورحم أي رحيم، واشتر أي عشتار، وغيرهم يصل عددهم جميعًا إلى مالا يقل عن عشرين معبودا في تدمر. (79).

---

(79) انظر المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ج 2 ص 93 ــ 95، الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج 1 ص 757 ــ 768، جواد على : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج3 ص 100 ــ 130، فليب حتى : تاريخ العرب ج 1 ص 98 ــ 103، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ج 1 ص 436، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب قبل الاسلام ج 1 ص 171 ــ 192 .

3 ـ مملكة الغساسنة

ينتسب بنو غسان إلى أزد اليمن، وانتقلوا إلى الشام حيث استوطنوا أرض حوران والبلقاء، بقيادة زعيمهم عمرو بن عامر ماء السماء، بعد انفجار سد مأرب في أواخر القرن الثالث الميلادي.

ويذكر نسابو العرب ان اسم غسان نسب إليهم بسبب استقرارهم بعض الوقت في إقليم تهامة بجوار عين ماء يقال له غسان فنسبوا اليه (80) ويسمى الغساسنة أيضًا بآل جفنه وبأولاد جفنه نسبة لأول ملوكهم «جفنه بن عمرو بن عامر ماء السماء»، كذلك يعرفون بآل ثعلبة، نسبة إلى جد هذه الأسرة يسمى «ثعلبه ابن مازن» (81).

ولقد ذكر أبو الفداء في تاريخه واحد وثلاثين عاهلا لأسرة غسان المالكة. غير أن حمزة الاصفهاني قد أورد اثنين وثلاثين. أما المسعودى وابن قتيبة فحددوهم بأحد عشرة فقط. وان اختلاف مؤرخي العرب على عدد ملوك غسان لدليل على ما يحوط الأسرة من غموض (82).

نزحت غسان الى مشارف الشام حيث كان بوسليح من قضاعة قد سبقوهم اليها وشيدوا فيها أول ملك للعرب بالشام. فاستقر الغساسنة في نواحي الجنوب الشرقي من دمشق ثم غلبوا بنى سليح وحلوا محلهم وامتدت ديار غسان مابن الجولان واليرموك وكانوا يقيمون بالقرب من دمشق في موضع على نهر بردى يعرف بجلق واتخذالغساسنةمدينة الجابية مركزا لإمارتهم وهي تقع شمال حوران.

وكما سبق للرومان اتخاذ مملكة تدمر صنيعة لهاء فقد قام حلفاؤهم البيزنطيون بكسب عطف بعض العرب واتخاذهم صنائع لهم على تخوم البادية مثل بنو سليح

---

80) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ج 2 ص 106 ، 107.

81) المسعودي : التنبيه والاشراف ص 186، تيودور نلدكه: أمراء غسان ترجمة د. بندلى جوزي، د. قسنطنطين زريق ، بيروت 1933 ، ص 3 تعليق 1.

82) أبو الفداء : مختصر تاريخ البشر ص 115 ـ 122، ابن قتيبة : كتاب المعارف ص 314 ـ 316 ، المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ج 3 ص 217 ـ 221 ،ابن واضح : تاريخ اليعقوبي ج 1 ص 206 ـ 207، تيودور نلدكه : أمراء غسان ص 4.

من قضاعة ثم بنو غسان من الازد، يستعينون بهم على صد غارات البدو على المناطق المتحضرة. (83).

وبمرور الزمن تنصرت قبائل غسان واصطبغت بالصبغة السورية واتخذت الآرامية لغة لها . إلا أنها لم تهجر لسانها العربي الأصلي وأصبح ابناؤها كغيرهم من قبائل العرب في الهلال الخصيب مزدوجي اللغة .

ولما كان من مصلحة الغساسنة السياسية اعتناق النصرانية وهي دين البيزنطيين فقد اعتنقوها ولكن على المذهب المونوفيزى ـ مذهب أصحاب الطبيعة الواحدة ـ وهو المذهب الوطني الغالب في البلاد السورية .

ولم يكن لهم في مطلع عهدهم عاصمة ثابتة بل مخيم ينتقلون به من أرض إلى أرض حتى استقرت بهم الحال فيما بعد في جابية الجولان. (84).

وأشهر ملوك هذه الأسرة الحارث بن جبلة بن الحارث الجفني (الخامس) (529 ـ 569م) الذي منحه الامبراطور جستينان البيزنطي (527 ـ 565م) لقب بطريق أو لقب شيخ القبيلة وأنعم عليه «بالتاج» ومنحه السلطة المطلقة على جميع العرب في شمال سورية .

ويكاد يقتصر عهد الحارث على الصراع ضد ملوك الحيرة حلفاء الامبراطورية الفارسية فقد قضى الحارث أكثر أيام ملكه يقاتل في سبيل بيزنطة ففي سنة 541م اشترك في الحملة البيزنطية الموجهة لمحاربة الفرس تحت قيادة بليزاريوس. وبعدها بثلاث سنوات في 544م اشتبك مع المنذر بن النعمان ملك الحيرة ورغم هزيمته وأسر أحد أبنائه فقد عاد إلى محاربة ابن النعمان حيث انتصر وأسر اثنين من أبناء عدوه . واستمر التوتر بين كل من مملكتي غسان ولخم (الحيرة) حتى بعد الهدنة بين الروم والفرس في 596م، ولم ينته هذا الصراع إلا بعد مقتل المنذر في

---

83) ابن واضح : تاريخ اليعقوبي جـ1 ص 206 ، 207، المسعودي : التنبيه والاشراف ص 186، مروج الذهب ومعادن الجوهر جـ 2 ص 109، تيودور نلدكه : أمراء غسان ص 51. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب قبل الاسلام جـ 1 ص 197.

84) Leone Caetani: Annali dell'Islam (Milan, 1950) vol. III, p. 928

فليب حتى : تاريخ العرب جـ 1 ص 102، 103، كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص 23 .

554م في معركة ناحية قنسرين تعرف عند العرب «يوم حليمة» نسبة إلى حليمة بنت الحارث التي قامت تحض الرجال على قتال الأعداء (85).

وبعد وفاة الحارث في أواخر 569م بعد أن قضى في إمارته أطول فترة في عهود أمراء الغساسنة، وهي أربعون عامًا، انتقلت الامارة إلى ابنه المنذر الأكبر تمييزا له عن أخيه المنذر الأصغر وما كاد يستتب له الأمر حتى قام بمحاربة قابوس (عمرو) بن هند ملك الحيرة وهزمه في 570 م.

وحذا المنذر حذو أبيه الحارث في مناصرة المذهب المونوفيزى فأغضب بيزنطة مما دفع الغساسنة الى الثورة لمدة ثلاث سنوات، أرغموا البيزنطيون خلالها على إسترضاء المنذر وعقد صلح معه في 575م تقريبا في الرصافة. وفي سنة 580م قام المنذر بزيارة القسطنطينية عاصمة بيزنطة حيث استقبل استقبالا عظيما، وأنعم عليه الامبراطور بالتاج بدلا من الاكليل. ولكن سرعان ما حلت الجفوة محل الحظوة وذلك عندما فوجئت احدى حملات البيزنطيين المشارك فيها المنذر ـ على فارس، بتهدم أحد الجسور المؤدية إلى فارس، فاتهم بالتواطأ مع الفرس. وحاول المنذر اثبات براءته وأغار على بلاد اللخميين وأحرق عاصمتهم الحيرة. غير أن الفوز الذي تكلل به جبين المنذر في هذه الغزوة لم يمح ريبه بيزنطة في ولائه وأضمروا الايقاع به وصدرت الأوامر الى حاكم سورية الروماني بالقبض عليه، فدعى المنذر ثم اعتقله في 582م .

اثار هذا العمل غضب الغساسنة .فأقاموا عليهم النعمان أكبر أبناء المنذر وتركوا ديارهم وتحصنوا في البادية، واتخذوها مركزا لشن الغارات على حدود سورية حتى مدينة بصرى، وتمكن القائد البيزنطى من أسر النعمان بالخديعة والمكر وأرسله الى القسطنطينية في 583م.

وغمرت الفوضى بلاد غسان عقب عصرى المنذر والنعمان وتفككت وحدة بادية الشام. وانقسمت غسان الى 15 قبيلة لكل منها أميرا، ودخلت بعض هذه القبائل في حماية الفرس، ودخل البعض الآخر في حماية بلاد بيزنطة وبدأت القبائل تنطاحن فيما بينها بعد أن فقدت زعيمها وملكها .

---

85) ابن قتيبة : المعارف ص 374 ـ 375، أبو الفداء : مختصر تاريخ البشر ج 1 ص 84، تيودور نلدكه: أمراء غسان ص 9، 10، 12 ـ 14، 18، 20 .

وضاع الأمل في عودة امارة الغساسنة إلى الوجود مرة أخرى بعد غزو فارس للشام والاستيلاء على بيت المقدس ودمشق في 613 ـ 614م. وبالرغم من استرداد بيزنطة للشام في 629م الا أن نفوذ الامارة العربية كان قد ذهب إلى غير رجعة. (86).

ويعتبر مؤرخو العرب أن جبله بن الايهم آخر ملوك غسان. وقد شارك جبله البيزنطيين في قتال العرب في وقعة اليرموك. ولكنه ما لبث أن اسلم في أيام الخليفة عمر بن الخطاب وقدم الى مكة حاجًا بعد استئذان عمر. وبينما يطوف بالبيت الحرام اذ وطئ ازاره أعرابي من بنى فزاره، فحله، فلطمه جبله. فرفع الأعرابي أمره إلى الخليفة فبعث إليه عمر ان يرضى الاعرابي والا اقاده منه فلمادنا جنح الليل خرج هو وأصحابه «وارتد عن دينه خوف العار والقود من اللطمة» فلم يثن حتى دخل القسطنطينية (87).

وكانت للغساسنة حضارة مزدهرة متأثرة إلى حد كبير بالحضارتين الساسانية والبزنطية، وحضارتهم على هذا النحو تتفق مع الحضارة الأموية التي أخذت أصولها من الحضارتين الساسانية والبيزنطية أيضًا، ولعل ذلك من الأسباب التي حملت

---

86) حمزة الاصفهاني : تاريخ سنن ملوك الارض والانبياء ص 78.، ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 1 ص 326، 328، 330. نيودور نلدكه : أمراء غسان ص 22 ـ 34، فليب حتى : تاريخ العرب ج 1 ص 104 ـ 109

87) أورد مؤرخو العرب عدة روايات حول موقف جبلة بن الايهم فالبلاذرى يروى ان جبله أتى عمر ابن الخطاب وهو على نصرانيته فعرض عمر عليه الاسلام وآداء الصدقة، فأبى ذلك، وقال : اقيم على ديني وأؤدى الصدقة. فقال عمر : ان أقمت على دينك فأد الجزية. فأنف منها فقال عمر : ماعندنا لك الا واحدة من ثلاث : أما الاسلام، وأما اداة الجزية، واما الذهاب الى حيث شئت. فدخل بلاد الروم في 30 ألف .

أما ابن قتيبة فيذكر انه اسلم في خلافة عمر بن الخطاب ثم تنصر بعد ذلك، وان سبب تنصره «انه مر في سوق دمشق فأوطأ رجلا فرسه، فوثب الرجل فلطمه، فأخذه الغسانيون. فأدخلوه على أبي عبيدة الجراح، فقالوا : هذا لطم سيدنا، فقال أبو عبيدة بن الجراح : البينة ان هذا لطمك. قال : وما تصنع بالبينة، قال : ان كان لطمك لطمته بلطمتك. قال : ولا يقتل، قال لا. قال : تقطع يده، قال : لا انما أمر الله بالقصاص، فهي لطمة بلطمة. فخرج جبله ولحق بأرض الروم وتنصر ولم يزل هناك إلى ان هلك .

انظر المعارف لابن قتيبة ص 217، فتوح البلدان للبلاذري ج 1 ص 161، المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ج 2 ص 169، ابن عبد ربه: العقد الفريد ج 1 ص 140 ـ 141

علماء الآثار الى الخلط في نسبة بعض الآثار العربية بالبادية مثل قصر المشتى، وقصر الطوبة، فبعضهم ينسبها الى العصر الأموى والبعض الآخر ينسبها إلى الغساسنة. (88).

وقد اشتغل الغساسنة بالزراعة، فاستغلوا مياه حوران التي تتدفق من أعلى الجبال في الزراعة، فعمرت القرى والضياع، وعدد حسان بن ثابت شاعر المدينة (يثرب) من بينها ثلاثين قرية .

كما اهتم امراء بنى غسان بالعمران والمنشآت التي شيدت من الرخام الأسود والقصور وأقواس النصر والحمامات العمومية والاقنية الارضية والمسارح. ولاتزال انقاض قصورهم ظاهرة في بصرى وفي أنحاء الشرق والجنوب من جبال حوران وهناك آثار لثلثمائة بلدة وقرية كانت عامرة .

ووفد بعض شعراء الجاهلية إلى أمراء غسان فأحسن هؤلاء وفادتهم وبالغوا في اكرامهم ،منهم لبيد بن عمرو احدث أصحاب المعلقات السبع سناً، ولقد قاتل إلى جانب غسان في يوم حليمة، والنابغة الذبياني شاعر بلاط المناذرة اذ لما انقلب عليه النعمان بن المنذر ملك الحيرة، لجأ إلى الغساسنة فرحب به أبناء الحارث وطاب مثواه في بلاطهم. وممن لحق بالغساسنة شاعر يثرب (المدينة) حسان بن ثابت وزعم انه كان يمت اليهم بنسب . (89)

4 ـ مملكة الحيرة (المناذرة)

كما اصطنع البيزنطيون الغساسنة في الشام، لصد غارات البدو على المناطق المتحضرة التابعة لبيزنطة، كذلك اتبع الفرس (أعداء البيزنطيين التقليديين)، السياسة نفسها نحو عرب المناذرة المستقرين ببوادي الفرات بجوار فارس .

---

88) ارنست كونل : الفن الاسلامى ص 11 ـ 13، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب قبل الاسلام جـ 1 ص 211 ـ 212.

89) فليب حتى : تاريخ العرب جـ 1 ص 106، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب قبل الاسلام جـ 1 ص 210 ـ 213.

والحيرة تنسب إلى حرتا Hartu السريانية الاصل ومعناها المخيم والمعسكر وكانت عاصمة بلاد العرب المحالفة للفرس.ففي أوائل القرن الثالث للميلاد، هاجرت قبائل تنوخ اليمنية الأصل واستقرت في المنطقة الخصبة غرب الفرات، مستغلة الحروب الأهلية بين الأسر الحاكمة بفارس. وسكنت تنوخ لأول عهدها الخيام ومضت الأعوام فإذا المخيم يصبح قاعدة ومدينة الحيرة وهي تقع على نحو 3 أميال جنوب الكوفة .

وقد اشتهرت الحيرة في الأدب العربي بحسن هوائها وطيبه، حتى قيل « يوم وليلة بالحيرة خير من دواء سنة» وقد ذكر حمزة الاصفهانى انه بسبب حسن هواء الحيرة لم يمت بالحيرة من ملوكها أحد، الا قابوس بن المنذر، اما بقية الملوك، فقد ماتوا في الغزو أو الصيد، وانه بسبب ذلك قالت العرب «لَبيتُهُ ليلة بالحيرة انفع من تناول شربة» (90) .

وقد عرف ملوك الحيرة عند أهل الأخبار (آل لخم) (آل نصر) كما عرفوا (النعامنه) و (المناذرة)، وذلك لشيوع اسم النعمان واسم المنذر فيما بينهم. (91).

ويقسم الأخباريون العرب، قبائل الحيرة إلى ثلاث : تنوخ، والعباد، والاحلاف. وهم قبائل متعددة فيها من قحطان ومن عدنان. أما تنوخ فهى القبائل التي سكنت بيوت الشعر غربي الفرات بين الحيرة والانبار واشتغل بعضهم بالزراعة والبعض الآخر بالرعي. واما العباد فهم الذين سكنوا الحيرة وابتنوا بها ويذكر معظم الأخباريين أنهم كانوا على دين المسيح ويقول بعضهم أنهم قبائل شتى من بطون العرب، اجتمعوا على النصرانية، وعرفوا بالعباد، وذلك يدل على أن هذا الإسم لم يكن يعنى قبيلة أو بطنا، وانما يعنى جماعة من قبائل شتى جمعت بينها وحدة الدين، ووحدة الموطن لذلك لم يطلق الا على النصارى العرب من أهل الحيرة. أما

---

(90) حمزة الاصفهاني : تاريخ سنن ملوك الارض والانبياء ص 75، جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج 3 ص 155 _ 158 .

(91) المسعودي :التنبيه والاشراف ص 158. ، يوسف رزق الله غنيمة: الحيرة، المدينة والمملكة العربية، بغداد 1936 ص 11 ، 20 وما بعدها.

غيرهم من نصارى العرب، فلم يشملهم إسم العباديين. واما الاحلاف فهم الذين لحقوا بأهل الحيرة ونزلوا فيها، ولم يكونوا في الأصلامن تنوخ، ولا من العباد. (92).

ولقد كان معظم نصارى الحيرة على مذهب النساطرة، والأقلية على مذهب اليعاقبة وغيره من المذاهب المسيحية الأخرى. ولذلك كانت الحيرة من المراكز الهامة لحركة التبشير بالنصرانية بين العرب في شبه الجزيرة العربية بصفة عامة واليمن بصفة خاصة (93).

وفي كتب الأخبار أن مالك بن فهم الازدى هو أول ملك للحيرة وأنه اتخذ الانبار عاصمة له، ويروى أن ابنه سليمه رماه بالنبل فأصابه، دون قصد فلما عرف أن سليمة رامية قال:

جزاني لاجزاه الله خيرا	سليمه، انه شرا جزاني
اعلمه الرماية كل يوم	فلما اشتد ساعده رماني

وحكم بعد مالك، أخوه عمرو بن فهم، على رواية وجذيمة الابرش أو جذيمة الوضاح على رواية أخرى وكان عاملا لملك الفرس على الحيرة ويقال أن جذيمة أسس امارة سبقت دولة لخم وضمت الانبار والحيرة.

على أن المؤسس الحقيقي لدولة لخم هو عمرو بن عدى بن نصر بن ربيعةابن لخم وهو ابن أخت جذيمة الابرش وهو أول من استوطن الحيرة من ملوك العرب فاصبحت عاصمة لملكه. والمفروض ان سابور الأول الملك الفارسي (241 ـ 272 م) نفسه هو الذي عين عمرو بن عدى، من بني لخم، ملكا على العرب في العراق. ولكن النقوش التي وجدت على قبر امريء القيس ابنه، في النمارة، جنوب شرقي دمشق، تدل على ان امريء القيس كان خاضعا لنفوذ الرومان اسميا وظاهريا حوالي سنة 328 م (94).

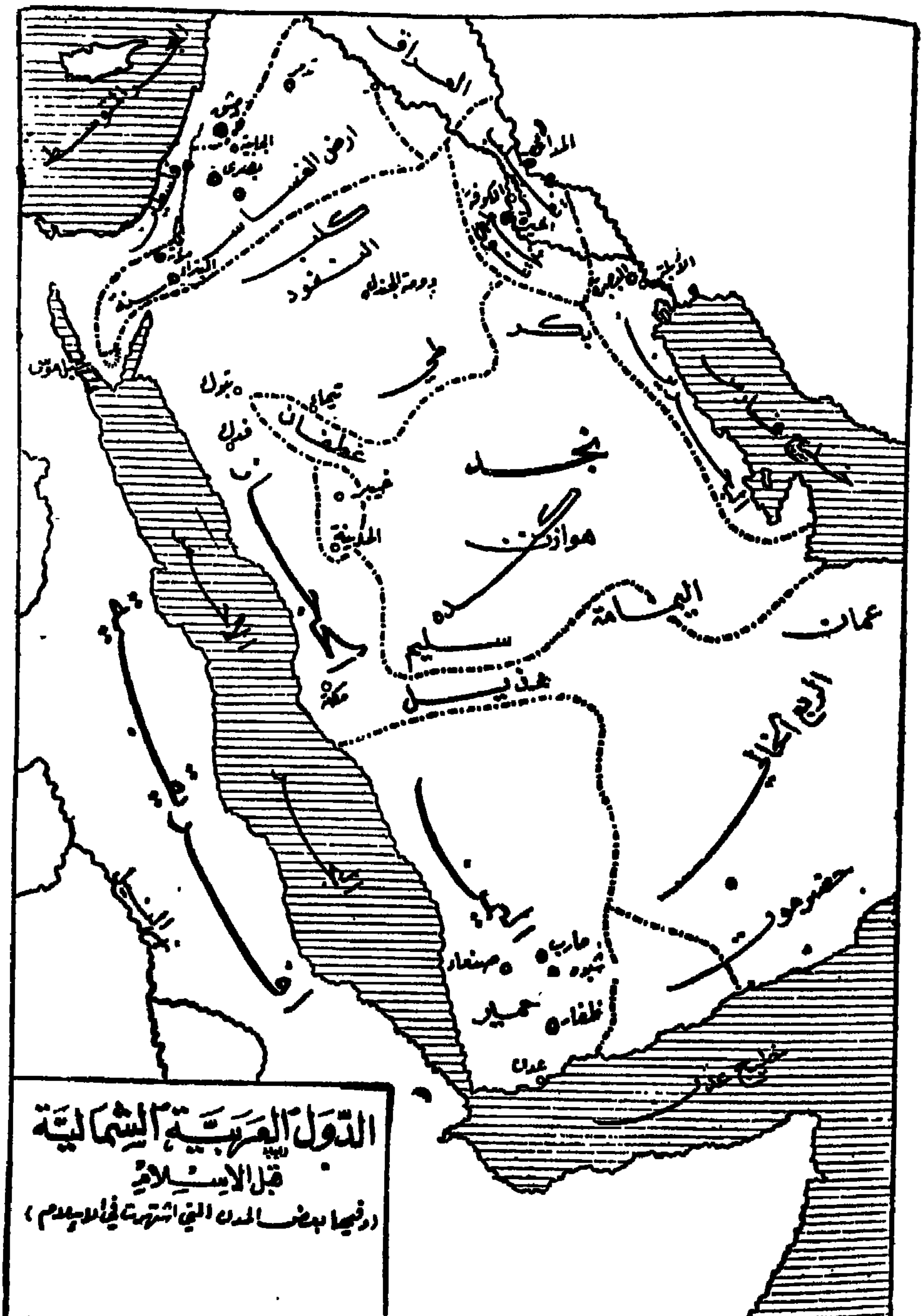
أما ملوك لخم التي أوردها الاخباريون فيزيدون عن العشرين واشهرهم امرئ القيس الأول (288 ـ 328م) ابن عمرو بن عدى اللخمي الذي تروى بعض

---

92) انظر جواد على: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام جـ 3 ص 166 ـ 172.

93) أوجين نسران: خلاصة تاريخية للكنيسة السريانية، ترجمة سليمان الصائغ، الموصل، 1939 ص 26 وما بعدها.

94) حمزة الاصفهانى: تاريخ سنن ملوك الأرض، والأنبياء ص 64، يوسف رزق الله غنيمة: الحيرة، المدينة والمملكة العربية، ص 118، كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الاسلامية ص 23 ـ 24.



الدول العربية الشمالية
قبل الإسلام
(وفيها بعض المدن التي اشتهرت في الإسلام)
العراق
النفود
دومة الجندل
بكر
طيء
تيماء
تبوك
غطفان
خيبر
المدينة
نجد
هوازن
اليمامة
سليم
هذيل
مكة
عمان
الربع الخالي
حضرموت
مأرب
شبوة
صنعاء
حمير
عدن
خليج عدن

الروايات تنصره وأنه كان عاملا للفرس على قبائل عرب ربيعة ومضر وسائر من ببادية العراق والحجاز والجزيرة (95).

وكان من ذرية امرئ القيس هذا النعمان الأول الملقب بالأعور (نحو 400 – 418م) وقيل أنه بنى قصر الخورنق بظاهر الحيرة لإقامة ابن امبراطور الفرس لينعم بجودة الهواء ويتعلم الصيد،ويعد الخورنق من منجزات الفن وبدائعه. كما ينسب اليه بناء قصر السدير وسط البرية التي بين الحيرة وبين الشام.

ولقد ازدهرت الحيرة في أيام المنذر الأول – وهو ابن النعمان وخليفته – (نحو 418 – 462م) وازدادت مكانته عند الفرس، حدا مكنه من فرض ارادته وتنصيب مرشحه على عرش الفرس. وفي 421م خرج على رأس الجيوش الفارسية لقتال البيزنطيين.

وتولى ملك الحيرة في النصف الأول من القرن السادس المنذر الثالث (نحو 505 – 554م) وهو المعروف بابن ماء السماء – وهو لقب امه المسماة مارية – وكان عهده ازهى عهود الدولة اللخمية فقام بمحاربة البزنطيين في سورية وهزمهم إلى أن سارع الغساسنة إلى محاربته فقتل في يوم حليمة سنة 554م (96).

وفي كتاب الأغاني قصة ممتعة جاء فيها ان المنذر بن ماء السماء نادمه صديقان فاغضباه، فأمر بأن يحفر لكل واحد حفرة بظاهر الحيرة ثم يجعلا في تابوتين ويدفنا، فلما أصبح سأل عنهما فأخبر بهلاكهما فندم وأمر ببناء الغريبين عليها وجعل لنفسه يومين في السنة يجلس فيهما عند الغريبين يسمى احدهما يوم نعيمة والآخر يوم بؤسه، فأول من يطلع عليه يوم نعيمة يعطيه مائة من الإبل وأول من يطلع عليه يوم بؤسه يأمر به فيذبح ويرش بدمه الغريان.

أول ضحايا يوم بؤسه الشاعر عبيد بن الابرص، وفي احدى أيام البؤس مر به رجل من طئ اسمه حنظلة بن عفراء وحينما هم بقتلة طلب ارجاء قتله عام ليودع أهله وكفله شريک بن عمرو ولما آن الأوان جلس المنذر ينتظر حنظلة فأبطأ عليه فأمر

---

95) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج 2 ص 94 – 65، ابن خلدون : العبر ج 2 ص 171 ، 263.

96) فليب حتي : تاريخ العرب ج 1 ص 109 – 111

بشريك ليقتله، فلم يشعر الا براكب قد اطلع عليهما فتأملوه فاذا هو حنظلة قد قبل منكفنا متحنطا معه نادبته. فلما رآه المنذر عجب من وفائهما وكرمهما فأطلقهما وأبطل تلك العادة. (97).

خلف المنذر ابنه عمرو بن هند 554 ـ 569م وجعل الحيرة مقرا للأدباء والشعراء فضم مجلسه أعظم الشعراء أمثال طرفة بن العبد والحارث بن حلزة وعمرو ابن كلثوم وهم من أصحاب المعلقات. السبع، فقد ادرك عمرو أن الشعراء هم زعماء الرأي العام بين القبائل العربية، يديرون دفة الدعاية كيف شاءوا، الا أن عمرا قتل بيد أحد شعرائه عمرو بن كلثوم، الذي غضب حينما أهينت أمه، ليلى ابنة المهلهل في زيارة لها الى أم ملك الحيرة، فقتل ابن كلثوم، الملك عمرو بن هند.

وفي خلال تلك الفترة تحولت الأسرة اللخمية الحاكمة الى النصرانية فقد كانت هند ام عمرو أميرة نصرانية غسانية، وبنت في الحيرة ديرا يعرف بدير هند بقى الى القرن الثاني الهجري .

كما نشأ النعمان الثالث الملقب بإبن قابوس (نحو 580 ـ 602م) بين عائلة نصرانية واتخذ من الشاعر المشهور النابغة الذبياني شاعرا له ونديما وتحول إلى النصرانية على مذهب الكنيسة النسطورية ويبدو أن النعمان لم يكن سهل القياد، فضاق الفرس به ذرعًا، فاستدرجه كسرى الثاني الى عاصمته المدائن وخلعه عن العرش وضاعت صولة لخم بعد النعمان ورغم هذا فقد تمكنت القبائل العربية برئاسة بكر بن وائل من هزيمة الفرس هزيمة شنعاء سنة 610م في ذي قار خلال فترة حكم اياس بن قبيصة من عرب طي (602 ـ 611م) الذي حكم الى جانبه مندوب فارسى يشرف على مهام الحكومة. والواقع أن ملوك فارس ألغوا نظام الإمارة العربية وولوا من قبلهم حكامًا فرسًا يخضع لهم زعماء العرب. وليس من شك في أن زوال هذه الرقابة القوية عن الحدود الفارسية قد يسر الفتح الاسلامي لتلك البلاد في 633م حين استسلمت الحيرة للجيش الإسلامي الذي قاده خالد بن الوليد (98).

---

97) ابو الفرج الاصفهاني : الاغاني جـ 9 ص 86 ـ 88، ياقوت الحموي : معجم البلدان مادة غريان، مجلد 4 ص 198 ـ 199 .

98) ابن واضح اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي جـ 1 ص 212 ـ 215، فليب حتى : تاريخ العرب جـ 1 ص 111 ـ 114، كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص 24 .

ثالثا : الحالـة الاقـتـصادية

1 : التــجـــارة

كانت التجارة الحرفة الرئيسية للعرب قبل الإسلام، ولذلك فقد انتهى الباحثون إلى أن الدول التي نشأت في جنوب شبه الجزيرة العربية مثل الدولة المعينية والسبئية والحميرية الأولى والثانية وكذا الدول التي نشأت في شمال شبه الجزيرة وأواسطها مثل دولتي الأنباط والتدمرية وامارتي الغساسنة والمناذرة، انها دول اعتمدت في عمرانها على التجارة. فلم تكن بحال من الأحوال دولا حربية لافي نشأتها ولا في تطورها وارتقائها. ونظرة خـاطـفة على الصفـحات السابقـة، توضح ذلك (99).

فقد كانت للعرب تجارات يتبادلون بها حاجتهم وكانت لهم أسواق شهيرة يجتمعون فيها من كل صوب لشراء ما يبغون وبيع ما يحصلون عليه من نتائج بلادهم. (100).

أما بالنسبة لإقليم الحجاز، فقد استفادت مكة كثيرا من التدهور السياسي الذي حل باليمن، وأعطى تدهور الأوضاع في العربية الجنوبية أهل مكة فرصة ثمينة عرفوا الاستفادة منها. فصاروا الواسطة في نقل التجارة من العربية الجنوبية إلى بلاد الشام، وبالعكس .

وسعى تجار مكة جهد إمكانهم لاتخاذ موقف حياد تجاه الروم والفرس والحبش، فلم يتحزبوا لأحد، ولم يتحاملوا على طرف، وقووا مركزهم بعقد أحلاف بينهم وبين سادات القبائل، وتوددوا اليهم بتقديم الألطاف والمال اليهم، ليشتروا بذلك قلوبهم. وقد نجحوا في ذلك، واستفادوا من هذه السياسة كثيرا .

---

99) فليب حتى : تاريخ العرب ج 1 ص 88

100) محمد الخضري : محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة الأموية) ج 1 ص 16 .

وفي القرآن أشارة الى تجارة مكة، والى نشاط أهلها ومتاجرتهم مع الشام، واليمن: « لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف (101) وان رحلة الشتاء كانتْ إلى اليمن، اما رحلة الصيف فكانت إلى بلاد الشام. وانهم كانوا يجمعون ثروة طائلة من الرحلتين تذر على قريش خيراً كثيرا، تعوضهم عن فقر بلادهم.

وكانت لأسر مكة تجارات خاصة مع العراق وبلاد الشام واليمن ومواضع من جزيرة العرب : تجارات لاعلاقة لها برحلتي الشتاء والصيف، وكان لبعضها تجارة مع الانبار والحيرة في العراق، وكان لبعض آخر تجارة مع بصرى وغزة واذرعات في بلاد الشام، وكان للآخرين تجارة مع بلاد اليمن.

وكانت الشعيبة ميناء مكة، اليها ترد السفن قبل جُدة، ثم أخذت جُدة موضعها في أيام الخليفة عثمان بن عفان. وقد قصدت ميناء الشعيبة سفن الروم وسفن الحبش، اذ كانت السفن القادمة من افريقية، لبيع تجارتها لأهل مكة، ترسو في هذا الميناء .

ولمركز مكة ونشاطها في التجارة، توافد عليها أيضًا تجار من الخارج، من بلاد الشام، ومن العراق، ومن بلاد الروم والفرس وغيرهم. ساكنوا المكيين، وتحالفوا مع أثريائهم، ومنهم من أقام فيها في مقابل دفعضريبةلحمايته ولحفظ أمواله وتجارته. وكان تجار بلاد الشام خاصة يجلبون القمح والزيوت والخمور الجيدة إلى تجار مكة. وقد اتخذوا مستودعات فيها لخزن بضاعتهم هذه ولتصريفها. (102).

وقد ذكر المستشرق اوليري O'Leary ان مكة اصبحت مركزا للصيرفة يمكن ان يدفع فيها التجار أثمان السلع التي ترسل الى بلاد بعيدة، كما كانت عملية الشحن والتفريغ لهذه التجارة الدولية تتم هناك، وكذلك كان يتم التأمين على المتاجر وهي تجتاز الطرق المحفوفة بالمخاطر (20)، وقــد كان يساعد قريشا على تأمين تجارتها ما كانت تتمتع به من حرمة عند العرب وما كانَ لها من ارتباطات مع القبائل الضاربة على طول طرق التجارة.

---

(101) القران الكريم، سورة قريش ، الاية الاولى .

(102) ياقوت الحموي: معجم البلدان ج 5 ص 276 Ency III P. 440 ، جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج 4 ص 113 ـ 115.

(102) O'Leary : Arabia Before Mohammed, p. 182.

ولم تكن قوافل مكة تجارة افراد وانما كانت تجارة مدينة، وكانت قريش كلها تشارك فيها، وكان كبار التجار يقومون على هذه القوافل التي تضم اموالا لافراد متعددين، منهم من يسافر على تجارته، ومنهم من يستأجر آخرين، ومنهم من يقرض ماله للمتاجرة على النصف،وأحيانا كانت القافلة تحمل اموالا لاهل مكة جميعا.

وقد ادى نشاط بعض أسر مكة في التجارة الى حصولها على ثروات طائلة، وقد اسهم رجل واحد من أهل مكة هو ابو أحيحة ابن سعيد بن العاص بن أمية، بثلاثين الف دينار في القافلة التي كان يقودها ابو سفيان، وكانت السبب في موقعة بدر سنة 2 هـ (*).ومبلغ مثل هذا ليس بالشيء القليل بالنسبة للوضع المالي في تلك الأيام.

كذلك كان عبد الله بن جدعان التيمي والوليد بن المغيرة المخزومي من أثرياء مكة، وكان الأول يشرب في كأس من الذهب حتى سمي حاسي الذهب، وقد اشتهر بنو مخزوم بالثروة والمال حتى كان احدهم، وهو عبد الله بن أبي ربيعة، يلقب بعدل قريش وقد كان تاجرا موسرا وكان متجره الى اليمن. كما كفن أحد الموتى وهو عبد المطلب بن هاشم في حلل قيمتها ألف مثقال من الذهب. وطرح عليه المسك حتى ستره (**).

وكان الربا مظهرا من مظاهر الحركة الاقتصادية والتجارية، وكان اهل مكة، كما كان أهل الحجاز واليهود، يعولون عليه كثيرا في تنمية ثرواتهم، وكان الربا أحيانا يبلغ اضعاف القرض نفسه.

وفي القرآن آيات كثيرة يستلهم منها ان الربا كان راسخا رسوخا شديدا، وأنه كان جزءا من الحياة الاقتصادية وبخاصة عند التجار وأهل المدن. وقد اعلن النبي في حجةالوداع سنة 10 هـ اسقاط ربا عمه العباس،وكان من اغنياء مكة وتجارها، وتحمل آيتان من البقرة «يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا ان كنتم

(*) الواقدي : مغازي رسول الله ص 18، أحمد ابراهيم الشريف : مكة والمدينة في الجاهلية والاسلام ص 212.

(**) الواقدي : مغازي رسول الله ص 18، الاصفهاني : الاغاني جـ 1 ص 64، احمد ابراهيم الشريف : مكه والمدينة جـ2 ص 213.

مؤمنين. فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وان تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون» (*) انذارا شديدا لمن يزاولون الربا، مما يدل على رسوخ قدم الربا، وعلى انه كان يشغل حيزا كبيرا من حياة المدن الحجازية الاقتصادية، وأنه لم يكن من السهل القضاء عليه مما استلزم قوة الانذار واعلان الحرب من الله ورسوله.

والى جانب الربا كانت المضاربات وبيع البضائع المتوهمة أو البضائع التي لم تصل مكة بعد، فلطالما باعوا البضائع قبل وصولها من اليمن أو الشام، وباعوا المحاصيل قبل حلول يوم الحصاد بوقت طويل، فافلست بيوتات واغتنت اخرى بين عشية وضحاها.

ونحا صغار التجار نحو كبارهم في المضاربات فيما بينهم، ولطالما عملوا على غش البدو السذج، فاحتقر البدوي، الحضري لهذه الصفة، وقد قال اهل البادية ان قريشا تصغير «قرش». وهو سمك القرش المفترس، يعبرون بذلك عن افتراسها لغيرها، وعلى الرغم من ذلك فقد كانوا مجبرين على ان يتعاملوا مع القرشيين لبيع ابلهم واغنامهم وصوافهم وحاصلاتهم من البادية (**).

وكان النقد المتداول هو الدينار والدرهم. والدينار عملة ذهبية والدرهم عملة فضية، وكان التعامل بهما دارجا في الشام والعراق ومصر. وقد عرفهما اهل الحجاز وتعاملوا بهما. فإنه لم يكن في الحجاز دولة لها سكة خاصة، فاعتمد اهل مكة على النقد الاجنبي.

وبلاد العرب كانت تنتج معدن الذهب والفضة وكان يجري التعامل بهما وزنا، كما ذكر مرارا في القرآن في معرض استعمالهما حليا واواني في الدنيا والآخرة، مما يدل على أن هذين المعدنين كان ينظر اليهما على أنهما مقياس الثروة (***).

(*) القرآن الكريم : البقرة آيات 278، 279

(**) البخاري : صحيح البخاري ج 3 ص 60، 71 ـ 72، بودلي : الرسول (حياة محمد) ترجمة عبد الحميد جودة السحار ص 36 ـ 38.

(***) الواقدي : مغازي رسول الله ص 22، 98، ابن هشام : سيرة النبي (ص) ج 1 ص 240، 292، الجاحظ : البيان والتبيين ج 1 ص 32 ـ 33

أما ثان مدن الحجاز وهي يثرب فقد كان أهلها مثل غيرهم تجاراً، يخرجون إلى أسواق الشام فيتجرون بها. وقد ذكر أهل الأخبار أسماء رجال منها تاجروا مع بلاد الشام، وكان يهود يثرب يتاجرون أيضاً، ويأتون إلى أهل يثرب بما يحتاجون إليه من تجارات .

فقد كانت الساقطة (الجواسيس) تنزل المدينة في الجاهلية والإسلام يقدمون بالشعير والزيت والتين والقماش، وما يكون في الشام. وكانوا يتلقفون الأخبار وينقلونها إلى الروم عند ظهور الإسلام. (103).

كانت التجارة الداخلية في يثرب نشيطة، والأخذ والعطاء والتعامل فيها كبيراً، سواء بين اهلها انفسهم، أو بينهم وبين جيرانهم من الأعراب الذين كانوا يفدون على المدينة للامتياز منها، ولتصريف منتجات البادية من ابل وغنم وخيل، وصوف ووبر وسمن وغير ذلك.

ولذلك كان في المدينة عدة أسواق، أهمها سوق بني قينقاع وأهم ما كان يباع بها، الحلي التي تخصص يهود بني قينقاع في صناعتها. ثم سوق أخرى بزبالة في شمال غربي يثرب، وقد اتسعت هذه السوق وعظم امرها بعد الاسلام حيث اتخذها المسلمون سوقا لهم، بعد فساد العلاقات بينهم وبين اليهود. كما كانت توجد سوقبقباء، وسوق بمزاحم بالقرب من مساكن بني الحُبلى، وسوق قرب البقيع عرفت ببقيع الخيل، كان بنو سليم يجلبون اليها الخيل والابل والغنم والسمن وكان أكثر ما يباع في هذه السوق الحيوانات (103) مكرر

بالاضافة لنشاط الحركة التجارية الداخلية، كان هناك أناس يعملون بالصيرفة، فكانوا يبيعون الذهب بالذهب، والفضة بالفضة. كما كانوا يقومون باستبدال النقود وكسرها، ولكنهم كانوا يستغلون جهل الناس فلا يظهرونهم على مدى الجودة أو فارق الوزن في الدنانير والدراهم.

---

103) الواقدي : فتوح البلدان ص 16 وما بعدها (طبعة بيروت 1960).

(103 مكرر) البخاري : صحيح البخاري ج 3 ص 62، السمهودي : وفاء الوفا بأخبار المصطفى ج 1 ص 540، 544 ـ 545، ياقوت الحموي معجم البلدان ج 13 ص 128، احمد ابراهيم الشريف : مكة والمدينة ص 5 ـ 366.

وكانت السمسرة حرفة يحترفها بعض الناس. فيتولون البيع نيابة عن أصحاب البضائع وبخاصة من أهل البادية، وكثيرا ما كانوا يستغلون جهل هؤلاء البدو فيخسرونهم أو يرفعون في السعر أو ينقصون مضاربه (*).

أما التجارة الخارجية فقد كانت يثرب تقع على طريق القوافل التجارية ، وكان فيها جالية كبيرة من اليهود ومنهم من كان يملك ثروة كبيرة، ومنهم من ساهم بسهم وافر في النشاط التجاري في الحجاز، ويروي البلاذري أنه «كان في جوار عبد المطلب، يهودي يقال له اذينه. وكان اليهودي يتسوق في اسواق تهامة بماله. فغاظ ذلك حربا، فألب عليه فتيانا من قريش، وقال : هذا العلج الذي يقطع اليكم ويخوض بلادكم بمال جم كثير من غير جوار ولا خيل. والله لو قتلموه وأخذتم ماله، ما خفتم تبعة ولا عرض لكم أحد بطلب بدمه» (**)؛ وبالرغم من براعة وخبرة أهل قريش التجارية، نجد بعضهم يتآمرون على تاجر يهودي، كان بارعا في التجارة حتى لقد احنقهم عليه، فتخلصوا من منافسته بقتله.

كما يروي الديار بكري أن أبي رافع الخيبري كان يرسل تجارته الى الشام بواسطة القوافل ويستورد منها الاقمشة المختلفة (***)، وان كانت المصادر لم تحدثنا عن قوافل تجارية للمدينة اتجهت الى الشام أو الى اليمن، فيبدو ان أهل المدينة اعتمدوا على القوافل المكية التي كانت تمر بمدينتهم، كما كانوا يرحلون الى الأسواق العربية في عكاظ ومجنة وذي المجاز في موسم الحج يبيعون فيها ويشترون (****).

2 ـ الــزراعــة

عرفت بلاد اليمن قديمًا بشهرتها في انتاج العطور والطيوب والمر والصمغ والكافور والورس (نوع من النبات يشبه الزعفران). وكان لهذه المنتجات الزراعية

(*) احمد ابراهيم الشريف : مكة والمدينة 366 ـ 367.

الخزاعي : الدلالات السمعية على ما كان في عهد الرسول (ص) من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية مخطوط رقم 638 ص 644، 653.

(**) البلاذري : انساب الاشراف، تحقيق محمد حميد الله ج 1 ص 72، 73؛

(***) الديار بكري تاريخ الخميس ج 2 ص 12.

(****) ابن هشام : سيرة النبي ج 1 ص 148، 179، صحيح البخاري ج 3 ص 62.

اليمنية سوق رائجة في مصر القديمة ولقد ازدهرت الزراعة في اليمن بوجه خاص في عصر الدولة السبئية عندما اهتم ملوكها باستصلاح الأراضي للزراعة وحققوا أعظم مشروعات للري في العصر القديم، وأعنى إنشاء شبكة من السدود لحجز مياه الأمطار والسيول والإفادة منها في ري مساحات كبيرة من الأراضي، وقد كثر عدد السدود في اليمن. (104)

وأهم هذه السدود، سد مأرب، فقد كان من عجائب الفن الهندسي اقيم في 850 ق.م تقريبا. وكان لهذا السد أعظم الأثر في مد الرقعة الزراعية بمأرب وزيادة مواردها الزراعية وتحويل الأراضى السبئية إلى جنات يانعة جاء ذكرها في القرآن الكريم : «لقد كان لسبأ في مساكنهم آية جنتان عن يمين وشمال» (105).

أما في الحجاز، فقد اختلف أهل الطائف عن أهل مكة، وعن الأعراب من حيث ميلهم إلى الزراعة واشتغالهم بها وعنايتهم بغرس الأشجار. وقد عرفت الطائف بكثرة زبيبها وأعنابها ،واشتهرت بأثمارها. وقد كان أهلها يعنون بزراعة الأشجار المثمرة، ويسعون إلى تحسين أنواعها وجلب أنواع جديدة لها، فقد إستوردوا أشجارا من بلاد الشام ومن أماكن أخرى وغرسوها، حتى صارت الطائف تمون مكة وغيرها بالأثمار والخضر. (106).

أما يثرب فكانت الحرفة الرئيسية لسكانها هي الزراعة نظرا لطبيعة المنطقة فقد كانت أرضها بركانية التربة خصبة، وكانت تسيل بها وديان كثيرة تفيض بمياه السهول ، وتتخلل المدينة كلها، فتروي ارضها، وكان الزراع يسقون نخيلهم وزروعهم من هذه المياه، فيقسمون الماء بينهم، بأن يحبس الماء صاحب الارض العالية حتى تسقى نخله فتصل الى جذوره بارتفاع الكعبين. ثم يرسلها الى من هو أسفل منه فيسقي.

وفي الاوقات التي تشح فيها مياه الوديان او تنقطع، وفي الاماكن التي لم تكن

---

104) ابن حوقل : كتاب صورة الارض ص 43، ياقوت الحموي: معجم البلدان، مادة يمن ص 448، المقدسي: احسن التقاسيم ص 87. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب قبل الإسلام ج 1 ص 87، 88، تاريخ الدولة العربية ج 2 ص 7.

105) الالوسي : بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج 1 ص 203.

106) جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج 9 ص 151.

تصل اليها، كان الناس يستخدمون مياه الآبار في ارواء مزروعاتهم، فيرفعونها من الآبار لري الاراضي القريبة من البئر، . أو يحملونها على الجمال لري الجهات التي تبعد عنها (*).

وأهم مزروعات المدينة أشجار النخيل، التي كان يعتمد السكان عليها فكان التمر جل طعامهم، كما كان به التعامل بينهم، فتدفع منه الاجور وتسدد الديون. كما كانوا ينتفعون بكل شيء في النخلة، يأكلون جمارها (**). ويستخدمون جريدها في سقوف منازلهم، ويعملون من خوصها المكاتل والقفف، ويستخدمون جذوعها اعمدة لبيوتهم وحمالات لسقوفها ويستخدمون الشوك والكرانيف للوقود كما كانوا يرضخون النوى بالمراضخ حتى يتكسر فيكون علفا للابل، فالنخلة من أكرم الاشجار عليهم حتى لقد شبه النبي، المؤمن بالنخلة كل ما فيه خير.

والشعير هو الغلة الثانية بعد التمر، وكانوا يزرعونه في حقول ولكنهم عادة كانوا يزرعونه تحت النخيل، وكان عليه اعتمادهم بعد التمر (***).

والى جانب هاتين الغلتين الرئيسيتين، كان يزرع قليل من القمح والكرم وبعض انواع الفاكهة الأخرى، من رمان وموز وليمون وبطيخ وقاوون. كما كانت تزرع بعض الخضروات والبقول كالقرع واللوبيا، والسلق والبصل والثوم.

وكان جل أهل المدينة يعملون بالزراعة، منهم من كان يملك الاراضي الواسعة يزرعها لحسابه او يزارع عليها غيره او يكريها، ومنهم من كان يلمك قدرا يقوم على زراعته بنفسه . ومنهم من لم يكن له ملك خاص فيزرع في أرض غيره مزارعة او كراء (   ).

(*) ياقوت الحموي : معجم البلدان ج 7 ص 91، ج 8 ص 234.

. السمهودي : وفاء الوفا باخبار دار المصطفى ج 2 ص 218 ـ 219

. الاصفهاني : الاغاني ج 13 ص 18.

. احمد ابراهيم الشريف : مكة والمدينة ص 356 ـ 357.

(**) الجمار : شحم النخل وهو اعلى الساق تحت الجريد.

(***) المقريزي : أمتاع الاسماع بما للرسول من الأنباء والأحوال والحفدة والمتاع ج 1 ص 182، 328 ـ 329.

(****) صحيح البخاري ج 3 ص : 52 و 65 و 109 واحمد ابراهيم الشريف : مكة والمدينة ص : 359.

3 ـ الصناعة

كان العرب يحتقرون الاشتغال بالحرف كالزراعة والصناعة ،والتجارة، وكانوا يستهينون بقريش لانكبابها على التجارة وانصرافها عن الحروب من دون سائر العرب. وإذا تأملنا ماكان يهج به جرير، الفرزدق وكلاهما من عرب تميم، لانجده أكثر من أن أحد آباء الفرزدق كان محترفا لجلاء السيوف، وكان المعديون، يعيبون أهل اليمن، بدباغة الجلود، وإستعمالها فيما تصلح من النعال. وغيرها. وكذلك حياكة الثوب ويقول قائلهم: «هم بين دابغ جلد، وناسج بُرْد». (107).

ومع ذلك فقد اشتغل رجال مكة بالصناعات والحرف: فابن رستة يذكر أنه إشتغل قوم منهم بالبزازة (الثياب)، واشتغل بعض منهم بالخياطة، كما اشتغل البعض بالحدادة والجزارة والتجارة ومعالجة الخيل والإبل والضرب على العود والغناء. وهذا ينفى ماذكره أهل الأخبار من عدم وجود نجار في مكة يوم جددوا بناء الكعبة، فحاروا في كيفية العثور على نجار يقوم بتسقيف البيت، إلى أن اهتدوا إلى رومى تحطمت سفينته عند الساحل، فجاؤوا به وبخشب سفينته فسقف الرومى لهم الكعبة. (108) .

كما إختلف أهل الطائف عن غيرهم من أهل الحجاز في ميلهم إلى الحرف اليدوية مثل الدباغة والنجارة والحدادة، وهي حرف مستهجنة في نظر العربي، يأنف من الاشتغال بها. ولكن أهل الطائف احترفوها وربحوا منها، وشغلوا رقيقهم بها. وقد استفادوا من خبرة الرقيق، فتعلموا منهم مالم يكن معروفًا عندهم من أساليب الزراعة وأعمال الحرف، فجددوا وأضافوا إلى خبرتهم خبرة جديدة (109).

---

107) الازرقي : أخبار مكة جـ 1 ص 122 ، 123، ابن حوقل : كتاب صورة الأرض ص 43، المُقدسي: أحسن التقاسيم ص 98.، محمد الخضري: محاضرات في تاريخ الأمم الاسلامية (الدولة الأموية) جـ 1 ص 17.

108) ابن رستة : الاعلاق النفيسة ص 215.

109) جواد على : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام جـ 4 ص 152.

وكانت يثرب أظهر من مكة في النشاط الصناعي، فقد كانت تقوم بها صناعة مغتمدة على الانتاج الزراعي . كما كان بها صناع متخصصون احترفوا أنواعا من الصناعات وبرعوا فيها وبخاصة صناعة الحلي والاسلحة. هذا الى صناعات أخرى هي من مستلزمات حياة المدن ومن مستعملات الناس في حياتهم اليومية.

وأهم هذه الصناعات، صناعة الخمر من التمر والبُسر وكانوا يسمونها الفضيخ، وكانوا يشربونها ويتاجرون فيها، وكان لديهم منها كميات كبيرة يختزنونها في الجرار سواء في ذلك العرب واليهود.

كما كانت تقوم صناعة الخوص من سعف النخل، فيصنعون المكاتل (المقاطف) والقفف. وكذلك كانت تقوم أعمال النجارة اللازمة للبيوت من ابواب ونوافذ وأثاث. وأمتلك اغنياء اليهود كثيرا من الاثاث، مثل الكراسي التي كانت تصنع من الخشب وأرجلها من الحديد. ولذلك كانت حرفة الحدادة احدى الصناعات القائمة في المدينة والمرتبطة بالاعمال الزراعية.

والى جانب هذه الصناعات، كانت تقوم صناعة الحلي، وقد تخصص فيها واشتهر، ينو قينقاع من اليهود ، ولم يحترفها أحد من العرب معهم . كما انتشرت صناعة الأسلحة والدروع بالمدينة، يحترفها اليهود، وقد روجوا لها ترويجا كبيراحتى قالوا انهم ورثوها عن داود (109 مكرر)

وكان نساء العرب كافة يشتغلن بالغزل وأمهر من اشتغلوا بالصناعات هم أهل اليمن والحيرة ومشارف الشام. (110).

(109 مكرر) الواقدي : مغازي رسول الله ص 138 ـ 139، 140، الخزاعي : الدلالات السمعية على ما كان في عهد الرسول (ص) من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية ص 115 ـ 116، ص 657 ـ 661.

، السمهودي : وفاء الوفا باخبار دار المصطفى ط ص 198

110) محمد الخضري: محاضرات في تاريخ الأمم الاسلامية (الدولة الأموية) جـ 1 ص 17.

رابعًا : الحالــة الاجتماعيــة

1 ـ النـظام القـبلي :

القبائل العربية تكونت من بدو وحضر، أهل وبر وأهل مدر، يتساوى في هذه الحال عرب الشمال وعرب الجنوب وعرب جميع أنحاء جزيرة العرب الأخرى. فأما أهل المدر، فهم الحواضر وسكان القرى، وكانوا يعيشون من الزرع والنخل والماشية والضرب في الأرض للتجارة. وأما أهل الوبر، فهم قطان الصحارى يعيشون من البان الإبل ولحومها، منتجعين منابت الكلأ، مرْتادين لمواقع القطر، فيخيمون هنالك ماساعدهم الخصب وأمكنهم الرعي، ثم يتوجهون لطلب العشب وابتغاء الماء، فلايزالون في حل وترحال. (111) .

وتطلق لفظة عرب على أهل المدر خاصة، أي على الحضر، أما أهل البادية، فعرفوا بأعراب، مع أن كلمة العرب قد أطلقت حديثًا وتشمل عرب الحاضرة وعرب البادية .

والقبيلة هي عماد الحياة في البادية، بها يحتمى الأعرابي في الدفاع عن نفسه وعن ماله. والرابط الذي يربط شمل القبيلة ويجمع شتاتها هو النسب ويفسر ذلك بإرتبأط أبناء القبيلة كلها بنسب واحد وبدم واحد وبصلب جد أعلى من صلبه انحدر أفراد القبيلة في اعتقادهم.

وأساس النظام القبلي هو العصبية: أن يدعو الرجل عصبيته الىنصرته، فالرجل يهب اذا سمع نداء العصبية حاملا سيفه أو رمحه أو أي سلاح يملكه وبغير سلاح، لينصر أخاه، لايسأله: لِمَ؟ فليس من العصبية والاخوة القبلية أن تسأل أخاك عما وقع له، بل عليك تلبية ندائه وتقديم العون له، معتديًا كان أم معتدى عليه .

ولكل قبيلة أرض تعيش عليها وتنزل بها وتعتبرها ملكًا لها، تنتشر بها بطونها وعشائرها، ولا تسمح لغريب النزول بها والمرور بها الا بموافقتها وبرضاها. وقد اختص كل بطن منها بناحية فإنفرد بها واعتبرها أرضًا خاصة به .

---

(111)ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص 158 وما بعدها، عرف الحضر بأهل المدر، لأن ابنية الحضر انما هي المدر وهي قطع الطين اليابس .

ولكل قبيلة حق حماية أرضها. واذا أراد غريب اجتياز أرضها فلابد من أن يكون في حماية انسان منها. واذا كان المجتاز جماعة، كأن يكون قافلة أو قبيلة أو حيًا، عليه أخذ اذن من القبيلة يخوله حق جواز المرور بها. لذا كان لابد للتجار من ترضية سادات القبائل للسماح لهم بالمرور، بدفع حق المرور، وهي اتاوات تعارفت القبائل على أخذها من المارة .

وسيد القبيلة الرئيس والمرجع والمسؤول عن أتباعه في السلم والحرب. يقصده ذوو الحاجات من أبناء القبيلة ان احتاجوا إلى حاجة. وقد يجمع هذا الرئيس شمل جملة قبائل، ويترأسها، وقد ينصب نفسه ملكًا عليها. وقد لانخطئ اذا ماقلنا أن أكثر مؤسسى الأسر المالكة في بلاد العرب، كانوا سادات قبائل في الأصل، استغلوا مواهبهم وامكانية قبيلتهم، وسخروها في سبيل الحصول على الملك، وعلى التلقب بلقب ملك، فنالوه .

ويذكر اهل الأخبار أن أهل الجاهلية كانوا لايسودون إلا من تكاملت فيه ست خصال : السخاء والنجدة والصبر والحلم والتواضع والبيان (112).

وعلى الرئيس أن يكون في مقدمة القوم في الحروب والغزو، وأن يكون شجاعًا لايهاب الموت، حتى يكسب النصر لنفسه ولقومه، وعليه أن يكون قائد قبيلته وواضع خطط الحرب. والرئيس هو روح القبيلة وشعارها لذلك كان فرسان الاعداء يوجهون كل قوتهم نحو الرؤساء، فقتل الرئيس يؤدي إلى هزيمة القبيلة .

والنسب هو أساس العصبية ولهذا حرص العربي على حفظ نسبه. فهو يروى شجرة نسبه من ذاكرته ويرفعها الى جملة أجداده.

وهناك عدة مفاهيم وتعبيرات تدور حول النظام الإجتماعي بالقبيلة مثل : الاستلحاق وهو أن يستلحق انسان شخصيًا فيلحقه بنسبه، ويجعله في حمايته ورعايته، أي في عصبيته. وقد يكون الرجل صريحًا معروف النسب، وقد يكون اسيرا او مولى أو عبدا، فيسميه مولاه وينسبه إليه .

---

(112) ابن منظور : لسان العرب (بيروت 1955) مواد : مدر، حجر، ريف ، ضرع ،حضر. الالوسي : بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ج 1 ص 12، 99، ج 3 ص 426، 428، 433، بلاشير : تاريخ الادب العربي (العصر الجاهلي) تعريب الدكتور ابراهيم كيلاني ص 25 وما بعدها، جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج 4 ص 271، 296، 297، 313، 342 .

أما الدعيّ فيقال للمستلحق (الدعيّ). والدعيّ المنسوب إلى غير أبيه ونهى عنه الاسلام وجعل الولد للفراش. (113).

وكان حكم الدعيّ من الناحية القانونية في حكم النسب الصحيح والبنوة الشرعية عند الجاهليين، لذلك كان الجاهليون يورثونه كما يورثون الأبناء. (114).

أما الجوار فله صلة كبيرة بالنسب وبالعصبية عند العرب، فقد يتوثق الجوار وتتقوى أواصره فيصير نسبًا، فيدخل عندئذ نسب المستجير بنسب المجير، ويصير وكأنه نسب واحد، هو نسب المجير. وهو من السنن التي حافظ عليها الجاهليون، واعتدوها كالقوانين .

والجوار جواران: جوار جماعة كجوار بيت أو فخذ أو بطن أو ظهر أو عشيرة أو قبيلة، وجوار أفراد. وللجوارين حرمة وقدسية ليس احدهما دون الآخر في الحرمة والوفاء.

ولا يشترط في الجوار أن يكون جوار أحياء. فقد يستجير إنسان بقبر أو بمعبد أو بأي موضع مقدس، فعلى أصحابه آداء حقوق الجوار.

أما الموالي، فهم العبيد الذين يمنّ عليهم صاحبهم، ويفك رقابهم ويعتقهم، .ويصير المملوك بذلك مولى لعاتقه اذ لما دخلت العجم على العرب بعد انتشار الإسلام. سموا الموالى.

والمولي نوعان : مولى يرث ويورث فهؤلاء ذوو الأرحام، ومولى يورث ولا يرث، فهؤلاء العتاقة. ومولى الرحم، فيكتسب الولاء بالزواج من موالي بعض القبائل، فينسب إلى القبيلة التي تزوج من مواليها .

والموالي عربا كانوا أم عجمًا، كانوا أقل شأنًا في مجتمعهم من الأحرار. اذ نظر إليهم على أنهم دون العرب الأحرار في المكانة. ولهذا فقلما زوج الأحرار ...

---

113) وكان النبي، تبنى زيد بن حارثه، ثم الحقه بنسبه، فنزل الوحي ينهى الرسول عن ذلك « ادعوهم لآبائهم هو اقسط عند الله، فان لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم» وقال : (ما جعل ادعياءكم ابناءكم ذلك قولكم بأفواهكم». انظر القرآن الكريم : سورة الاحزاب رقم 33 الآية 5،4

114) ابو الفرج الاصفهاني : الأغاني ج 17 ص 94.

للموالي. حتى ضرب بهم المثل في القلة والذلة. ولذلك أمر الخليفة عمر ابن الخطاب بأبطال الولاء بين العرب، وجوز بقاءه فيما بين العرب وغير العرب (115)

2 ـ طبقات المجتمع

أ ـ الرقيق أو العبيد :

والتباين الطبقي هو أوضح ما يكون في اليمن، لأن الطبيعة حبت أرض اليمن خيرات وجوا، ونتيجة لذلك ظهر بها الاقطاع واشتدت الحاجة الى الرقيق لاستغلال الأرض والتشغيل في المهن الوضيعة.

وادنى الطبقات منزلة في المجتمع، هي طبقة العبيد، هي طبقة تقوم بالخدمة وبسائر الأعمال التي يأنف الانسان الحر من ممارستها. وقد يكون معظم أفرادها من الزنوج المستوردين من افريقية. وأما الباقون فمن الرقيق الابيض المستورد من أسواق العراق وبلاد الشام.

وقد كان العبيد ملكا يباع ويشترى بيع الأموال المنقولة، ويتصرف صاحب العبد به تصرفه بملكه الخاص، ولم يخول القانون العبد حق إبداء رأيه في مستقبله في أي حال من الأحوال .

وقد كانت بمكة جالية كبيرة من أصل إفريقي، عرفت بالاحابيش وهم سود البشرة، اشتراهم اثرياء مكة للعمل لهم في مختلف الأعمال ولخدمتهم. كما قام بخدمة قريش طائفة أخرى استوردت من الشمال من بلاد الشام والعراق، هي الأسرى البيض الذين كانوا يقعون في أيدى الروم أو الفرس أو القبائل المغيرة على الحدود. فيباعون في أسواق النخاسة، ومنها ينقلون إلى مختلف أنحاء جزيرة العرب للقيام بمختلف الأعمال. يضاف إلى هؤلاء الرقيق المستورد من أسواق أوروبة لبيعه في أسواق الشرق .

---

115) ابن منظور، لسان العرب مواد : جور، عوذ ، عتق، كتب .
عبد الحميد العبادي : الاسلام والتفرقة العنصرية ص 58، 66، 67، 74، جورجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج 4 ص 31.، جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج 4 ص 360 ، 365، 366.

ويعود قسط كبير من وجود الكلمات الحبشية والرومية والفارسية في العربية الى الرقيق الأسود والأبيض (116).

ب ـ الأشـراف والأغنـياء

وتضم هذه الطبقة، سادة القوم وأشرافهم وأصحاب المنزلة والمكانة في المجتمع، ويعد اعضاء الأسر المالكة في الجنوب والشمال في طليعة السادات والأشراف ولهم أراض يستغلونها ورقيق يخدمهم.

وتلي هذه الأسر، الاقطاعيون الكبار، الذين يمتلكون الأراضي الواسعة، وقد يجد الاقطاعي في نفسه القوة والمنعة فينازع الملك، السلطة ويأخذ الحكم بيده.

ويليهم وجوه المجتمع وسادات القبائل وقادة الجيوش المقربين إلى الملوك، وقد ورثوا مكانتهم إرثاً.

وتلي هذه المستويات طائفة التجار وتتمثل في تجار مكة وكان أهل مكة بين غني متخم وفقير معدم. وبين الجماعتين طبقة نستطيع أن نقول انها كانت متوسطة .

وأغنياء مكة، هم أصحاب المال، وقد تمكنوا من تكثيره باعمال ما عندهم من مال بالاتجار وبإقراضه للمحتاج اليه، وباعماله بالزراعة، واستغلاله بكل الطرق المربحة التي يرون أنها تأتي بالأرباح.

وقد تمكن هؤلاء الأغنياء من بسط سلطانهم على قبائل الحجاز، ومن تكوين صلات وثيقة مع أصحاب المال في العربية الجنوبية وفي العراق وبلاد الشام، بحيث كانوا يتشاركون في التجارة والأعمال، حتى صاروا من أشهر تجار جزيرة العرب في القرن السادس للميلاد .

وكان من الأغنياء، من يأكل بصحاف من ذهب وفضة، ويشرب بآنية من ذهب وفضة ومن بلور، ويأكل على طريقة الروم والفرس بسكاكين وشوكات مصنوعة من

---

116) راجع مقالة الاحابيش والنظام العسكري في مكة للاب لامانس في مجلة الشرق السنة 34 (1936) ص 527 وما بعدها،. ابن الاثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة ج 3 ص 131 ، ج 5 ص 194، 462، 579، جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج 4 ص 118 ـ 123.

ذهب أو من فضة. وكانوا يتحلون بالخواتم المصنوعة من الذهب، تـزيـنها احـجـار كريمة. (117).

جـ ـ الفـــقـــراء :

ويبدو أن الأغنياء لم يكتفوا بما حققوه من غنى، اذ نجد بعضهم يستغل أكثر أهل مكة من الفقراء الذين لم يكن يملكون شيئًا وكانوا قساة، لم تدخل الرحمة ولا الشفقة قلوبهم .

فكان بعضهم يقسو على المحتاج، فلا يقرضه المال الا بربى فاحش وكان يشتط عليه. وكان بعضهم لايتورعون من أكل أموال اليتيم والضعيف، طمعًا في زيادة ثرائه .

وكان البعض يستغل رقيقه استغلالا شنيعًا، حتى أنه كان يكره فتياته على البغاء ليستولي على ما يأتين به من مال .

وقد سجل الشعر العربي أسماء كثير من الفقراء الذين عبروا بشعرهم عن الحرمان والفاقة. فهذا عروة بن الورد يحس بازدراء الناس له لفقره، وتفرقهم من حوله. وهذا عبيد بن الأبرص الشاعر، لايحفل بفراق زوجته التيلم تعد تهتم به لفقرة.

ويبدو أن حالة الفقراء كانت أحد الدوافع الى ظهور طائفة صعاليک العرب وهم جماعة أصابهم الفقر، فتاقوا الى الغنى ، عن طريق المغامرة والغزو اعتقادا منهم أن المال مال الله، وأن من حق المحروم أن يأخذ من الموسر عنوة وقسرا، وكان الصعاليک مغامرين يتسمون بالشجاعة والانفة، ولذلک عدت الصعلكة عند العرب مفخرة ومزية لأنها شيمة الشجعان .

ومن الطبقات الدنيا عند العرب الجنوبيين : الصغار، والاجراء. فقد كان أصحاب الأراضي يؤجرون الارض لمن لاأرض لهم، ومن لامال لهم، فيقيمون فيها يشتغلون لأصحابها، ويكونون تبعًا لهم وتعرف بطبقة التبعية وهذه الطبقة أرقى منزلة وأحسن حالا من حال العبيد المملوكين، والرقيق المشترى من الأسواق .

---

117) الطبرى : الرسل والملوک جـ 2 ص 492، البلاذرى : انساب الأشراف جـ 1 ص 374، جواد علي : المفصل جـ 4 ص 123.

أما الاجراء فهم الأشخاص الذين يشتغلون بأجور يدفعها لهم أصحاب الأرض أو أصحاب المال أو أصحاب العمل. وقد كانوا طبقة من الطبقات الدنيا. والاجراء أكثر حرية من العبيد، لأنهم يشتغلون بأجر وبعقود يتفقون عليها. فإذا انتهى العقد، أو حصل خلاف، جاز للاجير الانتقال إلى موضع آخر، أو إلى صاحب عمل آخر (118).

د ـ رجـــال الـــديـــن :

ورجال الدين طبقة في رأس طبقات المجتمع مكانة ومنزلة، ولها إمتيازات خاصة، لأنها ألسنة الآلهة الناطقة على هذه الأرض، والآمرة والناهية بإسمها، وهي تقرب الناس الى الآلهة، وتحرم وتحلل. وقد رأينا أن أوائل حكام العربية الجنوبية هم «مكربون»، أي رجال دين .

ولرجال الدين أملاك وأموال، ولهم على الناس حقوق، يأخذونها منهم، كما تأخذ الحكومة حقها من الشعب. وهم طبقة كبيرة ذات قوة وسلطان مصالحها مع مصالح الحكام بالرغم من الانفصام الذي وقع فيما بين الدولة والمعبد، وابعاد «المكرب» عن الحكم، وحصر حق الحكم في الملك وحده، وحصر حق ادارة المعبد في رجال الدين وحدهم، وذلك لأن مصالح الملك ومـصالح رجـال الديـن مـتـشابهة. (119).

خامسًا : الحالـــة الديـــنـــية

كانت الحياة الدينية عند العرب، في مستوى بدائي إلى أبعد الحدود. فلقد اعتقد العرب الجاهليون كغيرهم من الشعوب ذات الثقافة المحدودة، أن الطبيعة من حولهم مشحونة بقوى أعظم من قوى الإنسان، ولكن بالامكان تسخيرها لخدمته بطرائق خاصة (120).

---

118) Jamme : Eoucharabian Inscriptions p. 76, 77. ، خليل يحيى نامي : نقوش خربة معين ص 23، جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج 4 ص 550 ـ 553.، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب قبل الاسلام ج 1 ص 387 ـ 388.

119) جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج 4 ص 545.

120) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ص 24.

ونستدل من أسماء قبائل العرب على أنهم كانوا قريبي عهد بمذهب الطوطمية، والطواطم كائنات كانت تحترمها بعض القبائل المتوحشة، ويعتقد كل فرد من أفراد القبيلة بعلاقة نسب بينه وبين واحد منها يسميه طوطمة، وقد يكون الطوطم حيوانا أو نباتا، وهو يحمى صاحبه ويدافع عنه، ولذلك احترمه صاحبه وقدسه، فاذا كان حيوانا أبقى عليه، واذا كان نباتا لم يتجرأ على قطعه أو أكله الا في أوقات الشدة. (121).

ولذلك كان العرب يتسمون بأسماء الحيوانات مثل : بنو أسد، وبنو كلب، وأسماء حيوانات مائية مثل قريش، أو بأسماء نباتات. ثم أن العرب كانوا يقدسون الحيوان ويعبدونه كما يقدسه ويعبده أهل الطوطم، كذلك كانوا يعتقدون أنه يحمى أهله عند وقوع الخطر. (122).

حتى اذا ارتقى المستوى الديني عند العرب بعض الشيء، تمثلوا هذه القوى روحا بشرية، ذات طاقات خطيرة، فأصبحت في عرفهم شياطين. والواقع أن الساميين اعتبروا الأشجار، والكهوف، والينابيع، والحجارة العراض، على الخصوص مأهولة بالأرواح .

وليس في مجمل الشعر الجاهلي مايدل على شعور ديني عميق أو عاطفة روحية شديدة ويمكن الاستشهاد بحادثة امرئ القيس : قيل خرج بعد قتل أبيه يريد الانتقام فمر بصنم للاعراب يقال له ذو الخلصة فأستقسم عنده بقداحه وهي ثلاثة الامر والناهي والمتربص فأجالها فخرج الناهي ثم اعادها فخرج الناهي ثم أعادها فخرج الناهي فجمعها وكسرها وضرب بها وجه الصنم وقال : كذا وكذا لامك « لو أبوك قتل ما عقتني» (123).

وتدل الاساطير التي نسجها العربي حول النصب (124)، على أنه لم يعبد الوثن معتقدا انه خالق البشر أو الكائنات، لأنه تارة يستقسم عنده، وتارة يسبه، ومرة ثالثة يأكله في وقت الشدة ولم يصبح الوثن في تصور العربي ربًا إلا منذ القرن

---

121) محمد عبد المعيد خان: الأساطير العربية قبل الاسلام ص 55.

122) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب قبل الإسلام ج 1 ص 405، 406.

123) ابن الكلبي : كتاب الاصنام ص 34، أبو الفرج الاصفهاني : الأغاني ج 8 ص 70.

124) النصب : الشيء المنصوب وما عبد من دون الله من الأصنام والتماثيل.

السادس قبل الميلاد، عندما تأثر بالوثنية المجاورة، ثم تطورت الوثنية المحلية عند العرب بتأثير الحضارات المجاورة كالبابلية والرومانية واليمنية (125).

أما عبادات عرب الجنوب وما فيها من المظاهر الفلكية والهياكل المزخرفة والشعائر الدينية وتقديم الذبائح والقرابين فانها تمثل مرحلة من التطور راقية محدثة وهي مرحلة ادت إليها حالة الإستقرار والتحضر في المجتمع. كما يزعم ديتلف نلسون تأثر عرب الجنوب بحضارة بلاد الرافدين (126). وقوام عبادة النجوم والكواكب (الثالوث الكوكبي): القمر والشمس والزهرة.

وكان القمر، محور الاعتقادات الفلكية الدينية الأولى، عند البدوى إذ كان يرعى قطعانه على ضوئه، وكان دليل الحادى، ورسول القافلة ولذلك لقب بالحكيم والقدوس والصادق والعادل والمعين والحامي. وعبادة القمر لاحقة بحياة المراعي والبداوة أما عبادة الشمس فمرحلة أرقى وهي عالقة بحياة الزراعة وأطلق عليها اسم «اللّات» والالهة ·وكانت في نظرهم زوجة القمر ولذلك كان القمر اسمى مكانة من الشمس التي كانت لحرارتها الشديدة في الصيف تعرف بإسم ذات حميم أو ذات حمم. وقد أقام العرب صنماً للشمس عبدوه وتسمي كثير من الأشخاص باسمه.

أما إله الزهرة، فهو أكثر نجوم السماء تألقاً ولمعاناً، ويعرف بعزيز، نجم الصباح، الذي يسبق الشمس قبل شروقها ،وقد عرف أيضا «بذي الخلصة» و «ملك». (127).

وفي بلاد العرب، كان لكل قبيلة، آلهتها وأصنامها. كما كان للاصنام بيوت تجرى فيها طقوس العبادة. والى جانب القرآن الكريم يعتبر كتاب الاصنام لهشام ابن محمد بن السائب من أهم المصادر التي وصلت الينا عن عبادات العرب في الجاهلية أو قبيل ظهور الاسلام.

فالمفروض ان عرب الحجاز كانوا يدينون منذ بناء الكعبة بديانة اسماعيل ابن

125) محمد عبد المعيد خان : الأساطير العربية قبل الاسلام ص 107.

126) دتيلف نلسون: الديانة العربية القديمة ص 209.

127) فليب حتى : تاريخ العرب ج 1 ص 135، دتيلف نلسون: الديانة العربية القديمة ص 209.

الخليل ابراهيم الذي بعث نبيا، لجرهم والعمالقة وخزاعة وان العدنانية أبناءه نشأوا علي ديانته، قبل ان ينحرفوا الى الشرك وعبادة الأوثان والحجارة.

وفي أصل الشرك يقول المسعودي في كتابه مروج الذهب : «كان من ذكرنا من الامم لا يجحد الصانع جل وعز.. الا أن القوم دخلت عليهم شبه بعد ذلك لتركهم البحث، واستعمال النظر، ومالت نفوسهم الى الدعة... وكان في نفوسهم هيبة الصانع، والتقرب اليه بالتماثيل وعبادتها لظنهم أنها مقربة لهم اليه» (128).

والحجارة هي الانصاب (جمع نـصب) عندما تنصب بعضها فوق بعض. وأهم طقوسها هو الدوران أو الطواف حول النصب، ويقول ابن الكلبي : «انه كان لا يظعن من مكة ظاعن الا احتمل معه حجرا من حجارة الحرم، تعظيما للحرم وصبابه بمكة. فحيثما حلوا، وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة، تيمنا منهم بها وصبابة بالحرم وحباله» (129).

فكان عبادة الانصاب نابعة من الطواف حول الكعبة اي من شعائر الحج وهو في ارث ابراهيم واسماعيل. ولكن الناس نسوا ذلك مع مرور الوقت وصاروا يعبدون ما استحبوا (130).

والأوثان هي الاصنام، وكانت لها طقوسها الخاصة من الدعاء لها وتقديم القرابين. وتقول الروايات العربية ان أول من نشرها بين العرب هو عمرو بن لحى الخزاعي ولا يبعد ان يكون عمرو هذا قد نقل بعض الاوثان من بلاد الشام الى الكعبة.

ويروي ابن الكلبي ان عمرو بن لحى مرض مرضا شديدا فقيل له : «ان بالبلقاء من الشام حمة اذا أتيتها برأت، فأتاها فاستحم بها فبرأ، ووجد أهلها يعبدون الاصنام فقال : ما هذا ؟ فقالوا : نستسقى بها المطرونستنصر بها على العدو، فسألهم ان يعطوه منها، فنقلها، فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة (131).

---

(128) المسعودي : مروج الذهب ج 2 124، سعد زغلول عبد الحميد : في تاريخ العرب قبل الاسلام ص 338 _ 339.

(129) ابن الكلبي : كتاب الاصنام ص 706

(130) سعد زغلول عبد الحميد : فى تاريخ العرب قبل الاسلام ص 339.

(131) وهناك روايه اخرى تتلخص في وفاة بعض الصالحين فمجدهم قومهم بصنع تماثيل لهم

فكان رواية ابن الكلبي هذه تسجل ان عرب الحجاز اقتبسوا عبادة الأوثان من آهل الشام. بينما يرى بعض الباحثين المحدثين امثال ريسو ونيلسن، ان العكس صحيح، اذ آن اليونان ربما اقتبسوا عددا من آلهتهم مثل لاتون وهرمس من العربية الجنوبية أي اليمن حيث كانت القرابين تقدم للالهة باحراق البخور على المذابح، وذلك الى جانب ما اقتبسوه من حروف الكتابة (132).

ويبدو أن لا تعارض بين الاستنتاجين. فالعلاقة بين الحجاز والشام سهلة ومستمرة عبر العصور والتأثير متبادل بين المنطقتين ويساعد على ذلك الظروف الجغرافية المواتية.

ويضيف ابن القيم في كتابة إغاثة اللهفان مبررا ثالثا للتحول إلى عبادة الاصنام وهو تعظيم الموتى الذين صوروا تلك الاصنام على صورهم إذ كان ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر، قوما صالحين فماتوا، فجزع عليهم أقاربهم فعملوا لهم خمسة أصنام على صورهم وعظموهم وبتوالي القرون، تحول التعظيم إلى عبادة (132م).

وكانت اصنام العرب في الجاهلية على اشكال متنوعة فمنها ما كان على صورة الانسان، ومنها ما كان على صورة الحيوان، والاصنام تصنع من مواد مختلفة فبعضها يصنع من الخشب، وبعضها من الحجارة، وبعضها الآخر من معادن شتى (133).

= وبمرور الوقت ازداد تعظيم الناس لهذه التماثيل حتى عبدوهم واشتد كفرهم. حتى اتاهم نوح نبيا فعصوه وكذبوه وكان الطوفان وبعده قذفت هذه التماثيل على ساحل البر عند جده حيث تمكن الكاهن الخزاعي «عمرو بن لحي» من الحصول عليها وتوزيعها على القبائل لعبادتها مما يدل على الميل الى تقديس الموتى منذ القدم. راجع ابن الكلبي : كتاب الاصنام ص 9 ـ 11، 51 ـ 59 ، المسعودي : مروج الذهب جـ 2 ص 29 ـ 30، 227

، ابن خلدون : تاريخه جـ 1 ص 14، حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام جـ 1 ص 69.

(132) ديسو : العرب في سوريا قبل الاسلام ص 6، 7، نيلسن التاريخ العربي القديم : ص 178، محمد محمود جمعة : النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والامم السامية ص 127، سعد زغلول عبد الحميد : في تاريخ العرب قبل الاسلام ص 340.

(132م) أنظر الالوسى : بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب 2 : 212 ـ 213

(133) جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام جـ 5 ص 81، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب قبل الاسلام ص 413.

ومن أشهر آلهةالعرب المذكورة في القران : اللات والعزى ومناة وود وسواع ويغوث ويعوق ونسر. والذي يفهم من النصوص ان عددا من هذه الالهة كانت ثنائية اي مزدوجة من ذكر وانثى، مثل : اللات والعزى. واساف ونائلة.

وانها كانت اما ثابتة أي في بيوت عبادة خاصة بها او متنقلة تصحبها القبيلة في رحلاتها الشتوية والصيفية. وفي ذلك يقول ابن الكلبي : «وكان لاهل كل دار من مكة صنم في دارهم يعبدونه . فإذا أراد احدهم السفر، كان اخر ما يصنع في منزله ان يتمسح به. واذا قدم من سفره. كان اول ما يصنع اذا دخل منزله ان يتمسح به أيضا» (134).

ومثل اصنام الدور هذه كان يمكن أن تحملها القبيلة في ترحالها وحلها، وخاصة وقت الحروب للاستنصار به. مثل يغوث الذي كان على هيئة الاسد (135)

وكان لقريش اصنام في جوف الكعبة وحولها، وكان هبل أعظمها شأنا، وكان من العقيق الأحمر على صورة انسان مكسور اليد اليمنى، فصنعت له قريش يدا من ذهب. وكان اول من نصبه حزيمةبن مدركة بن الياس بن مضر، فكان يقال له هبل خزيمة.

وكان من عادةالعرب في الجاهلية انه اذا اراد احدهم قضاء امر لجأ الى القداح فضربها، فاذا خرج قدح بنعم مضى الى غايته، وان خرج بلا عدل عن المضي فيه. وفي ذلك يروى ابن الكلبي انه كان أمام هبل في جوف العكبة سبعة من القداح كتب في أولها صريح. وفي ثانيها ملصق فاذا شكوا في مولود أهدوا له هدية، ثم ضربوا بالقداح فان خرج صريح الحقوه، وان خرج ملصق رفعوه (136).

---

(134) ابن الكلبي : الاصنام ص 9 ـ 10.

(135) ويعتقد بعض الباحثين ان يغوث جلب من مصر، وعللوا ذلك بانه وجد بين آلهة المصريين صنم على صورة اسد يسمونه تغنوت، فعبده العرب ونسبوه الى اسمائهم فتسموا بعبد الأسد وعبد يغوث.ومن الملاحظ ان العرب عبدوا من الحيوانات ما كان حيا فقط ولم ينحتوا اصناما على صورة الحيوان.واذا كان قدوجدت عند العرب اصنام الحيوانات وطيور مثل النسر ويغوث ويعوق (على شكل فرس) وانما كانت مجلوبة من البلاد المجاورة. انظر محمد عبد المعيد خان : الاساطير العربية ص 81 ـ 82.

(136) ومن هذه القداح قدح على الميت، وقدح على الزواج. وثلاثة لم يتوصل الباحثون بعد عن حقيقتها. فاذا اختصموا في امر او ارادوا سفرا او عملا اتوا هبل فاستقسموا بهذه القداح.

ولم يكن هبل وحده معبود العرب، فقد انتشرت الاصنام في انحاء الجزيرة العربية على شكل بيوت وأشجار وحجارة مصورة وغير مصورة حتى قيل انه كان حول الكعبة 360 صنما (137).

ويظهر ان السبب في وجودها أن قريشا رأت أن تنتفع من قدوم القبائل العربية في موسم الحج، فوضعت أصنام القبائل الشهيرة حول الكعبة، حتى اذا اتوا مكة وزاروا الحرم وجدوا معبوداتهم فأولوها احترامهم وتقديسهم.

كانت مناة اقدم هذه الاصنام، ومناة مشتقة من المنا والمنية وهو الموت والقدر. ولذلك كانت تمثل إلهة القضاء ولاسيما قضاء الموت ؛وقد نصب هذا الصنم على ساحل البحر بقديد بين مكة والمدينة.

واللات وكانت صخرة مربعة بيضاء بالطائف وقد عرفت في آثار تدمر والنبط وقدستها قبيلة ثقيف كما تقدس قريش الكعبة (138). ويرجح جواد على أن تكون اللات نصبا من الانصاب لتقديم الذبائح والقرابين ثم اختلط امرها مع مرور الوقت وظنها الناس، الصنم نفسه، كما لا يستبعد أن تكون من بقايا الوثنية البدائية التي تعبد فيها الاحجار (139).

هذا بالنسبة لأديان العرب وأصنامهم قبل ظهور الاسلام. أما عن انتشار اليهودية في جزيرة العرب، فتذكر الروايات العربية ان اليهودية تسربت أولا الى يثرب حيث استقرت منذ عصور قديمة ثم انتقلت عن طريق يثرب الى اليمن.

---

(137) اختلف الباحثون حول عدد اصنام العرب. فرواية كل من أبن اسحاق وابن هشام تزعم ان فى الكعبة كان 360 صنم على عدد ايام السنة. اما الاب شيخو في كتابه النصرانية وآدابها بين العرب فى الجاهلية فبعد قيامه بحصر الاصنام المذكورة في اليعقوبي والمعاجم والتواريخ والشرح، بلغوا نحو ثلاثين صنما، بينما يعترف المستشرق نلدكة بانه يمكن اعداد قائمة طويلة لهذه المؤلهات وكذلك الاب لامنس الذي يوضح ان عددها لم يكن بالقليل، على انها لم تبلغ ذلك العدد الكبير 360 الذي ذكره ابن الكلبي واما جورجي زيدان في كتابه انساب العرب القدماء فيقول ولو جمعت اصنام العرب لزاد عددها على مائة صنم انظر ابن الكلبي : كتاب الاصنام ص 13، الأب شيخو : النصرانية وآدابها بين العرب في الجاهلية ص 6، مجلة الشرق 37 ص 223.

(138) ابن الكلبي : الاصنام ص 13 ، ياقوت الحموي : معجم البلدان مادة هبل ومناة واللات. حسن ابراهيم حسن : الاسلام ج 1 ص 70 ــ 71.

(139) جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج 5 ص 94.

ومن الصعب أن نحدد تاريخا معينا لبدء وجود اليهود في الجزيرة العربية وبعض الباحثين يظن ان وجودهم باليمن يرجع الى أيام سليمان والبعض الآخر الى عهد سقوط اورشليم على يد نبو خد نصر (140). ومن الجائز ان يكون نزوحهم الى الجنوب قد تزايد مباشرة بعد تخريب هيكل سليمان للمرة الثانية على يد الرومان في 70 م.

وكيفما كان بدء دخول اليهودية الى الجزيرة العربية. فمن المؤكد انه في القرون الاولى للميلاد كان بها مستعمرات يهودية في تيماء وفي فدك وفي خيبر وفي وادي القرى وفي يثرب. وهي اهمها. ومع مرور الوقت تأثرت جماعات من العرب بديانتهم ودخلوا فيها، وخاصة من بين الاوس والخزرج. فالى جانب يهود يثرب الاصليين من بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة، تذكر النصوص يهودا من بني عكرته وبني ثعلبة وبني زيد (141).

وامتدت الديانة اليهودية الى ما وراء يثرب. فقد تهود البعض من العرب، اذ يروي اليعقوبي «من تهود منهم فاليمن باسرها.. وتهود قوم من الأوس والخزرج بعد خروجهم من اليمن لمجاورتهم يهود خيبر وقريظة والنضير، وتهود قوم من بني الحارث ابن كعب وقوم من غسان وقوم من جذام» (142). ويضيف ابن قتيبة بان اليهودية كانت «في حمير وفي بني كنانة وبني الحارث بن كعب وكندة» (143).

ومما تجدر الاشارة اليه ان اليهودية حلت بجزيرة العرب بعد أن تأثرت بالثقافة اليونانية تاثرا كبيرا. لانها ظلت قرونا تحت الحكم اليوناني الروماني،

---

(140) ويذكر سعد زغلول عبد الحميد انه من «المفروض ان تكون اليمن قد عرفت اليهودية منذ ايام سليمان، اذا صحت قصته مع بلقيس» انظر وهب بن منبه: كتاب التيجان في ملوك حمير ص 151 ـ 153.، وعبيد بن شريه الجرهمي: اخبار في ملوك حمير ص 151 ـ 153.
وعبيد بن شرية الجرهمي: اخبار اليمن واشعارها وأنسابها او كتاب الملوك وأخبار الماضين ص 410 ـ 425، سعد زغلول عبد الحميد: في تاريخ العرب قبل الاسلام ص 360.

(141) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج 6 ص 519، احمد امين: فجر الاسلام ص 27.. سعد زغلول عبد الحميد: في تاريخ العرب قبل الاسلام ص360 ـ 365.

(142) ابن واضح: تاريخ اليعقوبي ج 1 ص 298.

(143) ابن قتيبة: كتاب المعارف ص 299.

ولانها كانت منتشرة في الإسكندرية وعلى شواطئ البحر الأبيض حيث الثقافة اليونانية (144).

ولاشك أنهم حملوا معهم توراتهم بتعاليمها ومعلوماتها الى جانب اساطيرهم وخرافاتهم، وبالتالي فقد ادخلوا على العربية كلمات ومصطلحات دينية جديدة.

ولقد ساهموا في الأعمال اليدوية، فلم يحرثوا الارض وزرعوا النخيل فحسب، وانما كانوا مهرة في صنع الأسلحة والمصوغات . وقد اندمجوا بالعرب ـ الى حدما ـ واعتنقوا عاداتهم واتخذوا اسماءهم حتى ان اسماء التوراة لم تكن شائعة الا بين نفر قليل ، كما كانت اسماء قبائلهم عربية محضة لا تفيد عن اصلهم شيئا (145).

ولم تكن المسيحية بأقل انتشارا من اليهودية، فقد انتشرت في أكثر اصقاع البلاد العربية في مشارف الشام والحجاز واليمن والبحرين والعراق وغيرها.

ففي الحيرة، أحلاف الامبراطورية الفارسية، ظل ملوكها لمدة طويلة على الوثنية، اذ كان اول من تنصر منهم هو النعمان ابو قابوس، وذلك قبل نهاية القرن السادس الميلادي، اما عامة سكانها فقد كانت المسيحية بين جزء كبير منهم وعرفوا «بالعباد» على المذهب النسطوري المحرم ببيزنطة (146).

أما في غسان فقد تنصر امراء غسان قبل المناذرة، بفترة طويلة، كما أنهم تمسكوا بمذهبهم اليعقوبي (الارثوذكس) عن قناعة وليس لاغراض سياسية.

ولذلك تحولت قبائل عربية عديدة الى النصرانية في الشام مثل : غسان وسليح وعاملة ولخم وجذام وتنوخ وبهراء واياد.وفي العراق مثل : تغلب وبنو عجل بن لجيم من بكر بن وائل.

وعن طريق كل من امارتي الحيرة وغسان العربيتين ، عرف اهل الحجاز النصرانية عن طريق الجوار والعلاقات التجارية الوثيقة، وتفاوت انتشار النصرانية في الحجاز : فقط اقتصرت في مدينة يثرب على أقلية،اذ كانت مدينة اليهودية ، بينما

---

(144) احمد امين : فجر الاسلام ص 29.

(145) انظر. The Jewish Encyclopaedia II p. 42

(146) انظر Guidi : L'Arabic Ante'islamique p. 32

. سعد زغلول عبد الحميد : في تاريخ العرب قبل الاسلام ص 366.

كان بالطائف عدد من العبيد والعمال من النصارى، وفي مكة كانت اقلية من النصارى تتمثل في جماعة الأحابيش وهم من سودان الحبشة الوافدين من اليمن وكان منهم العبيد والعمال والتجار والمرتزقة من الجند، اذ كانت لمكة علاقات تجارية مع الحبشة (147).

وهكذا عرفت الجزيرة العربية كلا من اليهودية والنصرانية،والحقيقة ان وجود ديانتي التوحيد في مهد الاسلام يمكن ان يعتبر نذيرا بقيام الدين الجديد كما يذكر اصحاب السيرة، اذ يروى ابن اسحاق في كتاب السير والمغازي قائلا : «وكانت الاحبار والرهبان أهل الكتابين هم اعلم برسول الله (ص) قبل مبعثه وزمانه الذي يترقب فيه العرب لما يجدون في كتبهم من صفاته، وما أثبت فيها عندهم من اسمه، وبما اخذ عليهم من الميثاق له في عهد انبيائهم وكتبهم في اتباعه».

وفي مكان آخر من كتابه يقول « وكانت الأحبار من اليهود، والرهبان من النصارى، والكهان من العرب، قد تحدثوا بأمر رسول الله (ص) قبل مبعثه لما تقارب من زمانه» (148).

ولكن ذلك لا يعني ـ حقيقة ـ ان البلاد كانت مهيأة لتقبل الدعوة المحمدية، دعوة التوحيد بسهولة، وذلك ان الصعوبات الشديدة التي لقيها الرسول (ص) والمجهودات المضنية التي بذلها في سبيل الدعوة تبين ان الأمر كان على العكس من ذلك.

اذ ان البدوي بما يؤثر عنه من صعوبة الانقياد وضعف الشعور الديني ـ بالنسبة الى كرامته الفردية والقبلية ـ والتفاني في الحرية الشخصية، ليصعب عليه

---

(147) Guidi : L'Arabic Ante'islamique p. 37
Lammens : L'Arabie Occidentale avant L'Hegire Beyrouth, 1928 p. 10 .
. جواد على : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج 6 ص 602 ـ 603.، سعد زغلول عبد الحميد عبد الحميد : في تاريخ العرب قبل الاسلام ص 366 ـ 370

(148) ابن اسحاق : كتاب السير والمغازي ص 83 ، 111.

الانصياع الى رجل مثله يطلب منه الطاعة التامة. وقد جاء في القرآن الكريم : «وما منع الناس ان يؤمنوا اذ جاءهم الهدى الا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا» (149).

«وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا انزل اليه ملك فيكون معه نذير. أو يلقى اليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها . وقال الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا» (150).

---

(149) القرآن الكريم سورة الاسراء 17، اية 94

(150) القرآن الكريم سورة الفرقان 25 آية 7 ـ 8.

الباب الثاني

الدعوة النبوية وتأسيس الدولة العربية

أولا : الدعوة النبوية
ثانيا : تأسيس الدولة العربية
ثالثا : الصراع بين المدينة ومكة
رابعا : توحيد الجزيرة العربية

الدعوة النبوية وتأسيس الدولة العربية

أولا : الدعوة النبوية

تقع مكة، البلد الذي ولد فيه الرسول في الحجاز في واد صخري غير ذي زرع يمتد من الشمال الى الجنوب بين جبل أبي قبيس في الشرق، وجبل قعيقعان في الغرب وفي وسط مكة تقوم الكعبة، وهي بناء ذو أربع زوايا.

وكانت الكعبة تضم تمثال الاله القمري هُبَل، بالاضافة الى الالهة الثلاث المعبودة، اللات والعُزّى ومناة. وفي فناء الهيكل تدفقت مياه بئر زمزم، التي نشأت حولها البلدة. وكانت هذه الرقعة من الارض تعتبر، قبل الرسالة، حرما مقدسا. وكانت السلطة في مكة لقبيلة قريش، وأعظم بيوتها مخزوم وأمية، وانما قامت ثروتها على التجارة، ذات الصلة الوثيقة بالحج الى الكعبة، والى جبل عرفات المجاور. ليس هذا فحسب، بل لقد كانت مكة ملتقى القوافل التجارية الضاربة بين بلاد العرب الجنوبية وسورية. (1)

1 ـ المولد والشباب :

كان عبد المطلب بن هاشم كبير قريش وسيدها، ومن أولاده عبد الله أصغر ابنائه، وكان عبد المطلب نذر حين لقي من قريش العنت في حفر بئر

1) الازرقي : اخبار مكة، ج 1 ص 188، ج 2 ص 55،54، ياقوت الحموي : معجم البلدان، مادة مكة، كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الأسلامية ص 32،31

زمزم (2) لئن ولد له عشرة ابناء، لينحرن أحدهم عند الكعبة تقربا وشكرا لله تعالى. فلما بلغوا عشرة، أخبرهم بنذره فأطاعوه .

واقترع عبد المطلب على أبنائه، عند هُبل (وكان أعظم أصنام عرب مكة) في جوف الكعبة، أيهم ينحره، فخرج عبد الله وكان أصغر أبنائه وأحبهم اليه، فأخذه عبد المطلب الى صنمي اساف ونائله لينحره، فثارت قريش وحالت بينه وبين عزمه، واقترحت افتداءه، ففدي بمائة من الابل.

وتزوج عبد الله بآمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة.

«قال الزهرى: ارسل عبد المطلب ابنه عبد الله الى المدينة يمتار لهم تمرا فمات بالمدينة. وقيل: بل كان في الشام فأقبل في عير قريش فنزل بالمدينة وهو مريض فتوفي بها.. وله خمس وعشرين سنة وقيل ثمان وعشرون سنة، وتوفي قبل أن يولد رسول الله ؟»، (3)

وكانت ولادة الرسول عام 570_571 للميلاد على وجه التقريب وهو العام المشهور بعام الفيل كما سبق وأوضحنا. ويزعم بعض المستشرقين أن ولادة الرسول كانت متأخرة عن هذا التاريخ بعض الشيء، فالاب هنري لامنس اليسوعي قد حاول أن يؤخر ذلك عشر سنوات حتى ينقض القول الشرعى الذي يقول ان محمدا (صع) بعث على رأس الاربعين من عمره، ويخرج الى القول أنه مادام الانبياء يبعثون على رأس الاربعين ومحمد (ص) قد صدع بالدعوة على رأس الثلاثين فمحمد (ص) ليس نبيا، وقد تابعه بروكلمان وأخذ برأيه (4) .

ولقد ولد الرسول في ظروف قاسية جدا، فوالده عبد الله بن عبد المطلب مات في رحلة تجارية، قبل ولادته بشهرين. وبعد سنوات قليلة ماتت أمه آمنة بنت

---

2) حفر عبد المطلب لبئر زمزم وادعاء قريش في مشاركتهم له

3) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 2 ص 5 _ 10

4) H. Lammens : L'age de Mahomet et la chronologie de la Sira, Journal Asiatique, série X,t 17. P. 209 - 250.

كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص 32

وهب، أيضا، فنشأ يتيما في كنف جده عبد المطلب، ثم في كنف عمه أبي طالب.
ولسنا نملك بينه موثوقا بها عن حياة النبي الاولى الا هذه الايات القرآنية :

«ألم يجدك يتيما فآوى. ووجدك ضالا فهدى. ووجدك عائلا فأغنى. فأما اليتيم فلاتقهر. وأما السائل فلاتنهر. وأما بنعمة ربك فحدث» (5).

ويروي ابن هشام اهتمام عبد المطلب بحفيده وإسرافه في حبه فكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة فكان بنوه يجلسون حول فراشه، لايقربه أحد منهم اجلالا له، فكان الرسول يأتي وهو غلام صغير حتى يجلس عليه فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه فيقول عبد المطلب : دعوا ابني هذا فوالله | ان لـه، لشأنا ثم يجلسه معه على فراشه.

توفي جده عبد المطلب وهو ابن ثمان سنوات فكفله عمه أبو طالب، وفي العام التالى أو وهو ابن ثلاث عشرة، خرج مرافقا لعمه في تجارة الى الشام ووصل حتى مدينة بصرى أهم مدن الشام في ذلك الوقت وقصبة حوران (6).

وحينما نشأت حرب الفجار، (7) بين قريش وكنانة وبين قيس عيلان كان الرسول ابن خمس عشرة عام، وشارك فيها بتجهيز النبل للرمى لاعمامه وشهد بعض أيامها مثل يوم شمطة ويوم نخلة.

كما حضر ونوهه بحلف الفضول الذي قام بين بني هاشم وبني عبد المطلب وبني أسد بن عبد العزى وزهرة بن كلاب وتيم بن مرة، لنصرة كل مظلوم من أهل مكة أو غيرها حل بالمدينة، حتى ترد عليه مظلمته (8).

---

5) القران الكريم : سورة الضحى 93، الايات 6 ـ 11

6) ابن هشام : السيرة النبوية ج 1. ص 168

البلاذري : انساب الاشراف ج 1 ص 96،81

ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 2 ص 37.

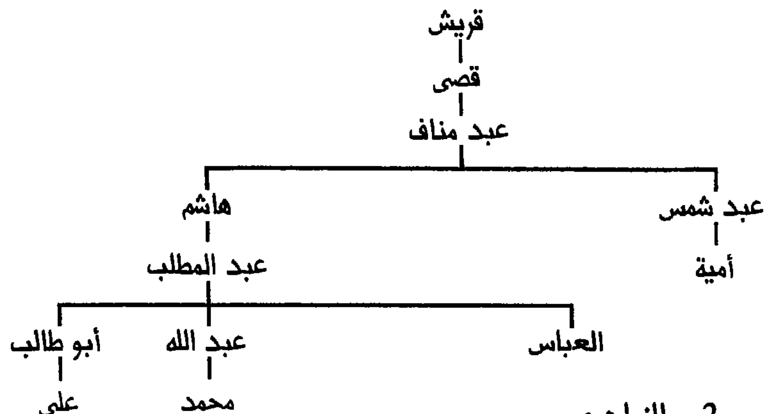
7) يروي انها سميت فجارا لاشتعال القتال في الشهر الحرام وهو شهر رجب سابع الاشهر العربية وهو بخلاف الاشهر الحرم الثلاث ابتداء من الشهر الحادي عشر حتى ختام الشهر الاول من السنة الجديدة، أي طوال ذي القعدة وذي الحجة والمحرم.

ومغزى هذه الاشهر الحرم، حتى يكون في ميسور القوافل المجهزة في مكة أن تبلغ الامصار التي تقصد اليها في سلامة وأمن.

8) ابن هشام : السيرة النبوية ج 1 ص 186

ابن سعيد : الطبقات الكبرى ج 1 ص 128

ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 2 ص 41.



2 ـ الزواج :

تزوج الرسول وهو في الخامسة . والعشرين من خديجة بنت خويلد وهي تناهز الأربعين، وكانت خديجة «أوسط نساء قريش نسبا وأكثرهن مالا وشرفا» وتستقل بتجارة ورثتها عن زوجيها السالفين من بني مخزوم وذلك أن نساء العرب في الجاهلية والمستقلات منهن اقتصاديا بصورة خاصة، كن يتمتعن بحرية أوسع بكثير من التي تمتع بها النساء في العهود التالية.

ويبدو أن محمداً (ص) قد رافق في خلال هذه الفترة، بعض القوافل المكية الى الجنوب، (سوق حباشة باليمن)، وربما الى بصرى، التي كانت مركزا من مراكـز تجارة القمح، بشرقي الاردن بالدولة البيزنطية. واشتهر الرسول (ص) من خلال هذه السن المبكرة بالامانة وكرم الاخلاق، مما دفع السيدة خديجة، الى عرض نفسها على محمد (ص)، فرضي وخطبها عمه وتم الزواج قبل الهجرة بثمان وعشرين سنة. (9)

3 ـ البعث والدعوة في مكة :

تعليل ظهور الاديان مسألة دقيقة تناقش فيها العلماء كثيرا، فبعضهم يرى ان عوامل ظهور الاديان يمكن تقصيها بالبحث العلمي في ظروف المجتمع وتطوره، وعلى العكس يرى البعض ان المحرك لاية حركة دينية هو الفرد وليس المجتمع، بدليل ان جميع الديانات المعروفة نشأت تحمل أعلاما شخصية، مثل : موسى وعيسى ومحمد (ص).

9) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 2 ص 40،39
محمد الخضري : تاريخ الامم الاسلامية (الدولة الاموية) ج1 ص 64.

ومهما يكن الاختلاف في أصل نشأة الاديان، فان تشابهها من أوجه كثيرة يدل على أنه لابد أن يكون لها جميعا أصل واحد تتلاقى عنده، فضلا عن انه يجمعها اسم «الدين» (*).

ومن الجدير بالذكر ان الثلاثة الاديان السماوية المعروفة وهي : اليهودية والمسيحية والاسلام جميعها من أصل سامي، وانها نشأت على تخوم الجزيرة العربية وفي داخلها، وليس في أماكن متفرقة من المعمورة.

ومن ناحية أخرى نجد في القرآن ـ وهو الكتاب الديني ـ انالانسان لم يسر الى الاديان، وانما هي التي سارت اليه ونزلت عليه، فالله لما خلق آدم ـ أبا البشرية ـ علمه انه هو الخالق، الذي تجب طاعته، وأن هذا التعليم الأول لم يقف به عند الانسان الأول، بل ما زال يتعهد بتبليغه الامم في فترات تقصر أو تطول، وجعل يذكرهم به على لسان الانبياء والرسل الذين كان آخرهم محمد (ص) (**).

ولما بلغ الرسول (ص) الاربعين من عمره بعثه الله لهداية قومه اما عن كيفية اعلام الله لرسوله المختار، فقد مرت بمراتب:

الاولى المخاطبة في النوم وتلك هي الرؤيا الصادقة اما الثـانية فهي الالهام اذ يلقى مايراد القاؤه على قلبه من غير وساطة وهو يقظان. والثالثة ان يرسل الله اليه رسولا يخبره بما يريد اعلامه اياه وهو المسمى بالملك فيحدثه. والرابعة ان يسمعه الله كلامه مباشرة.

فكان أول مابديء الرسول (ص) به من الوحي الرؤيا الصادقة فكان لايرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب اليه الخلاء والانفراد بنفسه، فكان يخلو بغار حراء يتعبد ليال عديدة وكان يسمع من يدعوه دون أن يرى شيئا، الى أن جاءه جبريل عليه السلام وذلك في يوم الاثنين لسبع عشرخلت من رمضان، ويروي هشام

(*) يختلف العلماء في اصل هذه الكلمة، فلعلها معربة عن العبرية أو الارامية او الفارسية أو حتى من العربية «دان» بمعنى انقاد، وكان الفقهاء قد فسروها على انها تعنى المبادئ والاعتقادات الالوهية الخاصة بالاسلام.

أنظر .Encyclopedie de l'Islam, I, p. 1002

(**) عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ج 1 ص 94 ـ 95.

ابن الكلبى: أتى جبرائيل النبي، (ص)، أول ماأتاه ليلة السبت وليلة الاحد، ثم ظهر له برسالة الله يوم الاثنين فعلمه الوضوء والصلاة وعلمه «اقرأ باسم ربك الذي خلق» وكان لرسول الله (ص)، أربعون سنة. (10) .

ويبدو أن الوحي فتر عن الرسول (ص) ،فترة، فحزن حزنا شديدا وجعل يغدو الى رؤوس الجبال، فتبدى له جبرائيل فيقول : انك رسول الله حقا. فيسكن لذلك جأشه وترجع نفسه.

ويدعى بعض المستشرقون أن الرسول (ص) سبق له أن إتصل بجماعة من النصارى واليهود في بعض رحلاته التجارية كما اتصل ببعض النصارى بمكة كانت معرفتهم بالتوراة والانجيل هزيلة إلى حد بعيد وعن طريقهم أخذ عددا من المعلومات الدينية والتاريخية ، كانت خاطئة أو ناقصة ولذلك قالت العرب للرسول (ص) أن ما في القرآن يشبه بعض ما يقوله علماء اليهود ، فنزلت سورة الشعراء الكريمة 26 : 192 ـ 197 لتفند مزاعم عرب الجاهلية قديمًا وترد على متعصبي المستشرقين الآن «وأنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين . وانه لفي زبر (كتب) الأولين . أو لم يكن لهم آية ان يعلمه علماء بني اسرائيل ؟» (11) .

وقد كان قصد هذا الوحي ان يكلف النبي بدعوة العرب الى دين أجدادهم الذي تركوه، وهو ملة ابراهيم، أوما يعرف «بالحنفية» أو «الحنفية السمحة» (11 مكرر) «ثم أوحينا اليك ان اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين» (*) .

ونحن لا نعرف عن عقائد هذا الدين العربي القديم شيئا كثيرا الا ما ورد بخصوصه في القرآن على أنه عبادة الله «رب ابراهيم» وحده لا شريك له، وأنه ليس يهودية أو نصرانية (**) . ومن ناحية أخرى نجد أن هذا الدين العربي القديم قد أخذ

---

10) ابن هشام : السيرة النبوية ج 1 ص 241.236
ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 2 ص 50.48
11) القرآن الكريم : سورة الشعراء 26 : 192 ـ 197
(11 مكرر) ابن هشام : السيرة ج 1 ص 152.
(*) سورة النحل 16 : آية 123.
(**) فقد ورد في سورة البقرة رقم 2 : اية 135 «وقالوا كونوا هودا او نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين».

في عهد النبي اسما آخر اصبح يعرف به هو : «الاسلام». ففي سورة آل عمران «ان الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب» (*).

و«الاسلام» كلمة عربية من «سَلَمَ»، وتعني الاستسلام لأمر الله، وتقبل محمد كرسول الله. ولم يكن اسم الاسلام يوجد في كلام العرب قبل مبعث النبي، ولا قبل ظهوره بالنبوة. وقد كان كل ما يخص الاسلام من عقائد وأوامر مما يأتي عن طريق الوحي يسمى : «قرآنا» (**) وهو بلغة العرب في الحجاز، وبأسلوب الكتب المقدسة التي نزلت على الانبياء من قبل. ولذلك من الخطأ تسمية هذا الدين بدين محمد (ص)، وذلك لان غرض محمد (ص) لم يكن عبادته كما فعل المسيحيون بالمسيح، وانما غرضه الدعوة لدين «الحنفية» القديم. الذي اخذ في عهده اسم «الاسلام» (***).

ويروي ابن اسحق في كتابه السير والمغازي انه: «كان نفر من قريش : زيد بن عمرو بن نفيل ، ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، وعثمان بن الحارث بن أسد بن عبد العزى، وعبد الله بن جحش بن رئاب... حضروا قريشا عند وثن لهم كانوا يذبحون عنده لعيد من اعيادهم، فلما اجتمعوا خلا بعض اولئك النفر الى بعض، وقالوا :تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض، فقال قائلهم : تعلمون والله ما قومكم على شيء لقد أخطأوا دين ابراهيم عليه السلام وخالفوه، ما وثن يعبد لا يضر ولا ينفع، فابتغوا لانفسكم، فخرجوا يطلبون ويسيرون في الأرض، يلتمسون أهل الكتاب من اليهود والنصارى والملل كلها، الحنيفية دين ابراهيم عليه السلام».

فأما ورقة بن نوفل فقد تنصر وتفقه في النصرانية حتى أصبح من أعلام أهل الكتاب، وأما زيد بن عمرو بن نفيل، فقد اعتزل الاوثان وفارق اديان اليهود

(*) سورة ال عمران 3 : اية 19.

(**) ويذكر السيوطي اسماء مختلفة له منها، نور وفرقان وكتاب وتنزيل أنظر الاتقان في علوم القران ج1 ص 86 ـ 87.

والنصارى والملك كلها الى دين ابراهيم، يوحد الله وحده، ويسفه آلهة قومه حتى قال :

أربا واحدا أم الــــف رب أدين اذا انقسمت الأمور

عزلت اللات والعزي جميعا كذلك يفعل الجلد الصبور

ونتيجة لذلك آذاه شباب قريش وسفهائهم حتى اضطروه الى الخروج من مكة الى حراء، حيث اعتزل قريشا وتحنف (*).

وكان كعب بن لؤى بن غالب، احد اجداد الرسول، متحنفا، يأمر قريشا بالتفكير في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، ويحثهم على صلة الارحام وحفظ العهد، ويذكرهم بالموت واهواله.ولقد كان للحنفية اثر واضح في اعداد العرب قبل الاسلام للنقلة، وفي اضعاف المثل الدينية الجاهلية والميل الى ترك الوثنيةونبذها (**).

اذ يروي ابن اسحاق ان زيد بن عمرو بن نفيل كان يجلس بالكعبة ويخطب قريشا قائلا «يامعشر قريش والذي نفس زيد بيده ما اصبح منكم أحد على دين ابراهيم غيري، ثم يقول : اللهم لو أنني اعلم أحب الوجوه اليك عبدتك به، ولكني لا اعلمه، ثم يسجد على راحته».

كما يروي نفيل بن هشام عن ابيه ان «زيد بن نفيل مر على رسول الله (ص) وعلى زيد بن حارثة، فدعواه الى سفرة لهما ،فقال زيد (بن نفيل) : يا ابن اخي اني لا آكل ما ذبح على النصب (يقصد ذبائح الاوثان)، قال : فما رؤي رسول الله (ص) بعد ذلك اليوم يأكل شيئا ذبح على النصب» (***).

أ ــ الدعوة سرا : فلما أمر الله نبيه (ص)، أن ينذر قومه عذاب الله على ماهم عليه من عبادة الاصنام دون الله الذي خلقهم ورزقهم، فكان يذكر ذلك سرا لمن يطمئن اليه من أهله.

(*) ابن اسحاق : السير والمغازي ج 115 ــ 117.

(**) الآلوسي : : بلوغ الارب في معرفة احوال العرب ج 2 ص 282.

. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب قبل الاسلام ص 438.

(***)ابن اسحاق : السير والمغازي ص 116 ، 118.

وأسباب سرية الدعوة، ترجع الى طبيعة مكة فهي مركز دين العرب وبها سدنة الكعبة والقوام على الاوثان والاصنام المقدسة عند سائر العرب فالوصول الى المقصود من الاصلاح فيها يزداد عسرا وشدة عما لو كان بعيدا عنها فالامر يحتاج الى عزيمة لاتزلزلها المصائب والكوارث.

لذلك كان من الحكمة أن تكون الدعوة في بدء أمرها سرية لئلا يفاجىء أهل مكة بما يهيجهم ويطلق محمد الخضري على هذه المرحلة «دعوة الافراد» فكان يدعو كل من توسم فيه خيرا ممن يعرفهم ويعرفونه.

كان أول من آمن به وصدقه، خديجة بنت خويلد، زوجته، ثم علي بن أبي طالب وكان عمره تسع سنين وقيل احدى عشرة سنة، وكان مقيما عند الرسول (ص) وملازما له اذ أصابت قريش أزمة شديدة، فأعاله الرسول (ص) تخفيفا عن عمه ابي طالب وكان ذا عيال كثيرة. ثم زيد بن حارثة بن شرجيل الكلبي، وكان قد أسر، فملكته خديجة ووهبته لزوجها فتبناه حسب قواعد العرب وكان لذلك يقال له زيد بن محمد ثم أسلم أبو بكر بن أبي قحافة عثمان التيمي، وكان مانعا لقومه محببا فيهم، وكان اعلمهم بانساب قريش وماكان فيها وكان تاجرا يجتمع اليه قومه، فجعل يدعو من يثق به من قومه، فأسلم على يديه عثمان بن عفان الأموى، والزبير بن العوام الاسدي، وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص الزهريان، وطلحة ابن عبيد الله التيمي فجاء بهم الى النبي (ص) فأسلموا (12).

ثم أسلم بعدهم طبقة ثانية منهم: أبو عبيدة عامر بن الجراح من بنى الحارث بن فهر، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الاسد، والارقم بن أبي الارقم المخزوميان، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، وسعيد بن زيد العدوى وامرأته: فاطمة بنت الخطاب العدوى، وغيرهم، وأولئك هم السابقون الاولون وهم من جميع بطون قريش (13) والحق أن ترتيب هؤلاء المؤمنين الصادقين الاولين، من

---

12) ابن الاثير: الكامل في التاريخ ج 2 ص 57 ـ 59

13) ابن هشام: السيرة النبوية ج1 ص 250 ـ 262

الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج 1 ص 1168

حيث السبق الى الدخول في الدين الجديد، أمر مختلف فيه، وكثيرا ماخضع للتقديم والتأخير تبعا لاعتبارات سياسية، في مابعد (14).

استمرت هذه المرحلة . لمدة ثلاث سنوات، أجابه في خلالها جماعة لهم شأنهم كما أجابه الكثير من الارقاء والفقراء الذين عانوا من سوء معاملة أغنيـاء مكة .

ب ـ الدعوة جهرا : ثم أمره الله أن يصدع بما يؤمر «فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين» (15). «وأنذر عشيرتك الاقربين»(16) فأعلن لقومه الدعوة الى الله وتوحيده، فلم يردوا عليه، حتى ذكر آلهتهم وعابها ووصف عابدها الى الضلال، وجر ذلك الى تضليل آبائهم، فنفروا منه وبادروه بالعداوة

وعداوة قريش للرسول (ص) مرت بثلاث مراحل: الاولى سلمية تهدف الى تخلى الرسول (ص) عن دعوته أو تخلى حماته عن اجارته. والثانية: عملية ترمى الى النيل من الرسول (ص) وأتباعه بالاذى والمقاطعة. والثالثة: تآمرية وتهدف الى التخلص نهائيا من الرسول (ص) ودعوته.

المرحلة الاولى من عداوة قريش:

وفي هذه المرحلة حدب أبو طالب سيد بيت عبد مناف، أشرف بيوت قريش على الاطلاق، على رسول الله (ص) وأجاره وقام دونه ومضى الرسول (ص) في الدعوة والجهر بما ينزل عليه من الوحي.

ولما رأت قريش أنه صار في منعه بجوار أبي طالب، طلب بعض اشراف قريش منه، أن يكف ابن أخيه عن سب آلهتهم وعيب دينهم وتسفيه أحلامهم وتضليل آبائهم، أو يخلي بينهم وبينه.

فشلت الوفادة الاولى لابي طالب وتذمر اشراف قريش، ووفدوا مره ثانية اليه، وأعلنوا أنهم لايصبرون على هذه الحال! وخيروه بين أن يكفه عما يقول أو ينازلونه

---

14) راجع Th. Nöldeke : Zur tendenziösen Gestaltung der Urgeschichte des Islams P.P. 16 - 38.

15) القرآن الكريم : سورة الحجر 15، آية 94

16) القرآن الكريم : سورة الشعراء 26، آية 214

واياه، عظم على أبى طالب فراق قومه وعداوتهم، وأفضى الى الرسول بشكواهم الذي ظن أن عمه خاذله ومسلمه فقال الرسول (ص):

«والله ياعم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الامر ـ حتى يظهره الله أو أهلك دونه ـ ماتركته» ثم استعبر وبكى، فلما ولى ناداه أبو طالب فقال: أقبل ياابن أخي، فلما أقبل عليه، قال له اذهب فقل ماأحببت فوالله لاأسلمك لشيء أبدا.

وفشلت الوفادة الثانية، وحاولت قريش للمرة الاخيرة، الاتفاق مع أبي طالب فمشوا اليه بعمارة بن الوليد، فتى قريش وأشعرهم وأجملهم وقالوا: خذه فلك عقله ونصرته واتخذه ولدا، واسلم لنا ابن اخيك هذا الذي سفه آلهتنا، نقتله، فانما رجل برجل. فقال أبو طالب: والله لبئس ماتسومونني، أتعطونني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه؟ هذا والله لايكون أبدا! (17)

المرحلة الثانية والمقاطعة :

بفشل الوفادة الثالثة ابتدأت المرحلة الثانية من عداوة قريش وتمثلت في الترويج أن الرسول (ص) ساحر جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجه وبين المرء وعشيرته وذلك بين وفود العرب التي أتت مكة في موسم الحج. كما أغروا به سفهاءهم فكذبوه وآذوه ورموه بالشعر والكهانة والجنون.

اما من جهة من أتبعه، فوثبت كل قبيلة على من فيها من مستضعفى المسلمين فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش ورمضاء مكة والنار ليفتنوهم عن دينهم، فمنهم من يفتن من شدة البلاء وقلبه مطمئن بالايمان، ومنهم من يتصلب في دينه ويعصمه الله منهم .

ولما رأى الرسول (ص) مايصيب أصحابه من البلاء، وأنه لايقدر على حمايتهم قال: لو خرجتم الى أرض الحبشة، فان فيها ملكا لايظلم أحد عنده. هاجر المسلمون

---

17) ابن هشام : السيرة النبوية ج 1 ص 265 ـ 266

الطبري : تاريخ الرسل والملوک ج 1 ص 1178

ابن كثير : السيرة النبوية ج 1 ص 463.

الى الحبشة، وكانت أول هجرة في الاسلام، وكان المهاجرون أولا عشرة رجال وأربع نسوة، ثم تبعهم بعد ذلك جماعة آخرون في 615 م فبلغت عدتهم ثلاثة وثمانون رجلا، ومعهم من نسائهم سبعة عشرة امرأة سوى من خرج معهم من أولادهم الصغار، وكانوا من جميع بطون قريش.

بعثت قريش لتردهم اليها. وبعد أن سألهم النجاشى ملك الحبشة عن امرهم قال : «ان هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة، فوالله لأسلمهم الى ايدي الاضطهاد»

وفي هذه الاثناء، كان أزر المسلمين، الذين تخلفوا في مكة، يشتد ويقوى، باسلام رجلين من كبار قريش مشهورين بالفتوة والنجدة، وهما: حمزة بن عبد المطلب عم الرسول وكان أعز قريش وأشدهم شكيمة، وعمر بن الخطاب الذى ينتسب من جهة أمه الى «مخزوم» البيت القوى الغنى بمكة، والذي احلته سجاياه وفضائله مكانا عليا في البلدة (18).

لما رأت قريش الاسلام يفشو ويزيد، وأن المسلمين قووا باسلام حمزة وعمر، وفشل مؤامرتهم عند النجاشي بالحبشة، لجأوا الى سلاح جديد وهو المقاطعة لبني هاشم وبنى المطلب «لاينكحوهم ولاينكحوا اليهم ولايبيعوهم ولايبتاعوا منهم شيئا» وكتبوا بذلك صحيفة وقعوا عليها وعلقوها في جوف الكعبة .

استمرت المقاطعة لمدة سنتين، ورغم ذلك استمر الرسول (ص) في دعوته ليلا ونهارا سرا وعلانية. ومالبثت قريش أن اضطرت لرفع الحصار، بعد أن فشلوا في تطبيقه بصورة مجدية.

وبعد ابطال المقاطعة وقبل هجرة الرسول (ص) بثلاث سنين الى يثرب أصيب الرسول (ص) بمصيبة عظيمة وهي وفاة عمه أبي طالب وزوجه خديجة بنت خويلد في يومين متقاربين في شهر شوال، فعظمت المصيبة عليه بهلاكهما وقال الرسول (ص): مانالت قريش منى شيئا أكرهه حتى مات ابو طالب وذلك أن قريشا

---

18) البلاذري : أنساب الاشراف ج 1 ص 122
ابن سعد : الطبقات الكبرى ج 1 ص 204 ـ 206
ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 2 ص 77 ـ 86

طورت اذاها للرسول (ص) فنثر بعضهم التراب على رأسه، وطرح بعضهم رحم الشاه عليه وهو يصلي. (19).

المرحلة الثالثة وبيعة يثرب :

هذا الوضع اليائس،دفع الرسول (ص) لالتماس المعونة من خارج مكة، وبعد أن قام الرسول (ص) بمحاولة اكتساب الاتباع في الاسواق الكبرى المجاورة، توجه الى الطائف ومعه زيد بن حارثة، حيث استقرت قبيلة ثقيف، يلتمس منهم النصر والمؤازرة. وكانت مدينة الطائف تقع الى جنوبى مكة، وتربطها بها روابط تجارية وثيقة.

لم يكتف زعماء ثقيف برفض دعوة الرسول (ص)، بل وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم، يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس يطاردوه ويحصبوه بالحصا واضطروه الى الاحتماء بأحد بساتين بنى ربيعة بالمدينة (20) فرجع عنه سفهاء ثقيف.

ووجه الرسول (ص) رجلا من خزاعة إلى سهيل بن عمرو ، يسأله الاجارة فأبى . فأرسل إلى المطعم بن عدي ، أحد أشراف مكة ليجيره حتى يبلغ رسالته فأجاره . وعاد إلى مكة ومنذ 620م حاول الرسول (ص) أن ينشر دعوته ، إبان موسم الحج ، بين عامة القبائل العربية المتدفقة على مكة ، من أطراف الجزيرة كلها . فكان يلقى منهم تجهما وغلظا مثل بنى عامر بن صعصعة ، وبني محارب ، إذ كان أبولهب يتبع الرسول (ص) يثبط الناس عنه (21) .

---

19) ابن هشام : السيرة النبوية ج 1 ص 289 ، 350 ، 375 ، 377 ، ابن واضح : تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 31 ــ 35

20) وجلس الى ظل نخلة وقال : «اللهم اليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، اللهم ياأرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي، الى من تكلني؟ الى بعيد يتجهمني أو الى عدو ملكته أمري، ان لم يكن بك علي غضب فلا أبالي! ولكن عافيتك هي أوسع، اني أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والاخرة من أن تنزل بي غضبك أو تحل بي سخطك».

أنظر ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 2 ص 91، 92

21) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج 1 ص 211 ــ 216 . البلاذري : انساب الاشراف ج 1 ص 237 . ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 2 ص 92 ــ 93

بيعة العقبة الاولى (النساء) (621 م) :

ومن هذه الوفود، وفد مدينة يثرب، وتقع المدينة في سهل وافر المياه في شمالي الحجاز، قرب سلسلة الجبال التي تفصل نجدا عن تهامة. وكانت يثرب، كسائر المدن المتحضرة في واحات بلاد الغرب الشمالية الغربية ، تتألف من اراضي محروثة وبيوت مستقرة متناثرة بين أشجار النخيل، والحدائق والحقول المزروعة .

وكانت السيادة في هذه الواحة لقبيلتي الاوس والخزرج اللتين شرفهما الرسول (ص) بعد ذلك بلقب «الانصار» الجامع. وكان الاوس والخزرج يعتبرون أنفسهم من عرب الجنوب (قحطان). والمفروض ان المدينة كانت قبل هجرتهم اليها، في أيدي اليهود. ولكن سلطان اليهود الاقتصادي تضاءل في مايبدو نتيجة حملة الحاكم الحبشي أبرهة، على بلاد اليمن، ومن ذلك الحين كان على اليهود أن يعيشوا موزعين بين أفراد الاوس والخزرج الذين بدأوا حياتهم أول الأمر، دخلاء على يثرب .

والواقع أن بنى قينقاع هم القبيلة اليهودية الوحيدة التي احتفظت بمساكنها المجتمعة المنعزلة، ولكنها خسرت كذلك أرضها. ولم يحتفظ بالارض، من اليهود، غير بني النضير وبني قريظة الذين عاشوا مع الاوس، وانتهوا قبيل بعثة النبي (ص) بقليل الى أن ينشئوا علاقات سياسية معهم، على قدم المساواة.

وبالرغم من تحضر عرب يثرب، ألا انهملميتجردوا كليا من عادات الحياة البدوية. فكانوا غير خاضعين لسلطة مركزية ما، وكذا غير قادرين على تجنب الخلافات الدائمة في مابينهم وبصفة خاصةبين قبيلتي الاوس والخزرج فقسمت المدينة الى معسكرين متنابذين.

وتمكن الاوس وحلفاؤهم، بنو النضير وقريظة اليهوديتين من التغلب على الخزرج في معركة كبيرة حاسمة جرت في بُعاث. ولم يعقب هذه المعركة صلح شريف بين الفريقين بل استمر النزاع بينهما عنيفا. والذي لاريب فيه ان كلتا القبيلتين قد وجدتا آخر الامر أن مثل هذه الحال لايمكن أن تطاق طويلا .

يضاف الى ذلك، أن وجود جالية كبيرة من اليهود، بينها وبين أهل المدينة ضغائن مستمرة، وتهديد زعماء اليهود لجيرانهم العرب بقرب ظهور المسيح الذي

سينتقم لهم من .مضطهديهم، جعل المدنيون يألفون فكرة الرسول الالهي، ومعدون لاستقبال الافكار الدينية. (22)

قابل الرسول وفد يثرب وكان ستة من الخزرج بموسم الحج ودعاهم الى الاسلام فأجابوه وعادوا الى ديارهم يثرب، يبثون الدعوة للدين الجديد..

وفي الموسم التالي (621م) وفد على الرسول (ص)، اثنى عشر رجلا من أهل المدينة ولقوه بالعقبة وبايعوه على الاسلام وتعرف ببيعة النساء، لانها تمت على المبادئ التي وردت بسورة الممتحنة الخاصة ببيعة النساء وهي «يأأيها النبي اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم» وعاد وفد يثرب إلى المدينة، يرافقهم مصعب بن عمير من بني عبد الدار - وهو أحد المسلمين الذين سبق لهم أن هاجروا إلى الحبشة - ليقرئهم القرآن ويعلمهم الاسلام ويفقههم في الدين ويؤمهم في الصلاة. وسرعان ما أقبل على الاسلام، أشراف أهل يثرب وتبعهم العامة من الناس (23).

بيعة العقبة الثانية (622 م):

ولما كان الموسم التالي (622 م) أقبل عدد كبير من المؤمنين الجدد (75 فردا) من المدينة الى مكة، بعضهم من الاوس، وبعضهم من الخزرج فاجتمع بهم النبي (ص) في العقبة أيضا - وتعرف ببيعة العقبة الثانية تميزا لها عن الاولى - ورغبوه في الانتقال الى يثرب فقال الرسول (ص): و«تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم» فوافقوا وبايعوه على أن يمنعوه ولايخذلوه.

ولما بلغ قريش اسلام من أسلم من الانصار وأنه صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم وغير بلدهم اشتدوا على من بمكة من المسلمين وحرصوا على أن يفتنوهم، فأصابهم جهد شديد. ويطلق ابن الاثير على هذه الفترة «الفتنة الاخرة». فأمر

22) ابن واضح: تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 37، 38
كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الاسلامية ص 42، 43
23) ابن هشام: السيرة النبوية ج 1 ص 424 - 435
البلاذري: انساب الاشراف ص239.

الرسول (ص) أتباعه بالهجرة الى يثرب فخرجوا مجموعات رجالا ونساء الامن حيل بينهم وبين الهجرة من المستضعفين، ادركت قريش أن خروج الرسول (ص) من مكة سالما، يعني البداية لظهور القوة الاسلامية التي لن تلبث أن تبتلع مكة وأشرافها الوثنيين.

فاجتمع أشراف قريش بدار الندوة وقرروا التخلص من الرسول (ص) وحتى لايقدر بنو عبد مناف على المطالبة بدمه، توصلوا الى تشكيل مجموعة من شباب المدينة من جميع قبائلها، تقوم بقتله «يضربونه ضربة رجل واحد فيقتلونه ويتفرق دمه في القبائل كلها». وبفشل هذه المؤامرة تنتهي عداوة قريش للرسول بمدينة مكة وتبدأ عداوة مسلحة كمرحلة جديدة من تاريخ نشر الدعوة الاسلامية (24)

4 ـ الهجرة الى يثرب (1 هـ ـ 622 م) :

والهجرة تمثل حدثا هاما في تاريخ المسلمين. فهي فاصل بين عهد غير مستقر وبين عهد تميز بالحياة الجديدة فهي آخر الحقبة المكية وأول الحقبة المدنية ولقد اتخذ المسلمون منها في عهد الخليفة عمر بن الخطاب بداية للتاريخ الاسلامي، (25)

وفي نفس الليلة التي قررت فيها قريش الفتك بالرسول (ص). توجه الرسول (ص) الى صديقه أبى بكر وأبلغه ان الله قد أذن له بالهجرة، فسأله أبو بكر الصّحبة فأجابه اليها وهيآما يلزم للسفر.

أمر الرسول (ص) ابن عمه على بن أبي طالب أن ينام مكانه في هذه الليلة حتى تطمئن قريش، لتواجده، كما أمره أن يؤدي عنه ودائعه الى أصحابها. وخرج مع صاحبه من مكة قاصدين مدينة يثرب، ووصلا الى قباء وهي ضاحية تقع على نحو ثلاثة أرباع الميل جنوب المدينة في 20 سبتمبر 622 م. وبعد الراحة لمدة اربعة أيام أسس الرسول (ص) فيها مسجد قباء، سار الى المدينة في 24 سبتمبر622م

---

24) ابن الاثير: الكامل في التاريخ ج 2 ص 98 ـ 101

25) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الاسلامية ص 45

فليب حتى: تاريخ العرب ج 1 ص 160

ونـزل بـدار أبـي أيوب الخزرجي حتى بنى مسجده وداره فانتقل اليها. (26)

ثانيا : تأسيس الدولة العربية

وبعد وصول الرسول (ص) الى يثرب، أصبح رئيسا للمدينة وأحزابها من المسلمين أو اليهود، فعمل على تدعيم اركان الاسلام بالمدينة، فقام بتأسيس المسجد الجامع بها وآخى بين المهاجرين والانصار ــ وهو لقب أهل يثرب من الاوس والخزرج ــ وعقد المعاهدة المسهبة بين المدنيين وهي تعتبر بحق دستور دولته في المدينة. ونستطيع أن نلخص اعماله في النقاط التالية:

1 ــ بنـاء المسجـد :

وكان أول ماعنى به محمد (ص) بعد أن دخل يثرب (المدينة) كما سميت منذ ذلك الحين ــ أي مدينة النبي ــ ان يبني مسجدا ليكون مقاما للصلاة ومجمعا لاصحابه الذين كانوا حتى ذلك الحين يجتمعون لهذا الغرض في بيت واحـد منهم فاشترى ارض المبرد .وكان، عبارة عن جدران بدون سقف وقبلته الى بيت المقدس، اتخذه مسلمو يثرب للصلاة قبل مجيء الرسول (ص) فسويت الارض وحفر أساس المسجد على ثلاثة أذرع وبني بالحجارة ثم رفعت جدرانه باللبن المضروب وكان على شكل مربع تقريبا: عرضه 63 ذراع وطوله 70 ذراع تقريبا. وله ثلاثة أبواب: باب في مؤخرة، وباب يقال له باب الرحمة، أو باب عاتكة، والباب الثالث كان يدخل منه رسول الله من داره .

اما القبلة ففي بداية الدعوة كانت اختيارية للمسلمين (27) ثم امر الرسول (ص) بالاتجاه الى بيت المقدس منذ هجرته الى يثرب ولمدة 16 أو 17 شهرا ثم حولت القبلة الى الكعبة. (28)

26) محمد الخضري : محاضرات تاريخ الامم الاسلامية (الدولة الاموية) جـ 1 ص 99.85

27) لانه «لله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ان الله واسع عليم» انظر القرآن الكريم: سورة البقرة (2) آية 115. ونزلت هذه الاية حينما منعت قريش الرسول (ص) من دخول مكة معتمرا، فامر الله المسلمين أن يصلوا حيث كانوا

28) حينما نزلت الاية «قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولنيك قبلة ترضاها، فول وجهك شطر المسجد الحرام» أنظر القرآن الكريم : سورة البقرة (2) آية 144 وكان سبب نزول الاية هو تحويل القبلة من بيت المقدس الى مكة وتساءل بعض المسلمين عن موقف اخوانهم في الاسلام والذين ماتوا قبل تحويل القبلة فنزلت، تطمئنهم على مصير اخوانهم

راجع ابن واضح : تاريخ اليعقوبي جـ 2 ص 42.

أما بالنسبة للمنبر، فلم يكن للمسجد منبر في بداية الامر وكان الرسول (ص) يخطب وهو مستند الى جذع عند مصلاه في الحائط القبلي ثم أمر الرسول (ص) بصنع منبر من درجتين ومقعد وقيل من ثلاث درجات ووضعه في موضع القبلة.

اما بالنسبة للمئذنة فلم يكن للمسجد يومئذ مئذنه، لان المئذنه ليست عنصرا رئيسيا في تخطيط المسجد وبنائه وانما هي من العناصر المعمارية المستحدثة في الاسلام . وكان بلال يؤذن على منارة في دار حفصة ابنة عمر أو على اسطوان كان بدار عبد الله بن عمر، مجاوران للمسجد. (29) ويروي الواقدي أن بلالا كان اذا اذن وقف على باب رسول الله (30) .

ومن الجدير بالذكر أن المناداة على الصلاة بالاذان، يختلف مع كل من الديانتين اليهودية والمسيحية. فقد كان النفخ في الابواق يعد وسيلة الدعوة الى الصلاة في معابد اليهود الشرقية، وكان النصاري يصطنعون النواقيس الخشبية بدلا من أجراس الكنيسة الحالية أما محمد (ص) فقد وقع اختياره على الصوت البشري لدعوة أتباعه إلى الصلاة . إذ يروي البلاذري أن الرسول (ص) إجتمع وأصحابه لاختيار وسيلة المناداة للصلاة ، فقال بعضهم : الناقوس وقال بعضهم : البوق . فروي أن عمر بن الخطاب رأى في نومه أن لا يجعلوا شيئاً من ذلك ، وأن يؤذنوا بالصلاة . فأتى رسول الله (ص) فوجد بلالا يؤذن . فقال له رسول الله (ص) جين قص رؤياه : سبقك الوحي ياعمر . وفي خلال المرحلة المدنية من استقرار الرسول (ص) بمدينة يثرب ، ازداد عدد مساجد المدينة حتى أصبحت تسعة مساجد (31) .

---

29) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 2 ص 110، 115
احمد فكري : مساجد القاهرة ومدارسها، المدخل، ص 170 ـ 171 ـ 276
السيد عبد العزيز سالم : المآذن المصرية ص 104
السيد عبد العزيز سالم : دراسات في تاريخ العرب (تاريخ الدولة العربية) ج 2 ص 75 ـ 78
30) ابن واضح : تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 42

31) انظر البلاذري : أنساب الاشراف 1 : 273 ـ 274 . كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص 47 .

2 ـ المؤاخاة بين المهاجرين والانصار :

نصب الاوس والخزرج، رسول الله، رئيسا لهم، وكانت العداوة بينهما قديمة. فبدأ الرسول (ص) باصلاح مابينهم وازالة مارسب في نفوسهم من الاحقاد والعداوات. فوحد بينهما تحت اسم الانصار فهم مؤيدو الدعوة الاسلامية وناصريها. واتجه بعد ذلك الى توحيد جماعة المهاجرين، فآخى بين المهاجرين بعضهم لبعض، ثم ربط بينهم وبين الانصار برابطة المؤاخاة، ويرى بعض الباحثين أن المؤاخاة إنما هي تسمية إسلامية لما كان يعرف في الجاهلية بإسم الحلف (32) إذ كان للاحلاف شأن خطير في حياة الجاهلين (33).

وإذا علمنا أن المراد بالحلف هو قبول فرد ما محالفة قبيلة، غير قبيلته والدخول في عهدها. وكان ينظر إلى الحليف على أنه أقل منزلة من حليفه أو سائر أفراد القبيلة التي دخل في حلفها، حتى أن ديته بينهم كانت النصف .. ادركنا عدم وجاهة مثل هذا الرأي (33م).

كما يرى البعض الآخر أن هدف المؤآخاة، كان تحقيق منافع إقتصادية لمواجهة الضائقة المالية التي تعرض لها المهاجرون بعد هجرتهم إلى المدينة. اذ يذكر ابن كثير «إلا أن النبي (ص)، لم يجعل مصلحة علي إلى غيره، فإنه كان ممن ينفق عليه رسول الله (ص)، من صغره في حياة أبيه أبي طالب، .... وكذلك يكون حمزة قد التزم بمصالح مولاهم زيد بن حارثة فأخاه بهذا الاعتبار» (*) ولكن ما حصل عليه الرسول (ص) من زعماء مدينة يثرب لاصحابه المهاجرين بقوله: «واشترط لاصحابي المؤآساة في ذات ايديكم» (**) ينفى مثل هذا الاعتقاد.

وهكذا يتضح لنا أن الهدف الرئيسي للمؤآخاة، هو الرغبة في ربط القبائل العربية، عن طريق اقرارها في أخوة إسلامية، للتخفيف من حدة العصبية القبلية.

---

32) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية جـ 2 ص 81، أحمد ابراهيم الشريف: مكة والمدينة .. ص 386.

33) انظر جواد على: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام 4،370

33م) جاد المولى (وآخرون): أيام العرب العرب ص 62 ـ 64

(*) أنظر البداية والنهاية 3: 227، عبد الله أبو العطا البقرى: الانصار والاسلام ص 80

(**) ابن قدامة: الاستبصار في نسب الصحابة من الانصار ص 22

إذ لم تتم المؤاخاة بين بطون أو عشائر ، انما بين أفراد وهذا يشكل ضغطا ـ غير مباشر ـ على القبائل العربية ويشعرهم بطريقة عملية أن العصبية القبلية أو الافتخار بصلة الدم والقرابة ، لم تعد ذات شأن عظيم في هذا المجتمع الاسلامي القائم على المحبة والتعاون والتضحية بين أفرادة (*) .

آخى الرسول (ص) بينهم على الحق والمؤاساة والتوارث بعد الموت دون ذوي الارحام، بحيث يرث المهاجر أخاه الانصاري اذا مات والعكس بالعكس.

وهكذا وثقت، المؤاخاة بين المهاجرين والانصار ، وحدة المسلمين في المدينة، بعد أن كان المسلمون فيها قبائل مختلفة فيما بينها، وأصبح المسلمون بعد وحدتهم يشكلون قوة خطيرة يحسب مشركو مكة لها حسابا كبيرا (34).

3 ـ تنظيم الحياة الاجتماعية بالمدينة :

وقبل مرور عام على تواجد الرسول (ص) بالمدينة، أصدر الرسول (ص) قرارا يتضمن اتفاقا بين المهاجرين والانصار، وتنظيم العلاقات بين المسلمين عامة وغيرهم من سكان المدينة من اليهود ومن لم يتحول الى الاسلام بعد. ولكي نقدر قيمة تنظيمات الرسول (ص) تقديرا حقيقيا، ينبغي ان نذكر ماالتصف به المجتمع اليثربي في ذلك الحين، فلم يكن يوجد اطلاقا أي منهج منظم للادارة أو القضاء كالذي نعرفه عن فكرة الحكومة في العصر الحديث، كانت كل قبيلة أو عشيرة تؤلف جماعة منفصلة ومستقلة تمام الاستقلال وينسحب هذا الاستقلال أيضا على أفراد القبيلة، فكل فرد منهم لايعتبر زعامة شيخ قبيلته أو سلطته الا رمزا لفكرة عامة شاءت الظروف أن يأخذ منها بنصيب، بل كان له مطلق الحرية في أن يرفض ماأجتمع عليه رأي الاغلبية من أبناء قبيلته.

(*) الدولابي : كتاب الكنى والاسماء 1 : 13 ، أنظر ابن سعد : الطبقات 1 : 238 .

34) محمد جمال الدين سرور: قيام الدولة العربية الاسلامية ص 78

وأبعد من هذا أنه لم يكن هناك نظام لتنقل سلطة الرئيس، اذ كان يختار لها غالبا أكبر أفراد القبيلة سنا، وأكثرهم مالا، وأعظمهم نفوذا وأجدرهم بكسب الاحترام الشخصي.

واذا ماتضخمت قبيلة تشعبت فروعا كثيرة، يتمتع كل منها بحياة منفصلة ووجود مستقل، ولاتتحد الا في ظروف غير عادية، اشتراكا في الدفاع عن القبيلة أو قياما بغارات بالغة الخطورة (35).

ومن ثم نستطيع ان ندرك أهمية الصحيفة التي كتبها الرسول (ص) لاعادة تنظيم الحياة الاجتماعية في يثرب بما يتوافق مع الروح الاسلامية وأهم محتويات الصحيفة الاتي :

ا ـ اتفقت القبائل المختلفة على أن تؤلف جماعة واحدة في ظل الحماية الالهية، يتكافلون فيما بينهم، ينصرون المظلوم على الظالم، يرعون حقوق القرابة والصحبة والجوار.

وفي نفس الوقت القى على كاهل القبائل عبء دفع ديات القتلى وفديات الاسرى على نفس النظام الذي كان متبعا في العصر الجاهلي. كما ابقى على رابطة الولاء ومايترتب عليها من حقوق الموالاة، واباحت حق اجارة أي شخص غريب ماعدا قريش ومن نصرها .

ب ـ والغي نظام الثأر العام وكان على القاتل أن يدفع دمه ثمن جريمته، ولكن أحدا لم يعد يجوز له أن ينتصر له، وبذلك تحول مبدأ الاخذ بالثأر الى مبدأ القصاص والاخذ بالعقاب، ويعتبر تفويض حق التأديب الى الجماعة بدلا من الفرد تطورا بناء في المجتمع الاسلامي الجديد.

حـ ـ اما التحكيم والبت فيما يحدث بين أهل الصحيفة من احداث واشتجار يخشى من اتساعه وتطوره فان الحكم فيه لله عز وجل والى محمد رسوله (ص) .

د ـ اما عن موقف المسلمين من اليهود فقد أوضحت الصحيفة أن عليهم أن يسهموا في نفقات الحرب، دون الاشتراك بها عمليا، الا في الاحوال التي تكون فيها المدينة نفسها موضع الهجوم.

---

35) توماس ارنولد : الدعوة الى الاسلام ص 51، 52.

كما ضمنت لهم حريتهم الدينية والمالية «لليهود دينهم» (36).

4 ـ التخلص من يهود المدينة :

حاول الرسول (ص) أن يكسب يهود المدينة الى الاسلام، فأعطاهم حرية العبادة وحرية العمل، فكتاب المدينة (الصحيفة) ينص فيما يخص اليهود على الآتي:

(ا) أن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس، وانه من تبعنا من يهود فان له النصر والاسوة، غير مظلومين ولامتناصرين عليهم...

(ب) وان يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم...، وان ليهود بنـــي النجـــار مثل ماليهود بني عوف، وان ليهود بني الحارث مثل ماليهود بني عوف، وان ليهود بني الاوس مثل ماليهود بني عوف، وان ليهود بني ثعلبة مثل ماليهود بني عوف،... وان لبني الشطيبة مثل ماليهود بني عوف ..، وان بطانة يهود كأنفسهم،.. (جـ) وان على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم... وان بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الاثم (د) وان اليهود ينفقون مع المؤمنين مادامو محاربين،... وان يهود الاوس مواليهم وأنفسهم، على مثل مالاهل هذه الصحيفة (37).

وكل فقرة من الفقرات السابقة، تحقق هدفا خاصا، فالفقرة (أ) تلزم اليهود بموالاة المسلمين وعدم التآمر عليهم كما ترغب اليهود في الانتماء والانضمام الى الامة الاسلامية والتحول الى الاسلام والتساوى مع المسلمين في الحقوق والواجبات

أما الفقرة (ب) تضمن لليهود وذويهم وأهل بيتهم ان تمسكوا بدينهم، حرية العقيدة وممارسة الشعائر الخاصة بهم دون تعرض احد من المسلمين لهم.

---

36) أنظر نص الوثيقة (الصحيفة) في ابن هشام : السيرة النبوية جـ 1 ص 501 ـ 504
ابن كثير : السيرة النبوية جـ 2 ص 321 ومابعدها
المقريزي : امتاع الاسماع بما للرسول من الابناء والاموال والحفدة والمتاع جـ 1 ص 50
كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص 46
محمد الخضري : محاضرات تاريخ الامم الاسلامية (الدولة الاموية) جـ 1 ص 99 ـ 100

37) أنظر ابن هشام : السيرة النبوية جـ 1 ص 501 ـ 504

أما الفقرة (ج) فهي تنص على أنه مقابل تبعية اليهود للمسلمين أن يحصلوا على نفقة اشتراكهم مع المسلمين في الحرب، في الاحوال التي تكون فيها المدينة نفسها موضع الهجوم، كما عليهم أن يسهموا في نفقات الحرب في حالة عدم اشتراكهم عمليا فيها.

وبالاضافة الى منح اليهود الحرية التامة في اقامة شعائرهم الدينية ومساواتهم بالمسلمين في الحقوق السياسية، يذكر المستشرقون أن الرسول (ص) عمل على استرضائهم بوسائل أخرى كثيرة، فسير توماس ارنولد يذكر ان المسلمين قد تعودوا في العهد الاول أن يولوا وجوههم شطر بيت «المقدس (38) وربما كان المقصود من ذلك استمالة اليهود.. (و) دأب (الرسول) على الاستشهاد بكتبهمالمقدسة» (39)

أما كارل بروكلمان، فيدعي أن الرسول (ص) حاول أن يكسب اليهود «عن طريق تكييف شعائر الاسلام بحيث تتفق وشعائرهم في بعض النواحي، فشرع صوم العاشوراء وهو اليوم العاشر من المحرم، على غرار الصوم اليهودي في يوم الكفارة الذي يقع عندهم في العاشر من شهر تشرين، وبينما كان المؤمنون في مكة لايصلون الا مرتين في اليوم، ادخل في المدينة على غرار اليهودية أيضا، صلاة ثالثة عند الظهر.... كذلك جعل يوم الجمعة يوم صلاة عامة على غرار السبت اليهودي».

ويرد على تلك الادعاءات بان الرسول وان عالج قضية اليهود بطرق مختلفة، الا أنه لم يبدل شعائر الاسلام حتى يرضى عنها اليهود، وبالنسبة لصلاة الجمعة فهي مخالفة لها عند النصارى واليهود معا وبروكلمان نفسه يذكر ان الرسول «خالف، اليهود حين سمح للمؤمنين بأن ينصرفوا في ذلك النهار، الى شؤونهم الدنيوية، قبل أداء الصلاة وبعدها» وبالاضافة الى القيمة الدينية لصلاة الجمعة فهي ظاهرة

---

38) تعود أقدم أثارها الى الالف الثالث قبل الميلاد احتلها داود النبي نحو 1000 ق.م وجعلها عاصمة ملكه وبنى فيها النبي سليمان هيكله الشهير وأصبحت تدعى المدينة المقدسة.

أما بالنسبة لاهميتها للمسيحيين فقد شيد فيها قسطنطين كنيسة القبر على انقاض الكابيتول 335 م واتم يوستينيانس عمله في القرن السادس الميلادي.

والقدس مدينة يقدسها المسيحيون والمسلمون واليهود وفيها كنيسة القيامة والمسجد الاقصى وقبة الصخرة.

39) سيرتوماس. و. ارنولد : الدعوة الى الاسلام ص 47

كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص 46 ـ 47

اجتماعية ولذلك لاتجوز صلاة الجمعة الا في المصر (البلد) يجتمع في مسجده أربعون رجلا بالغا والا لم تجب الجمعة في ذلك البلد (40).

أما بالنسبة لصوم عاشوراء فيذكر ابن الاثير «لما قدم (الرسول ص) المدينة رأى اليهود تصوم عاشوراء فصامه وأمر بصيامه» «فلما فرض صوم شهر رمضان (في العام الثاني للهجرة) لم يأمرهم بصوم عاشوراء ولم ينههم» (41).

اما بالنسبة للصلاة والقبلة، فالفرائض التي فرضها الله على المسلمين فيما يخص عدد الصلوات اليومية وتحديد القبلة للمسلمين فقد مرت بمراحل لاجل ترغيب أهل الكتاب من اليهود والمسيحيين وكذا وثنيي العرب للدخول في الاسلام، كما حدث بالنسبة لتحريم الخمر والميسر وغيرها من الفواحش.

ونتيجة لسياسة الرسول (ص) تجاه اليهود، اعتنق نفر من أحبار اليهود الاسلام عن ايمان مثل عبد الله بن سلام وكان حبرا عالما من سادة اليهود وتبعه أهل بيته وعمته خالدة بنت الحارث. وكذا ثعلبة وأخوه أسيد بن سعيد وأسد بن عبيد ومخيريق من يهود بني ثعلبة وقيل من بني قينقاع وكان حبرا عالما حارب مع المسلمين في موقعة أحد (42).

أ ـ بنو قَيْنُقَاع :

وكذلك اعتنق فريق من يهود بنى قينقاع الاسلام نفاقا وتقية، منهم : رافع بن حرملة، ورفاعة بن زيد بن التابوت، واتفقوا مع منافقى الاوس والخزرج، الذين تظاهروا بالاسلام، على تكذيب النبي والسخرية من دينه.

وكان لتحويل القبلة من بيت المقدس الى الكعبة بمكة مغزى أبعد مما قد يبدو لاول وهلة، اذ كان في الواقع بداية للحياة القومية في الاسلام فجعل من الكعبة في مكة مركزا دينيا للمسلمين كافة، كما كانت تماما في الازمان الغابرة

---

40) أنظر كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية
تعليق الدكتور عمر فروخ، ص 47،46

41) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 2 ص 115

42) ابن هشام : السيرة النبوية ج 1 ص 516 ـ 518، 557
البلاذري : انساب الاشراف ج 1 ص 325
السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الدولة العربية ص 93

مقصدا لحج القبائل العربية جميعا. وسجل هذا التحويل بداية ظهور عداء اليهود فقد قالوا له : «يامحمد ماولاك عن قبلتك التي كنت عليها نتبعك ونصدقك» وكانوا بذلك يريدون فتنته عن دينه (43).

وازداد العداء بانتصار المسلمين في بدر (2 هـ) اذ خشي اليهود أن تزداد قوة المسلمين، وتهدد بقاءهم بالمدينة، وتناقشوا حول نقض الصحيفة، ومواجهة المسلمين قبل أن تزداد قوتهم .

وكان موقف الرسول (ص) من اليهود أقسى وأعنف من غيرهم نظرا لما بينهم من عهود، وكان على بني قينقاع وهم من الصاغة، أن يستشعروا، قبل غيرهم، قوته وحزمه.

فلما بلغ الرسول (ص) تآمرهم «فجمعهم بسوق قينقاع فقال لهم : احذروا ما نزل بقريش وأسلموا»، فقالوا: «يا محمد لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة».

وتوترت العلاقات بين المسلمين ويهود قينقاع، الى أن أساء أحد اليهود الى امرأة مسلمة فقتله أحد المسلمين، فقتل اليهود المسلم، انتقاما ونبذوا العهد، وتحصنوا في حصونهم، فحاصرهم الرسول (ص) خمس عشرة ليلة، وكان الرسول (ص) قد أصدر حكمه بالقضاء عليهم، ولكن سيد الخزرج عبد الله بن أبى سلول توسط لهم، اذ كانوا مواليه، فأمر الرسول (ص) باخراجهم من ديارهم والاستيلاء على جميع ممتلكاتهم فرحلوا الى اذرعات من بلاد الشام (44).

ب ـ بنو النضير :

بعد طرد يهود بنى قينقاع، لم يبق بالمدينة سوى يهود بني النضير،

---

43) ابن هشام : السيرة النبوية ج 1 ص 527، 550
توماس أرنولد : الدعوة الى الاسلام ص 47

44) يروي ابن الاثير أن الرسول (ص) اراد قتلهم وكانوا حلفاء الخزرج فتوسط لهم عبد الله بن ابي سلول، فلم يستجب له الرسول (ص). فأمسك ابن ابي سلول بالرسول وقال له لاأرسلك حتى تحسن الى موالى، اربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الاحمر والاسود (أي ساعدوه في الحروب) تحصدهم في غداة واحده. فقال النبي (ص): هم لك، خلوهم لعنهم الله ولعنه معهم. أنظر الكامل في التاريخ ج 2 ص 137 ـ 138

وبنى قريظة، وتربص كل منهما بالرسول (ص) والمسلمين لعلهم يصيبوا منهم غفلة ويتمكنوا من التخلص منهم، وفي نفس الوقت قام أحد شعرائهم بتحريض اشراف مكة على الرسول وصحبه والتنديد بالمسلمين والتشبيب بالمسلمات وكان يدعي كعب بن الاشرف من عرب طيء وكانت أمه من بني النضير فأمر الرسول بقتله. في (3 هـ) وقتله الاوس.

وواتت الفرصة بني النضير حينما زارهم الرسول (ص) في جماعة من أصحابه (4 هـ) فتآمروا على قتله بالقاء صخرة كبيرة على الرسول (ص)، ولكن اكتشفت المؤامرة، وقام المسلمون بمحاصرة حصون بني النضير وطال الحصار لمدة 20 يوما وقطع نخيلهم وحرقه واذ لم يجرؤ اخوانهم في الدين، من بني قريظة، على أن يسعفوهم فقد اضطروا الى الاستسلام والخروج باموالهم من المدينة «لهم ماحملت الابل من الاموال». ثم انهم هاجروا الى واحة خيبر، التي تقع على مسافة 20 ميل شمالي المدينة، والتي كانت تنزل فيها جالية كبيرة من اليهود، بينما مضى البعض الاخر منهم الى الشام. ووزع النبي (ص) أراضي بني النضير على المهاجرين (45).

قاد يهود خيبر ومن لجأ اليهم من بني النضير الثورة ضد الرسول (ص) واتباعه، فأرسل اليهود وفدا الى اشراف قريش بمكة لتحريضهم على مهاجمة المدينة، وقالوا: «نكون معكم حتى نستاصله، فأجابوهم الى ذلك» ثم انتقلوا الى قبيلة غطفان يحزبونها ضد الرسول (ص) وأعوانه.

ولاشك أن الاتصال والتنسيق تم بين كل من اليهود خارج المدينة، وبين بقية اليهود بداخل المدينة حتى يقع الرسول (ص) بين شقي الرحى.

جـ ـ بنو قريظة :

زحفت قريش وغطفان الى المدينة في (5 هـ) وهي الغزوة المعروفة «غزوة الخندق» أو «غزوة الاحزاب» في عشرة الاف مقاتل فأمر الرسول بحفر خندق، حول المدينة وسرعان ماكشف يهود بني قريظة عن نفاقهم فأعلنوا تنكرهم لعهودهم.

---

45) البلاذري : فتوح البلدان ج 1 ص 18 ـ 22
ابن واضح : تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 49
ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 2 ص 143، 173

لجأ المسلمون الى الحيلة بعد أن أدركوا، أنه لاقبل لهم بمحاربة العدوين معا خصوصا وان احدهم يحمى ظهرهم، فأرسلوا من أوقع الخلاف بين الاحزاب المتحالفة وكذا بين قريش ويهود بني قريظة، وتدخلت الطبيعة لتحسم مصير حملة الاحزاب فقد هبت الريح في ليلـه شاتية باردة شديدة البرد فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح أبنيتهم حتى صاح أبو سفيان قائد الاحزاب «والله لقد هلك الخف والحافر وأخلفتنا قريظة ولقينا من هذه الريح ماترون، فارتحلوا فاني مرتحل» وهكذا فشلت الغزوة.

فرغ المسلمون لبني قريظة فزحفوا اليهم وحاصروهم شهرا أو خمسا وعشريـن ليلة ; ، فلما اشتد عليهم الحصار، أعلنوا التسليم ونزلوا على حكم الرسول (ص) وشفعت الاوس في مواليها عند الرسول (ص) وطالبت بتطبيق نفس معاملة يهود بني قينقاع موالي الخزرج. ولكن سعد بن معاذ سيد الاوس الذي ارتضى الرسول (ص) ان يحكمه فيهم حكم «تقتل المقاتلة وتسبى الذرية والنساء وتقسم الاموال» (46) فضربت اعناقهم وكانوا ستمائة أو سبعمائة وقيل: مابين سبعمائة وثمانمائة وبالقضاء على يهود بني قريظة تطهرت الجبهة الداخلية من عدو شديد البأس وضعف أمر المنافقين من بنى الاوس والخزرج .

ولكن الخطر اليهودي على المدينة لم ينته تماما طالما أن هناك منهم من استوطن خيبر وفدك وتيماء ووادى القرى وينتظر الفرصة المواتية لينقض على مسلمى المدينة وينتقم من الرسول (ص). خصوصا وأن أبا رافع سلام بن أبى الحُقيق من يهود خيبر، كان يظاهر الشاعر كعب بن الاشرف على الرسول (ص) فلما قتل كعب، استمر ابن ابي الحقيق في ذم الرسول (ص) والمسلمين، فقتله بعض الخزرج.

لذلك رأى الرسول (ص) بعد أن عقد صلح الحديبية مع قريش ان يبدأ بغزو خيبر ونواحيها ويروي اليعقوبي ان يهود خيبر بلغت ستة حصون : السلالم والقموص والنطاة والقصارة والشق والمربطة، احتمى بهم، عشرون ألف مقاتل يهودي. ورغم ذلك فقد استعان اليهود بأربعة الاف بدوي من قبيلة غطفان لحمايتهم، حتى اذا

46) ابن واضح : تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 53،52
ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 2 ص 185 ـ 187
محمد الخضري : محاضرات تاريخ الامم الاسلامية (الدولة الاموية) ج 1 ص 122

جبـن أهل خيبر عن مواجهة النبي (ص) في ميدان المعركة، وأثروا أن يعتصموا في حصونهم، لم يكن من الغطفانيين الا أن ينسحبوا بدورهم.

وسار الرسول (ص) الى خيبر على رأس الف وأربعمائة راجل ومائتي فارس في المحرم (7 هـ) ثم حصرهم وضيق عليهم وافتتح حصونهم الواحد تلو الآخر، فلما ايقنوا بالهلاك صالحوه على حقن دمائهم على أن يقوموا على العمارة والنخل، فأقرهم النبي (ص) وعاملهم على الشطر من الثمر والحب، أي مقاسمة على النصف. وفعل مثل ذلك مع أهل فدك وأهل وادى القرى. اما يهود تيماء فقد باذروا الى مصالحة الرسول (ص) (47).

وهكذا كان لانتصار المسلمين في خيبر دلالة هامة، اذ أصبحت لدولة الرسول في المدينة املاك في خارجها تدر عليهم خيرا، كما أصبح يخضع لها لاول مرة قوم على غير الاسلام عرفوا بأهل الذمة شملهم السلطان السياسي للدولة العربية الاسلامية (48).

ثالثا : الصراع بين المدينة ومكة

هجر الرسول (ص)، موطنه الذي نشأ فيه، مهانا مرفوضا، وقدم يثرب زعيما مكرما، وفي نفس الوقت آذت قريش المسلمين واضطرتهم للخروج من ديارهم، بعد أن فعلت بهم الافاعيل، واستولى مشركو مكة على ماتركه المسلمون فيها بعد أن بارحوا أوطانهم مرغمين، فكان على المسلمين أن يصادروا تجارة قريش التي تصدرها الى الشام والتي تستوردها منه. خصوصا وأن المهاجرين شكلوا عبئا على اخوانهم الانصار الذين تطوعوا لاعالتهم.

يضاف الى هذا أن الهدف الاول في سياسة الرسول (ص) الخارجية، كان اخضاع أبناء قومه الوثنيين وتطهير الكعبة من تلك الانحرافات الوثنية الطارئة عليها. ولكل هذه الاسباب اذن الله تعالى للمؤمنين بالقتال، فأول مانزل في أمر القتال جاء في سورة الحج «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم

---

47) البلاذري : فتوح البلدان جـ 1 ص 28. 37. 40

ابن واضح : تاريخ اليعقوبي جـ 2 ص 56

ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ 2 ص 146 ـ 147 ص 216 ـ 221

48) على حسنى الخربوطلي : الدولة العربية الاسلامية ص 37.

لقدير، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله» (49) وتوضح الاية التصريح للمسلمين بالقتال ثم تذكر السبب وهو أنهم ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق الا قولهم ربنا الله يعنى أنهم لم يظلموا من أهل مكة الا بسبب اعتقادهم، ودوافع التصريح بالقتال هي :

الأول : الدفاع عن النفس عند التعدي، فجاء في سورة البقرة «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولاتعتدوا إن الله لايحب المعتدين واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم.... فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل مااعتدى عليكم» (50)

والثاني : الدفاع عن الدعوة اذا وقف أحد في سبيلها بفتنته من آمن واختباره بأنواع التعذيب حتى يرجع عما اختاره لنفسه دينا أو بصد من أراد الدخول في الاسلام عنه أو يمنع الداعى من تبليغ دعوته ففي سورة النساء المدينة «ومالكم لاتقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا»

وبينت هذه الآية سببين للحث على القتال :

ا ـ سبيل الله ب ـ سبيل المستضعفين الذين اسلموا بمكة وحيل بينهم وبين الهجرة الى يثرب وعذبتهم قريش وفتنتهم عن دينهم.

وكان أمر القتال في البداية قاصرا على قريش ومن يحالفهم من يهود المدينة فلما انضمت قبائل الجزيرة العربية الى قريش نزلت الاية «وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة» (51)

والصراع بين المدينة ومكة مر بعدة مراحل تميزت كل مرحلة بميزات خاصة وهي تتلخص في الاتي :

---

49) القرآن الكريم : سورة الحج 22 آية 39

50) القرآن الكريم : سورة البقرة 2 اية 190، 191، 194.

51) محمد الخضري : محاضرات تاريخ الامم الاسلامية (الدولة العربية) ج 1 ص 96

المرحلة الاولى (1 هـ ـ 2 هـ) :

وتبدأ منذ السنة الاولى للهجرة وحتى أوائل السنة الثانية وهذه الفترة يمكن أن نطلق عليها مرحلة الاستطلاع وارسال السرايا لجس نبض قريش وحلفائهم من العرب والتمهيد لشن حملة نظامية مباشرة عليهم وأهم هذه السرايا :

1 ـ سرية حمزة بن عبد المطلب عم الرسول (ص) التي خرجت في الشهر السابع من (1 هـ) على رأس ثلاثين رجلا من المهاجرين ليعترضوا عير قريش، فلقي أبا جهل في 300 رجل بسيف البحر من ناحية العيض احدالمواقع على طريق قريش التجاري الى الشام ، فحجز بين الفريقين مجدى بن عمرو الجهنمي وكان موادعا للفريقين. (52)

2 ـ سرية عبيدة بن الحارث بن المطلب في ستين فارسا من المهاجرين وتمكنت السرية من الوصول الى عين ماء بالحجاز تقع أسفل ثنيه المسرة (بشمال قديد منبادية مكة) .فلقى عبيدة وصحبه بها جماعة من قريش «فكان بينهم الرمى دون المسايفة).

3 ـ يضاف الى ذلك السرايا التي خرج على رأسها الرسول (ص) وقد أطلق المؤرخون عليها «غزوات» سواء حارب فيها أم لم يحارب.

أ ـ أولى هذه السرايا، غزوة ودان في الوسط بين مكة والمدينة وخرج الرسول (ص) لمواجهة قريشا ومن حالفهم من بنى ضمره من كنانة برئاسة مخشى بن عمرو، فوادعته بنو ضمرة ورئيسها. وعاد الرسول (ص) الى المدينة.

ب ـ وتلتها غزوة بواط، خرج الرسول (ص) في مائتينمن أصحابه في (2 هـ) لمحاربة قريش فبلغ بواط من ناحية رضوى وقابل أمية بن خلف الجمحي في مائة رجل من قريش يحرسون الفين وخمسمائة بعير، فلم يحدث اشتباك بينهم.

---

52) بينما يتفق كل من الواقدي وموسى بن عقبة وابن الاثير أن سرية حمزة بن عبد المطلب هي اولى سرايا المسلمين. نجد ابن اسحق يذكر أن أول السرايا هي سرية عبيدة بن الحارث بن المطلب. انظر الواقدي : كتاب المغازي جـ 1 ص 2

ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ 2 ص 6. ابن هشام : السيرة النبوية جـ 1 ص 591. ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ 2 ص 111.

جـ ـ وتلتها غزوة العشيرة من ينبع وفيها وادع الرسول (ص) بنى مدلج وحلفائهم من ضمرة ثم عاد الى المدينة. (53).

ويستنتج من هذه السرايا والغزوات، انها كانت تقوم باعتراض طريق قريش التجاري، دون أن تشتبك معها في قتال أو تستولى على قوافلها، هادفة الى التظاهر بقوة المسلمين ومضايقة قريش وموادعة القبائل العربية المستقرة بجوار طريق القوافل والتحالف معها وتلقف أخبار قريش (54).

المرحلة الثانية : (من 2 هـ الى 5 هـ) :

وتتميز باندلاع الصراع الحربي بين كل من المسلمين وقريش مكة فقط ووقوف بقية العرب على الحياد أو العمل لحسابهم الخاص.

1 ـ سرية عبد الله بن جحش : فمن بداية هذه المرحلة أرسل الرسول (ص)، عبد الله بن جحش ومعه ثمانية من المهاجرين وقيل 12 رجلا، في شهر رجب الحرام (2 هـ)، بأوامر سرية يأمره نزول نخيله بين مكة والطائف فيرصد قريشا ويعلم اخبارهم» ولكن مرت قافلة تجارية لقريش تحمل زبيبا وغيره، في حراسة أربعة من رجال قريش، ورأى حراس قريش، المسلمين ورغم ذلك أطمئنوا، لان اليوم كان آخر يوم من رجب، ورمى أحد المسلمين أحد رجال قريش فقتله وأسر أثنان وهرب الرابع.

اقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالقافلة والاسرى الى المدينة، ولكن هذا النقض للقانون الخلقى القبلي المتعارف عليه بين القبائل العربية، لم يثر عاصفة من الاستنكار في مكة صاحبة القافلة وفي المدينة حيث كان البعض من المسلمين متمسكين بهذا القانون القبلي الغير مكتوب، فقط، بل اثار هذا العمل الرسول (ص) الذي قال لهم : «ماأمرتكم بقتال في الشهر الحرام» فأنزل الله: «يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه، قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام

53) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 2 ص 111 ـ 112

54) محمد جمال الدين سرور : قيام الدولة العربية الاسلامية ص 82

واخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل» (55) يعنى ان كنتم قتلتم في الشهر الحرام فقد فعلوا ماهو أشنع. كفروا بالله وبالمسجد الحرام وأخرجوكم منه وأنتم أهله. وأعلن الرسول (ص) شرعية الحرب ضد المشركين حتى في الشهر الحرام (56) وكانت سرية ابن حجش أول غزوة غنم فيها المسلمون .

2 ـ غزوة بدر : وبعد شهرين اثنين سنحت الفرصة للهجوم على المشركين وتفصيل ذلك أن القافلة التجارية الشامية العائدة من غزة، والتي أسهمت فيها جميع المصالح التجارية المكية تقريبا، كانت في طريقها الى مكة. وكان على رأس هذه القافلة أبو سفيان، زعيم البيت الأموي فأمر الرسول (ص) ثلاثمائة واربعة وعشرون (57) من متطوعي المهاجرين والانصار، بالاغارة على القافلة. ولكن أبا سفيان كان مستعدا لمثل هذه الغارة، فقاد رجاله على طول الساحل في طريق غيرالطريق المعتادة.

وكان أبو سفيان قد بعث ضمضم بن عمرو الغفاري الى مكة يستنفر قريشا ويخبرهم خبر الخطر المداهم، فانطلقوا الى الطريق الشمالية وعددهم بين التسعمائة والالف، فيهم اشراف قريش مثل عتبة وشيبة ابنا ربيعة، والوليد وابو البختري ابن هشام، وابو جهل، وأمية بن خلف وغيرهم.

ولما نجا أبو سفيان أرسل الى قريش «ان الله قد نجى عيركم وأموالكم فأرجعوا، فقال أبو جهل بن هشام : والله لانرجع حتى نرد بدرا،... فنقيم بها ثلاثا، فننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتسمع بنا العرب فلايزالون يهابوننا أبدا». ولم يؤيد عرب بني زهرة حلفاء قريش ذلك فانسحبوا عائدين الى ديارهم .

---

55) القرآن الكريم : سورة البقرة 2.آية 217

56) الواقدي : كتاب المغازي ج 1 ص 16 ـ 17

ابن هشام : السيرة النبوية ج 1 ص 604

ابن كثير : السيرة النبوية ج 2 ص 368

57) اختلف المؤرخون حول عدد جيش المسلمين في بدر فهم 313 رجلا او 314 او 77 من المهاجرين و83 من الانصار والمرجح هو 83 من المهاجرين + 71 من الاوس + 170 من الخزرج : 324 رجلا أنظر ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 2 ص 118.

تربص المسلمون بقيادة الرسول (ص) لقافلة قريش عند بدر وهو موضع على طريق القوافل، ذوماء سائغ للشاربين، وكان موسما من مواسم العرب تجتمع لهم به سوق كل عام. وبدلا من أن يجدوا حامية ضعيفة فوجئوا بجيش قوي كامل العدة يخرج للقائهم. (58).

وكان على الرسول (ص) أن يحشد جميع قواه الملهمة ليحمل اتباعه على خوض هذه المعركة التي لم تتكافأ فيها القوى. حتىٰ اذا وفق الى ذلك استطاعت روح الطاعة والنظام التي اكتسبها المسلمون من شعائرهم اليومية، أن تحرز النصر على التفوق العددى الذي كان للمكيين الذين قتل منهم سبعون وأسر سبعون وفر الباقون.

وكان لهذا الانتصار الاول أثر معنوي عظيم جدا. لقد فجعت كل أسرة من الاسر المكية تقريبا باحد أفرادها، فهي تنـدبه وتبكيه، أو منيت بأسر احد أعضائها فهي مضطرة الى أن تفتديه. وفي المدينة، قوى هذا الفوز من نفوذ الرسول (ص) شيئا كثيرا، وساعده على أن يتخذ اجراءات حازمة ضد مناوئيه، الذين كان عليه، حتى ذلك الحين، أن يتحمل أذاهم، ويصبر عليه، ومن هنا صار على أولئك المدنيين الذين كانوا لايزالون على الوثنية أن يدخلوا في الاسلام. وليس من شك . في أن بعضهم قد أسلموا ولم يتمكن الايمان من قلوبهم بعد. ولقد ظل هؤلاء المنافقون مصدر قلق للرسول (ص) فترة من الزمان (59).

3 ـ غزوات الكدر والسويق وذي القصة والقرع :

وواصل المسلمون هجماتهم على قوافل المكيين التجارية والقبائل العربية المتحالفة مع قريش ففي شوال سنة (2 هـ) حسب رواية ابن اسحاق أو المحرم سنة (3 هـ) حسب رواية الواقدي خرج المسلمون بقيادة الرسول (ص) لمواجهة قبائل

---

58) ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ 2 ص 116 ـ 121
كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص 49 ـ 50
محمد الخضري : تاريخ الامم الاسلامية (الدولة الأموية) جـ 1 ص 103 ـ 105
59) ابن واضح : تاريخ اليعقوبي جـ 2 ص 45 ـ 46
كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص 50

بني سليم المعسكرين على ماء لهم يقال له الكدر . ثم عاد الرسول (ص) الى المدينة دون قتال .

وكان أبو سفيان قد نذر بعد بدر أن لايمس رأسه ماء من جنابه حتى يغزو محمدا، فخرج ابو سفيان على رأس مائة فارس من قريش ليبر يمينه حتى جاء المدينة ليلا، واجتمع بزعيم يهود بني النضير حتى تعرف على أحوال المدينة فأرسل بعض فرسانه للاغارة على منطقة العريض من المدينة، فحرقوا نخلها وقتلوا رجلا من الأنصار وحليفا له، وعادوا بعد أن اعتقد أبو سفيان أنه قدبر بوعده، وما أن علم الرسول (ص) حتى خرج مع أصحابه في أثر أبي سفيان وأصحابه وخشى فرسان قريش أن يلحق بهم الرسول (ص) فأخذوا يلقون جرب السويق (60) وكان عامة زادهم حتى يتخففون طلبا للنجاة فلذلك سميت غزوة السويق.

في المحرم سنة (3 هـ) تآمر بنو ثعلبة بن سعد بن ذبيان مع بنو محارب ابن حفص وتجمعوا لمفاجأة المسلمين، فسار الرسول (ص) في 450 رجلا اليهم وماان وصل الى ذي القصة حتى سارعوا بالهروب الى اعالى الجبال.

وفي جمادى الاولى من نفس العام، سارع الرسول (ص) للخروج على رأس ثلاثمائة لمهاجمة بنـي سليـم المعاديـن للمسلمين والذين تجمعوا بحران من ناحية القُرُع، فلما بلغ بحران وجدهم قد تفرقوا (61).

4 ـ غزو أحد : (3 هـ):

أما قريش فقد عز عليهم أن يهزموا ويقتل سادتهم ويؤسر اشرافهم وأخذوا يعدون العدة لمحو عار هزيمة بدر على ايدي المسلمين. فاتفقوا على أن يتنازلوا عن ارباح قافلة أبي سفيان التي آبت من الشام قبل غزوة بدر، والانفاق من ارباحها على المعركة .

واستغلت قريش تذمر بعض القبائل العربية التي تأثرت أحوالها الاقتصادية نتيجة للعمليات الحربية التي قام بها المسلمون، مثل بني ثقيف أهل الطائف وبني

---

60) السويق جمع أسوقة : الناعم من دقيق الحنطة والشعير أو الدقيق الذي يخرج من البرغل عند نخله.

61) ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ 2 ص 139 ـ 142

كنانة من القبائل البدوية وغيرهم. وتمكنت في خلال عام من تشكيل جيش قوي جدا ـ بالنسبة لظروف العرب آنذاك ـ يبلغ عدده، حسب الروايات، ثلاثة آلاف مقاتل، منهم سبعمائة دارع، ومائتا فرس وثلاثة آلاف بعير برئاسة ابي سفيان ابن حرب.

لم تكتف قريش بهذا الجيش الكبير، فأخرجت نساءهن معهم،، خشية الانهزام والفرار، وأخذت النساء في ضرب الدفوف، يبكين قتلى بدر لتحريض المقاتلين من قريش. واذ كانت قريش تصطحب في هذه الغارة جمهرة من النساء ومتاعا كثيرا، فقد اضطروا الى أن يتقدموا في اناة بالغة، حتى اذا وافت سنة (3 هـ)، وصلوا الى السهل المنبسط من شمال المدينة، الى جبل احد. على مسافة نصف ساعة من البلدة (62).

وعلى الرغم من أن الرسول (ص) رأى أنه من الافضل الاقامة بالمدينة والدفاع عنها واتفق معه في الرأي عبد الله بن أبي سلول زعيم الخزرج، ولكن ليس عن اقتناع ومكيدة حرب بل عن نفاق وكره للخروج.

فقد اشار جماعة بالخروج وساير الرسول (ص) روح رجالة الحربية واقتنع بضرورة الهجوم فخرج في ألف رجل، فلما كان بين المدينة وأحد، انسحب عبد الله ابن أبي سلول بثلث الجيش متظاهرا بالغضب لاتباع الرسول (ص) لاراء من فضل الخروج والهجوم وقال: «أطاعهم وعصاني».

ورغم هذا الانسحاب ومايخلفه في نفوس المقاتلين من تخاذل خصوصا اذا واجهوا امامهم جيشا يفوقهم أكثر من ثلاث مرات، فقد أصر الرسول (ص) على خوض المعركة في الميدان المطلق. ولم يعرف اليأس طريقا الى نفسه، فقام بتنظيم قواته «فاستقبل.. المدينة وترك احد خلف ظهره وجعل وراءه الرماه، وهم خمسون رجلا، وأمر عليهم عبد الله بن جبير.. وقال له: انضح عنا الخيل بالنبل لايأتونا من خلفنا وأثبت مكانك ان كانت لنا أو علينا».

---

(62) الواقدي : كتاب المغازي ج 1 ص 203
ابن واضح : تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 47
ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 2 ص 148 ـ 149، 151

وتقابل الجيشان ورجحت كفه المسلمين ـ أول الامر ـ فاندفعوا الى معسكر العدو نفسه، ولكن الرماة الذين كان يفترض فيهم أن يحموا جناح الرسول (ص) الايسر، مالبثوا أن غادروا مراكزهم واندفعوا مع المندفعين، خشية أن يفوتهم نصيبهم من الغنيمة.. وكان خالد بن الوليد على رأس فرقة الفرسان المكية، فاغتنم هذه الفرصة واجتاح ميسرة المسلمين المكشوفة وهاجم المسلمين من الخلف، فلما رأى المشركون نجاح خالد، تبادروا فشدوا على المسلمين فهزموهم وقتلوهم (63) وقتل من المسلمين 68 رجلا كرواية اليعقوبي أو 74 كرواية الواقدي (64).

«وقاتل الرسول (ص)، يوم أحد قتالا شديدا، فرمى بالنبل حتى فنى نبله وانكسرت سية قوسة وانقطع وتره» وأصيب اصابات بليغة فكسرت احدى أسنانه السفلى وشقت شفته وجرح في وجنته وجبهته في أصول شعره حتى سرى بين المسلمين أنه قتل، فأسقط في أيديهم وفقد بعضهم القدرة على المقاومة. وكان من حسن طالع المسلمين أن المكيين عجزوا عن استثمار انتصارهم، وقنعوا من الغنيمة بالاياب الى بلدهم فرحين بالفوز.

ومن الجدير بالذكر أن جبير بن مطعم، دعا غلامة وحشي بن حرب، وكان حبشيا يقذف بالحربة قل مايخطيء، فقال له: اخرج مع الناس فان قتلت عم محمد (حمزة) بعمى طعيمة بن عدى (الذي قتل ببدر) فأنت عتيق (65) وكانت هند كلما مرت بوحشي أو مر بها قالت له: ياأبا دسمة اشف واستشف.. فيروى وحشي «فهززت حربتي ودفعتها عليه (حمزة) فوقعت في ثنته حتى خرجت من بين رجليه، وأقبل نحوى فغلب فوقع»

ووقعت هند وصواحباتهـا على قتلى المسلمين يمثلن بهم، واتخذت هند من

---

63) ابن الاثير: الكامل في التاريخ ج 2 ص 150، 152، 154.

64) الواقدي: كتاب المغازي ج 1 ص 300

ابن واضح: تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 48.

65) ويروي الواقدي ان هند بنت عتبة زوجة ابي سفيان بن حرب هي التي عهدت الى وحشى بقتل حمزة بن عبد المطلب ووعدته بمكافأة مجزيه أنظر كتاب المغازى ج 1 ص 286.

آذان الرجال وآنافهم خلخالا وقلائد واعطت خدمها وقلائدها وحشيا وبقرت عن كبد حمزة فلاكتها انتقاما وثأرا من قاتل أبيها وأخوتها (66)

ولم تؤثر هذه الهزيمة في مركز الرسول (ص)، ومكانته عند اتباعه من المهاجرين والانصار، خاصة وانهم استشعروا خطأهم اذ لم يطيعوا الامر الصادر اليهم. ولكنها أثرت في موقف القبائل البدوية اتجاه المسلمين ، فتجرؤوا عليهم، ويظهر ذلك، مثلا، في مقتل ستة من دعاة المسلمين الى قبيلتي عَضَل والقارة والغدر بهم وقيام بنو لحيان من هذيل بقتل بعضهم وبيع البعض الاخر لاشراف مكة للثأر منهم. وفي مقتل، سبعين رجلا وقيل اربعين من الدعاة الى قبائل نجد من بني عامر، لدعوتها الى الاسلام، عند بئر معونة بين أرض بني عامر وحرة بني سليم. فقد احاطت قبائل عُصَية ورِعْلَ وذكوان من بني سليم بالمسلمين فقاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم الا أحدهم تركوه جريحا (67).

المرحلة الثالثة : (من 5 هـ الى 8 هـ) :

وتتميز هذه المرحلة بتحالف عرب قريش مع بقية القبائل العربية بصفة عامة والقبائل البدوية بصفة خاصة وذلك للتخلص من المسلمين والقضاء عليهم.

1 ـ غزوة الاحزاب (أوالخندق) في 5 هـ/627 م: لم يدم انتصار قريش طويلا اذ لم يلبث المسلمون ان رتبوا صفوفهم واستعادوا قوتهم وتحول الرسول (ص) من دور الدفاع الى دور الهجوم وخرجت غزوات المسلمين لملاقاة المشركين وقريش في غزوات ذات الرقاع (68) وبدر الثانية (69) ودومه الجندل

---

66) ابن واضح : تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 47، 48
ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 2 ص 149، 150، 154، 157، 159
محمد الخضري : تاريخ الامم الاسلامية (الدولة الأموية) ج 1 ص 110 ـ 113

67) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 2 ص 167، 171

68) سميت غزوة الرقاع لوقوعها بجبل فيه سواد وبياض وحمرة اي رقاع وكانت ضد بني محارب، وبني ثعلبة من غطفان من قبائل نجد البدوية

69) وتسمى بدر الثانية تمييزا لها عن بدر الاولى وفيها خرج الرسول (ص) لملاقاة قريش حسب ميعاد ابي سفيان بن حرب الذي خرج ملاقاة المسلمين في أهل مكة ثم جبن وانسحب وانسحبت معه قريش.

ولكنهم جبنوا عن الصمود واعتذروا عن المواجهة. ولم يبق شيء يحول دون انتشار الاسلام وامتداده، فقد كان الاسلام قبل موقعة بدر، عبارة عن دين في دولة، أما في المدينة بعد بدر، فقد أصبح أكثر من دين دولة، أنه أصبح الدولة نفسها، ومن هناك منذ ذلك الوقت خرج الى العالم قوة حربية سياسية.

ولذلك كان من الطبيعي أن تتحالف مختلف القوى، ذات النفوذ في الحجاز، ضد الرسول (ص) وأتباعه. فزعماء يهود بني النضير المطرودين من المدينة والمصادرة أموالهم حالفوا قريشا على استئصال المؤمنين وانضمت الى هذا التحالف القبائل المعارضة للرسول (ص) مثل غطفان (70) وفزاره، بقيادة عُيَيْنَة ابـن حصين، ومُرة، بقيادة الحارث بن عوف بن أبي حارثة المرى، وأشجع بقيادة مسعر ابن رُخيلة الاشجعي..

وتحرك هذا الحلف، كجيش مؤلف من حوالي عشرة آلاف رجل، بينهم اربعة آلاف قرشي بقيادة ابي سفيان، وكانت حركة هذا الجيش سريعة فوق العادة، هذه المرة، مما اضطر الرسول (ص) الى أن يتعجل الاستعداد لملاقاته في مدى اسبوع واحد. واذا كان المهاجمون يفوقون جند الرسول (ص) عددا، اذ بلغ جيش المسلمين ثلاثة آلاف مقاتل، فلم يكن ثمة ادنى مجال للتصدي لهم في معركة مكشوفة من معارك الميدان. لقد تعين على الرسول (ص) أن يتربص في المدينة نفسها ويحسن مواقعه الحربية. واتبع خطة عسكرية ذكية، الشق الاول منها اقامة خندق للمدينة:

وكانت المدينة محاطة بصفوف متصلة من المنازل، من ثلاث جهات، ولم تكن مفتوحة الامن جهة الشمال. فقام الرسول (ص) بإشارة من سليمان الفارسي بحفر خندق عريض يقيه وجنوده من هجمات الفرسان. ولم تكن هذه الطريقة الدفاعية مألوفة قبل ذلك، في بلاد العرب. ولقد اثارت بلبلة واضطرابا شديدين حتى لقد سميت المعركة بسببها «وقعة الخندق» .

---

(70) ولقد اشتركت غطفان في الحملة أملا أن يمنحهم اليهود غلة سنة من انتاج واحة خيبر انظر المقريزي: امتاع الاسماع ج 1 ص 216، محمد جمال الدين سرور : قيام الدولة العربية الاسلامية ص 91

ويروي اليعقوبي أن جميع المسلمين شاركوا في الحفر «وجعل لكل قبيلة حدا يحفرون اليه.. وجعل له أبوابا وجعل على الابواب حرسا». بينما يذكر ابن الاثير انه «جعل لكل عشرة أربعين ذراعا» (71).

أما الشق الثاني من خطة الرسول (ص) فقد قام المسلمون طوال فترة الحصار التي استمرت لمدة شهر تقريبا برمى المشركين بالنبل. والحيلولة بينهم وبين الوصول الى معسكر المسلمين. ولما فطنت قريش الى ذلك أرسلت بعض فرسانها فعاينوا الخندق ثم اختاروا مكانا ضيقا فاقتحموه فمنهم من وقع فيه واندق عنقه ومنهم من نجحت محاولته فتصدى له المسلمون فقتلوه ومنهم من فضل الفرار (72).

والشق الثالث فهو العمل على التفريق بين المتحالفين، خصوصا بعد أن انضم للمهاجمين من الخارج، يهود بني قريظة، محالفى المسلمين بالامس والمقيمين بداخل المدينة، مما يجعل الجيش الاسلامي واقعا بين شقى الرحى فقام الرسول (ص) بالاتصال بكل من عُيَيْنَة بن حصين والحارث بن عوف زعيمي غطفان وفزاره ومرة وعرض عليهما، ثلث ثمار المدينة، مقابل الانسحاب فوافقا وبالرغم من عدم اتمام الاتفاق لاعتراض كل من سيدي الاوس والخزرج، الا ان مشروع هذا الاتفاق أدى دوره في احباط عزيمة قبائل غطفان. وليس ادل على ذلك من أن احد مقاتلي قبيلة اشجع الغطفانية قد تحول الى الاسلام دون علم قبيلته ووفد على الرسول (ص) عارضا خدماته وهو نعيم بن مسعود الاشجعي. فأرسله الرسول (ص) ليلعب دورا

---

71) ابن واضح : تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 50
ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 2 ص 179
ابن حزم : جوامع السيرة ص 185 ـ 187.
72) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج2 ص 180، 181
محمد الخضري : تاريخ الامم الاسلامية (الدولة الأموية) ج 1 ص 120

هاما فيُ القضاء على تحالف كلٌ من قريش ويهود بني قريظة وعمل على ا المفاوضات بينهم (73)-

أما الشق الرابع والاخير فهو أطاله فترة الحصار بقدر الامكان ومقاومة اق المدينة حتى بلغ الحصار مدة شهر تقريبا، فجيش عدته عشرة آلاف مقاتل بخي وابلهم وخدم الاشراف منهم، لاشك يحتاج الى تموينات كثيرة، لاتتوفر في من محدودة الزرع والثمار بنواحي المدينة هذا من ناحية. كما سرعان ماأحس المش بوطأة الحصار عليهم، فلم يلبث أن داخلهم الضعف والكلال، لصعوبة الحصول الامدادات في تلك البقاع الجرداء. ورأى المحاصرون، مواشيهم وأنعامهم، وهي مايملكون، تبيد زرافات من شدة القيظ من ناحية أخرى.

وتدخلت الطبيعة لتحسم مصير هذه الحملة فهبت الريح في ليلة شاتية ب فكفأت قدورهم وطرحت أبنيتهم حتى صاح ابو سفيان قائد الحملة: «والله لقد الخـف والحافـر واخلفتـنـا قريظة ولقيـنـا مـن هـذه الريـح ماتـرون، فارتح فانـي مرتحـل». (74)

2 ــ غزوتى بني لحيان وذي قرد: 6 هـ/628 م: فشلت غزوة الا. وأنسحبت قريش وحلفاؤها من غطفان ثائرين. وأراد المسلمون تصفية حسابه القبائل البدوية التي غررت بدعاة المسلمين وسفكت دماءهم ظلما. فخرج الر

73) فقد خرج نعيم بن مسعود الاشجعي حتى اتى ببن قريظة. وكان نديما لهم في الج وحذرهم من محالفة قريش والقتال ضد المسلمين حتى يأخذوا منهم رهنا من أشرافهم حتى لاي عنهم بعد القتال ثم أتى قريشا وأخبرهم أنه نمى الى علمه أن قريظة ندموا على مخالفتهم وا مع الرسول (ص) أن يسلموه بعض اشراف قريش وغطفان ليقتلهم كدليل لاخلاصهم له. وما أن ا قريش من اليهود ان تقاتل حتى اجابوهم: أن اليوم السبت ولن نقاتل حتى تعطونا رهنا من ر فرفضت قريش وصدقت نعيم. وماان علمت قريظة برفض قريش حتى صدقت نعيم وانهار التحالف قريظة وقريش.

انظر ابن هشام : السيرة النبوية ج 2 ص 229

ابن حزم : جوامع السيرة ص 190 ـ 191

ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 2 ص 183، 184

74) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 2 ص 184

كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص 53 ـ 54

(ص) في جمادى الاولى سنة 6 هـ على رأس مائتي فارس الى منازل بني لحيان من هذيل، ولكنهم حذروا وأمتنعوا برؤوس الجبال فتحول الرسول (ص) بفرسانه الى طريق مكة حيث نزل عُسفان بالقرب من مكة تخويفا وتحديا لاهل مكة.

وماكاد الرسول (ص) يعود الى المدينة ويقيم بها اياما حتى تولت قبيلة غطفان بقيادة عيينة بن حصن الفزارى حلفاء قريش، رد تحدى المسلميــن فأغاروا على المدينة واستاقوا ابل الرسول (ص) وقتلوا راعيه، وتمكن المسلمون من أسترداد الابل وهربت غطفان (75).

3 ـ صلح الحديبية في 6 هـ/ 628 ومنذ تحويل قبلة صلاة المسلمين من بيت المقدس الى الكعبة بمكة. وفرض الحج على المسلمين اليها وأعادة سنة النبي ابراهيم مؤسس الدين الاسلامي ومؤسس الكعبة المقدسة وتطلع المسلمون الى تطهيرها من تلك الانحرافات الوثنية الطارئة عليها في عصر متأخر. أصبح الهدف الاول والابعد شأنا في سياسة الرسول، أخضاع ابناء قومه الوثنيين في مكة والاستيلاء عليها.

ففي ذي ألقعدة (6 هـ) خرج الرسول (ص) في ثياب الحج مع الف وخمسمائة من المسلمين لقضاء العمرة وحتى تعلم قريش أنه جاء زائرا للبيت. خرج المسلمون بدون سلاح ماعدا سيف واحد وساقوا أمامهم سبعين من الابل البدينة هدية للكعبة. وحتى اذا صار على مسافة عشرة أميال من مكة علم أن المكيين واحلافهم قد رابطوا أمام الباب الشمالي، وبعثوا بفرسانهم في طريق المدينة فلم يكن من الرسول (ص) الا أن اتجه غربا، وغافل طلائع الفرسان سالكا طريقا مختصرا حتى وصل الى الحديبية، على تخوم المنطقة الحرام وهناك عسكر.

شرع الرسول (ص) في مفاوضة قريش، وتوالت عليه وفود من مكة للتأكد من نية المسلمين وأهدافهم: فوفود قبيلة خزاعة أو الحليس بن علقمة الكناني سيد الاحابيش والقوة الضاربة لقريش، اقتنعوا بهدف المسلمين وتعاطفوا معهم اما الوفد الثالث المشكل من عروة بن مسعود الثقفى وامه سبيعة بنت عبد شمس فرغم

---

75) ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ 2 ص 188، 189، 190
محمد الخضري : محاضرات تاريخ الامم الاسلامية (الدولة الاموية) جـ 1 ص 123، 124.

العداوة للرسول وصحبه فقد عاد لقريش ليقول «يامعشر قريش قد جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه واني والله مارأيت ملكا في قوم قط مثل محمد في أصحابه ولقد رأيت قوما لايسلمونه لشيء ابدا فروا رأيكم» (76)

اختار الرسول (ص) عمر بن الخطاب، ليرسله الى قريش، للتفاوض والوصول الى حل، ونظرا لعدم وجود عصبية من بنى عدى، اقرباء عمر بالمدينة ليمنعوه، من اذى قريش اذا ارادوا به شرا، فقد وقع الاختيار على عثمان بن عفان، صهر الرسول (ص) والذي كان بوصفه امويا، ذا نفوذ عظيم.

خرج عثمان بن عفان الاموي الى مكة فلقيه أبان بن سعيد بن العاص ابن أمية فاستقبله مرحبا وأجاره حتى يبلغ رسالته الى قريش. وانقضت ثلاثة أيام من غير ان يرجع عثمان وانتشرت شائعة بأنه قتل. وعلى الرغم من أن الرسول (ص) لم يكن مستعدا للمعركة فلم يكن في وسعه أن يرى المكيين يخرقون القانون القبلى على هذا الشكل دون أن يثأر للقتيل. فدعا المسلمين الى البيعة فجددوا عهدهم له، تحت شجرة كبيرة وهي سَمُرة فعرفت هذه البيعة ببيعة الرضوان وصارت بعد مفخرا يعتز به من تشرف بها. ولكن تلك الاشاعة لم تلبث أن تبين بطلانها، وأظهر المكيون رغبة أكيدة في الوصول الى اتفاق سلمى (77).

بعثت قريش، سهيل بن عمرو العامري، لمصالحة الرسول (ص) وأصحابه بشرط، الا يدخلها عليهم عنوة أبدا ولاتتحدث بذلك عنهم العرب، فاتفق سهيل مع الرسول (ص) على الاتي:

أ ـ ان الرسول يرجع من عامه فلايدخل مكة. واذا كان العام المقبل دخلها المسلمون فأقاموا بها ثلاثا معهم سلاح الراكب، السيوف في القرب بعد أن تخرج منها قريش.

---

76) انظر ابن هشام : السيرة النبوية جـ 2 ص 315 ـ 316
ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ 2 ص 96 ـ 97
البلاذري : فتوح البلدان جـ 1 ص 40 ـ 41
ابن حزم : جوامع السيرة ص 208

77) ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ 2 ص 203
محمد الخضري : محاضرات تاريخ الامم الاسلامية (الدولة الاموية) جـ 1 ص 125 ـ 126

ب ـ قيام هدنة من الحرب لمدة عشر سنوات بين الطرفين. يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض.

جـ ـ ومن أحب أن يدخل في عهد رسول الله دخل ، ومن أحب أن يدخل في عهد قريش دخل، فدخلت خزاعة في عهد رسول الله (ص) ودخلت بنو بكر في عهد قريش.

د ـ من أتى الرسول (ص) من قريش من غير اذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشا ممن مع محمد (ص) لم يرد عليه (78) .

وأهم من هذه البنود فقد صمم مندوب قريش أن يتعامل مع الرسول (ص) بصفته انسانا عاديا وليس بصفته كرسول مما أسخط المسلمين، وخلال اتمام الصلح، هرب أبو جندل بن سهيل بن عمرو العامري، يرسف في الحديد، الى المسلمين. فاضطر الرسول (ص) لتسليمه لابيه حسب الاتفاق. وبعد عودة الرسول (ص) الى المدينة، هرب أبو بصير عتبة بن أسيد بن جاريه الثقفي احد موالي بني زهرة، وكان ممن حبس بمكة، الى المدينة، فاضطر الرسول الى رده كذلك مما زاد في ثورة المسلمين وسخطهم تجاه الاتفاقية.

ولكن هذا الاخير لم يلبث أن قتل في الطريق الى مكة أحد الرجلين اللذين كانا يحرسانه، وفر الى الساحل حيث نزل بناحية ذي المروة على طريق قريش الى الشام، وبلغ المسلمين الذين كانوا محبوسين بمكة ذلك فخرجوا الى أبي بصير وانضموا اليه ومنهم أبا جندل بن سهيل بن عمرو العامري، فاجتمع اليه سبعون رجلا تقريبا واندفعوا يهاجمون القوافل المكية. فلم يجد المكيون بدا من أن يطلبوا هم الى الرسول (ص) أن يلغى تلك المادة الخطرة (د) من المعاهدة، وأن يتولى أمر هؤلاء العصاة بنفسه

استغل الرسول (ص) صلحه مع قريش وقضى على قوة يهود خيبر، وفذك، ووادى أم القرى، وتيماء.

---

78) ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ 2 ص 96
ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ 2 ص 204

وبعد عام من صلح الحديبية في ذي القعدة من سنة (7 ﻫ) عاد الرسول (ص) وأصحابه ليقضوا العمرة وحينئذ خرج منها أهل مكة ودخلها المسلمون وقد ظل فيها ذوو قرباه وعلى رأسهم عمه العباس ولقد تركت هذه الحجة انطباعة قوية في نفوس أعداء الرسول (ص) حتى لقد توجه عدد من زعمائهم الى المدينة فأعلنوا اسلامهم ونخص بالذكر من هؤلاء خالد بن الوليد بطل أحد، الذي عرف بعد بسيف الله المسلول وسيف الاسلام وعمرو بن العاص الاموي فاتح مصر وأول ولاتها، وعثمان بن طلحة العبدري (79).

4 ـ فتح مكة في 8 ﻫ/630 م: يأس القرشيون منذ فترة من التغلب على الرسول (ص) مرة ثانية خصوصا بعد أن ازداد انصار الرسول (ص)، وتحول فرسان قريش من مكة الى المدينة فازدادت قوة المسلمين وحصر القرشيون اهتمامهم في المحافظة على صلح الحديبية حتى لاتتعرض تجارتهم لاخطار جديدة، بعد الذي منيت به من نكبات، أما الرسول (ص) فكان يترقب الفرص ليصفي حسابه معهم، جملة واحدة.

واتفق ان نشأت مشادة بين خزاعه التي كانت في عهد الرسول (ص) وبين بكر التي كانت في عهد قريش حسب صلح الحديبية، اذ استغلت بكر تلك الهدنة وأرادوا أن ينتقموا من خزاعة لقتلهم بني الاسود البكريين حلفائهم في الجاهلية. وفاجئوا خزاعة وهم على ماء لهم بأسفل مكة يقال له الوتير، وأعانت قريش بني بكر على خزاعة بسلاح ودواب وقاتل معهم جماعة من قريش مختفين، منهم صفوان ابن أمية وعكرمة ابن أبي جهل وسهل بن عمرو ورغم انحياز خزاعة الى الحرم، فلم يمهلهم بنو بكر وقتلوا نفرا منهم. وتوالت وفود خزاعة أفراد وجماعات على الرسول (ص) بالمدينة تخبره بانتهاك قريش للصلح.

فمنهم عمرو بن سالم الخزاعي الذي أنشده قائلا :

---

79) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 2 ص 204 ـ 206، 230 ـ 231
محمد الخضري : محاضرات الامم الاسلامية (الدولة الاموية) ج 1 ص 126، 128

ان قريشا أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وجعلوا لي في كداء رصدا وزعموا أن لست أدعو أحدا
وهم اذل وأقل عددا هم بيتونا بالوتير هجدا
فقتلونا ركعا وسجدا

فأجابه الرسول (ص) : قد نصرت ياعمرو بن سالم ! وهكذا رأى الرسول (ص) نفسه في حل من صلح الحديبية بعد أن نقضته قريش (80).

سارع أبو سفيان الى الرسول (ص) بالمدينة لتأكيد العهد ومده لفترة اطول فلم ينجح وقوبل بالتجاهل وعدم الاهتمام، اذ رأى الرسول (ص) في وفوده على تلك الصورة تأكيدا لشكوى خزاعة.

وفي رمضان من السنة (8 هـ/630 م) توجه الرسول (ص) الى مكة في جيش عظيم من المدينيين والبدو تبلغ عدته عشرة آلاف رجل : أربعمائة من بنى غفار، ألف وثلاثة نفر من مزينه، سبعمائة من بني سليم، الف وأربعمائة من جهينة، والبقية من المهاجرين والانصار وحلفائهم وطوائف من العرب من تميم وأسد وقيس.

حتى اذا أصبح الرسول على منتصف الطريق الى مكة خرج اليه جماعة من أهلها، وفيهم عمه العباس، وانضووا تحت لوائه. ولم يتخلف في مكة الا فئة قليلة اعتزمت أن تقاوم المسلمين مقاومة جدية وبينما الرسول (ص) يعسكر في مَرّ الظهران، شمال غربي مكة، جاءه أبو سفيان نفسه، الذي كان من قبل، قلب المعارضة، وأسلم ، فأمن الرسول اسرته وأراد أن يكرمه ويجعل له شأنا في قومه فأذاع: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن اغلق بابه فهو آمن. (81)

---

(80) ابن هشام : السيرة النبوية جـ 2 ص 391
ابن حزم : جوامع السيرة ص 224
ابن كثير : السيرة النبوية جـ 4 ص 278
(81) ابن حزم : جوامع السيرة ص 227، 229
ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ 2 ص 244

رجع أبو سفيان الى مكة ونصح اهلها بعدم مقاومة الرسول (ص) وأصحابه، فوجدت نصيحته أذانا مصغية عند مواطنيه، ولم يتمسك بنظرية الحرب الا نفر ضئيل من المتعنتين. وأمر الرسول (ص) جنوده بالتقدم الى مكة من جهتين، في وقت معا، فلم يلقوا شيئا من المقاومة الا عند الباب الجنوبي، الذي كان يحتله حزب الحرب، ولعلهم احتلوه للاحتفاظ بخط الرجعة فيشقون طريقهم منه الى اليمن، ولكن خالد بن الوليد قضى على هذه المقاومة في يسر فقتل من المشركين 31 رجلا وقيل 23 بينما قتل من المسلمين ثلاث رجال. وهكذا القت مكة بنفسها، دونما صراع جدي، على قدمي ابنها العظيم الذي آذته وأتباعه، قبل ثماني سنوات، واضطرتهم الى الهجرة.

وعندما بلغ الرسول (ص) الكعبة طاف بها سبعا على راحلته ثم أمر بازالة مافي الكعبة من الصور والتماثيل وتحطيمها، وطلب الى المكيين أن ينزعوا ماقد يكون في بيوتهم الخاصة من صور وتماثيل ويسلموها الى المسلمين، على الرغم من أنه لم يعتبر قبول مواطنيه الاسلام أمرا واقعا بعد. ولم يعاقب بالقتل من خصومه القدماء الا أفرادا قلائل ذوي جرائم خاصة بهم، وأظهر من التساهل والتسامح مع الاخرين قدرا عظيما اذ قال : يامعشر قريش ماترون انى فاعل بكم؟ قالوا : خيرا، أخ كريم، وابن أخ كريم. قال :«اذهبوا فأنتم الطلقاء» وكانوا له فيئا فلذلك سمي أهل مكة الطلقاء (82).

رابعا : توحيد الجزيرة العربية

1 ـ غزوة حنين وحصار الطائف (8 هـ/630 م)

كانت مكة تحمل لواء المعارضة للاسلام قبل أن يفتتحها الرسول (ص)، فلما فتحت اعتبرت قبيلة هوازن المنتشرين انتشارا واسعا في نجد وقبيلة ثقيف أهل الطائف ذلك ضربة قاضية للوثنية في جزيرة العرب، وايقنوا ان الضربة التالية سيوجهها النبي (ص) اليهم، لارتباط الطائف بمكة في الجاهلية وماسبق ان قدموه من اساءة للرسول (ص).

82) البلاذري : فتوح البلدان ج 1 ص 42 ـ 44، ابن واضح : تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 58 ـ 60. كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص 60 ـ 61.

فجمع مالك بن عوف النصرى من بني نصر بن معاوية بن بكر، قبائل هوازن وقرروا غزو المسلمين قبل أن يغزوهم، وتشكلت قواتهم من قبائل نصر وجشم وسعد ابن بكر ومجموعة من بنى هلال، ثم انضمت اليهم قبائل ثقيف بقيادة قارب ابن الاسود بن مسعود سيد الاحلاف، وذو الخمار سبيع بن الحارث، واخوه الأحمر ابن الحارث سيد بني مالك، وبلغ جيش المشركين ثلاثين الف مقاتل ـ وهو عدد هائل بالنسبة الى ظروف العرب يومذاك ـ وعسكروا في أوطاس وحملوا معهم أموالهم ونساءهم وأولادهم، ليقاتل كل انسان عن حريمه وماله (83).

وخرج الرسول (ص) اليهم في جيش عدته اثنا عشر الفا : عشرة آلاف من المهاجرين والانصار الذين فتح بهم مكة والفان من أهل مكة ممن اسلموا طوعا أو كرها (84)

ويروى شاهد عيان المعركة بقوله: فلما استقبلنا وادي حنين انحدرنا في واد اجوف حطوط، انما ننحدر فيه «انحدارا في عماية الصبح، وكان القوم قد سبقونا الى الوادي فكمنوا لنا في شعابه ومضايقة، قد تهيؤوا وأعدوا، فوالله ماراعنا ونحن منحطون الا الكتائب قد شدت علينا شدة رجل واحد، فانهزم الناس أجمعون لايلوى أحد على احد» (85).

وبالرغم من انهيار الجيش الاسلامي المفاجيء وانهزامه الا أن الرسول (ص) تماسك وصمد معه نفر من المهاجرين والانصار وأهل بيته وصرخ العباس عم الرسول (ص) بناء على أمره «يامعشر الانصار يامعشر اصحاب الشجرة» فأجابوا لبيك لبيك، ويحاول الرجل أن يثنى بعيره فلا يقدر لانحدار الوادي وكثرة المنهزمين فيأخذ سيفه وترسه ودرعه وينزل عن بعيره ويتركه ويتجه الى الرسول (ص) حتى التف حوله مائة رجل، قاتل بهم الرسول (ص) المشركين، الى أن عاد بقية المسلمين وتمكنوا من هزيمة هوازن وثقيف، ففروا الى الطائف تاركين اموالهم وحريمهم وأولادهم فظفر بهم المسلمون وامر الرسول (ص) بجمعها والتحفظ عليها في الجعرانة وجعل عليها بديل بن ورقاء الخزاعي، اذ كان على المسلمين استثمار نصرهم هذا واتباع هوازن وثقيف.

(83) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 2 ص 261

(84) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 62

(85) . د. ماجد جابر ،ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 2 ص 262 ـ 263

زحف الرسول (ص) والمسلمون في غير مابطاء، ومن غير أن يفرغ لتقسيم الغنائم ، من ميدان المعركة في حنين، الى خارج أسوار مدينة الطائف مباشرة، ولكن ثقيفا واجهته بمقاومة عنيدة، فقد دخل نفر من المسلمين تحت دبابة عملوها ثم زحفوا بها الى جدار الطائف، فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد المحماة، فخرجوا من تحتها، فرماهم من بالطائف بالنبل فقتلوا بعضهم. كما أقام المسلمون منجنيقا قذف المدينة بالحجارة خلال فترة الحصار التي امتدت نيفا وعشرين يوما (86).

ترك الرسول (ص) بعض المسلمين لحصار الطائف وعاد الى الجعرانة لتوزيع أموال وسبايا بني هوازن فوفد عليه زعماء قبائلهم ومالك بن عوف فأسلموا فرد على مالك أهله وماله ووهبه مائة بعير فطالبه شيوخ هوازن، ومنهم بني سعد بن بكر، مرضعى رسول الله (ص) والشيماء بنت حليمة أخت رسول الله من الرضاعة ـ التي حباها واكرمها وبسط لها رداءه ـ برد سباياهم وقالوا: انما في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك، ولو أنا أرضعنا الحارث بن أبي شمر الغساني أو النعمان بن المنذر لرجونا عطفه، وأنت خير المكفولين!

رد الرسول (ص) سبايا هوازن اليهم وهكذا استطاع في سهوله ويسر ان يتألف هذه القبائل من البدو ويحولها الى الاسلام ثم يسند اليها مهمة التضييق على قبائل ثقيف، حلفائهم في السابق والمحصورين في الطائف. فقام مالك بن عوف النصرى على رأس جموع ثمالة وفهم وسلمه من المسلمين بمحاصرة الطائف، لايخرج لثقيف «مال الانهب، ولاانسان الا أخذ».

ولم يلبث بنو ثقيف أن أدركوا عبث مناوءتهم للرسول (ص)، لقلة عددهم بالنسبة الى عدد المسلمين، وانحياز حلفائهم الي الرسول (ص) وتحولهم الى الاسلام، وخافوا معاودة المسلمين لحصارهم بالطائف. فبعثوا الى الرسول (ص) بالمدينة وفدا يرأسه عبد ياليل بن عمرو بن عمير، فصالحهم على أن يسلموا ويبرهم على مافي ايديهم من الاموال (87).

---

86) ابن هشام : السيرة النبوية ج 2 ص 437 ـ 438، 482

المقريزي : امتاع الاسماع ج 1 ص 401

87) البلاذري : فتوح البلدان ج 1 ص 65، 71

ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 2 ص 268 ـ 269

2 ـ السيطرة على الحدود العربية مع بيزنطة :

استرعت الدعوة المحمدية وقوة المسلمين الناشئة، انتباه حكام الولايات البيزنطية المجاورة. وكان البيزنطيون قد انتزعوا مصر، منذ قريب من ايدي الفرس الذين استولوا عليها في عهد الامبراطور هرقل.

ففي 6 هـ / 628 م بعث النبي (ص)، الرسل الى مختلف الملوك والاباطرة وغيرهم من امراء العرب، فأرسل حاطب بن أبى بلتعة الى المقوقس بمصر، وكان يسمى كورش وهو حاكم مصر البيزنطي الجديد ودعاه العرب «المقوقس» متوهمين أن هذا اللفظ لقب من القاب الحاكم مع أنه اطلق على سبيل التهكم على البطريق الذي كان يضطلع أيام الفتح الاسلامي بالسلطة الزمنية أيضا.

وقبل المقوقس رسالة الرسول (ص) وأجابه بهدايا كثيرة بينها جاريتان أهدى النبي (ص) احد هاتين الجاريتين الى الشاعر حسان بن ثابت الذي أوقف شعره على الاشادة بالاسلام والمسلمين، اما الجارية الاخرى، ماريه القبطية فقد تزوج بها الرسول (ص) وانجبت له ابنه ابراهيم. فكان بذلك الرحم بين العرب وأهل مصر. (88)

أما علاقات المسلمين بالبيزنطيين في سورية فتطورت، على عكس علاقتهم بالمقوقس، تطورا يؤذن باصطدام قريب. فقد بعث النبي (ص) رسوله دحية ابن خليفة الكلبى الى قيصر الروم ونصها:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم، السلام على من اتبع الهدى، اسلم تسلم، واسلم يؤتك الله اجرك مرتين» «وان توليت فان عليك اثم الاريسيين» (89).

وبالرغم من الروايات الاسلامية التي تذكر ميل قيصر الروم الى الاسلام واضطراره الى معاداته بسبب ضغط رجال الدين المسيحي، فلاشك أن امبراطور الدولة البيزنطية ورجال الدين بها اتفقوا على التخلص من هذا الدين الجديد وأتباعه من

88) ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ 2 ص 210، 211
كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص 57 ـ 58
89) ابن واضح : تاريخ اليعقوبي جـ 2 ص 77
ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ 2 ص 212، 213

العرب المسلمين. فقد كانت سياسة الدولة البيزنطية، تجاه شبه الجزيرة العربية، تتميز بالعداء ومحاولة السيطرة، على الممالك والدول والامارات التي نشأت بها، وحينما فشلت في تحقيق سياستها هذه، عملت على قيام الامارة الغسانية على حدودها المشتركة مع قبائل شمال شبه الجزيرة، لتقضي على خطر القبائل العربية البدوية المدمر على بلاد الشام الحضرية.

أ ـ غزوة مؤته (8 هـ/629 م) :

وبالتالي فكان لابد من الاحتكاك الحربي بينهما، خصوصا وأن سياسة الرسول (ص) في تلك المرحلة كانت ترمي الى غزو قبائل البدو في شمال بلاد العرب. ففي سنة 7 هـ/629 م بعث محمد (ص) الحارث بن عمير الأزدي رسولا الى قائد قلعة بصرى، شرقي الاردن فاعتقل وقتله شرحبيل بن عمرو الغساني أمير مؤته، كما قام الروم بقتل فروه ابن عمرو الجذامي عاملهم على معان وماحولها بعد أن بلغهم اسلامه (90).

جهز الرسول (ص) سرية عدتها ثلاثة آلاف رجل في جمادى الاولى من سنة 8 هـ ونصب عليها زيد بن حارثة ابنه بالتبني قائدا وان أصيب زيد، فجعفر بن أبي طالب، فان أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة.

وزحفت جيوش امارة غسان حليفة بيزنطة لقتال المسلمين، والتقى الجيشان على مسافة بضعة اميال شمالي المدينة، فنشبت بين الفريقين معركة كان النصر فيها حليف المؤمنين.

ثم انهم اندفعوا الى الشمال حتى بلغوا معان، فبلغهم أن بيزنطة حشدت لهم مائة ألف من جند الروم ومائة الف من القبائل العربية الشمالية، من لخموجذام وبلقين وبلى بقيادة مالك بن رافلة البلىّ وانحاز الجيش البيزنطي بقيادة البطريق

---

(90) ابن حزم : جوامع السيرة ص 220

ويذكر بعض الباحثين ان السبب الجوهري لهذه الحملة هو حصول المسلمين على السيوف المشرفية (نسبة الى مشارف الشام) التي كانت تصنع في مؤته ونواحيها ليسلح الرسول (ص) بها اتباعه يوم الهجوم الموعود على مكة.

انظر الواقدي : كتاب المغازي ص 425 ومابعدها

البلاذري : فتوح البلدان ص 59.

أي القائد ثيودوروس الى قرية مشارف من أرض البلقاء، وأنحاز المسلمون الى قرية مؤته قرب الطرف الجنوبي من البحر الميت.

وبالرغم من مبالغة المؤرخين المسلمين في عدد الجيش البيزنطي الا أن الجيش البيزنطي كان يفوق عدد المسلمين الى حد بعيد ، بدليل أن بعض قادة المسلمين اقترح عدم مواجهة الروم والكتابة الى الرسول (ص)، ولكن البعض الآخر فضل الدخول الى المعركة، وكانت غير متكافئة، على الرغم من شجاعة المسلمين البالغة وقتل زيد بن حارثة فحل محله جعفر بن أبي طالب فقتل، فحل محله عبد الله بن رواحة فقتل أيضا.

أصبح المسلمون بدون قائد وساءت حالة الجند فأخذ الراية ثابت بن أرقم الانصاري وقال : يامعشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم فقالوا: رضينا بك فقال : ما أنا فاعل . فأخذ الراية خالد بن الوليد الذي عرف بشجاعته ومكيدته في فتح مكة وفي هذه الموقعة . التي انقطع فيها في يده تسعة أسياف ، وهو يعتبر من القواد الافذاذ الذين لم يعرف لهم التاريخ مثيلا من قبل . وأفرغ جهده في تخليص المسلمين ، بعد أن نهكهم التعب ، وصار ينسحب بهم ببطيء وروية الى المدينة .

ولما رجع الجيش الى المدينة، قام الناس يحثون التراب على الجيش ويقولون: يافرار يافرار!. ويقول رسول الله (ص) : ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار ان شاء الله تعالى (91).

وحاول الرسول (ص) أن يخفف من الاثر المسيء لهزيمة مؤته على عامة المسلمين، فوجه ، بعد مدة وجيزة، عمرو بن العاص لقتال البدو في الصحراء الشمالية فأبلى عمرو بلاء حسنا، ودخلت معظم هذه القبائل في الاسلام في العام نفسه (92).

---

91) ابن هشام : السيرة النبوية ج 2 ص 378، ابن حزم :جوامع السيرة ص 221، ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 2 ص 234 ـ 238 محمد الخضري : محاضرات تاريخ الامم الاسلامية (الدولة الاموية) ج 1 ص 128 ـ 129 ، عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية 1 : 149

92) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص 59.

ب ـ غزوة تبوك (9 هـ/630 ـ 631 م)

اما الثأر لهذه الهزيمة التي انزلها البيزنطيون بجيوش المسلمين ؛ الرسول في رجب من السنة التاسعة بالمدينة، الاستعداد لقيادة حـ البيزنطيين، اذ «بلغه أن هرقل ملك الروم ومن عنده من متنصرة العرب ؛ على قصده».

بالرغم من أن الحر كان شديدا في فصل الصيف هذا، والبلاد مجدبه في عسره، وكانت الثمار على وشك أن تطيب وأحبوا المقام لجني ثمارهـ تجهزوا وكان على كره فكان ذلك الجيش يسمى «جيش العُسْرة» (93).

ولايعرف على اليقين مالذى دعى الرسول (ص) الى القيام بهذه الـ ذلك الوقت العصيب بالذات، فقد يكون قصد الى أن يشغل الانصار الذ؛ لايزالون في حال من عدم الارتياح بعد توزيع غنائم «حنين» فقد اعطـ وقبائل العرب ولم يعط الانصار شيئا حتى قال قائلهم لقي قومه فأجاب (ص) تألفت بها قوما ليسلموا ، ووكلتكم الى اسلامكم. أم لعله كان يرجو مابقي من نصارى العرب، الذين كانت بيزنطة من ورائهم، تمدهم وتساند؛ من خروجه في هذا الصيف الساخن أن يفاجئهم قبل أن يفاجئوه.

وخرج الرسول (ص) بجيش عظيم يبلغ عدد رجاله ثلاثين الفا وز الشمال حتى بلغ تبوك وهي واحة تزهو بما ينبت فيها من حنطة ونخ الحدود البيزنطية، حيث أقام بجنده بضع عشرة ليلة.

---

93) ابن هشام : السيرة النبوية ج 2 ص 517، البلاذري : فتوح البلدان ج 1 ص 71 ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 2 ص 277.

وهناك جاءه صاحب أيله (العقبة) عند الطرف الشمالي الشرقي من جانب البحر الاحمر الأيمن، وكان نصرانيا، فأقسم له يمين الطاعة (94). فمنح الرسول (ص) نصارى تلك المنطقة حرية العبادة مقابل تعهدهم باداء الجزية. فبلغت جزية أهل ايله ثلاثمائة دينار وكل من أهل أذرح وجرباء مائة دينار لكل منهما كل رجب، وأهل مقنا اليهود ربع أشجارهم وسلاحهم وثمارهم.

وبعث الرسول (ص)، خالد بن الوليد على رأس فرقة من المسلمين الى أكيدر ابن عبد الملك الكندي النصراني صاحب دومة الجندل، فقبض عليه وحقن الرسول (ص) دمه وصالحه على الجزية وخلى سبيله.

هكذا اخضع الرسول (ص) شمال الحجاز وباديتها من نصارى ويهود حتى لايتمكن اهلها من اعانة الروم على غزو العرب وعاد الى المدينة في رمضان سنة تسع من الهجرة (95).

3 ـ وفود القبائل وحجة الوداع 10 هـ ووفاة الرسول (ص) :

وبعد أن رجع الرسول (ص) الى المدينة في العام التاسع للهجرة اخذت الوفود تقبل عليه من جميع القبائل البدوية تقريبا، معلنة اسلامها طوعا واختيارا

---

94) فكتب ليحنه «بسم الله الرحمن الرحيم، هذه امنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنّه بن رؤبة واهل أيله سفنهم وسياراتهم في البر والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبي ومن كان معه من أهل الشام وأهل البحر فمن احدث منهم حدثا فانه لايحول ماله دون نفسه وانه طيب لمن أخذه من الناس وانه لايحل أن يمنعوه ماء يردونه ولاطريقا يريدونه من بر أو بحر»

انظر محمد الخضري : محاضرات الامم الاسلامية ج 1 ص 133

95) البلاذري : فتوح البلدان ج 1 ص 71 ـ 73

المقريزي : امتاع الاسماع ج 1 ص 465، 468

ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 2 ص 280 ـ 282

ولم يضطر الرسول (ص) في هذه الفترة، الا في القليل النادر، الى أن يشن حملات تأديبية بسبب الاعتداء على رسله الدعاة أو رسله المرسلين لاستلام الزكاة أو الجزية. ولذلك سميت السنة التاسعة «سنة الوفود».

وبالرغم من دخول الكثير من هذه القبائل في الاسلام اذعان لمقتضيات الظروف وليس عن عقيدة وايمان اذ لم يكن الاسلام يطالب المنضوين اليه الا الشهادة وتأدية الزكاة، الا انه بمرور الوقت، حسن اسلامهم، وتعمق بعضهم في الدين وكانوا سيوف الاسلام خلال انتشاره عبر الجزيرة العربية الى البلدان المجاورة.

وكانت القبائل والانحاء التي لم ترسل ممثليها قبلا، تسرع الان في ارسال وفودها من أقاصي عمان وحضرموت واليمن وبينهم ممثلو طيء وهمدان وكنده، وأقبل عدد من القبائل التي لم تكن قد اذعنت لرجل واحد من قبل تقدم الطاعة لمحمد (ص) وتعلن له الاسلام.

حتى بعض النصارى في بلاد العرب الشمالية نزلوا عن دينهم في سهوله ويسر، على الرغم من أن كنيسة نجران في جنوبي بلاد العرب والتي سبق لها أن برهنت عن تعلقها بايمانها خلال فترة الاضطهاد العنيف في ظل أحد ملوك اليمن اليهود. وفد رؤسائهم على الرسول (ص) منهم: العاقب والسيد وعبد المسيح فدارسوه وساءلوه ودعاهم الى الاسلام «فصالحوه على الفي حلة ثمن كل حلة أربعون درهما، وعلى أن يضيفوا رسل رسول الله (ص)، وجعل لهم ذمة الله تعالى وعهده الا يفتنوا عن دينهم ولايعشروا، وشرط عليهم أن لايأكلوا الربا ولايتعاملوا به» (96).

---

96) وكتب لهم رسول الله (ص) كتابا: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من النبي محمد رسول الله لنجران وحاشيتها اذ كان له عليهم حكمه في كل بيضاء وصفراء وثمرة ورقيق كان أفضل ذلك كله لهم غير الفي حُلة من حُلل الاواقي قيمة كل حلة أربعون درهما، فمازاد أو نقص فعلى هذا الحساب الف في صفر والف في رجب، وعليهم ثلاثون دينارا مثواة رسلي شهرا فما فوق. وعليهم في كل حرب كانت باليمن دروع عارية مضمونة لهم بذلك جوار الله وذمة محمد، فمن أكل الربا منهم بعد عامهم هذا فذ متي منه بريئة ولايؤخذ احد بجانبة غيره» أنظر ابن واضح : تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 83 وقارن ماأورده ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 2 ص 293 ـ 294.

والحق أن النبي (ص) انتهى، في هذه الفترة، الى أن يبسط سلطته الجازمة على رقاع واسعة من بلاد العرب. وانما يتجلى لنا ذلك من اعتراف معظم الشعراء الكبار، من تلك الفترة، بسلطانه.

فالشعراء لم يكونوا في العهد الوثنى مفخرة قبائلهم فحسب بل كانوا يلعبون ادوارا سياسية هامة أيضا، عن طريق مقدرتهم البيانية. ولقد دخل في الاسلام اثنان من أشهر شعراء ذلك العصر، هما لبيد والاعشى.

وكان لبيد قد حظي بشهرة واسعة، حتى في أيام شبابه، كناطق بلسان قبيلته، كلاب، احدى قبائل هوازن. ولقد كان في جملة أعضاء الوفد الذي وجهته تلك القبيلة الى المدينة 9 هـ/631 م، ليفاوض في مسألة الانضمام الى الجماعة السياسية الجديدة، وفي ذلك الحين اعلن اسلامه. والواقع ان قصائد لبيد كانت تتميز دائما بنفحة دينية، فلما اسلم غلبت على شعره مسحة الدين، فجاء نموذجا للشعر الديني الاسلامي.

أما الاعشى الذي جاب أطراف بلاد العرب كلها كشاعر طواف يتكسب بشعره المدحي، ينظمه في الامراء المختلفين، فقد مدح النبي (ص) في قصيدة عصماء، وان تكن صحة روايتها، كما وصلت الينا، موضعا للاعتراض.

ولم يكن النبي (ص)، في اعماقه، شديد الميل الى شعرهما، باعتبار ان الشعر من أجمل مظاهر الحياة الوثنية القديمة. صحيح أنه هو نفسه قد مال الى حسان بن ثابت الذي رد على بلغاء البدو في اسلوبهم نفسه، ولكنه كان شديدا على الشعراء الذين يجرأون على تسخير شعرهم للاساءة الى الاسلام.

وكان كعب بن زهير – وزهير هذا من أعظم الشعراء في الجاهلية. يحيا آنذاك مع قبيلة مزينة. وكان قد ورث فن ابيه الشعري، ولاحظ في كراهية انتشار الدين الجديد، الذي نفذ بتكاليفه الكثيرة نفاذا عميقا الى تقاليد الحياة. فلما دخل اخوه بجير في الاسلام ازداد غما على غم، وأطلق لمشاعره العنان، في قصيدة ساخرة مريرة.

ولم يكن في وسع النبي (ص) أن يترك كعبا بلاعقاب، فأهدر دمه، فهو في خطر دائم الى ان يوفق لنيل العفو من الرسول، ثم انه تاب واسلم وأفرغ براعته

الفنية في قصيدة عصماء مدح بها سيد العالم الجديد، رسول الله (ص) وقصد الى المدينة فوفق الى دخولها سالما، وراح يلتمس الوسيلة للمثول بين ايدى الرسول (ص)، فحظي آخر الامر بذلك. وعلى الرغم من أن قصيدته كانت مطبوعة على غرار الشعر القديم تماما، فقد تركت اثرا عميقا في الرسول (ص) حتى لقد خلع عليه برده الخاصة، وكانت البردة في بلاد العرب، كثيرا ماتقدم جائزة للشعراء والمغنين.

والواقع ان كعباً كان شديد الاعتزاز بالهدية النبوية فرفض النزول عنها، حتى عندما قدم له الخليفة معاوية، بعد، عشرة آلاف درهم فيها، فكان على معاوية أن ينتظر حتى يتوفى كعب فيشترى البرده المباركة من ورثته، ومن ذلك الحين صارت تحفظ في خزانة امير المؤمنين، بوصفها احدى النفائس الغالية التي تضمها هذه الخزانة، في دمشق أولا، ثم في بغداد حتى 1258 (97).

وكان على الوثنية أن تخسر، وشيكا آخر معاقلها، فبعد فتح مكة تحمل النبي صابرا، أول الامر، الاحتفال بموسم الحج على الطريقة الوثنية القديمة.

وفي سنة 9 هـ أرسل ابا بكر من المدينة الى مكة كأمير للحاج ولعله قصد بذلك الى أن يتجنب شهود الاساليب الشائعة هناك، فيكون في شهوده لها معنى اقرارها. حتى اذا فرغ الناس من حجهم وانتهوا الى منى، تلا عليهم علىُ بن أبي طالب، بأمر من الرسول (ص)، نصا شرعيا لايزال محفوظا في مطلع السورة التاسعة من القرآن الكريم (98) وبه تبرأ النبي، نهائيا، من المشركين فلن يجوز، منذ اليوم، لكائن غير مؤمن ان يؤدي الحج داخل المنطقة المحرمة، اما العهود التي عقدها النبي (ص) مع المشركين فتظل سارية حتى تستوفى آجالها المتفق عليها، شرط أن يلتزم المشركون نصوصها في دقة. اما من لم يكن لديه عهد من الرسول (ص) فليس له الا أن يختار الاسلام، أو القتال حتى الموت. وكان للوثنيين أن ينقلبوا الى منازلهم، آمنين مطمئنين، الى ختام الاشهر الحرم، فاذا انسلخ الاشهر الحرم فعندئذ يتعين

---

97) ابن الاثير: الكامل في التاريخ جـ 1 ص 488، 520، 605، 621
جـ 2 ص 77، 226، 247، 289، 274 ــ 276 ،
كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الاسلامية ص 63 ــ 64
98) القرآن الكريم: سورة التوبة (9) آيات 1 ــ 9.

على المسلمين أن يقاتلوهم حيث وجدوهم. والحق ان هذه البراءة كانت فعالة. فلم يضطر المسلمون، الا في الاحوال النادرة، الى أن يلجأوا الى اصطناع القوة ضمن بلاد العرب نفسها.

وفي أواخر السنة العاشرة للهجرة، أصبح في وسع محمد (ص) ان يعتبر أن رسالته في بلاد العرب قد تحققت وللدلالة على ذلك حج الى مكة مع نسائه جميعا وعدد عظيم من المؤمنين، حجة الوداع، ويعتبر المسلمون هذه الحجة، الى اليوم، نموذجا يحتذونه في أداء الشعائر المقدسة اداء صحيحا، والمفروض أن محمدا (ص) القى في اليوم الثاني أو الثالث خطبة في الناس أحدث فيها، بصورة خاصة، تقويما قمريا يتألف من اثنى عشر شهرا، وفرض فرائض الاسلام الأساسية على المؤمنين.

ولم يكد الرسول (ص) يقضي حجة ويرجع الى المدينة حتى وصلت بعض الانباء المقلقة في أواسط بلاد العرب، وفي اقصى الجانب الشرقي من الجزيرة ومع ذلك فقد اراد الرسول (ص) ان يوجه حملة جديدة ضد البيزنطيين بقيادة اسامة ابن زيد، ابن قائد غزوة مؤتة الذي قتل، وخلال ذلك مرضَ الرسول (ص) في أواخر صفر 11هـ وما هي الا فترة قصيرة حتى استأذن نساءه، وكان يبيت عند كل منهن ليلة، أن يتمرض في بيت زوجه المفضلة، عائشة، ثم انه اضطر بعد ان حث المؤمنين الذين اثارهم اختيار أسامة الشاب لرئاسة الحملة، على الطاعة، الى ان يتخلى عن الصلاة بالناس، وان يعهد بذلك الى حميه وصديقه القديم ابي بكر وفي 13 ربيع الاول سنة 11هـ / 8 يونيه 632م توفي الرسول (ص) (99).

---

99) ابن هشام : السيرة النبوية ج 2 ص 644
ابن سعد : الطبقات الكبرى ج 2 ص 231
ابن حزم : حجة الوداع، ص 197
ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 2 ص 302، 323
اسد الغابة في معرفة الصحابة ج 1 ص 52
المقريزي : امتاع الاسماع ج 1 ص 542.

الباب الثالث

الخلفاء الراشدون
(11 هـ ـ 40 هـ)

أولا : الخلافة ومؤتمر السقيفة في 11 هـ / 632 م ونتائجه
ثانيا : حركة الردة وأسبابها وتطورها ونتائجها.
ثالثا : الفتوحات الاسلامية في عصر الراشدين
رابعا : ادارة الدولة الاسلامية والمناطق المفتوحة.
خامسا : عثمان والفتنة.
سادسا : خلافة علي والصراع على الخلافة

الخلفاء الراشدون

أولا : الخلافة ومؤتمر السقيفة في 11هـ / 632م ونتائجه :

جمع الرسول (ص) في شخصه، وظيفتان، الأولى وظيفة الرسول (ص) خاتم النبيين والمبلغ عن الله بحكم الرسالة التي اختير ليقوم بأدائها وهي بطبيعتها غير قابلة للإنتقال الى خلف يرثها عنه. والثانية تشمل الامامة والقضاء وقيادة الجيش والرياسة المدنية في الامة وبعد موت الرسول (ص) فإلى من تُؤول هذه الوظيفة الثانية؟

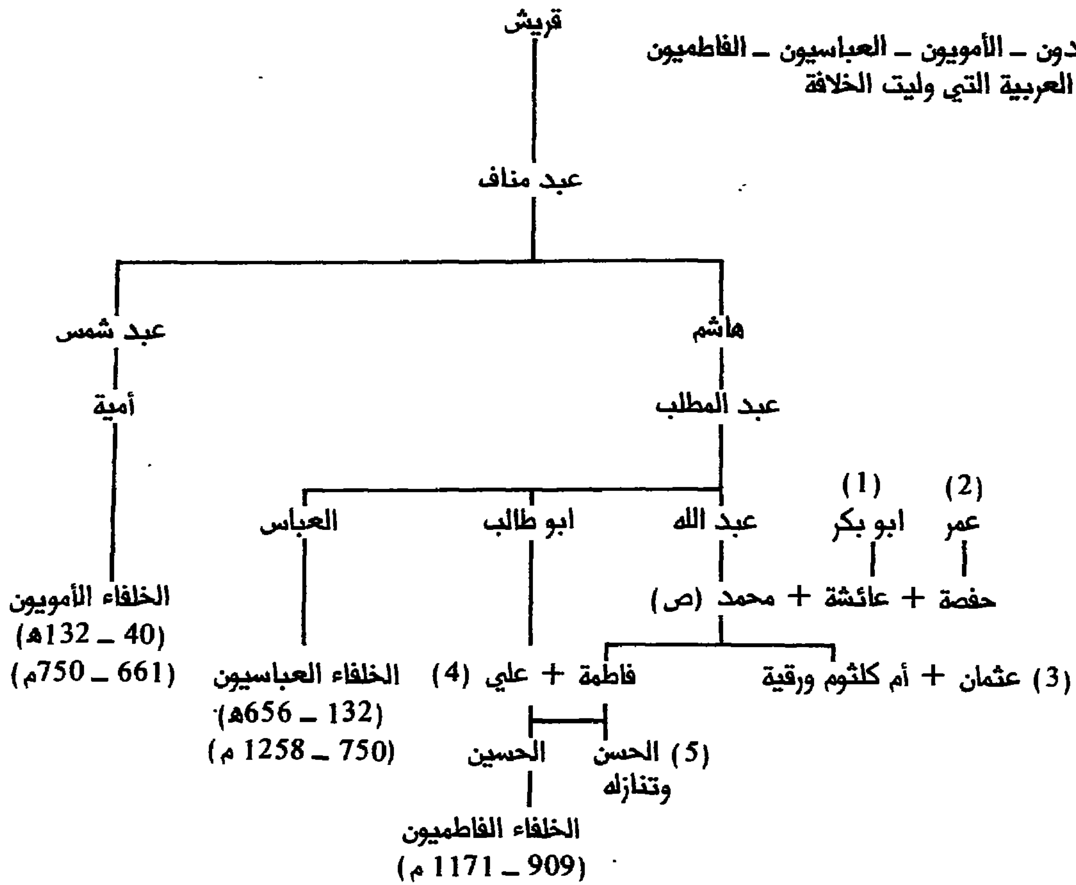
لم يترك النبي (ص) ذرية من الذكور ولا من الاناث ما عدا ابنته فاطمة زوجة علي بن أبي طالب أما الزعامة أو المشيخة عند العرب فلم تكن وراثية تماما، بل كانت في الغالب انتخابية تنتقل إلى أكبر القبيلة سنا. ونظرا لعدم تعيين الرسول (ص) خلفا له أصبحت الخلافة الإسلامية من أقدم المعضلات التي واجهها المسلمون وأعصاها ولم يوجد بين الأمة الاسلامية شيء تشعبت فيه الآراء وأختلفت الكلمة بمقدار ما كان منها في الخلافة. (1)

وبعد وفاة الرسول (ص) ظهرت عدة أحزاب متضاربة، كل منها يتطلع الى خلافة الرسول (ص) ويعتقد أنه أحق من غيره.

---

1) استمرت مشكلة الخلافة الاسلامية حتى العصر الحاضر وفي سنة 1924 الغى كمال اتاتورك زعيم تركيا الخلافة العثمانية في الاستانة واقصى عبد المجيد الثاني اخر الخلفاء العثمانيين. ثم عقدت عدة مؤتمرات اسلامية في القاهرة ومكة لبحث مسألة الخلافة وتعيين من أحق الناس بها. ولكنها لم تصل الى نتيجة وقد صدق الشهر ستانى اذ قال :« وأعظم خلاف بين الامة خلاف الامامة اذ ما سل في الاسلام على قاعدة دينية مثل ما سل على الامامة في كل زمان » انظر الشهر ستاني، الملل والنحل ص 12.

الراشدون ـ الأمويون ـ العباسيون ـ الفاطميون
الأسر العربية التي وليت الخلافة



فحزب المهاجرين وهو حزب أهل قريش نادى بتخصيص الخلافة في قريش على اختلاف بطونهم فهم أول الداخلين الى الإسلام والسابقين إليه والمهاجرين بدينهم من الضلال والفتنة، متحملين في ذلك فراق أهلهم وأولادهم، وعلى رأس هذا الفريق أبـا بكر الصديقـ والد عائشة زوج الرسول (ص)ـ وعمر بن الخطاب وأبى عبيدة بن الجراح.

كما نادى البعض الآخر بتخصيص الخلافة في البيت القرشي ولكن باقتصارها على القرابة القريبة من الرسول (ص) ونادى هذا الحزب بالنص والتعيين وبأنه لايجوز التسليم بأن الله ورسوله يضعان جماعة المؤمنين تحت رحمة الانتخاب والمبايعة وتزعم هذا الحزب العباس بن عبد المطلبـ عم الرسول صـ وعقيل وعلى أبناء أبي طالبـ من بني عمه ـ وتميز علي بن أبي طالب عليهم بسبقه الى الإسلام وتضحيته بنفسه يوم تآمرت قريش على الرسول (ص) لقتله قبل هجرته ونومه في مكان الرسول (ص) واشتراكه في جميع غزواته، وزوج ابنته فاطمة، ولكن علي بن ابي طالب رغم تطلعه الى الخلافة، لم يملك من القوة أو من النفوذ ما يساعده على تحقيق هدفه (2).

أما حزب الانصار من أهل يثرب فقد قال فيهم الرسول (ص) يوم أتوه محتجين بسبب توزيع الرسول (ص) غنائم حنين على قريش بهدف استئلافهم، دونهم فقال الرسول (ص) على لسانهم: «أتيتنامكذبا فصدقناك، ومخذولا فنصرناك، وطريدا فآويناك، وعائلا فواسيناك» ثم خاطبهم« أفلا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله الى رحالكم؟ والذي نفسى بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الانصار، ولو سلك الناس شعبا وسلكت الانصار شعبا لسلكت شعب الانصار، اللهم ارحم الانصار وأبناء الانصار وأبناء أبناء الأنصار».

وعند مرض الرسول (ص) والقائه خطبة الوداع، أوصى الرسول (ص) بالانصار فقال :« يامعشر المهاجرين أصبحتم تزيدون وأصبحت الأنصار لاتزيد، والأنصار عيبتى التي أويت اليها، فأكرموا كريمهم وتجاوزوا عن مسيئهم».

---

(2) ابن واضح : تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 123 ـ 126، محمد الخضري : محاضرات تاريخ الامم الاسلامية (الدولة الاموية) ج 1 ص 158 ـ 159.

ولذلك فقد تطلع سعد بن عبادة الخزرجي سيد الانصار، الى الخلافة ورأى الانصار عدم تخصيص الخلافة ببيت من البيوت، وأخذ بهذا الرأي من بعدهم جميع الخوارج، بعد ان توسعوا في الرأي اعتمادا على القرآن الكريم «ان اكرمكم عند الله أتقاكم» (3).

اجتمع الأنصار بسقيفة بنى ساعدة بن كعب من الخزرج وكانت مجاورة لسوق المدينة وهي عبارة عن مظلة كبيرة، أعتاد أهل المدينة الاجتماع إليها والتشاور في شئونهم الخاصة والعامة، فهي ناد يشبه دار الندوة لدى قريش في مكة، وما أن أوشك الانصار على اختيار سعد بن عبادة أميرا على المؤمنين، حتى تسلل بعض الانصار بدافع من الصراع بين الأوس والخزرج، الى المهاجرين وأخبروهم خبر الانصار في السقيفة.

فأسرع أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح الى الانصار في السقيفة حيث دارت المناقشات بين المهاجرين والانصار حول أحقية كل منهم بالخلافة واقترح أبو بكر قائلا:« نحن الامراء وأنتم الوزراء لاتفتاتون بمشورة ولاتقضى دونكم الامور» فأجابه الحباب بن المنذر الخزرجي: «منا أمير ومنكم أمير» فقال ابو بكر:«لا ولكننا الأمراء وأنتم الوزراء... لن يعرف هذا الأمر، الا لهذا الحي من قريش، هم أوسط العرب دارا وأعرابهم أحسابا» ......«هذا عمر وهذا أبو عبيدة: فأيهما شئتم فبايعوا». فقال عمر: «لا والله لانتولى هذا الأمر عليك فإنك أفضل المهاجرين وثاني اثنين اذ هما في الغار وخليفة رسول الله على الصلاة، والصلاة أفضل دين المسلمين فمن ذا ينبغي له ان يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك، أبسط يدك نبايعك».

فلما ذهب عمر وأبو عبيدة ليبايعاه، سبقهما اليه بشير بن سعد الانصاري فبايعه، فناداه الحباب بن المنذر «أنفست على ابن عمك الامارة؟» فقال: «لا والله

---

3) ابن الاثير: الكامل في التاريخ ج2 ص 271 ـ 272 ـ 319.

ولكنني كرهت أن أنازع القوم حقهم» (4).

وحسم بشير ببيعته هذه مصير الصراع بين كل من المهاجرين والأنصار من جهة وبين كل من الأوس والخزرج من جهة ثانية؛ فأزدحم الناس على البيعة حتى لقد وطئوا سعد بن عبادة بأقدامهم وأقبلت قبيلة أسلم بجموعها فبايعوا أبا بكر وأقبل الناس من كل جانب يبايعون أبي بكر، ولم يمتنع عن مبايعته غير سعد بن عبادة المرشح الاول للخلافة من الأنصار وكان مريضا فنقل من السقيفة الى بيته، وكذا علي بن ابي طالب وبنو هاشم والزبير لمدة ستة أشهر، حتى ماتت فاطمة ابنة الرسول (ص) فبايعوه (5).

وترتب علي مؤتمر السقيفة عدة نتائج اثرت في تطور التاريخ الاسلامي بعد ذلك تتمثل في :

أ- ارساء مبدأ الشورى التي بدت واضحة في مبايعة أبي بكر، اذ عرضت مشكلة الخلافة على بساط البحث بين الانصار والمهاجرين وأدلى كل منهم برأيه في الموضوع وأنتهى البحث بالميل الى رأي المهاجرين فبويع أبي بكر وقد ظلت الشورى كمبدأ في بيعة الخليفة طوال دولة الخلفاء الراشدين والدول التي تلتهم وان تطورت بتطور العصور. فنراها في عصر الملك الوراثي خلال دولتي الامويين والعباسيين مسألة رسمية شكلية يتظاهر الملوك بالعمل بها لا أكثر بينما الحقيقة تتمثل في استبداد الاسرة الحاكمة بالسلطة ونبذ الشورى.

ب - كذلك سنت السقيفة مبدأ الانتخاب المباشر لاصلح الموجدين من كبار رجال الدولة وقد عمل بهذا المبدأ أيام الاربعة الراشدين، وترك بعدهم مباشرة فلم تعمل به أسرة من الاسر التي حكمت المسلمين بوجه عام.

---

4) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج3 ص 208، ابن الربيع: تيسير الوصول (باب الخلافة) ج2 ص 2، عبد الحميد بخيت: عصر الخلفاء الراشدين ص 48 - 51.

4) ويروى أنه حينما ارسل الى سعد بن عبادة بداره ليبايع كما بايع الناس انه قال «لاوالله حتى ارميكم بما في كنانتي، وأخضب سنان رمحى، وأضرب بسيفى. وأقاتلكم باهل بيتي ومن اطاعني، ولو اجتمع معكم الجن والانس مابايعتكم حتى اعرض على ربي».

انظر ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 2 ص 331.

ج ـ كذلك مبدأ البيعة، وهي أن يصافح الناس أميرهم علامة على الرضا بإمارته وقد ظل هذا المبدأ، وتطور مع مرور الزمن وظهور كل من الدولة الاموية والعباسية، بيد أنه ظل على كل حال.

د ـ ومما سنته السقيفة، ان يتقدم رئيس الدولة بخطاب بعد مبايعته الى عامة المسلمين، يبين فيه منهجه وخطته في الحكم ليطمئن اليه الناس ويعرفوا مسلكه في الحكم (6) فأبى بكر يخطب الناس بقوله: «أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم، فان احسنت فأعينوني، وان أسأت فقوموني، الصدق أمانة والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى اخذ له حقه، والقوى ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق، إن شاء الله تعالى لايدع احد منكم الجهاد فإنه لايدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل، اطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم (7).

وقد ظل مبدأ خطبة الخليفة بعد بيعته معمولا به طوال التاريخ الاسلامي وحتى الآن نجد رؤوساء الدول الاسلامية يتقدمون الى شعوبهم ببرنامج لاعمالهم المقبلة بعد انتخابهم سواء بطريق مباشر او غير مباشر، وهذه السنة قديمة وجدها الاسلام عن الامم السابقة ولم يفسخها بل أقرها وسار المسلمون عليها.

هـ ـ وأهم هذه النتائج نشوء الفرق الاسلامية، فقد نشأ بين كبار الصحابة، منذ بدأت مشكلة الخلافة، حزب نقم على الطريقة التي انتخب بها الخليفة الاول، الذي لم يراع في انتخابه درجة القرابة من اسرة الرسول (ص)، وقد فضل هذا الحزب بسبب هذا الاعتبار، أن يختار للخلافة عليا بن أبي طالبوأطلق على هذا الحزب « الشيعة» وفي الجانب الاخر كانت أغلبية المسلمين المبايعين لابي بكر وعرفوا بعد ذلك بأهل السنة والجماعة.

ونتيجة للصراع بين كل من«الشيعة» وأهل «السنة» ان ظهر فريق ثالث أطلق عليه «الخوارج» وأتفق الخوارج مع مبادئ الانصار اذ اعتقد الخوارج بالمبدأ

---

6) عبد الحميد بخيت: عصر الخلفاء الراشدين ص 54 ـ 55.

7) ابن الاثير: الكامل في التاريخ ج2 ص332.

الجمهوري المحض بينما طالب الانصار بصرف الخلافة عن قريش لتكون في أهل المدينة دون سواهم.(8).

ثانيا : حركة الردة وأسبابها وتطورها ونتائجها :

وتلى البيعة الخاصة في السقيفة، بيعة عامة المسلمين بمسجد الرسول (9) وأستمرت خلافة ابى بكر من ربيع الاول 11هـ / 632م الى جمادى الاخر 13هـ/634م لمدة سنتين وأربعة شهور وهي فترة قصيرة شغلته فيها حركة الردة، التي بدأت تباشيرها في أواخر أيام الرسول (ص) وخلال فترة مرضه.

ففي المحرم من سنة 11هـ قرر الرسول (ص) إرسال حملة الى الشام بقيادة مولاه وابن مولاه أسامة بن زيد بن حارثة وذلك للانتقام من البيزنطيين الذين هزموا المسلمين في غزوة مؤتة وقتلوا قائدها زيد بن حارثة، ولكن نتيجة لمرض الرسول (ص) في أواخر صفر من نفس العام ووصول الاخبار بإرتداد عَنْس بطن من قبيلة مذحج باليمن بزعامة الاسود العنسى وأسمه عبهلة بن كعب بن عوف العنسي وكان يلقب ذا الخمار لانه كان معتما متخمرا أبدا.

ادعى الاسود العنسى النبوة حينما بلغه مرض الرسول (ص) فأتبعته قبيلة مذحج، فغزا نجران. ثم زحف الى صنعاء وتمكن من السيطرة على منطقة واسعة تمتد من حضرموت جنوبا الى الطائف شمالا ومن البحرين والاحساء شرقا الى عدن غربا

---

8) ابن العبرى، تاريخ مختصر الدول ص 96 ـ 98. اجناس جولد تسيهر، العقيدة والشريعة في الاسلام ص 189 ـ 191.

عبد الحميد بخيت : عصر الخلفا ء الراشدين ص 55.

9) من الجدير بالذكر أن بعض المستشرقين أمثال بروكلمان ولامانس ومن تابعهم من المؤرخين العرب مثل فليب حتى وغيره يذكرون أن ابا بكر تولى الخلافة نتيجة اتفاق أو تآمر ثلاثي بين أبي بكر وعمر وابي عبيدة الجراح« أصحاب محمد (ص) السابقون» والمتمتعين بنفوذ كبير في عهد محمد (ص).

وابلغُ رد على مثل هذه الاستنتاجات الغير علمية هو النظر في سيرة كل من ابي بكر وعمر قبل الاسلام وبعده وعلاقة كل منهما بالرسول (ص) وموقف كل منهما من قضايا المسلمين.

انظر كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الاسلامية ص 83.

فليب حتى: تاريخ العرب جا ص 191.

عبد الحميد بخيت ،عصر الخلفاء الراشدين ص 63 ـ 66، وما بعدها.

وأستتب الأمر له باليمن بعد قتله واليها شهر بن باذان للرسول (ص) وتزوجه بأمرته ولكن تمكن مسلمو حضرموت وزوجة شهر السبية من التخلص من الاسود وقتله بعد أن استمرت حركته لمدة ثلاثة شهور.

غير أن قتل الأسود لم يقض على حركته، فقد جند هذا الرجل كثيرا من عرب اليمن، منهم فرقة من الفرسان بلغ عددها سبعمائة فارس مجهزة بأحدث الاسلحة اثارت الذعر فيما بين صنعاء ونجران.

وكذا ارتدمسيلمة زعيم قبيلة بني حنيفة باليمامة وادعى انه شريك للرسول (ص) في النبوة وارسل الى الرسول (ص) قائلا: «لنا نصف الارض ولقريش نصفها». فكتب اليه الرسول (ص) : بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى مسيلمه الكذاب، أما بعد فالسلام على من اتبع الهدى. فان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين» (10).

1 ـ اسبـــاب الـــردة :

وبعد وفاة الرسول ازداد أمرمسيلمة كما اجتاحت بلاد العرب موجة من الارتداد ما لبثت أن طغت على معظم اقاليمها ، فما هيالاسباب والدوافع التي ادت الى ظهور حركة الردة في بلاد العرب؟ يمكن تلخيص هذه الاسباب كالاتي :

ا ـ الواقع ان خطوط الاتصال بين انحاء الجزيرة كانت يومئذ صعبة قليلة كما أن وسائل نشر الدين الاسلامي وبث دعوته اعتمدت على ارسال الرسول لافراد من المهاجرين او الانصار الى القبائل التي رغبت في الاسلام ولم يتسع الوقت لإكتساب الاتباع المسلمين عن إقناع كامل، عوضا عن أن أغلبية القبائل البدوية كانت منافقة ولم تتحول الى الاسلام إلا ظاهرا فقط.

كما يجب أن لاننسى أن اقليم الحجاز حيث ولد الإسلام وانتشر لم يعمه الدين الا قبل موت الرسول (ص) بسنة أو سنتين.

---

10) ابن الاثير: الكامل في التاريخ ج2 ص 298، 341،336،317،300.

ب ـ كما ان الوفود التي انهالت الى المدينة بعد فتح الرسول (ص) مكة واستيلائه على الطائف، معلنة الاسلام، اقتصر الاسلام على هذه الوفود وزعماء القبائل فقط، ولم يرسخ في عامة قبائلهم مثل وفد قبيلة بني تميم أصحاب «سجاح» الذين وفدوا على الرسول ليفاخروا وينافروا.

ج ـ تأصل الروح القبلية في نفوس العرب، فقد كان المسلمون في حياة الرسول ينتمون الى قبائل شتى وبطون مختلفة ومتعددة ومتباينة وكان الى جانب هذا اخلاط من اليهود والمنافقين، فلما توفي الرسول (ص) اثيرت الاحقاد العربية القبلية وأذكت روح المنافسة القديمة بين قبائل العرب وفي خلال حركة الردة لقبائل أسد وطئ وغطفان قرب نجد بزعامة طليحه بن خويلد الاسدي المتنبئ في أواخر حياة الرسول (ص) واتساع حركته بعد وفاته حيث تبعه كثير من العرب عصبية ولهذا كان اكثر أتباعه من أسد وعطفان وطئ. وحتى قال عيينة بن حصن: نبي من الحليفين، يعني أسدا وغطفان، أحب الينا من نبي من قريش، وقد مات محمد «ص» وطليحة حي (يقصد طليحة الاسدي المتنبئ) فاتبعه وتبعته غطفان، تعصبا للروح القبلية والحلف.

وكذلك حينما ادعى مسيلمه النبوة، وتبعته قبيلته من بني حنيفة، عصبية وليس عن اقناع بنبوته، حتى كان بعضهم يقول أشهد ان مسيلمه كذاب وان محمدا صادق ولكن كذاب ربيعة أحب الينا من صادق مضر.

د ـ تصميم الرسول (ص) على هدم الاوثان والاصنام ببلاد العرب وبالتالي قضى على المميزات المادية والشرفية للطبقة التي نشأت من سدنتها والقوامين على شئونها. وأن اضطروا الى التظاهر بالاسلام فقد ابطنوا الكيد له ولرسوله (ص).

فقبيلة ثقيف ساكني الطائف يفاوضوا الرسول (ص) أن يدع آلاهتهم الطاغية وهي اللات، لايهدمها ثلاث سنين، مقابل دخولهم الاسلام، فلا يقبل، فنزلوا الى شهر فلم، يجبهم، وحينما ارسل الرسول من يهدم اللات، خرجت نساء ثقيف حسرا يبكين عليها. ولاشك بتحريض من سدنتها.

وحينما اراد عمرو بن العاص، هدم صنم هذيل، أتاه وعنده السادن فحذره من غضبه فأجابه عمرو: «حتى الان أنت على الباطل، ويحك، وهل يسمع أو يبصر» ثم قام بكسره.

ولاشك ان تطهير الرسول (ص) لبلاد العرب من ادران الوثنية قد اثار سدنة الاصنام، ومحترفي الكهانة مما دفع الكثير منهم للتحريض لحركة الردة (11).

هـ ـ يضاف الى ذلك ان بعض القبائل العربية في اليمن واليمامة وعمان قد تهاونت في مسألة الزكاة وأستنكرت بعثها الى المدينة ورغبوا في التخلص من سلطة المسلمين بالعاصمة، خصوصا السلطة المادية، والتي تتمثل في دفع الزكاة فقد أعلن بعض المرتدين انهم لايزالون راغبين في ان يعبدوا الله، ولكنهم يرفضون أن يدفعوا الزكاة.

والزكاة هي ركن من أركان الدين، جعلت في الاصل كعمل خير وبر يوجه لذوي الحاجة فكانت عملا اختياريا فقد ورد في القرآن الكريم «يسألونك ماينفقون قل ما آنفقتم من خير فللوالدين والاقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم» (12) ولكنها سرعان ما فرضت على المسلمين وأصبحت الزكاة جبرية ولم ترد تفاصيل جبايتها في القرآن الكريم وانما بينتها السنة ولم يرد بالقرآن الكريم سوى ابواب صرفها (13).

وفرضت الزكاة على العقار والمال والانعام والحبوب والاثمار والتجارة والقرآن الكريم أورد الزكاة الى جانب الصلاة في عدد من الايات.وفي أوائل الدولة العربية كانت جباية الزكاة معقودة لعمال منتدبين وأمر توزيعها منوط ببيت مال المسلمين ومنها كانت الحكومة تتقاضى نفقاتها (14).

والزكاة على العموم تبلغ اثنين ونصف بالمائة من الاصل الذي تجبى منه

---

11) ابن الاثير: الكامل في التاريخ ج2 ص 342،284، 344.
فليب حتى: تاريخ العرب ج 1 ص191 ـ 192.
محمدالخضري: محاضرات تاريخ الامم الاسلامية ج1 ص 178.

12) سبب نزولها ان عمرو بن الجموح الخزرجي الانصاري من شهداء غزوة أحد.سأل الرسول (ص) وكان ذا مال عظيم: ماذا ما ننفق من أموالنا واين نضعها؟ فنزلت الاية. لتعين له مواضع البذل، وهم الاب والام والاقارب المستحقون واليتامى والمساكين والمسافرون.
انظر القران الكريم: سورة البقرة 2 الاية 215، الايات 263 ـ 267.
ابن الاثير: الكامل في التاريخ ج1 ص 677، ج2 ص 163.

13) انظر القرآن الكريم : سورة البقرة 2 آية 277، سورة التوبة 9 آية 5.

14) القرآن الكريم : سورة التوبة 9 آية 60

سنويا وهي تجوز على كل أنواع المال (15) ولاتخرج الزكاة من الرغبة في ان يسعف المسلم أخوانه المعوزين، فحسب، ولكنها تعتبر كذلك وسيلة تحرره من جزء من أمواله التي تشده الى الدنيا الفانية وتبعده عن السعادة الاخروية.

ولذلك فالذين امتنعوا عن أداء الزكاة، إنما كانوا في الواقع يتمسكون بتقاليد المجتمع الجاهلي ويريدون رجوعه حتى تعود اليهم امتيازاتهم الدينية والاجتماعية والاقتصادية.

2 ـ تـــطورهـــا :

وبالرغم من إندلاع حركة الردة في بلاد العرب وانتشارها من ادناها الى اقصاها، الا أن أبا بكر صمم على تنفيذ رغبة الرسول الخاصة بارسال حملة أسامة ابن زيد الى الشام، اذا اعترض عمر بقوله : «كيف ترسل هذا الجيش والعرب قد اضطربت عليك!؟ فأجابه ابو بكر قائلا : «لو لعبت الكلاب بخلاخيل نساء المدينة، ما رددت جيشا انفذه رسول الله ص» (15 مكرر). وهكذا وجه أبو بكر نخبة جيوش الاسلام الى الشمال، ولكننا لا نعرف شيئا عما استطاعت هذه الحملة ان تحققه من الأعمال. فابن الاثير يذكر «وتوسطت خيل أسامة ببلاد قضاعة فشن الغارة فيهم، فغنموا وعادوا سالمين. آما تاريخ اليعقوبي فيروي «فنفذ أسامة، فأقام منذ خرج الى أن قدم المدينة منصرفا ستين يوما، أو أربعين يوما، ثم دخل المدينة ولواؤه معقود» (16).

وبالرغم من أهمية هذه الحملة، ليس فيما يختص بنتائجها، بل في الدروس المستفادة من ظروفها اذ لم يتردد ابو بكر في إرسال حملة اراد الرسول (ص) تجهيزها ولو الغاها لشرع للناس لاول مرة مخالفة ما أمر به الرسول أمرا كان يتردد على لسانه خلال فترة مرضه الاخير، كما تمسك ابو بكر بقيادة أسامة بن زيد للجيش رغم معارضة كبار الصحابة وقال : يوليه رسول الله ويعزله أبو بكر؟

15) ولفظة زكاة من اصل آرامي وهي أخص وأكثر تعيينا من لفظة صدقة التي تعتبر عملا تبرعيا وتدل على العطاء والبذل بنوع عام أنظر موطأ الامام مالك رواية يحيى بن يحيى الليثي كتاب الزكاة ص 162.

(15 مكرر) ويروي ابن كثير ان أبا بكر اجابه بقوله : «والذي لا اله غيره، لو جرت الكلاب بأرجل ازواج رسول الله (ص) ما رددت جيشا وجهه رسول الله (ص)، ولا حللت لواء عقده رسول الله (ص)» انظر أبو بكر بن العربي : العواصم من القواصم في تحقيق موافف الصحابة بعد وفاة النبي (ص) ص 45. ابن كثير : البداية والنهاية ج 6 ص 305.

16) ابن واضح : تاريخ اليعقوبي ج2 ص 127. ابن الاثير: الكامل في التاريخ ج2 ص 343.

ولما ودع أبو بكر الجيش أوصاهم بآداب القتال في الإسلام وهي:

«لاتخونوا، ولاتغلوا، ولاتمثلوا، ولاتقتلوا طفلا صغيرا، ولاشيخا كبيرا، ولاإمرأة، ولاتغدروا ولاتعقروا نخلا ولاتحرقوه، ولاتقطعوا شجرة مثمرة، ولاتذبحوا شاة ولابقرة ولابعيرا، إلا لمأكله، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام، فإذا أكلتم منها شيئا بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها وتلقون أقواما قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقا يدفعها باسم الله» (17).

ومهما يكن فقد قضى أسامة وجيشه شهرين خارج المدينة وبذلك أصبحت عاصمة المسلمين في مركز حرج لايساعدها كثيرا على الدفاع عن نفسها، فقام أبو بكر بإرسال علي وطلحة والزبير وابن مسعود على رأس مجموعة من الجند لحراسة منافذ المدينة ونواحيها من الغزو كما « الزم أهل المدينة بحضور المسجد خوف الغارة من العدو لقربهم».

أ_ في ذي القصة وبئر بزاخة: أسد وغطفان وطليحة بن خويلد

وفي نفس الوقت الذي استعد فيه أبو بكر لملاقاة الثائرين، عمل على مفاوضتهم لتأخير غزوهم للمدينة كسبا للوقف وانتظارا لعودة أسامة وجيشه، ولكن سرعان ما فطنوا لقلة من في المدينة فقامت قبائل أسد وغطفان،النازلين غير بعيد عنالمدينة بالأبرق، بقيادة حبال بن خويلد الاسدي أخو طليحة المتنبئ بالاغارة على المدينة ليلا فصمدت لهم الجند المكلفة بحراسة المنافذ. فأضطروا الى الانسحاب وما أن انضمت اليهم احلافهم من طيء وكنانة المعسكرين بذى القصة لمعاودة الهجوم حتى فاجأهم أبو بكر بجميع المسلمين الذين تمكن من تجنيدهم ووضعوا فيهم السيوف فولوا الادبار.

وما أن عاد أسامة وجنده حتى عهد أبو بكر الى خالد بن الوليد « سيف الله» بقيادة حملة من المسلمين، تمكنت من هزيمة قبيلتي أسدا وغطفان عند بئر بزاخة هزيمة حاسمة اضطرتهما الى الاستسلام في الحال.

17) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ج3 ص 132 وما بعدها.
محمد الخضرى: محاضرات تاريخ الامم الاسلامية (الدولة الاموية) جا ص 172 _ 173.

لم يكتف أبو بكر بحملة خالد بن الوليد ضد طليحة بن خويلد الاسدي (18) ومالك بن نويرة سيد بني يربوع بالبطاح، فقد أعلن التعبئة العامة لمحاربة الذين أعلنوا العصيان على حكم المدينة وقرر أبو بكر أن يقضي على حركات الردة في وقت واحد وفي عقر دارها فقسم الجيش الى إحدى عشر فرقة من ضمنها حملة خالد بن الوليد . ووجه كل فرقة الىَ جهة محددة اذ يروي ابن الاثير و «قطع أبو بكر البعوث وعقد الالوية . فعقد أحد عشر لواء» (18م) .

ب ـ في اليمامة : بنوحنيفة ومسيلمه :

وأخطر حركات الردة كانت فتنة بني حنيفة باليمامة (19) بزعامة مسيلمة المتنبئ والتي بدأت في أواخر عهد الرسول (ص) ثم ازدادت بعد وفاته وبالرغم من سذاجة افكار مسيلمه وسوقيته فقد ادعى المستشرقون ان تفكيره الديني تأثر بالافكار المسيحية وأنه قد شدد على ناحية الزهد والتقشف تشديدا خاصا، وأوصى بالصيام وحرم الخمر، وحض اتباعه على الطهارة والعفة سامحا لكل منهم بالاتصال الجنسي الى أن يرزق ابنا ذكرا، فحسب، وان لغته، لغة رجل بدوي يحرث الارض، فهو يتكلم عن « الشاء السود وعن اللبن الابيض وعن الطاحنات والخابزات، وعن الضفدعة التي تعيش في الماء والطين، ولكنه يتكلم أيضا عن مملكة السماء وعن ذاك الذي سيأتي من السماء (20).

---

18) اشتهر بشدة باسه في القتال ، وقد اسر طليحة فيما بعد وارسل إلى المدينة وقبلت توبته وعاد إلى إسلامه وسيكون له شان في الفتوحات الاسلامية ،فقد شهد القادسية ونهاوند معالمسلمين واستشهد في 21هـ . انظر الذهبي : دول الاسلام 1 : 6 ، ابن خلدون : المقدمة ص 81 .

18م) ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ 2 ص 345 ــ 346 .

19) من مقاطعات نجد بوسط جزيرة العرب وهي اليوم واحة بالسعودية تدعى العارض ينمو بها النخيل ، وأهم مدنها : القرشية وعرمة، العينية والدرعية والشعيب، انظر المنجد في اللغة والاعلام.

20) انظر كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص 85.

ويكفي نظرة واحدة على ما أورده ابن الاثير حول علاقة مسيلة بسجاح المتنبئة في بني تميم والمحاورة بينهما ثم عرضة الزواج منها حتى تهكم احد انصارها فقال :

أمست نبيتنا أنثى نطوف بها   وأصبحت أنبياء الناس ذكرانا

تلقى هذه النظرة ليستنتج الباحث مدى سذاجة تفكيره وضحالته وحينما ارادت سجاح صداقا لها وضع مسيلمة عن قبيلتها صلاتين من الصلوات الخمس : صلاة الفجر وصلاة العشاء.

أما النص الذي اعتمد المستشرقون عليه للإلقاء الاضواء على مبادئ مسيلمه الموحى بها :

« يا ضفدع بنت ضفدع نقي ما تنقين، أعلاك في الماء وأسفلك في الطين، لا الشارب تمنعين، ولا الماء تكدرين» وكذا « والمبديات زرعا، والحاصدات حصدا، والذاريات قمحا، والطاحنات طحنا، والخابزات خبزا، والثاردات ثردا، واللاقمات لقما، اهاله وسمنا، لقد فضلتم على أهل الوبر، وما سبقكم أهل المدر، ريفكم فامنعوه والمعي فأووه، والباقي فناوئوه» (21).

وهكذا نرى الى أي مدى يحاول المستشرقون، الطعن في الاسلام عن طريق التأييد والترويج للأفكار والحركات المناهضة له والتي تعمل على النيل منه .

جـ- في شمال بلاد العرب وبني تميم وسجاح :

وفي شمالي بلاد العرب ظهرت سجاح بنت الحارث بن سويد بن عقفان التميمية وتزعمت حركة الردة بين قبائل بني تميم وادعت ألنبوة، وكانت قبائل تميم نازلة على مقربة من الحدود الفارسية وكان أول ظهور لسجاح بين اخوالها بني تغلب في العراق حيث انتشرت بينهم الديانة المسيحية واعتنق زعيم بنى تغلب النصرانية، وما أن أعلنت سجاح النبوة بعد موت الرسول (ص) حتى ترك زعيم تغلب النصرانية وتبعها كما تبعتها قبائل أياد والنمر وشيبان، ثم انتقلت سجاح مع عدد كبير من اتباعها إلى انسبائها من قبيلة تميم الذين كانوا بحكم بداوتهم

---

21) ابن الاثير: الكامل في التاريخ ج2 ص 355 _ 356.

الخالصة على مستوى ثقافي أدنى من مستوى غيرهم من العرب ،فهم يؤلهون الشمس، على الخصوص ولم يؤيدها أول الأمر غير اقربائها الادنين، بني حنظلة، ولكنها ما لبثت أن بسطت سلطانها على القبيلة بأكملها.

زحفت سجاح واتباعها الى اليمامة، لغزو بني حنيفة اتباع مسيلمة ولكن الاخير تمكن من اقناعها بالتحالف واقتسام غلات أرض اليمامة «وصالحها مسيلمه على غلات اليمامة سنة تأخذ النصف وتترك عنده من يأخذ النصف، فأخذت النصف وانصرفت الى الجزيرة» ويبدو انهما لم يوفقا الى توحيد قوى اتباعهما في نضال مشترك ضد المدينة، فعادت سجاح الى العراق وأقامت بين أخوالها بقبيلة تغلب حيث انتهى نشاطها العام وتصمت المصادر والاخبار عن مصيرها ماعدا ما يروي عن عودتها الى الاسلام ووفاتها خلال ولاية معاوية بن أبي سفيان (22).

ومن الجدير بالذكر أنه عندما ظهر خالد بن الوليد في أراضي تميم، سارع القوم من كل مكان بالطاعة، ماعدا مالك بن نويرة سيد بني يربوع الذي سبق وعينه الرسول (ص) اميرا على بني يربوع فارتد وتابع سجاح بعد وفاة الرسول (ص) ولكن خالد ما لبث أن طوقه وجنوده وقبض عليه ونفر من بني ثعلبة ابن يربوع فأمر خالد بقتلهم (23).

وبعد اخضاع تميم، انقلب خالد الى اليمامة لقتال بنى حنيفة أصحاب مسيلمة الذين تمكنوا من هزيمة الفرقة التي ارسلها أبو بكر، وعلى رأسها عكرمة بن أبي جهل، اذ خالف امر أبى بكر وسارع الى مهاجمة بني حنيفة الاكثر عددا، ليفوز بمفخرة اليوم، ولم ينتظر امدادات المدينة التي ارسلها الخليفة بقيادة شرحبيل بن حسنة.

---

22) ابن الاثير: الكامل في التاريخ جـ 2 ص 353 ـ 357.

23) وكان ابو بكر قد اوصى المسلمين أن يؤذنوا اذا نزلوا منزلا، فان اذن القوم فكفوا عنهم، وان لم يؤذنوا فاقتلوا وانهبوا وان أجابوكم الى داعية الاسلام فسائلوهم عن الزكاة، فان أقروا فاقبلوا منهم، وان أبوا فقاتلوهم.

وكان بعض أفراد جيش خالد ومنهم ابو قتادة شهدوا انهم اذنوا فلما حصل القتل رأوه مخالفا لامر الخليفة ومما اكد التهمة على خالد، تزوجه، بزوجة مالك بن نويرة، واتهمه عمر بن الخطاب عند ابي بكر فقال ياعمر: تأول فأخطأ، فارفع لسانك عن خالد، فاني لا أشتم سيفا سله الله على الكافرين

انظر محمد الخضري: محاضرات تاريخ الامم الاسلامية(الدولة الاموية) جـ1 ص 177 ـ 178.

د ـ موقعة عقرباء:

سار مسيلمة بعد هذا النجاح حتى بلغ حدود اليمامة الشمالية حيث عسكر بجندة في عقرباء، وكانت عدتهم أربعين ألف مقاتل، زادهم قوة تحريض مسيلمه لهم على القتال بقوله : «يابني حنيفة قاتلوا فإن اليوم يوم الغيرة، فان انهزمتم تستردف النساء سبيات، وينكحن غير خطيبات، فقاتلوا عن احسابكم وامنعوا نساءكم» كما أمر مسيلمه بحفظ الأموال وراء ظهره حتى لاتفر بني حنيفة.

أما المسلمون فقد تشكل جيشهم من مقدمة بقيادة شرحبيل بن حسنة والانصار بقيادة ثابت بن قيس بن شماس والمهاجرين بقيادة ابى حذيفة وزيد ابن الخطاب وأهل البوادي.

اشتبك الجيشان وتفوق بنى حنيفة الاكثر عددا برغم قتال المسلمين قتالا شديدا، وانكشف المسلمون وأشرفوا على الهزيمة وحينما ادرك خالد خطورة الموقف اعلن قائلا:« امتازوا أيها الناس لنعلم بلاء كل حي ولنعلم من أين نؤتي، فامتازوا .. فلما امتازوا قال بعضهم لبعض : اليوم يستحي من الفرار» وهكذا تمكن خالد من رفع الروح المعنوية لجيشه مستغلا، روح العصبية في القبيلة العربية، فوفقوا أولا الى أن يضعوا حدا لتقدم العدو، وما لبثوا ان ردوه على عقبيه شيئا بعد شيء.

لما رأى بنو حنيفة ان الهزيمة لابد واقعة بهم تراجعوا الى حديقة واسعة، ابتغاء ان يجدوا في حيطانها المنيعة ما يقوى مركزهم ويقيهم عادية هجوم المسلمين، غير أن هذا العمل بالذات هو الذي انتهى بهم الى الهزيمة، فقد هجم المسلمون على حديقة الموت، كما تدعوها الروايات وفتكوا بأعدائهم فتكا ذريعا، وحتى مسيلمة لم يتمكن من النجاة، اذ ترصد له وحشى مولى جبير بن مطعم، قاتل حمزة بن عبد المطلب عم الرسول (ص) فدفع عليه حربته فأصابه وأجهز أنصارى عليه بسيفه ، وهكذا أصابت حربة وحشى اثنين من أعلام بلاد العرب شتان ما بينهما الاول حمزة رمز الشجاعة والايمان والثاني مسيلمة رمز الكفر والردة .

وانتهت المعركة بفوز المسلمين ومصالحة من كتبت له النجاة مقابل أخذ ما عندهم من النقوذ ذهبا وفضة والسلاح وربع السبي،ولم تكن خسائر المسلمين يسيرة، فقد استشهد من المهاجرين والانصار وحدهم سبعمائة رجل تقريبا، بينهم كثير من

أصحاب الرسول السابقين الى الاسلام وكبار حفظة القرآن، مما دفع أبو بكر الى الامر بجمع القرآن خوفا من ضياعه (24).

والحق ان هذا النصر الذي اشتراه المسلمون بثمن غال، لم يقرر مصاير بني حنيفة فحسب، بل مصاير العرب على الجملة، فقد قضى في المنطقة على الثورة قضاء مبرما.

هـ ـ في البحرين وساحل الخليج وعمان :

أما بالنسبة لحركة الـردة بالبحرين وهي المنطقة الساحلية التي تمتد على طول الخليج الفارسي والتي تم اخضاعها قبيل وفاة الرسول (ص) وكان سكانها خليط من العرب من قبائل عبد قيس وبكر بن وائل والفرس واليهود والنصارى والزط الوثنيين (25).

وبينما استمرت قبائل عبد قيس على الإسلام أرتدت قبائل بكر بن وائل بزعامة الحطم بن ضُبيعة وحالفت مشركى الزط والسيابجة ضد المسلمين وسيطروا على هجر عاصمة البحرين ونصبوا عليهم المنذر بن النعمان بن المنذر المعروف بالغرور وهو من نسل المناذرة الذين سبق لهم ان بسطوا سلطتهم على هذه المقاطعات.

أرسل أبو بكر الى البحرين العلاء بن الحضرمي على رأس فرقة من المسلمين وأنضم إليه مسلمي بني حنيفة وغيرهم من عبد قيس « وخندق المسلمون على أنفسهم والمشركون وكانوا يتراوحون القتال ويرجعون الى خندقهم فكانوا كذلك شهرا» الى أن أغتنم المسلمون فرصة احتفال المرتدين وسكرهم فأغاروا عليهم وفتكوا بهم وتمكن بعضهم من الفرار الى جزيرة دارين تقع داخل الخليج، فلحقهم المسلمون

24) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك جـ3 ص 298.
ابن الاثير: الكامل في التاريخ جـ2 ص 360 ـ 366.

25) والزط قوم من وادي السند في شمال غرب الهند انتقلوا الى المنطقة الواقعة على الخليج العربي واستقروا بها وسوف يقومون بثورة كبرى خلال فترة الصراع على العرش العباسي بين الامين والمأمون في الخلافة العباسية سنة 205 ، 206هـ.
ومن الجدير بالذكر أن اسم الزط هو تعريب للكلمة الفارسية جت Jat وهي الاسم الذي يطلق الان على الغجر أو النور في اسبانيا وانجلترا بصفة خاصة وأوروبا بصفة عامة.
أنظر احمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي والاندلسي ص 107 ـ 108

سباحة وظلوا يقاتلونهم حتى اخضعوهم ومن معهم من الزط والسيابجة (26).

أما سكان السواحل ومعظمهم من الفرس فقد ابدوا مقاومة أطول واعنف وحاربوا بجانب المرتدين، ذلك انه حينما انتشر الإسلام في البحرين، بقي رهط من العجمواليهود والنصارى على دياناتهم السابقة، ففرضت عليهم الجزية، فكان عمال الرسول يقومون على جبايتها فلما قامت حركة الردة امتنع الفرس عن اداء الجزية وتجمعوا في القطيف وأعلنوا انضمامهم الى أحد زعماء الفرس فيروز الملقببالمكعبر وعاونوا المرتدين فحاصرهم العلاء بن الحضرمي فياحدىالجزر الواقعة على ساحل البحر تسمى (الزارة) زمنا طويلا حتى تمكن من اقتحامها، وإخضاع الفرس (27).

وتمكن عكرمة بن أبي جهل بمعاونة مسلمي عمان (مسقط الحالية) من القضاء على بني الجلندى المرتدين في موقعة دبا (في شمال امارة الفجيرة) عاصمة عمان وقتل من المرتدين في المعركة عشرة آلاف وسبى المسلمون الذراري والاموال.

و ـ في حضرموت واليمن :

ثم زحف عكرمة الى حضرموت واليمن لاعادة اخضاعها بعد مقتل الاسود العنسى (عبهلة) . اذ أن ردة اخرى مالبثت ان قامت بقيادة قيس بن عبد يغوث، أحد أصحاب الاسود العنسي، وأعلن الثورة على الفرس بمعاونة العرب وتأييدهم، فما كان من أبي بكر الا أن وجه اليه جيشا ، قضى على الفتنة وأقر الأمـن في البلاد. (28)

---

26) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جـ 3 ص 307 ـ 310.
ابن الاثير، الكامل في التاريخ جـ 2 ص 372 ـ 373 .

، والسيابجة هم سكنوا قبل الاسلام سواحل الخليج اصلهم من جزيرة سومطره، اعتنقوا الاسلام وتجندوا في جيشه . انظر المنجد مادة سيابجة.

27) البلاذري : فتوح البلدان جـ 1 ص 95 ـ 96 ، 103 ـ 104 كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص 87.

28) ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ 2 ص 372 ـ 373 ، 375 ـ 378.
وراجع محمدالخضري: تاريخ الامم الاسلامية (الدولة الاموية) جـ1 ص 179 ـ 181.

3 ـ نتـــائجهـــــا :

كان من نتائج حركة الردة والقضاء عليها، أن عادت المدينة الى بسط هيمنتها على بلاد العرب كافة وتوحيد العرب تحت قيادة اسلامية واحدة، وأصبح العرب المسلمون يسيرون وراء زعيم واحد فكان انتصار أبي بكر على المرتدين انتصارا لوحدة بلاد العرب ولتضامنها على التفكك والانفصال والعصبية القبلية.

وأهم نتائج هذه الحركة ـ بلا جدال ـ هو كتابة القرآن الكريم وحفظه من الضياع، اذ لما كثر القتل في الصحابة، يوم اليمامة، قال عمر لابي بكر: «أن القتل قد كثر واستحر بقراء القران يوم اليمامة، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء فيذهب من القرآن كثير، واني أرى ان تأمر بجمع القرآن، فأمر أبو بكر، زيد بن ثابت فجمعه من الرقاع والعُسب (29) وصدور الرجال» وحفظت الصحف عند ابي بكر ثم عند عمر بن الخطاب فلما توفي عمر حفظتها ابنته حفصة وهكذا حفظ القرآن من الضياع والاندثار (30).

ثالثا : الفتوحات الاسلامية في عصر الراشدين

وهكذا وبعد ان خضعت بلاد العرب كلها في هذه الفترة القصيرة من الوقت، لسلطة الاسلام، صار في مقدور ابي بكر أن ينفذ أهداف الرسول (ص) الاخيرة، تلك الاهداف التي تقضي بنشر الاسلام في ما وراء حدود الوطن الام، خصوصا وقد رأى الخليفة ان يستغل ذلك الميل الفطري في العرب الى المقاتلة في ناحية الفتح والتوسع، ونشر الاسلام خارج شبه الجزيرة على حساب كل من الامبراطورتين الفارسية والبيزنطية، التي كانتا تتنازعان السيادة على منطقة الشرق الادنى منذ قرون عديدة.

---

29) العُسب : سُعف النخيل

(30) ابن واضح : تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 135، ابن خلكان، وفيات الأعيان ، وأنباء ابناء الزمان ج 3 ص 68

ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج3 ص 112.

السيوطي : تاريخ الخلفاء ص 77

ل. ا. سيديو : تاريخ العرب العام ص 131.

دوافع وأسباب الفتوحات :

وقبل التعرض لهذه الفتوحات، يجب أن نتناول أسبابها وأسباب نجاحها والعوامل التي أدت اليها اذ أختلف الباحثون حول دوافعها كما اختلفوا حول أسبقية هذه الدوافع، ويمكن ان نقسم هذه الدوافع الى قسمين : الاول مباشر يتعلق ببلاد العرب وسكانها من العرب والثاني: غير مباشر يتعلق بظروف الامبراطوريتين الفارسية والبيزنطية

1ـ الدوافع المباشرة:

ا ـ وهذه الدوافع تتمثل في نشر الإسلام ففي السنة السادسة للهجرة وبعد صلح الحديبية، قام الرسول (ص) بمكتابة الملوك وبعث رسله الى كسرى وقيصر والنجاشي وغيرهم من ملوك وأمراء العرب وتكاد تتفق صيغة كتاب الرسول (ص) لكل منهم وهو كالاتي:

« بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله الى (... المرسل اليه ...) السلام على من اتبع الهدى، أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله اجرك مرتين، وان توليت فإن أثم الاكادين عليك» (31).

ومن هنا ظهرت آراء الباحثين المستشرقين حول رسالة الرسول (ص) هل هي اقتصرت على وطنه العربي فقط، أو قد شملت ميدانا أوسع وبعبارة أخرى هل كان الرسول (ص) نبي وطني أم نبي عالمي أرسل للناس كافة ؟

وبالرغم من الدراسات المتجنية على الاسلام من بعض هؤلاء المستشرقين الا أن كل من ليوني كايتاى في كتابه حوليات الاسلام ونولدكه في كتابة تاريخ القرآن وأجناس جولد تسيهر في كتابه العقيدة والشريعة في الاسلام (32) لايسطيعون نكران أن الرسول (ص) بعث للناس كافة وأن قالوا أنه بدأ بالوسط المباشر الذي نشأ فيه كما جاء في القرآن الكريم: «وأنذر عشيرتك الاقربين» (33) وإنك لمرسل

---

31) ابن الاثير: الكامل في التاريخ ج 2 ص 212 ـ 213.

32) انظر أجناس جولد تسيهر: العقيدة والشريعة في الاسلام ص 39، 40 .

33) سورة الشعراء 26 آية 214.

« لتنذر ام القرى ومن حولها» (34) امتدت رسالته الى مدى أوسع وأفق أرحب فقد ارسله الله تعالى « رحمةللعالمين» وتتردد هذه الجملة كثيرا في القرآن الكريم، اذ المقصود هو الانسانية بأوسع معانيها . فقد جاء الاسلام في وقت ليس فيه حرية للعقيدة في كل أجزاء المعمورة ، بل اضطهاد وتعذيب . فقد كانت الدولة البيزنطية تفرض مذهبها الرسمي على أهالي مستعمراتها . كما كانت تجبر ، اليهود في بيت المقدس على التنصر أو القتل وحتى فارس كانت تقاوم كل حركة اصلاحية دينيه بالقتل والتعذيب (35) .

ومن هذا المنطلق مال بعض الباحثين في الحركة الاسلامية الى النظرية الدينية التي كررتها المصادر العربية ففسروا التوسع الاسلامي كنتيجة لعامل الدين وعلى العكس من ذلك اعتقد كتاب المسيحية أن التوسع الاسلامي اكتسح البلدان رافعا القران في يد والسيف في الاخرى.

وبالطبع لاصحة لهذا الزعم اذ ان العرب في حروبهم خارج الجزيرة كانوا يعرضون على اهل الكتاب من يهود ونصارى امرا ثالثا غير القرآن والسيف وهو الجزية «قاتلوا... من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون» (36) ثم قضت الاوضاع ان يطبق هذا الاختيار الثالث حتى على اتباع زرادشت وعلى الوثنيين من البربر والترك فنفذ عليهم وهم من غير أهل الكتاب وعوملوا معاملةاهل الكتاب اذ لم يمكن اخذ من لم يؤمن منهم وهو العدد الكثير بالسيف.

ولانزاع في ان الاسلام الف بين المسلمين ووحد أهدافهم وخلق لهم شعارا جديدا فكان نبراسا لامانيهم القومية فزالت الشحناء والبغضاء والتحمت العناصر المتنافرة فنشات بين العرب قوة محركة فعالة لعبت الدور الاساسي في الفتوحات الاسلامية.

ويضاف الى ذلك ان محاولة المسلمين اخضاع كل من امارتي الحيرة والغساسنة العربيتين سوف يؤدي الى التصادم مع كل من امبراطورتي الفرس

---

(34) سورة الانعام 6 آية 92 .

(35) سورة الانبياء 21 اية 107 ، سورة يوسف 12 آية 104 سورة الصافات 37 آية 87 ، سورة القلم 68 اية 52 . سورة التكوير 81 اية 27 . أنظر عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية 1 : 164 .

(36) سورة التوبة 9 اية 29 .

وبيزنطة بالعلاقة الوثيقة بين كل من الامارتين العربيتين والامبراطوريتين.

ب - كما قضت أحوال البادية الاقتصادية والاجتماعية برفع الغزو الى مرتبة يقرها النظام القومي للقبائل فأصبح الغزو من أركان البناء الاقتصادي في الهيئة الاجتماعية البدوية الجاهلية وهكذا استولى حب القتال على نفوس أهل البوادي حتى أصبح حالة عقلية مزمنة واصبح شن الغارات نموذجا للأعمال التي يليق بذوي الرجولة الحقة ان ينصرفواااليها ، حتى أن القبائل النصرانية كبني تغلب بالإضافة للقبائل العربية الوثنية، مارست الغزو ولم تتقيد بوازع عقلي أو ديني.

وبعد ظهور الاسلام وتحريم الغزو بين القبائل العربية التي اعتنقت الاسلام واخضاع القبائل المسلمة لبقية بلاد العرب، حاولت القبائل العربية الاتجاه الى الخارج والتطلع الى منفذ جديد تستثمر فيه ماخبرته من شؤون القتال، ولما كان الاسلام قد وضع حدا لتطاحن القبائل ضمن دائرته وشمل العرب بنوع من الأخوة والسلام كان لابد للروح الحربية العربية من ميدان جديد (37).

لذلك روج البعض أن العرب حصلوا على سلاح جديد قاموا بتجربته ، بحيث كان عاملا حاسما في حدوث الفتوحات . والمعروف أن الحرب عند العرب كانت فطرية ، فكل قبيلة تحارب على حدة ملتفة حول زعيمها ، حيث ينشرون راية أو ما يعرف باللواء وهم يبقون على النساء معهم في المؤخرة لتشجيع المقاتلة ، واثارة غيرتهم عليهن ، إذ هن«العرض»، وقد يصطحبون معهم الشاعر الذي يستثير همم الابطال . أما خططهم في القتال فتكون بالكر والفر ، أو الزحف بالصفوف ، ويقوم المقاتلون بالطعن بالرماح والرمي بالنبال والضرب بالسيف . اما آلات حربهم فكانت أقل جودة من آلات الحرب عند أعدائهم ، وقليل من العرب كان يلبس الدروع ، كما كان أكثرهم عراة (37م) .

ج - كانت لتعاليم الرسول (ص) نتائج اجتماعية ملموسة، اذ تقبل الناس تلك التعاليم في حياة الرسول (ص) نفسه على ثلاث مراتب مختلفة:

---

37) Ignaz Goldriher : Muhammed anische Etudien, pt. 1 (Halle, 1889) P. 13 فليب حتى : تاريخ العرب ج1 ص 31 ، جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج5 ص 333وما بعدها.

37م) الواقدي : فتوح الشام 1 : 62، 129، 138، 2 : 120، الازدي : فتوح الشام ص 115، 229 . ابن الاثير : الكامل 1 : 381، النويري : نهاية الارب 6 : 168 ، ابن خلدون : المقدمة ص 204 .

أولاها: التحول الديني الكامل الذي أوجد شخصيات دينية كان دافعها في وجوه نشاطها وفيما تعقد عليه نواياها، قبول روح التعاليم ومبادئها قبولا داخليا تاما. وذلك هو الفريق الذي تكونت منه فيما بعد نواة النظام الديني، وقد كان بطبيعة الحال صغيرا في البداية نسبيا، الا أنه كبر ونما نموا مطردا حين كبرت الجماعة.

وكانت المرتبة الثانية هي الولاء الشكلي أي قبول التعاليم والواجبات دون تمثل لروحها بل ابتغاء ما يجنيه الانتماء الى الجماعة الجديدة من مكاسب، وكان ابرز ممثلي هذا الفريق من تأخروا في اعتناق الاسلام من أهل مكة.

وكانت المرتبة الثالثة هي مرتبة الولاء الإجباري الذي أخذ به الأعراب بحزم أكيد والمؤيد أولا بالتخويف من العقوبات العسكرية، ثم بتنفيذ هذه العقوبات بعد وفاة الرسول (ص).

غير ان هناك قوى اقتصادية وإجتماعية جعلت الأوضاع في داخل الجزيرة العربية أمرا يستحيل دوامه واستمراره في واقع الحال، لذلك فإن اخماد مقاومة الأعراب محض إخماد، لم يكن حلا وافيا للمشكلة التي اوجدها اولئك الاعراب، اذ كان الاكتفاء باخماد مقاومتهم يعني في حقيقته ان جيوش الاسلام ستظل على صراع مستميت عقيم مع القبائل وإذن كان من الضروري أن يرتفع الأعراب في اسلامهم الى احدى المرتبتين الاوليين اي أن تقدم لهم الشروط التي يمكن أن ترتفع بهم على الاقل الى المرتبة التي تتوحد عندها مصالح الاسلام مع مصالحهم الخاصة وهي المرتبة الثانية – اذا لم يكن في المستطاع رفعهم الى المرتبة الاولى، مرتبة التمثل لروح الإسلام.

وتحقيقا لهذه الغاية عمد ابو بكر الى تجهيز السرايا الإستطلاعية عقب وفاة الرسول (ص) وكانت تلك السرايا تتالف من جماعات من رجال القبائل يقودهم مكيون الى مشارف الشام. وأدت الانتصارات الأولى التي أحرزها الى توجيه حملة عسكرية منظمة منسقة استطاعت ان تفتح البلاد كلها في سرعة ، وفي الوقت ذاته كانت تتم في العراق غزوات بقيادة بعض رجالات القبائل، ولكن افتقارهم الى مثل ذلك النجاح الذي احرزه المسلمون في بلاد الشام ادى بهم الى أن يقبلوا تنظيم حملات مشابهة يقودهم فيها رجال مكيون لغزو الامبراطورية الفارسية، فاحرزوا

انتصارات حاسمة كالتي تمت لهم في الشام، وعلى هذا حققت سياسة ابي بكر وخليفته عمر الغاية الأولى منها، وهي حمل القبائل لتقبل على الإسلام في حماسة لأنه هو معقد أملها في احراز النصر (38).

د ـ يضاف الى ذلك تفسير بعض الباحثين للتوسع الاسلامي كنتيجة للعوامل الاقتصادية الموجودة ببلاد العرب.

ومن المعروف ان الجزيرة العربية من أشد البلاد جفافا وحرا، وعلى الرغم من وقوعها بين بحرين من الشرق والغرب فان مساحة هذين البحرين اضيق من أن تكفي لكسر حدة الجفاف المستمر في هذه الاقاليم الاسيوية العديمة المطر.

وفي الحجاز مهد الاسلام تنتاب البلاد مواسم جفاف قد تستمر ثلاث سنوات أو أكثر ، وليس في شمالي الحجاز ارض تسكن سوى الواحات المنعزلة ولاتزيد مساحة اكبرها عن عشرة أميال مربعة، وكان اليهود في بداية الاسلام يزرعون معظم هذه المناطق الخصبة، وقد يقع بعض المطر في أقاليم الجزيرة الوسطى من الغيوم المتبخرة عن سطح خليج فارس واما الهواء الرطب المنبعث من البحر الاحمر فإن معظمه يجف قبل بلوغه منحدرات الجزيرة الشرقية الواسعة، ويعود الفضل في خصب التربة بنجد ذات الواحات الكثيرة المتصلة الى مياه وادي الرمة الجوفيه وعلى سطحها والى نزوح الماء من أعالي جبل شمر.

ولا تسقط الأمطار الموسمية إلا في اليمن وعسير وهي هناك تكفي لتأمين زراعة الأرض زراعة منتظمة ففيهما تجد الخضرة دائمة تنبت في أودية خصبة تمتد إلى نحو مائتي ميل من الساحل .

وجفاف الهواء وملوحة التربة يحولان دون نمو النباتات وإزدهارها ويكثر النخيل في الحجاز ويزرع القمح في اليمن وبعض الواحات .

ومن أشجار البلاد الكرمة التي أدخلت زراعتها من الشام بعد القرن الرابع للميلاد وهي كثيرة بالطائف ويستخرج منهما الشراب المعروف بنبيذ الزبيب، ولم يكن شجرة الزيتون وموطنه الشام معروفا في الحجاز.

---

38) أنظر هاملتون جب : دراسات في حضارة الاسلام ص 6 ، 7 ، 8.

وتعتبر نخلة البلح ملكة عالم النبات في الجزيرة العربية وقوام الطعام عند البدوي لونان: التمر والحليب واذا استثنينا لحم الابل فالتمر هو الطعام الوحيد الذي يتناوله البدوي، وشراب التمر اذا خمر أصبح النبيذ المرغوب فيه ونواه المسحوقة تصنع اقراصا لعلف الجمال.

ويكثر الجراد في الصحراء ويعتبره البدوي طعاما شهيا لاسيما اذا شوي وملح وقد يحدث البلاء من انتشاره.

وإذا كان الفرس انبل حيوان استطاع الانسان ان يدجنه واعتبر أمر اقتنائه في بلاد العرب من الأمور الكمالية لتكاليف أطعامها والعناية بها ومشكلة من مشاكل ابن الصحراء اذ لايستطيع حيازتها الا من كان على سعة من العيش، فان الجمل دون ريب هو بالنسبة للبدوي أعظم الحيوانات نفعا، ولولاه لما كانت البادية صالحة للسكنى. فالجمل هو الذي يغذي البدوي وهو اداة انتقاله وهو نقده الذي يتبادل السلع بواسطته وهو فوق ذلك وحده القياس لمهر العروس، ودية القتيل، وارباح الميسر، وغنى الشيخ، والجمل رفيق البدوي وصنو نفسه وحاضنته التي ترضعه فيشرب لبنه بدل الماء ـ الذي يوفره للماشية ـ ويجعل طعامه من لحمه وكساءه من جلده ويحوك بعض أجزاء خيمته من وبره ويتخذ من روثه وقودا وبوله علاجا لتقومة الشعر ودواء يستشفى به وليس الجمل في نظره «سفينةالصحراء» فحسب بل هو هبة الله حتى قال شبر نجر كلمة طريفة في هذا الصدد وهو أن البدوي يعيش طفيليا على الجمل (39).

وبناء على ذلك ، نجد بعض الباحثين يرون أن الفتوح تفسر على أنها هجرة عربية ، نتيجة لدورات الجفاف بشبه الجزيرة ، خصوصاً أنه سبق أن خرجت هجرات من داخل الجزيرة ، نحو المناطق الخصبة المحيطة بها ، بحكم أن المناطق الخصبة تجذب البدو اليها ، من حين إلى حين . وقد زاد من مصائب الجزيرة قبل ظهور الاسلام بعده قرون ، اختلال نظم اليمن الزراعية ، بحيث حدثت هجرات يمنية عديدة ، نحو بادية الشام والخليج العربي (الفارسي) ومع ذلك فليس هناك أدلة على أن حركة الفتوح العربية ، سببها الجفاف أو حتى الجوع كما اعتقد البيزنطيون .

---

(39) راجع ابن قتيبة : عيون الاخبار ج 3 ص 209 ـ 213. السيوطي : حسن المحاضرة ج 2 ص 254 ـ 255 . فليب حتى : تاريخ العرب ج 1 ص 19 ـ 27 . جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج 7 ص 5 وما بعدها . 24 ـ 26 ـ 111 ـ 115 .

كما أن المستشرق كيتاني Caetani، يميل الى تفسير دوافعها الاولى بقصد الغارة. ومما ينفي مثل هذا التفسير، تعليمات أبي بكر لجيوشه : لا تخونوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلا، ولا شيخًا كبيرا، ولا امرأة ... ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا، ودعوا النساك في صوامعهم يتعبدون (39م).

ولم يهمل المؤرخون المسلمون القدماء العامل الاقتصادي كأحد عوامل الفتوحات، كما توسع في هذا العامل حتى جعل منه نظرية قائمة بذاتها كل من ليوني كايتاني في كتابه حوليات الإسلام وبكر Becker وغيرهم من المستشرقين حتى جعلوا من الفتوحات الاسلامية نتيجة للعامل الاقتصادي وحده.

فقد ذكر البلاذرى ان أبا بكر اذ رأى توجيه الجيوش الى الشام كتب « الى اهل مكة والطائف واليمن وجميع العرب بنجد والحجاز يستفزهم للجهاد ويرغبهم فيه وفي غنائم الروم، فسارع الناس اليه من بين محتسب (نوى به وجه الله) وطامع واتوا المدينة من كل أوب» (40).

ويروي اليعقوبي أن أبابكر قام في الناس خطيبا، وأمرهم أن يتجهزوا الى الروم، فسكت الناس، فقام عمر فقال: «لوكان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لانتديتموه» اي لو كانت غنيمة قريبة لسارعتم اليها (41).

وذكر إبن الاثير أيضا أن رستم القائد الفارسي القائم بالدفاع عن بلاده ضد هجمات العرب أرسل الى سعد بن ابي وقاص يسأله توجيه بعض أصحابه اليه فوجه المغيرة بن شعبه، فكلمه رستم بكلام كثير ثم قال له: «كنتم أهل قشف ومعيشة سيئة، ولا نراكم شيئا، وكنتم تقصدوننا اذا قحطت بلادكم فنأمر لكم بشيء من التمر والشعير، ثم نردكم، وقد علمت أنه لم يحملكم ما صنعتم الا ما أصابكم من الجهد في

39م) ابن الاثير : الكامل 2 : 277، Caetani : Studi di Storia Orientale (Milano 1911) 2 : 831-861. ارنولد : الدعوة الى الاسلام ص 42، عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية 1 : 165 .

40) البلاذري : فتوح البلدان ص 107.

41) ابن واضح : تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 133.

بلادكم، فأنا آمر لأميركم بكسوة وبغل وألف درهم، وآمر لكل منكم بوقر (حمل) تمر وتنصرفون عنا» (42).

وفي ديوان الحماسة لابيّ تمام بيت يجمع فيه هذا الرأي:

فمأجنةَ الفردوس هاجرت تبتغي ولكن دعاك الخبز أحسب والتمر (43)

2 ـ الدوافع الغير مباشرة:

وفي شمال شبه الجزيرة العربية، كانت الشام حيث جبهة الصراع بين الامبراطورية الفارسية والابراطورية اليزنطية، تحاول كل منهما فرض سيادتها على الأخرى وأقتطاع بعض أقاليمها. منذ قرون عديدة.

وإذا اعتبرنا أن أحوال شبه الجزيرة العربية وكذا ساكنيها من القبائل العربية سواء الاحوال الاقتصادية أو الاجتماعية أو الدينية كانت وراء الدوافع المباشرة للفتوحات الاسلامية، فقد اعتبر بعض الباحثين حالة كل فارس وبيزنطة بعد عدة قرون من الصراع وما وصلت اليه كل من الدولتين من تدهور يمكن اعتباره من الدوافع غير المباشرة للفتوحات الاسلامية، وسوف نحاول ان نوضح ذلك باستعراض حالة كل من الدولتين قبيل خروج المسلمين من جزيرة العرب.

الامبراطورية الفارسية:

أطلق عليها دولة الفرس أو دولة الاكاسرة وكانت المدائن (44) عاصمتها تقع على شاطئ دجلة الشرقي والغربي، جنوبي بغداد.

ففي 226ق.م. سقطت دولة البارثيين الفارسية وحلت محلها دولة الساسانيين التي عملت على تقوية حدودها مع البادية العربية وبنوا المسالح على مداخل الطرق المؤدية الى أرياف العراق لحمايتها من الغزو. كما وضعوا سفنًا في الخليج لحماية حدودهم الجنوبية من القبائل العربية، اذ أن حدود الدولة الساسانية مع العرب، لم تكن ثابتة، بل كانت تتبدل وتتغير بحسب الظروف والاحوال، فقد كانت تتوسع أحيانا، وتتراجع وتتقلص أحيانا أخرى (45).

---

42) ابن الاثير: الكامل في التاريخ ج 2 ص 465.

43) ديوان الحماسة ص 792.

44) تقع على نحو عشرين ميلا الى الجنوب الشرقي من بغداد وتشمل سلوقية في غربي دجلة وتيسفون في الجانب الشرقي.

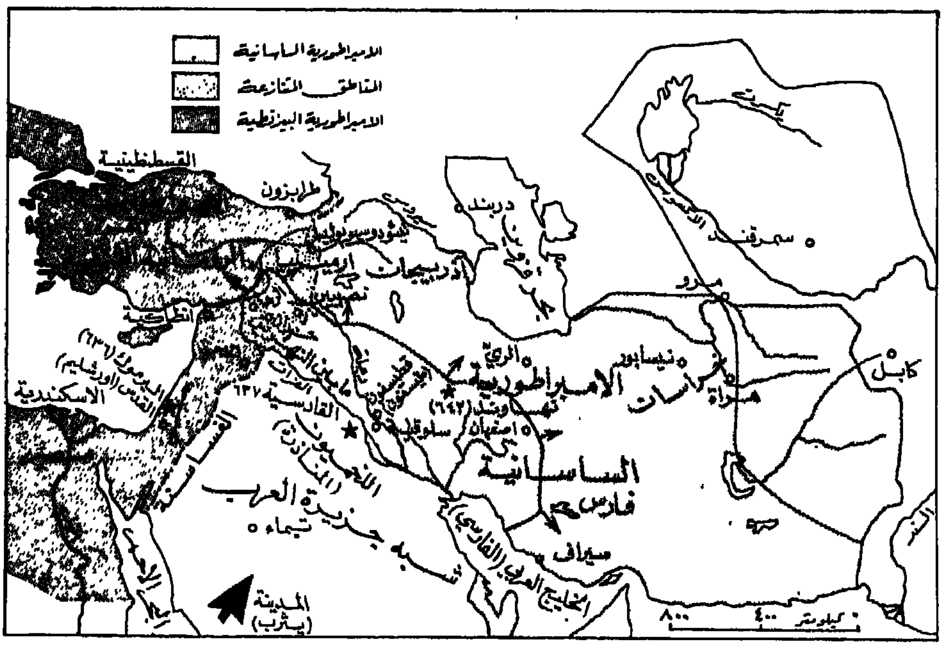
45) J. B. Bury: History of the later Roman Empire, vol. I, P. 90.

وفي عهد كسري الثاني (590 ـ 628م) اندفع الفرس في هجوم خاطف على أعدائهم البيزنطيين، ففتحوا القدس، وأستولوا على مصر نفسها ولكن الامبراطور هرقل البيزنطي لم يلبث أن انتزع من كسرى ثمرات النصر الذي لم يتم، وتعقبه حتى عاصمة ملكه نفسها.

وهناك قتل الملك الفارسي، بيد ابنه قباذ الثاني الذي مالبث ان فاوض هرقل في الصلح، ومن ذلك الحين والامبراطورية الساسانية تسير قدما نحو مصيرها النهائي المحتوم الى الدمار حسب رأي بعض الباحثين.

ويمكن تلخيص العوامل التي أدت الى أنهيار الامبراطورية الساسانية الفارسية كالاتي:

العامل الاول العنصر الآرى والسكان: فقد اعتمدت هذه الامبراطورية على العنصرالآري الذي هاجرالى البلاد في عصر ما قبل التاريخ والذي شكل اقلية بالنسبة



الامبراطورية الساسانية

لاغلبية سكان الشرق الادنى الاصليين، كما تأثر بالاغلبية وانصهر بداخلها في وقت وجيز، على الرغم من ان التعاليم الدينية الزرادشتية قد ذهبت الى أبعد الحدود في سبيل الاحتفاظ بالصفاء العنصري، فأوصت بالزواج من الاقارب دون غيرهم.

وتأثرت اللغة التي فرضها المهاجرون الآريون على أتباعهم تأثرا قويا بلغة هؤلاء الاتباع.

أما العامل الثاني : فمنذ نقل الساسانيون عاصمة امبراطورية إلفرس الى المدائن (بالعراق) (46)، وبدأت الاضطرابات بين الاراميين والمسيحيين ضد الدولة. وبالرغم من تشجيع الساسانيين الوثنيين لمذهب نسطور المسيحي لمعارضته لمذهب الروم الديني، فانتشر في العراق وفي إيران ودخله أكثر نصارى العرب التابعين للفرس حتى أنشأ النساطرة كنيسة مستقلة عن بيزنطة بالامبراطورية الفارسية في سنة 484 م فازداد نفوذ المسيحيين بفارس بين الايرانيين الذين تعرضوا۔ للاستغلال والاضطهاد والعذاب، بين الفينة والفينة، من كهنة النار الزرادشتيين.

والعامل الثالث: هو ازدياد سلطة الكهنة الزرادشتيين. ومحاولة الفرس التحرر من سيطرتهم مرتين ولكن دون جدوى.

ففي عهد سابور الاول (241 ـ 272م) ظهر مانى كمؤسس لديانة، مزيجا من الديانة النصرانية والزردشتية، اي«زردشتية منصرة أقرب من أن تعد نصرانية مزردشة» على حد قول برون Browne (47) وقد اعتنق الامبراطور الفارسي مذهبه وأيده، وتبعه كثير من الناس، فلما مات وخلفه بهرام الأول، القى ماني في السجن، حيث قضى بقية أيامه ومات.ثم كان عهد سابور الثاني (309 ـ 379م) فأضطهد أتباع ماني في جميع أنحاء الامبراطورية (48) والسبب يرجع الى طبيعة

---

46) واسم عراق يبدو أنه مستعار من اللغة البهلوية ومعناها الارض الواطئة ولقد أطلق العرب على هذا الاقليم اسم السواد لخضرة الزرع والنخيل التي فيه وللتمييز بين ارضه وارض الصحراء.
انظر ياقوت الحموى : معجم البلدان مادة عراق.

Olmstead : History of Assyria (New York, 1923) P. 60.

(47) Browne : A literary, History of Persia P. 38, 113.

48) انظر ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص 76 ، 77.

تعاليم ماني وأختلافها عن الزرادشتية اذ كان زرادشت يدعو الى العمل، وكان في تعاليمه مؤيدا للقومية والنزعة الحربية، مما يتفق وميول فارس اذ ذاك، وعلى العكس من ذلك تعاليم ماني، فهي اميل الى الزهد والرغبة عن ملاذ الحياة واستعجال الفناء، وهي ـ ولاشك ـ في منتهى الخطورة لمملكة حربية كفارس وسؤيد هذا ما جاء فيالآثار الباقية للقزويني (49)

« إن بهرام قال: أن هذا خرج داعيًا إلى تخريب العالم: فالواجب ان نبدأ بتخريب نفسه قبل ان يتهيأ له شيء من مراده» ورغم ذلك فقد بقيت المانوية ذات اثر فعال في موطنها الاصلي بابل بعد ظهور الاسلام ونلاحظ اثرها في الاسلام نفسه.

وبعد قرنين من الزمان، وفي فترة الفوضى التي عقبت هزيمة الملك فيروز ومصرعه في المعركة التي خاضها ضد الهون البيض (50) سنة 484م.

ظهر معلم ديني آخر هو مَزْدَک الذي واصل، فعل ماني من قبل ويروي كل من الطبري وابن الاثير أنه من أهل نيسابور، ودعا الى مذهب ثنوى جديد، فكان يقول ايضا بالنور والظلمة، ولكن أكبر ما امتاز به « تعاليمه الاشتراكية» فكان يرى أن الناس ولدوا سواء فليعيشوا سواء، وأهم ما يجب فيه المساواة المال والنساء (51).

كما يروي الشهر ستاني :«وكان مزدک ينهي الناس عن المخالفة والمباغضة والقتال، ولما كان اكثر ذلك إنما يقع بسبب النساء والاموال فأحل النساء وأباح الأموال، وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ» (52).

ويضيف الطبرى: « قال مَزْدَک وأصحابه : ان الله إنما جعل الارزاق في الارض ليقسمها العباد بينهم بالتآسي، ولكن الناس تظالموا فيها، وزعموا أنهم يأخذون للفقراء من الأغنياء، ويردون من المكثرين على المقلين، وأن من كان عنده فضل من

---

49) البيروني : الاثار الباقية في القرون الخالية

ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 1 ص 388 ـ 390. ج 6 ص 105

50) أقوام تركية مغولية الاصل جاءت من جبال التاي احتلوا الصغد وقندهار وايران 502 ـ 530م.

51) الطبري : تاريخ الرسل والملوک ج 2 ص 88.

ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج1 ص 413، 434-435، 512.

52) الشهر ستاني : الملل والنحل

الأموال والنساء والامتعة فليس هو بأولى من غيره، فافترض السفلة ذلك واغتنموه، وكاثفوا مزدك وأصحابه وشايعوهم فابتلى الناس بهم، وقوي أمرهم، حتى كانوا يدخلون على الرجل في داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله» (53).

وواضح من النصوص السابقة، المسحة الاشتراكية في تعاليمه وحتى اعتبرها أحمد أمين «أشتراكية من أسبق الاشتراكيات في العالم» كما وصفها المستشرق نولدكه «ان الذي يميز مَزْدَك عن الاشتراكية الحديثة ما لتعاليمه من الصبغة الدينية» (54).

واعتنق الملك الجديد قباذ الاول مذهب مزدك سنة 488م رجاه ان يضع حداً، من غير شك، لنفوذ رجال الدين وطبقة النبلاء الذي كان يتهدد النظام الملكي، ولكن رجال هاتين الطبقتين كانوا لايزالون من القوة بمحل استطاعوا معه ان يخلعوا قباذ هذا حتى اذا خلفه ابنه كسرى الاول جعل الزرادشتية الرشيدة مذهب الدولة الرسمي، من جديد، فخلع عليه كهانها الشاكرون لصنيعة لقب « انو شروان» اي الروح الخالدة.

وأما العامل الرابع فهو ازدياد سلطة طبقة النبلاء وكانت طبقة النبلاء قد تكونت، في حالات كثيرة، من أمراء المقاطعات الذين كانوا مستقلين، عمليا، على عهد الارساكين والذي استطاع الساسانيون أن يحدوا من استقلالهم، وأن لم يقدروا على اخضاعهم بالكلية.

والواقع ان الدولة ماكان في ميسورها أن تستغني عن النبلاء،لان الفلاحين العاملين في أراضي هؤلاء كانوا يشكلون قلب الجيش، أعني الفرسان المدججين بضروب الاسلحة والدروع الثقيلة، ومن ثم كانت مناصب القيادة العسكرية العليا، كما كانت بعض مناصب البلاط، وقفا على أسر نبيلة معينة يتوارثها الابناء عن الآباء.

وبعد وفاة قباذ الثاني في طاعون سنة 628م تدخل هؤلاء النبلاء في شؤون الدولة، كدأبهم من قبل، تدخلا لم يكن في صالحها، فخلعوا سلسلة من الملوك بينهم بنتان من بنات كسرى الثاني، ولم يعد في مقدور أمير الجيوش الامبراطورية نفسه ان يدعم دعائم الملك المتداعية على الرغم من أن سلطته طغت في وقت من

53) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج 2 ص 88 وما بعدها.
54) انظر احمد أمين : فجر الاسلام ص 109 ـ 110

الأوقات على جميع مرافق الدولة وقواها. حتى إذا رقى العرش، سنة 632، يزدجرد، آخر ملوك الساسانيين كان العرب على أهبة الهجوم على الفرس ، والقضاء على استقلالهم بضربة حاسمة (55).

ب ـ الامبراطورية البيزنطية:

دولة تأسست في القسم الشرقي من الامبراطورية الرومانية من البوسفور حتى الفرات وتنسب الى بيزنطة وهي مستعمرة يونانية أستت على البوسفور فيالقرن السابع قم اعاد بناءها قسطنطين الاول الكبير (274 ـ 337م) في 330م وسميت القسطنطينية وجعل منها عاصمة الامبراطورية الشرقية.

فالحالة السياسية لبيزنطةقبل الفتح الاسلامي كانت تتميز بالاضطرابات اذ كان هرقل واليا للامبراطور اليزنطي على افريقية ولكن نتيجة للصراع السياسي داخل الامبراطورية اليزنطية وتهديد قبائل الآفار للبلقان قام هرقل بانقلاب عسكري وأستولى على مقاليد الامور في القسطنينية وعرف بهيرا كليوس الاول Herxlius I وحكم في الفترة من 610 ـ 641م وتميز عهده بحروب كثيرة وتطورات جذرية.

فقد قام الفرس بهاجمة املاك بيزنطة فأحتلوا انطاكية في 611م والقدس في 614م ومصر 619م كما عاود الأفآر مهاجمة البلقان وتهديد القسطنطينية في 617م وتمكن هرقل من تنظيم الجيش البيزنطي ورد الآفار ثم تحرير الولايات التابعة لبيزنطة والتياحتلتهافارس وطارد الفرس الى ما وراء نهر الفرات واحتل تبريز.

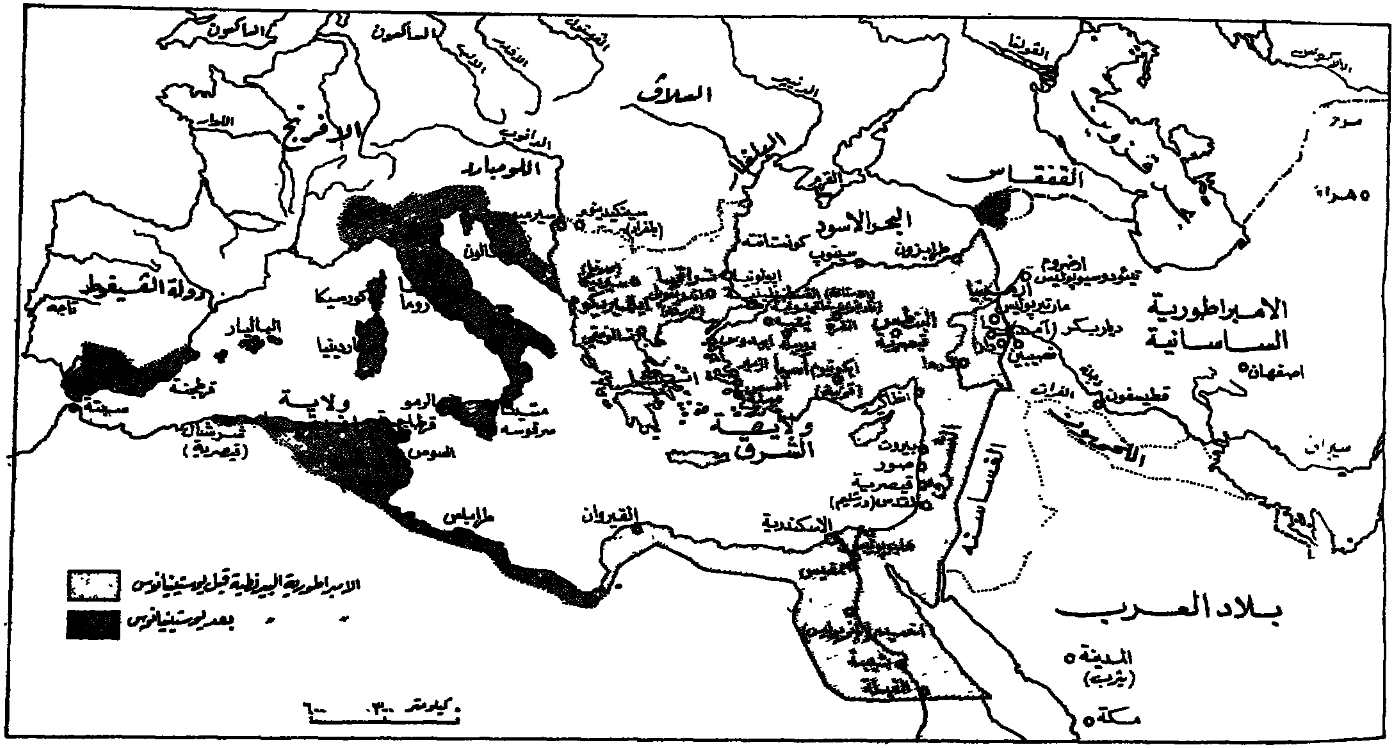
لقد أفلح جستنيان امبراطور بيزنطة قبل الفتح الاسلامي بمائة عام في انّ يكسب الامبراطورية الرومانية مظهرا من مظاهر الوحدة ولكنها سرعان ما تصدعت بعد موته، وأصبحت في حاجة ماسة الى شعور قومي مشترك يربط بين الولايات وحاضرة الدولة.

---

(55) J B Bury : History of the later Roman Empire vol. I. P. 95 - 100.

•ارثر كريستينسن : ايران في عهد الساسانيين ترجمة يحيى خشاب، وعبد الوهاب عزام (القاهرة 1957) ص 213، 215، 300 وما بعدها.

•بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص 92.



الامبراطورية البيزنطية

أما هرقل فقد بذل جهودا لم تصادف نجاحا كاملا في إعادة ربط الشام بالحكومة المركزية، ولكن ما اتخذه من وسائل عامة في سبيل التوفيق قد ادى لسوء الحظ الى زيادة الانقسام بدلا من القضاء عليه. ولم يكن ثمة ما يقوم مقام الشعور بالقومية سوى العواطف الدينية ، فحاول بتفسيره للعقيدة تفسيرا يستعين به على تهدئة النفوس، ان يقف كل ما يمكن ان يندلع بعد ذلك بين الطوائف المتناحرة من خصومات، وان يوحد بين الخارجين على الدين وبين الكنيسة الارثوذكسية، وبينهم وبين الحكومة المركزية (56).

اذ كانت الديانة المسيحية في ظل الامبراطورية البيزنطية وولاياتها بالشام ومصر وافريقية قد انقسمت الى طوائف ومذاهب اهمها في الشرق:

فرقة اليعاقبة وهمالمسيحيون الذين انفصلوا عن كنيسة انطاكية بالشام على اثر المناقشات حول طبيعة المسيح وانتشرت هذه الفرقة في سورية وبلاد ما بين الرافدين (العراق) بفضل يعقوب البردعى وأسسوا كنيسة كان لها اتباع في مصر والشام والنوبة والحبشة وفرقة النساطرة وهم أتباع نسطور بطريق القسطنطينية سنة 428م الذي قال بانكار لقب مريم ام الله فحرمه مجمع افسس في431م وتوفي في منفاه سنة 450م وأطلق على اتباعه النساطره، وكانت منتشرة في الموصل والعراق وفارس، وفرقة الملكانية وهم أتباع المذهب الاصلاحي الذي سعى هرقل لفرضه على الطائفيين في مجمع خلقيدونية سنة 451م.

وكان بين هذه المذاهب جدال في العقائد الدينية، فاليعاقبة كانوا يرون ان المسيح هو الله، وأن الله والانسان اتحدا في طبيعة واحدة هي المسيح، والملكانية والنساطرة قالوا: إن للمسيح طبيعتين متميزتين : الطبيعة اللاهوتية والطبيعة الناسوتية (البشرية) وان اختلفت الطائفتان فيما عدا ذلك من التفاصيل.

---

56) الكنائس الارثوذكسية هي الكنائس المسيحية الشرقية البيزنطية التي كانت على خلاف مع الكنيسة الكاثوليكية قبل الفتح العربي للشام ومصر ثم انفصلت عن الكنيسة الكاثوليكية على أيام ميخائيل كيرولارس بطريك القسطنطينية سنة 1054م حيث شكلت كنائس مستقلة تحت سلطة بطاركتها

انظر توماس أرنولد : الدعوة الى الاسلام ص 71.

وقد استمر الخلاف بين هذه الفرق في ماللاهوتية والناسوتية من ارادة وفعل متحدتان في المسيح، أو مختلفتان؟ قالت اليعاقبة بالأول، وقالت النساطرة ان للمسيح ناسوتية لها ارادة، ولها فعل يختلف كل الاختلاف عن العنصر اللاهوتي واختلفوا في تصوير اتحاد اللاهوت بالناسوت، فقال اليعاقبة كاتحاد الماء يلقى في الخمر فيصيران شيئا واحدا، وقالت النسطورية كاتحاد الماء يلقى في الزيت، فكل واحد منهما باقي بحسبه، وقالت الملكانية كاتحاد النار في الصفيحة المحماة (57).

وهكذا لقى هرقل المصير الذي انتهى اليه كثيرون جدا ممن كانوا يأملون ان يقيموا دعائم السلام، ذلك أن الجدل لم يحتدم مرة أخرى كأعنف ما يكون الاحتدام فحسب، بل ان هرقل قدوصف بالالحاد وجر على نفسه سخط الطائفتين على السواء.

والواقع أن الشعور الذي أثاره هذا الامبراطور قد بلغ من المرارة مبلغا يبرر الاعتقاد بأنه حتى السواد الاعظم من الارثوذكس من رعايا الدولة البيزنطية الذين كانوا يقيمون في البلاد المفتوحة في عهد هذا الامبراطور هم الذين رحبوا بالعرب، وقد نظروا الى الامبراطور نظرة الكراهية باعتباره خارجا على الدين، وكانوا يخشون أن يأخذ في اضطهادهم وإرغامهم على القول بوحدة مشيئة المسيح.

ومن أجل هذا استقبلوا بالرضى ـ بل بالحماسة ـ هؤلاء السادة الجدد الذين وعدوهم بالتسامح الديني، وأظهروا رغبتهم في تسوية مركزهم الديني واستقلالهم القومي لو أنهم استطاعوا أن يخلصوا أنفسهم من الخطر العاجل الذي كان يحدق بهم (58).

وهكذا نرى أن الفرق النصرانية المنتشرة في البلاد التي سيفتحها المسلمون كانت مختلفة وتتجادل في العقيدة وفي الله جدالا شديدا، ولم يقتصر الجدال على

---

57) ابن حزم : الملل والنحل جا ص 53. Boer : History of Philosophy In islam P. 12
،أحمد أمين : فجر الاسلام ص 125.،

58) I. A. Dorner : A System of Christian Doctrine vol. III pp. 215-16 (London 1885)
J. C. Robertson : History of the Christian Church, vol. II p 226 (London 1875)
توماس ارنولد : الدعوة الى الاسلام ص 72.

العقيدة، بل واختلفوا في مسائل كثيرة مثل نزول المسيح يوم القيامة من عدمه والحشر يكون للارواح والأبدان أم للأرواح فقط ولم يقتصر الجدال والخلاف على المنافشة والمجادلة الفكرية، بل تعداها الى الاضطهاد والتكفير فقد اضطهدت كل فرقة انصار الفرقة الاخرى وكفرت كل فرقة زميلتها وحرمت اتباعها من رحمة الكنيسة وقامت بالتحريض على القبض عليهم والقائهم في السجون. وهذا يفسر لنا ترحيب شعوب الولايات البيزنطية بالفاتحين العرب.

أما عن الفتوح الإسلامية في عصر الراشدين فقد بدأت العمليات العسكرية بالإحتكاك بكل من الامبراطوريتين الفارسية والبيزنطية ثم تطورت إلى مواجهة عسكرية وانتهت بالقضاء على الإمبراطورية الفارسية واقتطاع أهم ولايات الامبراطورية البيزنطية في قارة آسيا وطردها نهائيًا من قارة افريقيا ثم محاولة تطويقها خلال العصور الوسطى شرقًا عبر آسيا الصغرى، وغربًا عبر جزر البحر الأبيض المتوسط حتى تمكن المسلمون من اسقاط العاصمة البيزنطية في 1453 م على يد العثمانيين حاملى لواء الإسلام في ذلك الوقت .

ا ـ فتوح العراق وفارس :

بعد القضاء على ثوار البحرين اتجه المثنى بن حارثه الشيباني على رأس ثمانية آلاف مقاتل الى الحدود الفارسية حيث قام بشن الغارات، ولما تم لخالد ابن الوليد القضاء على فتنة مسيلمه في اليمامة أمره الخليفة أبو بكر بالمسير الى العراق، فقدم خالد على رأس عشرة آلاف مقاتل.

قام خالد بتقسيم جيشه الى ثلاثة أقسام الاول بقيادة المثني والثاني بقيادة عدى بن حاتم والثالث بقيادة خالد والتقى المسلمون بالقوات الفارسية في عدة وقائع، منها ذات السلاسل في الحفير وأليس وهو على الفرات ووقعة يوم فراتْ وتمكن خالد من الانتصار على حاميات الفرس وبالتالي سقطت الحيرة نفسها في ايدي المسلمين 12هـ/633م، ويوضح ابن الاثير موقف خالد من طبقة الفلاحين التي كانت تعمل بالاراضي الزراعية في المناطق المفتوحة بقوله: « ولم يعرض خالد وأصحابه الى الفلاحين لأن أبا بكر أمرهم بذلك» وفي مكان آخر «وبذل (خالد)

الامان للفلاحين فعادوا وصارو ذمة» أي ان المسلمين لمْ يقوموا بتدمير الارض المنتجة خلال هذه الفتوحات، بل ابقوا عليها واكتفوا بالجزية.

تم لجند ابي بكر فتح جنوبي العراق في سهولة ويسر غير متوقعين مما أدى بالفرس الى ادراك الخطر المحدق بهم، فحشدوا جيشا كبيرا وأرسلوه لاجلاء المسلمين وفي نفس الوقت أرسل خالد بن الوليد على رأس نصف قواته، لنجدة حملة الشام وتولى المثني بن حارثة الشيباني قيادة النصف الثاني بالعراق، كما توفي الخليفة أبو بكر الصديق في جمادى الآخر من سنة 13هـ634م (59).

تولى عمر بن الخطاب الخلافة بعده وقام بإرسال الامدادات الى جند المسلمين في العراق، بقيادة أبي عبيـــد بن مسعود الثقفى والتقى المسلمون بالفرس في معركة الجسر أوقُس الناطف أو المروحة بجوار الحيرة في 13هـ/634م فقد عبر أبو عبيد الفرات على جسر من السفن، ودارت المعركة بين الفريقين، فهزم المسلمون بسبب استخدام الفرس للفيلة التي اثارت الذعر بين الخيول العربية وقتل أبو عبيد الثقفى « وتتابع سبعة انفس من ثقيف كلهم يأخذ اللواء ويقاتل حتى يموت» ثم أن رجلا من ثقيف حينما وجد المسلمون ينسحبون أمام الفرس بادر إلى الجسر فقطعه وقال : « يأيها الناس موتوا على ما مات عليه امراؤكم أو تظفروا !» فوجد المثنى عسرا شديدا في تأمين خط التراجع للجيوش المنهزمة (60).

والواقع أن سياسة فارس الداخلية الشديدة التعقيد حالت بينهم وبين اجتناء ثمرة انتصارهم هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية لم تقضْ الهزيمة على الروح المعنوية للمثنى بن الحارثة الذي سرعان ما أعاد ترتيب جيشه وتمكن في العام التالي من انزال الهزيمة بالفرس عند البُويب، على الضفة المقابلة من احدى قنوات الفرات الغربية وقتل قائدهم مهران (61).

---

59) ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ 2 ص 385 ــ 387 ، 407.

60) البلاذري : فتوح البلدان ص 251 ــ 252.

الطبري :تاريخ الرسل والملوك جـ 1 ص 2194 ــ 2201.

ابن الاثير: الكامل في التاريخ ص 432 ــ 433 ، 438ــ 439.

61) ابن الاثير: الكامل في التاريخ جـ2 ص 442.

تولى قيادة الجيوش الإسلامية بالعراق سعد بن أبي وقاص بعد المثنىابن الحارثة الذي توفي بسبب أحدى الجروح التي أصابته خلال المعارك بعد تأدية دوره بالرغم أنه لم يكن الا سيدا من أسياد البدو لانفوذ له في المدينة أو مكة ولم يسلم الا بعد وفاة الرسول.

أما سعد بن أبي وقاص فهو من التابعين والسابقين الى الاسلام وكما جاء في نصيحة عمر بن الخطاب له حين عينه على جيوش العراق « لايغرنك من الله أن قيل خال رسول الله (ص) وصاحب رسول الله (ص)» فهو احد الصحابة العشرة الذين بشرهم الرسول (ص) بالجنة على أثر وقعة بدر (62).

وفي مطلع صيف 635م استعد الفرس لخوض معركة أخيرة حاسمة فبعد فترة طويلة من حكم الاميرات الساسانيات تمكن الفرس من الاتفاق على تولية يزدجرد العرش الساساني وكان لايزال في مقتبل العمر فتطلع بحزم وجد الى دفع الخطر الذي كان يتهدد حدوده مع العرب وكان على رأس الجيش الفارسي رستم نفسه، قائد الجيش الامبراطوري.

التقى الجيشان في القادسية غربي مدينة النجف الحالية وعلى بعد ثمانية عشر ميلا ونصف من مدينة الكوفة التي سوف يقيمها المسلمون بعد ذلك والتي كانت تعتبر باب الفرس كما قال عمر اذ ليس من قبيل الصدفة أن أتخذ كل من الجيشان من القادسية مكانا مفضلا لإقامة معسكره، بل ذلك يرجع إلى موقعها الاستراتيجي الهام. وظل كل من الفريقين يترقب أن يكون عدوه هو البادئ بالهجوم طوال أسابيع عديدة قام خلالها سعد بإرسال السرايا للحصول على الميرة واللحوم لجيشه الذي بلغ عدده حوالي ثلاثين ألف مقاتل .

---

62) ابن الاثير: الكامل في التاريخ ج2 ص 59، 111، 115، 160 اذ كان سعد بن ابي وقاص أول من رمى بسهم في سبيل الله وبعد هزيمة احد دافع عن الرسول « ورمى سعد.. فكان رسول الله (ص) يناوله السهم ويقول :ارم فداك ابي وأمي».

«وكانت أم ايمن حاضنة رسول الله (ص) ونساء من الانصار يسقين الماء، فرماها حبان بن العرقة بسهم فأصاب ذيلها، فضحك، فدفع النبي (ص) الى سعد بن أبي وقاص سهما وقال :ارمه، فرماه فاصابه، فضحك النبي (ص) وقال استقاد لها سعد، أجاب الله دعوتك وسدد رميتك»

التقى الجيشان وأستمرت المعركة لمدة أربعة أيام ونظرا لكثرة عدد المقاتلين من الجانبين وطبيعة تكوين الجيش الاسلامي التي تعتمد على القبيلة كوحدة أساسية، تتحرك وتقاتل مستقلة عن الأخرى بأوامر وتوجيه من قائد الجيش سعد ابن ابي وقاص الذي أدار المعركة من أعلى القصر الذي تحول الى مستشفى لبعض المرضى وسجن للمعاقبين. لذلك فقد تعددت المعارك طوال الأيام الاربعة مثل أرماث وأغواث وعماس والقادسية في اليوم الرابع حيث انهزم الفرس وتمكن هلال ابن علقمة. أحد جنود المسلمين من قتل قائدهم رستم وبلغت خسائر الفرس نحو ثلاثين ألفا.

ورغم ذلك فان خسائر المسلمين الذين لم يحققوا انتصارهم إلا بفضل الامدادات التي تدفقت عليهم من سورية أثناء المعركة كانت ثقيلة اذ بلغت نحو ثمانية الاف، حتى أن المسلمين اضطروا في بادئ الأمر أن يدعوا بقية القوات الفارسية تنسحب امنة دون متابعتهم، ولكن مالبث المسلمون أن تقدموا عبر الفرات، الى المدائن عاصمة الامبراطورية بعد أن أقام سعد بجيشة بالقادسية لمدة شهرين (63).

وحاول الفرس وقف الغزو الإسلامي أو تأخيره خلال محاولتين الاولى بالقرب من بابل حيث كانت قد تجمعت فلول الجيش الفارسي فدارت معركة بينهما أسفرت عن هزيمة الفرس وأضطروا الى الفرار الى المدائن ونظرا الى ان نهر دجلة كان طافحا بالماءمن سيول الربيع فقد قام الفارون برفع المعابر والسفن حتى يحولوا بين المسلمين والعبور اليهم، ولم يثبط الامر من عزيمة القائد سعد فما زال حتى عبر دجلة ونزل الضفة الشرقية ولم يفقد شيئا ولم يغرق من جمعه أحد فقالت الفرس «والله ما تقاتلون الا جنا».

---

(63) وبسبب اهتمام الخليفة بهذه الحملة، كان يخرج كل يوم يتنسم اخبارها، حتى جاءه البشير بالفتح على المسلمين. ويقال ان الرجل الذي حمل الخبر الى المدينة التقى بعمر خارجها، فسأله عمر عن الجيش، فقال « هزم الله العدو» وأسرع الرجل براحلته الى المدينة، ولايعرف ان الذي يكلمه عمر، فأخذ عمر يجري وراءه وهو يقول « ياعبد الله حدثني» ،فلايزيده الرجل عن العبارة السابقة حتى دخل الرجل المدينة ليبشر الخليفة الذي لم يعلم أنه الرجل الذي يتبعه جريا على قدميه وهو الراكب، واذ بالمسلمين يسلمون على عمر بالامارة فكاد الرجل ان يصعق لانه لايعرف عمر، فهدأ عمر من روعه بقوله «لا عليك يااخي» ثم تسلم عمر خطاب سعد.

وقام المسلمون بمحاصرة المدائن، يرمونها بالمجانيق ويدبون إليها بالدبابات ويقاتلونهم بكل عدة، حتى استسلم أهلها بعد فترة من الزمن، بعد أن فر معظم أهلها والأسرة الإمبراطورية الى حلوان وأعقب ذلك خضوع المدن الواقعة غربي الدجلة.

فتح المسلمون القادسية والمدائن ثم بدأ بعد ذلك فتح العرب المنظم لبلاد الفرس،وكان لهذا الفتح قوة مركزية تعسكر في القاعدة الحربية في البصرة. وورد كتاب عمر بن الخطاب الى سعد يأمره فيه أن يتخذ الكوفة دار هجرة للمسلمين ومدينة يسكنونها ومقرا للجند وهي على مقربة من الحيرة القديمة بدلا من المدائن التي كان سعد قد ابتنى فيها أول مسجد للاسلام في ديار العراق كدليل بأن احتلال المسلمين للبلاد يحمل طابع الإستمرار والإستقرار (64).

جمع يزدجرد فلول جيشه الامبراطوري وعززه بقوات جديدة ثم صار يتقدم شيئا فشيئا نحو وادي نهر ديالي، الذي يصب في دجلة شمالي المدائن
فوجه سعد اليهم أثنى عشر ألف مقاتل بقيادة هاشم بن عتبة في 16هـ/637م فهزمهم في جلولاء وعلى الرغم من أن البلاط الامبراطوري حاول الصمود فترة من الزمان في حصون حلوان فقد كانت الاراضي السهلية الممتدة حتى حدود الجبال قد سقطت في أيدي المسلمين. ولذلك فحينما أستولى القعقاع بن عمرو أحد قادة المسلمين على حلوان المقر الامبراطوري بعد فرار الامبراطور وحاشيته منه، وأستأذن المسلمون الخليفة عمر في أتباع الفرس رفض وقال: «لوددت أن بين السواد وبين الجبل سدا لايخلصون إلينا ولا نخلص إليهم حسبنا من الريف السواد، إني آثرت سلامة المسلمين على الانفال». كما يروى بعد استيلاء المسلمين على الأهواز أن عمر كان يقول : «وددت أن بيننا وبين فارس جبلا من نار لانصل اليهم منه ولايصلون الينا»

احتل العرب البسطاء أعظم العواصم الملكية في آسيا الغربية وأحدقت بهم أسباب البذخ ونعموا بوسائل الراحة وأستقر سعد في القصر الملكي الفارسي حيث

---

64) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جا ص 2436.
ابن الاثير: الكامل في التاريخ ج 2 ص 509.
Olmstead : History of Assyria. P. 60.

إيوان كسري والمجالس الرحبة والقناطر البديعة والرياش الفاخر ومن الروايات التي أوردها المؤرخون المسلمون يمكن أن نلاحظ الفرق بين حضارة الفرس وبساطة العرب فيروى أن أعرابيا ظفر بجراب فيه كافور فظنه ملحا وطبخ طعاماً وضعه فيه وأن بعضهم كان يأخذ في يده الذهب الاحمر ويقول من يأخذ الصفراء ويعطيني البيضاء، يرى أن الفضة خير من الذهب. ولما أعطى خالد إبنه أحد أمراء الحيرة لاعرابي من جنوده باعها الاعرابي بألف درهم ولما لامه أصحابه على إكتفائه بذلك القدر الضئيل من المال قال: «ماكنت أظن عددا يكون أكثر من عشر مائة» (65).

ولذلك فقد لاحظ عمر بن الخطاب على من وفد عليه من رسل جنده بالعراق تغير اللون والحال وحينما استفسر عن ذلك أخبروه أنها خومة البلاد وأن العرب لايوافقها الا ما وافق ابلها من البلدان فأمر عمر باختيار منزل بري بحري يناسب العرب فاختير موضع مدينة الكوفة الحالية.

ويروى الواقدي ان عمر بن الخطاب كتب الى سعد بن ابي وقاص يأمره ان يتخذ للمسلمين دار هجرة وقيروانا وأن لايجعل بينه وبينهم بحرا فأتى الانبار وأراد أن يتخذها منزلا، فكثر على الناس الذباب، فتحول الى موضع آخر فلم يصلح فتحول الى الكوفة فاختطها وأقطع الناس المنازل وأنزل القبائل منازلهم وبنى مسجدها وذلك في 17هـ» (66) وارتحل سعد إليه في المحرم 17هـ/يناير 638م وخير جنده بين المقام بالمدائن كالمسلحة لحماية المدينة وبين الانتقالمعه الى الكوفة وأقامت العرب أولا في خيامهم ثم أذن لهم أن يبنوا بيوتا من القصب وما أن تعرضت المدينة للحريق حتى أذن عمر لهم ببناء دورهم باللبن.

وفي نفس هذا العام بنيت دور البصرة باللبن بالرغم من استقرار العرب بها منذ سنة 14هـ.

---

65) البلاذري: فتوح البلدان ص 394.
الدينوري : الاخبار الطوال ص 134.
ابن الطقطقي: الفخرى ص 114.
ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 2 ص 521، 538.
66) انظر البلاذري : فتوح البلدان ص 274.

ففي 14هـ/ 635م يذكر الطبري بعد فتح الحيرة «فقال عمر (ابن الخطاب) لعتبة (ابن غزوان) قد فتح الله جل وعز على اخوانكم الحيرة وما جولها وقتل عظيم من عظمائها ولست آمن أن يمدهم أخوانهم من أهل فارس فاني أريد أن أوجهك الى أرض الهند (البصرة) لتمنع أهل تلك الجيزة من امداد اخوانهم على اخوانكم وتقاتلهم................فأقبل عتبة في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً وانضوى إليه قوم من الاعراب وأهل البوادي فقدم البصرة في خمسمائة يزيدون قليلا أو ينقصون قليلا فنزلها في شهر ربيع الاول او الاخر سنة أربعة عشر والبصرة يومئذ تدعى أرض الهند» (67). ولكن لم يتم تخطيطها وتأسيسها الفعلي الا في السنة التي اختطت فيها الكوفة. ومنذ سنة 17هـ أصبحت كل من البصرة والكوفة قاعدتين حربيتين تخرج منهما الجيوش الاسلامية لاستكمال فتح بلاد فارس.

وبالرغم من اتفاق المؤرخين على أن سياسة عمر بن الخطاب اقتصرت على عدم عبور الجيوش العراقية الى بلاد فارس وعلى ألا تحول بينه وبين المسلمين في البلاد المفتوحة بحر أو جسر. الا أننا نلاحظ أن هذه السياسة كانت مرحلية تهدف الى انشاء القواعد الاسلامية في البلاد المفتوحة حتى تنطلق منها الجيوش وتجأ إليها عند الضرورة.

ولذلك ففي عام 17هـ قام العلاء بن الحضرمي والى البحرين بمحاولة غزو فارس عن طريق البحر عبر الخليج فعبرت الجنود من البحرين الى فارس، فخرجوا الى إصطخر وقامت الحرب بين العرب والفرس وحينما ادرك العرب عدم جدوى استمرار القتال خوف الهزيمة، ارادوا الانسحاب فحال الفرس بينهم وبين سفنهم، وحاول العرب الانسحاب تجاه البصرة بالعراق فحال الفرس كذلك بينهم وبين اتخاذ طريق البصرة، فعسكروا مكانهم.

---

67) انظر الطبري : الامم والملوك جـ4 ص 149.148 وقارن ماورد بالبلاذري فتوح البلدان ص 341 وما بعدها عن تطور عمران البصرة.

ولما بلغ عمر موقف المسلمين بأصطخر، قام. بعزل العلاء بن الحضرمي وأمد المسلمين بإثنى عشر الف مقاتل لانقاذهم، تمكنوا من شق ثغرة عبر خطوط الفرس وانسحبوا بالمسلمين الى البصرة (68).

أما الملك يزدجرد الذي أنسحب الى فارس، فقد أخذ يستعد للمعركة الفاصلة، التي تقرر مصير فارس ولكن الخلافة لم تعطيه الفرصة حتى يتحول من مرحلة التجهيز والاعداد الى مرحلة الهجوم وتحرير الولايات التي غنمها المسلمون خصوصا بعد أن قام يزدجرد بتحريض أهل فارس على الثورة. فوجهت إليه النعمان بن مقرن على رأس جيش مؤلف من جميع الجنود الذين كانوا على الحدود انذاك، ولم تكد تبدأ الحملة سيرها سنة 17هـ/ 638م. حتى وفق المسلمون الى احتلال قرمسين شمال شرقي حلوان، وبذلك سيطروا على المسالك المؤدية الى المناطق الجبلية.

أعلن يزدجرد التعبئة العامة في جميع بلاد الامبراطورية حتى بلغ جيشه حوالي 150 ألف مقاتل، بينما جيش المسلمين لم يتعد الثلاثين ألف مقاتل، والتقى الجيشان في نهاوند، جنوبي همدان في 18هـ، والجيش الاسلامي بقيادة النعمان ابن مقرن واستمرت المعركة لمدة يومين وأنتهت بانتصار المسلمين بعد موت قائدهم النعمان فخلفه حذيفة بن اليمان.

بعد هذه الهزيمة تقرر مصير الامبراطورية ولم يعد من الميسور مواصلة المقاومة ومن هنا لجأت فلول الفرس الى المدن المحصنة، وأخذت تدافع عن كل منها دفاعا مستقلا في وجه المسلمين الذين أخذوا يتقدمون لاحتلال البلاد. فسقطت اصفهان المدينة الرئيسية التي فزع اليها يزدجرد نفسه بعد المعركة فهرب الى طبرستان وهي المنطقة الجبلية الواقعة عند الطرف الجنوبي من بحر قزوين لعله يجد بين زعمائها النصرة ولكنهم لم يكتفوا بخذلانه فقط بل وناصبوه العداء فهرب الى مرو فأوصدت المدينة أبوابها في وجهه والتمس النجاة في بيت رجل طحان فأرسل اليه عامل خراسان من قتله في 651م فأختتمت بموتة السلالة الساسانية (69).

---

68) ابن الاثير: الكامل في التاريخ ج2 ص 527 ـ 528 ، 538 ـ 539.
محمد الخضري : تاريخ الامم الاسلامية ج 1 ص 217، 218.

69) انظر محمد الخضري : تاريخ الامم الاسلامية للاطلاع على تفاصيل هذه الفتوحات ج1 ص 224 ـ 228.

2 ـ فتوح الشام :

بعد استرداد بيزنطة، بيت المقدس، من الفرس. وفد هرقل حامى النصرانية ومعيد وحدة الامبراطورية الرومانية الشرقية كما يصفه رعاياه، الى بيت المقدس للاحتفال بهذه المناسبة في 629م بإعادة رفع الصليب الذي سبق أن غنمه الفرس الى مكانه- فأخبره قواده ان قبائل من العرب قد هاجموا المنطقة الواقعة ما وراء الاردن في مؤتة وان الجنود الرومان تمكنوا من صدهم بسهولة، وهي الحملة التي قادها زيد بن حارثة. وكان من الطبيعي ان تفسر هذه الواقعة على انها غزوة عادية من غزوات البدو الى المناطق الحضرية.

والواقع أنها الطلقة الاولى من نزاع مستمر لم ينته أمره حتى سقطت العاصمة البيزنطية القسطنطينية في 1453 على يد رافعي راية الاسلام في اواخر العصور الوسطى وحل اسم الله أكبر محل الصليب المنقوش والمرفوع على جدران سانت صوفيا أفخم كنيسة في العالم المسيحي حين ذاك (70).

ووضعت حروب الردة أوزارها وتفرغ المسلمون لتنفيذ تعليمات الرسول التي ترمى الى أحتلال بيت المقدس ومهما يكن من أمر، فقد كان هناك بعض القبائل العربية، تعيش في ظل الامبراطورية البيزنطية كما كان بعضا منهم يعيشون في ظل الامبراطورية الفارسية، ومن الضروري والطبيعي ان يحمل اليهم اخوانهم المؤمنون، الدعوة المحمدية خصوصا بعد ضعف هذه القبائل لان الكنيسة الملكية التي كانت تقوم بنفقات جيوش الامبراطور هرقل أمتنعت عن تقديمها لما رزحت تحته من الديون الثقيلة الناشئة عن الحرب الفارسية (71).

وإذا اعتبرنا كل من حملتى مؤته في 8هـ/629م، وتبوك في 9هـ/630م حملتي استطلاع وجس نبض البيزنطيين ، فقد آن الاوان لحملة ثالثة تحقق

---

70) الطبري : تاريخ الرسل والملوك جا ص 1610.
Theophanes P. 336
فليب حتى : تاريخ العرب جا ص 199 ـ 200.

71) M.J. de Goeje : Mémoire sur la Conquite de la Syrie 2éd Mém d'hist et de Géog. arabe II (leiden 1901) P.75 - 130.
بروكلمان: تاريخ الشعوب الاسلامية ص 93.

للمسلمين الاستيلاء على بيت المقدس، لذلك فقد استعد أبو بكر استعدادا خاصا لهذه الحملة على بلاد الشام.

ففي أواخر 12هـ/634م جهز أبو بكر أربعة فرق، الاولى برئاسة عمرو بن العاص والثانية برئاسة يزيد بن ابي سفيان.(72) والثالثة برئاسة شرحبيل بن حسنة، والرابعة برئاسة ابى عبيدة بن الجراح، وزحفت هذه الفرق الى الشام وباشرت العمليات العسكرية وقامت اولى المعارك بين فرقة يزيد والقوات البيزنطية بقيادة سرجيوس بطريق فلسطين في وادي عربة وهو منخفض عظيم جنوبي البحر الميت وتمكن يزيد من الانتصار وانسحب الروم الى ميناء غزة على البحر المتوسط، وأتبعهم المسلمون وادركوهم عند قرية يقال لها داثن وكادوا ان يفنوهم.

وفي نفس الوقت أرسل أبو بكر الى خالد بن الوليد الذي كان يقاتل في العراق مع بنى شيبان، يأمره بالتحول إلى جبهة الشام بنصف قوات جبهة العراق (73). وعبر بهم خالد البادية الى الشام وكما تختلف الكتب في وصفها الجغرافي كذلك تختلف اراء المؤرخين في تعيين الزمن الذي استغرقته تلك الرحلة الخاطفة (74).

وفجأ خالد مؤخرة الجيش البيزنطي بعد رحلة دامت 18 يوما وبدأت حملاته المظفرة «اتى مرج راهط فأغار على غسان في يوم فصحهم وهم نصارى فسبى

---

72) كان حامل لواء فرقة يزيد أخوه معاوية مؤسس الدولة الاموية بعد ذلك.

73) اختلف المؤرخون القدماء، حول عدد من رافق خالد من الجند كمدد لحملة الشام ويلخص ابن الاثير هذا الاختلاف بقوله :

« وقيل : سار من العراق في ثمانمائة، وقيل : في ستمائة وقيل : في خمسمائة، وقيل في تسعة الاف، وقيل : في ستة الاف وقيل :انما امره ابو بكر أن يأخذ اهل القوة والنجدة».

انظر الكامل في التاريخ جـ2 ص 407.

74) قارن البلاذري : فتوح البلدان ص 118 ـ 120 وابن واضح: تاريخ اليعقوبي جـ1 ص 133 ـ 134. والطبري: تاريخ الامم والملوك جـ4 ص 39، 41، 42 ـ 45 (بيروت 1979م). ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق جـ1 ص 130. ابن الاثير: الكامل في التاريخ جـ2 ص 407 ـ 410.

وقتل» (75) ثم قدم بصرى (اسكن شهر) (76) وأنضم الى الجيوش الإسلامية التي كانت قد لقيت الروم في اجنادين جمادي الاولى 13هـ في فلسطين بين الرملة وبيت جبرين وكتب فيها النصر لجيوش المسلمين الموحدة ضد قوات بيزنطة التي كان يقودها أرطيون أو الارطبون حسب المصادر الاسلامية، وبينما كان أرطيون ينسحب فارا الى بيت المقدس، استطاع بعض قواده، تفجير السدود في بيسان معطلين المخاضات عبر الاردن، حتى يتمكنوا من وقف متابعة المسلمين لهم، وان يحشدوا قواتهم المنهزمة على الضفة الاخرى من الاردن (77).

استطاع خالد بن الوليد ـ رغم ذلك ـ العبور وهاجم البيزنطيين في فحل الى الشرق من الاردن في ذي القعدة 13هـ وهي حصن يسيطر على معبر الاردن وتمكن من الانتصار، وتمهدت أمام المسلمين السبيل الى دمشق عاصمة الشام بعد ان هزموا جيوش البيزنطيين المجتمعة في مرج الصفر ـ سهل جنوب دمشق ـ وقام المسلمون بمحاصرة المدينة لمدة ستة شهور استسلمت بعدها في 13هـ، اذ صالح أهلها المسلمين عندما فرت حاميتها البيزنطية (78) وأصبح العهد الذي أعطاه خالد لاهل دمشق كما اورده البلاذرى مثلا اتبعه المسلمون مع أهل الذمة بعد ذلك :

---

75) البلاذري: فتوح البلدان ص 119.
تحقيق رضوان محمد رضوان (بيروت 1978م).
ومرج راهط من مضارب الغساسنة على بعد 15 ميل من دمشق بالقرب من عذراء.

76) كانت بصرى مركزا هاما للقوافل التجارية وأصبحت في العهد المسيحي كرسيا اسقفيا ذا شان واشتهرت بكنيستها الرائعة في القرن السادس الميلادي.

77) ابن الاثير: الكامل في التاريخ ج2 ص 417.
بروكلمان: تاريخ الشعوب الاسلامية ص 94.

78) ويروى ابن الاثير خطة فتح دمشق بقوله:« وسار أبو عبيدة وخالد فقدموا على دمشق ..فنزل ابو عبيدة على ناحية وخالد على ناحية وعمرو على ناحية.. فحصرهم المسلمون حصارا شديدا وقاتلوهم بالزحف والمجانيق ... وكان (خالد) قد اتخذ حبالا كهيئة السلاليم واوهاقا (حبل في طرفه انشوطة) فلما امسى ذلك اليوم نهد هو ومن معه... فلما وصل هو وأصحابه الى السور ألقوا الحبال فعلق بالشرف منها حبلان. فصعد فيهما القعقاع ومذعور واثبتا الحبال ..وثار اهل المدينة لايدرون ما الحال ..وفتح خالد الباب وقتل كل من عنده من الروم.

فلما رأى الروم ذلك قصدوا ابا عبيدة ويذلوا له الصلح... وقالوا له : ادخل وامنعنا من أهل ذلك الجانب...... فالتقى خالد والقواد في وسطها، هذا قتلا ونهبا وهذا صفحا وتسكينا، فأجروا ناحية خالد مجرى الصلح.
انظر ابن الاثير: الكامل في التاريخ ج2 ص 428 ـ 429.

«بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق اذا دخلها اعطاهم أمانا على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لايهدم ولايسكن شيء من دورهم، لهم بذلك عهد الله وذمة رسول الله (ص) والخلفاء والمؤمنين لايعرض لهم إلا بخير اذا اعطوا الجزية» (79).

ا ـ اليرموك : وفي 13هـ أستعد البيزنطيون بجيش كبير اذ يروي البلاذري (80) أن هرقل جمع « جموعا كثيرة من الروم وأهل الشام وأهل الجزيرة وأرمينية» بلغ عدده ما بين 100 الف الى 240 الف مقاتل (81) وولى عليه أخاه ثيودورس، فسارع خالد بن الوليد الى حشد جميع قواته المتوفرة بالشام التي حددها المؤرخون ما بين 24 ألف الى 40 ألف مقاتل (82).

التقى الجيشان بوادي اليرموك، وهو رافد يصب في الاردن ومرت شهور دارت فيها المناوشات بين الجيشين الى أن كانت المعركة في يوم حار انعقدت فيه سحب من الغبار الذي أذرته الرياح في بقعة من الارض تكاد تلتهب من شدة القيظ ولاشك ان خالد قد تخير ذلك اليوم وتلك البقعة للايقاع بالعدو ـ فقد إنهزم البيزنطيون هزيمة شنعاء، ذلك لأن الارمن الذين كانوا يؤلفون نصف جيش الروم كانوا حاقدين على الدولة البيزنطية، غير راغبين في القتال (83) كما يضيف البلاذري ان جبله ابن الايهم آخر أمراء غسان انضم الى الانصار قائلا: «أنتم أخوتنا وبنو أبينا» وتحول

79) البلاذرى : فتوح البلدان ص 128.

80) البلاذري : فتوح البلدان ص 140.

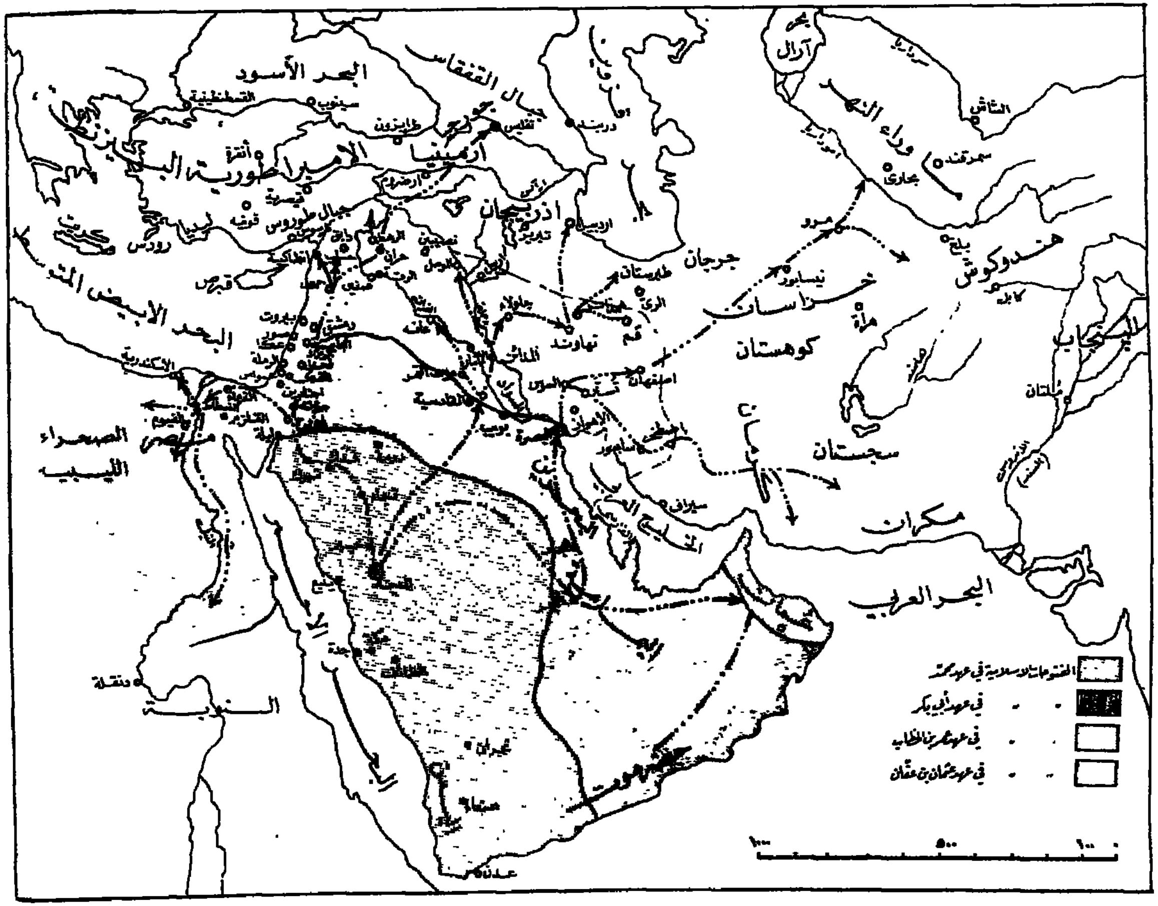
81) ويحدد الطبري عدد الجيش البيزنطي240 الف مقاتل «منهم ثمانون الف مقيد وأربعون ألفا منهم مسلسل للموت وأربعون ألفا مربطون بالعمائم وثمانون ألف فارس وثمانون الف راجل » انظر تاريخ الامم والملوك جـ4 ص 32.

اما ابن الاثير فيذكر لنا رواية اخرى تحدد عدد الجيش البيزنطي« وقيل :كانوا مائة ألف» انظر الكامل في التاريخ جـ2 ص 410 وقارن فليب حتى : تاريخ العرب جـ 1 ص 204.

82) انظر البلاذري : فتوح البلدان ص 141. الطبري : الامم والملوك جـ 4 ص 32، ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ2 ص 410.

83) بروكلمان: تاريخ الشعوب الاسلامية ص 95.

فليب حتى: تاريخ العرب جـ1 ص 204.



الفتوحات الاسلامية في عهد الخلفاء الراشدين

الى الإسلام وكان معه ثلاثين ألفا ولايستبعد اتصال قادة المسلمين بزعماء عرب غسان قبل المعركة والتآمر ضد العدو المشترك (84).

وأستحر القتال في الارمن والقبائل العربية التي حاربت مع بيزنطة حتى اضطروا من بقي حيا الى خندق ضيق المهرب بين نهر اليرموك ووادي الرقاد، أما من تمكن من الفرار وعبر النهر الى الضفة الاخرى، افنتهم الفرقة الإسلامية التي كانت في انتظارهم وقتل تيودورس اخو هرقل ولم يسلم من جيشه الا القليلون وهكذا فإن وقعة اليرموك كانت ضربة قاضية للبيزنطيين (85) حتى هرب هرقل من انطاكية حيث كان يدير الحرب مع المسلمين، الى القسطنطينية وقال : « السلام عليك ياسورية، سلام لا اجتماع بعده» (86) وحسب رواية ابن العبري: « سوزة سورية» وسوزة كلمة يونانية معناها «كوني بسلام ياسورية» (87).

ومن الجدير بالذكر انه خلال تقاتل الجيشان «قدم البريد من المدينة واسمه محمية بن زنيم، فأخبرهم بسلامةوأمداد، وإنما جاء بموت أبي بكر وتأمير ابي عبيدة . فبلغوه خالدا، فأخبره خبر أبى بكر سرا» (88).

ففي جمادى الاولى من سنة 13هـ/ 21 يوليه 634م توفي ابو بكر، وخلفه عمر، وكان أول أعمال عمر، هو عزل خالد بن الوليد من رئاسة الجبهة الشامية وتولية ابي عبيدة الجراج بدلا منه، ذلك أن عمر بن الخطاب كان ساخطا على خالد طوال فترة حكم ابي بكر الصديق بسبب، قضاء خالد على ثوره وارتداد بني يربوع وقتله زعيمهم مالك بن نويرة، حليف سجاح المتنبئة، وكان أبو بكر اوصى المسلمين ان يؤذنوا اذا نزلوا منزلا، فإن أذن القوم فكفوا عنهم، وإن لم يؤذنوا فاقتلوا وانهبوا، وإن أجابوكم الى داعية الاسلام فسائلوهم عن الزكاة، فان اقروا فاقبلوا منهم، وإن أبو فقاتلوهم».

---

84) البلاذري : فتوح البلدان ص 141 ـ 142.

85) ابن الاثير: الكامل في التاريخ ج 2 ص 413 ـ 414، فليب حتى: تاريخ العرب ج1 ص 204.

86) ويروي البلاذري ان هرقل قال :«عليك ياسورية السلام ونعم البلد هذا للعدو» انظر فتوح البلدان ص 142.

ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 2 ص 494.

87) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص 102.

88) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 2 ص 412.

وأختلف المسلمون حول بني يربوع، هل اذنوا ام لا، فأمر خالد بحبسهم وكانت الليلة باردة فأمر مناديا فنادى، ادفئوا أسراكم وهي في لغة كنانة القتل، فظن القوم انه اراد القتل، ولم يرد غير الدفء، فقتلوهم، وحينما علم خالد بذلك قال « اذا اراد الله امرا أصابه» وتزوج خالد ام تميم أمرأة مالك، وكانت العرب تكره التزويج أيام الحرب.

ولذلك ثار عمر على خالد وقال له : قتلت امرأ مسلما ثم نزوت على امرأته، والله لأرجمنك بأحجارك!» بينما كان موقف ابي بكر من خالد يتمثل في اجابته لعمر أذقال : « ياعمر! تأول فأخطأ، فأرفع لسانك عن خالد، فاني لاأشيم سيفا سله الله على الكافرين» (89).

أما خالد بن الوليد الذي أسلم قبل فتح مكة وصاحب الراية التي لم تهزم سواء قبل الاسلام ـ اذ كان سبب انتصار قريش في أُحُد على المسلمين ـ وبعد الاسلام سواء في الجبهة الفارسية او الجبهة الشامية، فقد تقبل قرار عمر بن الخطاب بقوله :

« الحمد لله الذي قضى على أبى بكر بالموت وكان أحب الي من عمر والحمد لله الذي ولى عمر وكان أبغض الي من أبي بكر ثم الزمني حبه»».

ولاشك ان ما بين عمر وخالد كان تنافسا في سبيل الله وفي سبيل نشر دينه، الاول بالعدل بين الناس وعدم السماح لاحدهم حتى ولو كان « سيف الله المسلول » بالتجاوز عن حدود الله. والثاني كقائد عبقرى يعدل خططه حسب ظروف المعركة ودون انتظار لرأي الخليفة او موافقته اذ الحرب خدعه وفرصة وتميزت خططه بالجرأة ، كما لايستبعد ان المسلمين الاوائل، نظروا دائما الى المتأخرين منهم خصوصا من قريش انهم أهل دنيا ويرجح ذلك انه بعد انتهاء معركة اليرموك التي انتصر فيها المسلمون ، تفقد خالد جرحاه، وأتى بعكرمة ابن ابي جهل جريحا فوضع رأسه على فخذه، وبعمرو بن عكرمة فجعل رأسه على ساقه ومسح وجههما وقطر في حلوقهما الماء وقال: «زعم ابن حَنْتَمة، يعنى عمر، أنا لانستشهد!» (90).

---

89) ابن واضح : تاريخ اليعقوبي ج2 ص 139.
الطبري: الامم والملوك ج3 ص 242 ـ 243،
ابن الاثير: الكامل في التاريخ ج2 ص 358، 359، 427.

90) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج2 ص 413 ـ 414.
محمد الخضري : تاريخ الامم الاسلامية ج1 ص 194.

وبالرغم من هذا فيذكر بعض الباحثين أن عزل خالد وتولية أبو عبيدة ابن الجراح جاء نتيجة الحاجة الى رجل ادارة وتنظيم يعمد الى المسالمة والسياسة، وكان ابو عبيدة من ارفع الصحابة قدرا وأعز رجال الحكومة الدينية بالمدينة الى الناس (91).

بعد هزيمة اليرموك وسقوط دمشق عاصمة الشام تساقطت مدن الشام الواحدة تلو الأخرى كأوراق الخريف، فقام يزيد ابن أبي سفيان الذي عين واليا على دمشق، بفتح بلاد ساحل دمشق صيدا وعرقه وجبيل وبيروت وطرد كثير من أهلها الروم (92).

اما حمص فحينما رأى الحمصيون هروب الحامية البيزنطية أمام الجيوش الاسلامية الزاحفة « هتفوا بطلب الامان فأمنهم المسلمون وكفوا أيديهم عنهم فأخرجوا اليهم العلف والطعام» وصالحهم ابو عبيدة بن الجراح على «أن امنهم على انفسهم وأموالهم وسور مدينتهم وكنائسهم وارحائهم واستثنى عليهم ربع كنيسة يوحنا للمسجد واشترط الخراج على من أقام منهم».

وقام المسلمون بالاستقرار بالمدينة اذ يروي البلاذري ان حمص قسمت «خططا بين المسلمين حتى نزلوها وأسكنهم في كل مرفوض جلا أهله أو ساحة متروكة» (93).

ويفصل ابن الأثير ما اجمله البلاذرى فيقول : «وأنزلها أبو عبيده السمط ابن الأسود الكندى في بنى معاوية، والاشعث بن ميناس في السكون، والمقداد في بلى وانزلها غيرهم» (94).

استمر المسلمون في الزحف شمالا، فسقطت بين ايديهم حماة وشيزر اللاذقية وكانت حصينة وفشل المسلمون في اقتحامها فلجئوا الى الخدعة اذ قاموا بحفر حفائر كالاسراب يستتر الرجل وفرسه في الواحدة منها، ثم اظهروا الانسحاب الى حمص وعادوا ليلا الى الحفائر وتخفوا، فلما أصبح اهل اللاذقية اعتقدوا بانسحاب المسلمين

---

(91) انظر فليب حتى: تاريخ العرب جا ص 205.

(92) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج2 ص 431.

(93) البلاذرى : فتوح البلدان ص 137.

(94) ابن الاثير: الكامل في التاريخ ج2 ص 492.

ففتحوا بابهم وكان عظيما لايفتحه الا جماعة من الناس وأخرجوا سرحهم ففوجئوا بخروج المسلمين من الحفائر ودخولهم المدينة (95).

ثم اتجه المسلمون الى قنسرين وفي نواحيها كانت المقاومة الاخيرة لفلول البيزنطيين بقيادة سيناس الذين لقوا هزيمة ثقيله وقتل اغلب قواتهم، فزحف المسلمون بقيادة خالد بن الوليد وحاصروا مدينة قنسرين، وأراد أهلها تسليم المدينة مقابل صلح حمص ولكن خالد ابى إلّاخراب أسوار المدينة فأخربها وسرعان ما تساقطت كل من حلب وأنطاكيه (76).

وهكذا تم فتح الشام بأكملها تقريبا وكان مركز القيادة الاسلامية في الجابية، في الجولان على مسيرة يوم واحد الى جنوبي دمشق، وكانت الجابية مقر الامراء الغسانيين من قبل، وقد احتفظت بأهميتها العسكرية.. حتى عهد الامويين (97).

ب ـ بيت المقدس وفلسطين:

في 15هـ/637م خرج عمر الى الجابية ومعه جلة الصحابة وخيارهم ليوطد الامن في الاراضي المفتوحة، ويقوم بتنظيم شئونها. ومن هناك وجه عمر، خالد بن ثابت لفتح بيت المقدس التي لم تلبث ان طلبت السلام، فتولى عمر نفسه عقد الصلح مع أهلها وكانت شروطه رفيقة غير ثقيلة. فقد اعطاهم عمر الأمان لانفسهم وأموالهم ولكنائسهم. كما منحهم الحرية الدينية على ان يعطوا الجزية للمسلمين، وعلى ان لايسكن ببيت المقدس معهم احد من اليهود. واورد الطبرى نص أمان عمر بن الخطاب وهو كالاتي:

« بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل ايلياء (بيت المقدس) من الامان أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها انه لاتسكن كنائسهم ولاتهدم ولاتنقص منها ولامن حيزها ولامن صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولايكرهون على دينهم ولايضار أحد منهم ولا يسكن بايلياء معهم أحد من اليهود وعلى أهل ايلياء أن يعطوا الجزية

95) البلاذري : فتوح البلدان ص 137، 138.

96) ابن الاثير: الكامل في التاريخ ج2 ص 494 ــ 495.

97) بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص 98.

كما يعطي أهل المدائن وعليهم أن يخرجوا منها الروم (واللصوص) فمن خرج منهم فانه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزية ومن أحب من أهل ايلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبهم فانهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ومن كان بها من أهل الارض .. فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله فانه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم.

وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين اذا اعطوا الذي عليهم من الجزية

شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمروبن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن ابي سفيان وكتب وحضر سنة خمسة عشر»

ودخل عمر بن الخطاب ساحة الهيكل المهجورة ببيت المقدس فأزال الردم بيده عن الصخرة المقدسة وأمر ببناء المسجد هناك (98).

حـ ـ بلاد الجزيرة: (99).

وبعد ان سقطت كل من العراق والشام بين أيدي المسلمين كان من الطبيعي ان تلحق بهما الجزيرة خصوصا وأنها كانت تقع بينهما اذ أصبحت بين شقى الرحى.

ففي شعبان سنة 18هـ/ 636م سار عياض بن غنم والى حمص وقنسرين بعد موت أبي عبيدة بن الجراح ، في طاعون عام 18هـ(100) على رأس خمسة آلاف مقاتل وعلى مقدمته ميسرة بن مسروق العبسي وعلى ميمنته سعيد بن عامر بن حذيم الجمحي وعلى ميسرته صفوان بن المعطل السلمى وتمكن المسلمون من الاستيلاء على مدينة الرقة بعد حصار لمدة خمسة او ستة أيام وصالحهم على ان تكون الارض التي تقع حول المدينة للمسلمين اذ قال عياض:

---

98) الطبري : الامم والملوك ج 4 ص 159 ـ 161.

99) بلاد الجزيرة : ما بين دجلة والفرات من جهة الشام يسمى جزيرة أقور وهي تشمل ديار مضر وديار بكر ومن امهات مدنها حران والرها والرقة ورأس عين ومصد.ـ وسنجار والموصل وغير ذلك.

100) يعرف هذا الطاعون « بطاعون عمواس وهي قيه بالشام بين نابلس والرملة انتشر بها الطاعون في 18هـ . انظر ابن خلكان: وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ج7 ص 214.

« الارض لنا قد وطئناها وأحرزناها فأقرها في أيديهم على الخراج، ودفع منها مالم يرده أهل الذمة، فرفضوه الى المسلمين على العشر، ووضع الجزية على رقابهم فألزم كل رجل منهم دينارا في كل سنة وأخرج النساء والصبيان ووظف عليهم مع الدينار اقفزة من قمح وشيئا من زيت وخل وعسل».

ثم استولى عياض على مدينتي حران والرها ومنذ ذلك الوقت اصبحت مدينة الرها هي القاعدة العسكرية التي تنطلق منها الحملات لإخضاع بقية اجزاء الجزيرة ومهاجمة ارمينيا. فالبلاذري يروى «وكان عياض يغزو من الرها ثم يرجع اليها» ويضيف الزهرى:« لم يبق بالجزيرة موضع قدم إلا فتح على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه على يد عياض بن غنم فتح حران، والرها، والرقة ، وقرقيسيا ونصيبين، وسنجار» وقد فتح هذه المدن صلحا أما أرضها فقد فتحت عنوة (101).

ولم يقاوم المسلمين مقاومة جدية الا مدينة رأس العين (عين الوردة)، ولكنها لم تلبث ان خضعت وفي 19هـ/641م قام عياض بغزوه على ارمينية نفسها، ليقضي نحبه بعد عودته الى مقر امارته بقليل.

وبالرغم من احتفاظ الجيوش البيزنطية ببعض المواقع الحصينة بالجزيرة الا ان الاراميين سكان البلاد الاصليين، كانوا خاضعين لاضطهاد الكنيسة الارثوذكسية السائدة آنذاك، بسبب من قولهم بمبدأ الطبيعة الواحدة للمسيح، فلم تكن بهم رغبة في الاحتفاظ بالوضع الراهن، ليس هذا فحسب، بل لقد وفقت قبائل العرب البدوية، قبل عهد الاسلام بقرون، الى ان تجتاح البلاد، والى ان تبسط سلطانها من حين الى حين على الرها والحضر، ولذلك فقد تمكن عياض بن غنم في خلال فترة لاتزيد على عام ونصف من اخضاع بلاد الجزيرة للسيطرة الاسلامية (102).

وبعد موت عياض تولى سعيد بن عامر بن حذيم ولاية بلاد الجزيرة، فقام ببناء مسجدى الرقة والرها ثم قام عمير بن سعد ببناء المساجد بديار مضر وديار ربيعة.

---

101) انظر هذه الروايات بالبلاذري: فتوح البلدان ص 178، 179 والطبري : الامم والملوك ج 4 ص 197 ـ 199.

102) بروكلمان: تاريخ الشعوب الاسلامية ص 98 ـ 99.

وما أن تولى معاوية بن أبي سفيان ولاية الشام وبلاد الجزيرة في عهد عثمان ابن عفان الذي «أمره ان ينزل العرب بمواضع نائية عن المدن والقرى ويأذن لهم في اعتمال الأرضين التي لاحق فيها لأحد، فأنزل بنى تميم الرابية وأنزل المازحين والمديبر اخلاطا من قيس وأسد وغيرهم، وفعل ذلك في جميع نواحي ديار مضر ورتب ربيعة في ديارها على ذلك، والزم المدن والقرى والمسالح من يقوم بحفظها ويذب عنها من أهل العطاء ثم جعلهم مع عماله (103).

3 ـ فتوح مصر وطرابلس وبرقة:

أ ـ فتح العرب لمصر:

وما أن أتم العرب فتح بلاد الشام حتى تطلع المسلمون الى فتح مصر لأسباب متعددة منها، موقعها المتميز بالنسبة لكل من الشام والحجاز وبلاد المغرب، وخصب تربتها الذي جعلها مخازن للحبوب والطعام لبيزنطة، واضطراب الاحوال السياسية بها، ففي 628م حاول الامبراطور هرقل، بعد ان أستخلص مصر من الفرس الفاتحين، ان يربط القبط القائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح بالكنيسة الامبراطورية،وفي سنة 631م عين كورش (المعروف في الكتب العربية بالمقوقس) الذي كان حتى ذلك الحين اسقف «فاسيس» في القبق (القوقاز) بطريركا على الاسكندرية ورأسا للادارة المدنية في وقت معا.

. ولكن سياسة المقوقس الكنسية والحاحه في جباية الضرائب الكثيرة ثقلا على القبط الى درجة كان من الطبيعي معها ان يرحبوا بالعرب كمنقذين، كما فعل السوريون، وهم اخوانهم في الدين من قبل (104).

يضاف الى تلك الاسباب، سبب هام وهو أن الفتح العربي لمصر يعتبر نتيجة حتمية اقتضتها طبيعة الحركة الاسلامية لتصفية الامبراطورية البيزنطية المعادية للإسلام، خصوصا وأن مصر في ذلك الوقت، كانت من أهم ولايات الدولة البيزنطية التابعة لها. كما ان المسلمين، كانوا قد تمكنوا من القضاء على الدولة الساسانية بالعراق وفارس.

---

(10) انظر البلاذري: فتوح البلدان ص 182، 183.

(10) بروكلمان: تاريخ الشعوب الاسلامية ص 99 ـ 100، فليب حتى: تاريخ العرب ص 215.

ومن خلال تصفحنا لكتب التاريخ التي تناولت الفتوحات العربية، نلاحظ انها أحاطت هذه الفتوح بهالة من الخيال والتنبؤات، ونسبت الى المسلمين وقوادهم أعمالا خارقة للبشر، لان العناية الآلهية كانت معهم تنقذهم وترعاهم رغم قلتهم، وتقودهم الى النصر دائما كما لو كان الامر يتعلق بمعجزة من المعجزات (105).

والحقيقة إن هذه الصورة، لاتنطبق على الواقع التاريخي،لان القيادة العليا للمسلمين كانت حريصة كل الحرص على سلامة أرواح جنودها، فلم تقدم على أي عمل حربي، الا بعد دراسة شاملة وتدبير محكم للخطط العسكرية الدقيقة المناسبة لجميع احتمالات النصر أو الهزيمة، حفظا لارواح المسلمين.

ولذلك كان فتح مصر على يد عمرو بن العاص، نتيجة لخطة موضوعة اقرها الخليفة عمر بن الخطاب مع كبار قواده في اجتماع الجابية سنة 18هـ،وفي ذلك يقول اليعقوبي: «ووجه عمرو بن العاص فقال له: ياأمير المؤمنين تأذن لي في أن أصير الى مصر، فإنا ان فتحناها كانت قوة للمسلمين، وهي من أكثر الارض اموالا، وأعجزه عن القتال، ولم يزل يعظم أمرها في نفسه، ويهون عليه فتحها» (106) وبعد أن أقام عمر بن الخطاب مدة في بيت المقدس يضيف ابن الاثير بقوله: « وأمضى عمرو بن العاص الى مصر واتبعه الزبير بن العوام » (107).

أما فاتح مصر وطرابلس وبرقة، فهو عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم ابن سعيد بن سعد بن سهم بن عمرو بن هُصيص ابن كعب بن لؤى القرشي السهمي، أسلم سنة ثمان من الهجرة قبل فتح مكة، مع كل من خالد بن الوليد المخزومي وعثمان بن طلحة بن ابي طلحة القرشي العبدرى.

---

105) حول هذه التنبؤات راجع ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ4 ص 269، ابن خلكان، وفيات الاعيان جـ4 ص 403.

عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ص 77. حاشية (3).

، أحمد مختار العبادي : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص 13.

106) أبن واضح : تاريخ اليعقوبي جـ 2 ص 147 ، 148.

107) ابن الاثير: الكامل في التاريخ جـ 2 ص 564.

وكان عمرو بن العاص من فرسان قريش وابطالهم في الجاهلية، وكان من الدهاة في أمور الدنيا المقدمين في الرأي، وكان عمر أذا استضعف رجلا في رأيه قال :أشهد ان خالقك وخالق عمرو واحد يريد خالق الاضداد (108).

وكان عمرو قد دخل مصر في الجاهلية للتجارة وعرف مدنها وطرقها ورأى كثرة ما فيها (109) فوافق عمر بن الخطاب على غزوها وقال لعمرو :«سيأتيك كتابي سريعا فإن لحقك كتابي آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل ان تدخل شيئا من أرضها، فانصرف، فإن دخلتها ثم جاءك كتابي فامضي واستعن بالله»(110).

رجع عمر بن الخطاب الى المدينة وشاور عثمان وسواه فتخوفوا على المسلمين وكرهوا ذلك فكتب الى عمر ان ينصرف عن مصر بمن معه فادرك الكتاب عمرا وهو لم يقطع الحدود الفلسطينية المصرية، فخشى ان هو أخذ الكتاب وفتحه ان يجد فيه الانصراف، فسار عمرو دون فض الكتاب حتى نزل العريش 19هـ/ اواخر ديسمبر 639م.

زحف عمرو بن العاص من العريش الى الفرماء (قرب بور سعيد الحالية) والتي تعد مفتاح مصر من الشمال الشرقي، على رأس أربعة آلاف مقاتل من قبيلة عك، وبعد قتال مرير تمكن المسلمون من هزيمة حامية المدينة والاستيلاء على المدينة، وقام عمرو بن العاص بتدمير اسوارها حتى لاتمثل خطرا على قوات المسلمين الزاحفة الى وسط مصر (111).

وقبل ان يزحف عـمرو الى وسط مصر، عمل على تأمين الجبهة الشرقية ويحمى خطوطه الخلفية فقام بالسيطرة على الحصون والمدن التي تربط بين الفرماء والقلـزم (السويس) فاستولى على مدينة مجدول الى الجنوب الغربي من الفرما ثم القنطرة فالسويس والتل الكبير (112).

108) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج7 ص 212 ـ 213 ، 215.

109) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص 53.

110) ابن واضح : تاريخ اليعقوبي ج2 ص 148.

111) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص 53 ، 58 ويذكر ابن واضح ان عدد جند عمروابن العاص قد كان 4000 مقاتل بينما يروي البلاذري ان عدد الجند كان 3500 مقاتل انظر تاريخ اليعقوبي ص 148. فتوح البلدان ص 214، 215.

112) عبد الحميد بخيت: عصر الخلفاء الراشدين ص 124.

ثم زحف عمرو الى بلبيس فحصرها وأستولى عليها وخضعت له جميع مدن شمال شرق الدلتا وأخيرا زحف الى حصن بابليون حيث تجمعت قوى الروم الاساسية للدفاع عن مصر بقيادة كل من المقوقس نائب الامبراطور وتيودور رئيس الجيش البيزنطي المشكل من عشرين ألف من الجند البيزنطي عدا حامية الحصن المؤلفة من خمسة آلاف.

وعسكر عمرو بمن تبقى معه من جنده ـ اذ لاشك أنه ترك بعضهم في المدن والحصون التي تمكن من الاستيلاء عليها ـ في أمدنين وتقع شمال حصن بابليون «وكتب الى عمر يستمده، فوجه بأربعة آلاف»(113) و«قالوا:ولم يلبث عمرو ابن العاص... ان ورد عليه الزبير بن العوام بن خويلد في عشرة الاف، ويقال: في اثنى عشر الفا» (114).

وبالرغم من حصانة الحصن وقد برز بازاء جزيرة الروضة في النيل كأنه سد في وجه الغزاة، فقد تمكن عمرو اثناء تواجده في أمدنين من الاستيلاء على بعض سفن الروم وعبر بها تجاه الشاطيء الغربي، حيث اتجه جنوبا نحو ممفيس عاصمة مصر القديمة، ثم الى اقليم الفيوم الزراعي الغني حيث افتتح المسلمون البهنسا وبلدة بويط أو أبويط من أعمال البهنسا (115).

وفي 640م اغرى عمرو البزنطيين بالخروج من حصن بابليون لمقاتلته في عين شمس، في منتصف الطريق بين المعسكرين حيث هزمهم فتفرق جيش البيزنطيين وفرتيودورس الى الاسكندرية واحتمى المقوقس في بابليون وضيق العرب الحصار على الحصن، ونظرا لعدم توفر آلات الحصار او وسائل التدمير بين ايدي العرب لاقتحام الحصن فقد أستمر العرب على حصاره وخاف المقوقس على نفسه ومن معه فسعى سرا الى مفاوضة المسلمين وعرض عليهم مبلغا كبيرا من المال مقابل انسحابهم الى بلادهم وكان رد عمرو بن العاص «أنه ليس بيني وبينكم الا احدى ثلاث خصال، أما أن دخلتم في الإسلام، فكنتم اخواننا وكان لكم ما لنا، وان

113) انظر ابن واضح : تاريخ اليعقوبي ج2 ص 148.

114) انظر البلاذري : فتوح البلدان ص 214 ، 215.

115) بتلر : فتح العرب لمصر، ترجمة محمد فريد ابو حديد، القاهرة 1933 ص 197 ـ 198.

ابيتم ،واعطيتم الجزية عن يد وانتم صاغرون، واما أن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم بيننا وهو خير الحاكمين» (116).

قبل المقوقس تأدية الجزية، ثم قصد الى بيزنطة ليحظى بموافقة الامبراطور هرقل على التسوية التي ارادها مع العرب، ولم ترضى تلك الشروط الامبراطور فغضب على عامله واتهمه بالخيانة ونفاه، ورابط المسلمون على حصن بابليون سبعة أشهر حتى تمكن الزبير بن العوام من ردم بعض الخندق المحيط بالحصن وصعد على سلم الى سور الحصن «وهو مجرد سيفه فكبر وكبر المسلمون وأتبعوه ففتح عنوة (117) في ابريل 641 م.»

ويعلل بروكلمان نجاح العرب في الاستيلاء على حصن بابليون الى عدم استجابة بيزنطة لطلب تيودوروس الخاص بالامدادات العسكرية وذلك لوفاة الامبراطور هرقل في 11 فبراير 641م وانشغال أوصياء الامبراطور الجديد، قسطنطين الثاني وكان آنذاك في الحادية عشرة من العمر، فقط، في الاستعداد للقضاء على ثورة مرتقبة بالعاصمة. هذا من ناحية ولانهماك جيوش الامبراطورية البيزنطية بالحرب ضد اللومباردين في ايطاليا من ناحية أخرى (118).

وبعد سقوط الحصن بين أيدي المسلمين وكان يعتبر مفتاح مصر السفلى والعليا على السواء، تمكن المسلمون من السيطرة على مصر السفلى والاستيلاء على المراكز والارياف مما ادى الى هجرة الروم من مصر السفلى الى العاصمة الاسكندرية للاحتماء بأسوارها القوية وحصونها المنيعة. والبحر من ورائها كسبيلا للهروب عند اللزوم أو مصدرا للامدادات من الامبراطورية البيزنطية.

ولهذا ترك عمرو بن العاص فرقة من المسلمين للمرابطة بحصن بابليون وزحف على رأس جيشه نحو الاسكندرية حيث قام بمحاصرتها، ولم يجدى الحصار اذ كان البحر يحميها من الشمال وكانت النزعة (مجرى ماء) وبحيرة مريوط تحميانها من الجنوب، كما حمتها نزعة الثعبان من الغرب، فلم يبق الا شرقها وجنوبها الشرقي.

---

116) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص 65.

117) البلاذري : فتوح البلدان ص 215.

118) انظر بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص 100 ـ 101.

ولذلك بينما استمر المسلمون محاصرين لمدينة الاسكندرية ارسلت السرايا للاغارة على كل من مدن وريف مصر السفلى والعليا. فما كان من الحكومة البيزنطية الا ان أرسلت المقوقس الى مصر - مرة أخرى- ليفاوض عمرا.

وانتهى الامر بين المقوقس وعمرو في بابليون الى المعاهدة التي اصطلح المحدثون على تمسيتها بمعاهدة الاسكندرية في 8 نوفمبر 641م لان أكثر شروطها يتصل بالاسكندرية ولان هذه التسمية تميزها عن معاهدة بابليون الاولى (119).

وأهم بنود هذه المعاهدة هي، فرض الجزية للذين يؤثرون البقاء في المدينة، والسماح للذين يريدون مغادرة الاسكندرية الى بيزنطة والهدنة لمدة أحد عشر شهرا تنتهي في أواخر 21هـ/ سبتمبر 642م حتى يتمكن الجيش البيزنطي من الانسحاب الى بلاده.

وهكذا نجح المسلمون في السيطرة على البلاد وآلت اليهم اعظم المدن في ذلك العصر بعد القسطنطينية وكتب عمرو بن العاص الى الخليفة عمر بن الخطاب يقول:

«أما بعد فاني فتحت مدينة لا أصف ما فيها غير اني أصبت فيها أربعة آلاف منية باربعة آلاف حمام وأربعين الف يهودي عليهم الجزية وأربعمائة ملهى للملوك» (120)

استقرت أوضاع مصر لمدة ثلاث سنوات وفي 25هـ/645م ثارت مدينة الاسكندرية ضد العرب ورحبت بالاسطول البيزنطي الذي دخل المدينة وقتل حاميتها من المسلمين، وكان الخليفة هو عثمان بن عفان قد عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر، فأعاده الخليفة بناء على طلب جند مصر وبعد فشل عبد الله بن سعد

---

119) وكان في الاسكندرية حامية يبلغ عددها 50 الف مقاتل يعززهم الاسطول البيزنطي القوى، ولذلك تعتبر هذه المعاهدة نصرا كبيرا للعرب.

انظر ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص 67 ـ 69.

بتلر: فتح العرب لمصر ص 219.

سيدة اسماعيل كاشف : مصر في فجر الاسلام ص 14.

120) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص 82،

H. Zotenberg : chronique de Jean, évéque de NIKIOU. Texte ethiopien, withir. (Paris, 1883) P. 463.

ابن ابي سرح الوالى الجديد في القضاء على الثورة، فالتقى عمرو بالروم في نقيوس فهزمهم بعد ان عقر فيها فرسه فقاتل راجلا وطاردهم حتى الاسكندرية حيث أستولى عليها للمرة الثانية في 25هـ/646م وقام بتدمير سورها حتى لايثور أهلها مرة ثانية (121).

ب ـ فتح العرب لبرقة وطرابلس:

ويعتبر الفتح العربي لبلاد المغرب، نتيجة حتمية اقتضتها طبيعة الحركة الاسلامية لتصفية الامبراطورية البيزنطية المعادية للاسلام، خصوصا وأن المغرب في ذلك الوقت كان ولاية من الولايات التابعة لها.

ويفهم من كلام المؤرخين المعاصرين سواء كانوا عربا أو بيزنطين ان سياسة التوسع العربي التي قام بها الامويون في شمال افريقيا، كانت تهدف في أساسها الىغزو صقلية وجنوب ايطاليا وسواحل البحر الادرياتي، او بعبارة أخرى غزو الامبراطورية البيزنطية من ناحية الغرب، الى جانب الحملات العربية التي كانت سائدة عليها من ناحية الشام وآسيا الصغرى من جهة الشرق، كي يتم للمسلمين بذلك تطويق القسطنطينية والاستيلاء عليها.

ولذلك تبدأ حملات المسلمين في شمال افريقيا بعد استيلائهم على مصر مباشرة بقيادة عمرو بن العاص ، اذ قام هذا القائد بغزو اقليمي برقة وطرابلس سنة 23هـ لتأمين حدود مصر الغريبة من خطر الروم او البيزنطيين الذين كانوا يحكمون المغرب الادنى، اذ كان يخشى ان يحاولوا استعادة مصر عن هذا الطريق الغربي (122).

رابعا: ادارة الدولة الاسلامية والمناطق المفتوحة:

تطورت الادارة الاسلامية منذ بداية الدولة العربية في المدينة (يثرب) خلال فترة تواجد الرسول (ص) الى خليفته ابو بكر الصديق ثم بقية الخلفاء الراشدين.

ففي خلال فترة حكم ابي بكر الصديق، كانت الجزيرة العربية هي البلاد الواقعة تحت الادارة الاسلامية، فقام ابو بكر بتقسيم البلاد الى ولايات وعين على

121) البلاذري : فتوح البلدان ص 223 ـ 224.

122) احمد مختارالعبادي : في التاريخ العباسي والاندلسي ص 245 ـ 246.

كل ولاية، والى أو أمير، تعددت اختصاصاته من إقامة الصلاة ..الى الفصل في القضايا، وكذا اقامة الحدود على الجناة، فهو أمير قاضي منفذ.»

ولم يتخذ ابو بكر وزيرا له، فقد قام بتوليه عمر بن الخطاب القضاء، وابو عبيدة ابن الجراح أمينا لبيت المال، وكل من زيد بن ثابت وعثمان بن عفان كاتبا له (123).

أما المرتبات المخصصة لموظفي الدولة من الخليفة الى الولاة والجند فقد أرسى أبوبكر الصديق قاعدة عدم اشتغال الخليفة بعمل آخر غير أمور المسلمين، وتحديد مرتب محدد من بيت المال وخصص له في السنة 6آلاف درهم (اي ما يعادل 128 جنيه مصري و 850 فرنك فرنسي تقريبا) (124).

أما الجند فقد كانوا متطوعين وغير مجندين لايجمعهم ديوان وكانت مرتباتهم تتمثل في أربعة أخماس الغنيمة يقوم بتوزيعها رئيس الجند وذلك بخلاف ما يسلبه الجندي من أسلاب القتيل وما يمنحه القائد للممتازين من الجند.

أما مرتبات العمال فقد كانت تدفع مما يرد الى بيت المال من خمس الغنائم وصدقات المسلمين وجزية أهل الذمة وما يتبقى بعد دفع مرتبات العمال يوزع على من عينوا في الكتاب الكريم كزكاة (125).

وبعد التوسع العظيم الذي تم للدولة العربية في الخارج في عهد عمر ابن الخطاب، وهو أول من دعى أمير المؤمنين وذلك أنه لما ولى «قالوا له : ياخليفة

---

123) الطبري : تاريخ الامم والملوك ج4 ص 50 ، 51.
ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج2 ص 420 ، 421.
محمد الخضرى: تاريخ الامم الاسلامية (الدولة الاموية) ج1 ص 194 ـ 195.

124) فقد كان أبو بكر رجلا تاجرا قبل الخلافة ، واشتغل بالتجارة بعد الخلافة ستة أشهر ثم وجد ان التجارة تشغله عن أمور الناس، فترك التجارة واستنفق من مال المسلمين ما يصلحه ويصلح عياله يوميا بيوم.

انظر الطبري : تاريخ الامم والملوك ج 4 ص 53 ، 54.
ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج2 ص 424.

125) محمد الخضري : تاريخ الامم الاسلامية (الدولة الاموية) ج1 ص 196.

خليفة رسول الله، فقال عمر: هذا أمر يطول « كلما جاء خليفة قالوا ياخليفة خليفة خليفة رسول الله، بل أنتم المؤمنون وأنا أميركم، فسمى أمير المؤمنين» (126).

وبناء على آخر وصايا الرسول (ص) اذ قال :« قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور انبيائهم مساجد، لايبقين دينان بأرض العرب» قام عمر بن الخطاب باجلاء اليهود من بلاد العرب فأجلى يهود خيبر ونجران وفدك ونظرا لان يهود فدك كان لهم نصف الثمر ونصف الارض بناء على اتفاقهم مع الرسول (ص) فقوم عمر نصف الثمر والارض بالذهب والورق والابل والحبال واعطاهم ليهود فدك وأجلاهم، (127).

ويروي البلاذري أن سبب اجلاء عمر ليهود خيبر يعود الى ظهور الوباء بينهم وانتشار العدوى لبعض المسلمين وفي رواية اخرى انه لما كثر المال في أيدي المسلمين وقووا على عمارة الارض أجلى اليهود الى الشام وقسم الاموال بين المسلمين (128).

أما النصارى المستقرون بنجران فهناك روايتان حول خروجهم من بلاد العرب، الاولى انه لما «استخلف عمر أجلى أهل الكتاب عن الحجاز، وأجلى أهل نجران» فخرج بعضهم الى الشام والبعض الاخر الى نجيرانية الكوفة وأشترى عمر منهم عقارهم وأموالهم.

أما الرواية الثانية فتذكر« انهم كانوا قدكثروا فبلغوا أربعين ألفا فتحاسدوا بينهم، فأتوا عمر بن الخطاب وقالوا : أجلنا، وكان عمر بن الخطاب قد خافهم على المسلمين فاغتنمها فأجلاهم، فندموا بعد ذلك ثم استقالوه فأبى» (129).

والحدث الثالث في عصر عمر بن الخطاب هو عمله على جعل المسلمين وحدة واحدة متماسكة ــ فبعد اجلائه لاهل الكتاب من اليهود والنصارى من بلاد العرب ــ

---

126) ابن الاثير: الكامل في التاريخ ج 3 ص 58 ــ 59.

127) موطأ الامام مالك برواية يحيى بن يحيى الليثي، حديث رقم 1608 ص 643 ــ 644.

128) انظر البلاذري : فتوح البلدان ص 36 ، 39.

129) وبقوا كذلك الى خلافة عثمان بن عفان وكان قد اسقط عنهم مائتي حلة فلما ولى علي طالبوه بالعودة فرفض واستقروا بالقرب من الكوفة حيث تفرق بعضهم ومات من مات وأسلم من اسلم ، انظر ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 2 ص 294 ــ 295.

تطلع عمر الى العمل على توحيد المسلمين والمحافظة على نقاوتهم العرقية حتى لاتأكلهم الحضارات التي سقطت بين أيديهم ولهذا فرض على المسلمين العرب الا يمتلكوا الاراضي الزراعية خارج الجزيرة العربية وان يقوم المسلمون بتأسيس مدن جديدة خاصة بهم او الاقامة في مسعكرات منعزلة عن تجمع السكان مثل معُسكرات الجابية وحمص (سورية) وطبرية (الاردن) والرملة (فلسطين).

أما بالنسبة لتأسيس المدن ففي سنة 14هـ قام العرب بانشاء مدينة البصرة وقام بتعميرها واليها ابو موسى الاشعري الذي حرف الخطط لمن استقر بأرضها من العرب وحدد مواضع نزول كل قبيلة وأذن للناس بالبناء وبني مسجدها الجامع وحفر نهرا يصل المدينة (130).

وفي سنة 17هـ أختط سعد بن أبي وقاص مدينة الكوفة بين الحيرة والبصرة وبنيت باللبن بعد ان احترقت المدينة بسبب استخدام القصب في بناء الدور، وكانت كل من البصرة والكوفة منذ نشأتهما مركزين عسكرين يتجمع فيهما جند المسلمين، ولذلك سمى الشعراء الكوفة، بكوفة الجند، ثم استقر بالكوفة فرقة فارسية عدتها أربعة آلاف مقاتل، استأمنوا على ان ينزلوا حيث احبوا، ويفرض لهم في العطاء فأنزلهم سعد بالكوفة، كذلك نزل الكوفة طائفة من السريان وهم الذين كانوا يسكنون الاديرة القائمة في أطراف الحيرة ثم نزل الكوفة جماعة من يهود نجران ومسيحييها ، أجلاهم عمر بن الخطاب (131).

وبعد فتح مصر في 21هـ قام عمرو بن العاص بتأسيس الفسطاط ويروى المقريزي ان موضع الفسطاط كأن ارضا فضاء ومزارع فيما بين النيل والجبل الشرقي المعروف بالمقطم، ولم يكن بهذا الموضع من البناء سوى حصن بابليون ويقع قديما على النيل.

---

130) راجع الطبري حول الاختلاف بالنسبة لتأسيس مدينة البصرة، تاريخ الامم والملوك جـ4 ص 148 ـ 149.

ابن حوقل : صورة الارض ص 212.

المقدسي : أحسن التقاسيم ص 117.

يعقوب سركيس : مقاله عن البصرة ، مجلة سومر جـ 1 مجلد 4، بغداد 1948.

131) البلاذري : فتوح البلدان ص 275 وما بعدها.

وبدأ عمرو ببناء الجامع، وهو أول جامع اقيم بمصر وسمى بجامع عمرو او الفتح او العتيق أو مصر، ثم انزل عمرو الناس منازلهم وجعل لكل قبيلة خطة تقيم بها مثل قبيلة اسلم وبلى وليث وغيرهم وتألفت من هذه الخطط أحياء المدينة الجديدة وأطلق عليها اسم الفسطاط (132).

وفي الوقت الذي لعبت فيه هذه المراكز والقواعد الحربية دورا سياسيا هاما في الحياة العربية الاسلامية فقد "ترك العرب شعوب البلاد المفتوحة يمارسون حياتهم الطبيعية دون تدخل سواء النشاط الزراعي أو التجاري أو الصناعي أو الحرية الدينية.

والحدث الرابع هو أقرار عمر بن الخطاب للنظم الادارية التي كانت مطبقة، في كل من الامبراطورية الفارسية بالعراق وفارس وولايات الامبراطورية البيزنطية في الشام ومصر.

فقد أقر نظام الديوان الفارسي اذ يروى البلاذري أنه « لم يزل ديوان خراج السواد وسائر العراق بالفارسية» واستخدمت كلمة الرساتيق للدلالة على الولايات والروستاق مشتقة من الكلمة الفارسية روستاي (133).

وتبنى المسلمون في الشام ومصر، النظام الاداري الذي اتبعته الحكومات السابقة، بل وابقوا جميع الموظفين القدماء في مناصبهم التي ظل يشغلها الروم والاقباط على العموم في ما بعد أيضا .

ففي الشام أبقى المسلمون على تقسيم سورية إلى أربعة أجناد : جند حمص وجند دمشق وجند الاردن وفيه الجليل وجند فلسطين وهي الأرض الممتدة الى الجنوب من مرج ابن عامر، أما جند قنسرين في الشمال فانما أضافه إلى أجناد الشام يزيد الأول الخليفة الاموي (134).

132) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص 160 ـ 164.
المقريزي : كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار مجلد 2 ص 51.
ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الامصار ص 3 ، 4.
133) البلاذري : فتوح البلدان ص 298.
السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الدولة العربية ج 2 ص 261.
134) ابن واضح : تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 154 . وانظر تفاصيل تكوين هذه الاجناد من القبائل العربية في اليعقوبي : البلدان ص 80 ـ 85 . فليب حتى : تاريخ العرب ج 1 ص 208 .

أما في مصر فقد ابقى العرب على نظام الكورة وهي كلمة يونانية Curia معناها المركز، وجسطال الكورة هو المشرف على مالية الكورة اي مندوب ديوان الخراج، وموازين القرى، هم رؤساء القرى أو مشايخها (135).

وأبقى العرب على نفس النظام المالي بمصر، فقد اتبع الرومان ومن بعدهم البيزنطيون- رغبة منهم في توفير الغذاء لحاميتهم سواء بمصر او العاصمة- عملية لتقدير ما يتوجب على كل قرية ان تقدمه من محصول الحنطة فيها، وهو لايزال قيد الدرس بالنورج.

فلما استولى العرب على مصر احتفظوا بالحقوق نفسها لجنودهم وأسرهم فكان الوالي يبعث في أواخر العام، قبيل موسم البذر الجديد، ببيان سنوى الى كل منطقة ، وفيه نص على مقدار ما يتعين عليها تقديمه للدولة من محاصيلها، طبقا لطبيعة الارض وبمقتضى الاصول المرعية دون الاخذ في الاعتبارا اذا كانت البلاد دانت لهم صلحا أو عنوة.

وكان رؤساء المناطق مسؤولين عن جباية هذه الضرائب عينا، وكان يساعدهم في ذلك جباة يتقاضون خمسة في المئة مما يجمعونه للدولة من الغلال، مقابل خدماتهم وتعويضا عن أي نقص قد يحدث، وكان هؤلاء الجباة يقدمون الى الدولة ضمانا للحنطة التي ستجبى من الفلاحين الى ان تودع في مخازن الدولة في عواصم المقاطعات ، ومن هناك تنقل الحنطة الى العاصمة بطريق الماء، لتوزع بعد ذلك على الجنود وأسرهم.

ونظرا لان وجوه الاختلاف بين الجزية والخراج، لم تعين حتى اواخر العصر الاموي، فيمكن لنا القول أن ما حصل من الحنطة من الاراضي الزراعية تدخل في نطاق الخراج على الارض.

اما الجزية فتؤخذ دفعة واحدة وهي ضريبة مالية، هي في الدرجة الاولى مقابل الحماية وحرية العبادة التي تضمنها الدولة لاهل الكتاب وغيرهم، ولم تجب الجزية الا على الرجال الأصحاء العقلاء فلم توضع على امرأة أو صبي ولامجنون ولاعبدو لاسابل أو سائل ولأراهب أو شيخ الا اذا أيسروا.

---

135) سيدة اسماعيل الكاشف : مصر في عصر الولاة ص 25.

والحدث الخامس، هو فرض العطاء للمسلمين اذ يروي البلاذري انه« لما افتتح عمر العراق والشام وجبى الخراج جمع أصحاب رسول الله (ص) ، فقال اني قد رأيت ان افرض العطاء لاهله، فقالوا نعم رأيت الرأي ياأمير المؤمنين، قال: فيمن أبدأ، قالوا: نفسك، قال: لا، ولكنى أضع نفسي حيث وضعها الله، وأبدأ بآل رسول الله (ص) ففعل.

وسبب ذلك ان عمر بعد مشاورة معاونيه من الصحابة حول الارض وما يجبى من أهلها، ولم تكن غنيمة (136)، بل كانت فيئا يصرف في مصالح الجماعة الاسلامية، ولذلك فان من يقوم بحراثة ما هو فئ من البلاد فعليه ان يؤدي خراجا لايسقط بالاسلام.

وكانت ايرادات الدولة الاسلامية، تودع في بيت المال وتصرف في مصالح المسلمين، كمرتبات رجال الادارة والولاة والجند وما زاد على ذلك يقسم بين عامة المسلمين، ولذلك امر عمر بن الخطاب بإحصاء الناس لكي يتمكن من توزيع الاموال الفائضةببيت المال وبدأوا بقرابة رسول الله (ص) ثم الاقرب ، فالاقرب منه، فخصص لعائشة ام المؤمنين اثنى عشر الف درهم وهو أكبر مبلغ خصص في العطاء، ومن بعد اهل البيت يأتي المهاجرون فالانصار ولقد قدم عمر أهل السابقة الى الاسلام منهم ففرض للواحد خمسة آلاف أو اربعة آلاف درهم في السنة في المتوسط.

أما بقية الناس فوضعوا في مرتبة واحدة، وخصص للمقاتل منهم خمسمائة الى ستمائة درهم في السنة على الاقل ، ولم يترك فردا الا خصص له مرتبا حتى بقيت بقية من النساءوالاولاد والموالي ففرض لهم ما بين مئتي درهم وستمائة درهم في السنة.

ولقد استمر العطاء يدفع للعرب حتى سقوط الدولة الاموية ، وقيام الدولة العباسية ، التي اعتمدت على الفرس والترك ، فمنع العرب في عهد الخليفة

---

136) الغنيمة تشمل المال والاسرى مما تكون من نصيب الفاتحين وهي حق المقاتلين انظر الفرق بين الغنيمة والفيءفي الماوردي : الاحكام السلطانية ص 217.
ابو يوسف (يعقوب بن ابراهيم الكوفي الحنفي ت 182 هـ / 798م) كتاب الخــراج ص 21 ــ 32 (القاهرة 1346 هـ) .

العباسي المعتصم من تسليم العطاء ، اذ يروي ابن حزم انه لما «انتقل الامر بالمشرق الى بنى العباس ، فكانت دولتهم اعجمية : فسقطت فيها دواوين العرب ، وغلب عجم خراسان على الامر ، وعاد الامر ملكا عضوضا كسرويا» (*) ويضيف الطبري «ان رجلا تعرض للمأمون بالشام مرارا فقال له : يا أمير المؤمنين ! أنظر لعرب الشام ، كما نظرت لعجم أهل خراسان . فقال المأمون : أكثرت على يا أخا أهل الشام ! والله ما أنزلت قيسًا عن ظهور الخيل ، إلا وأنا أرى أنه لم يبق في بيت مالي درهم واحد ! وأما اليمن ، فوالله ما أحببتها ولا أحبتني قط ، وأما قضاعة فسادتها تنتظر السفياني وخروجه فتكون من أشياعه ، وأما ربيعة ، فساخطه على الله منذ بعث نبيه من مضر» (**) وعلى العكس استمر سكان الجزيرة العربية منذ قمع حركة الـردة: ، يدفعون الزكاة التي كان أغلبها من الابل بحيث وجد ما يعرف بأمراء الصدقة ، كما أن عمر فرض على بضائع تجار الجزيرة ، ضريبة «العشر» وخصوصًا أن العرب كانوا مشهورين بتجارتهم الرابحة (***) .

ومن المرجح ان عمر أخذ أصول تدوين الديوان، الذي ضبط فيه دخل الدولة ومصاريفها وترتيب أهل العطاء في مراتب من أنظمة الفرس وبيزنطة، فكلمة ديوان فارسية كما ان البلاذري يروى انه حين استشار عمر بن الخطاب المسلمين في تدوين الدواوين، قال له الوليد بن هشام بن المغيرة: قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديوانا وجندوا جندا فدون ديوانا وجند جندا، فأخذ بقوله (137).

أما الحدث السادس فهو ارساء القواعد الاولى لنظام القضاء فقد كان القضاء من عمل الخليفة ولما كثرت اختصاصات الخليفة وتنوعت بازدياد رقعة الدولة الاسلامية وتعدد الحملات العسكرية، فوض الخلفاء وظيفة القاضي الى من تتوفر فيه المقدرة على الاستنباط بالاضافة الى الاحاطة بالقرآن وأحكامه والسنة، ولكنهم لم يتسموا باسم القضاة الا في عهد عمر بن الخطاب فانه عين القضاة وارسلهم الى الامصار، اي أنه

(*) أنظر ابن عذاري : البيان المغرب 2: 40

(**) أنظر الطبري : الرسل والملوك 10 : 296

(***) ابن الاثير : الكامل ج :2: 3،276، عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية 1 : 234 .

137) البلاذري : فتوح البلدان ص 435 ــ 447،

ابن الطقطقي : الفخرى ص 116 وقارن الماوردي الاحكام السلطانية ص 343.

فصل بين كل من السلطتين، التنفيذية والقضائية، اذ لم يكن لامراء الامصار أي سلطان على هؤلاء القضاة أو التدخل في تعيينهم أو عزلهم أو رأى في احكامهم .

ولقد روى البلاذري ان عمر ولى ابا الدرداء قضاء دمشق والاردن وولى عبادة قضاء حمص وقنسرين اذن فهو أول من استقضى القضاة في الامصار وعين لكل قاضي مرتبا محددا لكي يتفرغوا إلى أعمالهم.

كما عاون القاضي في كل مصر، جماعة اشتهروا بالفقه واستنباط الاحكام، كان القاضي يستفتيهم اذا آشكل عليه الامر وأهم ما كان يدعو الى ذلك ان سنة رسول الله (ص) لم تكن قد جمعت في كتاب بعد، بل كانت موزعة في صدور المسلمين، يحفظ احدهم منها جزءا ويحفظ الثاني منها جزءا آخر، وربما عرضت للقاضي مسألة فلا يرى فيها نصا، ويكون النص (وهو الحديث) عند غيره من المسلمين.

وفي خلال عصر الخلفاء-الراشدين لم تجمع هذه الفتاوي ولا الاقضية في كتاب خاص يرجع اليه من بعدهم، كما ان احكام القاضي اعتمدت على فهم القانون الشرعي وتطبيقه على الحوادث والواقعات ويبدو أن القضايا اقتصرت على الخصومات المدنية، أما القصاص والحدود فكانت ترجع الى الخلفاء وولاة الامصار. (138) .

والحدث السابع هو اقراره للتاريخ الهجري وجعله هجرة الرسول (ص) الى مدينة يثرب بدء التاريخ الاسلامي، اذ يروى ابن واضح في تاريخ اليعقوبي انه في عام 16 للهجرة « ارخ عمر الكتب، وأراد ان يكتب التأريخ منذ مولد رسول الله، ثم قال من المبعث؟ فأشار عليه على بن ابي طالب أن يكتبه من الهجرة فكتبه من الهجرة» (139) .

والذي دفع الخليفه عمر إلى ذلك أن الخلافة الاسلامية كانت قد اتسعت واحتاج الخليفة إلى مكاتبه الولاة وتأريخ كتبه اليهم . أما قبل ذلك في عهد النبي (ص) وأبي بكر فكان يؤرخ بسنى إقامة النبي في المدينة .

---

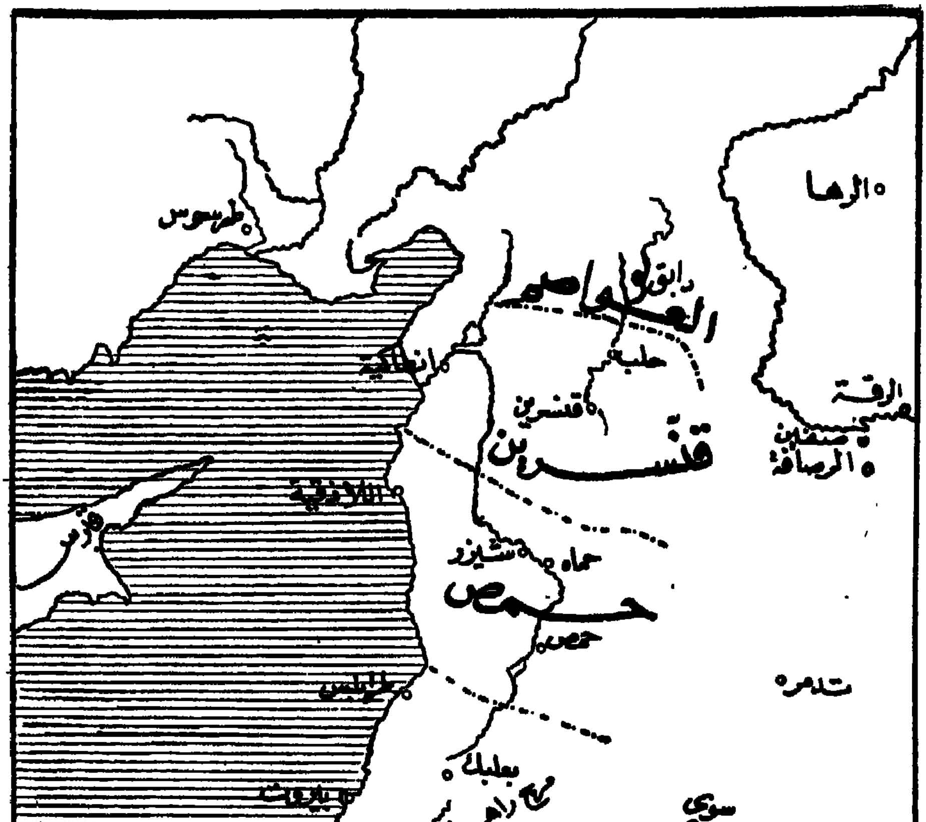
138) البلاذري : فتوح البلدان ص 146.

انظر محمد الخضري : تاريخ الامم الاسلامية(الدولة الاموية) ج2 ص 87 ـ 88.

139) أنظر ابن واضح : تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 145.

وقارن الطبري : الامم والملوك ج 4 ص 188،

ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 2 ص 526 .


سورية
وتقسيمها الى اجناد
الرها
طرسوس
دابق
العواصم
حلب
انطاكية
قنسرين
قنسرين
الرقة
صفين
الرصافة
اللاذقية
حماه
شيزر
حمص
حمص
تدمر
طرابلس
بعلبك
بيروت
صيدا
راهط
سوى
دمشق
دمشق
مرج الصفر
الرقاد
الجابية
صور
طبرية
حوران
اليرموك
الاردن
بيسان
قيسارية
نابلس
فحل
القدس
عسقلان
بيت جبرين
العريش
مؤته

ولقد اتخذ العرب لتاريخ الهجرة بداية السنة القمرية منذ المحرم بدلا لمن ربيع الاول حيث تمت الهجرة وشهورها : المحرم ، صفر ، ربيع الاول ، ربيع الآخر ، جمادي الاولى ، جمادي الآخرة ، رجب ، شعبان ، رمضان ، شوال ، ذو القعدة، وذو الحجة . واتخذ التاريخ الهجري الليالي أساس التوقيت ، لان الليل سابق على النهار . وذلك على عكس المسيحيين الذين اعتمدوا على السنة الشمسية ، واتخذوا النهار أساسا للتقويم .

ولذلك ظهرت تعبيرات خاصة للعرب مثل أول ليلة في الشهر لاول العام (السنة أو الحول) أو لغرته أو لليلة خلت ، ثم لليلتين خلتا وهكذا . ويروي السخاوي :

«فقد كانت القضايا التي اتفقت له ويمكن أن يؤرخ بها أربع : مولده ومبعثه وهجرته ووفاته ، فرجح عندهم جعلها من الهجرة لان المولد والمبعث لا يخلو واحد منهما من النزاع في تعيين سنته وأما وقت الوفاة فأعرضوا عنه لما يوقع تذكره من الاسف عليه ، فانحصر في الهجرة ، وانما اخروه من ربيع الاول الى المحرم لان ابتداء العزم على الهجرة كان في المحرم اذ البيعة وقعت في أثناء ذي الحجة وهي مقدمة الهجرة فكان أول هلال استهل بعد البيعة والعزم على الهجرة هلال المحرم فناسب أن يجعل مبتدأ» . (139م) .

ويضيف ابن الجوزي أن تاريخ مبعث الرسول مختلف فيه ، كما أن وفاة الرسول تثير الشجن عند عامة المسلمين مما حدا بهم الى تفضيل الهجرة التي تفصل بين الحق و الباطل (*) .

والحدث الثامن هو تطور تنظيم الجيوش الاسلامية سواء بالنسبة الى تشكيلها او بالنسبة لخططها في القتال.

فقد كان نظام القتال عند العرب ساذجا يعتمد على طريقة الكر والفر وهي ان يكر المحارب على خصمه ثم يفر ويكر وهكذا لايتبعون في ذلك نظاما، أو يتم تشكيل الجيش على هيئة صفوف متراصة متلاحمة، وأول المناوشة براز بين افراد من

139م) السخاوي : الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص 79، 81 ، عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية 1 : 239 ــ 240

(*) ابن الجوزي : تاريخ عمر ص 42 .

اقوى رجال الطرفين وأشدهم شكيمة يتقدمون من مراكزهم في الفرق ويدعون العدو الى القتال.

وحينما ادرك القواد المسلمين عدم مناسبة طريقة قتالهم في حروب الفرس والروم، طوروا تكوين جيوشهم بما يتناسب مع حروب الجيوش النظامية، ففي خلال معركة اليرموك 13هـ قام خالد بن الوليد بإعادة تشكيل الجيوش الاسلامية ويروي كل من الطبري وابن الاثير ان خالدا لما عاين قوة الروم، اجتمع بقواد المسلمين وقال: «لاتقاتلوا قوما على نظام وتعبية وأنتم متساندون فان ذلك لايحل ولاينبغي» واعاد تنظيم الجيش الاسلامي البالغ عدده ما بين 36 ألف الى 40 ألف مقاتل وقسمه الى ستة وثلاثين كردوسا أو اربعين « وخرج في تعبية لم تعبها العرب من قبل ذلك »« فجعل القلب كراديس وأقام فيه أبا عبيدة. وجعل الميمنة كراديس وعليها عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة. وجعل الميسرة وكراديس وعليها يزيد ابن أبي سفيان ... وجعل على كل كردوس رجلا من الشجعان .... وعلى الطلائع قباث بن أشيم». (140).

وفي عهد عمر بن الخطاب تطور تشكيل الجيش الى فرق خمس هي المقدمة والقلب والميمنة والميسرة والساقة نتيجة التأثيرات البيزنطية والفارسية. وهذه الوحدة من الجيش تسمى الخميس لاحتوائها على خمس فرق.

أما الفرسان فهم حماة الميمنة والميسرة. ولقد جرى تقسيم الجيش على أساس الوحدة القبلية فلكل قبيلة لواؤها وهو قطعة من نسيج ترفع على رمح يحمله أحد الابطال. وكانت راية النبي العقاب .

وسلاح المشاة القوس والنشابة والمقلاع واحيانا الترس والسيف. والسيف يحمل في غمدة ويشد الى الكتف اليمنى أما الحربة فلقد اخذها العرب عن الاحباش. وأهم ما يميز سلاح الفارس العربي الرمح وهو قناة طويلة من الخيزران في رأسها حربة ويسمى الرمح في الادب العربي بالخطى نسبة الى الخط وهو ساحل البحرين حيث كان الخيزران ينمو قديما قبل استجلابه اليه من الهند. وكان الرمح والقوس والنشابة قوام السلاح القومي. وخير السيوف كانت تصنع آنئذ في الهند حتى صارت لفظة

---

(140) الطبري : الامم والملوك ج4 ص 33 ـ 34.
ابن الاثير: الكامل في التاريخ ج2 ص 411 ـ 412.

هندي مرادفه للسيف. أما الدفاع فعدته الدرع والترس. والعتاد الحربي عند العرب اخف منه عند البيزنطيين (141).

خامسا : عثمان والفتنة:

وبالرغم من نسبة معظم الاسس المالية والادارية للدولة الاسلامية الى وضع وتنظيم عمر بن الخطاب. وما اشتهر به من عدل فقد قتل عمر في 26 ذي الحجة سنة 23هـ/ 643م. بعد ولايته لمدة عشر سنين وستة اشهر تقريبا.

ويروى ابن الاثير أسباب مقتل عمر بن الخطاب وظروفه قائلا : خرج عمر بن الخطاب يطوف يوما في السوق فلقيه ابو لؤلؤة (142) غلام المغيرة بن شعبة. وكان نصرانيا. فقال : ياأمير المؤمنين. أعدني على المغيرة بن شعبة فإن على خراجا كثيرا. قال :وكم خراجك؟ قال : درهمان كل يوم. قال : وأيش صناعتك؟ قال : نجار، نقاش. حداد. قال : فما خراجك كثيرا على ما تصنع من الاعمال. قد بلغني أنك تقول : لو أردت أن اصنع رحى تطحن بالريح لفعلت! قال: نعم. قال فاعمل لى رحى. قال: لئن سلمت لاعملن لك رحى يتحدث بها من بالمشرق والمغرب ! ثم انصرف عنه. فقال عمر : «لقد أوعدني العبد الان».

وبعد أيام خرج عمر بن الخطاب لصلاة الصبح بمسجد الرسول فأندس ابو لؤلؤة بين الناس وضرب عمر بخنجر له رأسان. ست ضربات احداهن تحت سرته، فقتله (143).

وقبل وفاته طلب منه ان يستخلف فقال :« لو كان ابو عبيدة (ابن عبد الله بن الجراح) حيا لاستخلفته وقلت لربى ان سألني : سمعت نبيك يقول: «انه أمين

---

141) للتوسع عن سلاح العرب انظر ابن قتيبة: عيون الاخبار جا ص 128 ـ 132 وللمقارنة بين تكوين كل من الجيش العربي والجيش البيزنطي وما يتميز به كل منهما انظر

Charles Oman : A History of the Art of war in the Middle Ages, 2 nd ed. London 1929) vol. I, P.P. 209 - 218. -

محمد الخضري : تاريخ الامم الاسلامية (الدولة الاموية) جـ 2 ص 89.

142) وأبو لؤلؤة كان يسمى فيروز وهو من سبايا الفرس وكان المسلمون قد اتخذوا من ابناء فارس الذين اسروا بعد فتح العراق وفارس، عبيدا لهم، سواء في العراق او في عاصمة الدولة الاسلامية بالمدينة وفيروز (أبو لؤلؤة) هذا أحدهم، وشكلوا طائفة بالمدينة.

143) ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ 3 ص 49 ـ 50.

هذه الامة». وأشار عليهم بالاخيتار من رهط رسول الله (ص) « أهل الجنة» وهم: على بن ابي طالب وعثمان ابن عفان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن ابي وقاص والزبير ابن العوام وطلحة بن عبيد الله.

وحدد عمر لهم الطريقة التي يتم بها اختيار خليفته حتى لايختلفوا فيما بينهم، فيختلف الناس بعدهم. وقال عمر:« إذا وضعتموني في حفرتي فاجمع هؤلاء الرهط في بيت حتى يختارو رجلا» وكلف عمر، صهيب بالصلاة لمدة ثلاثة أيام لحين اتفاق أهل الشورى على الخليفة.

ولكي يتفق اهل الشورى على أحدهم، أمر عمر أنه في حالة موافقة خمسة واعتراض واحد يقتل، واذا اتفق اربعة واعترض اثنان يقتلان، واذا اتفق ثلاثة واعترض ثلاثة، يحكمون عبد اللهبن عمر بينهم واذا لم يرضوا بحكمه، يرجح رأي الثلاثة الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف ويقتل الثلاثة الاخرين.

وبعد دفن عمر، جمع المقداد بن الاسود، أهل الشورى ماعدا طلحة بن عبيد الذي كان غائبا عن المدينة في بيت المسور بن مخرمة، وقيل في بيت المال وقيل في حجرة عائشة بعد موافقتها، وانتهت المداولات بينهم بمبايعة عثمان بن عفان وبويع بالخلافة في أول محرم 24هـ/7نوفمبر 644م، وأستمرت فترة حكم عثمان لمدة اثنى عشرة عاما تقريبا وقتل في 18 ذي الحجة سنة 35هـ/17يوليو 656م (144).

وتميزت المرحلة الاولى من حكم عثمان بالفتوحات الخارجية وظهور البحرية الاسلامية، بينما تميزت المرحلة الثانية باندلاع الفتنة بالامصار نتيجة للسياسة الداخلية التي اتبعها عثمان.

1 ـ الفتوحات الخارجية:

ففي عهد عثمان كانت الفتوحات الاسلامية في الجناح الشرقي تنطلق جميعا من العراق، لان العراق كان مركز العمليات الحربية الكبرى وكان مقر الجند، سواء القبائل العربية التي استقرت بالعراق أو ما كان ينتقل من عرب الشام أو الحجاز كامدادات واتخذت القبائل العربية من كل من مدينتي الكوفة والبصرة قاعدتين للجيوش الاسلامية.

---

144) ابن الاثير: الكامل في التاريخ ج 3 ص 179.

ففي الكوفة، استقر اربعون الف مقاتل، للسيطرة على البلاد التي تم فتحها في اقليم الرى وأذربيجان والتناوب على حفظ الثغور والقضاء على ثورات أهل البلاد، وخصص 10آلاف مقاتل من الكوفة للغزو وبثغرى الرى وأذربيجان سنويا 4آلف بالرى و 6آلاف بأذربيجان اي ان المقاتل يصيبه في كل أربع سنين غزوة.

أما البصرة فقد تولت القبائل العربية المستقرة بها فتح ما يحيط بها من ارض الفرس وما يقاربها، مثل الاهواز وتستر ورامهرمز والسوس وجند يسابور (145).

وفي الجبهة الغربية للدولة الاسلامية ارسل عثمان بن عفان واليه على مصر عبد الله بن سعد بنأبي سرح- أخاه في الرضاعة في 27هـ على رأس حملة قوية لفتح بلاد المغرب.

اذ تشير الروايات العربية الى ان عمرو بن العاص، أراد بعد استيلائه على طرابلس ان يغزو ما وراءها من بلاد افريقية، وأنه استأذن الخليفة عمر بن الخطاب فكتب اليه« ان الله فتح علينا طرابلس وليس بينها وبين افريقية الا تسعة ايام فان رأى أمير المؤمنين ان يغزوها ويفتحها الله على يديه فعل» (146) ولكن الخليفة رفض ان يجيبه الى طلبه ومنعه من تنفيذه، خشية على جيوش المسلمين من أن تنساب وتتبعثر في هذه المناطق الشاسعة وهي لم تزل بعد في حاجة الى توطيد نفوذها وسلطانها في البلاد التي فتحتها واستقرت فيها حديثا كالشام ومصر.

وبعد مقتل عمر، قام ابن ابى سرح بحملته في 27هـ وأجتاز بها طرابلس وأستولى على سفن للروم كانت راسية على الشاطيء هناك. ثم واصل سيره في افريقية الى ان التقى بجيوش البيزنطيين في مكان يسمى سبيطلة في 27هـ(في جنوب غرب مدينة القيروان التي تأسست بعد ذلك) وكانت الجيوش البيزنطية يقودها حاكم افريقية البيزنطي او بطريق الروم، ويسمى جريجوريوس، ويسميه العرب جرجير.

---

145) الطبري : الامم والملوك جـ 5 ص 2534، 2805 ، 2884.

البلاذري : فتوح البلدان ص 323 ـ 324 ـ 330.

محمد الخضري : الامم الاسلامية (الدولة الاموية) جـ 2 ص 27 ـ 28.

146) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص 173.

انتصر المسلمون وقتل القائد البيزنطي جرجير، على ان عبد الله بن سعد لم يستطع الاستمرار طويلا في عملياته الحربية بالمغرب، اذا اضطر الى العودة الى مصر لمحاربة اهل النوبة الذين هددوا مصر من الجنوب، لذلك عقد معاهدة مع البيزنطيين عاهدهم فيها على اخلاء افريقية في مقابل جزية سنوية كبيرة يدفعونها له (147).

2 ـ نشأة البحرية الاسلامية:

بعد انطلاق العرب والقضاء على الامبراطورية الفارسية واقتطاع اهم ولايات الامبراطورية البيزنطية وهما الشام ومصر والشروع في اقتطاع الولاية الثالثة وهي افريقية. وأمتداد سواحل هذه الولايات على البحر الابيض المتوسط، ادرك العرب اهمية انشاء الاساطيل البحرية أولا لحماية سواحل هذه الولايات من غزوات البحرية البيزنطية وثانيا لمنافسة هذه الامبراطورية في حوض البحر الابيض المتوسط وأستخلاص جزءه من سيطرتها.

ولكن عمر بن الخطاب، نهى المسلمين عن الغزو في البحر أتباعا لرسول الله (ص) وأبي بكر وخوف الغرر (148) وحتى حينما « أمر بانشاء مدن للقبائل العربية بالعراق كقواعد تنطلق منها الحملات لاستكمال فتح اقاليم الجبهة الشرقية، نبه على ضرورة « ان لايجعل بينه وبينهم بحرا» (149).

ويذكر الطبرى في سنة 20هـ بعث عمر« علقمة بن مجزز المدلجي الى الحبشة في البحر. وذلك ان الحبشة كانت تطرفت فيها ذكر طرفا من أطراف الاسلام، فاصيبوا فجعل عمر على نفسه الا يحمل في البحر أحد أبدا» (150).

وكان معاوية حينما كان واليا على الشام، يتمنى غزو الروم في البحر وأرسل الى الخليفة عمر يستأذنه« فكتب الخليفة عمر الى عمرو بن العاص: صف لى البحر

147) المالكي : رياض النفوس ج 1 ص 8 ـ 9، حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب ص 64 ـ 84 ـ 88.

احمد مختار العبادي : في التاريخ العباسي والاندلسي ص 246 ـ 247.

148) ابن الاثير: الكامل في التاريخ ج 2 ص 538.

149) البلاذري: فتوح البلدان ص 274.

ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 2 ص 527.

150) الطبري : الامم والملوك ج 4 ص 231.

وراكبه فكتب اليه عمرو: اني رأيت خلقا كبيرا يركبه خلق صغير، ليس الا السماء والماء، ان ركد خرق القلوب، وان تحرك ازاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلة ، والشك كثرة، هم فيه كدود على عود، إن مال غرق، وان نجا برق، فلما قراه عمر كتب الى معاوية: والذي بعث محمد (ص) ، بالحق لاأحمل فيه مسلما ابدا» (151).

ويوضح الدكتور السيد عبد العزيز سالم ان الخليفة عمر بن الخطاب لم يكن يرهب البحر ويخشاه أويشفق على المسلمين من ركوبه، كما يزعم الرواة والاخباريون، ولكنه كان بعيد النظر، سديد الرأي فالعرب كانوا ما يزالوا حديثي عهد بما بلغوه من خبره بحرية على البحر المتوسط، والعدو الذي يواجهونه، وهم البيزنطيون، خصم عنيد متمرس في شؤونه وثقافته، متدرب على ركوبه وخوض مياهه، بخلاف الفرس الذين كانت صلتهم بالبحر اقل بكثير من البيزنطيين.

ولذلك فقد نجح العرب في أمد وجيز في .تقويض دعائم الامبراطورية الفارسية، بينما استمر نضالهم مع البيزنطيين في الشام وفي المغرب بوجه خاص ما يزيد على ستين سنة، بل ان هذا النضال استمر بعد فتح الشام والمغرب ما يقرب من أربعة قرون.

ولاشك ان الخليفة عمر بن الخطاب ادرك أن العرب في هذا التاريخ المبكر لايستطيعون مجاراة الروم في البحر لقلة خبراتهم البحرية (152).

ولذلك عمد الخليفة عمر الى تحصين السواحل واتباع سياسة بحرية دفاعية لمواجهة الخطر البيزنطي على ثغور المسلمين فأمر بتحصين السواحل وترتيب المقاتلة فيها واقامة الحرس على مناظرها، لمراقبة النواحي التي يقبل منها البيزنطيون في البحر، والانذار باقتراب العدو ليلا عن طريق ايقاد النيران من مواقيد خاصة بأعلاها، تنبيها للمرابطة بالخطر والاستعداد.

ولذلك امتدت على طول سواحل الشام ومصر القلاع والابراج وأصبحت هذه السواحل أشبه بسور يحول بين الغزاة البحريين وتهديد المدن الشامية والمصرية

---

151) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 3 ص 95.
محمد الخضري : تاريخ الامم الاسلامية (الدولة الاموية)ج 2 ص 29.
152) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الاسلامية في المغرب والاندلس ص 14، 15.

وامتدت القلاع والمحارس في عكا وصور وصيدا وطرابلس وجبيل وانطاكية بالشام والاسكندرية ورشيد والبرلس وتنيس ودمياط بمصر ١

وتشكلت الحاميات المرابطة بهذه القلاع من مقاتلين ينقسموا الى عرافات (مجموعات) ، وكل عرافه تتألف من مائة رجل، وكان المرابطة يقومون بالرباط أثناء فصل الصيف وملائمة البحر وهدوءه، أما في فصل الشتاء، وهو فصل اضطراب البحر وعدم صلاحيته للملاحة ، كانت الحاميات تعود الى قواعدها في دمشق أو الفسطاط، ماعدا جماعات صغيرة تبقى بالثغور والسواحل للمراقبة ، ونجحت هذه الخطة البحرية البرية في القضاء على محاولات بيزنطة في استرداد الساحل الشامي في 23هـ ومدينة الاسكندرية في 25هـ.

وسرعان ما تحول العرب من مرحلة الدفاع الى مرحلة الهجوم ونجحوا في تأسيس قوة بحرية، يرجع الفضل في انشائها الى معاوية بن ابي سفيان عامل الشام في خلافتي عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، والذي ادرك أهمية الاساطيل في الدفاع عن السواحل ابان غزو أخيه يزيد لسواحل الشام، فقام معاوية وهو والى على الشام« بتحصين السواحل وشحنتها وإقطاع من ينزله إياها القطاع» (153).

وهكذا شجع معاوية بن ابي سفيان المسلمين الى الانتقال الى السواحل والرباط بها ثم قام ببناء السفن ويروي البلاذري انه «كانت الصناعة بمصر فقط» فأمر معاوية بجمع الصناع والنجارين ونقلهم الى السواحل وذلك لصنع السفن، كما استحضر الاخشاب من غابات الارز بلبنان وأرسلها في السفن الى الاسكندرية، واستعان بالخبراء من القبط وببعض الملاحين من أهل مصر في صناعة السفن وتسييرها في البحر.

---

153) أنظر البلاذري : فتوح البلدان ص 133 ـ 134.

ابن الاثير: الكامل في التاريخ جـ2 ص 431 .

Cheira : La Lutte entre Arabes et Byzantins, (Alexandrie 1947) p.p. 87-88

ALY Mohamed Fahmy : Muslim sea - Power in the Eastern Mediterranean (Cairo 1966) P. 48, 74.

السيد، عبد العزيز سالم، أحمد مختار العبادي: تاريخ البحرية الاسلامية في المغرب والاندلس ص 16 ـ 17.

أحمد مختار العبادي : دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ص 2 ـ 3.

واذا كان عمر بن الخطاب قد نهى معاوية عن ركوب البحر وغزو جزره، فان خليفته عثمان، اطلق يد معاوية وأذن له بغزو الروم في البحر بشروط:الا يكره احدا من الناس على الغزو ويكتفى بالمتطوعة فقط، وأن يصحب معه أمرأته وأخته حتى يضمن سلامة جنده المرافقين.

وفي نفس الوقت الذي أقام معاوية فيه الاسطول الشامي اقام عبد الله بن سعد والى مصر الاسطول المصري وقام الاسطوالان في 28هـ بغزو جزيرة قبرص«فصالحهم أهلها على جزية سبعة آلاف دينار كل سنة يؤدون الى الروم مثلها، لايمنعهم المسلمون عن ذلك.. وعليهم أن يؤذنوا المسلمين بمسير عدوهم من الروم اليهم ويكون طريق المسلمين الى العدو عليهم» (154).

ادرك البيزنطيون خطورة ظهور أسطول إسلامي في حوض البحر الابيض المتوسط الشرقي، منافس لهم، خصوصا، بعد حملة عبد الله بن سعد الناجحة والحملة البحرية للمسلمين على قبرص الموفقة وسرعان ما اشتبك المسلمون مع البيزنطيين في معركة بحرية سنة 34هـ أو 35هـ فيرى المؤرخون ان الاسطول البيزنطي بقيادة الامبراطور نفسه قسطنطين الثاني، التقى بأسطول مصر والشام بقيادة عبد الله ابن سعد عند شواطيء كليكيا في جنوب آسيا الصغرى وتعرف هذه الموقعة بذات الصواري، وقد انتهت-بأول نصر عربي في معركة بحرية.

ويبدو ان انتصار المسلمين جاء نتيجة لخطة غير عادية وهي ربط سفنهم بعضها بالسلاسل مما جعل من المتعذر على البيزنطيين أختراق صفوفهم، كذلك استخدم المسلمون في الوقت نفسه خطاطيف طويلة كانوا يقذفونها على سفن العدو فيصيبون بها صواريهم ثم يجرونها الى جوار سفنهم، فغدت المعركة وكأنها معركة برية.

ويلاحظ أن المكان الذي دارت بقربه هذهالواقعة هو ساحل الاناضول الذي يزخر بغابات السرو والارز التى تستخدم اشجارها في صناعة صواري السفن، ولعل

---

154) ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ 3 ص 96 وقارن البلاذري : فتوح البلدان ص 157 ـ 158.

البيزنطيين قرروا القيام بهذه المعركة ليحولوا بين العرب ، وبين الحصول على هذا الخشب اللازم لبناء السفن (155).

ويعلق الدكتور فتحي عثمان على انتصار العرب في ذات الصواري بأنها تعتبر حدا فاصلا في تاريخ البحر المتوسط، ذلك ان قنسطانز (قسطنطين2) كان يرمي الى تحطيم قوة المسلمين البحرية في مهدها،ولو وفق في ذلك لظلت سيادة البحر الابيض او حوضه الشرقي على الاقل بيد البيزنطيين دون المسلمين (156).

3 ـ توزيع المصحف على الأمصار

انتشرت القبائل العربية خارج الجزيرة العربية واستقرت بالاقاليم المفتوحة، كما تحول بعض شعوب هذه الأقاليم الى الاسلام، واقتضى ذلك ارسال الفقهاء والعلماء والتابعين الى الأمصار، لتعليم الناس الدين والسنة، وحفظ القرآن. وصاحب ذلك، اختلاف في قراءات القرآن، وبالتالي تفسيره ولاحظ ذلك أبو عبد الله حذيفة ابن اليمان العبسي احد أصحاب رسول الله فأخبر والي الكوفة سعيد بن العاص :

« لقد رأيت في سفرتي هذه أمرا، لئن ترك الناس ليختلفن في القرآن ثم لا يقومون عليه أبدا. قال : وما ذاك ؟ قال : رأيت أناسا من أهل حمص يزعمون أن قراءتهم خير من قراءة غيرهم وأنهم أخذوا القرآن عن المقداد، ورأيت أهل دمشق يقولون : ان قراءتهم خير من قراءة غيرهم، ورأيت أهل الكوفة يقولون مثل ذلك وأنهم قرأوا على ابن مسعود، وأهل البصرة يقولون مثل ذلك وإنهم قرأوا على أبي موسى ويسمون مصحفه لباب القلوب .... والله لئن عشت لأتين أمير المؤمنين، ولأشيرن عليه ان يحول بين الناس وبين ذلك».

---

155) انظر ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص 255.
ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 3 ص 117 ــ 118.
ابراهيم العدوي : الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم ص 64 ــ 89 ، قوات البحرية العربية في مياه البحر المتوسط ص 50 ــ 51.
أحمد مختار العبادي : في التاريخ العباسي والاندلسي ص 247.

156) فتحي عثمان : الحدود الاسلامية البيزنطية ج 2 ص 338.

ووفد حذيفة بن اليمان العبسي على عثمان بالمدينة، وأفضى اليه بالموضوع وقال : «أنا النذير العريان فأدركوا الأمة» وجمع عثمان الصحابة وأخبرهم بالأمر، فأعظموه ورأوا جميعا ما رأى حذيفة. فأرسل عثمان الى حفصة بنت عمر في طلب القرآن الذي جمع في أيام أبي بكر بعد موقعة اليمامة ومقتل الكثير من الصحابة والذي آل الى عمر بن الخطاب ثم حفصة بعد مقتل عمر.

وشكلت لجنة من زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحرث بن هشام، للقيام بكتابة نسخ أخرى من القرآن وقال عثمان : «اذا اختلفتم فاكتبوها بلسان قريش فانما نزل بلسانهم» فلما نسخوا الصحف ردها عثمان الى حفصة وأرسل الى كل أفق بمصحف وحرق ما سوى ذلك وأمر ان يعتمدوا عليها ويدعوا ما سوى ذلك (157).

ويذكر عبد المنعم ماجد أن الخليفة عثمان أراد بذلك التقليل من نفوذ القراء ، الذي تزايد بسبب أنهم وحدهم يعرفون مضمون القرآن . ثم يعود ويناقض هذا الرأي بقوله بأن ما قام به عثمان في جمع القرآن لم يكن عملا تامًا ، لان سكان البلاد المفتوحة حينما أسلموا لم يكن في استطاعتهم قراءة القرآن إلا بمساعدة أهل الحجاز وحفظه عن ظهر قلب وذلك لخلو اللغة العربية وقتئذ من التنقيط فكانت حروفها متشابهة . ويظهر أن الحجاج بن يوسف الثقفي في عهد الامويين أخذ على عاتقه وضع النقط للقرآن مما سهل قراءته . وان كان بعض الفقهاء لهم رأي في ذلك هو أن التنقيط مكروه لانه يسئ الظن بالنص (*) مما يرجح عدم صحة ذلك الاستنتاج .

---

157) ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ 3، ص 111 ــ 112.

ويروى ان اهل الكوفة من اصحاب عبد الله بن مسعود امتنعوا من ذلك وعابوا الناس، ولما قدم على بن ابي طالب الى الكوفة، قام اليه رجل فعاب عثمان بجمع الناس على المصحف، فصاح به وقال : اسكت فعن ملإمنا فعل ذلك، فلو وليت منه ما ولى عثمان لسلكت سبيله.

(*) حاجي خليفة : كشف الظنون 1 : 467 ــ 468 ، يحيى نامى : الخط العربي ص 87 ، عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية 1 : 203 ، 204 .

وقد كان هذا القرآن الذي جمع يسمى «مصحف عثمان» أو فقط المصحف وقسم الى سور وبلغ عددها مائة وأربعة عشرة سورة فيها ست وثلاثون ومائتان وستة آلاف آية ، وكل سورة فيه تبدأ باسم الله الرحمن الرحيم ماعدا سورة براءة ، التي يبدو من سياقها انها جزء من سورة الانفال السابقة لها . ويبدو أن الذاكرة العربية لم تع الترتيب التاريخي لنزول الآيات ، فرتبتها على حسب قصرها . وطولها ، بأن صيرت الطوال مع الطوال والقصار مع القصار ، مما كان سببا في أن جعل بعض السور المدنية تظهر في أول المصحف والمكية في آخره وقد ورد عن النبي (ص) أنه كان يأمر كتاب الوحي بوضع الآية كذا بعد آية كذا . (**) .

السياسة الداخلية والفتنة :

وفي المرحلة الأخيرة من فترة حكم عثمان بن عفان ظهرت المعارضة لحكمه وانتقاد سياسته الداخلية ثم تطورت هذه المعارضة من معارضة كلامية علنية الى معارضة مسلحة وتركزت في الأمصار خارج المدينة في البصرة والكوفة والفسطاط وانتهت الى التآمر على خليفة المسلمين وحصاره بمنزله بالمدينة ثم قتله.

فما هي الأسباب التي أدت الى ظهور المعارضة بنوعيها الكلامية والمسلحة وكذا العوامل غير المباشرة التي اذكتها ثم التهم التي وجهت الى الخليفة عثمان.

الأسباب التي أدت الى ظهور هذه المعارضة

1 _ طريقة الشورى في انتخاب الخليفة :

لم يترك الخليفة عمر بن الخطاب بعد اصابته القاتلة أمر الخلافة بين أيدي المسلمين كما فعل الرسول (ص) وكذلك لم ينص على تعيين فرد بذاته خلفا له كما فعل الخليفة أبو بكر الصديق حينما مرض وأشرف على الموت. بل ترك الأمر شورى بين ايدي ستة من صحابة الرسول من المهاجرين والسابقين الى الإسلام، وانتهت

(**) أنظر السيوطي : كتاب الاتقان في علوم القرآن (القاهرة 1941) 1: 52، 89، 104، 112، عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي 1 : 252 _ 253 .

المناقشات بين خمسة منهم ـ لغياب أحدهم ـ الى حصر الخلافة بين كل من عثمان ابن عفان الأموي وعلي بن أبي طالب الهاشمي.

ويروى ابن الأثير ان عبد الرحمن بن عوف كانت تربطه بكل من سعد بن أبي وقاص وعثمان بن عفان روابط قوية، فهو ابن عم الأول «فسعد لا يخالف ابن عمه» وصهر الثاني «وعبد الرحمن صهر عثمان» وبالتالي فقد حصل عثمان بن عفان على الأغلبية المطلوبة لتنصيبه خليفة للمسلمين. يضاف الى ذلك ما اشتهر عنه من أخلاق كريمة ولين في المعاملة حتى قال عنه الرسول (ص) «ألا أستحي ممن تستحي منه الملائكة» وأطلق عليه «ذو النورين» (158) .

وكان عثمان من بني أمية أرفع بيوت قريش في الجاهلية ثروة وقوة، كما كان أبو سفيان زعيم بني أمية، قلب المعارضة القرشية للرسول (ص) وأتباعه سنين طويلة وما أن تم فتح مكةحتىاستقر معظم الأمويين في المدينة، حيث عمل الرسول (ص) على ارضائهم وتأليف قلوبهم، بشتى الطرق والأساليب.

وفي عهد ابي بكر وعمر وفق يزيد بن أبي سفيان، ووفق أخوه معاوية من بعده، الى أن يبلغا مرتبة بارزة في الدولة. فلما كانت خلافة عثمان انتهى الأمويون الى القمة (159) .

أما علي بن أبي طالب، الذي رباه الرسول (ص)، وزوج ابنته فاطمة وابن عمه، وأول من أسلم من الفتيان، ومفتدى الرسول (ص) يوم هجرته الى المدينة.

ليس هناك شك أنه تطلع الى تولية الخلافة وشاركه في هذا كثير من المسلمين. ففي خلال مرض الرسول، قبيل وفاته، طلب العباس عم الرسول (ص) من علي ان يستفسر منه عن خليفته بقوله «فاذهب الى رسول الله (ص)، فاسأله فيمن يكون هذا الأمر، فان كان فينا علمناه، وان كان في غيرنا أمره أوصى بنا» فقال علي : لئن سألناها رسول الله (ص) فمنعناها لا يعطيناها الناس أبدا، والله لا أسألها رسول الله (ص) أبدا».

---

158) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 3 ص 67.
. الذهبي : دول الاسلام ج 1 ص 9 .
159) بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص 110 ـ 111.

وبعد مبايعة ابي بكر الصديق يروى الزهري انه «بقي علي وبنو هاشم والزبير ستة أشهر لم يبايعوا أبا بكر حتى ماتت فاطمة فبايعوه» وما أن توفي ابو بكر وتولى عمر بن الخطاب بناء على اقرار أبي بكر، تصمت المصادر التي بين أيدينا عن موقف علي بن ابي طالب والمرجح موافقته عليها اسوة ببقية المسلمين مرغما وبعد وفاة عمر، اشترك علي مع أهل الشورة لاختيار خليفة المسلمين ثم ادرك تسرعه، فقال له العباس (عمه) : «لم ارفعك في شيء إلاّ رجعت إلي مستأخرا لما أكره، أشرت عليك عند وفاة رسول الله (ص)، ان تسأله فيمن هذا الأمر فأبيت، فأشرت عليك بعد وفاته أن تعاجل الأمر فأبيت، وأشرت عليك حين سماك عمر في الشورى أن لا تدخل معهم فأبيت، احفظ عني واحدة : كلما عرض عليك القوم فقل : لا، الا أن يولوك، واحذر هؤلاء الرهط فانهم لا يبرحون يدفعوننا عن هذا الأمر حتى يقوم به لنا غيرنا» 160) .

وهكذا تركت الطريقة التي اقرها الخليفة عمر لانتخاب خليفته ندوب في النفوس باعتبار انهم احق بالخلافة من غيرهم.

2 ـ موقف المهاجرين من قريش :

يروي الطبري في تاريخه الأمم والملوك أن عمر بن الخطاب كان حجر على أعلام قريش من المهاجرين، الخروج في البلدان الا بإذن وأجل فشكوه، فبلغه فقال : ألا أني سننت الإسلام سن البعير، يبدأ فيكون جذعا، ثم ثنيا ثم رباعيا ثم سديسا ثم بازلا، ألا فهل ينتظر بالبازل الا النقصان، ألا وان الإسلام قد نزل، الا وان قريشا يريدون ان يتخذوا مال الله معونات دون عباده ألا فأما وابن الخطاب حي فلا، إني قائم دون شعب الحرة آخذ بحلاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا الى النار.

ويضيف الشعبي أنه لم يمت عمر حتى ملته قريش وقد كان حصرهم بالمدينة فامتنع عليهم وقال : ان أخوف ما أخاف على هذه الأمة انتشاركم في البلاد فان الرجل ليستأذنه في الغزو وهو ممن حبس بالمدينة من المهاجرين ولم يكن فعل

160) انظر ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 2 ص 321، 331، ج 3 67 ـ 68.

ذلك بغيرهم من أهل مكة فيقول قد كان لك غزوك مع رسول الله (ص) ما يبلغك وخير لك من الغزو اليوم الا ترى الدنيا ولا تراك(161) .

ولم يكتف عمر بن الخطاب بذلك، فحينما بلغه اختصاص بعض الجماعات ببعض مهاجري قريش، حتى عرف الناس بهم مثل صحابة فلان أوجلساء فلان فقال «حتى تحوميت المجالس، وأيم الله أن هذا لسريع في دينكم، سريع في شرفكم، سريع في ذات بينكم، ولكأني بمن يأتي بعدكم يقول هذا رأي فلان قد قسموا الاسلام اقساما افيضوا مجالسكم بينكم وتجالسوا معا فانه ادوم لألفتكم وأهيب لكم في الناس».

وهكذا نرى محافظة عمر بن الخطاب على مهاجري قريش سواء بعدم السماح لهم بالانتقال الى الأمصار، مما يدعو الى التفاف الناس حولهم والأخذ عنهم ما قد يتعارض مع تعاليم الاسلام هذا من ناحية، والخوف من انسياقهم مع الحياة الدنيا والميل الى الترف، مما يجعلهم أسوة سيئة لعامة المسلمين من ناحية أخرى.

كما حرص عمر على اجتماعهم معا وقاوم فكرة أن يكون لكل منهم مجموعات من الناس خوفا من تعدد آرائهم وتباينها في القضايا الاسلامية مما يدعو الى التفرقة.

فلما تولى عثمان بن عفان لم يطبق سياسة عمر بن الخطاب على المهاجرين من قريش، فانساحوا في البلاد فلما رأوها ورأوا الدنيا ورآهم الناس، انقطع من لم يكن له طول ولا مزية في الاسلام اليهم واملوهم وتقدموا في ذلك فقالوا يملكون فنكون قد عرفناهم وتقدمنا في التقرب والانقطاع اليهم فكان ذلك أول وهن دخل على الاسلام وأول فتنة كانت في العامة. ويروى الطبري انه «لم تمض سنة من امارة عثمان حتى اتخذ رجال قريش اموالا في الأمصار وانقطع اليهم الناس» (162) .

ويروى المسعودي ان الزبير بن العوام في أيام عثمان اقتنى الضياع والدور فقد بنى دارا بالبصرة. اتخذت في اوائل القرن الرابع الهجري كفندق ينزله التجار

---

161) الطبري : تاريخ الامم والملوك جـ 5 ص 134،
، ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ 3 ص 180، 181،
، محمد الخضري : تاريخ الامم الاسلامية (الدولة الاموية) جـ 2 ص 18.
162) محمد الخضري : تاريخ الامم الاسلامية (الدولة الأموية) جـ 2 ص 18، 30، 31

وأرباب الأموال واصحاب الجهاز من البحرين وغيرهم، وابتنى ايضا دورا بمصر والكوفة والأسكندرية. وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين الف دينار، وخلف الزبير ألف فرس والف عبد وأمة، وخططا بالأمصار.

وكذلك طلحة بن عبيد الله التيمي، ابتنى داره بالكوفة المشهورة ، المعروفة بالكناسة بدار الطلحيين في القرن الرابع الهجري ، وكان غلته من العراق كل يوم الف دينار، وقيل أكثر من ذلك ، وبناحية الشراه أكثر من نتاج العراق ، وشيد داره بالمدينة وبناها بالآجر والجص والساج.

أما عبد الرحمن بن عوف الزهري، فكان على مربطه مائة فرس، وله الف بعير، وعشرة آلاف شاة من الغنم، وبلغ ربع قيمة ماله عند وفاته اربعة وثمانين الفا.

كما ابتنى سعد بن أبي وقاص داره بالعقيق، فرفع سمكها، ووسع فضاءها، وجعل اعلاها شرفات. وحين توفي زيد بن ثابت خلف من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس، غير ما خلف من الأموال والضياع بقيمة مائة الف دينار (163).

3 ـ حالة الأمصار (الكوفة والبصرة والفسطاط) :

أنشأت مدينة البصرة في 14 هـ لتكون قاعدة عسكرية أمامية تنطلق منها الجيوش للمحافظة على المناطق التى تم فتحها في الأهواز وتستر ورامهرمز والسوس وجنديسابور ولاستكمال الفتوحات الاسلامية شرقا .

وأول من استقر بها فرقة عتبة المشكلة من ثلاثمائة وبضعة عشر رجال انضم اليهم قوم من الأعراب وأهل البوادي حتى بلغ عددهم خمسمائة تقريبا(164)وفي رواية أخرى ثمانمائة.

وتوالت الامدادات الى سكان البصرة من المدينة «فلما كثروا بنى رهط منهم سبع رساكر (كلمة فارسية تطلق على القرى) من لبن منها بالخريبة اثنتان، والزابوقة (165) واحدة،وفيبني تميم اثنتان وفي الازد اثنتان». يضاف الى ذلك من شارك في حرب القادسية.

---

163)المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ج 2 ص 332 ـ 333.

164)الزابوقة من البيت : زاويته وناحيته .

165)الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج 4 ص 148 ، 199.

وفي أواخر عصر الخلفاء بلغ عدد عيالهم 120 الف فرد (166).

أما مدينة الكوفة فقد انشأت سنة 17 هـ لتكون قاعدة عسكرية أمامية مع البصرة .تنطلق منها الجيوش لحماية الري واذربيجان من محاولات الفرس لاستردادهما وغزو مناطق جديدة مثل ارمينية وطبرستان وجرجان شرقا.

وبعد اختيار مركز المدينة حيث بني مسجدها ودار أمارتها، أمر سعد بن ابي وقاص رجلا «رام شديد النزع فرمى عن يمينه فأمر من شاء ان يبنى.وراء موقع ذلك السهم، ورمى من بين يديه، ومن خلفه وأمر من شاء ان يبني وراء موقع السهمين» وأقام سعد خارج الميدان المحيط بالمسجد في اتجاه قبلة المسجد، اربعة طرق أنزل فيها قبائل بني أسد والنخع وكندة والأزد على التوالى. وخمسة طرق جنوب قبلة المسجد، انزل فيها، قبائل سليم وثقيف وهمدان وبجيلة وتيم اللات وتغلب. وثلاثة طرق شرقي المسجد والميدان، انزل فيها، قبائل الأنصار ومزينة وتميم ومحارب وأسد وعامر. وثلاثة طرق غربي المسجد والميدان، أنزل فيها قبائل بجالة وبجلة وجديلة وجهينة وأخلاط من القبائل. ويروى الطبري ان الكوفة اختطت لتسع مائة الف مقاتل (167).

ويروي الشعبي «كنا ـ يعني أهل اليمن ـ اثني عشر الفا، وكانت نزار ثمانية آلاف، ألا ترى انا أكثر أهل الكوفة وخرج سهمنا بالناحية الشرقية فلذلك صارت خططنا بحيث هي».

ويضاف الى القبائل العربية التى استقرت بمدينة الكوفة 4 آلاف من المقاتلة الفرس، يسمون جند شهانشاه، استأمنوا ـ بعد هزيمة رستم ـ على ان ينزلوا حيث احبوا ويحالفوا من احبوا ويفرض لهم في العطاء، وكان لهم نقيب منهم يقال له ديلم فعرفوا «حمراء ديلم» والعرب تسمى العجم الحمراء. فحالفوا عرب بني تميم بزعامة زهر بن حوية السعدي. ونزلوا بمدينة الكوفة بجوار حلفائهم بني تميم (168)

---

166)البلاذري : فتوح البلدان ص 344 ـ 345 .
. ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 3 ص 31.

167 انظر الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج 4 ص 189 ـ 192 و 263.

168)البلاذري : فتوح البلدان ص 276، 279.
. ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 3 ص 32.

ومما سبق،يتضح لنا أن سكان البصرة والكوفة من القبائل العربية، القيسية واليمنية، وتتميز الكوفة بأغلبية اليمنية ووجود عنصر فارسي مع العرب. وأصبح أهل البصرة يفدون على عمر بن الخطاب، يشكون منازلهم التي تضيق بهم ويطلبون لذلك أن يوسع عليهم.

ففي سنة 22 هـ كتب عمر بن سراقة والى البصرة الى عمر بن الخطاب يذكر له كثرة اهل البصرة وعجز خراجهم عنهم، وسأله ان يزيدهم أحد الماهين أو ماسبذان، وبلغ أهل الكوفة ذلك فقالوا لعمار بن ياسر، والي الكوفة، أخبر عمر أن رامهرمز وايذج لنا دونهم لم يعينونا عليهما ولم يلحقونا حتى افتتحناهما واختصم أهل الكوفة وأهل البصرة.

كما ادعى أهل البصرة، قرى افتتحهما ابو موسى دون اصبهان ايام أمد به عمر بن الخطاب أهل الكوفة. فاعترض أهل الكوفة وقالوا : انيتمونا مددا وقد افتتحنا البلاد فأنشبناكم في المغانم، والذمة ذمتنا والأرض ارضنا وأيدهم عمر بن الخطاب.

ولذلك فقد تم تعديل الفتوح بين أهل الكوفة وأهل البصرة المرة وراء المرة واستمرت خصومتهم في ضم هذه المنطقة الى اولئك او هؤلاء (169).

وبالاضافة الى النزاع بين أهل البصرة وأهل الكوفة، لم يرض كل منهما عن واليه وحاكمه ففي سنة 29 هـ خلال فترة حكم عثمان بن عفان، نادى أبو موسى الأشعري والي البصرة في الناس بالجهاد ضد اهل ايذج والأكراد الثائرين، ونوه بالمجاهدين على اقدامهم، فخرج البعض على دوابهم وخرج البعض رجالة، وقال آخرون : «لا نعجل بشيء حتى ننظر ما يصنع، فانه أشبه قوله فعله فعلنا كما يفعل. فلما خرج أخرج ثقله من قصره على اربعين بغلا، فتعلقوا بعنانه وقالوا : احملنا على بعض هذه الفضول وأرغب في المشي كما رغبتنا. فضرب القوم بسوطه، فتركوا دابته، فمضى» فعزله عثمان بن عفان وولى عليهم عبد الله بن عامر بن كريز وهو ابن خال عثمان) (170).

---

169)ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ 3 ص 30 ـ 31.
. شكري فيصل : حركة الفتح الاسلامي في القرن الأول ص 194.

170)ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ 3 ص 99 ـ 100.

أما أهل الكوفة ففي سنة 22 هـ، طالبوا عمر بن الخطاب بعزل واليهم عمار ابن ياسر واتهموه «إنه لا يحتمل ما هو فيه وإنه ليس بأمين» فدعى عمر، عمار بن ياسر الى المدينة، فخرج ومعه وفد من أهل الكوفة يشهدون له، وما أن اصبحوا بين ايدي عمر بن الخطاب حتى كانوا أشد عليه ممن تخلف بالمدينة وقالوا : «انه غير كاف وعالم بالسياسة ولا يدري على ما استعملته».

قام عمر بعزله، وولى عليهم أبي موسى الأشعري ـ بناء على طلبهم ـ وسرعان ما غضبوا عليه فلم يمر عليه عام حتى اتهموا غلامه ببيع العلف والإتجار في إبلهم، فعزله عمر، وأغتم وخلا في ناحية المسجد يتدبر أمرهم فنام، فأتاه المغيرة بن شعبة وحرسه حتى استيقظ وقال له :«ما فعلت هذا يا أمير المؤمنين الا من عظيم» فأجابه عمر : « وأي شيء أعظم من مائة ألف لا يرضون عن أمير ولا يرضى عنهم أمير؟»، (171) ثم يضيف «من عذيري أهل الكوفة أن استعملت عليهم القوي فجروه وان وليت عليهم الضعيف حقروه» (172).

واذا أضفنا الى ذلك أن مدينتي البصرة والكوفة بعد تمصيرهما تغلبت النزعة المدنية فيهما على النزعة القبيلية وارتبطت القبائل التى سكنت المدينتين بالرباط المدني وأفضل مظهر لذلك هو تناول المؤرخون لاخبار المدينتين فيقال «مغازى الكوفة»«ومغازى البصرة».

وكذا كان مغازى الكوفة أيام عثمان الرى وأذربيجان وأرمينية، وكان بهذين الثغرين الأولين عشرة آلاف مقاتل من أهل الكوفة : ستة آلاف بأدربيجان وأربعة آلاف بالرى. وكان بالكوفة اذ ذاك أربعون ألف مقاتل وكان يغزو هذين الثغرين منهم عشرة الاف في كل سنة، فكان الرجل يصيبه في كل اربع سنين غزوة (173) واذا اخذنا بالرواية التي تقول بوجود مائة ألف مقاتل بالكوفة لكان الرجل يصيبه

---

171) انظر الطبري : الامم والملوك جـ 4 ص 263.

وقارن ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ 3 ص 31 ــ 32.

172) البلاذري : فتوح البلدان ص 278.

173) انظر النزعة المدنية لكل من مدينتي البصرة والكوفة في شكري فيصل : حركة الفتح الاسلامي في القرن الاول ص 193 ــ 194.

. المجتمعات الاسلامية في القرن الأول «انظر الحديث عن الاستقرار في مدن العراق.

في كل عشر سنوات غزوة. وبالتالي كان أهل الكوفة يملكون الوقت الكافي لتحليل الأحداث والاستنباط والتفكير فيما هو ابعد من سلاح المقاتل وفرسه وهي امور خلافة المسلمين سواء بالحق أو بالباطل.

خصوصا وأن أهل الكوفة كما وصفهم واليها سعيد بن العاص : «ان أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم وغُلب اهل الشرف منهم والبيوتات والسابقة، والغالب على تلك البلاد روادف قدمت، وأعراب لحقت، حتى لا ينظر الى ذي شرف وبلاء من نابتتها ولا نازلتها» (174).

أما أهل فسطاط مصر، وهي أول مدينة أسسها العرب في مصر بالقرب من حصن بابليون على الضفة الشرقية للنيل. بناها عمرو بن العاص نحو 21 هـ / 643 م ليجعلها قاعدة البلاد ودار الامارة. اختط عمرو الجامع العتيق، ثم اختطت القبائل العربية من حوله، والخطط التي كانت بمدينة الفسطاط، بمنزلة الحارات اليوم.

وحينما أسست الفسطاط(174 مكرر)، انضمت القبائل بعضها الى بعض وتنافسوا في المواضع، مما دفع عمرو بن العاص الى تولية كل من معاوية بن حديج التجيبي، وشريك بن سمى الغطيفي وعمرو بن قحزم الخولاني وجبويل ابن ناشرة المعافري، للقيام بالفصل بين القبائل وتوزيعهم على خطط الفسطاط.

مثل خطة أهل الراية (*) وخطة قبيلة مهرة وخطرة قبيلة تجيب وخطط قبيلة لخم

---

174) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 3 ص 108.

(174 مكرر) لما فتح العرب مصر في سنة 18 هـ كانت عاصمة البلاد هي الاسكندرية ففكر عمرو بن العاص في أن يتخذها قاعدة للادارة والجيش، الا أن عمر بن الخطاب لم يوافقه على ذلك، بل أمره بانشاء مدينة اخرى لا يفصله عن المسلمين فيها ماء في شتاء ولا صيف أنظر ابن دقماق : الانتصار ج 1 ص 322، عبد الرحمن زكي : الفسطاط وضاحيتاها العسكر والقطائع ص 8.

(*) والخطط تعني الحارات أو الزنقات ، أما أهل الراية فهم جماعات من قريش والانصار وخزاعة وأسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينة وثقيف ودوس وعبس وحرش وليث والعتقاء . لم يكن لكل بطن منهم من العدد ما يكفي لتشكيل فرقة تقيد بالديوان ، وكره كل بطن أن يدعى بإسم قبيلة غير قبيلته ، فجعل لهم عمرو بن العاص راية ولم ينسبها الى أحد . أنظر ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص 91 ـ 129 ، القلقشندي: صبح الاعشي 3 :331 ، المقريزي : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والاثار 1 : 296 ـ 297 .

وخطة أهل اللفيف (**) وخطط أهل الظاهر (***) وخطة غافق وخطة الصدف وخطط الفارسيين وخطط قبائل مذحج و عطيف ووعلان وخطط يحصب ورعين وذي الكلاع والمغافر وسبأ وخطة السلف وخطة بنى وائل وخطة القبض . وخطط الحمراوات الثلاث (****) .

ولم يختط المسلمون الفسطاط وحده ، وانما مصروا معه مدينة الجيزة ، فقد قدر لقبائل عربية أن تستقر بها مثل آل ذي أصبح من حمير ، ويافع بن زيد من رعين ، وهمدان ، وبنو الحجر من الازد ، وطائفة من الحبشة .

ومن العرض السابق لاهل أمصار (البصرة والكوفة والفسطاط والجيزة) يتضح لنا ، أن معظم عرب الامصار من صميم البادية ، جفاه غلاظ ، لاتهمهم قريش بقدر اهتمامهم بسير أمور الدولة الاسلامية سيرا حسنا ، فضلا عن حقدهم على قريش مكانتها ، لظهور الاسلام فيها ، وتمتعها بمعظم خيرات البلاد ، فهؤلاء الذين قامت الفتوح على اكتافهم ، كانوا يريدون أن يكون لهم رأي مسموع في اختيار الخليفة ، بحيث أنهم أرسلوا امراءهم «أمراء الاجناد» الى المدينة بعد موت عمر . ولم تعجبهم طريقة اختيار خليفة الاسلام دون مشورتهم ومن وراء الكواليس (*****) .

(**) هم مجموعة من بطون الازد وغسان وشجاعة وجذام ولخم والزحاف وتنوخ ، سموا باللفيف لانه بعد فتح الاسكندرية ودخول الاسطول البيزنطي للميناء ، بعث عمرو بن العاص رسول ليأتيه بالخبر وأسرعت هذه البطون تتبعه فلما راهم أحد قادة المسلمين استكثرهم وقال تالله ما رأيت قوما قد سدوا الافق مثلكم وانكم كما قال الله تعالى «فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا» فبذلك سموا من يؤمئذ اللفيف .

(***) وهم من العتقاء : مجموعة من بطون القبائل كانوا يشتغلون بقطع الطريق أيام الرسول (ص) فبعث اليهم فاتي بهم أسرى . فاعتقهم فقيل لهم العتقاء انضموا الى طوائف من الازد وعرفوا جميعا بأهل الظاهر .

(****) نسبة الى روم الشام وغيرهم ممن تحول الى الاسلام وانضموا إلى حملة عمرو بن العاص على مصر . وهم ينقسمون الى بنى نبه والازرق وهم من الروم وبنى روبيل وهم من اليهود أنظر المقريزي: المواعظ والاعتبار 1 : 297 ـ 298 .

(*****) ابن الاثير : الكامل 3: 37، 111،87، ابن خلدون : المقدمة ص 170 ،

Lammens : Etudes sur le siècle des Omeyyades. P 193.

عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية 1 : 257 ـ 258 .

وفي مصر ظهر عبد الله بن سبأ وكان يسمى بابن السوداء وكان يهوديا، أسلم في بداية حكم عثمان ثم تنقل في الحجاز ثم بالبصرة ثم بالكوفة ثم بالشام يريد اضلال الناس وتحريض المسلمين ويروى ابن الأثير أنه لما نزل الشام لقي أبا ذر الغفاري وحرضه على معاوية بن أبي سفيان والي الشام مما دفع معاوية الى طرد عبد الله بن سبأ، فأتى مصر وأقام بها واخذ يفتن الناس عن دينهم بقوله : «العجب ممن يصدق ان عيسى يرجع ، ويكذب أن محمدا يرجع» وكذا «انه كان لكل نبي وصي، وعلى وصي محمد، فمن اظلم ممن لم يجز وصية رسول الله (ص) . ووثب على وصية، وان عثمان اخذها بغير حق، فانهضوا في هذا الأمر وابدأوا بالطعن على امرائكم واظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تستميلوا به الناس».

بث عبد الله بن سبأ دعاته في مصر، وكاتب من استفسد في الأمصار وكاتبوه. خصوصا من الكوفة والبصرة ـ وشاعت الأخبار في جميع الأمصار بظلم ولاة عثمان ابن عفان حتى وصلت الى أهل المدينة فأتوا عثمان وأخبروه بما وصل الى علمهم وأشاروا عليه بارسال رجال ممن يثق بهم الى الأمصار حتى يرجعوا اليه بأخبارها.

فأرسل محمد بن مسلمة الى الكوفة، وأسامة بن زيد الى البصرة، وعبد الله بن عمر الى الشام، وعمار بن ياسر الى مصر، وفرق رجال غيرهم لتحري الأمر. فعادوا جميعا ليعلنوا على اهل المدينة قائلين : «ما انكرنا شيئا أيها الناس ولا أنكره أعلام المسلمين ولا عوامهم. ما عدا عمار بن ياسر الذي ذهب الى مصر، فقد استمالـــــه عبد الله بن سبأ واتباعه وانقطعوا اليه (175).

---

175) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج 3 ص 114، 154، 155.

4 ـ أدت العوامل الموضحة فيما سبق منفردة او مجتمعة الى تضخيم اخطاء الخلافة من ناحية ثم محاولة اختلاق اخطاء اخرى واتهام الخلافة بها من ناحية أخرى. وسوف نحاول ان نستعرض الاتهامات التي وجهت الى الخليفة عثمان.

أ ـ وأولى هذه التهم : «آثر القرباء» وقام بتعيينهم ولاة على الأمصار، فبعد توليته مباشرة، قام بعزل سعد بن أبي وقاص ـ منافسه السابق في الخلافة ـ من ولاية الكوفة واستعمل الوليد بن عقبة بن أبي محيط ابان بن أبي عمر ذكوان ابن أمية بن عبد شمس وهو أخو عثمان لامه. وحينما وفد الوليد ليتسلم الولاية من سعد قال له الوليد : «لا تجزعن يا أبا اسحق، ... وانما هو الملك يتغذاه قوم ويتعشاه اخرون. فأجابه سعد : «أراكم (يقصد بني أمية) جعلتموها ملكا!» (176).

وحينما ثار أهل البصرة على ابي موسى الأشعري واليها عزله عثمان، واستعمل عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن حبيب ابن عبد شمس وهو ابن خال عثمان، وهو يومئذ ابن خمس وعشرين سنة، وعلق ابو موسى الأشعري على توليته وانتمائه الى أمية بقوله : «قد جاءكم غلام كثير العمات والخالات والجدات في قريش، يفيض عليكم المال فيضا» (177).

كما قام عثمان بتولية عبد الله بن سعد بن ابي سرح، وكان أخا عثمان من الرضاعة على خراج مصر، فاختلف مع واليها عمروبن العاص فعزل عثمان عمروا، وجمع لعبد الله بن سعد الولاية والخراج.

واذا علمنا ان الرسول (ص) أمر بقتل عبد الله بن سعد حتى ولو احتمى بالكعبة اذ كان قد اسلم وكان من كتاب الوحي للرسول (ص). وكان اذا أملى عليه:

---

176) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 3 ص 82 ـ 83.
177) ابن واضح : تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 166.
ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 3 ص 99.

عزيز حكيم، يكتب : عليم حكيم، وأشباه ذلك، ثم ارتد وقال لقريش: اني أكتب أحرف محمد في قرآنه حيث شئت ودينكم خير من دينه، فأهدر الرسول (ص) دمه، فلما كان فتح مكة فر عبد الله بن سعد الى عثمان بن عفان، فغيبه عثمان حتى اطمأن الناس، ثم احضره عند الرسول (ص)، وطلب له الأمان، فصمت الرسول (ص) طويلا ثم آمنه، فأسلم وعاد، فلما انصرف قال الرسول (ص) لاصحابه. لقد صمت ليقتله احدكم. فقال احدهم : هلا أومأت الينا ؟ فقال : ما كان للنبي ان يقتل بالاشارة. مما اثار عامة المسلمين (178).

وفي الشام كان معاوية بن أبي سفيان واليا منذ عهد عمر بن الخطاب وفي خلال عهد عثمان بن عفان وبالرغم مما عرف به معاوية من الحزم والضبط وان ولايته للشام تمت في عهد عمر، الا أنه اخذ عليه انه من بني امية وابن زعيم المعارضة القرشية، للرسول والدعوة المحمدية بمكة.

وبالتالي تعرض معاوية، للانتقاد من تـابعـــي ابو ذر الغفاري بتحريض من عبد الله بن سبأ الذي لقى أبا ذر فقال : يا أبا ذر ألا تعجب من معاوية يقول : المال مال الله ! الا أن كل شيء لله، كأنه يريد أن يحتجبه دون الناس ويمحو اسم المسلمين. فأتاه ابو ذر فقال : ما يدعوك الى أن تسمي مال المسلمين مال الله الساعة ؟ فقال : يرحمك الله يا أبا ذر ! ألسنا عباد الله والمال ماله ؟ قال : فلا تقله. قال : سأقول مال المسلمين.

وكان أبو ذر يذهب الى أن المسلم لا ينبغي له أن يكون في ملكه اكثر من قوت يومه وليلته او شيء ينفقه في سبيل الله أو يعده لكريم، ويأخذ بظاهر القرآن : «الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم» (179). فكان يقوم بالشام ويقول : يا معشر الأغنياء واسوا الفقراء، بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم

178) انظر الطبري : الامم والملوك ج 3 ص 119.

وابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 2 ص 249، ج 3 ص 88.

179) القرآن الكريم سورة التوبة (9) آية رقم 34.

وجنوبهم وظهورهم، فما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك واوجبوه على الأغنياء، وشكا الأغنياء ما يلقون منهم.

كتب معاوية الى عثمان : ان أبا ذر قد ضيق على، وقد كان كذا وكذا، للذي يقوله للفقراء. فكتب اليه عثمان : ان الفتنة قد اخرجت خطمها وعينيها ولم يبق الا أن تثب فلا تنكأ القرح وجهز أبا ذر الي وابعث معه دليلا وكفكف الناس ونفسك ما استطعت (180).

ويقدم لنا تاريخ اليعقوبي رواية أخرى في أسباب تردي العلاقات بين عثمان وابى ذر الغفاري، فقد اتهمه الخليفة بتقوله : اذا كملت بنو أمية ثلاثين رجلا اتخذوا بلاد الله دولا، وعباد الله خولا، ودين الله دغلا فأجابه ابو ذر : نعم ! سمعت رسول الله يقول ذلك وبالرغم من تاكيد علي بن أبي طالب صدق ابى ذر – مع عدم سماعه لمثل هذا الحديث فقد قام الخليفة عثمان بتحديد اقامة أبي ذر الغفاري بالربذة التى خرج منها حتى مات بها.

وحينما انتقد عمار بن ياسر ما فعله عثمان بأبي ذر «فأراد (عثمان) ان يسيره أيضا ، فاجتمعت بنو مخزوم الى علي بن أبي طالب، وسألوه إعانتهم، فقال علي :لاندع عثمان ورأيه. فجلس عمار في بيته، وبلغ عثمان ما تكلمت به بنو مخزوم، فأمسك عنه» (181) .

كذلك اوى عثمان بن عفان، الحكم بن ابي العاص بن أمية وكان عمه طريد النبي (ص)، فقد نفاه الرسول (ص) الى الطائف، وكان من أشد اعداء الرسول (ص) قبل اسلامه، وكان يرعى الغنم، ولم يزل كذلك خلال فترة خلافة ابي بكر وعمر بن الخطاب وحتى ولى عثمان، فرده (182).ويروى شاهد عيان انه رأى «الحكم بن ابي العاص يوم قدم المدينة عليه فزر خلق، وهو يسوق تيسا، حتى دخل دار عثمان، والناس ينظرون الى سوء حاله وحال من معه، ثم خرج وعليه جبة خز وطيلسان» ويوضح تاريخ اليعقوبي أسباب اهتمام عثمان بالحكم فبالاضافة

---

(180) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 3 ص 114 – 115.

(181) ابن واضح : تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 172.

(182) ابن خلكان : وفيات الأعيان وانباء ابناء الزمان، ج 2 ص 226.

لقرابته اذ كان عمه فقد كان الغالب على عثمان خلال خلافته مروان بن الحكم ابن أبي العاص (183).

وبالاضافة الى تعيين ذوي قرباه الوظائف والولايات تدعى بعض الروايات انه كان أكثر من كريم معهم، ولم يكن كرمه من ماله الخاص، بل من مال المسلمين.

فيروى ابن الأثير «أن ابلا من ابل الصدقة قدم بها على عثمان فوهبها لبعض بني الحكم، فبلغ ذلك عبد الرحمن بن عوف، فأخذها وقسمها بين الناس وعثمان في الدار» (184).

ويروى ان عثمان زوج ابنته الى عبد الله بن خالد بن اسيد وأمر له بستمائة ألف درهم من بيت مال البصرة.

كما اتهم عثمان بأنه اذا اجاز أحدا من أهل بيته بجائزة جعلها فرضا من بيت المال. فيماطـل المكلف بحفظ المال في الدفع حتى قال له عثمان : انما أنت خازن لنا، فاذا اعطيناك فخذ، واذا سكتنا عنك فاسكت. فقال حافظ المال : كذبت والله ! ما أنا لك بخازن، ولا لاهل بيتك، انما أنا خازن المسلمين. ولم يكتف بذلك بل اتى الرجل يوم الجمعة وعثمان يخطب فقال : ايها الناس زعم عثمان اني خازن له ولاهل بيته، وانما كنت خازنا للمسلمين، وهذه مفاتيح بيت مالكم، ورمى بها، فأخذها عثمان ودفعها الى زيد بن ثابت (185).

ب ـ أما نوعية الاتهامات الأخرى فتمثلها ، الرواية التي تدور حول السيدة عائشة زوجة الرسول (ص) وابنة صديقه وخليفته أبي بكر . اذ كان بين عثمان وعائشة منافرة وذلك انه نقصها مما كان يعطيها عمر بن الخطاب ، وصيرها أسوة بغيرهامن نساء رسول الله (ص) . وبينما كان عثمان يوما يخطب اذ دلت عائشة قميص رسول الله (ص) ، ونادت : «يامعشر المسلمين ! هذا جلباب رسول الله (ص) لم يبل ، وقد أبلى عثمان سنته ! فقال عثمان رب اصرف عني كيدهن ان كيدهن عظيم» (186) .

---

183) ابن واضح : تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 164 ، 173

184) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 3 ص 167.

185) ابن واضح : تاريخ اليعقوبي ج 2 ـ ص 168 ـ 169.

186) ابن واضح : تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 175.

وتفصيل ذلك، بعد توليةعثمان صعد الى المنبر، يخطب المسلمين، فجلس في الموضع الذي كان يجلس فيه رسول الله، وكان ابو بكر ينزل عنه درجة وعمر درجتين. فتكلم الناس عن ذلك واظهروا الطعن (187)،وقال بعضهم : اليوم ولد الشر.

كما يدعي البعض؛ان عثمان خرج من الليلة التي بويع له في يومها لصلاة العشاء، وبين «يديه شمعة، فلقيه المقداد بن عمرو، فقال : ما هذا البدعة!»(188).

وفي قضية مقتل الخليفة عمر بن الخطاب وقيام ابنه عبيد الله بن عمر بقتل القاتل ومن حامت الشبه حول اشتراكهم في التدبير لمقتل ابيه وكان احدهم يسمى الهرمزان (فارسي)، فلما ضربه عبيد الله بالسيف قال : لا اله الا الله. فلما احضره عثمان قال : أشيروا على في هذا الرجل الذي فتق في الاسلام ما فتق ! فقال علي : أرى ان تقتله. فقال بعض المهاجرين : قتل عمر أمس ويقتل ابنه اليوم ! فقال عثمان: أنا وليه وقد جعلتها دية واحتملها في مالي.

ولم يوافق على بن أبي طالب على ذلك، لان عليا لما ولى الخلافة أراد قتله فهرب منه الى معاوية بالشام (189). أما ترك القصر فاجتهاد، اذ سمع ان الناس افتتنوا بالقصر وفعلوا ذلك في منازلهم، فرأى ان السنة ربما ادت الى اسقاط الفريضة فتركها خوف الذريعة . مع ان جماعة من العلماء قالوا ان المسافر مخير بين القصر والاتمام (189م).

اذ يروى أنه في خلال رئاسة الخليفة عثمان لموسم الحج سنة 30هـ، ضرب فسطاطة بمنى، وأتم الصلاة بها وبعرفة، فكان اول ما تكلم به الناس في عثمان ظاهرا حين أتم الصلاة بمنى، فعاب ذلك غير واحد من الصحابة، وقال له علي : ما حدث امر ولا قدم عهد، ولقد عهدت النبي (ص) وأبا بكر وعمر يصلون ركعتين وأنت صدرا من خلافتك، فما أدرى ما ترجع اليه. فقال : رأى رأيته.

وحينما تناقش عبد الرحمن بن عوف مع الخليفة عثمان عن أسباب صلاته اربع ركعات بدلا من اثنين، اعتمد على ما أخبره به بعض من حج من اليمن وجفاه

---

187) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص 104.

188) ابن واضح : تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 163.

189) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 3 ص 75 ـ 76.

189 م) ابن العربي : العواصم من القواصم ص 78 ـ 80.

الناس اذ قالوا : «ان الصلاة للمقيم ركعتان»فاضطر كل من ابن مسعود وعبد الرحمن ان يصلي بالناس اربعا (190).

وينسب اليه كذلك أنه كان رجم امرأة من جهينة دخلت على زوجها ، فولدت لستة أشهر، فأمر عثمان برجمها. فلما اخرجت دخل اليه على بن أبي طالب فقال : ان الله عز وجل يقول : »وحمله وفصاله ثلاثون شهرا» وقال في رضاعه «حولين كاملين». فأرسل عثمان في اثر المرأة، فوجدت قد رجمت وماتت. واعترف الرجل بالولد (191).

هذه هي الأسباب التي أدت الى قيام الفتنة الكبرى في الخلافة الاسلامية، هذه الفتنة التي تركت بصماتها على ملامح التاريخ الاسلامي. سواء كانت أسباباً مباشرة او غير مباشرة. والان ننتقل الى بداية الفتنة وتطورها، الى أن انتهت بمحاصرة الخليفة في داره وقتله.

تطور المعارضة والفتنة :

وبدأت الفتنة بتجرؤ بعض المعارضين والمنتقدين للخليفة عليه، فتذكر الروايات التاريخية ان أول من اجترأ على الخليفة عثمان كان جبلة بن عمرو الساعدي، مر به عثمان وهو في نادي قومه وبيده جامعة، فسلم فرد القوم، فقال جبلة : لم تردون على رجل فعل كذا وكذا ؟ ثم قال لعثمان : والله لأطرحن هذه الجامعة في عنقك او لتتركن بطانتك هذه الخبيثة : مروان وابن عامر وابن سعد، منهم من نزل القرآن بذمه وأباح رسول الله (ص)، دمه.

كماتذكر هذه الروايات ان عثمان خطب يوما وبيده عصا كان النبي، (ص)، وأبو بكر وعمر يخطبون عليها. فأخذها جهجاه الغفاري من يده وكسرها على ركبته. فازداد تجرأ الناس عليه (192) .

---

190) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 3 ص 103 ــ 104.

191) ابن واضح : تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 174.

192) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج 5 ص 114.

، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 3 ص 168.

وفي نفس الوقت تجرأ الناس على ولاته في الأمصار فرغم حب الناس للوليد ابن عقبة والي الكوفة من قبل عثمان، وتركه لباب داره مفتوحا طوال فترة ولايته لمدة خمسة اعوام، الا أنهما أن حكم على بعض شباب الكوفة بالموت بسبب ارتكابهم لجريمة قتل، حتى اخذ أهلهم «يحفرون للوليد منذ قتل ابنائهم ويضعون له العيون»واقتحموا داره حينما بلغهم انه يشرب الخمر، فلم يروا شيئا. ورغم ذلك اذاعوا بين الناس ان الوليد يعتكف على الخمر.

وسواء كان الوليد بن عقبة، يشرب الخمر ام لا فقد عزل واقيم عليه حده وولى بدلا منه سعيد بن العاص بن أمية ولم تكن علاقة سعيد بأهل الكوفة بأفضل من علاقة الوليد بهم، فسرعان ما دب النزاع بين سعيد بن العاص وبين اهل الكوفة وذلك لاتهامهم سعيد، بطمعه وتطلعه الى الأرض الزراعية على جانبي الفرات التي كانت لهم. مما أغضب سعيد ودفعه الى طردهم من مجلسه.

ونتيجة لتعدد اضطراباتهم، كتب سعيد الى الخليفة عثمان في اخراجهم من مدينة الكوفة، فأرسلهم عثمان الى معاوية بالشام وحينما فشل في تقويمهم، كتب معاوية الى عثمان : «انه قدم على أقوام ليست لهم عقول ولا أديان، أضجرهم العدل، لا يريدون الله بشيء، ولا يتكلمون بحجة، انما همهم الفتنة وأموال أهل الذمة» (193) .

وفي مصر قاد حركة المعارضة : محمد بن أبي حذيفة وعمار بن ياسر ومحمد بن أبي بكر، وتفسر الروايات الاسلامية، معارضة هؤلاء، كانت لاسباب شخصية.

فمحمد بن أبي حذيفة، كان أبوه ابو حذيفة بن عتبه بن ربيعة بن عبد شمس قد قتل يوم اليمامة، وترك ابنه محمدا هذا، فكفله عثمان بن عفان وأحسن تربيته، وكان فيما قيل : أصاب شرابا فحده عثمان، ثم تنسك محمد وأقبل على العبادة وطلب من عثمان ان يوليه عملا،فقال : لو كنت أهلا لذلك لوليتك. فطلب

---

193) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ج 2 ص 334 ـ 337.
ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 3 ص 105 ، 106، 138، 141.

محمد الاذن له بالخروج لطلب الرزق، فجهزه عثمان من عنده وحمله وأعطاه فلما قدم مصر، اذ كانت به رغبة في غزو البحر، رأى الناس عبادته فلزموه وعظموه(194).

وغزا هو ومحمد بن ابي بكر مع عبد الله بن سعد بن أبي سرح والي مصر - غزوة الصواري، «فكان اول ما تكلم به محمد بن أبي حذيفة ومحمد بن ابي بكر في امر عثمان في هذه الغزوة وأظهرا عيبه وما غير وما خالف به أبا بكر وعمر، ويقولان استعمل عبد الله بن سعد رجلا كان رسول الله (ص)، قد اباح دمه، ونزل القرآن بكفره، وأخرج رسول الله (ص)، قوما ادخلهم، ونزع اصحاب رسول الله (ص)».

فكتب عبد الله بن سعد الى الخليفة عثمان: «ان محمدا قد افسد على البلاد هو ومحمد بن ابي بكر» فأجابه الخليفة: «أما ابن ابي بكر فانه يوهب لابيه ولعائشة، وأما ابن حذيفة فانه ابني وابن اخي وتربيتي وهو فرخ قريش»، فكتب اليه عبد الله بن سعد: «ان هذا الفرخ قد استوى ريشه ولم يبق الا ان يطير».

فبعث عثمان الى ابن حذيفة بثلاثين ألف درهم وبجمل عليه كسوة، فوضعها محمد في المسجد ثم قال: يا معشر المسلمين ألا ترون الى عثمان يخادعني عن ديني ويرشوني عليه! فازداد أهل مصر تعظيما له وطعنا على عثمان، وبايعوه على رياستهم، فكتب اليه عثمان يذكره بره به وتربيته اياه وقيامه بشأنه، فلم يرده ذلك عن ذمه وتأليب الناس عليه وحثهم على المسيرة الى حصره ومساعدة من يريد ذلك (195).

أما محمد بن ابي بكر الصديق وأخو السيدة عائشة أم المؤمنين فيروى الطبري أما ما دعاه الى ركوب عثمان.. الغضب والطمع فقد كان من الاسلام بالمكان الذي هو به وغره اقوام فطمع وكانت له دالة فلزمه حق فأخذه عثمان من ظهره ولم يدهن فاجتمع هذا الى هذا فصار مذمما بعد ان كان محمدا» (196) فانتقل الى مصر وانضم الى المعارضين لعثمان.

---

194) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ج 5 ص 135.
، ابن الأثير الكامل في التاريخ ج 3 ص 118، 181.
195) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج 3 ص 265.
196) الطبري: تاريخ الامم والملوك ج 5 ص 136.

اما ياسر بن عمار فكان تقاذف مع عباس بن عتبة بن ابي لهب فضربهما عثمان فأورث ذلك تعاديا بين اهل عمار وأهل عباس واذا اضفنا الى ذلك ، فشل ياسر بن عمار في ولاية الكوفة حين ولاه عمر بن الخطاب، ووصف عمر له «قد علمت ما أنت بصاحب عمل» وتخلفه بمصر حين ارسله عثمان لتحري الأمر بها بسبب تأثره بما شاع بمصر من آراء حول اساءة عثمان للحكم وتوليه اقرباءه. ادركنا سهولة تأثره وانحيازه الى الحزب المعارض لعثمان (197).

كما ان قيام عثمان بن عفان بجمع القرآن الكريم وتوزيع نسخ معتمدة من لجنة المدينة الى الأمصار والتخلص ممن عداها خشية الاختلاف والتبديل، أثار اعتراض عبد الله بن مسعود بالكوفة ورفض ان يتخلص من نسخته أو يسلمها لوالي المدينة (198) وعندما حضر الى المدينة بناء على طلب الخليفة عثمان، دخل المسجد وعثمان يخطب فقال عثمان : «انه قد قدمت عليكم دابة سوء، فكلمه ابن مسعود بكلام غليض، فأمر به عثمان، فجز برجله حتى كسر له ضلعان «فاعتل ابن مسعود فأتاه عثمان يعوده، فقال له : ما كلام بلغني عنك ؟ قال : ذكرت الذي فعلته بي. انك أمرت بي فوطيء جوفي، فلم اعقل صلاة الظهر، ولا العصر، ومنعتني عطائي. قال عثمان : فاني اقيدك من نفسي فافعل بي مثل الذي فعل بك ! فاجابه : ما كنت بالذي افتح القصاص على الخلفاء. قال : فهذا عطاؤك، فخذه قال ابن مسعود : منعتنيه وأنا محتاج اليه، وتعطينيه وأنا غني عنه ؟ لا حاجة لي به، فانصرف. فأقام ابن مسعود مغاضبا لعثمان حتى توفي (199).

ولذلك فقد انضمت عصبية هؤلاء المعارضين الى الثائرين ضد عثمان فتيم ابن مرة مع محمد بن ابي بكر، وبنو مخزوم واحلافها لعمار بن ياسر، وهذيل لعبد الله ابن مسعود وبنو زهرة لانه كان من احلافها، وغفارو احلافها لاجل ابي ذر الغفاري (200).

---

197) انظر ابن الأثير الكامل في التاريخ ج 3 ص 32، 181.

198) فقد كان عبد الله بن مسعود من اقدم اصحاب الرسول وكان يعتبر نفسه احد الثقات الكبار في القران. ولقد ذهب الى ان النسخة التي اقرها عثمان محرفة، غير كاملة، متهما زيدا وأصحابه باستبعاد الايات التى تلعن الأمويين وتذكرهم مع اعداء الرسول. انظر بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص 112.

199) ابن واضح : تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 170.

200) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ج 2 ص 338، 344.

أما الفتنة فقد بلغت ذروتها حين أعلن زعماء الأمصار بأن مجال النضال الفعال في سبيل الاسلام بات في المدينة، اكثر منه في المقاطعات النائية الواقعة على الحدود.

واندلعت النار في الكوفة ففي 655م اعترضت قوة تتألف من ألف شخص على رأسهم مالك الاشـتر اليمني الذي كان مواليا لعلي بن أبي طالب ، سبيل عامل الكوفة، سعيد بن العاص، عند عودته من الحج ومنعته من دخول المدينة،

وفي العام 656م سار جمع من العرب يبلغ عددهم خمسمائة رجل من مصر الى المدينة ليشنوا هناك الحرب التي يريدها الله ضد العدو الداخلي، وحينما وصلوا الى المدينة، ولحق بهم مثلهم من أهل الكوفة والبصرة وكان عثمان، وهو في ذلك الحين سيد اقوى امبراطورية على وجه الأرض لا يملك في مقره سلاحا مهما يكن، يدفع به الناقمين، ولذلك قام بمفاوضة الثائرين ونجح في اقناعهم بالانسحاب واعدا اياهم بالعمل على انصافهم وتحقيق مطالبهم.

ولكن الأمويين لم يلبثوا ان اطلعوا رؤوسهم ثانية، وحملوا الخليفة على ان يؤكد، في خطبة الجمعة التالية، ان المصريين انما رجعوا الى بلادهم لانهم وجدوا انفسهم على ضلال. فاستاء بعض اهل المدينة لذلك أشد الاستياء حتى لقد عيروا عثمان ورجموه بالحجارة. فسقط مغشيا عليه وحمله القوم الى خارج المسجد، الذي لم تطأه قدماه بعد ذلك قط.

وحاصر اهل المدينة وبقية الأمصار، عثمان داخل منزله ورفضوا ان يتزحزحوا من أماكنهم، خصوصا وقد ادعى المصريون انه قد وقعت في ايديهم رسالة من عثمان الى عامله ابن ابي سرح على مصر ، يأمره فيها بالفتك بالزعماء عقب عودتهم، على الرغم من ان الخليفة عثمان انكر ان تكون له معرفة بالرسالة التي وضعت نصب عينيه. عندئذ طلب اليه الثائرون ان يستقيل مادام من الممكن ان يجرى شيء كهذا من غير علمه، ولكن الخليفة رفض ان يحقق هذا الاقتراح الجريء الذي تقدم به الثائرون ، فحاصروه في منزله حيث لم يدافع عنه غير نفر قليل من انسبائه وبعض العبيد والموالي.

وانتهى الأمر بقتل احد انصار الخليفة، رجلا من المصريين، وطالب الثائرون بتسليم القاتل فلم يجابوا الى طلبهم، كما نمى الى علمهم ان جند الشام مقبلين لانقاذ الخليفة ومعاقبة الثائرين فتسلل بعضهم الى الخليفة من منزل مجاور، وقتلوا الخليفة الذي كان يتلو القرآن في هدوء، من غير ان يشترك في المعركة، وانتهبوا ما في بيته وكان ذلك 18 ذي الحجة 35 هـ / 656م. (201).

سادساً : تولية علي بن أبي طالب (35 ـ 40 هـ) والصراع على الخلافة

وفي نفس العام الذي قتل فيه عثمان، بويع على بن أبي طالب بالخلافة، ولكن ظروف مبايعته اختلفت عن ظروف سابقيه من الخلفاء.

فبعد وفاة الرسول (ص) اختلف الأنصار والمهاجرون وتمكن كل من أبو عبيدة وعمر وأبو بكر من حسم هذا النزاع بتولية أبو بكر الخلافة والحصول على إجماع عامة المسلمين على مبايعته. وعين أبو بكر للخلافة من بعده عمر بن الخطاب ورضي به المسلمين وعندما أصيب عمر أصابه قاتله ترك الأمر شورى من بعده في ستة زعماء من أصحاب الرسول (ص) من بينهم علي وعثمان وانتهى الأمر بإنتخاب عثمان.

ولكن ماهو موقف على بن أبى طالب من مبايعة المسلمين لكل من أبي بكر وعمر وعثمان؟

يروى الدينورى في كتابه الامامة والسياسة انه لما توفى الرسول (ص) «قال العباس لعلى بن أبى طالب ...: أبسط يدك أبايعك، فيقال: عم رسول الله بايع إبن عم رسول الله (ص)، ويبايعك أهل بيتك، فإن هذا الأمر إذا كان لم يقل» (202) فأجاب علي ابن أبي طالب: «ومن يطلب هذا الأمر غيرنا»؟ (203) ولذلك

---

(201) انظر الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ 5، 115 ـ 122.

، ابن واضح : تاريخ اليعقوبي جـ 2 ص 174 ـ 176.

، المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر جـ 2 ص 343 ـ 346.

، ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ 3 ص 168 ـ 179 .

(202) أي اذا بويع لاحد بالخلافة لا يقال ويعزل عنها.

(203) الدينوري : الإمامة والسياسة جـ 1 ص 12

لم يبايع علي، أبى بكر بعد انتخابه مباشرة. بل بعد وفاة زوجته فاطمة بنت الرسول (ص) اذ اتهم علي، أبي بكر بأنه سلبه حقه بقوله «أفسدت علينا أمورنا، ولم تستشر، ولم ترع لنا حقًا، فقال أبو بكر: بلى، ولكنى خشيت الفتنة» (204).

وبعد مرض أبي بكر، عهد بتولية عمر بن الخطاب من بعده إذ دعى كاتبه عثمان بن عفان وأملى عليه :

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد به أبو بكر بن أبي قحافة آخر عهده في الدنيا نازحًا عنها، وأول عهده بالآخرة داخلا فيها: إنى استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، فإن تروه عدل فيكم، فذلک ظنى به ورجائي فيه، وان بدل وغير فالخير أردت، ولا أعلم الغيب ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون».

وبالرغم من إتفاق كل من المهاجرين والأنصار وجند أهل الشام على كره خلافة عمر بن الخطاب حتى صارح رجل عمر ببغض وكره الناس له وحينما سأله عمر السبب قال الرجل: «للسانک وعصاک». فقد اجمع المسلمون على مبايعته ولم يقدر على ان يعترض علي وصية أبى بكر حينما خرج عمر بها إلى عامة المسلمين الذين أطاعوا وحينما تساءل أحد المسلمين عما تحتويه وصية أبي بكر أجابه عمر بأنه لايدري ولكنه أول من سمع وأطاع فقال المسلم: لكن والله أدرى مافيه: أمرته عام أول، وأمرک العام» ولاشک أن على بن أبي طالب كان يشاطره الرأي (205).

وعقب وفاة عمر ترک الأمر شورى بين ستة: علي، وعثمان، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبد الله، وسعد بن أبى وقاص، وعبد الرحمن بن عوف. وانتهت الشورى بتولية عثمان الأكبر سنًا. فقال علي :«ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا» (206) وعلق أحد أتباعه بقوله : «ويا عجبًا لقريش، ودفعهم هذا الأمر على أهل بيت نبيهم، وفيهم أول المؤمنين، وابن عم رسول الله، أعلم الناس وافقههم في دين الله، وأعظمهم غناء في الإسلام، وأبصرهم بالطريق، وأهداهم للصراط المستقيم، والله لقد زووها عن الهادي المهتدي الطاهر النقي، وما أرادوا إصلاحًا للأمة ولا صوابًا

204) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ج 2 ص 301، 302

205) الدينوري : الإمامة والسياسة ج 1 ص 24 ـ 25

206) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 3 ص 71

في المذهب، ولكنهم آثروا الدنيا على الآخرة، فبعدا وسحقًا للقوم الظالمين.» (207).

وفي خلال حصار ثوار الامصار (مصر والبصرة والكوفة) لعثمان بمنزله ثم قتله تغير مجتمع المدينة، اذ كان معظم المهاجرين والأنصار قد تركوها إلى الأمصار والثغور، كما سارعت معظم قريش بصفة عامة وبنوامية خاصة إلى الفرار من المدينة خوفًا من الثوار. واعتزل البعض الآخر في منزله محايدا وهكذا أصبح الثوار يسيطرون على مقاليد الأمور في المدينة ولم يكن في نظر جمهورهم أحق من علي بن أبي طالب بالخلافة فكلموه في البيعة له فأجابهم بعد تردد وامتناع . واتخذ علي بجانب القاب الخلافة لقب (الامام) لما فيه من معنى أحقية أمامه المسلمين كما في الصلاة وبذلك أضفى على الخلافة سلطة دينية بجانب سلطتها الزمنية ، حتى لا يسهل معارضتها .

وحرص علي بن أبي طالب على الحصول على مبايعة من بقي على قيد الحياة من زملاء الشورى وهم : طلحة والزبير، وسعد فأما طلحة فقد أتاه بعض الثوار بزعامة الاشتر وطالبوه بالمبايعة لعلي، فامتنع عليهم، فجاءوا به يلببونه، فبايعه. أما الزبير فقد بعث البصريون إليه حكيم بن جبلة على رأس نفر منهم، فجاؤوا به يحدونه بالسيف، فبايع. ولذلك كان يقول:«جاءني لص من لصوص عبد القيس فبايعته والسيف على عنقي». .أما سعد بن أبي وقاص فجاؤوا به وطالبوه بالمبايعة فرفض قائلا:«لا ، حتى يبايع الناس. والله ما عليك منى بأس» (208).

وهكذا بويع لعلي بن أبي طالب بالمدينة في 23 ذي الحجة سنة 35ه وإعترف بخلافته في جميع الولايات الإسلامية ماعدا ولاية الشام حيث طالب واليها معاوية بن أبي سفيان الخليفة الجديد بدم عثمان وسرعان ما انقلب عليه كل من طلحة والزبير اللذين كانا حتى مقتل عثمان يعملان في ما يظهر لمصلحته بحجة أنهما بايعا مكرهين، مطالبين كذلك بدم عثمان (209) .

---

207) ابن واضح. تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 163

208) الدينوري : الامامة والسياسة ج 1 ص 47 ، 45 ، الطبري : تاريخ الامم والملوك ج 5 ص 152 ـ 153 ، عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية 1 : 261 .

209) ابن واضح : تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 178
، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 3 ص 194

1 ـ الصراع مع أصحاب الجمل:

ويوضح الدينوري سبب إنقلاب الزبير وطلحة بقوله:

«وذكروا أن الزبير وطلحة أتيا عليا بعد فراغ البيعة، فقالا: هل تدري على مابايعناك ياأمير المؤمنين؟ قال علي: نعم، على السمع والطاعة، وعلى مابايعتم عليه أبا بكر وعمر وعثمان، فقالا: لا، ولكنا بايعفاك علي أنا شريكك في الأمر، قال علي: لا، ولكنكما شريكان في القول والاستقامة والعون على العجز والاولاد، قال: وكان الزبير لايشك في ولاية العراق، وطلحة في اليمن، فلما استبان لهما أن عليا غير موليهما شيئاً أظهرا الشكاة».

وأشاع كل من الزبير وطلحة أنهما وراء إثبات الذنب على عثمان حتى انتهى الأمر بقتله ومبايعة علي وهو جالس في بيته لم يحرك ساكناً، وحينما لم تأت الشكوى بنتيجة، أتى طلحة والزبير إلى علي وطلبا الإذن بالسفر إلى مكة لقضاء العمْرة فأذن لهما بالرغم من علمه بإستعداد كل منهما للثورة عليه. (210).

وكانت عائشة بمكة، خرجت من المدينة قبل أن يقتل عثمان للحج ويذكر ابن الأثير أنها حاولت التأثير على أخيها محمد بن أبي بكر للخروج معها وعدم الاشتراك في الفتنة فرفض (211). فلما قضت حجها انصرفت راجعة إلى مكة وفي الطريق علمت بمقتل عثمان ومبايعة علي فثارت وقالت «ماكنت أبالي أن تقع السماء على الأرض، قتل والله مظلوماً، وأنا طالبة بدمه» (212) ويبدو أن موقف عائشة هذا تأثر بحادثة الافك اذ كان الرسول (ص) قد تزوج منها وهي صغيرة السن جدا لاتزال تلهو بلعبها التي جاءت بها من بيت أبيها أبي بكر (213). وحينما تخلفت عن ركاب الرسول (ص) في احدى خروجه، ارتاب علي في سلوكها وأشار علي في طلاقها وتطرق الشك في إخلاص عائشة إلى نفس الرسول (ص) فردها إلى بيت أبويها ولكن الله لم يلبث أن برأها، مضيفاً في الوقت نفسه أن أي اتهام لإمرأة بالخيانة

---

210) الدينوري: الإمامة والسياسة ج 1 ص 51

211) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج 3 ص 173

212) الدينوري: الإمامة والسياسة ج 1 ص 51

213) انظر ابن خلكان: وفيات الأعيان وانباء أبناء الزمان ج 3 ص 16

الزوجية لايؤيده أربعة شهود عيان يعتبر فرية أو قذفاً يستحق عليه صاحبه ثمانين جلدة (214). ويبدو أن عائشة لم تنس لعلي ذلك.

عادت عائشة إلى مكة ونزلت المسجد الحرام واجتمع الناس إليها فخطبة الناس تحرضهم ضد قتلة عثمان بقولها :

« ان الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة اجتمعوا (على هذا الرجل المقتول)، إن عاب الغوغاء على هذا المقتول بالأمس الارب، وإستعمال من حدثت سنه، وقد استعمل أسنانهم قبله ومواضع من مواضع الحمى حماها لهم، وهي أمور قد سبق بها لايصلح غيرها فتابعهم ونزع لهم عنها، استصلاحا لهم، فلما لم يجدوا حجة ولا عذرا خلخوا وبادوا بالعدوان وبنا فعلهم عن قولهم، فسفكوا الدم الحرام، واستحلوا البلد الحرام، واخذوا المال الحرام، واستحلوا الشهر الحرام، والله لإصبع عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم، فنجاة من إجتماعكم عليهم، حتى ينكل بهم غيرهم، ويشرد من بعدهم، ووالله لو أن الذي اعتدوا به عليه كان ذنبا لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه، أو الثوب من درنه اذ ماصوه كما يماص الثوب بالماء.» (215).

اتفق الزبير وطلحة وعائشة على الثورة والمطالبة بدم عثمان وانضم اليهم الأمويون سواء من هرب من المدينة مثل مروان بن الجكم وغيره ومن كان مستقرا بمكة وعلى رأسهم عبد الله بن عامر الحضرمي عامل عثمان على مكة. وتجهزوا بما حمله عبد الله بن عامر الحضرمي من اموال البصرة ويعلى بن أمية من أموال اليمن (216)

ولما سمع معاوية بن أبي سفيان وإلى الشام بثورة عائشة ونقض طلحة والزبير البيعة ازداد قوة وجراءة وكتب إلى الزبير «انى قد بايعتك ولطلحة من بعدك فلا يفوتكما العراق» وفي نفس الوقت أشار عبد الله بن عامر بالمسير إلى البصرة حيث (217) الصنائع وأنصار لطلحة بدلا من الشام التي كفاهم معاوية أمرها. خصوصاً وأن البصرة كانت القاعدة العسكرية الاولى بالعراق.

---

214) القرآن الكريم : سورة النور آيات 4 ـ 5

215) الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ 5 ص 165 ـ 166

وقارن نفس الخطبة بابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ 3 ص 207.

216) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ 3 ص 207

217) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص 105

زحف أنصار الجمل (218) إلى البصرة، وحينما حاولوا دخول المدينة قاومهم عاملها عثمان بن حنيف فأقتتلوا بدار الرزق بالمدينة قتالا شديدا طوال النهار وكثر القتل في أصحاب عثمان بن حنيف وكثر الجرحى في الفريقين فلما عضتهم الحرب تنادوا الى الصلح واتفقوا على أن يبعثوا رسولا إلى المدينة يسأل أهلها، فإن كان طلحة والزبير أكرها على البيعة لعلي، خرج عثمان بن حنيف عن البصرة وأخلاها لهما، وان لم يكونا أكرها خرج طلحة والزبير. (219).

سار كعب بن سور رسولا عن أهل البصرة إلى المدينة لمعرفة حقيقة بيعة طلحة والزبير وعاد بترجيح الاكراه وفي نفس الوقت كتب علي الى واليه على البصرة عثمان بن حنيف يعنفه ويقول: « والله ماأكرها على فرقة ولقد أكرها على جماعة وفضل، فان كانا يريدان الخلع فلا عذر لهما، وإن كانا يريدان غير ذلك نظرنا ونظروا»

طالب أصحاب الجمل بتنفيذ الاتفاق السابق وتعلل عثمان بكتاب علي، فاستغل طلحة والزبير ليلة مظلمة باردة ذات رياح وندى وهاجموا عثمان بن حنيف وقتلوا حرسه واستولوا على بيت المال، وما أن وفقوا إلى الاستيلاء على المدينة حتى

---

218) وذلك نسبة الى ركوب عائشة بهودج من حديد امرت بصنعه وضع على الجمل ويروى ان اسمه كان عسكر لرجل من قبيلة عرينة افتخر به بقوله «والله ما طلبت عليه احدا الا ادركته ولا طلبني وانا عليه احد الا فته» فباعه مقابل ناقة واربعمائة درهم لاتباع عائشة. انظر الطبري : الأمم والملوك جـ 5 ص 170 ، 171.

219) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ 3 ص 210 ، 214

ولقد اورد الطبري نص الاتفاق كالاتي :

«بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما اصطلح عليه طلحة والزبير ومن معهما من المؤمنين والمسلمين وعثمان بن حنيف ومن معه من المؤمنين والمسلمين ، ان عثمان يقيم حيث ادركه الصلح على ما في يده وان طلحة والزبير يقيمان حيث ادركهما الصلح، على ' في ايديهما حتى يرجع أمين الفريقين ورسولهم كعب بن سور من المدينة ولا يضار واحد من الفريقين الاخر في مسجد ولا سوق ولا طريق ولا فرضه بينهم عَيبة مفتوحة حتي يرجع كعب بالخبر فان رجع بان القوم اكرهوا طلحة والزبير فالأمر امرهما وان شاء عثمان خرج حتى يلحق بطينته وان شاء دخل معهما وان رجع مانهما لم يكرها فالأمر أمر عثمان فان شاء طلحة والزبير اقاما على طاعة علي وان شاا خرجا حتى يلحق بطينتهما والمؤمنين اعوان الفالح».

الأمم والملوك جـ 5 ص 177.

نشب الخلاف بين طلحة والزبير على إمامة الناس في الصلاة، ولكن عائشة حسمت هذا الخلاف مؤقتًا بأن سمت لهذه المهمة ابن اختها عبد الله بن الزبير (220).

استقر علي بالمدينة (يثرب) لمدة أربعة شهور، أرسل خلالها الكتب المتتالية إلى معاوية وإلى الشام للحصول على مبايعته وأخذ يمنيه ويعده أولا وحينما سوف وماطل أخذ يخوفه ويتواعده ثانيًا، إلى أن أعلن عدم مبايعته، بدأ عليٌّ الاستعداد لحربه. ونظرا لعدم وجود جيش لعلي بالمدينة، اضطر للخروج على رأس تسعمائة راكب من بعض المهاجرين والأنصار ومن نشط من الكوفيين والبصريين، إلى العراق، رجاه أن يجد أشياعًا ينصرونه في الكوفة وهي القاعدة العسكرية الثانية في العراق. (221).

وفي خلال الطريق علم علي بثورة أصحاب الجمل وزحفهم إلى البصرة فأرسل بإبنه الحسن وعمار بن ياسر لاقناع واليها أبو موسى الأشعري بالإنضمام إلى معسكر علي وإكتساب المحاربين الكوفيين إلى صفه، فوفقوا إلى ما ندبوا له. وسار من الكوفة إثنا عشر ألف رجل من القبائل العربية التي استقرت بالكوفة من كنانة وأسد وتميم والرباب ومزينة بقيادة معقل بن يسار الرياحي ومن قيس بزعامة سعد بن مسعود الثقفي ومن بكر وتغلب بقيادة علة بن محدوج الذهلي، ومن مذحج والأشعرين بقيادة حجربن عدى، ومن بجيلة وأنمار وخثعم والازد بقيادة مخنف بن سليم الازدي.

عسكر علي بذي‌قار بالقرب من البصرة حيث أتاه عثمان .بن حنيف واليه على البصرة منتوف شعر الرأس واللحية، مهان مطرود كما وفد عليه والتف حوله اثنا عشر ألف مقاتل كوفي، فسار بهم من هناك إلى البصرة (222).

وبدأت مرحلة المفاوضات بين على وأصحاب الجمل وعندما أدرك الفريقان عدم جدواها بدأ القتال في جمادي الأولى سنة 36هـ بموضع يعرف «الخريبة» فأما

---

220) أنظر الطبري : الامم والملوك جـ 5 ص 177 ـ 179 ولكن ابن الاثير يروى أنها اسندت الصلاة يوما الى طلحة ويوما الى الزبير أنظر الكامل 3 : 107 .

221) الدينوري : الأمامة والسياسة جـ 1 ص 53.

. ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ 3 ص 221 ـ 222

222) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ 3 226، 231، 232.

طلحة فخرج بجرحا أودى بحياته وآخر كلماته «تالله ما رأيت كاليوم، قط، شيخًا من قريش أضيع منى! انى والله ماوقفت موقفا قط الا عرفت موضع قدمى فيه، إلا هذا الموقف».

أما الثائر الثاني فقد خرج من الميدان لتبكية الضمير، سواء بعد محاورة بينه وبين علي واقتناعه بأحقية علي (223)أوبعد مقابلته لعمار بن ياسر في ميدان القتال فجعل يجوزه بالرمح والزبير كاف عنه ويقول : اتقتلني يا أبا اليقظان؟ فيقول: لا يأبا عبد الله ويتذكر الزبير قول الرسول (ص) «تقتلك عمارا الفئة الباغية» (224) وانسحب من المعركة واجتاز بالاحنف بن قيس، فقال: مارأيت مثل هذا، أتي بحرمة رسول الله (ص) يسوقها، فهتك عنها حجاب رسول الله، وستر حرمته في بيته، ثم أسلمها وإنصرف. ألارجل يأخذ لله منه! فاتبعه عمرو بن جرموز التميمي، فقتله بموضع يقال له وادى السباع. (225)

أما عائشة أم المؤمنين والتي شاركت في المعركة بعد أن ألبسوا هودجها الأدراع فقد دارت المعركة أمام جملها التي كانت تستنفز من على ظهره المقاتلين حسب العادة العربية العريقة.

وكان ذلك اليوم من أهول ما رآه المسلمون فإنهم وقفوا بعضهم أمام بعض وكل يدافع دفاعًا دينيًا ومن الغريب أنه بينما كان أهل البصرة وشجعانهم يلوذون بجمل عائشة حتى لاتصاب بشر فقتل حوله عدد كبير كان اخوها محمد بن أبي بكر في المعسكر المقابل. ولما رأى على كثرة القتلى حول الجمل وأن أنصار عائشة لاتسلمه أبدا نادى اعقروا الجمل، فسقط وسقط الهودج وكأنه قنفذ مما رمي فيه من

---

223) يروى ابن واضح ان علي بن أبي طالب قال للزبير : يا أبا عبد الله، ادن الى اذكرك كلاما سمعته أنا وانت من رسول الله فقال الزبير لعلي : لي الأمان ؟ قال علي :.عليك الأمان، فبرز اليه فذكره الكلام ، فقال : اللهم اني ما ذكرت هذا الا هذه الساعة. ويستكمل ابن الأثير الرواية بانه قال له تذكر يوم مررت مع رسول الله (ص) في بني غنم فنظر الى فضحك وضحكت اليه فقلت له لا يدع ابن أبي طالب زهوة، فقال لك رسول الله (ص) : ليس به زهو، لتقاتلنه وأنت ظالم له. قال : اللهم نعم، ولو ذكرت ما سرت مسيرىهذا، والله لا اقاتلك أبدا.

أنظر تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 182، الكامل في التاريخ ج 3 ص 240.

224) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 3 ص 243

225) الدينوري : الإمامة والسياسة ج 1 ص 69.

النبل فجاء محمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر فقطعا مرضه الرحل واحتملا الهودج فنجياه من القتلى وخرج بها محمد حتى أدخلها البصرة. (226).

انتهت المعركة بإنتصار علي ومقتل عشرة آلاف مقاتل نصفهم من أصحاب علي ونصفهم من أصحاب عائشة (227) وفي رواية أخرى أنه قتل في ذلك اليوم اثنين وثلاثون ألفا (228) بينهم الكثير من أعلام المسلمين منهم طلحة وابنه محمد والزبير وعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد وغيرهم من رجالات قريش وسائر العرب.

ولا يمكن تبرير هذا القتال ونتائجه فقد حارب المسلم أخاه المسلم في أول معركة من نوعها، لم تكن إلا فاتحة الحروب الأهلية في سبيل مسألة الخلافة في العالم الاسلامي وسوف نحاول أن نوضح بعض العوامل، والأسباب التي أدت إلى هزيمة أصحاب الجمل:

أ ـ موقف المسلمات من خروج عائشة ويتضح هذا الموقف في رسالة أم سلمة (احدى زوجات الرسول (ص)) إلى عائشة:

«فإنك سده بين رسول الله وبين أمته، وحجابك مضروب على حرمته، وقد جمع القرآن الكريم ذيلك، فلا تندحيه (لاتوسعيه)، وسكن عقيرتك (صوتك)، فلا تصحريها (ترفعيها)، الله من وراء هذه الأمة، قد علم رسول الله مكانك، لو أراد أن يعمد إليك، وقد علمت أن عمود الدين لايثبت بالنساء إن مال، ولا يرأب بهن اذا تصدع، حماديات (جمع حمادى أي محامد النساء) النساء غض الأبصار وضم الذيول، ماكنت قائله لرسول الله (ص) لو عارضك بأطراف الجبال والفلوات، على قعود من الابل، من منهل إلى منهل، إن بعين الله مهواك، وعلى رسول الله (ص) تردين، وقد هتكت حجابه الذي ضرب الله عليك، وتركت عهيداه (العهد).

---

226) انظر الطبري: الامم والملوك ج 5 ص 203، 218 ـ 219

227) أبن الأثير: الكامل في التاريخ ج 3 ص 255

228) ابن واضح: تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 183

ويذكر المسعودي ان الذي قتل من أصحاب علي في ذلك اليوم خمسة آلاف نفس ومن أصحاب الجمل وغيرهم من أهل البصرة وغيرهم ثلاثة عشر الفا. انظر مروج الذهب ومعادن الجوهر. ج 2 ص 371 بينما يذكر ابن الخياط في تاريخه ان قتلى موقعة الجمل عشرون الفا ج1 ص 206.

ولو أتيت الذي تريدين، ثم قيل لي أدخلي الجنة لاستحيت أن ألقى الله هاتكة حجابا قد ضربه علي، فأجعلي حجابک الذي ضرب عليك حصنک، فابغيه منزلا لک حتى تلقيه، فان أطوع ما تكونين اذا ما لزمته، وأنصح ما تكونين اذا ما قعدت فيه، ولو ذكرتک كلاما قاله رسول الله (ص) لنهشتني نهش الحية، والسلام» (229).

ب ـ أما موقف عامة المسلمين فتوضحه هذه الحادثة ففي خلال عودة عائشة من مكة الى المدينة عند سرف لقيها رجل من أخوالها من بني ليث يقال له عبيد ابن أبي سلمة ، وهو ابن أم كلاب، فقالت له : مَهْيَمْ؟ (230) قال : قتل عثمان وبقوا ثمانيا. قالت : ثم صنعوا ماذا ؟ قال : اجتمعوا على بيعة علي . قالت : ليت هذه انطبقت على هذه ان تم الأمر لصاحبک ! ردوني ردوني ! فانصرفت الى مكة وهي تقول : قتل والله عثمان مظلوما، والله لأطلبن بدمه !

فقال لها : ولم ؟ والله إن اول من أمال حرفه لأنت، ولقد كنت تقولين : اقتلوا نعثلا (الشيخ الأحمق) فقد كفر. قالت : انهم استتابوه ثم قتلوه، وقد قلت وقالوا، وقولي الأخير خير من قولي الأول فقال لها ابن أم كلاب :

فمنک البداء ومنک الغير ومنک الرياح ومنک المطر
وأنت أمرت بقتل الامام وقلت لنا انه قد كفر (231)

وفي بداية المعركة أقبل غلام من جهينة الى محمد بن طلحة، وكان مشهورا بالزهد والدين فقال له : حدثني عن قتلة عثمان، قال : نعم ، دم عثمان على ثلاث أثلاث ، ثلث على صاحبه الهودج (يعني عائشة) وثلث على صاحب الجمل الأحمر (طلحة) وثلث على علي بن أبي طالب فضحک الجهيني، ولحق بعلي بن أبي طالب، وبلغ طلحة قول ابنه محمد، فقال له : يا محمد، اتزعم عنا قولک اني قاتل عثمان، كذلک تشهد على ابيک ؟ كن كعبد الله بن الزبير، فوالله ما أنت بخير منه،

---

229) الدينوري : الإمامة والسياسة ج 1 ص 55
230) مَهْيَمْ: كلمة استفهام معناها ما حالکَ وما حدث لک أو ما الخبر انظر المنجد.
231) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 3 ص 206.

ولا أبوك بدون ابيه، كف عن قولك، والا فارجع فان نصرتك نصرة رجل واحد، وفسادك فساد عامة. فقال محمد : ما قلت الا حقا، ولن أعود (232).

كما أقبل جارية بن قدامة السعدي على عائشة وخاطبها بقوله : يا أم المؤمنين والله لقتل عثمان اهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عرضة للسلاح، انه قد كان لك من الله ستر وحرمة فهتكت سترك وأبحت حرمتك ! انه من رأى قتالك يرى قتلك ! لئن كنت أتيتنا طائعة فارجعي الى منزلك، وان كنت اتيتنا مكرهة فاستعيني بالناس (233).

جـ ـ اختلاف اصحاب الجمل، فبعد خروجهم من مكة للمطالبة بدم عثمان ونكث البيعة لعلي، اذن مروان بن الحكم ثم جاء حتى وقف على طلحة والزبير فقال : على ايكما اسلم بالامارة وأؤذن بالصلاة ؟ فقال عبد الله بن الزبير : على ابي عبد الله، يعني أباه الزبير. وقال محمد بن طلحة : على ابي محمد، يعني أباه طلحة فأرسلت عائشة الى مروان وقالت له : اتريد ان تفرق أمرنا ! ليصل بالناس ابن اختي، تعني عبد الله بن الزبير، وقيل : بل صلى بالناس عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد حتى قتل، فكان أحد المنضمين لأصحاب الجمل يقول : والله لو ظفرنا لاقتتلنا، ما كان الزبير يترك طلحة والأمر، ولا كان طلحة يترك الزبير والأمر.

كما يختلي سعيد بن العاص وهو من شيعة عثمان، بطلحة والزبير ويقول لهما : ان ظفرتما لمن تجعلان الأمر ؟ اصدقاني . قال : نجعله لأحدنا أينا اختاره الناس، قال : بل تجعلونه لولد عثمان فانكم خرجتم تطلبون بدمه. فقال : ندع شيوخ المهاجرين ونجعلها لأيتام ! قال : فلا أراني أسعى الا لإخراجها من بني عبد مناف. فرجع وانضم اليه عبد الله بن خالد بن أسيد واتفق المغيرة بن شعبة مع رأي

---

232) الدينوري الإمامة والسياسة ج 1 ص 48، 61، 62

ويروى أن سعد بن أبي وقاص سئل عن قتلة عثمان فأجاب بأنه قتل بسيف سلته عائشة، وصقله طلحة، وسمه ابن أبي طالب ، ووقف هو على الحياد ولو شاء لدافع عنه ولكنه لم يفعل لان عثمان غير وتغير وأحسن وأساء.

233) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 3 ص 213

سعيد فانسحبوا جميعا ومعهم أبان والوليد ابنا عثمان وأفراد قبيلة ثقيف من معسكر أصحاب الجمل (234).

د ـ الحالة النفسية لأم المؤمنين عائشة ، فبالرغم من كرهها لخلافة علي بن أبي طالب بسبب حادثة الافك وذكر الروايات خروجها للمطالبة بدم عثمان والانتقام من قاتليه ففي خلال زحف أصحاب الجمل نحو البصرة، انتهوا في الليل الى ماء لبني كلاب يعرف بالحوأب، عليه ناس من بني كلاب، فعوت كلابهم بهم على الركب، فقالت عائشة : ما اسم هذا الموضع ؟ فقال لها السائق لجملها : الحوأب، فاسترجعت وذكرت ما قيل لها في ذلك ، فقالت : ردوني الى حرم رسول الله (ص) ، لا حاجة لي في المسير، فقال الزبير: بالله ما هذا الحوأب، ولقد غلط فيما أخبرك به، وكان طلحة في ساقه الناس، فلحقها فأقسم ان ذلك ليس بالحوأب، وشهد معهما خمسون رجلا ممن كان معهم ويعلق على هذه الرواية كل من ابن قتيبة الدينوري والمسعودي ، «فكان ذلك أول شهادة زور اقيمت في الاسلام» (235).

وهكذا تأرجحت عائشة بين السخط على علي، وبين التردد في الثورة عليه، حتى يروى على لسانها حينما انهزمت بأنها قالت : «والله لوددت أني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة» لانها سمعت احد انصار على يرتجز وهو يحارب «أعق أم نعلم» (236). بل ويروى المسعودي انها ادركت خطأها في حق علي وعرضت عليه ان تسير معه لقتال عدوه، فرفض وفضل أن ترجع الى البيت الذي تركها فيه رسول الله (ص) (237).

---

234) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 3 ص 209

235) فقد قالت عائشة : سمعت رسول الله (ص) يقول لنسائه كأني باحداكن قد نبحها كلاب الحوأب، واياك ان تكوني انت ياحميراء (يقصد عائشة لبياضها) فقال لها محمد بن طلحة : تقدمي رحمك الله، ودعى هذا القول.

انظر الدينوري : الإمامة والسياسة ج 1 ص 60.

، المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ج 2 ص 357 ـ 358

236) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 3 ص 254

237) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ج 2 ص 369

واستقرت السيدة عائشة بالمدينة حتى بلغت السابعة والستين وذلك في سنة 58 هـ في خلافة معاوية بن ابي سفيان ودفنت بالبقيع . انظر ابن خلكان : وفيات الأعيان ج 3 ص 16.

ومن الجدير بالذكر أنه بعد عودة عائشة، وقعت بين حيين من قريش منازعة فخرجت عائشة على بغلة تصلح بينهما، فلقيها ابن ابي عتيق فقال : الى أين جعلت فداك ؟ فقالت : اصلح بين هذين الحيين، فقال : والله ما غسلنا رؤوسنا من يوم الجمل بعد فكيف اذا قيل يوم البغل ؟ فضحكت وانصرفت.

2 ـ الصراع مع معاوية

اعترفت العراق بخلافة علي ، فنقل عاصمة الدولة الاسلامية من المدينة بالحجاز الى الكوفة بالعراق، وهكذا انتقل دور الزعامة من بلاد العرب، ومن المدينة بشكل خاص، الى الأمصار، حيث كانت القوة المادية قد تركزت منذ زمن طويل .والواقع ان أصحاب الرسول (ص) الذينْ ظلوا في المدينة، فقدوا نفوذهم السياسي كله، خلال الفتنة وبعد مقتل عثمان، وخلال الصراع بين أصحاب الجمل وعلي، فتفرغوا للانكباب على دراسة الحديث.

واستتب الأمر لعلي في الظاهر، وأستهل ولايته بعزل امراء الامصار الذين استعملهم عثمان فاستعاض عنهم بغيرهم ممن بايعوه. وتربص معاوية بن أبي سفيان وهو أمير الشام منذ زمن عمر فلم يبايع عليا، ثم الصق قتل عثمان بعلي، وطالبه بدم الخليفة الشهيد. وأخرج معاوية قميص عثمان الذي قتل فيه واصابع نائله أمرأه عثمان التي قطعت وهي تدافع عنه، فاذا رأى أهل الشام ذلك ازدادوا غيظا على عليّ وانصاره وأيدوا معاوية المطالب بدم عثمان حتى اقسم اهل الشام أن لا يمسوا النساء ولا يناموا على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان ومن عرض دونهم بشيء، أو تفنى ارواحهم والشام مجمع اجناد المسلمين لانها ثغر عظيم يجاور الدولة البيزنطية التي لم تزل تشكل قوة يعتد بها وبالتالي كانت القوة الحربية الاسلامية دائما على استعداد لمواجهة الخطر البيزنطي.

واستطاع معاوية بحنكته وسياسته وقوة بيانه ان يؤثر في قلوب أهل الشام ويحملهم على النقمة على علي ، خصوصا وقد استمرت ولايته على الشام معظم فترة حكم الخلفاء الراشدين.

---

238) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج 3 ص 17 ترجمة 318

بدأ الصراع بالمفاوضات والمراسلات بهدف احتواء النزاع والقضاء على الفتنة، فعلى يكتب لمعاوية بقوله «وقد بلغك ما كان من قتل عثمان رحمة الله، وبيعة الناس عامة أيايي، ومصارع الناكثين لي فادخل فيما دخل الناس فيه، والا فأنا الذي عرفت، وحولي من تعلمه والسلام». ويجيبه معاوية على لسان رسوله من قبيلة عبس بقوله : «اني أحلف بالله لقد خلفت بالشام خمسين ألف شيخ، خاضبين لحاهم من دموع اعينهم تحت قميص عثمان، رافعيه على الرماح مخضوبا، بدمائه، قد اعطوا الله عهدا ان لا يغمدوا سيوفهم، ولا يغمضوا جفونهم، حتى يقتلوا قتلة عثمان» (239). وازدادت المفاوضات حرارة حين أرسل معاوية الى علي يطالبه بتسليم قتلة عثمان الذي بايعته الأمة او يعتبره شريك في الجرم ولا حق له في الخلافة ولم تنطو هذه الخصومة على عداء شخصي فحسب، بل تجاوزته الى التطاحن بين بيتين من قريش والى تنافس بين الكوفة ودمشق أوقل العراق والشام في ايهما يتصدر في الشؤون الاسلامية.

زحف عليٌ على رأس تسعون الفأ من الكوفة في 5 شوال 36 هـ بعد أن عين أبا مسعود عقبة بن عامر الانصاري واليا عليها، واتجه نحو الشمال الغربي، وخرج معاوية على رأس خمسة وثمانون ألف لملاقاته على الحدود الشامية في صفين، الواقعة على الضفة اليمنى من الفرات، بين الرقة وجالس، فوق رقعة ضيقة من المستنقعات ، تزدحم بالآشجار.

وعسكر معاوية في موضع سهل، على شريعة لم يكن على الفرات في ذلك الموضع أسهل منها للورود الى الماء، وما عداها مواضع الى الماء وعرة، وبات على وجيشه في البر عطاشا قد حيل بينهم وبين الورود الى الماء. ونظرا لان الجيشين كانا يتألفان ، الى حد بعيد من افراد القبائل نفسها، فقد كانت الحماسة عندهما فاترة، وعلى الرغم من أن الشاميين كانوا احسن تدريبا من العراقيين غير المنظمين، فقد نجح العراقيون بقيادة مالك الأشتر احد انصار علي المتحمسين، في الضغط

239) الدينوري : الإمامة والسياسة جـ 1 ص 76 ـ 77.

على خصومهم. واجلائهم عن مورد الماء ونجح علي وانصاره في ان يشق طريقه الى الماء (240).

ولما كان أول يوم من ذي الحجة بعث علي الى معاوية يدعوه الى اتحاد الكلمة والدخول في جماعة المسلمين وطالت مرحلة المفاوضات الثانية، فاتفقوا على الموادعة الى آخر المحرم، احد الأشهر الحرم، لسنة 37 هـ وفي اليوم الآخر منه قبل غروب الشمس بعث علي الى أهل الشام : اني قد احتججت عليكم بكتاب الله، ودعوتكم اليه،واني قد نبذت اليكم على سواء، ان الله لا يهدي كيد الخائنين، فلم يردوا عليه جوابا الا «السيف بيننا وبينك او يهلك الاعجز منا».

ونجح أنصار علي في الضغط على خصومهم واحراجهم الى درجة حملت معاوية على التفكير في الفرار . وفي هذه الاثناء كان حفظة القرآن الاتقياء يبذلون اقصى الجهد، لدى الفريقين، بسبيل السلام.

وتذكر الروايات انه في هذه اللحظة الحرجة أشار الداهية عمرو بن العاص ، فاتح مصر واميرها السابق على معاوية بأن يبعث بقوات جديدة ، رافعة المصاحف على أسنة الرماح دلالة على انها تحكم كلمة الله، لا كلمة السيف، وصاح جنود معاوية : «من لثغور الشام بعد أهل الشام» ؟ ومن لثغور العراق بعد أهل العراق ؟ ومن لجهاد الروم ؟ ومن للترك ؟ ومن للكفار ؟» ويعلق أوجوست ميلر بأنها حيلة «من أشنع المهازل وأسوئها في التاريخ البشري» (241).

أجبر العراقيون على لقبول الموادعة وحكم كتاب الله .بالرغم من ادراكه ان النصر كاد ان يكتب له وتحذيره لانصاره بان معاوية وابن العاص وأنصارهم ليسوا بأصحاب دين ولا قران وأنه اعرف بهم منهم، صحبهم اطفالا ورجالا، فهم شر أطفال ورجال. فاضطر على ان يوقف المعركة ويبدأ المفاوضات مع معاوية مرة أخرى.

---

240) ابن الخياط : تاريخ خليفة بن خياط ج 1 ص 218 ـ 219
، الدينوري : الإمامة والسياسة ج 1 ص 92 ، 93
الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج 5 ص 239 ـ 243
241) الدينوري : الإمامة والسياسة ج 1 ص 96 ، 101، 102
، المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ج 2 ص 390
انظر اجناس جولد تسيهر : العقيدة والشريعة في الاسلام ص 190.

اتفق الفريقان على اختيار حكمين هما عمرو بن العاص نيابة عن معاوية واختار اهل العراق ابي موسى الأشعري فقال علي : قد عصيتموني في اول هذا الأمر فلا تعصوني الان، انى لا أرى أن أولي أبا موسى الأشعري ، هو ليس بثقة، قدفارقني وخذل الناس مني، ثم انه هرب شهورا حتى امنته، ورشح عنه عبد الله ابن عباس فلم يقبل العراقيون، فرشح بدلا منه مالك الأشتر. فرفضوا وصمموا على تولية ابا موسى الأشعري (242).

وجاء الحكمان كل يحمل صحيفة تخوله حق المفاوضة ويرافقه اربعمائة شاهد وعقد الحكمان مؤتمرا علنيا في اذرح وهي محطة القوافل بين المدينة ودمشق في منتصف المسافة بين معان والبتراء وتختلف المصادر التاريخية حول حقيقة مادار في هذا المؤتمر والمتعارف ان الحكمين قد اتفقا على خلع الزعيمين وجعل الأمر شورى بين المسلمين ليختاروا لانفسهم من أحبوا فتقدم ابو موسى وهو اكبر الاثنين سنا فخلع عليا ومعاوية معا. اماعمرو فخدع زميله وثبت معاوية بعد أن خلع عليا.

ولكن الدراسات الحديثة النقدية. لقصة التحكيم ومكر عمرو بن العاص بأبي موسى الأشعري، تدل على أن هذه الرواية انما تظهر ميول المدرسة العراقية الموالية للخلافة العباسية والمعادية للدولة الأموية ونظرا لعدم وضوح هدف محدد للاجتماع فقد اختلف الفريقان وكانت اهدافهما على طرفي نقيض، فقد كان العراقيون يتوقعون أن يحصلوا على الاعتراف الرسمي بخلافة على ، في حين كان معاوية

---

242) وكتب الفريقان بينهم عقد التحكيم كالاتي :.

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان ، قاضي علي على أهل الكوفة ومنمعهم، وقاضي معاوية على أهل الشام ومن معهم، اننا ننزل عند حكم الله وكتابه وان لا يجمع بيننا غيره، وأن كتاب الله بيننا من فاتحته الى خاتمته، نحيى بما احيا ونميت ما أمات، فما وجد الحكمان في كتاب الله، أبو موسى عبد الله بن قيس، وعمرو بن العاص، عملا به، وما لم يجداه في كتاب الله فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة. وأخذ الحكمان من علي ومعاويه ومن الجندين من المعهود والمواثيق انهما آمنان على انفسهما واهليهما والأمة لهما أنصار على الذي يتقاضيان عليه، وعلى عبد الله بن قيس وعمر و بن العاص عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمة لايرادها في حرب ولا فرقة حتى يعصيا، وأجل القضاء الى رمضان، وان احبا ان يؤخرا ذلك أخراه، وان مكان قضيتهما مكان عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام.

وكتب الكتاب يومالأربعاء 13 صفر سنة 37 هـ

أنظر ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ 3 ص 320 ، 321

وانصاره يطالبون ببحث ما اذا كانت تبعة علي في مقتل عثمان تجعله غير أهل للحكم.

ويرجح أن نتائج مباحثات مؤتمر اذرج انتهت الى اتفاق الحكمين، ان كل من علي ومعاوية مدعيا للخلافة، وبالتالي خلع الرجلين معا، وبذلك وقعت الخسارة على علي لان معاوية لم يكن خليفة بل اميرا على ولاية الشام لا غير، ومن مجرد التسوية بين علي ومعاوية كمرشحين للخلافة في مؤتمر أذرج رفع للثاني وحط من شأن الأول. وهكذا فقد كانت النتيجة من هذا المؤتمر ان خسر علي منصب الخلافة ، الذي كان فيه، بينما لم يخسر معاوية سوى حقه في الخلافة، هذا الحق الذي لم يكن قد ادعاه علانية بعد.

ولم يكن في وسع علي أن ينزل عند هذا الحكم، ورأى نفسه مضطرا الى أن يحنث بيمينه. واذ قد وضع نفسه بهذا الصنيع في بداية الطريق الغير صحيح فقد اعلن معاوية خلافته بعد انقضاء سنتين على تحكيم اذرج وذلك في عام الجماعة ببيت المقدس سنة 40 هـ/661م. (243).

3 ـ ظهور الخوارج والفرق الاسلامية :

لما كانت وقعة صفين بين علي ومعاوية، وطلب معاوية تحكيم كتاب الله اختلف اصحاب علي : أيقبلون هذا التحكيم لانهم يحاربون لاعلاء كلمة الله وقد دعو

---

243) ويروي الدينوري انه بعد مقتل عثمان ، بايع اهل الشام معاوية واليا عليهم، فكتب معاوية الى كور الشام لمبايعته واليا عليهم ولكن شرحبيل بن السمط الكندي حاكم حمص ، جمع اشراف أهل حمص،وبايع لمعاوية بالخلافة بدلا من الولاية، اذ لا يطالب بدم عثمان غير خليفة وكتب الى معاوية : «أما بعد فانك اخطأت خطأ عظيما حين كتبت الى ان ابايع لك بالامرة، وأنك تريد ان تطلب بدم الخليفة المظلوم وأنت غير خليفة، وقد بايعت ومن قبلي لك بالخلافة» فلما قرأ معاوية كتابه سره ذلك، ودعا الناس، وصعد المنبر، وأخبرهم بما قال شرحبيل، ودعاهم الى بيعته بالخلافة فاجابوه ، ولم يختلف منهم أحد.

انظر الدينوري : الإمامة والسياسة جـ 1 ص 74.

وراجع عن التحكيم ونتائجه ابن واضح : تاريخ اليعقوبي جـ 2 188 ـ 191

، الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ 6 ص 37 ـ 40

، المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر جـ 2 ص 392، 394 ـ 399

، ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ 3 ص 402 ـ 403

اليها، أم لا يقبلون لانها خدعة حربية لجأ اليها معاوية. وصحبه لما احسوا بالهزيمة ؟ اذ ذاك ظهر قوم من جند علي اكثرهم من قبيلة تميم، نفروا من ان يحكم احد في كتاب الله، ورأوا ان التحكيم خطأ، لان حكم الله في الأمر واضح جلي، والتحكيم يتضمن شك كل فريق من المحاربين أيها المحق، وليس يصح هذا الشك لانهم وقتلاهم انما حاربوا وهم مؤمنون.

هذه المعاني المختجلة في نفوسهم صاغها احدهم في الجملة الآتية :«لا حكم الا الله» فسرت الجملة سير البرق الى من يعتنق هذا الرأي ، وتجاوبتها الانحاء، وأصبحت شعار هذه الطائفة.

طلبوا من علي ان يقر على نفسه بالخطأ بل بالكفر، لقبوله التحكيم، ويرجع عما ابرم مع معاوية من شروط ، فان فعل عادوا اليه وقاتلوا معه فأبى علي، وكان موقفه في منتهى الدقة، فكيف يرجع عن اتفاق امضاه، والدين يأمر بالوفاء بالعهود، ولو رجع لتفرق عنه أكثر اصحابه، وكيف يقر على نفسه بالكفر، ولم يشرك بالله شيئا منذ آمن، فضايقوه بالاكثار من «لاحكم الا الله» فاذا خطب في المسجد قاطعوه بقولهم :«لاحكم الا الله» فتجاوبت بها انحاء المسجد، ورآه أحدهم فتلا «ولقد اوحي اليك والى الذين من قبلك لئن اشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين» يعرض به.

وبعد فشل التحكيم ازداد الناس ميلا الى رأيهم بعد خيبة الآملين في أن التحكيم يحقن الدماء ويعيد المسلمين الى الوئام ، حتى انضم اليهم بعض القراء من جيش على حتى بلغ عددهم اربعة آلاف.

لما يئست هذه الجماعة من رجوع على الى رأيهم اجتمعوا في منزل احدهم، وخطب خطيبهم يقول : «أما بعد ، فوالله ما ينبغي لقوم يؤمنون بالرحمن، وينيبون الى حكم القرآن، ان تكون هذه الدنيا... آثر عندهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقول بالحق، وان مُن وضُر، فانه من يُمن ويُضر في هذه الدنيا فان ثوابه يوم القيامة رضوان الله عز وجل، والخلود في جناته، فاخرجوا بنا اخواننا ، من هذه القرية الظالم اهلها الى بعض كور الجبال، أو الى بعض هذه المدائن منكرين لهذه البدع المضلة» (244).

---

244) الدينوري : الإمامة والسياسة ج 1 ص 121

. انظر الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج 6 ص 40، 45

ثم خرجوا الى قرية قريبة من الكوفة تسمى «حروراء»، وسموا حينذاك بالحرورية نسبة الى هذه القرية، وبالمحكمة ـ اي الذين يقولون لاحكم الا الله ـ وهما اسمان كثيرا ما يطلقان على الخوارج، وأمروا عليهم رجلا منهم اسمه عبد الله بن وهب الراسبي.

واسم الخوارج من الخروج في سبيل الله أخذا من قوله تعالى : «ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع اجره على الله»، وسموا ايضا «الشراة» اي الذين باعوا انفسهم لله من قوله تعالى :«ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله» (245).

أعد على نحو سبعين الف جندي لتصفية حسابه مع معاوية ولكن بلغه ان انصاره يقولون لو سار بنا الى هذه الحرورية فبدأنا بهم فاذا فرغنا منهم توجهنا الى الشام ورفض علي نصيحة انصاره لان قتال اهل الشام اهم ,ولكنه اضطر لتغيير رأيه حينما علم بقيام الخوارج باعتراض الناس وقتلهم وكذا قتل رسوله الذي ارسله اليهم وخوف انصاره على أولادهم واموالهم اذا اتجهوا الى الشام بدون تطهير خطوطهم الخلفية من هؤلاء الثائرين.

زحف علي الى الخوارج ، وكان زعيمهم قد أقام معسكرا على طريق فارس، غير بعيد من المكان الذي انشئت عليه بغداد في ما بعد، على جانب قناة النهروان عند مصبها في دجلة وأعلن علي من جاء الى رايه أبي ايوب الأنصاري ـ أحد اعوانه ـ فهو آمن، ومن انصرف الى الكوفة أو الى المدائن وخرج من هذه الجماعة فهو آمن، فانصرف بعضهم حتى لم يبق مع عبدالله بن وهب الراسبي غير 2800 رجل، واندلعت الحرب بين الفريقين في 17 يوليو 658 م/38 هـ وهزم الخوارج هزيمة شنعاء وقتل رئيسهم ابن وهب ومعظم من معه وجرح نحو اربعمائة فأمر علي بتسليمهم الى عشائرهم لعلاجهم.

أراد علي بعد الانتهاء من الخوارج ان يزحف الى معاوية بالشام ولكن انصاره تعللوا نفاذ النبل وكلل السيوف وانفصال أسنه الرماح وارادوا العودة للكوفة لاعادة الاستعداد مرة ثانية وتعويض خسائرهم في الأرواح ، وحينما لم يستجب علي لطلباتهم، اخذوا في التسلل من معسكره حتى فوجيء بخلو المعسكر ما عدا رجالا من وجوه الناس قليلين. فاضطر علي ان يعود الى الكوفة. (246).

245) الطبري : تاريخ الامم والملوك ج 6 ص 40 ـ 53
. انظر احمد أمين : فجر الاسلام ص 256 ـ 257

246) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ج 2 ص 395 ، 404 ـ 407

وبينما تقاعس انصار علي وتعللوا ، وهو يحاول ان يحثهم ويستنهضهم بخطبه الشديدة كل يوم. كان اهل الشام انصار معاوية في غاية الطاعة والانضباط.

ولكن جماعة أخرى كان التحكيم هو السبب في ظهورها هي المعتزلة ، لانها اعتزلت بيعة على وامتنعت عن محاربته أو المحاربة معه ، فلم تنغمس في حرب الجمل ، ولم تشترك في موقعة صفين ، ولعل هذه الجماعة التي اعتزلت السياسة هي أسلاف المعتزلة التي كانت لها أراء دينية متعددة في العقيدة والقرآن .

وعلى العكس ظهرت فرقة أخرى وقفت موقف التأييد على الاقل من الامويين ، هي : المرجئه التي نشأت هي الاخرى في هذه الفتنة وسميت هكذا لانها قالت بإرجاء الاختلاف في الحكمعلى ايمان الناس وأعمالهم إلى الله . فهي فرقة لا تقبل رأي الخوارج في التفكير ، ولا تريدان تنغمس في الفتن وتريد أن تسالم الجميع ، وتترك الامور الى الله ، وهذه العقيدة المحايدة هي أساس فرق المرجئة بفروعها . (246م)

4 ـ استيلاء معاوية على مصر في 38 هـ.

ولذلك نجد معاوية يطور صراعه مع علي فبعد لجوئه الى الدفاع، يتحول الى مرحلة الهجوم، ويبدأ بالتخطيط بالاستيلاء على مصرالمتاخمة لحدوده وذات الموارد المتعددة والموقع الاستراتيجي الهام.

فقد نجح محمد بن ابي حنيفة في الاستيلاء على مصر خلال مقتل عثمان ولما تم بيعة علي بالخلافة ارسل قيس بن سعد بن عبادة واليا عليها في 36 هـ وكان قيس من كبار انصار علي ورجلا سياسيا محنكا، خبيرا بالأمور، تمكن من السيطرة على البلاد ماعدا فرقة من جند مصر من كنانة ومدلج ، أعتزلت بقرية خرنبا بقيادة مسلمة ابن مخلد الانصاري ، كانت عثمانية الهوى، وتمكن قيس من تحييد هذه الفرقة وهادنهم حتى تمكن من جبي الخراج دون ان ينازعه أحد.

وحاول معاوية، ضم قيس والي مصر، الى صفوفه، اذ كان يخشى ان تهاجمه كل من قوات اهل العراق وأهل مصر فتقع الشام بين شقى الرحى. وحينما فشل في

246م) ابن حزم : الفصل 4 : 153 ، النوبختي : فرق الشيعة 5 ـ 6 ، الشهرستاني : الملل والنحل 1 : 29 ـ 30، 185 ، البغدادي : الفرق بين الفرق 190 ، عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية 1 : 267 ـ 268 .

تحقيق هدفه لجأ الى المكر والخديعة وأشاع. ميل قيس اليه، بدليل ما يفعله مع اهل خرنبا من العثمانية، فبالرغم من عدم مبايعتهم لعلي فهو، يجري عليهم اعطياتهم وارزاقهم ويؤمن سربهم ويحسن الى كل راكب قدم عليه من أهل الشام مما دفع مستشاري على للقول فيه، فأمره على بمحاربة اهل خرنبا وكان عددهم عشرة آلاف مقاتل، فأبى قيس ذلک لانهم وجوه أهل مصر واشرافهم وأهل الحفاظ منهم وقد سبق وأعطاهم عهده بالرغم من أن هواهم مع معاوية، حتى يضمن حيادهم ، وغزوهم يؤدي الى اضطراب البلاد.

لم يقتنع علي . بحجة واليه علي مصر بعزله. وولى محمد بن ابي بكر بدلا منه، لاخضاع اهل خرنبا، ولكن ما أن علموا بنتيجة معركة صفين حتى ارتفعت روحهم المعنوية وظهروا العداء للـوالي الجديد فأرسل اليهم حملتين للقضاء على عصيانهم ، كان مصيرهما الهزيمة (247).

ونظرا لاهمية مصر في تقرير نتيجة الصراع بين علي ومعاوية قرر علي ارسال وال جديد في مستوى الأحداث فاختار مالک بن حارث الأشتر، بطل حروبه وكبير مناصريه وكان قد استعمله على الجزيرة ، فكتب اليه يستقدمه ويوليه مصر، ولكنه لم يصل ايها أبدا اذ يروى ان قتل مسموما بالقلزم بحيلة من معاوية

وما أن تحدد ميعاد التحكيم وانتهى بما سبق ايضاحه ومبايعة اهل الشام لمعاوية بالخلافة ، حتى قرر معاوية الاستيلاء على مصر، فأرسل الى مسلمة بن مخلد الأنصاري ومعاوية .بن حديج السكوني زعماء العثمانية بمصر، يشكرهما على مخالفة علي ويحثهما على الطلب بدم عثمان ويعدهما المواساة من سلطانه. كما ارسل حملة من ستة آلاف مقاتل بقيادة عمرو بن العاص للاستيلاء عليها.

وصل عمرو بن العاص الى حدود مصر، فانضمت اليه العثمانية فكتب الى محمد بن ابي بكر قائلا : «أما بعد فتنح عني بدمک يا ابن ابي بكرفاني لا أحب ان يصيبک مني ظفر، ان الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافک وهم مسلموک فاخرج منها اني لک من الناصحين». فقام محمد بن ابي بكر في الناس وندبهم الى الخروج لمقاتلة عمر وتمكن من تجنيد الفي مقاتل في مقدمتهم كنانة بن بشر

247) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 3 ص 266، 269 ، 271

وسرعان ما احاط جنود الشام ومن انضم اليهم من جنود مصر، بجيش محمد بن أبي بكر وافنوهم قتلا واختفى محمد وقبض عليه وقتل (248)

ومنذ بداية 39 هـ بدأت حملات أهل الشام تغير على الاقاليم التي احتفظت بمبايعتها لعلي . فأرسل معاوية، النعمان بن بشير على رأس الف مقاتل للاغارة على عين التمر. كما أرسل سفيان بن عوف على رأس ستة آلاف لمهاجمة هيت والانبار والمدائن، ونظرا لقلة جند الأنبار، احتملوا ما فيها من أموال أهلها وعادوا الى دمشق.

ووجه معاوية، عبد الله بن مسعده بن حكمة بن مالك ,بن بدر الفزاري على رأس الف وسبعمائة رجل الى تيماء للحصول على مبايعة اهل البوادي واخذ الصدقة منهم ويقتل من امتنع ، ووصل حتى مكة والمدينة فانضم اليه الكثير من قومه. فلما علم على ، ارسل اليه المسيب بن نجبه الفزاري في الفي رجل، فهزمه،وانتهبت الأعراب ابل الصدقة التي جمعها ابن مسعده.

وتعددت غارات جيوش معاوية على البصرة والجزيرة ومكة واليمن (249) . وان دلت هذه الغارات على شيء فقد دلت على ازدياد قوة معاوية وانصاره، اذ يبدو ان الهدف من وراء هذه الغارات، ان يثبت معاوية عجز الخليفة عليّ عنْ حماية الولايات التي تتبعه.

وبالفعل تظهر الروايات التاريخية المتعددة عجز الخليفة علي وتوضح لنا في نفس الوقت اسباب العجز هذا. وهو تثاقل أهل اكوفة عن مناصرة علي والانصياع الى أوامره حتى خطبهم قائلا «يا أهل الكوفة كلما سمعتـم بجمع من أهل الشام اظلكم، انجحر كل امريء منكم في بيته واغلق عليه بابه انجحار الضب في جحره. والضبع في وجارها... لا احرار عند النداء ولا اخوان عند النجاء... ماذا منيت به منكم ؟ عمى لا يبصرون ، وبكم لا ينطقون ، وصم لا يسمعون ! انا لله وانا اليه راجعون» (250).

248) الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ 6 ص 55 ـ 60
، المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر جـ 2 ص 409

249) الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ 6 ص 77 ـ 82.
، ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ 3 ص 375 ، 377.

250) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ 3 ص 375 ـ 376

5 ــ مقتل علي : وفي سنة اربعين للهجرة اجتمع جماعة من الخوارج، فتذاكروا الناس، وما هم فيه من الحرب والفتنة، وتعاهد ثلاثة منهم على قتل علي، ومعاوية ، وعمرو بن العاص، وتواعدوا ان يكون ذلك ليلة 17 أو 21 من رمضان.

وأول هؤلاء الثلاثة ، عبد الرحمن بن ملجم وكان من قبيلة تجيب، وكان عدادهم في مراد، فنسب اليهم، فلما قدم الكوفة اتى قطام بنت عمه، وكانت أجمل أهل زمانها ، فخطبها فاشترطت عليه صداقها ثلاثة آلاف وعبدا وقينة وقتل على ثأرا، اذ كان على قد قتل أباها، واخاها يوم النهروان، فوافق وتآمر مع زميل له يدعى شبيب بن نجده من قبيلة اشجع من الخوارج، ومجاشع بن وردان بن علقمة، انتدبته قطام للاشتراك معهما في قتل علي.

وعندما خرج على للصلاة ، هجموا عليه وهم يقولون : الحكم لله، لا لك، وضربه ابن ملجم على رأسه بالسيف في قرنه وأما شبيب فوقعت ضربته بعضادة الباب، وأما مجاشع بن وردان فهرب. قبض الناس على ابن ملجم وقتلوه حرقا وهرب شبيب حتى اتى رحلة، فدخل اليه عبد الله بن نجده وهو من بني ابيه فأخبره شبيب خبره فقتله عبد الله بن نجده.

أما ثاني ، الثلاثة : فهو حجاج بن عبد الله الصريمي ولقبه البرك. وقد وعد بقتل معاوية بدمشق فأتاه وهو يصلي فطعنه بخنجر في البنة وهو يصلي وعولج معاوية وشفي منها وقتل الصريمي.

أما ثالثهم فقد اختلف المؤرخو حول شخصيته أهو زادوية مولى بني العنبر أم عمرو بن بكر التميمي ، المهم انه وعد بقتل عمروبن العاص بمصر. وقصد الخارجي عمرو وهو يخطب بالناس ــ ولكنه كان تخلف هذا اليوم لعارض الم به وانتدب خارجه .بن حذافة العدوي قاضي مصر بدلا منه ــ فقتل الخارجي القاضي وحينما دخل عمرو على القاضي وبه رمق، فقال له القاضي : والله ما أراد غيرك، فقال عمرو. ولكن الله أراد خارجه فأمر عمرو بضرب عنق الخارجي القاتل وصلبه (251).

وهكذا توفي علي بن ابي طالب بعد خلافته التي استمرت لمدة اربعة سنوات وتسعة اشهر الا اياما. وبوفاته انتهى عصر الخلفاء الراشدين الذين امتد من

(251) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر : ج 2 ص 411 ــ 417

11 هـ/632م عقب وفاة الرسول وتولية ابي بكر الصديق الى 40 هـ/661 م سنة مقتل علي بن ابي طالب.

وبالرغم انه لم يتوفر لعلي مزايا الزعامة والسياسة من يقظة وحيلة فانه كان مثال اعلى لخلق العربي الكريم بما عرف عنه من البسالة في الحرب. والحكمة والفصاحة وحفظ العهد والعفو عند المقدرة. ومن هنا وضعت التقاليد الاسلامية عليا في اعلى مقامات الشرف والفتوة والفروسية وصيرته، «سليمان» الاداب العربية بما حاكت حول اسمه من الأشعار والأمثال والحكم والمواعظ وجوامع الكلم

الباب الرابع

الدولة الأموية

(41 ـ 132 هـ)

أولا : قيام الدولة الأموية
ثانيا : التعريف بحكام العصر الأموي وأهم أعمالهم
ثالثا : الفتوحات الاسلامية في عصر بني أمية
رابعا : العلاقات مع الدولة البيزنطية
خامسا : التعريب

الدولة الأموية

أولا : قيام الدولة الأموية

1 ـ تنازل الحسن بن علي عن الخلافة :

وبعد وفاة على بن أبي طالب، بايع أهل الكوفة ابنه الحسن ابن علي بن ابي طالب في رمضان 40 هـ وبالرغم من اتهام المؤرخين للحسن بأنه لم يكن رجل الساعة ولم يكن يهتم كثيرا بأمور السياسة والإدارة والحكم وانقطاعه لامور حياته الشخصية

فالطبري يروي أن الحسن كان لايرى القتال ولكنه يريد أن يأخذ لنفسه مااستطاع من معاوية ثم يدخل في الجماعة (1). ويذكر ابن الأثير، لما بايع الناس الحسن، اشترط عليهم «انكم مطيعون تسالمون من سالمت وتحاربون من حاربت. فارتابوا بذلك وقالوا : ماهذا لكم بصاحب ومايريد هذا إلا القتال (2)» ويضيف ابن قتيبة الدينورى ان أهل الكوفة انه بسبب ذلك أمسكوا أيديهم وقبض هو يده، أي رفضوا مبايعته وتحولوا الى أخيه الحسين لمبايعته على مابايعوا من قبل اباه وعلى حرب المحلين الضالين أهل الشام، فرفض الحسين لاحقيه أخيه الحسن فأضطروا الى العودة إلى الحسن ومبايعته. (3)

ولكن تطور الأحداث وطبيعة مجريات الأمور بالكوفة كانت المسؤولة إلى حد كبير عن هذا الموقف المتراخي للحسن .

فقد كان ملازما لأبيه بالكوفة ورأى كيف تخاذل جندها حينما طالبهم على بالخروج لمعاوية وأهل الشام بعد التحكيم وترددهم للخروج لمعاونة جند الامصار والولايات حينما شن معاوية الغارات عليها. وآخر هذه المواقف الإنهزامية، محاولة

1) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ 6 ص 91 .
2) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ 3 ص 402.
3) الدينورى : الامامة والسياسة جـ 1 ص 140.

على قبل قتله تجهيز حملة للخروج لمواجهة معاوية وأهل الشام، وبعد جهود مستمية تمكن من حشد أربعين الف مقاتل. فلما قتل سار الحسن علي رأس هذا الجيش الى معاوية ومأن وصل المدائن حتى فوجيء بمناد بين الجند ان قيس بن سعد بن عبادة الانصاري قائد مقدمة الجيش قد قتل فانفروا «فنفروا بسرادق الحسن، فنهبوا متاعه حتى نازعوه بساطا كان تحته، فازداد لهم بغضا» (4) .

يضاف إلى هذا أن أهل الكوفة بعدما بايعوه الا قليلا «حتى طعن طعنة أشوته» (5) فتحول بغضه إلى ذعر منهم.

وما أن راسله معاوية في تسليم الخلافة له والتنازل،وله ماشاء حتى خطب أهل الكوفة قائلا: «كنتم في مسيركم الى صفين ودينكم أمام دنياكم، وأصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم، ألا وقد أصبحتم بين قتيلين : قتيل بصفين تبكون له، وقتيل بالنهروان تطلبون بثأره، وأما الباقي فخاذل، واما الباكي فثائر، ألا وإن معاوية دعانا لأمر ليس فيه عز ولانصفه، فإن أردتم الموت رددناه عليه وحاكمناه الى الله، عز وجل، بظبى السيوف، وان اردتم الحياة قبلناه وأخذنا لكم الرضى. فناداه الناس من كل جانب ، البقية البقية او أمضى الصلح .

ولما تم الصلح مع معاوية خطب الحسن أهل العراق بقوله : «ياأهل العراق إنه سخى بنفسي عنكم ثلاث : قتلكم ابي، طعنكم إياي،وانتهابكم متاعي».

وحينما لامه البعض على تنازله عن الخلافة وتسليم الأمر لمعاوية ومبايعته إياه قال : «كرهت الدنيا ورأيت أهل الكوفة قوما لايثق بهم أحد ابدا إلا غلب، ليس أحد منهم يوافق آخر من رأى ولاهوى، مختلفين لانية لهم من خير ولاشر». (6)

تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية واعتزل في المدينة وقد يسر له انتهاج هذا المسلك أن معاوية عرض عليه ماأغراه، قالوا بعث اليه بصحيفة بيضاء مختومة في آخرها، وسأله أن يكتب فيها مايشاء فكتب الحسن اموالا وضياعا وامانا لشيعة علي فقبل معاوية بهذه الشروط وأجرى عليه في كل سنة عطاء وافرا وأجاز له طلبه خمسة

---

4) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 3 ص 404

5) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج 6 ص 93.

6) انظر ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 3 ص 405 ـ 407.

ملايين درهم من بيت مال الكوفة يضاف اليها دخل مصر من امصار فارس مادام في قيد الحياة وتوفي الحسن في 49 هـ/ نحو 669 م وهو في الخامسة والأربعين ويرجح أنه مات مسموما اثر دسيسة دبرتها زوجته جعده بنت الأشعث بن قيس الكندي.

فقد ذكر عنه أنه كان مزواجا مطلاقا تزوج نحو مائة امرأة اما مؤرخي الشيعة فقد عزت مقتله الى معاوية واعتبرته شهيدا بل سيد الشهداء أجمعين (7) .

2 ـ مقاومة الخوارج :

بويع معاوية بالخلافة من أهل الشام وهم شيعة بني امية بعد مقتل علي في 40 هـ، ثم بويع من أهل العراق وهم شيعة على بن أبي طالب بعد تنازل الحسن ابن علي بن أبي طالب عن الخلافة له في ربيع الأول 41 هـ وبدأت البيعة بالغلبة والقهر وانتهت بالرضا والتسليم له من جميع فئات الأمة ماعدا الخوارج .

وكان الخوارج اعداء الفريقين، يستحلون دماء مخالفيهم ويرونهم مارقين من الدين. وهم أشداء الشكيمة فيما يعتقدون، يرون أن أول واجب عليهم قتال معاوية ومن تبعه وقتال شيعة على لأن كل منهما قد الحد على زعمهم في الدين .

وتمتع الخوارج بصفة الشجاعة والاقدام ولذلك فقد كان معاوية قلقا من خروجهم وبالرغم من أن معاوية لم يفوقه أحد من حنكته السياسية فقد صانع رؤوس العرب وقوم مضر بالاغضاء والاحتمال والصبر على الاذى والمكروه، وكانت غايته في الحلم لاتدرك، وعصابته فيه لاتنزع «وقد ذكر المؤرخون ان أظهر فضائله كانت الحلم الذي اشتهر به ◀ هذه المقدرة على أن لايلجأ الانسان الى العنف الا حين لايرى محيصا عنه وان ينزع في الأحوال الأخرى الى اللين والمسالمة ـ شده من غير عنف ولين من غير ضعف ـ فكان يقرن لينه بالحزم فينتزع بذلك من خصمه سلاحه ويخجل معارضه وكان يملك نفسه ويكظم غيظه ومن هنا استطاع دائما أن يكون سيد كل موقف.

7) اذ يذكر المسعودى أن امرأته جعدة بنت الاشعث بن قيس الكندى سقته السم، وقد كان معاوية دس اليها : انك ان احتلت في قتل الحسن وجهت اليك بمائة الف درهم، وزوجتك من يزيد، فكان ذلك الذي بعثها على سمه، فلما مات وفى لها معاوية بالمال، وارسل إليها : انا نحب حياة يزيد، ولولا ذلك لوفينا لك بتزويجه.. انظر مروج الذهب ومعاون الجوهر ج 2 ص 427، ابن عساكر : تهذيب ابن عساكر ج 4 ص 199، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج 2 ص 66، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 3 ص 405 ، 460 .

ولقد روى عنه انه كان يقول: «لاأضع سيفي حيث يكفيني سوطي ولاأضع سوطي حيث يكفيني لساني ولو أن بيني وبين الناس شعره ماانقطعت، إذا مدوها خليتها واذا خلوها مددتها» . (8).

وبالرغم من تعدد مميزات معاوية السياسية فقد ظلت الخوارج شوكة في خلال فترة حكمه وفي جنب الامويين من بعده، يهددونها ويحاربونها حربا تكاد تكون متواصلة في شدة وشجاعة نادرة.

فبعد تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية، انسحب فروة بن نوفل الأشجعي الزعيم الجديد للخوارج مع خمسمائة من انصاره الى شهر زور ثم زحف بهم الى الكوفة لمقاتلة جند معاوية، وتقابل الخوارج مع جند الشام بالنخيلة بجوار الكوفة حيث هزم جند الشام في 41 ﻫ فهدد معاوية جند الكوفة بأنه لاأمان لهم حتى يقضوا على فئة الخوارج فقامت قبيلة أشجع المستقرة بمدينة الكوفة بمحاولة التأثير في زعيم الخوارج فروة بن نوفل بحكم العصبية وحينما لم يرضخ لطلبهم أخذوه قهرا وأدخلوه الكوفة. فأقام الخوارج عبد الله بن أبي الحوساء رئيسا لهم بدلا منه ونشب القتال بين جند الكوفة وخوارجها وانتهى بمقتل ابن أبي الحوساء.

لم يستسلم الخوارج لهذه الهزيمة فأقاموا، حوثرة بن وداع بن مسعود الاسدي رئيسا لهم وانضم مائة وخمسين خارجي الى من بقي من جند ابن أبي الحوساء فأرسل معاوية اليهم عبد الله بن عوف الأحمر على رأس الفي جندي معهم أبو حوثرة للتأثير على ابنه الثائر وحينما قال أبو حوثرة لإبنه: ألا أجيئك بابنك فلعلك اذا رأيته كرهت فراقه؟ أجابه الإبن الخارجي : أنا الى طعنه من يد كافر برمح أتقلب فيه ساعة أشوق منى الى ابني. وحينئذ دعى ابو حوثرة ابنه الى البراز فأجابه : ياأبه لك من غيري سعة فتبارز حوثرة مع عبد الله بن عوف فقتله ابن عوف وهزم الخوارج ماعدا خمسين رجلا دخلوا الكوفة من جمادى الاخر سنة 41 ﻫ (9)

لم تقتصر الثورة على الخوارج من الرجال فقط اذ تعدتهم الى النساء، فابن الأثير يروى أنه في سنة 41 ﻫ خرج أبو مريم مولى بني الحارث بن كعب ومعه امرأتان احداهما قطام خطيبة الخارجي قاتل الخليفة علي، فأرسل اليه المغيرة سرية

---

8) ابن واضح : تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 238.

9) الطبري : الأمم والملوك ج 6 ص 95 ،. ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 3 ص 409 ــ 411.

بقيادة جابر البجلي، فقاتلته فهزم وقتل وأصحابه ببادوريا بعد أن رد من كان معه الى الكوفة من النساء (10).

3 ـ اخضاع العراق وفارس :

ولكي يتمكن معاوية من فرض سيطرته على بلاد العراق، أسند ولايتي الكوفة والبصرة الى رجلين تتناسب مواهبهما مع المهمة العسيرة الموكلة اليهم وهي اخضاع العراقيين الرافعين أبدا راية الثورة والعصيان.

الرجل الأول : المغيرة بن شعبة الجهضمي ، اضطر في شبابه الى أن يغادر مسقط رأسه، الطائف، بسبب قتله ثلاثة عشر رجلا من بني مالك في جاهليته ، ثم وفد على الرسول (ص) مسلما وأصبح من المقربين اليه، فأرسله الرسول (ص) ليهدم وثن مدينة الطائف المسمى الطاغية أو اللات، فتقدم المغيرة فهدمها ، وقام قومه من بين شعيب دونه خوفا أن يرمى بسهم، وأظهر المغيرة من التقوى ما جعله في جملة التابعين من أصحاب الرسول (ص)، ولقد ادى اثناء الحروب ضد الامبراطورية الساسانية خدمات دبلوماسية عديدة عن طريق معرفته باللساني الفارسي، من أجل ذلك كافاه عمر بالامارة على البحرين ليعهد اليه بعد ذلك بعمل أعظم خطرا، وهو الامارة على البصرة (11).

وفي 17 هـ/638م عزل المغيرة من ولاية البصرة لسبب اتهامه بتهمة الزنا بالرغم من محاكمة الخليفة عمر له وثبوت براءته (12)

فلما ولاه معاوية أمر الكوفة في 41 هـ جعل من همه أن يفسد، بدهاء بارع، بين الخوارج واتباع علي من الشيعة، وبذلك استطاع ان يشغل الكوفيين عن معارضة الأمويين معارضة فعالة، على الرغم من أنهم لم يكونوا يكتمون كراهيتهم لاهل الشام.

---

10) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ 3 ص 412 ـ 413

11) الطبرى : الامم والملوك جـ 3 ص 75، 143، جـ 4 ص 134 ـ 140، ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ 2 ص 202 ، 284 ، 549

12) ابن الخياط : تاريخ ابن الخياط جـ 1 ص 155، ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ 2 ص 540 ـ 542 .

وقد آلت رئاسة خوارج العراق الى ثلاثة زعماء : الأول المستورد بن علفة التمي من تيم الرباب، والثاني معاذ .بن جوين الطائي، والثالث حيان بن ظبيان السلمي ، وبعد تشاور الزعماء الثلاثة فيمن يولون عليهم، اتفقوا على مبايعة المستورد بالامارة والخلافة اذ خاطبوه بأمير المؤمنين وأخذوا للاستعداد للثورة.

وفي شعبان سنة 43 هـ تمكن المغيرة من القبض على كل من معاذ بن جوين الطائي وحيان بن ظبيان السلمي ونحو عشرين رجلا من انصارهم وسجنهم وتمكن المستورد من الهروب من الكوفة معلنا الثورة على رأس ثلاثمائة مقاتل، فأرسل المغيرة اليه ـ معقلا بن قيس على رأس ثلاثة آلاف وهم من شيعة علي لانهم «أشد استحلالا لدماء هذه المارقة (الخوارج) وأجرأ عليهم من غيرهم» وبالرغم من مقتل، معقل والمستورد في المبارزة التي قامت بينهما، الا أن شيعة علي هزموا الخوارج وفتكوا بهم ولم يبق منهم سوى ستة افراد (13)

أما الرجل الثاني ، فهو زياد بن أبيه أمير البصرة فهو من أبناء الطائف ايضا، ونسب الى أبيه، لانه مجهول نسب الأب وأمه سمية ولهذا أطلق عليه أولا زياد ابن أبيه. وهو أحد الخطباء المشهورين في العرب بالفصاحة والدهاء والعقل الكثير.

وحينما قام عمر بن الخطاب بتولية ابي موسى الأشعري على البصرة، ولى ابو موسى على كتابته زياد بن ابيه، وحينما زار زياد المدينة في مأمورية ، لابي موسى اعجب عمر به فأمر له بألف درهم.

ويروى ان عمر ارسل زياد في اصلاح فساد وقع باليمن فخطب خطبة لم يسمع الناس مثلها، فقال عمرو بن العاص : أما والله لو كان هذا الغلام من قريش لساق العرب بعصاه، فاعترف ابو سفيان انه من صلبه وذلك أمام كل من عمرو بن العاص، وعلي بن ابي طالب.

آذ كان أبو سفيان صخر بن حرب الأموي والد معاوية يتهم في الجاهلية بالترداد الى سمية، فولدت زيادا في تلك المدة، وكانت سمية زوجة عبيد. ومن هنا اختلفت الروايات حول نسبه (14).

---

13) الطبرى : الامم والملوك جـ 6 ص 100 ، 104 ، 111، 130، ابن الأثير : الكامل فيالتاريخ جـ3 ص 421 ، 425 ، 426، ص 429 ، 436.

14) انظر ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ 6 ص 356 ، 357.

وحينما بويع على بن أبي طالب، بالخلافة، عين زيادا واليا على فارس، فضبط البلاد وحمى وجبى وأصلح الفساد، فكاتبه معاوية يروم افساده على علي ، فلم يستجب ووجه كتاب معاوية الى علي، فكتب على اليه يحذره من معاوية قائلا :انما وليتك ما وليتك وأنت لاهل لذلك عندي، ولن تدرك ما تريده مما أنت فيه الا بالصبر واليقين، وانما كانت من ابي سفيان فلتة زمن عمر، لا تستحق بها نسبا ولا ميراثا، وان معاوية يأتي المرء من بين يديه ومن خلفه فاحذروه ثم احذروه.

وبعد مقتل علي بن ابي طالب وتنازل ابنه الحسن لمعاوية عن الخلافة، اراد معاوية استمالة زياد اليه وقصد تأليف قلبه ليكون معه كما كان مع على، فاستلحق زيادا ، فصار يقال له زياد بن أبي سفيان وذلك في سنة 44 هـ واستقدمه الى دمشق. ومنذ ذلك الحين تفانى زياد في خدمة البيت الأموي فولاه معاوية البصرة فدشن حكمه فيها بخطبه، طارت لها شهرة واسعة في الأدب العربي (15).

ولقد نص فيها على أنه سينزل أقسى العقوبة في حق كل من تحدثه نفسه بالخروج على السلطان من البصريين، والواقع ان شدته الحديدية استطاعت ان توقع في نفوس الناس هيبة الدولة، وكانت من قبل مفقودة بحكم المنازعات الناشبة بين القبائل.

ويروى انه كان يؤخر العشاء ثم يصلي ويمهل الناس حتى يعودوا الى ديارهم، ثم يأمر صاحب شرطته بالخروج، فاذا رأى انسانا قتله. فأخذ ذات ليلة أعرابيا فأتى به زيادا فقال : هل سمعت النداء ؟ فقال : لا والله ! قدمت بحلوبة لى وغشيني الليل فاضطررتها الى موضع وأقمت لاصبح ولا علم لي بما كان من الأمير، فقال : أظنك والله صادقا ولكن في قتلك صلاح الامة. ثم أمر به فضربت عنقه.

واستتب الأمن بالبصرة حتى كان الشيء يسقط من يد الرجل او المرأة فلا يعرض له احد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه، وتبيت المرأة فلا تغلق عليها بابها. وهكذا ساد البلاد وقلب البادية نفسها، أمن لم تعهده من قبل، حتى قيل ان زياد

---

15) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 3 ص 441، 443، 444.

16) الطبرى : الامم والملوك ج 6 ص 134 ـ 136.

أراد ان يتشبه بالخليفة عمر بن الخطاب في ضبط الأمور والحزم والصرامة واقامة السياسات ويعلق ابن خلكان على ذلك بقوله : «الا أنه اسرف وتجاوز الحد» (17).

وبعد وفاة المغيرة بن شعبة والى الكوفة في 50 هـ/670 م صار زياد أميرا على البصرة والكوفة معا، وهو أول من جمعتا له معا، وكان زياد يقيم بالكوفة ستة أشهر وبالبصرة ستة أشهر، فلما وصل الكوفة خطبهم فحصب وهو على المنبر، فجلس حتى امسكوا ثم دعا قوما من خاصته فأمرهم فأخذوا أبواب المسجد، ثم امر بكرسي فوضع له على باب المسجد، فدعاهم اربعة اربعة يحلفون : ما مِنا من حصبك ، فمن حلف خلاه ومن لم يحلف حبسه، حتى صار الى ثلاثين وقيل ثمانين، فقطع ايديهم على المكان (18).

ونتيجة لتباين بين كل من سياسة المغيرة بن شعبة التي تميزت باللين والصفح والعفو والتغاضي عن بعض أعمال زعماء جند العراق التي لا تشكل خطورة كبيرة على الأمن والنظام بالمدينة. وسياسة زياد التي ترمي الى قمع اي حركة او بادرة وفرض الأمن على جميع اهل المدينة، اقدم بعض اتباع علي على الثورة، واستغل زياد هذه الثورة لتصفية الحساب مرة واحدة مع العلويين . وبعد ان أخمد هذه الثورة دونما جهد كبير، حل تنظيمات المقاتلين القبلية السابقة وأعاد تنظيمهم في جماعات أربع على رأس كل منها رجل من الموالين للبيت الأموي وهم : «عمرو بن حريث على ربع أهل المدينة، وخالد بن عرفطة على ربع تميم وهمدان، وقيس بن الوليد على ربع ربيعة وكنده، وأبو بُرده بن ابي موسى على ربع مذحج وأسد» ((19).

وفي نفس الوقت عمل على نقل خمسين الف اسرة عربية من مدينتي البصرة والكوفة الى ولاية خراسان، المقاطعة الفارسية الشرقية لكي يتخلص نهائيا من ثورات العلويين بهما ويدعم الفتوحات الاسلامية باقليم ما وراء النهر في الوقت نفسه اذ يروى البلاذري ان زياد، ولى الربيع بن زياد الحارثي «سنة احدى وخمسين خراسان،

---

17) انظر ابن خلكان : وفيات الاعيان ج 2 ص 31

18) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 3 ص 461 ـ 462

19) انظر الطبري : الامم والملوك ج 6 ص 150 وما بعدها وقارن ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 3 ص 483.

وحول معه من أهل المصريين زهاء خمسين الفا بعيالهم،...، واسكنهم دون النهر» (20).

وهكذا استقل زياد بن أبيه، بحكم نصف الامبراطورية الاسلامية الشرقي تقريبا، هذا النصف الذي تم فتحه من كل من البصرة والكوفة، في حين تركز اهتمام معاوية في الغرب.

ثانيا : التعريف بحكام العصر الأموي وأهم اعمالهم

بعد مبايعة معاوية بالخلافة اصبحت دمشق عاصمة الدولة العربية، بعد ان كانت الكوفة هي العاصمة في فترة حكم علي ،بن ابي طالب وابنه الحسن بن علي، اذ أن معاوية الذي كان اميرا على الشام، آثر أن لا يغير مقر حكمه الذي رسخت قدمه فيه، وتوطد نفوذه بين اهله، اضافة الى أن دمشق اصبحت المدينة التي يتلاءم وضعها الاقتصادي والاجتماعي مع التطور الذي طرأ على الدولة العربية الاسلامية ، فقد اصبحت بحكم موقعها الجغرافي المتوسط ومركزها الاقتصادي النشيط مركز الثقل في العالم الاسلامي . ولكن يلاحظ من استعراض تاريخ بلاد الشام في القديم، ان هذه البلاد لم تكن قط قاعدة لامبراطورية، لانه ليس فيها سهل واسع يعيش فيه كمية كبيرة من الناس، تكون مجتمعا متناسقا يكون قاعدة لامبراطورية وخزان بشري لها، مثل الحال في مصر والعراق، لذلك يلاحظ ان متأخرى خلفاء بني أمية يزحفون شمالا ثم شرقا حتى منطقة الجزيرة (21).

ويمكن تقسيم الخلافة الأموية الى عصرين متميزين :

الأول : عصر الحكم السفياني من 41 هـ الى 64 هـ نسبة الى ابي سوفيان صخر ابن حرب الأموي.

والثاني : عصر الحكم المرواني من 64 هـ الى 132 هـ نسبة الى مروان ابن الحكم بن ابي العاص بن أمية مؤسس هذا الفرع واول من تولى الخلافة من افرادها.

---

20) البلاذرى : فتوح البلدان ص 400.

21) قارن كل من سهيل زكار في تاريخ العرب والاسلام ص 120 ، 121 وتوفيق برو في الدولة العربية الكبرى ص 235.

عصر الحكم السفياني (41 ـ 64 هـ)

في خلال هذا العصر تولى الخلافة الأموية بدمشق : ثلاثة من البيت السفياني ، الأول معاوية بن أبي سفيان (41 رجب 60 ه) والثاني ابنه يزيد بن معاوية (رجب 60 هـ ـ ربيع الأول 64 هـ) ، والثالث ابنه معاوية الثاني بن يزيد (ربيع الأول 64 هـ ـ ذي القعدة 64)

1 ـ معاوية بن أبي سفيان (41 ـ 60هـ)

لم ينتخب معاوية للخلافة انتخابا عاما، يعني من جميع أهل الحل والعقد من المسلمين، وانما انتخبه أهل الشام للخلافة بعد صدور حكم الحكمين ، وبالتالي لم يطلق مؤرخي الاسلام عليه لقب خليفة، فلما قتل على بن أبي طالب وبايع جند العراق ابنه الحسن رأى من مصلحة المسلمين ان يبايع معاوية ويسلم الأمر اليه. فبايعه في ربيع الأول 41 هـ فبيعته اختيار من أهل الشام وبطريق الغلبة والقهر من أهل العراق، الا أنها انتهت في الآخر بالرضا عن معاوية والتسليم له من جميع الأمة ما عدا الخوارج (22).

وتمكـــن معاويــــة مـــن السيطرة على العراق ، سواء عن طريق واليه على الكوفة المغيرة بن شعبة أو واليه على البصرة زياد بن ابيه، الذي جمعت له البصرة والكوفة بعد وفاة المغيرة بن شعبة .

أما الحجاز فكان ولاته دائما من بني امية وكانت ولاية المدينة بين مروان ابن الحكم وسعيد بن العاص يتداولانها وكان معاوية اذا اراد ان يولي رجلا من بني حرب، ولاه الطائف فان رأي منه خيرا وأثبت جداره ولاه مكة معها فان احسن الولاية وقام بها بكفاءه واضحة جمع له معهما المدينة.

معاوية وتنظيم الدولة الاسلامية : وبعد أن تمكن معاوية من السيطرة على الدولة الاسلامية واخضاع ولاياتها وكسر شوكة معارضيه، انطلق يوجه جهوده لتنظيم هذه الدولة.

أ ـ البحرية الاسلامية : في خلال مطالبة معاوية بدم عثمان منذ سنة 35 هـ والصراع مع على بن ابي طالب حول الظفر بالخلافة، اغتنم البيزنطيون الفرصة وقاموا

22) محمد الخضري : تاريخ الأمم الاسلامية (الدولة الأموية) جـ 2 ص 100 .

بتدعيم جبهتهم ثم قاموا بهجوم شامل على سواحل الشام في 49 هـ وانزلوا بها خسائر كبيرة، دفعت معاوية الى اقامة دار لصناعة السفن الحربية في عكا، اذ كان وجد في عكا بعد فتح الشام دور صناعة بيزنطية فاستعان بها في انشاء الأسطول الاسلامي. ومن المرجح ان دور الصناعة هذه التي عرفت في عكا كانت اعظم دور لانشاء السفن في تاريخ الاسلام البحري بعد دور مصر.

ويروى البلاذري : «لما كانت سنة تسع وأربعين خرجت الروم الى السواحل وكانت الصناعة بمصر فقط فأمر معاوية بن أبي سفيان بجمع الصناع والنجارين فجمعوا ورتبهم في السواحل وكانت الصناعة في الأردن بعكا» ثم يضيف الواقدي قائلا : «ولم تزل المراكب بعكا حتى ولي بنو مروان فنقلوها الى صور» حيث ظلت حتى العصر العباسي (23).

ومنذ أن تأسست دار الصناعة بعكا، أخذ المسلمون يشكلون خطرا متزايدا على البيزنطيين، فقد عين معاوية على الأسطول القائد عبد الله بن قيس الذي غزا خمسين غزوة ما بين شاتية وصائفة، وافتتح معاوية بالاضافة الى قبرص، جزيرة رودس التي تم فتحها على يد جناده ابن ابي أمية الأزدي في سنة 52 هـ وغزا أقريطش في 55 هـ(24).

ويؤثر عن معاوية أنه اعتمد على القبائل الكلبية اليمنية في العمليات البحرية في الشام لما عرف عنها من طاعة وتنظيم، ولانها كانت تفوق منافسيها من القبائل القيسية في هذا المضمار، كذلك اعتمد معاوية على القبط المصريين الذين تخصصوا في سد ثغرات السفن واستخدام المسامير الحديدية في بنائها التي ثبت أنها افضل بكثير من السفن التي تشد بالحبال. (25).

ب ـ الجيش : وفي نفس الوقت اهتم معاوية بالجند الشامي، فقد اعتمد عليهم في توطيد عرشه وتوسيع الفتوح الاسلامية ، لذلك ازداد عدده زيادة كبيرة ، وزادت نفقاته مما سبب تسخير موارد الدولة له، وانتهاج سياسة مالية قاسية فيها

---

23) انظر البلاذري : فتوح البلدان ص 124 ـ 125

24) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الاسلامية في المغرب والأندلس ص 19.

25) فلهلم هو كنرباخ : البحرية العربية وتطورها في البحر المتوسط في عهد معاوية ص 18 ـ 20 تطوان 1954، أحمد مختار العبادى : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص 3 ـ 4.

استغلال للشعوب المفتوحة، كما ادى ذلك الى ازدياد سلطة زعماء الجند الشامي وتدخلهم في شؤون الدولة من جهة وتحولهم الى ارستقراطية خاصة من جهة ثانية. ثم انتهى الأمر بالتناحر بين هؤلاء الرؤساء وظهور العصبية القبلية ببلاد الشام.

ولقد زخرت المصادر العربية بالاخبار عن طاعة اهل الشام له وتعلقهم به ولا جدال في أن معاوية كان دون علي في الفروسية والحرب ولكن احدا من معاصريه لم يتقدمه في مضمار الادارة والتنظيم الحربي. فلقد أوجد من أهل الشام مادة حربية لتاليف جيش دربه فكان اول جيش منظم في الاسلام، استخدمه لضبط الأمن والنظام في الداخل واثارة الجهاد في الخارج (26).

ج ـ الادارة الحكومية : ثم تناول الادارة الحكومية فألغى كثيرا من مظاهرها التقليدية وأنشاها على الاساس البيزنطي السابق وأقام جهازا حكوميا منظما.

وينسب المؤرخون الى معاوية فضل السبق في وضع ديوان الخاتم وهو عبارة عن دائرة خاصة للكتاب الذين تولوا أمر المراسلات الحكومية في الدولة ويروى ابن الخياط ان معاوية «كان اول من وضع ديوان الخاتم» وعين على الخاتم عبد الله ابن عمرو الحميري كما اسند وظيفة كاتب الرسائل الى عبيد بن أوس الغساني وتولى رئاسة الديوان سرجون بن منصور الرومي النصراني ، الذي لعب دور المستشار المالي المنفذ (27).

ويوضح الطبري أسباب انشاء ديوان الخاتم بقوله : «وكان سبب ذلك ان معاوية أمر لعمرو بن الزبير في معونته وقضاء دينه بمائة الف درهم وكتب بذلك الى زياد بن سمية (أبيه) وهو على العراق، ففض عمرو الكتاب وصير المائة، مائتين فلما رفع زياد حسابه انكرها معاوية فأخذ عمرا بردها وحبسه فأداها عنه أخوه عبد الله بن الزبير. فأحدث معاوية عند ذلك ديوان الخاتم وحزم الكتب ولم تكن تحزم» (28).

---

26) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ج 3 ص 32 .

27) ابن الخياط : تاريخ خليفة بن خياط القسم الأول ص 276.

28) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج 6 ص 184.

ولكن البلاذري يروي انه لما أراد الرسول (ص) ان يكتب الى ملك الروم، قيل له، انهم لايقرأون الكتاب الا أن يكون مختوما، فأتخذ «خاتما من فضة ونقش عليه محمد رسول الله، فكان ابو بكر يختم به ثم عمر، ثم عثمان، وكان في يده فسقط من يده في البئر..... فاتخذ خاتما ونقش عليه محمد رسول الله في ثلاثة أسطر» (29).

ويضيف المدائني أن «زياد بن أبي سفيان (أبيه) أول من اتخذ من العرب ديوان زمام وخاتم امتثالا لما كانت الفرس تفعله» فقد كان ملك الفرس اذا أمر بأمر وقعه صاحب التوقيع بين يديه وله خادم يثبت ذكره عنده في تذكرة تجمع لكل شهر فيختم عليها الملك خاتمه وتخزن ثم ينفذ التوقيع الى صاحب الزمام واليه الختم فينفذه الى صاحب العمل فيتكب به كتابا من الملك وينسخ في الأصل ثم ينفذ الى صاحب الزمام فيعرضه على الملك فيقابل به ما في التذكرة ثم يختم بحضرة الملك او أوثق الناس عنده.

وقد يكون للملك خاتم للسر، وخاتم للرسل، وخاتم للتخليد يختم به السجلات والاقطاعات وأشبه ذلك من كتب الشريف، وخاتم للخراج، فكان صاحب الزمام يليها وربما افرد بخاتم السر والرسائل رجل من خاصة الملك (31).

ويروي ابن الأثير ان معاوية «أول من وضع البريد» (32) وأمر عماله على الولايات اذا ارادوا أن يرسلوا اليه بريدا نادوا في الناس من له حاجة، يكتب الى أمير المؤنين، فيكتب اليه من اراد ويرسل كتابه مع بريد الوالي. وقد تطور البريد في أيام عبد الملك بن مروان حتى اصبح مصلحة راقية تربط اجزاء الدولة الاسلامية المترامية الاطراف (33).

وتتمثل أهمية البريد في الوقوف على أخبار الولايات بسرعة ولذلك أقام نقاطا على الطرق مجهزة بالخيول السريعة والعلوفة لها، ليسهل لصاحب البريد تغيير فرسه اذا تعبت، والواقع ان نظام البريد هذا لم يكن من ابتكار معاوية وانما اقتبسه من

---

29) البلاذري : فتوح البلدان ص 447 ـ 448.
30) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 234
31) البلاذري : فتوح البلدان ص 450
32) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 4 ص 13.
33) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ج 6 ص 187.

نظم الامبراطورية الفارسية وطوره لخدمة دولته الناشئة حيث ساهم بدون شك في انتظام الأمور واستتباب النظام واطلاع العاصمة دمشق على جميع مشاكل الولايات.

د ـ وأهم التغييرات التي أدخلها معاوية،هي مسألةتحويل النظام السياسي من نوع من الشوري الى نظام ملكي وراثي، فقد استولى الأمويون على الخلافة بالقوة والقهر وليس عن طريق الشورى. وبالرغم من زعم المؤرخين ان معاوية قال : «انا أول الملوك» وما نسب الى الرسول (ص) قوله ان «الخلافة في امتي ثلاثون سنة ثم ملك بعد ذلك» وما اورده القلقشندي ان معاوية «أول من رتب الخلافة وأقام ابهتها واجراها على قاعدة الملك» . الا أن مجريات الأحداث في عهد معاوية تثبت ان معاوية كان يحكم ويتصرف كزعيم عربي يعرف كيف يصطنع الرجال ويرضيهم وكان يحكم بالتشاور مع جهاز ضم رؤساء القبائل ولم يتصرف تصرف الملوك حتى وصفه المؤرخ البيزنطي المعاصر تيوفانيس «المستشار الأول» (34)

وهذا لا يمنع من نقد المؤرخين لمعاوية الذي يعتبرونه اول ملك في الاسلام،وتحويل الاسلام الى دولة وجعل الخلافة ملكا اي زعامة دنيوية. فقد اخذوا عليه احداثه المقصورة في الجامع وجعلها مقاما للصلاة خاصا به ولا يستبعد قيامه بذلك اذا عرفنا ان كل من عمربن الخطاب وعلى بن ابي طالب قتلا خلال امامته للمصلين بالمسجد، بالاضافة الى أن محاولة اغتيال الخوارج لمعاوية تمت كذلك في المسجد. كما ابتنى لنفسه قصرا سماه «الخضراء» واتخذ سرير الملك وكان اول من أقام الحرس تمشي بالحراب ببين يديه وأوجد الشرطة لحراسته ،واحاط نفسه بالحجاب (35).

---

34) فلهوزن (يوليوس) : الدولة العربية، القاهرة 1958 ص 132، سهيل زكار : تاريخ العرب والإسلام ص 128.

35) ابن الخياط : تاريخ خليفة بن خياط القسم الأول ص 276، ابن الأثير : «الكامل في التاريخ جه ص 13، فليب حتى : تاريخ العرب ج 1 ص 260 ، 261. ، سهيل زكار: تاريخ العرب والاسلام ص 127

البيعة ليزيد بولاية العهد :

بدأ معاوية التفكير والتخطيط لمبايعة ابنه يزيد بولاية العهد منذ استقرار الأمور له وبناء على مشوره المغيرة بن شعبة (36) واليه على الكوفة الذي اوحى الى يزيد بذلك، فقد قال له «انه قد ذهب اعيان أصحاب النبي (ص) ، وآلة وكبراء قريش وذووا اسنانهم، وانما بقي ابناؤهم وأنت من افضلهم واحسنهم رأيا واعلمهم بالسنة والسياسة» كما اقتنع معاوية بقوله : «قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان ،وفي يزيد منك خلف، فاعقد له فان حدث بك حادث كان كهفا للناس وخلفا منك ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة ثم اوضح المغيرة انه يضمن مبايعة اهل الكوفة، كما يضمن زياد مبايعة اهل البصرة وليس بعد هذين المصريين احد بخالف خصوصا وأن أم يزيد، كانت ميسون وهي عربية شامية من بني بحدل من قبيلة كلب المستقرة بالبادية حول تدمر من أقوى القبائل العربية الشامية والمؤيدة بالطبع لمبايعة يزيد بولاية العهد.

وبالرغم من ذلك لم ينسرع معاوية في فرض ابنه يزيد، فبعد أن بايعه أهل العراق والشام سار معاوية الى الحجاز في الف فارس حيث أرغم زعماء قريش في ذلك الوقت وهم الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن ابن ابي بكر على المبايعة ثم بايعه اهل المدينة. واختلف المؤرخون حول تحديد سنة المبايعة بولاية العهد فابن الخياط يذكر ان البيعة تمت في سنة 51 هـ ويتفق كل من الطبري وابن الأثير على أن المبايعة تمت سنة 56 هـ مما يرجح ان المبايعة ليزيد تمت بين التاريخين ، كاقتراح وفكرة في 51 هـ الى أن تمت بمبايعة عامة في 56 هـ (37).

---

36) ،وينفي. ابن قتيبة الدينورى هذه الفكرة موضحا أن معاوية كان يترقب موت الحسن بن علي ابن أبي طالب ليبايع لإبنه يزيد بقوله «ثم لم يلبث معاوية بعد وفاة الحسن رحمه الله (في 51هـ) الا يسيرا حتى بايع ليزيد بالشام، وكتب ببيعته الى الآفاق، وكان عامله على المدينة مروان ابن الحكم، فكتب إليه يذكر الذي قضى الله به على لسانه من بيعة يزيد، ويأمره أن يجمع من قبله من قريش وغيرهم من أهل المدينة ثم يبايعوا ليزيد ».

انظر الامامة والسياسة ج 1 ص 151.

37) انظر ابن خياط : تاريخ خليفة بن خياط القسم الأول ص 251 ـ 256.، الطبرى : الأمم والملوك ج 6 ص 169 ـ 170، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 3 ص 503 وما بعدها .

وتصور وصاية معاوية حينما مرض قبل موته لابنه يزيد، موقف مختلف الأحزاب وعامة أهل الولايات من المبايعة بولاية العهد ليزيد خير تصوير ففيها يقول معاوية :«أنظر أهل الحجاز فانهم اصلك فأكرم من قدم عليك منهم وتعاهد من غاب. وانظر أهل العراق، فان سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملا فافعل، فان عزل عامل أحب الى من أن تشهر عليك مائة الف سيف.. وأنظر اهل الشام، فليكونوا بطانتك وعيبتك، فان نابك شيء من عدوك، فانتصر بهم، فاذا اصبتهم فاردد أهل الشام الى بلادهم، فانهم ان اقاموا بغير بلادهم اخذوا بغير اخلاقهم،، واني لست أخاف من قريش الا ثلاثة : حسين بن علي وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير، فأما ابن عمر فرجل قد وقذه الدين، فليس ملتمسا شيئا قبلك، وأما الحسين بن علي فانه رجل خفيف وأرجو ان يكفيكه الله بمن قتل اباه، وخذل أخاه، وأن له رحما ماسة، وحقا عظيما وقرابة من محمد (ص)، ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه، فان قدرت عليه، فاصفح عنه، فاني لو اني صاحبه عفوت عنه، واما أبن الزبير فانه خب ضب فاذا شخص لك، فالبد له الا أن يلتمس منك صلحا فان فعل فاقبل واحقن دماء قومك ما استطعت» (38).

وتولى يزيد بن معاوية بن ابي سفيان ،الحكم بعد وفاة ابيه معاوية في رجب 60 هـ / أبريل 980م وأمه ميسون بنت بحدل الكلبية من قبائل الشام ومن أشد أنصار معاوية وبالطبع ابنه من بعده واستمر حكمه ثلاث سنين وثمانية اشهر تقريبا.

وبالرغم من اعداد ابيه له لتولي الحكم من بعده، فولاه الحج مرتين وولاه الصائفة وارسله من ضمن القواد على اولى حملاته الى القسطنطينية،وبالرغم من موافقة قبائل الشام على مبايعته كولي للعهد وخليفة بعد أبيه الا أن اهل العراق والحجاز اعترضوا على خلافته وتخلف عن مبايعته الحسين بن علي بن أبي طالب وعبد الله

---

38) انظر الطبرى : الامم والملوک جـ 6 ص 180. ولقد أورد ابن الأثير هذه الوصية مع اختلافات سواء بالإضافة مثل اضافة شخصية عبد الرحمن بن أبي بكر الذي تناوله معاوية بقوله : « واما ابن أبي بكر فإن رأى أصحابه صنعوا شيئا صنع مثله، ليس له همه الا في النساء واللهو». أو بالتغيير مثل موقفه من ابن الزبير بقوله: «وأما الذي يجثم لک جثوم الأسد ويراوغک مراوغة الثعلب فإن أمكنته فرصة وثب فذاک ابن الزبير، فإن هو فعلها بک فظفرت به فقطعه إربا إربا» انظر الكامل في التاريخ جـ 4 ص 6.

ابن الزبير وعبدالله بن عمر.واتهموه بأنه صاحب طرب وجوارح وكلاب وقرود وفهود ومنادمة على الشراب، حتى تشبه به اصحابه وعماله وظهر الغناء في عهده بمكة والمدينة، واستعملت الملاهي وأظهر الناس شرب الشراب. فثار عليه الحسين بن علي وقتل بكربلاء في المحرم 61 هـ ثم تولى زعامة المعارضة عبد الله بن الزبير وخلال القضاء على ثورة الزبير توفي يزيد في 64 هـ/683م (39).

وبعد موت يزيد، بايع اهل الشام ابنه معاوية بن يزيد وله من العمر 21 سنة بينما بايع اهل مكة والحجاز ، عبد الله بن الزبير، وبعد ايام من خلافته نادى الصلاة جامعة فاجتمع الناس فخطبهم قائلا :

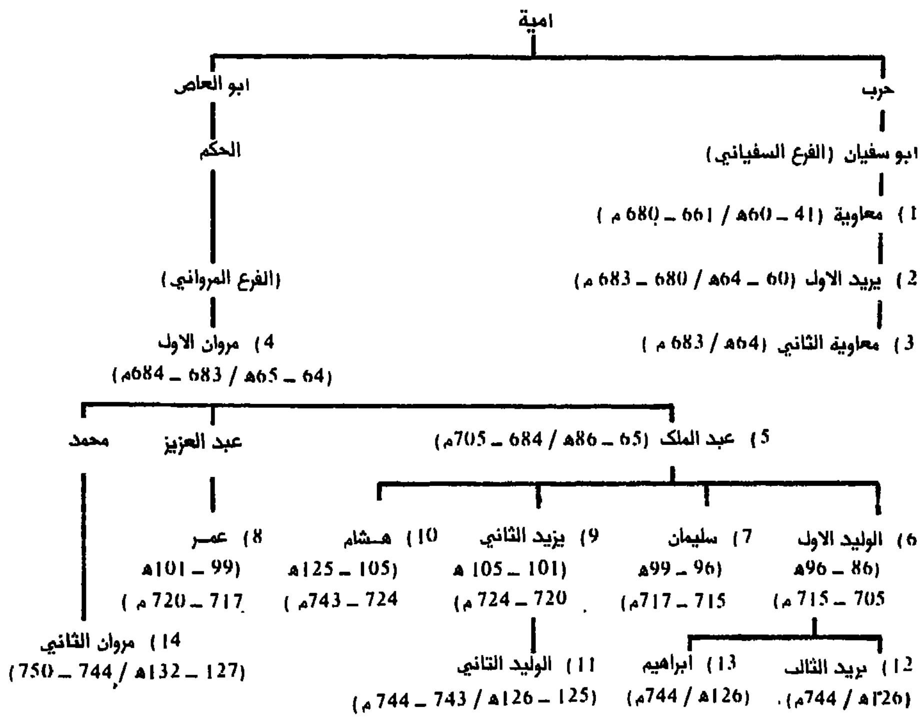
«أما بعد فاني ضعفت عن امركم فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه ابو بكر فلم اجده، فابتغيت سنة مثل سنة الشورى فلم اجدهم، فأنتم اولى بأمركم فاختاروا له من احببتهم» وانسحب الى داره ،الى ان مات بعد أشهر قليلة والبعض يرجح انه مات مقتولا في نفس العام الذي تولى فيه (40).

---

39) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر جـ 3 ص 53 ـ 72.

40) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ 4 ص 130.

عصر الحكم المرواني (64 هـ ـ 132 هـ)



في خلال هذا العصر تولى الخلافة الأموية بدمشق احدى عشر من الفرع المرواني أولهم مؤسس هذا الفرع مروان الاول واخرهم مروان الثاني الذي سقطت الدولة الأموية في عهده في 132هـ / 750م .

1 ـ مروان بن الحكم ومؤتمر الجابية وموقعة مرج راهط (64 ـ 65 هـ / 683 ـ 684 ن)

هو مروان بن الحكم بن أبي الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس ولد في السنة الثانية من الهجرة وأسلم أبوه الحكم يوم الفتح فنشأ مروان مسلما وكان في عهد عثمان بن عفان كاتبًا له ومدبرا وولى لمعاوية المدينة جملة مرات (41).

(41) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 4 ص 193.
، محمد الخضري : تاريخ الامم الاسلامية (الدولة الأموية) ج 2 ص 138

وحينما قرر معاوية أخذ البيعة لإبنه يزيد من بعده خليفة للمسلمين، يروى صاحب الامامة والسياسة أن مروان بن الحكم، أقبل مغاضبًا في أهل بيته، وناس كثير من قومه، حتى نزل بأخواله بني كنانه. فشكا اليهم، وأخبرهم بالذي كان من رأيه في أمر معاوية، وفي عزله واستخلافه يزيد ابنه من غير مشورة مبادرة له، فقالوا نحن نبلك في يدك، وسيفك في قرابك فمن رميته بنا أصبناه، ومن ضربته بنا قطعناه، الراي رأيك، ونحن طوع يمينك.

ثم أقبل مروان في وفد منهم كثير، ممن كان معه من قومه وأهل بيته حتى نزل دمشق، فخرج فيهم حتى اتى سدة معاوية، وقد اذن للناس. فلما نظر الحاجب إلى كثرة من معه من قومه وأهل بيته، منعه من الدخول، فوثبوا اليه، فضربوا وجهه، حتى خلى عن الباب، ثم دخل مروان، ودخلوا معه، حتى اذا كان من معاوية بحيث تناله يده. قام مروان خطيبًا .... «فكان من قبلك من خلفائنا يعرفون ذلك في سالف زماننا، وكنا نكون لهم على الطاعة إخوانـًا، وعلى من خالف عنها أعوانـًا، يشد بنا العضد، ويقام بنا الأود، ونستشار في القضية ونستأمر في أمر الرعية، وقد أصبحنا اليوم في أمور مستحيرة ذاته وجوه مستديرة، تفتح بأزمة الضلال، وتجلس بأهواء الرجال، يؤكل جزورها (لحمها)، وتمق احلابها (يشرب لبنها جميعه) (42) فمالنا لانستأمر في رضاعها ونحن فطامها وأولاته فطامها ؟ (43) وايم الله لولا عهود مؤكدة، ومواثيق معقدة، لاقمت أود وليها، فاقم الامر يابن أبي سفيان واهدى (ترو ولا تتنسرع) من تأميرك الصبيان، وأعلم أن لك في قومك، نظرا، وان لهم على مناواتك وزرا (الملجأ) ».

وبالرغم من غضب معاوية، آلا انه كظم غيظه بحلمه وأخذ بيد مروان واسترضاه بقوله : «فانت نظير أمير المؤمنين بعده، وفي كل شدة عضده .. فقد وليتك قومك، واعظمنا في الخراج سهمك» فكان أول مارزق آلف دينار في أول كل شهر وفرض له في أهل بيته عشرة الاف (44) .

---

(42) والمراد بالجملتين ان معاوية يستأثر بكل شيء في الخلافة ولا يترك لمروان منها شيئا.

(43) مالك لا تأخذ رأينا في الخلافة ونحن قادرون على منع درها عنك.

(44) ابن قتيبة الدينوري : الامامة والسياسة ج 1 ص 151 ـ 153.

وبعد موت معاوية وتوليه يزيد وقيام ثورة «عبد اللهبن الزبير، ورأى مروان مبايعة أغلبية العرب له «فاراد ان يلحق به وينضاف إلى جملته، فمنعه من ذلك عبيد الله بن زياد عند لحاقه بالشام، وقال له : انک شيخ بنى عبد مناف فلا تعجل» (45) وازداد الأمور سوءا واضطرابا بعد تخلى معاوية بن يزيد عن الخلافة ومرت الشام مركز الدولة الأموية ومنبع قوتها بظروف حرجة وصعبة. فالبلاد بدون خليفة وأهل الشام انقسموا احزابا وشيعا .

اذ نتيجة لسياسة يزيد بن معاوية وهي الانحياز إلى أخواله من القبائل اليمنية، ان اخل ذلك بالسياسة المتوازنة التي حرص معاوية مؤسس الدولة على اتباعها تجاه كل من القبائل اليمنية والقيسية على السواء، مما ألب زعماء القيسية ضد الامويين وتحولوا الى مبايعة عبد الله بن الزبير، منهم الضحاک بن قيس الفهري زعيمهم الدي بايعه اهل دمشق على أن يصلي بهم ويقيم لهم أمرهم حتى يجتمع الناس الى خليفه، وكان يدعو الى ابن الزبير سرا. كما بايعه زفربن الحارث وقبائل قيس وطردوا عامل يزيد على قنسرين وكان من كلب وكذا عامل حمص، وذلک لأن القبائل القيسية كغطفان ومضر وغيرهما، قد سبق لهم الاستقرار بشمال الشام وفي الجزيرة .

وبالرغم من إجماع قيسية الشام على التحول إلى معسكر ابن الزبير، الا أن حسان بن مالك بن بَحدَل الكلابي زعيم اليمنية بالشام وعامل الامويين على فلسطين، سارع بالانتقال إلى الاردن حيث مؤيدي الامويين، الذين قبلوا زعامته قائلين : «نحن نبايعک على ان نقاتل من خالفک وأطاع ابن الزبير على أن تجنبنا هدين الغلامين، يعنون ابني يزيد، عبد الله وخالد، فانا نكرة ان يأتينا الناس بشيخ (يقصدون عبد الله بن الزبير) ونأتيهم بصبي» (46).

اما البصرة والكوفة فقد كان واليهما عبيد الله بن زياد فلما أصبح الأمر شورى، خطب عبيد الله اهل البصرة بقوله : «لاارض اليوم اوسع من أرضكم، ولا عدد أكثر من عددكم، ولا مال اكثر من مالكم، في بيت مالكم مائة ألف ألف درهم (مائة مليون)،

---

(45) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ج 3 ص 85.

(46) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 4 ص 145 ـ 146

، كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص 130.

ومقاتلتكم ستون الفا، وعطاؤهم وعطاء العيال ستون ألف ألف درهم (ستون مليون)، فانظروا رجلا ترضونه يقوم بامركم ويجاهد عدوكم، وينصف مظلومكم من ظالمكم، ويوزع بينكم اموالكم» فاشار زعماء أهل البصرة ومنهم الاحنف بن قيس التميمي وقيس بن الهيثم السلمى، ومسمع بن مالك العبدى، بوجوب استمراره أميرا عليهم الى ان يجتمع الناس على خليفه .

ارسل عبيد الله بن زياد الى عامله عمرو بن حريث الخزاعي على الكوفة يعلمه بما دخل فيه أهل البصرة، ويأمره ان يامر اهل الكوفة بما دخل فيه أهل البصرة، وما ان عرض عليهم ما جاءه من عبيد الله حتى قام يزيد بن رويم الشيباني أحد زعماء الكوفة قائلا : «الحمد لله الذي اطلق ايماننا، لاحاجة لنا في بني أمية، ولا في امارة ابن مرجانة، وهي ام عبيد الله، ...... انما البيعة لاهل الحجر ـ يعني اهل الحجاز ـ» فخلع اهل الكوفة ولاية بنى امية وامارة ابن زياد، مما دفعه للوفود الى الشام (47) .

وهكذا كان مروان بن الحكم انذاك يؤيد عبد الله بن الزبير ضد يزيد ابن معاوية،اولا بسبب اجماع العرب عليه تقريبا وكتعبير عن سخطه على معاوية ابن ابى سفيان الذي حول الشورى في اختيار الخليفة والمبايعة الى ادخال مبدأ الوراثة التي لم يكن العرب يستسيغونها.وعندما فشلت مفاوضات يزيد بن معاوية مع عبد الله بن الزبير وأهل الحجاز وأخرج الأمويين من المدينة وكان من ضمنهم مروان ابن الحكم وابنه عبد الملك،وفي طريقهم إلى الشام التقوا بالجيش الذي ارسله يزيد ابن معاوية ضد عبد الله بن الزبير بقيادة مسلم بن عقبة المرى،فانضم مروان وابنه عبد الملك إلى ذلك الجيش ورجعوا معه إلى المدينة .

---

(47) وأرادوا ان ينصبوا لهم أميرا الى أن ينظروا في أمرهم، فقال جماعة : عمرو بن سعد بن ابي وقاص يصلح لها، فلما هموا بتأميره أقبل نساء من همدان وغيرهن من نساء كهلان والانصار وربيعة والنخع حتى دخلن المسجد الجامع صارخات باكيات معولات يندبن الحسن ويقلن : «أما رضي عمرو بن سعد بقتل الحسين حتى اراد ان يكون أميرا علينا على الكوفة، فبكى الناس، واعرضوا عن عمرو، وكان المبرزات في ذلك نساء همدان،، ويروى ان على بن ابي طالب كان يميل الى قبيلة همدان مؤثرا لهم حتى نسب إليه قوله : فلو كنت بوابا على باب جنة لقلت لهمدان ادخلوا بسلام وذلك بسبب عدم اشتراكهم مع معاوية يوم صفين الا مجموعة قليلة كانوا بغوطة دمشق بقرية «عين ثرما».
أنظر المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ج 3 ص 84، 85.

اذ يروى خليفة بن خياط انه «لما أخرج أهل المدينة بنى أمية ومروان نزلوا حفيلا، وكتب مروان إلى يزيد بالذي كان من رأى القوم» (48). ولكن يزيد توفي واشتد امر ابن الزبير واضطر الجيش الأموي الى الانسحاب إلى الشام، حيث تقرر مصير الخلافة الأموية، فالحزب اليمني برئاسة حسان بن بَحْدَل الكلابي، خال يزيد، وبنى امية وأنصارهم مثل عبيد الله بن زياد ومروان، اجتمعوا معا في الجابية من أرض الجولان، بين دمشق والاردن، يتشاورون حول رجل يولونه، واتفق رأيهم أخيرا على تولية مروان بن الحكم فبايعوه 3 ذو القعدة 64ه بعد موافقة مروان على مبايعة خالد بن يزيد بن معاوية من بعده وولاه حمص فارضى بذلك الحزب السفياني. وفي نفس الوقت لكي يقلل من شأن خالد بن يزيد ويقضى على تطلعه الى الخلافة ويامن من ثورته، تزوج مروان من أم خالد ابنه هاشم بن ربيعة، فخطبها وتزوجها. كما بايع مروان لعمرو بن سعيد بن العاص بعد خالد بن يزيد وولاه دمشق. فزرع بذلك بذور الصراع والخلاف في البيت الأموى حتى يستطيع تحرير ارادته منه (49).

أما الحزب اليمنى فيوضح المسعودي ثمن تأييدهم لمروان بقوله : «واشترط حسان بن مالك ـ وكان رئيس قحطان وسيدها بالشام ـ على مروان ما كان لهم من الشروط على معاوية، وابنه يزيد، وابنه معاوية بن يزيد : منهما أن يفرض لهم لألفى رجل ألفين ألفين، وان مات قام ابنه أو ابن عمه مكانه، وعلى أن يكون لهم الأمر والنهي، وصدر المجلس، وكل ما كان من حل وعقد فمن رأى منهم ومشوره». حتى خاطبه مالك بن هبيرة اليشكرى أحد زعمائهم : «انه ليست لك في اعناقنا بيعة، وليس نقاتل الا عن عرض دنيا، فان تكن لنا على ما كان لنا معاوية ويزيد نصرناك،

---

(48) ابن الخياط : تاريخ خليفة بن خياط ج 1 ص 290.

(49) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير ج 5 ص 166 ـ 167.

ابن قتيبة : عيون الأخبار ج 1 ص 277، الامامة والسياسة ج 2 ص 13.

ويروي ابن الأثير ان حسان بن مالك زعيم اليمنية خاطب خالد بن يزيد فقال : ياابن اختي ان الناس قد أبوك لحداثة سنك واني والله ما أريد هذا الأمر الا لك ولاهل بيتك وما أبايع مروان الا نظرا لكم. فقال خالد : بل عجزت عنا. قال : والله ما عجزت عنكم ولكن الرأي لك ما رأيت.

أنظر الكامل في التاريخ ج 4 ص 148 ـ 149.

وان تكن الآخرى فوالله ما قريش عندنا الا سواء» فوافق مروان على شروط اليمـنية. (50).

أما الحزب القيسى بزعامة الضحاك بن قيس الفهرى، عامل دمشق، كان هواه مع ابن الزبير وان لم يعلن ذلك صراحه، مما دفع حسان بن مالك زعيم اليمنية الى الكتابة اليه، معظما شأن بنى أمية وذما لابن الزبير، وأمره أن يقرأ كتابه على الناس، وكتب كتابا اخر سلمه لرسوله وقال له ان لم يقرأ الضحاك كتابي على الناس ، فقم واقرأه عليهم، فلما ورد كتابه على الضحاك لم يقرأه على الناس، فقام رسول حسان وقرأ عليهم الكتاب فقال الوليد بن عتبة بن أبى سفيان صدق حسان وقام غيره فقالوا مثل مقاله، فأمر بهم الضحاك فحبسوا ولكن عشائرهم من كلب وغسان أخرجوهم من الحبس وانقسمت دمشق إلى فريقين الاول قيسي يدعو إلى ابن الزبير، والثاني كلبي يمنى يدعو الى بنى أمية (51).

انسحبت القيسية من دمشق الى مرج راهط على أميال شمال دمشق حيث إلتقى مروان بن الحكم وأنصاره من بني آمية واليمنية من كلب وغسان والسكاسك والسكون في ثلاثة عشر ألفا، والضحاك بن قيس وأنصاره من القبائل القيسية في ستين ألفا، ودارت المعارك بينهم لمدة عشرين يومًا،فقال ابن زياد لمروان : ان الضحاك من فرسان قيس ولن ننال منهم ما نريد الا بمكيدة، «فسلهم الموادعة واكفف عن القتال وأعد الخيل (الفرسان)، فاذا كفوا فأرمهم بها. فمشت بينهم السفراء فكف الضحاك عن القتال، فشد عليهم مروان في الخيل ففزعوا الى رايتهم عن غير تعبئة، فقتل الضحاك وقتل من فرسان قيس جماعة» (52) في أواخر 64هـ / 684م. (53) .

(50) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ج 3 ص 86 ـ 87

(51) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 4 ص 146 ـ 147

، محمد الخضري : تاريخ الأمم الاسلامية (الدولة الأموية) ج 2 ص 136 ـ 137.

(52) انظر ابن الخياط : تاريخ خليفة بن خياط ج 1 ص 326

، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 4 ص 149 ـ 150

(53) وقيل كانت الواقعة في المحرم سنة 65 هـ

يضاف إلى دلك ان يزيد بن أبى الغمس الغساني من أنصار بني أمية (54) استغل انسحاب الضحاك من دمشق، فتمكن من اخراج عامل الضحاك على العاصمة وغلب عليها واستولى على الخزائن وبيت المال، وبايع مروان وامده بالأموال والرجال والسلاح خلال موقعة مرج راهط مما ساعد على انتصار مروان واليمنية (55).

واهم نتائج موقعة مرج راهط انها اذكت جذوة الصراع بين القبائل القيسية واليمنية، فقد قتل فيها ثمانون رجلا من أشراف أهل الشام بالاضافة إلى العامة منهم وكذا قتل زعماء قيس مثل هانئ ابن قبصية النميري سيد قومه وأبناء زفر ابن الحارث الكلابي الثلاثة والنعمان بن بشير وامتد لهيب العصبية الى خراسان وغيرها من الامصار (56).

ورغم انتصار مروان بن الحكم، إلا أن الخطر ظل يتهدد خلافته من ثلاث مناطق : مصر والعراق والحجاز. وكان عليه ان يخضع هذه الامصار، فزحف مروان في جنوده من الشام الى مصر، فحاصرها وخندق عليها خندقا، اذ كان أهلها زبيرية الهوى، وكان عبد الرحمن بن عتبة بن جحدم القرشي واليا عليها لابن الزبير، وأبو رشد بن كريب ابن ابرهةبن الصباح زعيم القبائل العربية بالفسطاط، وسرعان ما اتفقوا على الصلح حينما ادرك اهل مصر عدم جدوى المقاومة، خصوصا بعد مقتل اكيدر بن الحمام (57) زعيم القبائل المضرية وفارسها بمصر، وعاد مروان الى الشام بعد أن ترك ابنه عبد العزيز بن مروان واليا عليها.

وفي نفس الوقت لم يهمل مروان أمر المنطقتين الاخريتين: العراق والحجاز، اذ ارسل إلى كل منهما قوة ترابط على حدوده، فقد وجه عبيد الله بن زياد وقال له :

---

(54) وكان قد ارتد عن الاسلام ودخل الى بلاد الروم مع جبلة بن الأيهم ثم عاود الاسلام وشهد صفين مع معاوية وعاش الى أيام عبد الملك بن مروان . أنظر ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 4 ص 153.

(55) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 4 ص 150.

(56) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ج 3 ص 87 ـ 88
، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 4 ص 150.

(57) ينسب اليعقوبي اكيدر بن حمام الى لخم وهي من القبائل اليمنية بينما يذكر المسعودى ان اكيدر بن الحمام كان فارس مضر أي قيسيا وهو الأرجح. انظر تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 257 ومروج الذهب ومعادن الجوهر ج 3 ص 88.

«إن غلبت على العراق فانت أميرها» كما وجه جيش بن دلجة القيني الى الحجاز لمحاربة ابن الزبير (58).

وسرعان ما تمكن مروان من اعادة سيطرة الخلافة على الشام ومصر والجزيرة (شمال العراق)، اما الحجاز والعراق فقد بقيتا منطقة نفوذ لابن الزبير. ولم يمهل الزمن مروان لاستعادتهما، اذ نتيجة لاستقرار الأمور بالشام نسبيًا، قام مروان بخلع كل من خالد بن يزيد بن معاوية وعمرو بن سعيد بن العاص، ولبا عهده، وبايع لابنه عبد الملك وعبد العزيز من بعده في 65هـ / 684م . مما أثار أم خالد ابن يزيد، زوجة مروان فتامرت عليه وقتلته، ويقال انها وضعت على نفسه وسادة وقعدت فوقها مع جواريها حتى مات، ومنهم من رأى أنها أعدت له لبنا مسمومًا، شربه فمات بعد أن حكم مابين ثمانية أو تسعة شهور(59).

2 ـ خلافة عبد الملك بن مروان 65 ـ 86 هـ / 684 ـ 705 م) :

وتكاد تجمع الروايات التاريخية على أن عبد الملك بن مروان كان خلال حياته الاولى متدينًا جدا وانه اظهر ولعًا شديدا في الدراسات الدينية وتأثر بمدرسة دراسة القرآن والحديث بالمدينة حيث ولد وترعرع، ويروى ابن سعد أن عبد الملك كان قد اعتاد الجلوس مع الفقهاء ورجال الدين، الذين علموه حديث الرسول (ص) (60) بينما يذكر ابن قتيبة الدينورى أنه «كان معروفًا بالصدق، مشهورا بالفضل والعلم، لايختلف في دينه، ولا ينازع في ورعه» (61) حتى قال أبو الزياد : «كان فقهاء المدينة أربعة : سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وقبيصه بن ذؤيب، وعبد الملك بن مروان». وقال الشعبي : «ماذاكرت أحد إلا وجدت لى

(58) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 256 ـ 257.

(59) تذكر بعض الروايات ان السبب في مقتل مروان بالاضافة الى تحويل ولاية العهد الى ابنائه، اهانته لخالد بن يزيد أمام زعماء امية واليمنية ووصفه له بقوله « والله انك لاحمق ! تعال يا ابن الرطبة الاست ! » يقصر به ليسقطه من أعين أهل الشام. قارن روايات اليعقوبي والمسعودي وابن الأثير في تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 257، مروج الذهب ومعادن الجوهر ج 3 ص 89، الكامل في التاريخ ج 4 ص 191.

(60) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير ج 5 ص 167

عبد الامير عبد حسين : الخلافة الأموية ص 34 ـ 35.

(61) ابن قتيبة الدينوري : الامامة والسياسة ج 2 ص 14

الفضل عليه إلا عبد الملك، فانى ما ذاكرته حديثا الا زادني فيه، ولا شعرا إلا زادني فيه» (62) .

ولكن ما ان تولى الخلافة حتى اضطرته الاحداث السياسية ان يتصرف حيالها بشكل ادى إلى اتهام بعض المؤرخين له بانه أول من غدر في الاسلام «... وأول من نهى عن الكلام في حضرة الخلفاء، وكان الناس قبله يراجعونهم، وأول خليفة بخل، وكان يقال له رشح الحجارة لبخله، وأول من نهى عن الأمر بالمعروف، فإنه قال في خطبته بعد قتل ابن الزبير : ولا يأمرنى أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا الا ضربت عنقه» (63) .

حكم عبد الملك « ابو الخلفاء» لمدة واحد وعشرين عامًا وفي عهده وعهد بنيه الاربعة الذين خلفوه بلغت الدولة في دمشق أوج عزها ومجدها (64) كما احدقت بعبد الملك عند تسلمه العرش وفي السنوات العشر الاولى لخلافته شتى المصاعب فكان كسلفه معاوية مضطرا الى مكافحة الاعداء في جبهات متعددة .

واولى هذه الصعاب وأكثرها خطورة ثورة عبد الله بن الزبير الذي أعلن نفسه خليفة بعد موت يزيد بن معاوية بن أبى سفيان سنة 64هـ / 683م. وقد شملت سلطة عبد الله بن الزبير في أوج قوته الحجاز والعراق إضافة إلى حصوله على اعتراف اسمى ـ على الاقل ـ في مناطق عدة أخرى من العالم الاسلامي آنذاك، ولم يجمع الناس على عبد الملك خليفة الا بعد مقتل ابن الزبير سنة 73هـ/ 692م (65) .

ولم يكن عبد الملك قادرا على تحدى سلطة عبد الله بن الزبير في العراق والأقاليم الشرقية، مالم يؤمن مركزه في بلاد الشام نفسها حيث مقر حكمه، ففي فلسطين كان ناتل بن قيس الجذامي مسيطرا ومؤيدا لعبد الله بن الزبير ولكن عبد

---

(62) انظر ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 4 ص 520.

(63) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 4 ص 522.

(64) وهم الوليد الاول 705 ـ 715 م وسليمان 715 ـ 717 ويزيد الثاني 720 ـ 724 م وهشام 724 ـ 734 م، ولقد توسط بين هؤلاء الخلفاء الأربعة خليفة هو عمر بن عبد العزيز 717 ـ 720 م. وهو ابن أخي عبد الملك.

(65) البلاذري : انساب الأشراف ج 5 ص 305 ، 350، اليعقوبي تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 255، عبد الأمير عبد حسين : الخلافة الأموية ص 199.

الملك نجح في التخلص منه. كما ان الامبراطور البيزنطى إنتهز فرصة الاضطراب السياسي التي سادت العالم الاسلامي فحرض الجراجمة ضد العرب .

ويذكر البلاذري «أن الجراجمة من مدينة على جبل اللكام ..(65م) فيما بين بياس وبوقا، يقال لها الجرجومة وان أمرهم كان في أيام استيلاء الروم على الشام وانطاكية الى بطريق انطاكية وواليها، فلما قدم أبو عبيدة انطاكية وفتحها لزموا مدينتهم وهموا باللحاق بالروم، إذ خافوا على أنفسهم، فلم ينتبه المسلمون لهم ولم ينبهم عليهم» وبعد تولية حبيب بن مسلمة الفهري، ولاية انطاكية «غزا الجرجومة فلم يقاتله أهلها ولكنهم بدروا بطلب الامان والصلح فصالحوه على أن يكونوا أعوانـًا للمسلمين وعيونـًا ومسالح في جبل اللكام وان لايؤخذوا بالجزية وان ينفلوا أسلاب من يقتلون من عدو المسلمين إذا حضروا معهم حربـا في مغازيهم ودخل من كان في مدينتهم من تاجر وأجير وتابع من الانباط وغيرهم وأهل القرى في هذاالصلح فسموا الرواديف، لأنهم تلوهم وليسوا منهم» (66).

زحف فرسان الروم إلى جبل اللكام حيث انضم اليهم «جماعة كثيرة من الجراجمة وانباط وعبيد اباق من عبيد المسلمين». ونظرا لتهديدهم الشام حتى منطقة لبنان اضطر عبد الملك أن يصالحهم مقابل اتاوة أسبوعية قدرها الف دينار، ثم اقتدى بمعاوية بن أبى سفيان في خلال صراعه مع علي بن أبي طالب، فعقد معاهدة مع الامبراطور البيزنطى جستنيان الثاني.وتذكر الروايات المنسيحية أن من شروط هذه المعاهدة أن يدفع عبد الملك ثلاثمائة وخمس وستين ألف قطعة ذهبية وثلاثمائة وخمس وستين فرسا أصيلا سنويـًا وأن يدفع نصف جزية قبرص وأرمينيا، وفي مقابل هذا يتعهد الامبراطور بسحب الجراجمة من الاراضى الاسلامية، فاستدعى اثنا عشر الفا منهم فاستقروا داخل الحدود البيزنطية (67).

وما ان تخلص عبد الملك من ثورة عمرو بن سعيد بن العاص الاشدق منافسه على الخلافة، حتى نقض معاهدته مع الامبراطور البيزنطى وتمكن من القضاء على

65م) يبتدئ من بحر القلزم إلى نواحي الشام فيسمى هناك جبل لبنان ، ثم ينتهى الى حمص ، فيسمى جبل بهراء وتنوخ ، ثم يمر إلى أن يجاور اللاذقية ويسمى هناك اللكام ، ثم ينتهي الى مرعش ثم الى شمشاط . انظر ابن حوقل : صورة الارض ص 154 ، ابن خرداذبة: المسالك والممالك ص 232 ، ياقوت الحموى : معجم البلدان مادة اللكام ، الحميرى : الروض المعطار ص 510 .

(66) البلاذري : فتوح البلدان ص 163 ـ 164.

(67) عن عبد الأمير عبد حسين : الخلافة الأموية ص 200

الفرقة البيزنطية وقائدها «فتفرق الجراجمة بقرى حمص ودمشق، ورجع أكثرهم الى مدينتهم باللكام، واتى الانباط قراهم، فرجع العبيد إلى مواليهم» (68).

وبعد ان قضى عبد الملك على الخطر البيزنطي وأحلافهم الجراجمة حتى استطاع ان يصرف همه إلى اخضاع العراق، الذي كان مسرحًا لصراع دامى بين مصعب بن الزبير، اخو عبد الله بن الزبير وواليه على العراق، وحركة المختار الثقفي الشيعية وحركة الخوارج، حتى اذا انهكت هذه القوى بعضها وقضى على حركة المختار الثقفي، ظهر عبد الملك بانصاره في العراق سنة 72هـ / 691م ليقضى على مصعب بن الزبير بعد خيانة انصاره، وفي العام التالى 73هـ / 692م، قضى عبد الملك على ثورة عبد الله بن الزبير بالحجاز، وهكذا استعادت الامبراطورية وحدتها (69).

وقد كان عبد الملك، خليقا ان يعتبر نداً لمعاوية، فانه لما أدركته الوفاة في ختام السنوات العشر الثانية من حكمه، التي تميزت بالاستقرار، فقد تم خلالها نقل الدواوين الى العربية وتسلمها العرب أنفسهم، وضربت أول نقود عربية صرفة وأنشئت ادارة البريد وشيدت المباني الفخمة، كما ترك عبد الملك لإبنه الوليد امبراطورية موحدة ثابتة الاركان يسودها الامن. ولم تقتصر هذه الامبراطورية على العالم الاسلامي الذي ورثة عبد الملك عن ابيه الحكم فقط، بل شملت أمصارا جديدة تم فتحها في عهده، اذ كان فتح الشام والعراق وفارس ومصر في خلافة عمر وخلافة عثمان خاتمة الدور الأول في الفتوحات الإسلامية، وقد بدأ الان دور الفتوحات الثاني في عهدى عبد الملك وابنه الوليد (70).

وادخل عبد الملك روحا جديدة إلى البلاط الأموي، فقد كان أسلافه يعاملون الرعية على طريقة شيوخ القبائل العربية القدماء. فلما انتهى إليه الأمر خرج على هذه السنة وحكم المملكة حكما مطلقا . وبالرغم من ذلك فقد وسع من نفوذ الفقهاء، وحتى يضمن ولاء الامصار فقد حرص على تنصيب انسبائه ولاة عليها، ماعدا العراق، كما عين أخاه عبد العزيز الذي سبق لأبيه أن عهد اليه بالخلافة بعد عبد الملك، على مصر وما تم فتحه من بلاد المغرب . (71).

(68) البلاذري : فتوح البلدان ص 165

(69) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر جـ 3 ص 98 ـ 100، 112 ـ 115

(70) فليب حتى : تاريخ العرب جـ 1 ص 270 ـ 271

(71) أنظر كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص 135 ـ 136.

وسعى عبد الملك إلى إقناع أخيه عبد العزيز بالتنازل عن حقه في الخلافة، فلم يفلح، اذ يروى انه بعد استتباب الامور لعبد الملك «كتب إليه الحجاج أن يبايع للوليد ابنه، ويكتب له عهدة للناس؟ فأبي ذلك عبد الملك، لأن أخاه عبد العزيز كان حيا، ..... وكان عبد العزيز نظير عبد الملك في الحزم والرأي والعقل والذكاء، وكان عبد الملك لايعضل عبد العزيز في شيء الا باسم الخلافة : حتى لربما كان عبد الملك يامر بالشيء، فيريد عبد العزيز غيره، ويرى خلافه، فيرده الى رأيه ولا يمضيه» وبالرغم من ذكر صاحب الامامة والسياسة لتوبيخ عبد الملك للحجاج بقوله : «مالك انت والتكلم بهذه؟» (72) الا ان ما أورده اليعقوبي من تكليف عبد الملك، لأحد مستشاريه. بالقيام بمهمة اقناع أخيه عبد العزيز بخلع نفسه من ولاية العهد، مقابل ولاية مصر وخراجها (73) حتى كتب عبد العزيز إلى عبد الملك قائلا : «انى واياك ياامير المؤمنين قد بلغنا سنـا لم يبلغها أحد من أهل بيتك الا كان بقاؤه قليلا، وانا لاندري أينا يأتيه الموت أولا، فإن رأيت أن لاتفسد علي بقية عمرى فافعل» ونصحه صاحب الخاتم والسكة بالتريث في هذا الأمر، لعل الموت يأتي عبد العزيز فيستريح منه، فكف عبد الملك عنه ونفسه تنازعه (74) الى خلعه، مما يرجح ان ما قيل حول موت عبد العزيز مسموما في 85هـ لايخلو من حقيقة (75). ومهما يكن من الامر فقد توفي عبد العزيز،وهكذا خلف الوليد أباه سنة 86هـ / 705م من غير معارضة .

3 ـ الوليد بن عبد الملك (86 ـ 96 هـ / 705 ـ 715 م) :

ولقد استلم الوليد من أبيه ملكا موطد الدعائم، مما جعل عصره يتميز بالاستقرار، وبوجود نهضة معمارية لم تحدث من قبل منذ ظهور الاسلام، شملت جميع أجزاء الخلافة، فقد كان ذا همة في عمارة المساجد، كما كثرت الابنية في

(72) ابن قتيبة الدينوري : الامامة والسياسة ج 2 ص 44
(73) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 280
(74) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 4 ص 513 ـ 514
(75) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 280

البلاد، حتى ان الناس كانوا يلتقون في زمانه فيسأل بعضهم بعضاً عن البناء (76).

وليس من شك في ان الاثر الرئيسي الذي تقوم عليه شهرة الوليد، من حيث العمران، هو جامع دمشق الكبير الذي يدعى عادة الجامع الأموي .

كانت البساطة هي الطابع الغالب على شكل المكان الذي يفرد للصلاة، فكانت المساجد تتألف من فناء في أحد طرفيه سقيفة، على غرار بيت النبي في المدينة. ولكن هذه البساطة لم تلبث أن أصبحت طرازا قديماً .

والواقع أن معسكرات الجيش الفاتح الاولى، في الكوفة والبصرة بالعراق ،وفي الفسطاط بمصر أيضا، اكتفت بتقليد مسجد الرسول القديم. حتى اذا كانت خلافة عمر وعثمان، وسعا مسجدي المدينة ومكة بعد أن اشتريا المنازل المجاورة لهما، واستعاضا عن السقائف البسيطة، المصنوعة في الغالب من سعف النخل، بسقائف من حجر .

واقتفت الامصار إثر مكة والمدينة، في ذلك. فجهز سعد بن أبي وقاص مسجد الكوفة بأعمدة مأخوذة من مباني الساسانيين وكنائس الحيرة. وفي عهد معاوية ادخلت تحسينات جديدة على مسجدي الكوفة والبصرة. اذ كانت أرض المسجد من التراب، فكان المؤمنون ينفضون آيديهم من ترابها، وخشى زياد بن أبيه أن تصبح هذه الحركة جزءا من الصلاة، ففرش أرض المسجد بالحصباء (77)، كما تفننوا في اقامة القبلة المتجهة نحو مكة، وانشاء دور الدولة الرسمية بعد انتقال امامة الناس في العاصمة والامصار الى الخليفة وعماله .

وفي عهد عبد الملك تعذر على أهل الشام الحج الى الكعبة بسبب استيلاء عبد الله بن الزبير منافسه في الخلافة على مكة، فتركز اهتمام عبد الملك حول بيت

---

(76) مجهول : العيون والحدائق في أخبار الحقائق نشر دي غويه طبعة ابريل 1869 الجزء الخاص بالوليد وسليمان بن عبد الملك تحقيق Anspach Juynb .ص 1 ، 11، المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ج 3 ص 157.
، ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص 113
، عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية، عصر الخلفاء الأمويين ج 2 ص 185.

(77) البلاذري : فتوح البلدان ص 277، بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص 139 ، 140

المقدس، وهناك على الصخرة المقدسةالتي استن عمر نفسه الصلاة عندها، يوم دخل بيت المقدس، شيد عبد الملك قبة الصخرة (78). ثم قام الوليد ببناء المسجد الأقصى ببيت المقدس.

وحتى لاتفتن أنظار المسلمين بكنائس النصارى مثل كنيسة القيامة وأن يجعل الوليد دمشق كعاصمة تليق بمجد الامبراطورية العربية كان انشاء مسجد فيها ضروريـًا لإقامة بيعة الخلفاء الامويين، فحتى وقته كان المسلمون يقيمون شعائرهم الدينية في مسجد صغير بجانب احدى كنائس دمشق الكبرى المسماة كنيسة يوحنا (مارحنا) (79) ولكن الوليد حول هذه الكنيسة إلى مسجد، اذ وسع بها المسجد الملاصق لها وجدده تجديدا رائعـًا. وكذلك أمر بإعادة بناء مسجد المدينة (80)، كما وسع المسجد الحرام بمكة، وحمل اليه عمد الحجارة والرخام والفسيفساء، وابتنى في الشام المدارس والجوامع ووقف المال لبيوت البرص والعرج والعمى ولعله أول ملك في العصور الوسطى شيد المستشفيات للمصابين بالأمراض المزمنة. ولقد اقامت أوربا بعد ذلك مأوى للمصابين بالأمراض الخبيثة تقليدا لما هو شائع في البلدان الاسلامية (81).

ولقد عمل الوليد على الاستغناء عن النصارى بالتدريج في الجهاز الاداري، حتى لقد استغنى عن اسرة سرجون بن منصور التي كانت تدير الشؤون المالية منذ عهد معاوية نفسه (82).

وأما عن الفكرة الرائجة في المصادر العربية حول استعانة الوليد ببنائين من اليونان (الروم) استقدمهم من القسطنطينية للمعاونة في تشييد مشاريعه

---

(78) بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص 140.

(79) كانت في الأصل مركزا لعبادةالإله جوبتر في عهد تراجان الروماني ثم تحولت الى كنيسة للمسيحيين.انظر المقدسي أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص 73.

Sauvaget : Les Monuments Historiques de Damas, Beyrouth, 1932 p. 33

، عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ج 2 ص 186.

(80) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص 217

(81) البلاذري : فتوح البلدان ص 47، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 5 ص 9 ، ابن الفقيه الهمذاني : مختصر تاريخ البلدان ص 106 ـ 107

(82) بروكلمان: تاريخ الشعوب الاسلامية ص 139.

المعمارية (83) فبالرغم من أن روايات بعض المؤرخين المسلمين المتقدمين أمثال البلاذرى والدينورى، اللذان يذكران أن الذين قاموا بتشييد هذه العمائر من صناع البلاد التي فتحها العرب، كقبط مصر وصناع الشام أو الروم المستقرين بالشام أو من عناصر أخرى من فارس والهند والمغرب (84)،الا أن هذا لايمنع من احتمال معاونة بيزنطية للوليـــد اذ اثبت المؤرخ جب اعتمادا على نص لابن عبد الحكم على وجود علاقات تجارية بين البلدين .

ونظرا لولوع الوليد بكل أنواع البناء وبتخطيط الضياع وتحسينها، اذ يروى ابن العبرى انه «كان صاحب بناء واتخاذ للمصانع والضياع». انتقلت هذه الروح منه إلى الناس (85) .

وفي عهد الوليد وصلت الامبراطورية إلى أقصى اتساعها، اذ غدت الفتوحات في عهده من الفتوحات العظيمة، مثل تلك التي كانت في أيام عمـــر ابـــن الخطاب. ومنذ استقرت سيطرة العرب في آرمينية، عادت حملات الشواتي والصوائف، بنفس القوة التي كانت في عهد معاوية. وقد اسند الوليد حرب الروم إلى أخيه الأمير مسلمة بن عبد الملك، وابنه العباس بن الوليد، فاظهر كلاهما قدرة حربية فائقة في قيادة الحملات، وبخاصة مسلمة الذي كان أبوه يسميه ناب بنى

---

(83) اذ يروي كل من الطبري وابن الأثير « بعث الوليد الى ملك الروم يعلمه أنه قد هدم مسجد النبي (ص)، ليعمره، فبعث اليه ملك الروم مائة الف مثقال ذهب ومائة عامل وبعث اليه الفسيفساء باربعين جملا، فبعث الوليد بذلك إلى عمر بن عبد العزيز» انظر الامم والملوك جـ 8 ص 65، الكامل في التاريخ جـ 4 ص 532 .

(84) راجع ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص 98 ـ 99 ، فتوح البلدان ص 6 ـ 7

، الأخبار الطوال ص 313، المقدسى : أحسن التقاسيم ص 73

Sauvaget La Mosquée Omeyyade de Medine, Paris, 1947, 111-112, 156-159

، عبد المنعم ماجد، : التاريخ السياسي للدولة العربية جـ 2 ص 185 ـ 186

،أنظر جب : دراسات في حضارة الاسلام ص 76 .

(85) اذ يروي الطبري ان الوليد كان صاحب بناء واتخاذ المصانع والضياع وكان الناس يلتقون في زمانه فانما يسأل بعضهم بعضا عن البناء والمصانع فولى سليمان فكان صاحب نكاح وطعام فكان الناس يسأل بعضهم بعضا عن التزويج والجواري. فلما ولى عمر بن عبد العزيز كانوا يلتقون فيقول الرجل للرجل ما وردك الليلة وكم تحفظ من القرآن ومتى تختم ومتى ختمت وما تصوم من الشهر.انظر الامم والملوك جـ 8 ص 98. وابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص 113.

أمية،كما أسند استكمال فتح المغرب وفتح الاندلس، لموسى بن نصير. وفي نفس الوقت كان الحجاج بن يوسف الثقفي أمير العراق والمشرق كله، قد وضع خطة الفتوح في الشرق، وقام على تنفيذها، مما أدى إلى ضم املاك جديدة في آسيا (ماوراء النهر واقليم السند) (86).

وكان الوليد أراد أن يخلع أخاه سليمان ويبايع لولده عبد العزيز، فأبى سليمان، فكتب إلى عماله ودعا الناس الى ذلك، فلم يجبه إلا الحجاج وقتيبة وخواص من الناس، فكتب الوليد إلى أخيه سليمان يأمره بالقدوم عليه، فأبطأ، فعزم الوليد على المسير إليه ليخلعه، فمات قبل أن يسير اليه (87) .

4 ـ سليمان بن عبد الملك (96 ـ 99هـ / 715 ـ 717م)

ولما آلت الخلافة إلى سليمان بن عبد الملك، كان أول أعماله التنكيل بولاة أخيه، خصوصاً الذين اشتركوا في تأييد أخيه الوليد لنقل الخلافة منه إلى ابنه عبد العزيز .

وأولهم آل الحجاج بن يوسف الثقفي، اذ يبدو أن بعض خواص الوليد وعلى رأسهم الحجاج، حرضوا الوليد على عدم تولية سليمان الخلافة من بعده بناء على توصية عبد الملك، وتولية عهده لابنه عبد العزيز. وسبب موقف الحجاج هذا يرجع لتحدى سليمان ـ كولي للعهد ـ له وايوائه ليزيد بن المهلب بعد عزله من خراسان وهروبه من حبسه في العراق، حيث آواه سليمان وحماه. لذلك بغض سليمان، الحجاج وأهله وولاته، وخشى الحجاج أن يموت الوليد قبله فيقع في يد سليمان، ولم ينقذه من بطش سليمان الا الموت، اذ توفى قبل وفاة الوليد بفترة قصيرة .

ورغم ذلك فقد استعمل سليمان على العراق، يزيد بن المهلب والياً، وصالح ابن عبد الرحمن، على الخراج «وأمره بقتل بني عقيل وبسط العذاب عليهم وهم أهل الحجاج، فكان يعذبهم ويلى عذابهم عبد الملك بن المهلب» (88) .

---

(86) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 4 ص 523 ، 524، 531، 537 ، 556.
، عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ج 2 ص 193 ، 195 ، 208
(87) أنظر ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 5 ص 10.
(88) الطبري : تاريخ الامم والملوك ج 8 ص 71 ـ 74 ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 5 ص 11.

وثانيهم قتيبة بن مسلم الباهلي، والي خراسان، وقائد الفتوحات المظفرة في ما وراء النهر. وكان بخراسان يومئذ من أهل البصرة والعالية (89) من المقاتلة تسعة الاف ومن بكر بن وائل سبعة آلاف، برئاسة حضين بن المنذر، ومن تميم عشرة آلاف، برئاسة ضرار بن حصين، وعبد القيس أربعة آلاف برئاسة عبد الله بن علوان، والازد عشرة آلاف برئاسة عبد الله بن حوذان. ومن أهل الكوفة سبعة آلاف، برئاسة جهم بن زحر، والموالى سبعة آلاف، برئاسة حيان النبطى مولى بنى شيبان، وهو من الديلم، وقيل من خراسان .

ونظرا للاغلبية المضرية بخراسان إذ كانت مضر بخراسان كثيرة وتميم أكثرها وهم فرسان خراسان ولا يرضون أن يصير الأمر في غير مضر»

لذلك ارسل قتيبة، كتابا إلى سليمان يهنئه بالخلافة ويذكر بلاءه وطاعته لعبد الملك والوليد وانه له على مثل ذلك ان لم يعزله عن خراسان. وكتب إليه كتابا اخر، يذم أهل المهلب ويحلف بالله لئن استعمل يزيد ابن المهلب على خراسان ليخلعنه. وكتب كتابا ثالثا فيه خلع سليمان وبعث الكتب مع رجل من عرب باهلة وأمره بدفع الكتاب الأول إليه فان كان يزيد حاضرا وقرأ سليمان كتابه ثم ألقاه إلى يزيد، فاليدفع إليه كتابه الثاني فان قراه ودفعه إلى يزيد، فاليدفع الثالث. فإن قرأ الاول ولم يدفعه إلى يزيد فاليحبس الكتابين الاخرين.

وفي نفس الوقت جمع قتيبة، زعماء القبائل العربية بخراسان، وأعلن خلع سليمان ـ بناء على نصيحة اخوته ـ فلم يجبه أحد منهم، فخاطبهم غاضبا : «ياأهل السافلة، ولا اقول يا أهل العالية، أو باش الصدقة ....! يامعشر بكر بن وائل ! يا أهل النفخ والكذب والبخل ... يا أصحاب مسيلمة ! يابنى ذميم، ولا أقول تميم ! يا أهل الجور والقصف كنتم تسمون الغدر في الجاهلية كيسان ! يا أصحاب سجاح ! يا معشر عبد القيس القساة تبدلتم بتابير النخل أعنة الخيل ! يا معشر الازد تبدلتهم بقلوس السفن اعنة الخيل .... الاعراب وما الاعراب لعنة الله عليهم ! .... جمعتكم من منابت الشيح والقيصرم تركبون البقر والحمر، فلما جمعتكم قلتم كيت وكيت ».

(89) وأهل العالية هم قريش وكنانة والازد وبجيلة وخثعم وقيس عيلان كلها ومزينة.انظر ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 5 ص 71.

وبينما نجح رسول قتيبة الى سليمان وعاد بعهد قتيبة على خراسان، تملك الغضب زعماء العرب لإهانتهم فتا مروا ضده ونجحوا في التخلص من قتيبة واخوته وأنصاره. (90).

وثالثهم محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن ابي عقيل الثقفي، فاتح السند. لأنه كان من اقرباء الحجاج وعامله. وبالرغم انه لم يحاول أن يشق عصا الطاعة على الخليفة، وان جند الشام ربما كانوا على استعداد لتأييده. فقد قام يزيد بن أبي كبشة السكسكى عامل السند الجديد بالقبض على محمد وقيده وحمله الى العراق حيث حبسه صالح بن عبد الرحمن بمدينة واسط فقال متمثلا :

أضاعوني وأي فتـى اضـاعـوا   ليوم كريـهـة وسـداد ثغـر

فعذبه صالـح في رجال من آل أبي عقيل حتى قتلهم وقد كان موت محمد خسارة فادحة، ابكت أهل الهند أنفسهم لعدالته (91).

ورابعهم موسى بن نصير اللخمي، والي بلاد المغرب والاندلس، وقائد فتوحات الأندلس مع مولاه طارق بن زياد. وبعد انتهاء فتح الأندلس انتهت ولاية موسى ابن نصير للمغرب، اذ استدعاه الخليفة الوليد بن عبد الملك ليعرفه بما تم على يديه من الفتوح، وليحاسبه عما حصل عليه من الأموال والذخائر، فاستخلف ابنه عبد العزيز على الأندلس، واستصحب طارق بن زياد إلى المغرب حيث ولى ابنه عبد الملك على طنجة وابنه الأكبر عبد الله واليًا على افريقية (92).

وخلال مرور الموكب بفلسطين، استقبله آل روح بن زنباع استقبال الملوك المنتصرين فنحروا له خمسين بعيرا ، فاجزل لهم العطاء، ثم وفاه كتاب الخليفة الوليد، يأمره بشد السير اليه، ليدركه في قيد الحياة، ووافاه كتاب من سليمان ابن عبد الملك، يأمره بالتأنى والتربص. فأسرع موسى إلى دمشق ووصل إلى الوليد

(90) أنظر ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 5 ص 13 ـ 17

(91) البلاذري : فتوح البلدان ص 428 ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 4 ص 588 ـ 589.

(92) الرقيق القيرواني : تاريخ افريقية والمغرب ص 87 ـ 88، ابن عذارى : البيان المغرب ج 1 ص 44

قبل موته بثلاثة أيام، ولم ينظر في كتاب سليمان فقال سليمان «لئن ظفرت به، لأصلبنه» (93).

وما ان توفى الوليد، حتى حاسب سليمان، موسى حسابًا شديدا، ولم يعدم الشهود الذين يشهدون بسوء تصرف موسى في الأموال والذخائر. ومن هؤلاء رجل من أهل المدينة هو عيسى بن عبد الله الطويل، الذي كان يشغل منصب صاحب المغانم أو المقاسم في جيش موسى. فقد شكا لسليمان، وقال له : «ان الله اغناك بالحلال عن الحرام ... ان موسى لم يخرج خمسا من جميع ما آتاك به» مما دعا سليمان إلى ادخال كل ما أتي به موسى إلى بيت المال. وانتهى الأمر بتعذيب موسى، واغرامه مبالغ كبيرة من المال ثم وفاته في تلك الظروف التعسة (94).

وعلى الرغم من ذلك، فقد «كان الناس يقولون سليمان مفتاح الخير ... ولى سليمان فاطلق الاسرى وأخلى السجون وأحسن إلى الناس» (95) ويضيف المسعودي انه «كان يلبس الثياب الرقاق وثياب الوشى، وفي ايامه عمل الوشى الجيد باليمن والكوفة والاسكندرية، ولبس النّاس جميعا الوشى جبابا وأردية وسراويل وعمائم وقلانس، وكان لايدخل عليه رجل من أهل بيته الا في الوشى، وكذلك عماله وأصحابه ومن في داره وكان لايدخل عليه أحد من خدامه إلا في الوشى، حتى الطباخ، فإنه كان يدخل إليه في صدره وشى وعلى رأسه طويلةوشي وأمر أن يكفن في الوشى المثقلة.»

ويروى الاصمعى مدى نهم سليمان قال « كان ربما أتاه الطباخون بالسفافيد التي فيها الدجاج المشوية وعليه جبة الوشى المثقلة، فلنهمه وحرصه على الأكل، يدخل يده في كمه حتى يقبض على الدجاجة وهي حارة فيفصلها» وكان شبعه في كل يوم من الطعام مائة رطل بالعراقي، ويروى أن سليمان خرج من الحمام ذات يوم وقد اشتد جوعه، فاستعجل الطعام، ولم يكن فرغ منه، فأمر أن يقدم عليه مالحق من

---

(93) ابن عذارى : البيان المغرب ج 1 ص 45. وقارن المقرى : نفح الطيب ج 1 ص 280 ـ 281 .

(94) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص 211، الرقيق القيرواني : تاريخ افريقية والمغرب ص 91، ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج 2 ص 76 ـ 77، سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ج 1 ص 251 ـ 253.

(95) انظر ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 5 ص 37.

الشواء، فقدم إليه عشرون خروفا، فأكل أجوافها كلها مع أربعين رقاقة، ثم قرب بعد ذلك الطعام فأكل مع ندمائه كأنه لم يأكل شيئا (96).

ونتيجةلما ساد عصره من تفنن في الثياب والطعام، اشتهر سليمان بانه صاحب نكاح وطعام حتى يقال انه لبس يوما حلة خضراء وعمامة خضراء ونظر في المرآة فقال : «انا الملك الفتى» (97) وفي رواية أخرى «انا الملك الشاب، السيد المهاب، الكريم الوهاب» (98). وكيفما كانت الروايات فقد كان سليمان يردد دائما «قد اكلنا الطيب، ولبسنا اللين، وركبنا الفاره، ولم يبق لي لذة الا صديق أطرح معه فيما بيني وبينه مؤنة التحفظ» (99).

وبالرغم من بعض سلبيات عصر سليمان، الا أن الفتوحات لم تقف : فقد عاد العرب الى مهاجمة صقلية والقيام بمحاصرة القسطنطينية كما نجح سليمان على يد يزيد بن المهلب عامله على العراق والشرق من فتح منطقة شمال هضبة ايران حول بحر قزوين حيث كانت مستقلة بأيدي حكامها من العجم أو الترك (100).

اما بالنسبة لولاية العهد، فقد كان عبد الملك قد عقد البيعة لإبنه يزيد على ان يتولى الخلافة بعد الوليد وسليمان ابنيه.واخذ عبد الملك العهد من الوليد وسليمان على ذلك. ولكن سليمان لم يلتزم العهد، فعهد إلى ابنه أيوب بالخلافة اولا، ولكن ايوب مات في حياة سليمان نفسه، وقبل ان يجعل سليمان الخلافة في ابنه الثاني داود، كان سليمان على فراش الموت. عند ذلك تدخل الفقيه رجاءابن حيوه واقنع سليمان بان يرضى الله بوصية يستخلف فيها على المسلمين الرجل الصالح، فتخطى سليمان الورثة المباشرين، وعهد بالخلافة إلى ابن عمه الورع التقى، عمر بن عبد العزيز بن مروان، على ان يكون العهد بعده ليزيد بن عبد الملك. وتوفى سليمان في 99هـ/ 717م.

---

(96) المسعودي : مروج الذهب جـ 3 ص 175

(97) ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ 5 ص 37

(98) المسعودي : مروج الذهب جـ 3 ص 176.

(99) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ 5 ص 176.

(100) ابن الخياط : تاريخ خليفة بن خياط جـ 1 ص 422 ـ 425.

5 ـ عمر بن عبد العزيز (101) (99 ـ 101هـ / 717 ـ 720 م)

واخفى رجاء بن حيوة وفاة سليمان، ثم جمع أهل بيت سليمان في مسجد دابق، وطلب منهم المبايعة على عهد سليمان مرة ثانية، وبعد مبايعتهم أعلن وفاته وقرا عهده :

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر ابن عبد العزيز، انى قد وليتك الخلافة بعدى ومن بعدك يزيد بن عبد الملك، فاسمعوا له واطيعوا واتقوا الله ولا تختلفوا فيطمع فيكم.

ولكن سرعان ما ظهر معارضة بنى مروان لهذا الاختيار،فقد نادى هشام بن عبد الملك «لا نبايعه والله أبدا» فأجابه رجاء : «اضرب والله عنقك، قم فبايع، فقام يجر رجليه». (102).

كما قام عبد العزيز بن الوليد وكان غائبا عند موت سليمان بالثورة فعقد لواء ودعا إلى نفسه خليفة لسليمان، وحينما علم ببيعة عمر بعهد من سليمان، سارع بالعودة إلى دمشق حيث أعلن مبايعته ورضاه وحينما عاتبه . عمر على ثورته،

---

(101) وعمر ولد في مصر سنة 61 هـ وهو ابن عبد العزيز بن مروان امير مصر ، وولي عهد عبد الملك. اذ ان مروان كان قد بايع لعبد الملك ولعبد العزيز من بعده، فولى عبد العزيز على مصر في حياة ابيه، وبقي فيه في خلافة عبد الملك. ولكن عبد الملك اراد ان ينحي عبد العزيز عن ولاية عهده، اذ لم يكن اخاه من أمه ـ اذ كانت ام عبد الملك اسمها عائشة بنت معاوية وأم عبد العزيز اسمها ليلى بنت زبان ـ والمبايعة لابنه الوليد.ويروي المؤرخون ان الحجاج هو الذي زين لعبد الملك بيعة الوليد، وأرسل له وفدا. ولكن عبد العزيز قاوم، ورفض ان يجعل الوليد، حتى في ولاية عهده من بعده وقد هم عبد الملك بخلعه لولا انه تريث الى أن توفي عبد العزيز في حياته سنة 704/85 م.

وأم عمر هي ابنة عاصم بن عمر بن الخطاب ، وكان ذلك موضع فخره الشديد في المدينة حيث انفق أيام شبابه يعايش تابعي الرسول الاتقياء ويخالطهم وكان على اوثق الصلات بهم عندما عينه الوليد اميرا على الحجاز فدعا عشرة من الفقهاء الاتقياء والف منهم مجلسا دائما يستشيره فلا يقطع أمرا الا برأيه، ضامنا بهذا ان تجيئ اعماله كلها وفقا لسنة الرسول (ص). ولكن الحجاج ما لبث ان حمل الوليد على عزله، بسبب من أنه فتح أبواب المدينة في وجه اللاجئين من العراق، وان لم يفقد الوليد حبه له واعجابه به. أنظر ابن سعد : الطبقات الكبرى ج 5 ص 24، 173 ، 175.

، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 4 ص 514،513 ، 526، 577

، صلاح الدين المنجد : معجم بني أمية ص 132 ، 133.

(102) الطبري : تاريخ الامم والملوك ج 8 ص 129 ـ 130.

اجابه عبد العزيز بن مروان :«قد كان ذاك، وذلك انه بلغنى آن سليمان لم يكن عهد لاحد فخفت على الاموال أن تنهب» (103).

وما ان استقرت البيعة لعمر بن عبد العزيز، حتى أوضحت أعماله، ورعه وتقواه.

إذ يروى الطبرى انه «أتى بمراكب الخلافة والبرازين والخيل والبغال ولكل دابة سائس، فقال : ماهذا، قالوا : مركب الخلافة، قال: دابتي أوفق لى وركب دابته» وامر بها فبيعت وجعل أثمانها في بيت المال .

وحينما عرض عليه الانتقال إلى قصر الخلافة على الفور أجاب: «فيه عيال أبى ايوب، يعنى سليمان، وفي فسطاطيكفاية حتى يتحولوا، فأقام في منزله حتى فرغوه» .

ثم رد المظالم، وهو تعبير في العالم الاسلامى يدل على الظلم الذي يأتى من التعدى أو الفساد، وعجز القضاة العاديون لسبب ما عن النظر فيه، فيرفع امره الى الخليفة مباشرة. فهذا النوع من القضاء يتناول على الخصوص تصرفات الولاة والدواوين، ولا يشترط في نظره البينة القاطعة، وانما بأيسر من ذلك، وذلك لما كان يعرف من غشم الولاة للرعية. فكان الخليفة عمر متحمساً لهذا القضاء لأنه يرتبط بالعدل والاسلام، فضلا عن انه فيه اعلاء لشأن العرب، عن طريق انهم أمة العدل (104).

اضف إلى ذلك انه نظم السجون لأول مرة، فأوجد لها الديوان وفصل بين حبس الرجال والنساء، وبين أهل الجرائم، ومن حبس في دين وقد أمر الا يقيد أحد في المحابس، وكتب للمسجونين من أي لون برزق الصيف والشتاء شهرا شهرا، وبكسوة في الصيف وكسوة في الشتاء، وسمح للمسلمين منهم بأن يؤدوا فروض الدين (105) .

كما سارع الى استرضاء العلويين، فأمر عماله بترك سب على بن أبى طالب على المنابر،اذ كان بنوا أمية يسبون علي بن أبي طالب منذ ولاية معاوية بن أبى

(103) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 5 ص 41

(104) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج 5 ص 252، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 5 ص 63، 64، عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ج 2 ص 261.

(105) ابن سعد : الطبقات ج 5 ص 252، 253، 257 ، 262 ، 263 ، 271، ابن الأثير : الكامل ج 5 ص 157.

سفيان حتى عصره. وأمر بقراءة عوضه «إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى» (106).

وكتب إلى عامله بالمدينة أن يقوم بتوزيع عشرة آلاف درهم على أولاد علي بن ابي طالب من زوجته فاطمة بنت الرسول (ص) معلقا «فطالما تخطتهم حقوقهم» (107).

واعاد عمر اليهم واحة فدك التي سبق للرسول (ص) ان احتفظ بها لنفسه بعد الفتح ثم صارت من أملاك الدولة بناء على مبدأ أن الأنبياء لا يورثون. فاحضر عمر قريش ووجوه الناس فقال لهم : «ان فدك كانت بيد رسول الله (ص)، فكان يضعها حيث أراه الله. ثم وليها أبو بكر كذلك وعمر كذلك، ثم اقطعها مروان، ثم انها صارت إلى ولم تكن من مالى أعود منها علي، وانى اشهدكم أني قد رددتها على ما كانت عليه في عهد رسول الله (ص)» (108).

اما بالنسبة للخوارج، فحينما ثار شوذب الخارجي واسمه بنسطام من عرب بنى يشكر على راس ثمانين رجلا من ربيعة، عمل على استئلافهم فأمر عامله على الكوفة بعدم حربهم إلا إذا سفكوا الدماء وفسدوا في الارض وفي نفس الوقت كتب إلى رئيسهم «بلغنى انك خرجت غضبا لله ولرسوله، ولست أولى بذلك منى. فهلم الى اناظرك، فإن كان الحق بايدينا دخلت فيما دخل الناس، وان كان في يدك نظرنا في أمرنا» فاوفد اليه شوذب هذا، رجلين، الأول مولى لبنى شيبان حبشيا اسمه عاصم والثاني رجلا من بنى يشكر وتمكن عمر من اقناعهما، حتى قال عاصم. أشهد

---

(106) القران الكريم : سورة النحل 16 آية 90. وقيل بل جعل مكانه «ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا، ربنا انك رؤوف رحيم» المسعودي : مروج الذهب ج 3 ص 184.

ويروي ابن الأثير ان سبب محبة عمر لعلي بن أبي طالب تعود الى خلال فترة تعلمه العلم بالمدينة وتأثره بمعلمه عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود المعجب بعلي، وكذلك الى ملاحظته لابيه عند الخطبة وسبه علي وتلجلجه. وحينما استفسره بقوله : «ياأبة انك تمضي في خطبتك فاذا أتيت على ذلكر علي عرفت منك تقصيرا ؟ فأجابه ابوه.«أو فطنت لذلك ؟ ... يابني ان الذين حولنا لو يعلمون من على ما نعلم تفرقوا عنا الى أولاده».

أنظر الكامل في التاريخ ج 5 ص 42 ، 43.

(107) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ج 3 ص 184 ـ 185.

(108) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 5 ص 63.

انك على حق وأقام عند عمر فامر له بالعطاء اما زميله الثاني فقد قال: ما أحسن ما وصفت ولكني لا افتات على المسلمين بأمرٍ، أعرض عليهم ماقلت وأعلم ما حجتهم، المهم ان الخوارج ظلوا هادئين طوال عهد عمر بن عبد العزيز الذي استمر لمدة سنتين وخمسة شهور تقريبا. (109).

أما فيما يتعلق بمعاملة عمر بن عبد العزيز لأهل الأديان الاخرى فإن تيوفانيس يزعم أنه لما «حدث في تلك السنة (6210 من تاريخ الخليقة) زلزال كبير في الشام حرم عمر النبيذ في المدن واكره النصارى على الدخول في الاسلام، وكان من فعل ذلك رفع عنه الجزية، أما من لم يفعل فإنه قتلهم. وقد استشهد كثيرون، وامر بألا تقبل شهادة نصراني على عربي، وكذلك وجه إلى القيصر ليو Leo كتابا بين له فيه عقيدة الإسلام أملا في ان يقنعه بالدخول فيه» ويعلق على ذلك فلهوزن بقوله : وفي الذي يذكره تيوفانيس خلط بين باطل وحق، أما الحق فهو ان عمر بن عبد العزيز كان مسلما متحمسا وأن النصارى احسوا بذلك، ولكن عمر لم يكره النصارى على الدخول في الاسلام مهددا اياهمبالقتل ... وهو فيما يتعلق بالنصارى قد التزم حدود الشرع التزاما تامًا ... وقد حمى عمر للنصارى ملكيتهم لكنائسهم القديمة التي ضمنها لهم الصلح، ولم يكن يمنع الا بناء كنائس جديدة (110).

اذ يروى البلاذرى «خاصم حسان بن مالك عجم أهل دمشق إلى عمر بن عبد العزيز، في كنيسة كان رجل من الأمراء اقطعه اياها، فقال عمر : ان كانت من الخمس عشرة كنيسة التي في عهدهم فلا سبيل لك عليها ». ثم يضيف عن على بن أبي حملة «خاصمنا عجم أهل دمشق إلى عمر بن عبد العزيز في كنيسة كان فلان قطعها لبنى نصر بدمشق، فأخرجنا عمر عنها وردها إلى النصارى» (111).

وبعد قيام الوليد بن عبد الملك بالاستيلاء على كنيسة يوحنا لزيادتها في مسجد دمشق - بعد ان رفض النصارى بيعها - وهدمها وأدخلها في المسجد. شكى

---

(109) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر جـ 3 ص 190 ـ 193
، ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ 5 ص 45 ـ 48.

(110) انظر فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص 289 ـ 290.

(111) أنظر البلاذري : فتوح البلدان ص 130، ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق جـ 1 ص 24، ترتون : اهل الذمة في الاسلام ص 39.

النصارى إلى عمر بن عبد العزيز-بعد استخلافه ــ إمـافعل الوليد، فكتب عمر الى عامله يامره برد مازاده في المسجد عليهم، فكره أهل دمشق ذلك اذ كيف يهدمون مسجدهم بعد أن أذنوا فيه وصلوا. فطالب فقهاء دمشق وعلى رأسهم سليمان ابن حبيب المحاربي، ، من النصارى، رد جميع كنائس الغوطة التي أخذت عنوة وصارت في ايدي المسلمين خلال فترة الفتوحات الأولى أو يتغاضون عن المطالبة بكنيسة يوحنا، ففضل النصارى التغاضى عن المطالبة بكنيسة يوحنا التى أخذها منهم الخليفة الوليد، والاحتفاظ بكنائس الغوطة. (112).

وفي مصر تحول كثير من أهلها من القبط الى الاسلام منذ الفتح العربي لها، ويلاحظ أن خراج البلاد كان دائمًا في النقصان سنويـًا. وذلك بسبب دخول عدد كبير منهم في الدين الاسلامى ويمثل النقصان في الخراج خلال خلافة عمر بن عبد العزيز ظاهرة تستحق التامل والتفكير، حتى ان والي مصر وهو أيوب بن شرحبيل ابن ابرهه بن الصباح (113) اقترح ألا يعفي من يدخلون في الاسلام بعد ذلك من اداء الجزية ولكن الخليفة التقي أبى أن يجيب هذا الوالي الى طلبه قائلا أن الله بعث محمدا داعيـًا ولم يبعثه جابيـًا. (114).

وينسب إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز أنه أمر بمنع بناء الكنائس، الا ان هذا الامر مشكوك فيه اد خلت المصادر المسيحية تماما من الاشارة إليه، بل إن ساويرس بن المقفع يذكر أنه أمر بإعفاء الاساقفة والكنائس من الخراج (115) كما يضيف الطبرى انه كتب إلى ولاته: «لا تهدموا كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار، صولحتم عليه» والموجودة يومذاك، على الا يأذنوا بإقامة آخريات جديدة. (116)

أما بالنسبة للجزية المفروضة على نصارى ايلة وقبرص، وزيدت بمرور السنوات لاسباب مختلفة، فلما جاء عمر بن عبد العزيز، أسقط مازيد على أهل قبرص وأمر بالا يزاد على ما صولح عليه أهل ايلة شيئـا .

(112) البلاذري : فتوح البلدان ص 132، فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص 290.

(113) تاريخ خليفة بن خياط ج 2 ص 124.

(114) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج 5 ص 283.

(115) سعيد عاشور : اوربا العصور الوسطى ج 1 ص 129 وما بعدها، سيده كاشف : مصر في عصر الولاة ص 121، قاسم عبده قاسم : أهل الذمة في مصر العصور الوسطى ص 33

(116) الطبري : الامم والملوك ج 8 ص 141.

ويروى البلاذرى «ان عمر بن عبد العزيز كان لايزداد من اهل ايلة على تلاثمائة دينار شينا» ويضيف الواقدى «لم يزل أهل قبرص على صلح معاوية حتى ولى عبد الملك بن مروان فزاد عليهم الف دينار فجرى ذلك الى خلافة عمر بن عبد العزيز فحطها عنهم» (117).

وكان الرسول قد صالح نصارى نجران على الفي حلة، مقابل ذمة الله وعهده، ولكن عمر بن الخطاب اضطر إلى اجلائهم من بلادهم كما سبق أن أوضحنا (118) مقابل الشراء او المبادلة بغيرها، واستمر سوادهم في النجرانية قرب الكوفة، فلما جاء عثمان بن عفان حط عنهم مائتي حله، ثم حط عنهم معاوية مائة أخرى، لأن عددهم كان قد تناقص بمن مات او دخل في الاسلام. فلما جاء الحجاج زاد عليهم مائتي حله - لانه اتهمهم بموالاة ابن الاشعث - فلما جاء عمر بن عبد العزيز شكوا اليه فناءهم ونقصانهم وتحميلهم اياهم المؤن. فأمر عمر باحصائهم، فتبين انهم عشر عددهم ايام الرسول اذ وجد انهم اربعة الاف بعد أن كانوا أربعين ألفا، فانقص عمر ماكانوا صولحوا عليه الى العشر، فألزمهم مائتي حلة بدلا من ألفين (119).

ونظرا لان عمر بن عبد العزيز كان مسلما متحمسا، وهو فيما يتعلق بالنصارى قد التزم حدود الشرع إلتزاما تاما، فكما حرص على اعطاء النصارى حقوقهم التي منحها الاسلام لهم، كذلك فقد عمل على غل ايدي النصارى واليهود عن حقوق المسلمين وكرامتهم اذ امر عمر بتوزيع كتاب من نسخة واحدة على جميع عماله يقول فيه : «اما بعد فإن الله، عز وجل، أكرم بالإسلام أهله، وشرفهم وأعزهم، وضرب الذلة والصغار على من خالفهم، وجعلهم خير امة اخرجت للناس، فلا تولين أمور المسلمين احدا من اهل ذمتهم وخراجهم فتتبسط عليهم أيديهم وألسنتهم فتزلهم بعد ان عزهم الله، وتهينهم بعد ان اكرمهم الله تعالى، وتعرضهم لكيدهم والاستطالة عليهم، ومع هذا فلا يؤمن غشهم إياهم، فإن الله، عز وجل، يقول :

---

(117) أنظر البلاذري : فتوح البلدان ص 71 ، 159 ، فلهوزن : الدولة العربية ص 291.

(118) راجع ادارة الدولة الاسلامية والمناطق المفتوحة .

(119) البلاذري : فتوح البلدان ص 75 ، 79. ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 2 ص 294 ـ 296

لاتتخذوا بطانة من دونكم لا يالونكم خبالا ودوا ماعنتم»، (120) و «لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياء بعضهم اولياء بعض» (121) والسلام. (122).

ولذلك فقد تمسك عمر بن عبد العزيز بضرورة التمييز بين النصارى والعرب، على انه يجب ان نلاحظ انه لم تكن ثمة ضرورة. وقت الفتح لالزام النصارى بلبس نوع معين من الثياب يخالف ما يلبسه المسلمون، إذ كان لكل من الفريقين وقتذاك ثيابه الخاصة. وكان النصارى يفعلون ذلك من تلقاء أنفسهم دون جبرأو الزام، على ان الحاجة استلزمت هذه الفروض فيما بعد، إذ حمل الاغراء الشعوب الخاضعة لهم على الاقتداء بهم في ملبسهم والتشبه بهم في ثيابهم. (123)

وبالرغم من قلة روايات المؤرخين عن ملابس الذميين بصفة عامة، إلا أن مراسيم عمر بن عبد العزيز بشأن الملابس كثيرة، فيذكر ابن عبد ربه في كتابه العقد الفريد، أن الخليفة حرم على جميع الذميين لبس العمائم أو التشبه بالمسلمين في ثيابهم، ويقول ابن العبرى انه منع النصارى من ارتداء ملابس الجند العرب، ويشير مؤرخ سرياني اخر إلى أنه منعهم من وضع السروج على الخيول. ويكرر أبو يوسف ذكر منع استعمال السروج، ويضيف إلى ذلك أن نساءهم كان لابد لهن من إستعمال الرواحل حين ركوبهن الجمال. ثم يسهب في ذكر تفاصيل الملابس .

والمعروف ان عمر بن عبد العزيز نهى عن لبس القباء وأثواب الخز والعصب، وتشكى من انهم أهملوا «الزنار» ولبسوا العمائم وتركوا التقصيص فطالت شعورهم (124). أما ابن عساكر فيشير إلى أن الخليفة منعهم من الظهور في الأماكن العامة الا مفروقى الناحية، وألا يلبسوا قباء ولا يمشوا بزنار من جلد، ولا يلبسوا طيلسانا أو سراويل ذات خذمة، ولا يلبسوا نعلا ذا عذبة، وحرم عليهم ركوب السروج. وتذكر المصادر ان قوما من بنى ثعلبة جاءوه ذات مرة وافضوا اليه بانهم نصارى وسألوه أن

---

(120) القرآن الكريم : سورة 3 آية 118.

(121) القرآن الكريم : سورة 5 آية 51.

(122) انظر ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ 5 ص 66.

(123) ترتون : أهل الذمة في الاسلام ص 127 ـ 128.

(124) أبو يوسف : كتاب الخراج ص 73.

Bar Hebraeus : Chronicle p. 117

Anonymous . Syriac Chronicle, Vol. I, p. 307

يدلهم على ما يفعلونه، فدعى إليه حجاما جز نواصيهم وشق من ارديتهم حزما يحتزمون بها ، ونهاهم عن الركوب بالسروج، وأمرهم أن يركبوا بالأكف من شق واحد . (125) .

وكيفما كان موقف عمر بن عبد العزيز من النصارى ، فيكفى أن أحد الكتاب النساطرة في القرن الثاني عشر الميلادي – بعد وفاة عمر بن عبد العزيز بخمسة قرون – يستنزل رحمة الله على عمر بن عبد العزيز عند ذكره (126).

واهم أعمال عمر بن عبد العزيز، هي كسب الشعوب المفتوحة إلى الاسلام وذلك بالتنبيه على عمال الخلافة بالسهر على مصالح رعاياهم فأعيدت أرض كثيرة إلى اصحابها من أهل الذمة، كما قام بتنظيم الضرائب، فقد فرض عمر بن الخطاب في خلال فترة حكمه ضريبتا الخراج والجزية على سكان البلاد المفتوحة .

والجزية والخراج، يؤخذان في الاول «عن مشرك صغارا له وذلة، والثاني أنهما مالا فيء يصرفان في أهل الفيء، والثالث أنهما يجبان بحلول الحول ولا يستحقان قبله (127).

والجزية (128) فرضت على المشركين في قوله تعالى «قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الاخر ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون» (129) ولذلك فالجزية فرضت بنص وحدد الشرع حدها الادنى بإثنى عشر درهمًا أو دينار في العام وترك تحديد، حدها الأقصى للولاة حسب الظروف ومستوى معيشة المشرك، وتسقط هذه الجزية بدخول المشرك، الاسلام .

---

(125) ابن عساكر : تأريخ مدينة دمشق ج 1 ص 180، عبد الله بن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص 166 الابشبهي : المستظرف ج 1 ص 104 . ترتون : اهل الذمة في الاسلام ص 129.

(126) انظر توماس ارنولد : الدعوة الى الاسلام ص 466.

(127) الماوردي : الاحكام السلطانية ص 142.

(128) والجزية وجبت على أهل الكتاب كما وجبت الزكاة على المسلمين حتى يتكافأ الفريقان، وهما رعية لدولة واحدة في المسؤولية، كما تكافآ في التمتع بالحقوق وتساويا في الانتفاع بالمرافق العامة للدولة «اذ ليس في مواشي اهل الذمة من الابل والبقر والغنم زكاة»كما يلاحظ ان الشرع لم يفرض الجزية الا على الاشخاص الذين لم يجب عليهم الجهاد لو كانوا مسلمين، وانه اعفى منها الاشخاص الذين يعفيهم من القتال. انظر ابو يوسف : كتاب الخراج ص 69 ــ 72.

(129) القران الكريم : سورة التوبة 9 اية 29.

« ولا تجب الجزية إلا على الرجال الأحرار العقلاء، ولا تجب على امرأه ولا صبى ولا مجنون ولا عبد لانهم اتباع وذرارى» (130).

اما الخراج فهو إجتهاد ويجب أن يراعى واضع الخراج في كل أرض ما تحتمله، فانها تختلف من ثلاثة أوجه يؤثر كل واحد منها في زيادة الخراج ونقصانه: أحدها ما يختص بالأرض من جودة يزكو بها زرعها او رداءة يقل بها ريعها. والثاني ما يختص بالزرع من اختلاف انواعه من الحبوب والثمار، فمنها ما يكثر ثمنه، ومنها ما يقل ثمنه، فيكون الخراج بحسبه. والثالث ما يختص بالسقي والشرب، لأن ما التزم المؤنة في سقيه بالنواطح (يستقى بواسطة البعير) والدوالي، لايحتمل من الخراج ما يحتمله سقي السيوح (الماء الجاري على وجه الأرض) والأمطار (131).

كما قرر عمر بن الخطاب على أهل القرى من البلاد المفتوحة ــ من دون المدن ــ ضيافة العرب إذا مروا بهم ثلاثة أيام.وإذ يروى الماوردى «واذا صولحوا على ضيافة من مر بهم من المسلمين قدرت عليهم ثلاثة أيام وأخذوا بها لايزادون كما صالح عمر، نصارى الشام على ضيافة من مر بهم من المسلمين ثلاثة أيام مما يأكلون، ولا يكلفهم دبح شاة ولا دجاجة وتبييت دوابهم من غير شعير وجعل ذلك على أهل السواد (القرى) دون المدن» (132) وأن يترك لأهل القرى الحرية في أن يذهبوا من قراهم الى الامصار او المدن للاستقرار فيها .

ولكن عمال الخلفاء الامويين، الذين اهتموا بجمع المال المستخرج من البلاد المفتوحة اهتماما شديدا، حتى أنه وجد في عهدهم منذ معاوية وظيفة والى الخراج، رأوا في إسلام أهل الشعوب المفتوحة خرابًا لخزانة الخلافة بحرمانها من الضريبتين، وخرابا للزراعة لنقص الأيدي العاملة بهجرتها الى المدن، لذلك رفضوا أن

---

(130) الماوردي : الأحكام السلطانية ص 142 ــ 143.

(131) والخراج هو مقدار معين من المال أو الحاصلات ، ويفرض على الأرض التي فتحها المسلمون عنوة، اذا عدل الخليفة عن تقسيمها على المحاربين ووقفها على مصالح المسلمين بعد أن يعوض المحاربين عن نصيبهم فيها او يسترضيهم كما فعل عمر بن الخطاب. ويؤخذ الخراج عن الأرض التي أفاء الله بها على المسلمين فملكوها وصالحوا اهلها على أن يتركوهم فيها بخراج معلوم يؤدونه الى بيت مال المسلمين.انظر الماوردي : الأحكام السلطانية ص 146 ــ 148.

(132) الماوردي : الاحكام السلطانية ص 144 ــ 145.

يتكفلوا لمن أسلم بالحقوق التي وضعها عمر بن الخطاب : فكانوا أحيانا يعفون من اسلم من الجزية مع استمرار فرض ضريبة الخراج والحد من هجرة أهل الريف إلى المدن، حتى ان الحجاج كان يأمر بأن يوسم اسم القرية على يد المولى حتى لايخرج منها، بل يبدو انهم اضافوا أيضا الضيافة على أهل المدن، وفي بعض الأحيان يستمر فرض ضريبة الجزية على من أسلم. (133).

كذلك كان بعض الولاة إذا قبلوا الاعفاء من الجزية، فإنهم يمتحنون من اسلم بالختان، كما كانوا يجعلون الموالى يغزون مع العرب بلا عطاء ولا رزق، وكانت نتيجة هدا التشدد الرجوع عن الاسلام .

ففي خلال فترة ولاية الجراح بن عبد الله الحكمى خراسان، شكى الموالى لعمر ابن عبد العزيز، فقال ممثلهم ابو الصيد : « يا أمير المؤمنين عشرون ألفا من الموالى يغزون بلا عطاء ولا رزق، ومثلهم قد أسلموا من الذمة يؤخذون بالخراج .... فكتب عمر إلى الجراح : انظر من صلى قبلك الى القبلة فضع عنه الجزية. فسارع الناس الى الاسلام، فقيل للجراح : ان الناس قد سارعوا إلى الاسلام نفورا من الجزية فامتحنهم بالختان، فكتب الجراح بذلك إلى عمر، فكتب عمر اليه : ان الله بعث محمدا (ص) داعيا ولم يبعثه خاتنا» (134).

كما كتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله على الكوفة يوصيه بالتالي :

« لاتحمل خرابا على عامر، ولا عامرا على خراب، انظر الخراب فخذ منه ما اطاق وأصلحه حتى يعمر، ولا يؤخذ من العامر، الا وظيفة الخراج، في رفق وتسكين لاهل الارض» ثم يأمره بإسقاط الضرائب غير المباشرة، التي فرضت على الناس بدون وجه حق بقوله : « ولا أجور الضرابين ولا هدية النيروز والمهرجان ولاثمن الصحف .... ولا أجور البيوت ولا دراهم النكاح، ولا خراج على من أسلم من أهل الارض» (135).

---

(133) عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ج 2 ص 263

(134) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 5 ص 51.

(135) الطبري : الامم والملوك ج 8 ص 139.

ويروى ان أحد عماله كتب إليه يوماً يقول أن الاصلاحات التي أدخلها الخليفة على بيوت المال لفائدة الداخلين في الاسلام جعلت الناس كثيرين في الاسلام وأنه يخشى قلة الخراج، فكتب إليه عمر : «والله لوددت أن الناس كلهم أسلموا حتى نكون أنا وانت حراثين نأكل من كسب أيدينا» (136).

ونتيجة لسياسة عمر بن عبد العزيز، من ازالة ضريبة الجزية عمن اسلم، وجعل العرب والموالى في الرزق والكسوة والمعونة والعطاء سواء، الى اعطاء الناس الحرية في التنقل من الريف إلى المدن ومنع الضيافة على أهل المدن. أقبلت الشعوب المفتوحة في عهده على الاسلام .

اذ يذكر البلاذرى أنه «لما استخلف عمر بن عبد العزيز، كتب الى ملوك ما وراء النهر، يدعوهم الى الاسلام، فأسلم بعضهم» كما كتب إلى ملوك الهند «يدعوهم إلى الاسلام والطاعة، على أن يملكهم، ولهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم، وقد كانت بلغتهم سيرته ومذهبه (فأسلموا) وتسموا بأسماء العرب» (137).

وفي مصر كثر عدد من أسلم بحيث استطاع الاسلام أن ينافس الديانة القبطية، وكان دخول المصريين فيه بنفس السرعة، التي اعتنقوا بها النصرانية في القرن الرابع الميلادي، ونجد حيان بن شريح واليها يكتب إلى عمر بن عبد العزيز يقول له : إن أهل الذمة أسرعوا إلى الاسلام (138).

اما بالنسبة لبلاد المغرب، فقد كان تأثير هذه السياسة حاسمًا، وبالرغم من ان ابى المهاجر دينار الذي امتدت ولايته على افريقية سبع سنوات (55 ـ 62هـ) كان سياسيا بارعا، اذ لجأ إلى سياسة اللين والمداراة حتى استمال البربر عن طريق نشر الاسلام بينهم، وقد نجحت هذه السياسة نجاحًا كبيرا، اذ اعتنق الاسلام زعيم البربر البرانس واسمه كسيلة، وكان نصرانيا متحالفًا مع البيزنطيين ضد العرب.

---

(136) ابن الجوزي : سيرة عمر بن عبد العزيز ص 99 ـ 100 (القاهرة 1331هـ)
، مجهول : كتاب العيون والحدائق في أخبار الحقائق نشر دي جويه (ليدن 1865) ص 4.

(137) البلاذري : فتوح البلدان ص 410 ، 429

(138) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج 5 ص 283، عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ج 2 ص 265.

وبالطبع لم يسلم لوحده فقط، اذ من المؤكد أن قبائل البرانس تبعت زعيمها وتحولت إلى الاسلام. (139)

كما ان موسى بن نصير الذي تولى حكم المغرب منذ 86هـ،قد نجح في كسبهم إلى الاسلام، فكان يشترى الرقيق ويحوله الى الاسلام ويعتقه، وترك بين البربر الفقهاء لتعليمهم الدين، حتى أن سكان المغرب الأقصى في زمنه أسلموا إسلاما صحيحا وجاهدوا مع العرب بغزو الاندلس .

ويروى ابن عذارى انه في 100هـ «ولى إسماعيل بن أبي المهاجر افريقية من قبل امير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، فكان خير أمير وخير وال، ومازال حريصا على دعاء البربر الى الاسلام حتى اسلم بقية البربر بافريقية على يديه،في دولة عمر ابن عبد العزيز. وهو الذي علم أهل إفريقية الحلال والحرام. وبعث معه عمر ـ رضة ـ عشرة من التابعين اهل علم وفضل» (140).

وتوفى هذا الخليفة الورع في رجب سنة 101هـ، ولم يتجاوز عمره الأربعين وحكم اقل من ثلاث سنوات وتوفي بخناصرة بليدة قرب حلب في البادية، وظل قبره مشهور بهذا الموضع، معظم يغشاه كثير من الناس من الحاضرة والبادية. وهو القائل «اليس حسنا وجميلا الا تطلع الشمس علي في يوم إلا أحييت فيه حقا وأمت فيه باطلا حتى ياتيني الموت فانا على ذلك؟» وقد صدق الرجل. (141).

6 ـ يزيد بن عبد الملك (101 ـ 105هـ/ 720 ـ 724م)

تولى الخلافة بعهد من اخيه سليمان وأبيه عبد الملك، وكاد سليمان أن ينحيه عن ولاية عهده ويولى احد ابنائه، ولكن لم يلبث أن ولى عمر بن عبد العزيز ـ وذلك لغياب يزيد وقتئذ ـ ورجل مثالي تقي ورع كعمر،لابد أنه لم يكن يرغب

(139) احمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والاندلس ص 42

(140) ابن عذاري : البيان المغرب ج 1 ص 42،48.

(141) ويروي كل من الطبري وابن الأثير .أن عمر بن عبد العزيز قتل نتيجة تآمر بنو مروان عليه بسبب خوفهم من تحويل الخلافة عنهم وعن بني أمية. أنظر الطبري : الامم والملوك ج 8 ص 132، المسعودي : مروج الذهب ج 3 ص 182، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 5 ص 48.

ايضا في ان يولى عهده يزيد، لما عرف عنه من ميل إلى اللهو، حتى أن الخوارج كانت تحرضه على عزله (142) ولكن لايعتقد أن عمر أراد أن يفعل كما فعل معاوية الثاني، فيخرج الخلافة من بني أمية لاعتقاده بان هذا الحق ليس لهم، وإنما عمر كان عربيا امويا يرى ان الخلافة يجب أن تبقى في هذا البيت، إلا أنه كان لايريدها ليزيد، وهدد بنى مروان بالانسحاب إلى المدينة ليجعلها شورى، لذلك قد يكون ليزيد يد في موته مسموما، وان كتب عمر اليه وهو على فراش الموت يوصيه بالامة. (143).

وكان يزيد، ثالث ابناء عبد الملك، وحفيد يزيد بن معاوية من طريق ابنته عاتكة التي تزوجها عبد الملك، وكثيرا ما ينسب إلى أمة النابهة، فيسمى يزيد بن عاتكة. وكان يعتقد انه اشرف من بقية بنى مروان، وكان يباهى بما يجرى في عروقه من دم سفياني. (144).

---

(142) ويروي الطبري ان بعض الخوارج ثاروا في عهد عمر بن عبد العزيز فكتب عمر الى زعيمهم: بلغني أنك خرجت غضبا لله ولنبيه، ولست أولى بذلك منى، فهلم اناظرك، فان كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس، وان كان في يديك نظرنا في أمرنا.

فبعث الزعيم الخارجي رجلين لمناظرة عمر، فكان مما اعترضا به عليه، انه أقر يزيد بن عبد الملك لكي يلي الخلافة بعده. فقال لهما: صيره غيري، فقيل له: أفرأيت لو وليت مالا لغيرك ثم وكلته إلى غير مأمون عليه، اتراك كنت اديت الامانة الى ائتمنك؟ فقال عمر: انظراني ثلاثا وخرج المندوبان الخارجيان من عنده. انظر الامم والملوك ج 8 ص 132.

(143) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج 5 ص 253، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج 5 ص 67، عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسي للدولة العربية ج 2 ص 270، 271.

(144) كانت الدولة الأموية، دولة عربية اعتمدت على شيوخ وزعماء القبائل العربية يمنية وقيسية، لذلك كانت هذه الدولة تعلق اهمية كبرى على ميلاد الخليفة من ام كريمة النسب العربي، وفي الوقت الذي كان يتمتع فيه مسلمة بن عبد الملك بأرفع مكانة في الدولة الأموية كقائد حربي لا نظير له، لعب دورا مؤثرا على الجبهة البيزنطية وكاحد أمراء بني أمية حتى مدحه عبد الملك وهو على فراش الموت بقوله «اخوكم مسلمة نابكم الذي تفترون عنه، ومجنكم الذي تستجنون به، اصدروا عنه رأيه». ورغم كل ذلك فلم ينظر اليه عند الترشيح للخلافة، وذلك لان أمه جارية غير عربية.

أنظر المسعودي: مروج الذهب ج 3 ص 161، 195، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج 4 ص 518، 519.

وبالرغم من اتهام المؤرخين قديما وحديثا (145) يزيد بن عبد الملك، الخليفة الشاب بالاستسلام لغرائزه وتشبيهه بجده وسميه يزيد بن معاوية، كرجل مستهتر انغمس في مناعم اللهو والموسيقى، الا انه يلاحظ أن يزيد تمكن من القضاء على ما واجهه من صعاب .

فبعد توليه اندلعت ثورة يزيد بن المهلب في العراق، ذلك أن عمر بن عبد العزيز كان قد سجن يزيد بن المهلب والى خراسان، لأنه لم يؤد إلى بيت مال المسلمين خمس غنائم حملاته في خراسان وكان قد بالغ في وصفها مباهاة وتفاخرا. وما ان علم يزيد بن المهلب بوفاة عمر وتوليه يزيد بن عبد الملك الخلافة حتى فر من سجنه خوفا من بطش الخليفة الاموى الذي كان متزوجا من ابنة أخي الحجاج، الذي سبق لابن المهلب أن بطش بأهلها (آل الحجاج) ـ انتقاما وثأرا .

فر ابن المهلب إلى البصرة، حيث حرض قبيلة الازد وأقرباءهم من عرب اليمن، على اعلان الجهاد ضد الامويين بوصفهم اعداء الدين. ولكن سرعان ما تمكن مسلمة ابن عبد الملك قائد الجيش الاموى من القضاء على هذه الثورة في العقر قرب كربلاء في 102هـ / 720م. (146).

وقام يزيد بتوحيد الادارة في مكة والمدينة، وأدخل اصلاحات على ديوان القبائل في مصر ، وكان أساسا لأعطياتهم (147)، ويروى ابن الاثير ان يزيد عمد الى كل ما صنعه عمر بن عبد العزيز مما لم يوافق هواه فرده ولم يخف شناعة ولا إثما عاجلا» (148) فلم يكد يتولى الخلافة حتى عين ولاة جددا على المدينة

---

(145) انظر الطبري : الرسل والملوك ج 5 ص 179، المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ج 3 ص 197 وما بعدها ، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج 5 ص 121 وما بعدها ،عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ج 2 ص 271 وما بعدها .

(146) يضاف إلى أسباب العداوة بين يزيد بن الملك وابن المهلب، أن الاخير «خرج من الحمام أيام سليمان بن عبد الملك وقد تضمخ بالغالية فاجتاز بيزيد بن عبد الملك، وهو الى جانب عمر بن عبد العزيز، فقال : قبح الله الدنيا، لوددت أن مثقال غالية بالف دينار فلا ينالها الا كل شريف. فسمع ابن المهلب فقال : بل وددت أن الغالية كانت في جبهة الاسد فلا ينالها الا مثلي. فقال له يزيد بن عبد الملك : والله لئن وليت يوما لاقتلنك. فقال له إبن المهلب : والله لئن وليت هذا الأمر وأنا حي لاضربن وجهك بخمسين الف سيف» ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 5 ص 87 .

(147) بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص 152.

(148) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج 5 ص 67.

وافريقية وأخذ أهل الصغد الذين دخلوا الاسلام بأداء الجزية، بعد ان كان عمر ابن عبد العزيز قد وعدهم بأن يسقطها عنهم.اذ يروى خليفة بن خياط أن الصغد كفرت في 103هـ ولما خرج اليهم سعيد بن عمرو الحرشي بجيوش المسلمين، سألوه الصلح على أن يرجعوا إلى بلادهم ويؤدوا الجزية ... (149).

ويضيف البلاذرى انه فعل مثل ذلك مع أمراء السند حتى اضطرهم إلى الارتداد عن الاسلام في عهد خلفه هشام بن عبد الملك. (150).

وقام يزيد بن أبى مسلم (مولى الحجاج) ووالي افريقية بالعمل على تنفيذ سياسة الحجاج في العراق وهي تتلخص في اعادة فرض الجزية على من أسلم من البربر، واعادة من هاجر إلى المدن من أهل القرى والجبال وردهم.ويضيف ابن عذارى، إلى ذلك أنه كان ظلوما غشوما، وكان البربر يحرسونه، فقام على المنبر خطيبا، فقال انى رأيت ان ارسم اسم حرسى في ايديهم كما تصنع ملوك الروم بحرسها، فأرسم في يمين الرجل اسمه، وفي يساره حرسى، ليعرفوا بذلك من بين سائر الناس، فاذا وقفوا على أحد، أسرع لما أمرت به. فلما سمعوا ذلك منه، اعنى حرسه، اتفقوا على قتلة، وقالوا : جعلنا بمنزله النصارى، فلما خرج من داره إلى المسجد، لصلاة المغرب، قتلوه في مُصلاه» (151).

واذا كان يزيد بن عبد الملك قد خالف عمر بن عبد العزيز، فإنه لم يفعل ذلك بباعث من السياسة، بل لأن طبيعته كانت تختلف كل الاختلاف عن طبيعة عمر،ولم تكن الصفة الغالبة عليه تتمثل في الزهد والتحرر من الاثم مما هو معروف عن عمر، بل كانت تغلب عليه خفة الارستقراطية العربية،اذ يصفه المسعودى «بأنه كان فخورا متكبرا يحب اللهو، لايعرف صوابًا فيأتيه ولاخطأ فيدعه» (152).فقد كان فتى سيدا أكثر منه حاكمًا، لذلك نجد أهل العبث الذين كان عمر بن عبد العزيز قد أقصاهم، يعودون إلى الحظوة ولعبت مغنيتان هما : سلامة وحبابه، دورا كبيرا في بلاطه .

(149) ابن الخياط : تاريخ خليفة بن الخياط جـ 2 ص475، ابن الأثيرالكامل في التاريخ جـ 5 ص108. فلهوزن : الدولة العربية ص 312 .
(150) البلاذري : فتوح البلدان ص 429.
(151) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ 5 ص 101 ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ 1 ص 48.
(152) المسعودي : التنبيه والاشراف ص 320.

فسلامة تعرف بسلامة القَسّ، نسبة الى عبد الرحمن بن عبد الله ابن أبى عمار من بنى جُشَم بن معاوية بن بكير،كان فقيهًا عابدا مجتهدا في العبادة، وكان يسمى القس لعبادته، مر يومًا بمنزل فسمع غناءها فوقف يسمعه، فرآه صاحب المنزل ومولى سلامة فقال له : هل لك أن تنظر وتسمع؟ فأبى، فقال : أنا اقعدها بمكان لاتراها وتسمع غناءها، فدخل معه فغنته، فأعجبه غناؤها، ثم اخرجها مولاها اليه، فشغف بها وأحبها وأحبته فقيل لها سلامة القس لذلك. (153).

واشتراها يزيد بن عبد الملك من سهيل بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى، ـ الذي انتقلت ملكيتهما اليه ـ بثلاثة آلاف دينار، وأعجب يزيد بها، وغلبت على أمره. (154).

أما حَبابة فقد اشتراها يزيد قبل أن يلى الخلافة، ففي خلال قيامه بالحج، سمع عنها بالمدينة، فأشترها من عثمان بن سهل بن حنيف بأربعة آلاف دينار وكانت تسمى العالية، وحينما سمع الخليفة سليمان بذلك غضب على يزيد وهم بالحجر عليه،ولكن يزيد سارع إلى ردها فأشتراها رجل من أهل مصر .

وبعد توليه يزيد الخلافة، دخلت عليه زوجته سعدة وقالت له، هل بقى من الدنيا شيء تتمناه؟ فقال: نعم، حبابة. فأرسلت فاشترتها ثم صبغتها واتت بها يزيد فحظيت سعدة عنده واكرمها. (155).

وتفرغ يزيد للغناء والطرب وملكت أمره كل من سلامة وحبابة حتى عذله مسلمة بن عبد الملك، لما عم الناس من الظلم والجور، باحتجابه واقباله على الشرب واللهو، وقال له: انما مات عمر أمس، وقد كان من عدله ما قد علمت، فينبغي أن تظهر للناس العدل، وترفض هذا اللهو، فقد اقتدى بك عمالك في سائر أفعالك وسيرتك، فارتدع عما كان عليه مدة مديدة ثم عاد سيرته الاولى بسبب بيت شعر غنته اياه حبابة قائلة :

فما العيش الا ما تلذ وتشتهي

وان لام فيه ذو الشنان وفنّدا (156)

(153) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 5 ص 122 ، 123.

(154) المسعودي : مروج الذهب ج 3 ص 196).

(155) الطبري : الامم والملوك ج 8 ص 179

(156) المسعودي : مروج الذهب ج 3 ص 196.

ولم تقتصر سلطة حبابة على دفع يزيد للاحتجاب فقط، بل تعدتها الى التدخل في توليه وعزل الولاة.ويروى أن ابن هبيرة والى العراق وخراسان، قد وصل من هذا الطريق إلى المنصب الرفيع الذي وصل إليه اذ لما «ولى يزيد بن عبد الملك ورأى ابن هبيرة تحكم حبابة عليه تابع هداياه إليها وإلى يزيد بن عبد الملك، فعملت له في ولاية العراق، فولاه يزيد».ولذلك كان القعقاع بن خليد العبسى منافس ابن هبيرة، يقول : «من يطيق ابن هبيرة، حبابة بالليل وهداياه بالنهار» (157).

«وكان أبو حمزة الخارجى اذا ذكر بنى مروان وعابهم ذكر يزيد بن عبد الملك فقال : اقعد حبابة عن يمينه وسلامة عن يساره، ثم قال: أريد أن أطير، فطار إلى لعنة الله واليم عذابه » وذلك أن يزيد غنته حبابة وسلامة فطرب طربًا شديدا ثم قال: أريد أن أطير، فقالت له حبابة. يامولاي، فعلى من تدع الأمة وتدعنا». (158).

وقد جزع يزيد حينما ماتت حبابة جزعًا اخرجه عن كرامته.ففي احدى نزهات يزيد وحبابة رماها بحبة عنب فدخلت حلقها فشرقت ومرضت وماتت، فتركها يزيد ثلاثة أيام لم يدفنها حتى انتنت وهو يشمها ويقبلها وينظر إليها ويبكى، حتى تدخل مسلمة بن عبد الملك، حتى اذن بدفنها كما رجاه الا يظهر في الناس على الأقل في هذه الحالة التي لاتليق بخليفة.وقد مات بعدها بأيام، ويعتقد الناس أنه مات كمدا على فقد فتاته المحبوبة.وهكذا لم تدم خلافة يزيد بن عبد الملك (الثاني) الا أربع سنين فقد توفي في (105هـ / 724م) (159).

7 ـ هشام بن عبد الملك (105 ـ 125هـ / 724 ـ 743م)

كانت خلافة هشام بن عبد الملك خاتمة عصر بنى أمية الذهبي وكا[illegible] رابع أبناء عبد الملك الذين ولوا الخلافة.وقد اعتبره المؤرخون بحق ثالث [illegible]ساسة

---

(157) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 5 ص 99، انظر اخبار حبابة ويزيد في كتاب الاغاني ج 13 ص 154 ـ 166 وهي مفصلة تفصيلا كافيا .

(158). المسعودي : مروج الذهب ج 3 199

(159) ابن الأثير الكامل في التاريخ ج 5 ص 120 ، 121.

من خلفاء بنى أمية، بعد معاوية وعبد الملك، وخاتمهم (160). وقد نجح فيأن يجعل من خالد بن عبد الله القسرى واليه على العراق، يعيد سيرة سلفيه العظيمين زياد بن أبيه والحجاج بن يوسف الثقفي، اذ وفق خالد إلى أن يضع حدا لنشاط مثيرى الفتنة من القيسية ومتابعة أعمال الاصلاح التي بدأها الحجاج، فجفف مستنقعات دجلة الادنى، حول واسط، فأحيا بذلك أراضي واسعة، بعد موتها، وسخرها للزراعة.

وقد أفاد خالد من هذه المشاريع ثروة طائلة، ولكن ما آن سمح لنفسه بأن ينزلق في مهاوي المضاربات بالحنطة، نجح خصومه – وكانوا كثيرين- في حمل الخليفة على عزله، بعد ولاية دامت خمسة عشر عاماً.

وتميز هشام بن عبد الملك بالبخل، فقد كان ينظر إلى الدولة نظرته إلى إقليم يجب أن يستثمر، ولذلك اتهمه البعض بأنه كان يحمل ولاته على الامعان في ابتزاز الأموال من أفراد الرعية. ليس هذا فقط بل لقد زاد في الخراج المفروض على قبرص، وضاعف الخراج المفروض على الاسكندرية. ولقد دفعت سياسته بالفرس والترك ما وراء النهر، كما دفعت من قبل البربر في افريقية إلى إظهار السخط وعدم الرضا، مما مهد، في الشرق لرسل العباسيين ودعاتهم (161).

ويروى أن أخيه مسلمة بن عبد الملك مازحه يوماً قبل أن يلى الأمر، فقال له: ياهشام أتؤمل الخلافة وأنت جبان بخيل! فقال: والله انى عليم حليم (162) وفي رواية أخرى «ولم لا أطمع فيها وأنا حليم عفيف» (163).

ويتولى المسعودى مهمة الرد على هشام بقوله:

« وكان هشام أحول خشناً فظاً غليظاً، يجمع الأموال، ويعمر الارض، ويستجيد الخيل، وأقام الحلبة فاجتمع له فيها من خيله وخيل غيره أربعة آلاف فرس، ولم يعرف ذلك في جاهلية ولا اسلام لأحد من الناس، وقد ذكرت الشعراء ما اجتمع له

(160) المسعودي: مروج الذهب ج 3 ص 211.

(161) بروكلمان: تاريخ الشعوب الاسلامية ص 156، 157، 159

(162) المسعودي: مروج الذهب ج 3 ص 211

(163) ابن العبري: تاريخ مختصر االدول ص 116

من الخيل، واستجاد الكسى والفرش، وعدذ الحرب ولأمتها واضطنع الرجال، وقوى الثغور، واتخذ القنى والبرك بطريق مكة، وغير ذلك من الآثار ... وفي أيامه عمر الخز والقطف الخز، فسلك الناس جميعًا في أيامه مذهبه، ومنعوا ما في أيديهم، فقل الافضال، وانقطع الرفد، ولم ير الزمان أصعب من زمانه»(164).

ثالثًا : الفتوحات الاسلامية في عصر بنى أمية

وبمقتل عثمان في أواخر سنة 35هـ / 656م انفتحت أبواب الفتنة على مصاريعها وكان من الطبيعي أن يكون لإضطراب مركز الخلافة في المشرق اثره على الفتوح.

ففي مصر لم تستقر الأمور، اذ اضطربت بها العثمانية بقيادة معاوية بن حديج ونجح عمرو بن العاص بمعونته في استعادة مصر لمعاوية في 38هـ / 8 ـ 659م. واستمرت الفتنة إلى مقتل علي وخلوص الأمر تمامًا لمعاوية، وعندئذ عادت الفتوح قوية من جديد في المشرق وفي المغرب على السواء.

والحقيقة أن معاوية ترك أمور المشرق لولاة العراق ووالي البصرة بصفة خاصة بينما اهتم هو بأمر المغرب والحرب مع بيزنطة (165).

1 ـ فتوح افريقية والمغرب والاندلس

عادعمروبن العاص، إلى ولاية مصر واستمرت ولايته (38 ـ 44هـ/ 658 ـ 664م) وبالرغم من أنه كان رجل حرب، ألا أن الجبهة المغربية نعمت بالهدوء في عهده، ويعلل الباحثين ذلك بكبر سن عمرو بن العاص، وانشغاله بأمور المشرق وعداء معاوية، صديقه اللدود، ورصده لأي نشاط يقوم به عمرو في افريقية (166).

وعندما قرر معاوية بن أبى سفيان اعادة فتح افريقية، عهد بذلك الأمر الى قائده معاوية بن حديج الكندى في 45هـ/ 665م ، وخرج ابن حديج من

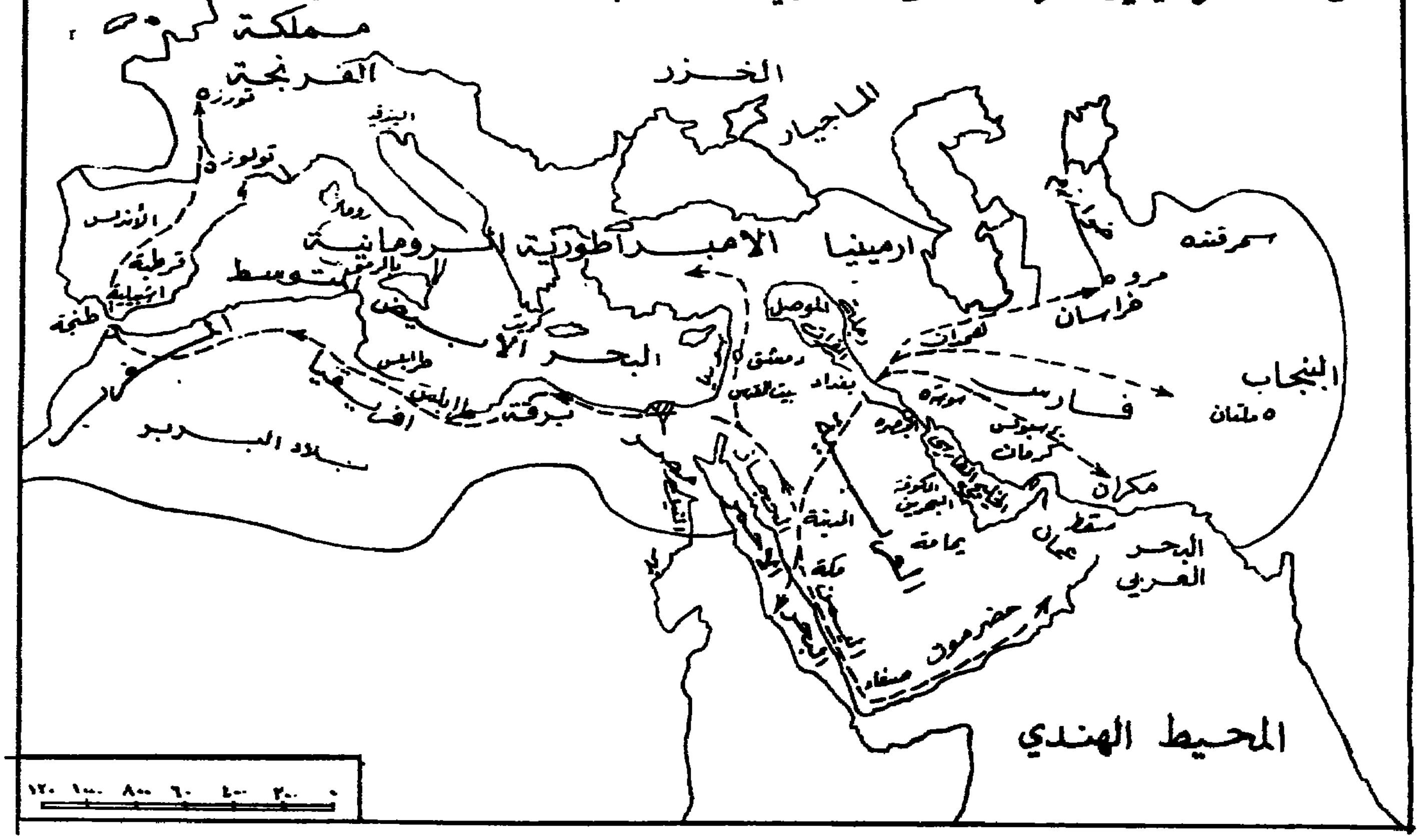
---

(164) المسعودي : مروج الذهب ج 3 ص 205.

(165) أنظر الكندي : الولاة والقضاة ص 29، ابن الأثير : الكامل في التاريخ (سنة 36) ج 3 ص 245 ، ابن عذارى : البيان المغرب ج 1 ص 15.

(166) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص 180، حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ص 111، سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي، ج 1 ص 164 ، 165.

الفتوحات العربية في القرن الأول هجري عندما بلغت الخلافة ذروتها



الاسكندرية على رأس عشرة آلاف رجل، بالإضافة إلى عدد من المهاجرين والأنصار ممن كانت لهم خبرة بالحرب في افريقية واشراف من جند مصر .

وتقدم ابن حديج بجيوشه، واتخذ في موضع القيروان معسكرا ثابتا، ومن هناك أخذ يوجه السرايا إلى مراكز البيزنطيين. فالاولى قادها عبد الله بن الزبير واستولت على المدن الساحلية مثل قابس وبنزرت وسوسة. والثانية بقيادة عبد الملك بن مروان، الأمير الأموي وقتئذ، واستولت على حصن جلولاء، وهو من أهم الحصون البيزنطية، هذا الى جانب الحملات البحرية التي ارسلها ابن حديج للاغارة على جزيرة صقلية. اذ يذكر ابن عذارى انه في سنة 45 هـ «اغزى معاوية بن حديج جيشا في البحر الى صقلية في مائتي مركب، فسبوا وغنموا وأقاموا شهرا، ثم انصرفوا الى افريقية بغنائم كثيرة» (167).

لم يستمر ابن حديج طويلا بإفريقية وعاد إلى مصر، وسرعان ما اسندت ولاية افريقية إلى عقبة بن نافع الفهري في سنة 50هـ الى 55 هـ (670 ـ 674م). ورغم النجاح الذي حققه العرب في المغرب حتى ذلك الحين فان العمليات الحربية التي قاموا بها لم تكن سوى غارات بعيدة المدى، الهدف منها الاستكشاف والحصول على المغانم والسبى، إلى جانب العمل على نشر الاسلام، ونظراً لأن هذه الحملات كانت تتعلق بأقاليم شاسعة وأمم متعددة، لذلك كانت تلك المرحلة أشبه ما تكون بالغزوات السنوية المعروفة بالصوائف، وهي حرب الثغور .

أما عن اختيار عقبة بن نافع الفهري، فقد كان اختيارا موفقا، لأنه كان من أوائل جند افريقية، إذ دخل مع ابن خالته عمرو بن العاص سنة 23هـ/ 43 ـ 644م إلى برقة وكان في حدود الرابعة عشر من عمره، وبقى عقبة في برقة مجاهدا بعد عودة عمرو إلى مصر، وعندما سار عبد الله بن سعد إلى افريقية سنة 27هـ انضم إليه عقبة (168).

---

(167) وتذكر بعض الروايات انه وجه سراياه كذلك في اتجاه بنزرت، ولفتح جزيرة جربه على يد الصحابي رويفع بن ثابت الانصارى، الذي ولاه ابن حديج طرابلس سنة 46 هـ فقام بغزوته هذه سنة 47هـ / 667م .انظر تاريخ خليفة بن خياط جـ 1 ص 240، المالكي : رياض النفوس ج 1 ص 19، التجاني : رحلته ص 124، الدباغ : معالم الايمان ج 1 ص 101 ، ابن عذارى : البيان المغرب ج 1 ص 16 ـ 17.

(168) ابن الأثير : الكامل في التاريخ (سنة 41) جـ 3 ص 212.
، سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي جـ 1 ص 167 ، 175 ، 176.

وبعد عودة عمرو بن العاص إلى ولاية مصر (38 _ 44هـ) واستقرار الأمور في عاصمة الخلافة الأموية بدمشق لمعاوية بن أبى سفيان، يروى ابن الخياط انه في سنة 41هـ «ولى عمرو بن العاص وهو على مصر عقبة بن نافع الفهرى، وهو ابن خالة عمرو، افريقية، فانتهى الى لوبية ومراقية، فأطاعوا ثم كفروا، فغزاهم من سنته فقتل وسبى... (وفي 42هـ) افتتح غدامس ..... و في(43هـ)... افتتح كورا من بلاد السودان... وودان وهي من حيز برقة». وهكذا نرى أن عقبة تمكن من اخضاع قبيلة لواتة واتبع ذلك بغزو قبيلة مزاتة ثم اخضع جنوب برقة وطرابلس في الصحراء الجنوبية في منطقتى فزان وودان وما وراءهما من الواحات الجنوبية حتى حدود السودان. (169).

ويبدو أن معاوية بن أبي سفيان، اعترف للرجل بحسن بلائه، اذ كان طوال خمسة وعشرين عامًا والتي سبقت ولايته، رجلا مرابطًا مجاهدًا في سبيل الله، لدرجة أن بعض الروايات جعلت منه بطلا أسطوريًا بل وقطبا عارفًا مستجاب الدعوة.

دخل عقبة افريقية على رأس عشرة آلاف فارس، منهم خمسة وعشرون من الصحابة كما ذكر بعض المحدثين، وسائرهم من التابعين، وازدادت قوات عقبة بمن انضم إليها من البربر الذين دخلوا إلى الاسلام. (170).

ويروى ابن عذارى أن عقبة استشار اعوانه بقوله «ان افريقية،إذا دخلها امام، أجابوه إلى الاسلام، فإذا خرج منها، رجع من كان أجاب منهم لدين الله الى الكفر! فأرى لكم، يامعشر المسلمين! أن تتخذوا بها مدينة تكون عز للاسلام إلى آخر الدهر ... وقالوا: نقرب من البحر ليتم لنا الجهاد والرباط. فقال عقبة: إنى أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينيةبغتة فيملكها ولكن اجعلوا بينها وبين البحر مالا يدركها صاحب البحر، الا وقد علم به ... (و) قربوها من السبخة، فإن دوابكم الابل، وهي التى تحمل اثقالكم .... وتكون إبلنا على باب قصرنا في مراعيها، آمنة من عادية البربر والنصارى» (171).

---

(169) ابن الخياط: تاريخ خليفة بن خياط جـ 1 ص 235، 237، 238
، ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ 3 ص 212، 234

(170) ابو العرب: طبقات علماء افريقية ص 17، ابن عذارى: البيان المغرب جـ 1 ص 20، النويري: نهاية الارب جـ 22 ص 68 أ.

(171) انظر ابن عذارى: البيان المغرب جـ 1 ص 19 _ 20

وهكذا نرى أن بناء القيروان، كان بمثابة قاعدة عسكرية ثابتة في بلاد المغرب، ولذلك اختار لها مكانًا استراتيجيًا هامًا، إذ جعلها بعيدة عن الساحل خوفًا من غارات البيزنطيين وبعيدة عن جوف الصحراء خوفًا من غارات البربر. ويرجح ذلك ما يرويه الواقدي حول سبب بناء القيروان، فقد وافق المسلمون على بناء المدينة لأن «جيوش الشام ومصر ..... بعيدة ..... وليس لنا مقر تقيم فيه نساؤنا وتحفظ فيه أموالنا» (172).

وحسب الطريقة التي أصبحت تقليدية في بناء المدن العربية، منذ بناء الكوفة والبصرة في العراق والفسطاط والجيزة بمصر، بدء ببناء المسجد الجامع ودارة الامارة ثم قسمت الارض المحيطة بهما على القبائل العربية التي رافقت عقبة ومن انضم إليه من البربر، وذلك لبناء الدور والمساكن. وبلغ محيط المدينة العسكرية وما أقيم حولها من أسوار ووسائل دفاع ثلاثة آلاف وستمائة باع (5800 متر) وذلك حسب رواية ابن الاثير، ولكن بعد انتشار خطط القبائل العربية حولها وما أقيم بها من مساكن ومساجد خاصة لكل قبيلة كما سبق وحدث بالفسطاط، بالاضافة إلى من استقر بها من البربر الذين أسلموا، ازداد محيط المدينة حتى بلغ ثلاثة عشر ألف وستمائة ذراع (7000 متر). (173).

وكان بناء المدينة في ذاته حدثا هامًا في تاريخ الفتح العربي للمغرب، اذ يذكر ابن الاثير انه نتيجة لبناء المدينة «دخل كثير من البربر في الاسلام، واتسعت خطة المسلمين، وقوى جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان، وأمنوا وأطمأنوا على المقام، فثبت الإسلام بها». وفي الوقت الذي أتم عقبة بناء القيروان، اتى أمر الخليفة معاوية بعزله سنة 55هـ / 674م. وعلى الرغم من أن المؤرخين لم يبينوا بوضوح الأسباب التي ادت إلى عزله، فإنه من المحتمل أن يكون عزل عقبة راجعًا إلى سياسة العنف والشدة التي اتبعها في المغرب، وفي ذلك يقول ابن الاثير : « أنه (أي عقبة) وضع السيف في أهل البلاد، لأنهم كانوا اذا دخل إليهم

---

(172) الواقدى : فتوح افريقية ج 1 ص 4

(173) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 3 ص 234، ابن عذارى : البيان المغرب ج 1 ص 20 ، 21.

أمير أطاعوا واظهر بعضهم الاسلام، فإذا عاد الأمير منهم نكثوا وارتد من أسلم منهم» (174).

تولى أبو المهاجر دينار ولاية افريقية لمدة سبع سنوات من (55 ـ 62هـ / 674 ـ 681م) وهو لايقل مهارة وخبرة عن سلفه عقبة بن نافع الفهري. ومن الغريب أن هذا الوالي الجديد لانجد له في المراجع التاريخية ذكرا يتناسب مع ما قام به من جليل الأعمال، بينما اهتم المؤرخون بعقبة وتتبعوا أعماله. ويعلق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد على ذلك بقوله: «ربما كان مرجع ذلك إلى الفهريين من أقارب عقبة الذي كان لهم مركز ممتاز في مصر والمغرب والاندلس، وكان منهم رواة وأخباريون، وذلك رغم أن بنى أبى المهاجر كان لهم مركزهم في المغرب وكان منهم أخباريون ايضا، ولكنهم لايرقون إلى مرتبة الفهريين» (175).

يضاف إلى ذلك أن أبا المهاجر دينار كان من موالى مسلمة بن مخلد ويعتبر تعيينه واليا على افريقية، فاتحة لاستخدام الموالي في الوظائف الكبرى في الدولة العربية وهذا قد يفسر صمت المصادر عن أخباره.

وفي 55هـ / 4 ـ 675م خرج أبو المهاجر دينار (مولى مسلمة بن مخلد أمير مصر في الفترة من 47هـ ـ 62هـ) من مصر بجيوش من أهل الشام ومصر أكثرهم قبائل أهل الراية (176) لإنتماء مسلمة إلى الأنصار حيث استقروا بها بعد الفتح مصر وتأسيس الفسطاط.

لم يكن أبو المهاجر مثل عقبة محاربا ممتازا، ولكنه كان سياسيا بارعا، ترك سياسة العنف مع البربر، ولجأ إلى سياسة اللين والموارة معهم محاولا استمالتهم عن

---

(174) انظر ابن الاثير: الكامل في التاريخ ج 3 ص 235 وقارن ابن عذارى: البيان المغرب ج 1 ص 19 ـ 21.

(175) سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ج 1 ص 189.

(176) واهل الراية هم جماعات من قريش والأنصار وخزاعة وأسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينة وثقيف ودوس وعبس بن بغيض وحرش من بني كنانة وليث بن بكر والعتقاء. ويذكر المقريزي انهم سموا بأهل الراية لانهم جماعة لم يكن لكل بطن منهم من العدد ما يكفي، لتشكيل فرقة تقيد بديوان الجند، فكره كل بطن ان يدعى باسم قبيلة غير قبيلته، فجعل لهم عمرو بن العاص راية ولم ينسبها الى أحد، فكانت لهم كالنسب الجامع.

انظر المقريزي: المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ج 1 ص 296 ـ 297.

طريف نشر الاسلام بينهم، ويحق لنا أن نتساءل هل كان قيام أبو المهاجر بإساءة عزل عقبة حتى تدعى بعض الروايات أنه «أوقره حديدا» وكرهه النزول في قيروان عقبة ـ حيث يوجد انصاره ، ومؤيديـه ـ وفضـل النزول في موضع آخر على بعد ميلين من القيروان، حيث ابتنى ونزل بالقرب من قرية بربرية تعرف «دكرور»، هل كانت هذه التصرفات، خطوات نحو التفاهم مع سكان البلاد (176 م)٠

وكيفما كان الحال، فاننا نجد أبو مهاجر يبدأ حملاته حسب رواية بن الخياط في 59هـ / 679م،اذ يروى وفيها «غزا دينار أبو المهاجر فنزل على قرطاجنة، فألتقوا فكثر القتل والجراح في الفريقين وحجز الليل بينهم، وانحاز المسلمون من ليلتهم، فنزلوا جبلا في قبلة تونس، ثم عاودهم القتال فصالحوهم على أن يخلوا لهم الجزيرة، وانتهى المهاجر الى عيون أبى المهاجر وافتتح ميله» (177).ويضيف المالكى أن أبا المهاجر فتح جزيرة شريك او باشو وانتهى المطاف به إلى أبواب تلمسان حيث هزم بربر اوربه، وهم فرع من البرانس، ومعهم زعيمهم كسيلة ـ الذي يقال انه كان نصرانيًا ومتحالفا مع البيزنطيين ضد العرب ـ ولكنه صالح الزعيم الأوربي واكتسبه الى الاسلام واتخذه حليفا. (178).

واعتناق هذا الزعيم للاسلام، معناه انضمامه الصريح إلى جانب المسلمين، وكانت النتيجة أن تحالف العرب مع البربر البرانس ، واستطاع أبو المهاجر بفضل مؤازرة كسيلة أن يجتاح المغرب الاوسط وان يحتل مدنه الساحلية حتى مدينة تلمسان. فأبو المهاجر يعتبر أول قائد عربي وطئت اقدامه أرض الجزائر. (179).

وبعد وفاة معاوية بن أبي سفيان في 60 هـ/680 م وتولية ابنه يزيد ابن معاوية، قام يزيد بتولية عقبة بن نافع ولاية افريقية لانه كان مقتنعا بفضل عقبة

(176م) بن عبد الحكم : فتوح افريقية والاندلس ص 56 ، 57، ابن عذارى : البيان المغرب ج 1 ص 22، المالكي : رياض النفوس ج 1 ص 20.ويروي السلاوي ان ابا المهاجر اساء عزل عقبة واستخف به لشيء كان بينهما . انظر الاستقصا ج 1 ص 71.

(177) تاريخ خليفة بن خياط ج 1 ص 272.

(178) المالكي : رياض النفوس.ج 1 ص 20.ويروي ابن خياط ان كسيلة بن مكيزم كان نصرانيا.انظر تاريخ خليفة ابن خياط ج 1 ص 314، ابن عذاري : البيان المغرب ج 1 ص 28، 29.

(179) أحمد مختار العبادي : في التاريخ العباسي والاندلسي ص 250

وحسن بلائه في فتح افريقية وذلك في 62 هـ واستمرت ولاية عقبة الثانية سنتان (62 ـ 64 هـ / 681 ـ 684 م) (180).

واولى أعمال عقبة بإفريقية انه «أوثق ابا المهاجر في الحديد، وأمر بتخريب مدينته التي بناها (دكرور) ورد الناس الى القيروان». وهكذا أكد عقبة استقرار القاعدة العربية الاولى في افريقية واستمرارها (181).

ونظرا لأن عقبة لم تكن له تلك النظرة السياسية الهادئة التي كانت لأبي المهاجر، بل كان رجلا عنيفا متشبعا بذلك الحماس الصوفي الدي دفعه الى التماس الشهادة وبيع نفسه من الله، كما يقول هو نفسه. وهذا الحماس الديني الشديد جعله يسخر من سياسة سلفه، ويستهين بقوة كسيلة وأصحابه بل ويتعمد الاساءة اليهم، حتى امره عقبة أن يشارك في ذبح وسلخ الغنم المخصصة لإطعام رجاله وحينما اخبره كسيلة أن فتيانه وعبيده يكفونه رفض عقبة فقام كسيلة مغضباً.

وحينما علم أبو المهاجر بذلك قال لعقبه «بئس ما صنعت! كان رسول الله (ص) يتألف جبابرة العرب، وانت تأتي الى رجل جبار في قومه، في دار عزه، قريب عهد بالشرك، فتهينه» (182). غير أن عقبة لم يهتم بالأمر وأخذ في تجهيز القوات اللازمة لحملته عبر المغرب الاوسط الى المغرب الأقصى، تلك الحملة السريعة المقتضبة التفاصيل، حتى أنكرها بعض الباحثين ورجح عدم تجاوزها المغرب الاوسط بأي حال. (183).

---

(180) يروى ابن عذارى ان وصول عقبة الى افريقية كان سنة 61 هـ ثم يذكر «وقيل سنة 62 هـ وجال في المغرب ثلاثة اعوام يجاهد في سبيل الله». انظر البيان المغرب ج 1 ص 30.

(181) ابن عذارى : البيان المغرب ج 1 ص 23

(182) ابن عذارى : البيان المغرب ج 1 ص 29

(183) اذ يقول روبرت برونشفيج « اذا كان من الممكن ان ننظر الى حملة عقبة بن نافع على أنها حقيقة تاريخية، فان سلامة الحس تحدونا الى ان نقصرها على بلاد الجزائر الوسطى، وربما جاز ان نقول انها بلغت ـ على أكثر تقدير ـ منطقة وهران الحالية ووادي شلف، حتى نعثر ما يدحض ذلك الغرض». انظر ليفي بروفنسال، نص جديد عن فتح العرب للمغرب، صحيفة المعهد المصري بمدريد سنة 1954، ص 197.

ويروى ابن عبد الحكم ان عقبة بن نافع خرج إلى السوس «واستخلف على القيروان عمر بن على القرشي، وزهير بن قيس البلوى .... في ستة آلاف» (184). للدفاع عن المدينة وحماية من بقى بها من نساء العرب وأولادهم وكذا أموالهم. اتجه عقبة نحو مدينة باغاية عند اقدام جبل أوراس على الاطراف الشمالية لبلاد الجريد وتمكن من إيقاع الهزيمة بحاميتها من الروم الذين سارعوا إلى الانسحاب إلى المدينة تاركين عديدا من القتلى والكثير من المغانم من خيل جبل أوراس الصلبة. ثم انتقل إلى بلاد الزاب وهاجم عاصمتها المسيلة حيث تمركز النفوذ البيزنطي.

وحينما ادرك الروم عدم مقدرتهم على الصمود ضد عقبة وجيشه اذ نجح العرب في السيطرة على بلاد الزاب حتى يعلق ابن عذارى قائلا : «وذهب عز الروم وملكهم من الزاب إلى آخر الدهر» (185) فسارع الروم إلى التحالف مع البربر وعندما وصل عقبة الى منطقة تاهرت فوجأ بتحالفهم ورغم ذلك انتهى القتال بهزيمة المتحالفين. وهكذا كانت احمال العرب وأثقالهم تزداد على طول الطريق إلى طنجة حيث تبدد الروم امامهم وكذلك قبائل البربر بعد ان تركوا بين أيديهم السلاح والأموال، والسبايا الجميلات الغاليات الثمن (186).

وترك عقبة الروم يعتصمون بالحصون والقلاع لايبرحونها، وأوغل في المغرب الى أن نزل على طنجة، حيث قابل صاحبها يليان الذي سأله المسالمة ونصحه بإخضاع قبائل البربر بالمغرب الأقصى. فاتجه عقبة نحو مدينة وليلى القديمة، قرب الموضع الذي ستبنى فيه مدينة فاس فيما بعد، وهناك التقى بجموع بربر الاطلس الوسطى، وهزمهم واتبعهم جنوبًا عبر بلاد تادلا نحو صحراء وادى درعة. ولما كان هدف عقبة هو نشر الاسلام لأول مرة في صحراوات بلاد مراكش، فبنى مسجدا في درعة. ثم اتجه الى منطقة تافللت، حيث ستبنى مدينة سجلماسة، لكي يدور حول جبال أطلس العليا وليدخل بلاد صنهاجة حيث اطاعه الناس دون قتال (187).

---

(184) ابن عبد الحكم : فتوح افريقية والاندلس ص 59.

(185) ابن عذارى : البيان المغرب ج 1 ص 24.

(186) سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ج 1 ص 196 ــ 197.

(187) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج 4 ص 106، ابن عذارى : البيان المغرب ج 1 ص 25، 26، سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ج 1 ص 197، 200.

زحف عقبة إلى إقليم قبائل هسكورة وقام بمحاصرة مدينة أغمات عاصمة الاقليم. ويبدو أن تلك المنطقة المزدهرة كانت على علاقات بالروم أو انها كانت متاثرة بالحضارة الرومانية على الأقل، وذلك أن بربر أغمات كانوا نصارى، ثم اتجه غربًا إلى مدينة نفيس عاصمة الوادى المعروف بنفس الاسم وقام بمحاصرة من بها من الروم ونصارى البربر، وبنجاح عقبة في الاستيلاء على هذه المدينة الحصينة انفتح أمامه وادى السوس الاقصى، فزحف إلى عاصمته وهي مدينة ايجلى حيث بنى بها مسجدا هي الأخرى. ومن ايجلى سار إلى ماسة ومنها إلى رأس ايغيـران، يطوف على البحر المحيط وهناك اقتحم عقبة المحيط بفرسه قائلا قولة المأثور:

« اللهم اشهد انى قد بلغت المجهود، ولولا هذا البحر، لمضيت في البلاد اقاتل من كفربك حتى لايعبد أحد سواك» (188).

عاد عقبة إلى افريقية بعد تحقيق أهداف حملته السريعة، ولما اقترب من ثغرها أمر أصحابه فافترقوا عنه، حتى بقى في قلة. واختلف المؤرخون حول سبب تصرف عقبة هذا، فجوليان يتهم عقبة بعدم السيطرة على قواته (189) وكل من ابن الأثير وابن عذارى يعلله بثقة عقبة بما نال من العدو (190)، وابن عبد الحكم يوضح أن الروم استغلوا وجود عقبة بالمغرب الأقصى وأخذوا في مهاجمة القيروان (191). اما ليفي بروفنسال فيتفق مع ابن عبد الحكم ويقول أنه لابد أن أخبارا مقلقة قد بلغت عقبة من افريقية، فلا يكاد يصل إلى المغرب الاوسط حتى يبعث معظم جنده إلى القيروان على عجل (192)، ولكن سعد زغلول عبد الحميد يرى أنه

---

(188) المالكي: رياض النفوس ج 1 ص 24. ابن عذاري: البيان المغرب، ج 1 ص 26، 27، انظر ليفي بروفنسال: نص جديد عن فتح العرب للمغرب ص 219، 220، سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي ج 1 ص 201، احمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي والاندلسي ص 251.

(189) Julien, Hist. de l'Afrique du Nord p. 321

(190) يذكر ابن الأثير ان عقبة «امر اصحابه ان يتقدموا فوجا فوجا ثقة منه بما نال من العدو». اما ابن عذارى انه لما وصل عقبة الى مدينة طبنة «أمر أصحابه، فتقدموا ثقة منه بما دوخ من البلاد، وانه لا يقوم له أحد ... فصرف اصحابه الى منازلهم عند قربهم منها».

، انظر الكامل في التاريخ ج 4 ص 106، البيان المغرب ج 1 ص 28.

(191) ابن عبد الحكم: فتوح افريقية والمغرب ص 59.

(192) ليفي بروفنسال: النص الجديد ص 209.

ليس من الغريب أن يأذن عقبة لرجاله بالاسراع الى أهليهم وذراريهم، بعدما أنجزوه من الاعمال في تلك الحملة الكبرى التي استمرت أكثر من عام من غير شك، بالاضافة إلى أن الرجل العسكرى الذي لايكل من الحرب ولا يمل، رأى عندما وصل إلى مدينة طبنة وهي على مسيرة ثمانية أيام من القيروان،أن يعود معظم رجاله الى القيروان، واستبقى معه عددا من خيرة الرجال لينهى به ماقد أجله في أول الحملة من ترك عدد من الحاميات الرومية معتصمة بقلاعها. والاستيلاء على مدينتي تهودةوبادس (بالقرب من بسكرة) ويعتقد ان هذا الأمر لم يكن يتطلب من عقبة الا الابقاء على، بضع مئات من رجاله (193).

وهنا يظهر على مسرح الحوادث الزعيم البربرى كسيلة في حشد كبير من البربر والبيزنطيين يحدده المؤرخون بخمسين ألف، وكان كسيلة قد استطاع الفرار من جيش عقبة وأخذ يتحين الفرصة للأنتقام منه، وأمام هذا الحشد الهائل من البربر والروم احس عقبة بنهاية الأمر، فطلب من الوالي السابق ابى المهاجر الذي كان يصحبه أن ينجو بنفسه، ولكن أبا المهاجر رغب في الشهادة معه، ودارت المعركة عند تهودة في سنة 64هـ / 682م واستشهد عقبة وأبو المهاجر وسيفا هما بيديهما، على حد تعبير المؤرخ عبيد الله بن صالح (194) ولا يزال موضع تهودة يعرف اليوم بسيدى عقبة بالقرب من بسكرة في جنوب قسنطينة. (195).

وأسر كسيلة، محمد بن أوس الانصاري في نفر يسير من العرب، ففداهم صاحب قفصه وبعث بهم إلى زهير بن قيس البلوى-ويروى ابن عذارى أنه لما بلغت الهزيمة زهير ، أراد الانصراف إلى مصر فقيل له : «الهزيمة بالمسلمين من افريقية إلى مصر؟» فعزم على القتال ... وقام خطيبا في الناس « يا معشر المسلمين ! ان أصحابكم قد دخلوا الجنة وقد من الله عليهم بالشهادة ! فأسلكوا سبيلهم ! ويفتح الله لكم دون، ذلك!» فقال حنش الصنعاني : «لا والله ! ما نقبل قولك، ولالك علينا ولاية ولا عمل أفضل من النجاة بهذه العصابة من المسلمين إلى مشرقهم» ثم قال: «يامعشر المسلمين ! من أراد منكم القفول إلى مشرقة، فليتبعني» فاتبعه الناس، ولم يبق مع زهير الا أهل بيته، فنهض في اثره ولحق بقصره ببرقة».

---

(193) سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ج 1 ص 204.

(194) احمد مختار العبادي : في التاريخ العباسي والاندلسي ص 251 ـ 252.

(195) ابن عذارى : البيان المغرب ج 1 ص 29 ، 31.

ودخل كسيلة القيروان واصبح واليا على كل من العرب والبربر معا، الذين فضلوا الاستقرار بالمدينة وعدم مغادرتها،اذ تروى النصوص ان كسيلة قصد افريقية «وبها اصحاب الانقال والذرارى من المسلمين. فطلبوا الامان من كسيلة، فامنهم ودخل القيروان واستولى على افريقية واقام بها » (196)؛مما يرجح ان كسيلة بقى على إسلامه وان اعلن الثورة واستمرت ولاية كسيلة على افريقية الى ان ولى الخليفة عبد الملك الاموى في 69هـ / 688م زهير بن قيس البلوى قيادة جيش افريقية وأمده بأربعة الاف رجل من الشام من بينهمْ بعض زعماء العرب من رجال الحرب.ومن العجيب ان يتبوا زهير منصب القيادة للجيوش الأموية رغم مقاومته للأمويين عند استردادهم مصر في 65هـ/689م من انصار ابن الزبير منافس الامويين ورغم انتمائه لقبيلة بلى اليمنية بمصر التي كانت علوية الهوى وأقام بعضها في الرمادة من لوبيه مع اخرين من جهنية وبنى مدلج.ولعل السبب في ذلك يرجع إلى ان زهير كان من اصحاب عقبة وأعلم الناس بإفريقية من بعده (197).

وامده ولما علم كسيلة بزحف زهير بن قيس البلوى إلى افريقية، حشد انصاره من البربر وحلفائه من الروم وعقد إجتماع مع زعمائهم حيث افضى اليهم بخطته في مواجهة العرب بقوله :« قد رايت ان ارحل إلى ممش فأنزلها، فان بالقيروان خلقا كثيرا من المسلمين ولهم علينا عهد فلا نغدر بهم ونخاف أن قاتلنا زهيرا ان يثب هؤلاء من ورائنا، فاذا نزلنا ممش امناهم وقاتلنا زهيرا، فإن ظفرنا بهم تبعناهم إلى طرابلس وقطعنا اثرهم من افريقية، وأن ظفروا بنا تعلقنا بالجبال ونجونا» (198).

والتقى زهير وكسيلة بممش وهي مكان حصين في الجنوب الغربي للقيروان وهناك في هذا المكان دارت معركة عنيفة بين الفريقين انتهت بهزيمة كسيلة وقتله. ولكن زهير لم يستثمر نصره هذا، اذ أن الروم المحالفين لكسيلة أرسلوا في نفس الوقت من القسطنطينية، حملات عسكرية بحرية اغارت على برقة الخالية من الحماية « فخرجوا اليها في مراكب كثيرة وقوة عظيمة فاغاروا على برقة، فاصابوا فيها سبيا كثيرا، وقتلوا ونهبوا» (199).

---

(196) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ 4 ص 108.

(197) أنظر مصطفى ابو ضيف احمد : اثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصري الموحدين وبني مرين ص 36.

(198) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ 4 ص 108 ، 109.

(199) ابن عذارى : البيان المغرب جـ 1 ص 33 .

مما دفع زهير الى الاسراع لمواجهة الروم، حتى لاتقع القوات العربية بين شقى الرحى ، ويبدو انه تراس مقدمة جيشه المشكلة من مجموعة فرسان للتقدم تاركا جمهرة رجاله للحاق به حتى يتمكن من تعطيل انسحاب الحملة الرومانية البحرية التي سبت الكثير من اهل المدينة، كما ان طبيعة المنطقة الجبلية لم تسمح بتحرك قواته المتعددة .

وبالفعل وصل زهير ، والروم يستعدون للانسحاب مع سباياهم من نساء العرب وذراريهم في مراكبهم، وعندما عاين قوة الروم، فضل انتظار بقية جنده، ولكنه اضطر لمقاتلتهم فهزم وقتل هو وجنده من العرب.واختلفت المصادر التاريخية حول أسباب اضطراره للهجوم على الروم في قلة من جنده،فإبن عبد الحكم يذكر أن أحد الفتيان خاطبه بقوله «جبنت يازهير» فقال «ماجبنت ياابن أخي ولكن قتلتني وقتلت نفسك» (200) واندفع لقتال الروم في معركة غير متكافئة. أما كل من ابن الأثير وابن عذارى فيذكر ان أنه لما «راه المسلمون استغاثوا به فلم يمكنه الرجوع وباشر القتال واشتد الأمر وعظم الخطب وتكاثر الروم عليهم فقتلوا زهيرا وأصحابه ولم ينج منهم أحد» (201).

توقف الفتح العربي لبلاد المغرب مرة ثانية عدة سنوات، خصوصًا أن الخلافة بدمشق كانت مشغولة بالقضاء على ثورة عبد الله بن الزبير بالحجاز وما أن تخلص الخليفة الأموى عبد الملك من منافسه في 73 هـ حتى عين **حسان بن النعمان الغساني** وهو من سلالة أمراء الغساسنة واليًا على افريقية (73 ــ 86هـ/ 692 ــ 705م) وامده بجيش عدته أربعون الف رجل أكثرهم من اليمنيين وانضم إليه بطرابلس من كان هناك من عرب افريقية (202) وخصص عبد الملك، ميزانية ولاية مصر للصرف على هذه الحملة.اذ يروى ابن عذارى أن عبد الملك قال لحسان : « انى قد اطلقت يدك في اموال مصر . فاعط من معك ومن ورد عليك واعط الناس، وأخرج الى بلاد افريقية» (203).

(200) ابن عبد الحكم : فتوح افريقية والمغرب ص 66 ــ 67.

(201) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ 4 ص 109 ــ 110 ، وقارن ابن‌عذارى : البيان المغرب جـ 1 ص 33 .

(202) انظر مصطفى ابو ضيف احمد : اثر القبائل العربية في الحياة المغربية ص 36.

(203) ابن عذارى : البيان المغرب جـ 1 ص 34.

وصل حسان إلى القيروان واتخذها مركزا لعملياته العسكرية. ثم رأى أن يتبع خطة عسكرية جديدة تقوم على لقاء أعدائه من الروم والبربر منفردين حتى يسهل عليه القضاء عليهم واحدا بعد الاخر، قبل أن يتكتلوا ضده.

وبدأ بالروم وزحف إلى قرطاجنة عاصمتهم بإفريقية وعلى مقدمته محمد بن ابي بكير، وهلال بن ثروان اللواتى (204)، وأقام حسان بمحاصرة المدينة الحصينة حتى اضطر أهلها إلى الانسحاب من المدينة إلى جزائر البحر وصقلية وذلك بعد معركة عنيفة في 74هـ،كما استولى بفضل اسطوله، على المدن الساحلية وطرد الروم منها. ولهذا أخرج من الميدان عنصرا من عناصر المقاومة في المغرب وهو العنصر البيزنطي .

وبعد ذلك توجه حسان بكل قواه نحو البربر، وقد سبقت الاشارة إلى أن العرب كانوا قد أخضعوا البربر البرانس وقتلوا زعيمهم كسيلة على يد زهير بن قيس البلوى، وبقى عليهم الان اخضاع الكتلة الثانية وهي البربر البتر في جبال أوراس (205).

وكانت زعيمة الكتلة الثانية من البربر البتر امرأة تعرف بالكاهنة، بربرية من قبيلة جراوة من البربر البتر (البدو) التي كانت مستقرة بجبل أوراس ، ولفظ الكاهنة لقب اطلق عليها لخبرتها بالسحر وفراستها، وعرفت كذلك بـ«دهيار» و «ملكة البربر» ويروى أنها كانت يهودية وفي نفس الوقت تذكر بعض الروايات انه كان مع الكاهنة صنم عظيم من خشب كانت تعبده،أي أنها كانت وثنية (206).

وعند وادى أحد أنهار نهر مسكيانة تقابل الفريقان حيث نشب القتال بينهما وانتهى بهزيمة حسان وجنده وقتل زهرة شباب العرب في المعركة حتى اطلق على موضع المعركة اسم «وادى البلاء» أو «وادى العذارى» ووقع في أسر الكاهنة حوالي

---

(204) ابن عبد الحكم : فتوح افريقية والمغرب ص 62.

(205) ابن عذارى : البيان المغرب ج 1 ص 34 ، 35 . احمد مختار العبادي : في التاريخ العباسي والاندلسي ص 253.

(206) المالكي : رياض النفوس ج 1 ص 35. ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 4 ص 370، ابن خلدون : العبر ج 6 ص 109، سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ج 1 ص 217.

ثمانين رجلا من وجوه أصحاب حسان أشهرهم خالد بن يزيد القيسى الذي تبنته الكاهنة. وانسحب حسان حتى ما وراء مدينةِ طرابلس أمام جنود الكاهنة حيث أقام في موضع يسمى قصور حسان. وهكذا اضطر العرب إلى التخلى عن فتوحهم في افريقية والمغرب للمرة الثالثة خلال عشر سنوات من 65هـ الى 74هـ ولم يبق بين ايديهم الا أقاليم اجدابية وبرقة ولوبية ومراقية،وتطلب الامر خمس سنوات طوال لكي تُسترجع البلاد التي سقطت بين ايدى الكاهنة. (207).

وحاولت الكاهنة أحكام سيطرتها على هذه البلاد وصرف نظر العرب عنها فقامت أولا بإطلاق سراح اسرى العرب واعادتهم إلى حسان ومن استبقته مثل خالد ابن يزيد فقد تبنته حسب التقاليد البربرية وهي تشبه التبني والمؤاخاة عن طريق الرضاعة المعروفة عند العرب والمسلمين،وثانيا بتخريب افريقية وقالت « ان العرب يريدون البلاد والذهب والفضة، ونحن انما نريد المزارع والمراعي، ولا أرى الا أن اخرب افريقية حتى ييأسوا منها».وقد امرت أصحابها ليخربوا البلاد، فخربوها وهدموا الحصون ونهبوا الأموال، وهذا هو الخرآب الأول لإفريقية.

ويروى ابن عذارى نتيجة هذا العمل بقوله «وخرج يومئذ من النصارى والافارقة خلق كثير مستغيثين مما نزل بهم من الكاهنة، فتفرقوا الى الأندلس وسائر الجزر البحرية» وأستغل حسان هذه الظروف خصوصًا بعد وصول الامدادات من الخليفة الأموى عبد الملك من «فرسان العرب ورجالها» واستنجاد «جمع من أهلها (افريقية) من الروم يستغيثون من الكاهنة ويشكون اليه منها» (208). والظاهر أن اهل البلاد لم يكتفوا بالاستغاثة بحسان ثم بالترحيب به، بل وقدموا المعونة للعرب بشكل إيجابي . فأمدوه بالرجال إلى جانب الأموال اذ يروى ابن عبد الحكم أنه «كان مع حسان جماعة من البربر من البتر» (209).

---

(207) ابن عبد الحكم : فتوح افريقية والمغرب ص 63
، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 4 ص 370 ، ابن عذارى : البيان المغرب ج 1 ص 36.

(208) ابن الأثير : الكامل فيالتاريخ ج 4 ص 370، 371.ويذكر خليفة بن خياط انه في 74 هـ اطلع سفيان بن وهب الى افريقية فبلغ» .وفي 75هـ «اطلع عمير بن عبيد الخولاني بالجيش الى افريقية» ويرجح أن هذه الجيوش كانت امدادات الخليفة عبد الملك لحسان حتى يستعد للجولة الثانية مع الكاهنة زعيمة البربر . انظر تاريخ خليفة بن خياط ج 1 ص 345، 347هـ

(209) ابن عبد الحكم : فتوح افريقية والمغرب ص 64.

وهكدا نم اللقاء بين حسان الذي كانت تتضخم قواته وتزداد بمن انضم إليها من اهل البلاد وبين الكاهنة التي كان ينفض عنها اتباعها شيئا فشيئا ورغم ذلك فقد زحفت لملاقاة العرب عند قابس حيث دارت موقعة حصن الجم (في منتصف الطريق مابين سوسة وسفاقس) وقد انهزمت فيها الكاهنة واضطرت إلى الانسحاب الى جبل اوراس حيث تابعتها القوات العربية وتمكنت من إيقاع الهزيمة بجندها من البربر وقتلت الكاهنة في 82هـ (210).

وكان البيزنطيون في ذلك الوقت قد أنزلوا قوات على الساحل واستردوا مدينة قرطاجنة وقتلوا الحامية العربية التي بها، فاتجه حسان اليها وشن عليها هجوما عنيفا مما اضطر البيزنطيون إلى الفرار في مراكبهم واسترد حسان المدينة وامر «بتخريب قرطاجنة وهدمها، فخربوها حتى صارت كأمس الغابر» (211).

وبعد هده الانتصارات، اخذ حسان يعمل على استمالة البربر وتحويلهم إلى الاسلام، هحينما طلب البربر الامان، وافق حسان «وشرط عليهم أن يكون منهم عسكر مع المسلمين عدتهم اثنا عشر الفا يجاهدون العدو، فأجابوه إلى ذلك، فجعل على هذا العسكر ابنا الكاهنة» اللذين سبقا لهما أن لجأ الى حسان مستأمنين. فعقد لكل واحد منهما على ستة آلاف فارس (212) وعهد حسان الى ثلاثة عشر فقيها من التابعين بمهمة تعليم القرآن واللغة العربية لهؤلاء البربر أي تعريبهم (213).

كذلك عمل حسان على انشاء قاعدة بحرية اسلامية في المغرب لمقاومة الخطر البيزنطي في 84هـ / 703م وفي الوقت الذي نرى فيه اسم حسان قد التصق بخراب العاصمة الافريقية القديمة، نجد اسمه لصق بالعاصمة الحالية وهي مدينة تونس التي اعطت اسمها للبلاد (214).

---

(210) المالكى : رياض النفوس ج 1 ص 35، ابن خلدون : العبر ج 6 ص 109
التجاني : رحلته ص 57، سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ج 1 ص 225.
(211) ابن عذارى : البيان المغرب ج 1 ص 35.
(212) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 4 ص 372، ابن عذارى : البيان المغرب ج 1 ص 38.
(213) ليفي بروفنسال : النص الجديد ص 223.
(214) سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ج 1 ص 231.

ويروى البكري أن عبد الملك بن مروان كتب إلى أخيه عبد العزيز والى مصر وولى عهده «ان يوجه إلى معسكر تونس ألف قبطي بأهله وولده وان يحملهم من مصر ويحسن عونهم حتى يصلوا الى ترشيش وهي تونس، وكتب إلى ابن النعمان يامره ان يبني لهم دار صناعة تكون قوة وعدة للمسلمين» وفي نفس الوقت يقوم البربر بتوفير الاخشاب المطلوبة من غابات الجبال الداخلية «وان يجعل على البربر جر الخشب لانشاء المراكب ليكون ذلك جاريًا عليهم إلى آخر الدهر» أي تكليفًا لهم (215).

ويضيف التجاني انه بعد وصول المصريون الى حسان قام بتوزيع جزء منهم للاستقرار بتونس وانشاء السفن بمينائها، كما وزع الباقين على جميع موانى افريقية للمساهمة في بناء السفن، اذ يقول «فلما وصلوا إلى حسان أثبت كثيرا منهم في رادس وفرق باقيهم في مراسى افريقية.... وانشأ فيها مراكب كان يغير فيها الى ساحل الروم فشغلهم بانفسهم عن الاغارة على افريقية» (216).

انسعت مدينة تونس بمن استقر بها من العرب والبربر ثم نزح إليها التجار ومن انضم إليهم من الجند العرب مثل بنى تميم وغيرهم ولم تلبث تونس أن أصبحت مركزا للمعارضة ومناهضة لسلطان القيروان بعد ذلك (217).

كذلك قام حسان بأعمال اصلاحية داخلية مثل توزيع أراضى البيزنطيين على الفلاحين من أهل البلاد، وتنظيم الخراج على الاراضي، وتعريب الدواوين (218).ولا شك أن حسان تأثر في ذلك بما يدور في المشرق،اذ أن الخليفة عبد الملك الاموى لكي يعمل على تقوية الحكم العربي بالمشرق بعد أن فسد كل شيء بسبب الفتن، عمل على تحويل كل شيء في جهاز الدولة الى العربية وهو ما عرف بالتعريب وهذه الحركة وجدت صدا لها في الأقاليم المفتوحة ومنها افريقية .

وفي أوائل خلافة الوليد بن عبد الملك 86هـ / 705م عزل حسان بن النعمان وولي التابعين المشهور موسى بن نصير اللخمي، ويروي البعض أنه من بكر ابن وائل أو أنه بلوي مثل زهير.

(215) البكري : المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ص 38

(216) التجاني : رحلته ص 6 ، 7

(217) انظر دائرةالمعارف الاسلامية مادة تونس .

(218) ابن عبد الحكم. فتوح افريقية والمغرب ص 64، 65، السلاوي : ألاستقصا ج 1 ص 84.

واسرة بنى نصير لعبت دورا في الدولة الأموية، فنصير والدموسى، شغل منصب قائد حرس معاوية وهو أمير على الشام، أما موسى فانه كان مستشارا، للأمير الصغير بشر بن مروان والى البصرة ولذلك اعتبر مسئولا عن فساد الادارة وتبديد اموال البصرة واضطر الى الهروب واللجوء الى عبد العزيز بن مروان ـ وكان اثيرا لديه ـ والى مصر الذي تدخل لصالحه، وأقام موسى في كنف عبد العزيز بالفسطاط وحينما تولى الوليد الخلافة، عين موسى واليا على بلاد المغرب، وقام بفصل ادارة افريقية عن ولاية مصر، وجعلها ولاية مستقلة تابعة للخلافة بدمشق مباشرة (219).

وتوضح لنا خطبة موسى بن نصير حين دخل القيروان، خطته العسكرية الاستراتيجية في افريقية والمغرب اذ قال : «أيها الناس، انما كان قبلى على افريقية أحد رجلين: مسالم يحب العافية، ويرضى بالدون من العطية .... أو رجل ضعيف العقيدة، قليل المعرفة، راضي بالهوينى... وبعد فان كل من كان قبلي، كان يعمد الى العدو الاقصى، ويترك عدوا منه ادنى، ينتهز منه الفرصة، ويدل منه على العورة... وايم الله الا أريم، (أتركها وأغادرها) هذه القلاع والجبال الممتنعة حتى يضع الله أرفعها، ويذل أمنعها، ويفتحها على المسلمين بعضها أو جميعها (220).

ولتنفيذ هذه الاستراتيجية العسكرية قام موسى بن نصير بحملات عسكرية كبرى في المغرب الاوسط والاقصى أهمها :

أولى هذه الحملات قادها بنفسه عبر السوس الادنى حتى بلاد سجلماسة ووادى درعة، حيث قام باخضاع قبائل كتامة وقتل ملكهم كمامون، وكذا قبائل هوارة وزناتة وولى عليهم رجلا منهم وفي خلال عودته هاجم قبائل صنهاجة وقتل ملكهم عند وادي ملوية، وتذكر الروايات أن موسى لم ينس أن يأخذ بثأر عقبة المستجاب من أهل سجومة بأيدي أولاد عقبة : عياض، وعثمان، وأبو عبيدة، وموسى الذين رافقوه.

---

(219) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 4 ص 539، ابن خلكان : وفيات الاعيان ج 4 ص 402، ابن عذارى : البيان المغرب ج 1 ص 39 ـ 40

(220) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج 2 ص 51

وثاني هذه الحملات مكونة من خمسة آلاف فارس بقيادة ابنه مروان، إلى السوس الأقصى .

وثالث هذه الحملات بقيادة قائده زرعة بن أبى مدرك إلى بربر مصمودة، «فلم يلق حربًا منهم. فرغبوا في الصلح منه، فوجه رؤساءهم إلى موسى بن نصير ، فقبض رهونهم» وكانت هذه هي المرة الثانية التي تطأ فيها الخيالة العربية أرض مصمودة بعد دخول عقبة .

ورابع هذه الحملات إلى ولاية طنجة التي كانت تخضع للأمير الرومى يليان منذ أيام عقبة ونجح موسى في انتزاع طنجة لأول مرة وكان «بها من البربر بطون من البتر والبرانس ممن لم يكن دخل في الطاعة» ووضع موسى على ساحل طنجة حامية للرباط تتكون من ألف وسبعمائة رجل بقيادة ابنه مروان «فجهد هو وأصحابه، فانصرف وخلف على جيشه طارق» وسرعان ما ازداد عدد جنوده للرباط حتى بلغ اثنى عشر ألفا رجل بما انضم إليه من رهائن القبائل البربرية مثل المصامدة وبربر افريقية والمغرب وارسل إليهم موسى فقهاء من العرب يعلمونهم قواعد الاسلام وأصول الشريعة. وبذلك تم فتح المغرب الأقصى إلا اقليم سبتة الذي بقى بين يدي يليان وعاد موسى إلى القيروان بعد أن استعمل طارق بن زياد على طنجة (221).

واختلفت المراجع حول يليان هذا، فبعضها يزعم أنه قوطى وبعضها يزعم أنه رومى وبعضها الأخير يزعم أنه بربرى من غماره (222) وعرف العرب يليان لأول مرة عند وصول عقبة بن نافع في ولايته الثانية إلى نواحي طنجة سنة 63هـ (683م) ويبدو أن يليان كان يعمل جاهدا على المحافظة على الاستقلال بإمارته، وأنه في سبيل ذلك انتهج سياسة المدارة وحسن الجوار مع جيرانه في الشمال بإسبانيا،

---

(221) ابن عبد الحكم : فتوح افريقية والاندلس ص 69 ـ 71، ابن قتيبة : الامامة والسياسة جـ 2 ص 54 ـ 55 ، 58 ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ 1 ص 40 ـ 43 ، سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي جـ 1 ص 241 ـ 245.

(222) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ 4 ص 106 ، ابن‌عذارى : البيان المغرب جـ 1 ص 26 ، ابن خلدون : العبر جـ 4 ص 185.

والبربر في دواخل طنجة.وعندما وصل العرب إلى أحواز ولايته سارع الرجل الذكي إلى الارتباط بعلاقات الود والصداقة معهم، فراسل عقبة وقدم إليه الهدايا الحسنة وسأله المسالمة ونظرا لعلاقة الود بين يليان وملك اسبانيا في ذلك الحين، فقد حرص يليان على صرف عقبة عن اسبانيا وتوجيهه نحو البربر (223).

والمرة الثانية عند وصول موسى بن نصير إلى اقليم طنجة سنة 89هـ (709م) ولما انصرف موسى بن نصير إلى القيروان وخلف طارقا على طنجة وما جاورها، أحس يليان خطر المسلمين وضغطهم عليه فأخذ يصانعهم، وعمل على كسب ود طارق ابن زياد أمير طنجة، كما عمل على خطب ود عقبة من قبل .

وأما عن أسباب فتح العرب لإسبانيا (224)، وبالرغم ما يحيط به من الخيال والتنبؤات، فيجب أن ننظر إليه في الاطار الكلي لحركة الفتوحات الاسلامية بشكل عام وفي الإطار الجزئي لحركة الفتوح بالنسبة لمصر وبلاد المغرب والاندلس بصفة

---

(223) الرقيق القيرواني : تاريخ افريقية والمغرب ص 44 ـ 45، ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ 4 ص 106.

(224) فهذه الاسباب تدور حول الاسباب المباشرة والغير مباشرة، فبالنسبة للاسباب المباشرة فالأولى اسلامية تدور حول قصة ابنة يليان حاكم سبتة التي ارسلت الى القصر الملكي القوطي بطليطلة أسوة بغيرها من بنات الطبقة الراقية لتعلم الآداب الملكية ولكن الملك لذريق اعتدى على شرفها، فصمم الاب على الانتقام واتصل بموسى بن نصير وحرضه على غزو اسبانيا. والثانية اسبانية تدور حول الملك القوطي وقلة Akhila لما عزل من ملكه، ذهب انصاره الى حليفه يوليان حاكم سبتة طالبين مساعدته، فقادهم يوليان بدوره الى موسى بن نصير، حيث تم الاتفاق على ان يمدهم موسى بجيش من عنده ليرد الى ملكهم المعزول عرشه في نظير جزية سنوية يؤديها للعرب.

أما عن الأسباب غير المباشرة او المساعدة فهي تتمثل فيحالة اسبانيا التي كانت تعاني ضعفا سياسيا واجتماعيا يجعلها فريسة سهلة لاي فاتح. فالمجتمع الاسباني كان ينقسم الى عدة طبقات الأولى من الملك والنبلاء،والثانية من رجال الدين والثالثة الطبقة الوسطى والرابعة الطبقة الدنيا وهي اكثرها عددا، واقلها حقوقا، يشتغلون في مزارع النبلاء ورجال الدين وهم ملك لصاحبها، فهم عبيد الارض والخامسة طبقة اليهود وكان عددهم كبيرا في اسبانيا ومكروهين بسبب اختلاف عقيدتهم والربا ولذا تعرضوا للكثير من الاضطرابات واضطروا الىمحاولة قلب نظام الحكم عن طريق الثورة حينا، وعن طريق المؤامرات حينا آخر.ويبدو انهم كانوا على اتصال بأبناء ملتهم في شمال افريقية وعلى علم بأخبار العرب وتسامحهم . انظر احمد مختار العبادي : في التاريخ العباسي والاندلسي ص 259، 260.

خاصة، فإذا كان فتحُ العرب لمصر وبلاد المغرب هو نشر الاسلام ومحاولة القضاء على الدولة البيزنطية في الغرب، فإن فتح العرب للأندلس هو استكمالا لهذا الهدف .

ولذلك نرى موسى بن نصير يستشير الخليفة الوليد بن عبد الملك للعبور للأندلس، اذ يذكر ابن عذارى : «فاستشار موسى، الوليد بن عبد الملك، اما مراسلة – وهو الأكثر الاظهر – وإما بأن نهض بنفسه اليـه، فأشار الوليد، بأن يختبرها بالسرايا» (225) ولا يغرر بالمسلمين في بحر شديد الاهوال. فكتب موسى اليه : «انه ليس ببحر متسع وإنما هو خليج يبين ما وراءه. فكتب إليه الوليد أن اختبرها بالسرايا. وان كان الأمر على ماحكيت» (226).

وتنفيذا لأوامر الخليفة، قام موسى بعدة غارات استكشافية على جنوب اسبانيا لجس النبض، فاستدعى في بادئ الأمر حليفه ومحرضه على غزو اسبانيا يوليان حاكم منطقة سبتة وطلب منه الاغارة على اسبانيا حتى يتأكد المسلمون من اخلاصه، فجاز يليان « في مركبين الى الاندلس وشن الغارة على الساحل الجنوبي، فسبا وقتل وغنم ورجع وقد امتلأت أيديهم خيرا وشاع الخبر في كل قطر فتحمس الناس للغزو» (227).

ولم يكتف موسى بهذه الغارة الاستطلاعية التي قام بها يوليان، فابن الاثير يروى أنه «بعث رجلا من مواليه يقال له طريف (228) في اربعمائة رجل ومعهم مائة فرس (مائة فارس)، فسار في أربع سفائن فخرج في جزيرة بالاندلس فسميت

(225) ابن عذارى : البيان المغرب ج 2 ص 5

(226) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 4 ص 561

(227) ابن الكردبوس : الاكتفاء في اخبار الخلفاء في مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد، احمد مختار العبادي : دراسات في تاريخ المغرب والاندلس س 14 – 15.

(228) اما عن نسب طريف بن مالك فقد تعددت الروايات حوله.فينما يشترك كل من البكرى وابن عذاري في نسبه الى البربر، يجمع كل من الرازي وابن الكردبوس على أنه عربي يمني من معافر ويروي ابن خلدون انه عربي يمني من نخع اما الحميري فينسبه الى العرب والبربر معا وادى ذلك الى الاختلاف حول نسبه في الدراسات التاريخية الحديثة بين نسبه الى البربر مرة والى العرب مرة أخرى.ومن الروايات السابقة يتضح لنا ترجيح عروبة طريف بن مالك؛اذ من المستبعد ان يقوم العرب بأرسال حملة استطلاعية لمشروع خطير مثل هذا دون ان يشتركوا فيها كجنود أو فرسان أو كقادة. انظر مصطفى ابو ضيف احمد: القبائل العربية في الاندلس حتى سقوط الخلافة الأموية ص 7.

جزيرة طريف لنزوله فيها، ثم أغار على الجزيرة الخضراء فأصاب غنيمة كثيرة ورجع سالمًا في رمضان سنة 91هـ (يوليه 710م). فلما رأى الناس ذلك تسرعوا إلى الغزو». (229).

وكان نجاح طريف هو اشارة البدء لعبور المسلمين إلى الأندلس، اذ تشجع موسى واخذ يستعد لإرسال حملة عظيمة بقيادة طارق بن زياد. وقد اختلفت الروايات حول نسبه، فالبعض يروى أنه بربري من نفزة. ومولى لموسى ابن نصير وقال اخرون أنه فارسي همذاني، والبعض الاخر أنكر ولاءه لموسى وقال انما هو رجل من عرب صدف او مولى لهم وترجح أغلب الروايات أنه بربري.

عبر طارق بن زياد الى الاندلس على رأس «سبعة آلاف من المسلمين أكثرهم البربر والموالى واقلهم العرب» في رجب سنة 92هـ /711م. ثم امده موسى بخمسة الاف، فأصبح عدد جنده اثنى عشر ألف مقاتل، وحدد ابن خلدون العرب المشتركين في هذا الجيش بثلاثمائة، أما مؤلف كتاب وصف الأندلس وتاريخه فيحدد العرب بالفين. (230).

اما عن عبور جيوش المسلمين إلى اسبانيا واعتماد موسى على مراكب الكونت يوليان او على مراكب تجار الروم التي كانت تختلف إلى الاندلس فقد قام الدكتور احمد مختار العبادى ببحث هذه النقطة وانتهى إلى أن موسى اعتمد في فتح اسبانيا على اساطيله العربية التي كانت تحت قيادته ورهن إشارته على طول الساحل المغربي واعتمد على النصوص التالية:

فعبد الملك بن حبيب يروى ان موسى وجه «مولاه طارقًا الى تلمسان وأمره ان يتعاهد سواحل البحر ومراسيه (231)» أما كل من ابن قتيبة وابن القوطية فيذكران ان موسى وجه طارقا إلى طنجة فافتتح مدائن البربر وقلاعها ثم كتب إلى موسى انني قد اصبت ست سفائن، فكتب اليه موسى أن أتمها سبعا ثم سيرها الى

(229) ابن الاثير: الكامل في التاريخ جـ 4 ص 561.

(230) أنظر مصطفى ابو ضيف احمد: القبائل العربية في الاندلس حتى سقوط الخلافة الاموية ص 8 ـ 10.

(231) عبد الملك بن حبيب: القسم الخاص بالاندلس، نشر محمود مكي صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد سنة 1957 م. ص 221

شاطئ البحر واستعد لشحنها (232) ويعلق الدكتور العبادى على هذه النصوص بقوله «هذه العبارات وامثالها وان كانت قد وردت متناثرة في روايات مختلفة، الا انها تحمل في طياتها نشاطا واستعدادا بحريا واعتمادا على القوى البحرية الذاتية في سبيل تحقيق هذا الفتح العظيم» (233).

ويضاف إلى هذه النصوص، نص جديد ورد بمخطوط مجهول عن وصف الاندلس وتاريخه بالخزانة الملكية بالرباط، يحسم هذه القضية ويؤكد ما انتهى اليه الدكتور العبادى، كما يشتمل على معلومات جديدة بالنسبة لفتح العرب للاندلس. وبعد تناوله حمله طريف وعودته :

«فاخبر طارق بسعة البلاد وكثرة نعمها وخيراتها، فأخذ طارق في إنشاء السفن والاستعداد الى الجـــواز اليها، يعنى الاندلس، برسم غزوها، فجاز إليها في شهر رمضان المعظم من سنة 92 هـ في جيش من اثنى عشر ألفا مقاتل، وسبعمائة، عشرة الاف من البربر والفين من العرب وسبعمائة من السودان» (234)

وأهمية هذا النص لاتتمثل في حسمه لقضية عبور القوات الاسلامية على القوى البحرية الذاتية فقط، بل يضاف إلى ذلك ما أورده عن اشتراك عنصر السودان في حملة طارق بن زياد على الاندلس، ونسبة قصة طبخ وأكل لحوم بعض الاسرى القوطيين اليهم، مما أدى إلى انتشار الرعب بين قواتهم .

عبر المسلمون إلى الاندلس، وبالرغم من نجاح عبورهم، الا أن نزولهم جبل طارق لم يتم بنفس السهولة، اذ يروى أبو مروان عبد الملك بن الكردبوس التوزرى في كتابه الاكتفاء في أخبار الخلفاء، لما حاول طارق الرسو بجنده «وجد بعض الروم وقوفا في موضع وطئ كان عزم على النزول فيه الى البر، فمنعوه منه فعدل عنه ليلا إلى موضع وعر، فوطأه بالمجادف وبراذع الدواب، ونزل منه في البر وهم لايعلمون، فشن غاره عليهم واوقع بهم وغنمهم» (235). ثم أقام طارق في الجبل

---

(232) ابن قتيبة : الامامة والسياسة جـ 2 ص 115، ابن القوطية : افتتاح الأندلس ص 120.

(233) احمد مختار العبادي : دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ص 19.

(234) مخطوط الخزانة الملكية عن وصف الاندلس وتاريخه لمجهول ص 116، 117،

(235) انظر ابن الكردبوس ص 12

عدة أيام، بنى خلالها سورا أخاط بجيوشه سماه سور العرب، كما أعد قاعدة عسكرية بجوار الجبل على الساحل لحماية ظهره في حالة الانسحاب أو الهزيمة، وهي مدينة الجزيرة الخضراء التي سميت أيضًا بجزيرة أم حكيم، على اسم جارية لطارق كان قد حملها معه عند الغزو، ثم تركها في هذه البلدة فنسبت إليها. كذلك أقام قاعدة أمامية أخرى في مدينة طريف بقيادة طريف بن مالك .

وعلم ملك اسبانيا القوطي رذريق خبر نزول المسلمين في بلاده، وكان وقتئذ مشغولا في اخماد ثورة قام بها البشكنس، سكان نافارا في اقصى شمال اسبانيا. ومن المحتمل جدا ـ كما يقول سافدرا أن تكون هذه الثورة مفتعلة وبايعاز من اعداء الملك لشغل انظاره عن عمليات نزول المسلمين في اسبانيا. فأسرع الملك القوطي بالعودة جنوبا بجميع قواته لملاقاة المسلمين.

وفي كورة شذونة التقى القوط بالمسلمين، حيث دارت المعركة الفاصلة والتي دامت ثمانية أيام في 92 هـ / 711 م وانتهت بانتصار المسلمين (236) وفتح ابواب الاندلس لهم، فاتجه طارق بالجيش الرئيسي شمالا نحو العاصمة طليطلة، وفي اثناء زحفه اعترضته قلعة استجه واستولى عليها، وفي الوقت نفسه ارسل اقساما من جيشه الى المناطق الجانبية، فاتجه قسم الى قرطبة بقيادة مغيث الرومي، مولى عبد الملك بن مروان، فاستولى عليها بعد حصار دام ثلاثة اشهر، واتجه قسم آخر الى البيرة ونواحيها واستولى عليها.

واستمر طارق في زحفه الخاطف نحو الشمال حتى بلغ العاصمة طليطلة فدخلها دون مقاومة تذكر، اذ كان حكامها وأهلها قد فروا منها فكانت المدينة شبه خالية تقريبًا. وخشى طارق أن يقطع عليه العدو الطريق في هذه البلاد الجبلية الوعرة،

---

(236) تذكر بعض الروايات انها حدثت شمال كورة شذونه عند وادي لكة بالقرب من شريش. وتذكر روايات اخرى انها حدثت في جنوب كورة شذونه عند اقليم البحيرة ووادي الرباط. انظر احمد مختار العبادي : دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ص 33 وما بعدها.

لاسيما وأن فصل الشتاء كان قد اقترب، وتعب المسلمون من الجهد الذي بذلوه ، وثقلوا بالغنائم التي جمعوها، فاستنجد طارق بقائده موسى بن نصير (237).

وبعد نجاح طارق ، عبر موسى بن نصير، المضيق إلى الأندلس في رمضان 93هـ / 712م بجيش كبير يتراوح ما بين عشرة آلاف جندي حسب روايات الطبرى وابن الأثير وابن عذارى وثمانية عشر الفا كنص المقرى عن الرازى وابن بشكوال وابن سعيد والحجارى، بينما ينفرد كل من عبد الملك بن حبيب وصاحب مخطوط وصف الاندلس وتاريخه برواية تحدد عدد الجند بعشرين ألفا مقاتل من خيرة جنده معظمهم من العرب بعصبياتهم القيسية واليمنية ملحقين باتباعهم ومواليهم وعلى رأسهم وجوه قريش واشراف العرب ومجموعة من التابعين (238).اذ يروى صاحب مخطوط الخزانة الملكية بالرباط انه لما وصل كتاب طارق إلى موسى بالفتح «كتب إليه (موسى) ... وأمره أن لايجاوز طليطلة ... وارتحل يريد الجواز إلى الأندلس ومعه بنوه عبد العزيز وعبد الاعلى ومروان ومعه وجوه قريش واشراف العرب والبربر في نحو العشرين الف فارس، فسار حتى نزل بساحل طنجة، ثم ركب البحر إلى الخضراء وذلك في شهر رمضان من سنة 93هـ» (239) .

وسار موسى في طريق غربى غير الطريق الذي سلكه طارق، واستولى على مدن أخرى لم يستول عليها طارق، مثل قرمونة واشبيلية وماردة،ثم التقى بطارق عند نهر التاجو بالقرب من العاصمة طليطلـــــة .ويتضح من ذلك أن خطة الغزو كانت موضوعة ومدبرة تدبيرا محكما، وهى كما رأينا تشبه حركة الكماشة في المصطلح الحربي الحديث:فطارق يسير من طريق وموسى يسير من طريق آخر مقابل له، وتنتهي حركةالالتفاف أو التطويق هذه بالتقاء القائدين عند العاصمة طليطلة. ثم تابع القائدان سيرهما نحو جبال البرت في أقصى الشمال وأخذت المدن تتساقط في ايديهما تباعًا مثل سرقسطة ووشقة ولاردة، حتى بلغا شاطئ البحر الشمال عند حدود فرنسا الجنوبية .

---

(237) انظر ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ 4 ص 563 ـ 564 وقارن ابن عذارى : البيان المغرب جـ 2 ص 9 ـ 10 ، 11 ـ 12، احمد مختار العبادي : دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ص 35 .36.

(238) انظر مصطفى ابو ضيف احمد : القبائل العربية في الاندلس حتى نهاية الخلافة الاموية ص10.

(239) مجهول : مخطوط الخزانة الملكية في وصف الاندلس وتاريخه ص 118 ، 119.

وهكذا انتهى كل من موسى وطارق من فتوحاتهما، وكانت أوامر الخليفة الوليد ابن عبد الملك قد قضت برجوعهما إلى دمشق، فرجع موسى ومعه طارق، بعد أن خلف على الاندلس ابنه عبد العزيز بن موسى بن نصير في أواخر 95هـ / 714م. وسيقع على عاتقه استكمال فتح شرق الاندلس حيث كوزة تدمير وقاعدتها الحصينة أوريولة. كما خلف على طنجة وسبتة ابنه عبد الملك، واستخلف على افريقية وأعمالها ابنه الكبير عبد الله (240).

ويبدو ان موسى كان يرجو أن يربط بين العرب في الاندلس والعرب في آسية الصغرى عن طريق أوربا، وذلك بفتح بلاد رومية التي كانت بيد الافرنج، وبها مقام البابا، والوصول إلى القسطنطينية. اذ يروى الحجارى. «ان موسى بن نصير نصره الله نصرا ما عليه مزيد، وأجفلت ملوك النصارى بين يديه، حتى خرج على باب الاندلس الذي في الجبل الحاجز بينها وبين الارض الكبيرة (فرنسا)، فاجتمعت الافرنج إلى ملكها الاعظم قارله ... فقالت له : ماهذا الخزى الباقي في الاعقاب؟ كنا نسمع بالعرب ونخافهم من جهة مطلع الشمس، حتى أتوا من مغربها، وأستولوا على بلاد الاندلس ... فقال لهم ما معناه : الرأى عندى أن لاتعترضوهم في خرجتهم هذه» ثم يضيف بعد ذلك أن موسى حينما اضطر إلى العودة إلى الشام «وهو مع ذلك متلهف على الجهاد الذي فاته، أسيف على مالحقه من الازعاج، وكان يؤمل أن يخترق مابقى عليه من بلد إفرنجة، ويقتحم الارض الكبيرة (فرنسا) حتى يتصل بالناس الى الشام مؤملا أن يتخذ مخترقه بتلك الارض طريقا مهيعا يسلكه أهل الاندلس في مسيرهم ومجيئهم من المشرق واليه على البر لايركبون بحرا» (241).

2 ـ فتح بلاد ما وراء النهر :

وفي نفس الوقت كان الحجاج أمير العراق والمشرق كله، قد وضع خطة الفتوح في الشرق وقام على تنفيذها، اذ كان الحجاج قد طلب أن ترسل إليه خريطة

(240) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ 4 ص 564 ـ 566، ابن عذارى : البيان المغرب جـ 2 ص 13، 14، 23 ـ 34، أحمد مختار العبادي : دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ص 37 ، 38.

(241) عن المقرى: نفخ الطيب جـ 1 ص 274 ، 277 ، الذهبي : دول الاسلام جـ 1 ص 46، ياقوت الحموي : نفح الطيب جـ 4 ص 331 وما بعدها.

لتلك البلاد، وتولى هو وضع الخطة الحربية، مما ترتب عليه ضم أملاك جديدة في آسيا الى فتوحات المسلمين .

فقد مد العرب فتوحاتهم إلى ما وراء النهر الواقع شمال حدود خراسان والمعروف باسم «جيحون» أو نهر بلخ. واقليم ما وراء النهر يحده من الجنوب نهر جيحون، ومن الغرب بلاد خوارزم، أما من الشرق والشمال فحدوده غير واضحة، ففى الشرق قد تدخل فيها بعض بلاد الصين، وفي الشمال كانت تمتد الى نهر «سيحون» (242).

اما سكان بلاد ما وراء النهر ولغتهم وحضارتهم فقد كانت إيرانية وتكونت في هذا الاقليم ممالك مستقلة غير واضحة التاريخ والحدود، بعضها يشمل أقاليم واسعة، والبعض الاخر مدنا مفرده أهمها :

مملكة طخارستان، وهي تقع على ضفتي نهر جيحون وعاصمتها بلخ، ومملكة الختل أو ختلان وهي أول بلاد ما وراء النهر خلف جيحون وعاصمتها هلبك. ومملكة صغانيان وأهم مدنها شُومان وأجرون (آخرون).

وأهم هذه الممالك، مملكة الصغد (السغد) وهي بلاد واسعة تمتد مابين نهري جيحون وسيحون، في قرى ومدن متصلة، بحيث اعتبرها العرب من جنان الارض وأكثرها عمارة، وفضلوها على غوطة دمشق. وكانت مملكة الصغد تتكون من عدة أقاليم مستقلة استقلالا ذاتيًا مثل بخارى وكَش ونَسف (أو نخشب) وأهمها على الاطلاق وكانت تعتبر عاصمة هذه المملكة هي مدينة سمر قند .

وكذا مملكة خوارزم وعاصمتها الجرجانية (كُركانح)، ومملكة فرغانة في أعالى نهر سيحون وعلى ضفتيه. وبعد سيطرة الترك عليها، كان ملوكها يتلقبون بالاخشيد. ومملكة اشُرو سَنَة، وتقع شرقي فرغانة وكان ملوكها يتلقبون بأفشين. وأخيرا مملكة الشاش وتقع شمالي أشُر وسَنَة (243).

---

(242) Le Strange : The lands of the Eastern caliphate, Cambridge 1905 p. 119, 433-459.

(243) محمد عبد الهادي شعيره : الممالك الحليفة، أو الممالك ما وراء النهر، مجلة كلية الآداب. جامعة القاهرة (فاروق) المجلد الرابع، 1948 م ص 4 ـ 19،

، فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص 410 ـ 411.

وقد كان يسكن هذه الممالك، خليط من الشعوب الأسيوية أغلبهم من الفرس، الذين انتشروا في جميع أجزائها، وكانوا يحكمونها عن طريق المرازبة، ومفردها مرزبان أي صاحب الثغر (المرز)، اذ كانت للفرس منطقة ثغور، وقد كان نظامهم الا يمد بعضهم بعضاً أثناء الحرب الا بإذن من الملك (244).

ويضاف إلى ذلك أن الاحوال السياسية لهذه الممالك عند الفتح العربي كانت معقدة وان هجرات القبائل الرعوية إلى تلك المنطقة كانت مستمرة من القرن الثاني قبل الميلاد إلى القرن الخامس الميلادي وآخر هذه القبائل قبائل من الشعب المغولى تعرف عند العرب بالهياطلة .

ومن العوامل التي ساعدت قتيبة بن مسلم على القيام بفتوحاته المظفرة في اقليم ما وراء النهر، نجاح المسلمين قبل قتيبة في فتح مملكة طخارستان وعاصمتها بلخ، أكبر مراكزها. اذ يروى البلاذرى «وكان المسلمون يغزون طبرستان ونواحيها فربما أعطوا الاتاوة عفوا وربما اعطوها بعد قتال».وفي خلافة معاوية بن ابن سفيان، قام بتولية مصقلة بن هبيرة بن شبل من عرب بنى ثعلبة، ولاية طبرستان وأظهر أهل طبرستان له الطاعة » حتى توغل بمن معه في البلاد، فلما جاوروا المضايق أخذها العدو عليهم وهددوا الصخور من الجبال على رؤوسهم فهلك ذلك الجيش أجمع وهلك مصقلة» فضرب الناس به المثل فقلوا « حتى يرجع مصقلة من طبرستان».

وحينما تولى محمد بن الاشعث بن قيس الكندى طبرستان، صالحهم ولكنهم «أخذوا عليه المضايق وقتلوا ابنه أبا بكر وفضحوه، ثم نجا، فكان المسلمون يغزون ذلك الثغر وهم حذرون من التوغل في أرض العدو» (245).

. ومن النصوص السابقة يتضح لنا الصلة بين طخارستان وما وراء النهر، وقد تنبه الى هذه الحقيقة المتنسشرق جب الذي اوضح أن فتح ما وراء النهرلم يصبح ممكنا الا بعد اخضاع تلك المنطقة اخضاعا تاما (246).

---

(244) انظر عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية جـ 2 ص 208 ـ 209.

(245) البلاذري : فتوح البلدان ص 330 ـ 331.

(246) Gibb : The Arab Conquest in Central Asia, London 1923, p. 12, 13

أما العامل الثاني وهو يدور حول عرب خراسان وأن فتح ما وراء النهر كان يرتبط بما كان يدور بين عرب خراسان، فالفتور الذي يصيب الفاتحين في خراسان، والخلافات القبلية التي كانت تدور بينهم، وتأثرهم بما كان في العراق من احداث أو أشخاص أو ولاة.

فقد تطورت الفتوحات العربية لاقليم ما وراء النهر بعد قيام زياد بن أبيه بنقل القبائل العربية للاستقرار بخراسان وانطلاق حملاتهم من عاصمته مرو بدلا من البصرة والكوفة بالعراق. ويروى البلاذرى أنه لما تولى زياد بن أبي سفيان (ابن أبيه)، ولاية العراق «ولى الربيع بن زياد الحارثي سنة 51هـ خراسان، وحول معه من أهل المصريين (البصرة والكوفة) زهاء خمسين ألفا بعيالاتهم» كما ولى أمير بن أحمر، مدينة مرو «فكان أمير، أول من أسكن العرب مرو».

ونتيجة لأعمال زياد هذه، تمكن ابنه عبيد الله الذي سيخلفه من دخول بخارى وان يستعين بفرق مشكلة من الفي رام من أهل بخاري في جيشه، لفتح أقاليم جديدة. مما مكن خلفه سعيد بن عثمان بن عفان والي خراسان الجديد من عبور نهر جيحون هو وجنده لأول مرة (247).

وما أن آلت خراسان إلى اختصاص الحجاج، حتى غزاها عماله من قبله، فغزاها المهلب بن أبى صفرة، منذ ولايتها في 78هـ / 697م، عدة مرات، وقد كان المهلب يحارب هو وابناؤه للجهاد لا للغارة، حتى أنه فقئت عينه اثناء حربه في هذه البلاد. كما اننا نجد أن اقليم ما وراء النهر أصبح ملاذا ومستقرا لبعض العصاة من القبائل العربية مثل موسى بن عبد الله بن خازم الهارب من قبيلة بنى تميم بخراسان، فاستولى على :ترمذ من، أهم مدائن صغانيان على نهر جيحون وأخذ يقوم-بعد انضمام ثوار العرب إليه - بغارات مستمرة في هذه البلاد.

ولكن سياسة فتح بلاد ما وراء النهر لم تشكل تقدمًا ملحوظًا الافي عهدالوليد ابن عبد الملك وبعد تولية الحجاج، لقتيبة بن مسلم الباهلي - من قبيلة باهلة العربية - عاملا على خراسان، ويقوم قتيبة منذ سنة 86هـ / 705م ولمدة سبعة

---

(247) انظر البلاذري : فتوح البلدان ص 400 ، 401 Gibb : The Arab p. 23 ، شكري فيصل : حركة الفتح الاسلامي في القرن الأول ص 212 - 214.

سنوات بغزو بلاد ما وراء النهر كل عام تقريبًا حتى تمكن من الاستيلاء على الاقليم كله (2) وساعده على ذلك تلك الاصلاحات التي قام بها في الجيش الاسلامي .

فقد كانت روح العصبية التي أملت على العرب أن يستأثروا بحقوقهم كاملة. باعتبارهم طبقة محاربة، قد قللت إلى حد بعيد من عدد الفرس في الجيوش الاسلامية. وكانت جيوش خراسان في ذلك الوقت تتألف على الوجه الآتي. من أهل البصرة والعالية تسعة آلاف من المقاتلة ، وسبعمائة من بكر وعشرة آلاف من تميم وأربعة آلاف من عبد قيس وعشرة آلاف من الازد وسبعة آلاف من الكوفة ، ولم يكن مع هؤلاء السبعة وأربعون ألف عربي ، سوى سبعة آلاف من الموالى بقيادة حيان النبطي ، وكان من الديلم ، وقيل من خراسان (248) .

على أن قتيبة الزم أهالى بخارى ، بعد أن فتحها لأول مرة، كما ألزم غيرهم من أهالى البلاد المفتوحة أن يمدوه بقوة إضافية من الجيوش المحلية، تتراوح عادة بين عشر آلاف وعشرين ألف رجل يقومون بالخدمة مع الجيوش العربية.-ويعلق جب ،على ذلك بقوله «ولا يبعد، إذا كان ما ذكرناه حقا، أن يكون سعيد بن عثمان هو الذي سن هذه السنة بعد أن قام بفتح سمرقند، كما لايبعد أن يكون ذلك النظام قد عمل به في أماكن أخرى شملها الفتوح العربية، لتكون هذه الجيوش على أهبة الاستعداد لتلبية نداء قوادهم اذا دعت الحاجة إلى ذلك. وهذا يعلل السرعة التي تم بها فتح سمرقند على يد قتيبة بن مسلم» (249) .

ونتيجة لما قام به قتيبة استحق مدح الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك الذي كتب إليه «قد عرف أمير المؤمنين بلاءك وجدك واجتهادك في جهاد اعداء المسلمين، وأمير المؤمنين رافعك وصانع بك الذي يجب لك. فأتم مغازيك وانتظر ثواب ربك، ولا تغيب عن أمير المؤمنين كتبك، حتى كأنى أنظر إلى بلائك والثغر الذي أنت فيه» (250) .

---

(248) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 5 ص 15، حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ج 1 ص 301.

(249) Gibb : The Arab, p. 40

(250) الطبري : تاريخ الامم والملوك ج 8 ص 96.

وكان من اثر فتح بلاد ما وراء النهر أن دخل الاسلام فيها، ذلك أن قتيبة لما وصل إلى سمرقند وجد فيها كثيرا من الاصنام وكان عُبادها يعتقدون أن كل من اعتدى عليها مات لساعته. على أن هذا الفاتح المسلم لم يأبه لهذه المخاوف التي أثارتها تلك الخرافات، ولم يحجم عن احراق الاصنام. ويروى البلاذرى أن قتيبة أمر بيوت الاصنام والنيران، فأخرجت الاصنام فسلبت حليتها وأحرقت، وكانت «الاعاجم تقول أن فيها أصناما من استخف بها هلك فلما حرقها قتيبة بيده اسلم منهم خلق » (251).

وكان تحول الناس في هذه البلاد إلى الاسلام برغم هذا ضئيلا في مستهل تاريخ تقدم الفتوح الاسلامية في أواسط آسيا. ويظهر أن أهالى هذه البلاد طالما تظاهروا بانتحالهم الاسلام إلى حين، ثم أسرعوا فكشفوا القناع وشقوا عصا الطاعة للخليفة بمجرد انسحاب جيوش الفتح .

ولم يصب العرب النجاح المطلوب في ارغام الاهلين على اعتناق دين الاسلام، حتى أتم قتيبة فتح بخارى للمرة الرابعة، فحمل أهلها على اعتناق الاسلام. ولقى الذين أسلموا من أهالى هذه البلاد مقاومة عنيفة من مواطنيهم، حتى ان كل مسلم اضطر أن يحمل سلاحا انى سار ليحافظ على حياته.

ولم يجرؤ المسلمون على الظهور في المساجد أو الاماكن العامة من غير أن يكونوا متقلدى السلاح، على حين لم يكن بد من أن تقام الجواسيس لمرافقة الحديثى العهد بالاسلام. وكذلك بذل العرب جهودا كبيرة لجذب الناس إلى هذا الدين، بل لقد حاول تاليفهم بالمال لحضور صلاة الجمعة بالمساجد. وسمحوا بقراءة القران باللغة الفارسية بدلا من العربية حتى يستطيعوا جميعًا أن يفهموه في سهولة ويسر. (252).

وبهذا الفتح العظيم اعتبر قتيبة من كبار رجال الفتوح أمثال خالد، ويكفي دليلا على عظم قدره أنه لم تمتد الفتوح بعده في هذه البلاد أكثر من ذلك.

---

(251) البلاذري : فتوح البلدان ص 411.

(252) توماس ارنولد : الدعوة الى الاسلام ص 243 ، حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ج 1 ص 303، 304.

كذلك دل على براعة ومقدرة هائلة، فمع أنه كثيرا ما وجد حلفا من ملوك ما وراء النهر، الذين كانوا دائما يستعينون بالترك، الا انه إنتفع بذكائه من وجود العداوة الطبيعية بين هؤلاء الملوك، واستطاع أن يستولى على ممالكهم الواحدة بعد الاخرى . وأكثر من ذلك انه اظهر مرونة وسيادة تليق بقائد عربي ، فلم يكن يخلع ملوك البلاد، ولكنه كان يبقى أغلبهم، لتكون شعوبهم اداة طيعة تحت يده . (253).

3 ـ العلاقات مع الصين :

روى عن الرسول أنه قال : «اطلبوا العلم ولو في الصين». ومع أنه ليس لدينا شاهد تاريخي يدل على ان هذا الكلام قد جاء على لسان الرسول، فليس من المستحيل ان يكون قد عرف اسم هذه البلاد، لان الصلات التجارية بين بلاد العرب والصين كانت قد توطدت قبل مولده بزمن طويل .

فكانت حاصلات الشرق التي تتلاقاها بلاد الشام وموانئ البحر الابيض تمر بنسبة هائلة عن طريق بلاد العرب. وفي القرن السادس الميلادى كانت بين الصين وبلاد العرب تجارة هامة عن طريق سيلان. وفي بداية القرن السابع كانت التجارة بين الصين وبلاد فارس وبلاد العرب لاتزال واسعة الانتشار، حيث كانت مدينة سيراف، الواقعة على الخليج الفارسي، هي السوق الرئيسية للتجار الصينيين .

وقد ورد ذكر العرب لاول مرة في التواريخ الصينية في ذلك الوقت الذي ابتدأ فيه حكم دولة تانج Tang (618 ـ 907م).وتشير هذه التواريخ إلى نشأة القوة الاسلامية في مدينا، كما تتحدث بإيجاز عن التعاليم الدينية للعقيدة الجديدة .

اما تاريخ كوانجتنج Kwangtung فيذكر قدوم أول من جاء مـن المسلمين إلى الصين على النحو الاتي :

« في عهد دولة تانج Tang وفد على كنتن Canton عدد كبير من الغرباء من مملكة انام Annam وكمبوديا Combodia, ومدينا وبعض بلاد اخرى وكان هؤلاء الغرباء يعبدون الله، وليس لهم في معابدهم تمثال ولا صنم ولا

(253) عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية جـ 2 ص 227، 228.

صورة. وكانت مملكة مدينا قريبة من مملكة الهند، وفيها نشات ديانة هؤلاء الغرباء التي تختلف عن ديانة بودا .... ويطلق عليهم الان اسم هوبي هوبي Hui Hui ».

ومن المحتمل جدا، على الرغم من قلة الشواهد التاريخية الصريحة، ان الاسلام دخل الصين اول ما دخل مع التجار الذين كانوا يسلكون الطريق البحري القديم. ولكن اسبق النصوص التي يمكن ان نثق بصحتها تشيرإلى علاقات سياسية تبادلوها برا عن طريق بلاد الفرس. (254).

وعندما توفي يزد جرد اخر ملوك ال ساسان في فارس، استنجد ابنه فيروز بالصين لتنصره على العرب، غير ان امبزاطور الصين اجاب بأن بلاد الفرس كانت من بعد الشقة وطول المسافة بحيث لايستطيع أن يرسل إليه الجيوش المطلوبة، ولكن قيل انه بعث إلى البلاط العربي سفيرا يدافع عن قضية الأمير الهارب، ومن المحتمل أيضا أن يكون الامبزاطور قد اوصى سفيره بأن يتبين مدى الاتساع والقوة في الدولة الجديدة التي كانت قد نشأت في الغرب وقيل أن الخليفة عثمان أرسل أحد القواد العرب، ليرافق السفير الصيني في عودته سنة 651م، فأكرم الامبزاطور وفادة أول سفير من المسلمين بُعث اليه (255).

وفي عهد الوليد (86 ـ 96هـ / 705 ـ 715م) نجد القائد العربي قتيبة ابن مسلم والى خراسان، يعبر نهر سيحون ويشرع في سلسلة من الحملات الناجحة، اخضع فيها على التوالي بخارى وسمرقند ومدنا أخرى، ومضى قدمًا في فتوحاته حتى وصل إلى الحدود الشرقية للامبزاطورية الصينية. وبالرغم من وصول نبأ وفاة الوليد ابن عبد الملك اليه، فلم يثنه ذلك عن مواصلة الغزو، اذ كان الحجاج قد وعد كل من قائديه محمد بن قاسم فاتح السند وقتيبة بن مسلم فاتح ما وراء النهر بإمارة الصين لمن وصلها قبل الآخر، لذلك يروى، أن قتيبة سارع بإرسال وفد برئاسة هبيرة ابن المشمرج الكلابي الى ملك الصين، وبعد أن دارت بينه وبينهم عدة مراسلات قال ملك الصين لهبيرة :

(254) أنظر schefer ما كتبه العرب والفرس عن الصين في Notice sur les relations des peuples musulmans avec les Chinois
توماس ارنولد : الدعوة الى الاسلام ص 331 ـ 332.
حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ج 1 ص 304.

(255) توماس ارنولد : الدعوة الى الاسلام ص 332

« قد رأيتم عظم ملكي وأنه ليس أحد منعكم مني ، وأنتم في يدي بمنزلة البيضة في كفي.. فقولوا لصاحبكم ينصرف، فانني قد عرفت قلة اصحابه والا بعثت اليكم من يهلككم»، فأجابه هبيرة : «كيف يكون قليل الاصحاب من أول خيلة في بلادك وآخرها من منابت الزيتون ؟... وقد حلف ان لا ينصرف حتى يطأ ارضكم ويختم ملوككم ويعطى الجزية» فقال ملك الصين : «فإنا نخرجه من يمينه ونبعث تراب أرضنا فيطأه ونبعث إليه ببعض أبنائنا فيختمهم ونبعث إليه بجزية يرضاها. فبعث إليه بهدية وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم. ثم اجازهم فأحسن، فقدموا على قتيبة، فقبل قتيبة الجزية وختم الغلمان وردهم ووطئ التراب» (256).

وتذكر التواريخ الصينية ان هشام بن عبد الملك (105 ـ 125 هـ / 724 ـ 743 م) أرسل سفيرا يدعى سليمان الى الامبراطور هزوان تسنج وقد اكتسبت هذه العلاقات السياسية التي قامت بين الدولتين العربية الصينية اهمية جديدة في أواخر عهد هذا الامبراطور حين طرده احد الغاضبين عن عرشه، فتنحى عنه لابنه سونتسنج (756 م)، فطلب هذا الأخير النجدة من الخليفة العباسي المنصور، وأجابه الخليفة الى هذا الطلب بأن ارسل اليه قوة من الجيوش العربية، نجح بمساعدتهم في استرجاع عاصمته من ايدي الثوار. ولم ترجع هذه القوة العربية الى بلادها بل تزوجت من اهلها واستقرت في الصين (257).

4 ـ فتح بلاد السـنـد :

كذلك امتدت فتوحات المسلمين في اسيا إلى بلاد السند وهي تقع شرقي إيران على ساحل بحر الهند، عبارة عن دلتا نهر السند العظيم وتعتبر المدخل لقارة الهند.

---

(256) الطبري : تاريخ الامم والملوك جـ 8 ص 100 ـ 101 وقارن ما اورده ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ 5 ص 5، 6، 7.

ويعلق فليب حتى على محاولة قتيبة فتح الصين بأن الأخبار المنقولة حول هذا الموضوع استنسقت ـ على ما يظهر ـ مجرى الحوادث فنسبت الى قتيبة ما تم من فتح بعده على يد نصر ابن سيار وخلفائه.انظر تاريخ العرب جـ 1 ص 275.

(257) توماس ارنولد : الدعوة الى الاسلام ص 332 ـ 333، حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام جـ 1 ص 306.

وقد كان يسكنها عناصر ارية، تشبه سكان ايران، وإن كان أغلب سكانها من عناصر تسمى الهندية ونسبت إليها البلاد وتميزت بلون أسود خاص مما جعل العرب يعدونهم من جملة السودان .

وسكنها أيضاً أصناف من قبائل مجهولة الأصل، مثل الزط والسيابجة، اذ كانت الاولى من الرعاة، الذين يتبعون الكلأ على الساحل وانتشروا حتى الخليج الفارسي والبحرين، وكان اسراهم يعملون كجند مرتزقة في جيش الفرس.

كذلك وجدت عناصر تركية كثيرة في بلاد اسمها «قيقان»، تلى خراسان من الشرق ، وتعتبر من بلاد السند .

وكانت الهند ممالك متفرقة تتراوح بين القوة والضعف، ولكن قبل الفتح العربي للسند، تاسست بها مملكة قوية، آلت إلى ذاهر أو داهر، الذي عرف بملك السند .

أما من الناحية الدينية فقد كانت الديانة البوذية منتشرة بالهند وفي أماكن عديدة من اسيا مثل الصين. وقد كان اتباع هذه الديانة يعظمون صنم بوذا وأطلق عليه العرب «البُد» واعتبروه مثل كنائس النصارى ومعابد اليهود وبيوت النيران عند المجوس. وقدس الهنود نهر كنك (الكنج) ويتهادون ماءه كما يتهادى المسلمون ماء بئر زمزم، كما يحرصون على أن يغتسلوا فيه ويموتوا على ضفافه وبخاصة في بلدة بارانس (بنارس) المقدسة، حيث كانوا يحرقون جسد الميت ويذرون رماده في النهر. وكانوا يحجون من جميع أجزاء الهند إلى بلد اسمه ملتان (مولتان)، حيث يوجد تمثال البد (بوذا) الأكبر ، كما يأتي المسلمون إلى مكة للحج إلى الكعبة (258).

ونظرا لأن العرب طالما ركبوا البحر إلى بلاد السند قبل ظهور الاسلام كتجار، لذلك كانوا على معرفة بها، فأرسلوا أولى حملاتهم إليها بعد ان انتقل الرسول إلى جوار ربه بخمس عشر سنة، واستمرت حملات العرب البحرية والبرية تتوالى على بلاد

---

(258) ياقوت الحموي : معجم البلدان جـ 5 ص 151، المسعودي : مروج الذهب جـ 1 ص 97 ـ 100 ، التنبيه والاشراف ص 201، ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ 4 ص 11 ، عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية جـ 2 ص 228 ـ 232

السند في الشمال الغربي من شبه القارة الهندية حتى نجحوا في تحويل أهلها إلى الاسلام .

فيروى البلاذري انه في خلافة عمر بن الخطاب (13 ـ 23هـ / 634 ـ 643م) قام واليه عثمان بن ابي العاصي الثقفى على البحرين وعمان في سنة 15هـ / 636م بإرسال حملات بحرية بقيادة اخيه الحكم بن ابى العاصى إلى تانة والى بروص، واخيه المغيرة بن ابى العاصى إلى خور الديبل على الساحل الغربي لبلاد الهند، ويعرف الان بإسم كراتشي، فلقى العدو فظفر. فكتب إليه عمر بن الخطاب : «يا أخا ثقيف حملت دودا (الناس) على عود (السفن) وانى احلف بالله. ألو أصيبوا لأخذت من قومك مثلهم» (259).

فلما تولى عثمان بن عفان الخلافة في 23هـ / 643م، أمر عبد الله بن عامر واليه على العراق ان يرسل إلى ثغر الهند من يعلم علمه ولينصرف إليه بخبره، فوجه حكيم بن جبلة العبدى ، فلما رجع أوفده إلى عثمان فسأله عن حال البلاد فقال : «ماؤها وشل (260)، وثمرها دفل (261)، ولصها بطل، ان قل الجيش فيها ضاعوا، وان كثروا جاعوا» فقال له عثمان : « أخابر أم ساجع» ولم يغزها .

واندلعت الفتنة الكبرى ، وانشغل المسلمون عن الغزو، وما أن تولى علىابن أبي طالب الخلافة (35 ـ 40هـ / 656 ـ 661م) حتى قام الحارث بن مرة العبدي بحملته الى ثغر الهند في 38 أو 39هـ وأصاب مغنما وسبيـًا. ولكنه حين قام بغزو أرض القيقان من بلاد السند مما يلى خراسان قتل في 42هـ بدايةخلافه حكم معاوية ابن أبي سفيان (262).

وفي خلال فترة حكم معاوية بن أبي سفيان الممتدة من 41 إلى 60هـ توالت حملات العرب واتخذت طبيعة الاستمرارية حتى كانت بلاد الهند ترتعد في أيامه على حد تعبير المؤرخ جيبون Gibbon (263) خصوصـًا بعد فتح جبهات

---

(259) البلاذري : فتوح البلدان ص 420.

(260) وشل : قليل المياه.

(261) دفل : الدفلى شجر زهره كالورد الأحمر وحمله كالخرنوب

(262) البلاذري : فتوح البلدان ص 420 ـ 421.

(263) Gibbon : The Decline and fall of the Roman Empire (London 1950) p. 388.

متعددة لغزو بلاد السند : الاولى عن طريق مكران في شرقيها،اذ بعد فتح العرب لها حلف الجند بطلاق نسائهم الا يهربوا وأن يقاتلوا اعدائهم، واتخذوا من مكران قاعدة عسكرية، يغيرون منها على السند. أما الثانية من ناحية مفازة سجستان، الواقعة شمال مكران .

واشهر حملات العرب أيام معاوية، حملة المهلب بن أبي صفرة القائد المعروف في 44هـ ، وامتدت فتوحه إلى الاراضي الواقعة بين كابل والملتان ثم امتدت فتوح المسلمين في هذه البلاد فشملت القوقان والقيقان والديبل (264) .

ولكن انشغال العرب بالفتنة بعد موت معاوية، ثم فتنة ابن الاشعث بسجستان أيام عبد الملك، حد من نشاط العرب في هذه الناحية، وما أن تولى الوليد بن عبد الملك (86 ـ 96 هـ / 705 ـ 715م) الخلافة، حتى قام الحجاج ابن يوسف الثقفي واليه على الجزء الشرقي من الدولة الاسلامية بالتخطيط والتجهيز لفتح اقليم السند، فقام الحجاج بتجهيز حملتين الاولى برية والثانية بحرية، ثم أخذ في تزويد الجند بكل ما يحتاجون إليه من ضروريات وغيرها مثل الابر والخيوط، وحتى يدفع العرب إلى الاستقرار بهذا الاقليم ـ حيث لايتوفر فيه الخل وقد تعود العرب الطبخ به ـ قام الحجاج بنقع القطن المحلوج في الخل الحاذق، ثم جفف في الظل وقال لقواده: «اذا صرتم إلى السند فان الخل بها ضيق فانقعوا هذا القطن في الماء ثم اطبخوا به واصطبغوا» (265). كما قام بصنع منجنيقا كبيرا يسمى «العرس»، كان يديره ساعة الرمى خمسمائة رجل، وكذا سلاليم اقتحام الحصون (266) .

ويذكر البلاذرى أن بعض نساء التجار، ابحروا عائدين للعراق، «فعرض السفينة التي كنا فيها قوم من ميد الديبل (ثغر السند) في بوارج فأخذوا السفينة بما فيها فنادت امرأة منهن وكانت من عرب بنى يربوع ياحجاج، وبلغ الحجاج ذلك فقال : يالبيك» وأرسل الحجاج إلى ذاهر ملك السند يسأله اطلاق سراح العربيات اللاتى اخذهن القرصان فتعلل بانهم لصوص ولا يقدر عليهم (267) .

(264) البلاذري : فتوح البلدان ص 421 ـ 422.
(265) البلاذري : فتوح البلدان ص 424.
(266) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 4 ص 537
(267) البلاذري : فتوح البلدان ص 429.

ارسل الحجاج، حملة السند المكونة من ستة آلاف مقاتل من أهل الشام وخلقا من غيرهم بقيادة محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم ابن أبي عقيل الثقفي ، ابن عمه وصهره، البالغ من العمر سبعة عشر عامًا فزحف من مُكران في 89هـ / 707 ـ 708م، ففتح أرمئيل وهي مدينة كبيرة من أرض السند شرقي مكران، ثم سار إلى الديبل ميناء السند العظيم على ساحل بحر الهند، فوافته الحملة البحرية، التي قامت بحمل التجهيزات وامدادات الرجال والسلاح وقام بمحاصرة المدينة ولم يتمكن من فتحها الا بعد تخطيم منارة المعبد البوذي بواسطة المنجنيق الكبير، فاقتحمها واستولى عليها وقضى على الوكر الكبير للقرصان الهنود. ويروى ابن الاثير أن محمد ابن قاسم «انزلها ... أربعة آلاف من المسلمين وبنى جامعها» مما يرجح أن العرب قد خططوا للاستقرار باقليم السند .

سار محمد صاعدا الى شمال السند، وازدادت جيوشه بما انضم إليه من قبائل الزط، خصوصًا أن المسلمين كانوا قد صالحوهم في أثناء فتوحهم في فارس، بل أن بعضهم هاجر إلى بلاد المسلمين ودخلوا في الاسلام، وانضموا إلى جيش علي، كما نقل معاوية بعضا منهم إلى الشام .

عبر محمد ومن انضم إليه من الزط والبالغ عددهم أربعة آلاف مقاتل، نهر رمهران (السند) حيث التقى بقوات ملك السند ذاهر المجهزة بالفيلة والمشكلة من المشاة، فانهزم الملك ذاهر وقتل ودخل العرب مدينة راور عاصمة اقليم السند .

لم يكتف محمد بن قاسم بهذا النصر الكبير، بل سارع بجني ثمار انتصاراته وعبر نهر بياس، زاحفًا إلى مدينة مُلتان المقدسة الغنية حيث معبد بوذا العظيم الذي كان يقوم بخدمته ستة آلاف رجل دين، ونجح المسلمون في الاستيلاء على المدينة بعد أن نفذت اقواتهم فأكلوا الحمر وأصابوا بها ذهبًا كثيرا،اذ كان الهنود يهدون الاموال إلى معبد بوذا بالمدينة. وبعدها أوغل محمد في شمال السند إلى مدينتى بيلمان وقندهار، حتى وصل إلى اقصى حدود قشمير أو كشمير التي كانت تجاور الترك . (268) .

---

(268) البلاذري : فتوح البلدان ص 424 ـ 427. ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 4 ص 537 ـ 539، عبد الحميد العبادي : صور من التاريخ الاسلامي ص 145 ـ 154. ، عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ج 2 ص 235 ـ 237.

وكان محمد يحترم عقائد الهنود ويقول «ما البد (معبد بوذا) الا ككنائس النصارى واليهود وبيوت نيران المجوس (269).وبالرغم من صغر سنه فقد تمثلت فيه سجايا القبائل العربية من سؤدد وشجاعة، بحيث كان بحق معجزة حربية، مثل الاسكندر الأكبر. وكان فتحه لبلاد السند من أعظم الفتوحات الاسلامية،فبعده لم يتجاوز أحد من الغزاة فتوحاته فيها الى أيام الغزنويين (270).

ويذكر ابن الاثير انه حينما نظر الحجاج في تكلفة حملة محمد بن قاسم الثقفي لفتح بلاد السند وجدها ستين ألف ألف درهم، وحينما عرف بمقدار ماغنمه المسلمين، فكان مائه ألف ألف وعشرين ألف ألف درهم، قال ربحنا ستين ألفا وادركنا ثأرنا ورأس ذاهر(271). فضلا عما وصل إلى الحجاج من زط السند وأصناف جواميسهم،اذ يروى البلاذرى أن الحجاج اتى « بخلق من زط السند وأصناف ممن بها من الامم معهم أهلوهم وأولادهم وجواميسهم فأسكنهم بأسافل كسكر (بالبصرة) .. فغلبوا على البطيحة وتناسلوا بها». (272) ولكن أهم غنائم هذه الحملة - بلاشك - هو تأسيس محمد بن القاسم لحكومة ومجتمع اسلامي، كانت لهما السيادة في السند في 96هـ / 714م.وفي خلال القرون الثلاثة الاولى من الحكم العربي، وبالتالى كان من الطبيعي أن يتحول الكثير من شعوب الاقليم المفتوح إلى الاسلام (273).

لذلك لما تولى عمر بن عبد العزيز (99 - 101هـ / 717 - 720م) وكتب إلى ملوك وأمراء السند يدعوهم إلى الاسلام، ووعد بأن يقرهم على ما بأيديهم وأن يكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم «أسلم كليشة ابن ذاهر والملوك وتسموا بأسماء العرب» (274).وبالطبع كان لسياسة محمد بن القاسم الخاصة بالتسامح الدينى اثرها في نجاح سياسة الخليفة عمر بن عبد العزيز بعد ذلك، فقد سمح

(269) البلاذري : فتوح البلدان ص 427 .
(270) أنظر عبد الحميد العبادى : صور من التاريخ الاسلامي ص 145 وما بعدها
(271) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 4 ص 539.
(272) البلاذري: فتوح البلدان ص 172 ، 368.
(273) توماس ارنولد : الدعوة الى الاسلام ص 305
(274) البلاذري : فتوح البلدان ص 429، ابن الأثير:الكامل فيالتاريخ ج 5 ص 54 - 55.

لشعب برهمن آباد، وكانت مدينتهم قد فتحت عنوة، بإصلاح معبدهم الذي كان مصدر عيش البراهمة، وما كان لأحد أن يحرم من إقامة شعائر دينه الخاصة، اذ كانوا يسمحون للشعب بإقامة عقائده وشرائعه الخاصة (275).

وغزا عمرو بن مسلم الباهلى ، عامل عمر بن عبد العزيز بعض بلاد الهند. وفي عهد هشام بن عبد الملك (105 ـ 125 هـ/724 ـ 743 م) اضطر المسلمون للانسحاب من الهند، «ثم ولى الحكم بن عوانه الكلبي، وقد كفر أهل الهند، الا أهل قصة، ولم ير المسلمون ملجأ يلجأون إليه، فبنى من وراء البحيرة مما يلى الهند مدينة سماها «المحفوظة» وجعلها مأوى لهم ومعاذا ومصرها» (276).

رابعًا : العلاقات مع الدولة البيزنطية

بالرغم من وجود علاقات بين العرب وبين البيزنطيين، قبل الاسلام، وكانت هذه العلاقات شائعة ومعروفة، وكانت تدور حول التجارة والنواحي الدينية، ألا أن العلاقات العربية البيزنطية، بعد ظهور الاسلام وانتشاره، تطورت تطورا يؤذن باصطدام قريب، ومنذ أن نجح البيزنطيون في مؤتة من رد القوات العربية جنوبًا، تميزت هذه العلاقات بالعداء والصراع .

وبعد نجاح العرب في اقتطاع الشام وولاية مصر من الدولة البيزنطية وتمكنوا من اسقاط الامبراطورية الفارسية، تطلع العرب إلى احتلال القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية.

وكان معاوية سواء كان واليًا للشام أو أول خليفة أموى بدمشق، يعتبر دائمًا أن الحرب ضد البيزنطيين من أهم واجباته وأخطرها شأنًا .

ففي خلال ولايته للشام لكل من عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، قام باخضاع سواحل الشام وفرض سيطرة المسلمين عليها، فاستولى على صيدا وجبيل وبيروت وطرابلس، وهي ثلاثة مدن مجتمعة وقام بترميمها وشحنها بالمقاتلة واقامة الحرس

---

(275) توماس ارنولد : الدعوة الى الاسلام ص 306.

(276) البلاذري : فتوح البلدان ص 430 ، 431.

على مناظرها واتخاذ المواقيد لها. وهكذا تمكن من طرد النفود البيزنطى من السواحل الشامية. (277).

ولكي يضمن معاوية النجاح في صراعه مع البيزنطيين، كان يجب أن ينازل خصومه في البحر أيضا، ولذلك «استأذن عمر في غزو البحر فلم يأذن له، فلما ولى عثمان بن عفان ، كتب إليه يستأذنه في غزوة قبرص ويعلمه قربها وسهولة الأمر فيها، فكتب اليه (عثمان) أن قد شهدت ما رد عليك عمر ـ رحمة الله ـ حين استأمرته في غزو البحر» .

لم ييأس معاوية وأخذ يلح ويهون ركوب البحر إلى قبرص، فأجابه عثمان بقوله : «فإن ركبت البحر ومعك امرأتك، فأركبه مأذونا لك وإلا فلا، فركب البحر من عكا ومعه مراكب كثيرة وحمل امرأته فاخته بنت قرظة بن عبد عمرو بن نوفل بن عبد مناف بن قصى ، وحمل عبادة بن الصامت امرأته أم حرام بنت ملحان الانصارية وذلك في 28هـ / 648م (أو 29هـ / 649م) بعد انحسار الشتاء ... فلما صار المسلمون إلى قبرس فارقوا إلى ساحلها ..... بعث إليهم اركونها يطلب الصلح وقد اذعن اهلها به فصالحهم على سبعة آلاف ومائتي دينار يؤدونها في كل عام» بالاضافة إلى عدم معاونتهم الروم وأن يخبروا المسلمين بخطط الروم اذا اتجهوا إلى السواحل الاسلامية .

وحينما نقض أهل قبرص، عهد المسلمين، في 32هـ وأعانوا الروم على القيام بحملة بحرية على السواحل الاسلامية وأمدوهم بمراكب من عندهم، غزاهم معاوية في 33هـ / 654مفي خمسمائة مركبوأعاد فتح جزيرة قبرص للمرة الثانية عنوة فقتل وسبى. وحتى لاتتكرر ثوراتهم قام معاوية بنقل اثنى عشر ألفا مقاتل من أهل الديوان، وذلك للسيطرة على هذه الجزيرة الاستراتيجية الموقع بالنسبة للسواحل الشامية، والتي كانت تسيطر عليها بيزنطة، وتتخذها قاعدة للهجوم على سواحل الشام ومصر، كما نقل إليها جماعة من أهل بعلبك للاستقرار بها وأقام مدينة جديدة وبنيت المساجد بها (278).

---

(277) البلاذري : فتوح البلدان ص 133 ـ 134

(278) البلاذري : فتوح البلدان ص 157 ، 158

ويروى اغابيوس Agabios بأنه لم تأت سنة 33هـ / 654م حتى كان للعرب اسطول يتكون من اكثر من ألف وسبعمائة قطعة، استطاع العرب به أن يخطموا السيادة البيزنطية في شرق البحر المتوسط ويستولوا على بعض جزره (279).

ويظهر ان هذا النشاط المتزايد من قبل العرب، خصوصاً بعد سقوط قبرس، أخاف بيزنطة حتى خشى الامبراطور البيزنطى قسطنطين الثاني، حفيد هرقل، أن يجهز معاوية اسطولا بحرياً للهجوم على القسطنطينية نفسها، فهرع الامبراطور إلى ملاقاته على رأس حملة بحرية مشكلة من ازيد من ألف مركب وابحر لملاقاة أسطول العرب أو بقصد احتلال مدينة الاسكندرية عاصمة ولاية مصر في العهد البيزنطي .

وفي نفس الوقت خرج الاسطول العربي في 700 سفينة تقريباً واختلف المؤرخون حول عدد سفن الاسطول. فأغابيوس يدعى أن عدده كان 1700 سفينة وابن عبد الحكم في كتابه فتوح مصر يروى انه كان 200 سفينة واما البلاذرى في فتوح البلدان فيذكر أنه كان 500 سفينة،فاذا علمنا أن رواية ابن عبد الحكم تدور حول الاسطول المصرى برئاسة عبد الله بن سعد بن أبي سرح والي مصر في ذلك الحين، ورواية البلاذرى تدور حول اسطول الشام برئاسة بسر بن أبى ارطأة، ادركنا أن الاسطول الاسلامى كان مشكلا من الاسطول المصرى (200 سفينة) والاسطول الشامي (500 سفينة) (280).

التقى الاسطولان قرب سواحل اسية الصغرى سنة 34هـ / 654م أو العام الذي يليه، وأنزل الاسطول الاسلامي بمراكب الروم خسائر فادحة، حتى انها شبهت بمعركة اليرموك وأطلق عليها المؤرخ ثيوفانس، يرموك الثانية (281). وقد وصف الطبري ماء البحر حيث دارت المعركة فقال ان الدم كان غالباً على الماء وطرحت الامواج جثث القتلى ركاما (282)، ولكن العرب مع ذلك لم ينتهزوا هذه الفرصة فيهاجموا القسطنطينية .

---

(279) اغابيوس : العنوان، تحقيق وترجمة Vasiliev ، باريس 1909 م ج 2 ص 219.

(280) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص 189 ـ 190. البلاذري : فتوح البلدان ص 158.

(281) Theophanes : Chronographia in Patrologia

(282) الطبري : تاريخ الأمم والملوك احداث سنة 34 هـ.

ومن المرجح أن أسباب عدم اسراع العرب إلى مهاجمة العاصمة البيزنطية قد يعود إلى عدم استطاعة الجيش الاسلامي البرى التقدم في آسيا الصغرى، اذ لم يعدو قيسارية في كبدوكيــه. وكذلك إلى اندلاع الفتنة الكبرى ومقتل الخليفة عثمان بن عفان وما تلاه من فتن داخلية وصراع حول السلطة بين الخليفة الجديد علي بن أبي طالب ومعاوية بن ابي سفيان والي الشام والمطالب بثأر عثمان ، حتى اضطر معاوية الى مساومة الامبراطور البيزنطي على الصلح في 36 هـ / 675 م، حتى لا ينتهز الروم الفرصة فيهجمون على الشام التي كان أميرا عليها منذ عمر ابن الخطاب، فرد اسراهم وسألهم الموادعة. ويذكر ثيوفانس انه قبل دفع جزية سنوية لهم (283) .

ولكن معاوية ما كاد يستتب له الأمر وانتهى من مشاغله الداخلية حتى جدد الغارات على ممتلكات الدولة البيزنطية برا وبحرا على شكل موجات متتالية، لم يستطع أن يجاريه فيه أحد من خلفائه، بحيث كادت أن تصل القوات العربية إلى الاستيلاء على عاصمة بيزنطة نفسها، ثم تدرجت هذه الحملات حتى أصبحت حولية تعرف بالصوائف لأنها كانت تشن كل صيف، حتى تحولت الجبهة البيزنطية الى معسكر دائم لتدريب الجند العربي واثارة الحماسة فيهم وكذا الى منفى اختيارى لمعارضى الدولة الاتقياء الذين حرصوا على الشهادة في سبيل نشر الاسلام، حرصهم عن الزج بأنفسهم كمؤيدين لبنى أمية .

وقد اشتهرت حرب العرب مع الروم بإسم «حرب الثغور» أي الحدود وتعنى كل موضع يكون في أرض العدو، قرب أرض المسلمين وكانت هذه الثغور تنقسم إلى منطقتين رئيسيتين .

الاولى ، منطقة الثغور الجزرية وهي التى خصصت للدفاع عن الجزيرة أو شمال العراق، ومن أهم حصونها ملطية والمصيصة ومرعش.

والثانية، منطقة الثغور الشامية وتقع غرب الثغور الجزرية. وقد خصصت للدفاع عن الشام ومن اهم حصونها طرسوس وأطنة. وقد امتازت منطقة الثغور الشامية بأن

---

(283) البلاذري : فتوح البلدان ص 163. Theophanes : Chronographca p. 347.
، فليب حتى. تاريخ العرب جـ 1 ص 262 ، 264 ، بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص 125.

الحملات التي تخرج منها كانت برية وبحرية في آن واحد. وقد لعبت أساطيل الشام ومصر دورا مشتركا هاما في غزوات هذه المنطقة. (284).

ولما كانت منطقة الثغور الجزرية والشامية، خالية من الناس ألا من الجراجمة (285) النصارى ، لأن الروم نقلوا أهلها منذ فتح الشام حتى انها سميت بالضواحي ولقلة سكانها، فإن العرب منذ عهد عثمان عملوا على انزال القبائل العربية بها، فانزلت قيس وأسد من الحجاز في ثغور الجزيرة بين مضر وربيعة، ونقلت جماعات من أهل الجزيرة وحمص وبعلبك ومن المصرين، الكوفة، والبصرة إلى نواحى انطاكية التي اسكنها معاوية أيضا عناصر هندية من السند تعرف بالزط (286) كانت قد استقرت على الخليج الفارسي، ووجدهم العرب عند فتحهم فارس والعراق، واعتنقوا الاسلام .(287)

ولقد سمى العرب سكان الثغور، بالمرابطة، لملازمتهم ثغر العدو للجهاد، وهو «الرباط» فكانوا يعيشون مع نسائهم وأولادهم، على عادتهم في الحرب، وتقطعهم

---

(284) حسن احمد محمود ، احمد الشريف : العالم الاسلامي في العصر العباسي ص 156 وما بعدها، أحمد مختار العبادي : في التاريخ العباسي والاندلسي ص 61.

(285) والجراجمة هم ابناء شعب مجهول الأصل يعرف بالمرده، وتمتع هذا الشعب بقسط وافر من الاستقلال في مواطنه بمعاقل جبال اللكام (امانوس) وابناؤه الذين عرفهم العرب بالجراجمة كانوا يمدون الروم بجيوش غير نظامية ويهددون سيادة العرب بالشام وكانوا من النصارى.

وأقام هؤلاء الجراجمة من انفسهم بين بلاد المسلمين وبلاد الروم جدارا حديديا يصون آسية الصغرى. وحوالي سنة 46هـ/666 م تطرقت شراذم منهم الى قلب لبنان. وكان معاوية قد صالح امبراطور الروم على قدر كبير من المال يؤديه كل سنة شرط ان يقطع الامبراطور الاعانات عن هذا العدو الداخلي وقبل في الوقت نفسه ان يؤدي جزية للجراجمة انفسهم وأخيرا نزح اكثر الجراجمة عن الشام فنزلوا بعض انحاء آسية الصغرى الداخلية او الساحل حيث احترفوا الملاحة. انظر البلاذري : فتوح البلدان 163 ـ 167 Theophanes : chronographia p. 346 ، فيليب حتى : تاريخ العرب ج 1 ص 268 ـ 269.

(286) والزط ، جيل من السند في شمال غرب الهند، انتقلوا الى المنطقة الواقعة على الخليج الفارسي، وهم من قبائل مجهولة الاصل.

(287) البلاذري : فتوح البلدان ص 168 ـ 172 ، 187 ـ 188، ياقوت الحموي : معجم البلدان ج 1 ص 357، ج 3 ص 16، ج 8 ص 80، عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ج 2 ص 38 ـ 39.

الدولة القطائع، وتمنحهم العطاء، وبذلك أصبحت منطقة الثغور موطناً للعرب الصالحين، الذين كان بعضهم يحارب ومعه مصحف عثمان، ومدرسة يتعلمون فيها الجهاد .

وسرعان ما وضع العرب نظاماً لحرب الثغور، فكانت تخرج بانتظام حملات سنوية على بلاد الروم منذ تولية معاوية الخلافة، في الشتاء والصيف، عرفت بالشواتى ، جمع شاتية، والصوائف جمع صائفة، وغالباً ما كانت تتكرر حملات الشواتي، في السنة الواحدة. واسندت رئاسة هذه الحملات الى ولاة الشواتي والصوائف. (288) .

ولقد حاصر الامويون، القسطنطينية ثلاث مرات، ولم يتمكن العرب في غيرها من بلوغ الاسوار الثلاثية القائمة حول هذه العاصمة المنيعة. اذ اغتنم العرب اضطراب شؤون الدولة البيزنطية الداخلية. فقد قتل الامبراطور قنسطانز الثاني Konstans II في سنة 48هـ / 668م وثار صابو أوسابور، أحد حكام المناطق المجاورة لارمينية وأرسل رسولا إلى معاوية يحرضه على غزو بيزنطة، ولكن ما كاد الجيش الاموى يصل ملطية، حتى كان الامبراطور الجديد قسطنطين الرابع ابن المقتول قد تمكن من احتواء هذه الثورة .

ورغم ذلك صمم معاوية على مهاجمة القسطنطينية، فسير جيشاً كثيفاً في 49هـ / 669م على رأسه بعض أبناء الصحابة، منهم عبد الله بن عباس، وعبد الله ابن عمر، وعبد الله بن الزبير، وأبو أيوب الأنصاري، واسندت قيادة هذه الحملة الى الأمير يزيد بن معاوية الذي كان ولياً للعهد، فكان جنده أول من شاهد بيزنطة من جند الاسلام. وقد قصد معاوية من ارسال يزيد على هذه الحملة، أن يرد على هؤلاء الذين كانوا يرتابون في كفاءة يزيد لولاية العهد ولا يرضون عن بيعته فأوغل هذا الجيش في اسيا الصغرى ، وخضعت له بعض سكانها من الجبال والسهول وبعد عدة معارك وصل إلى القسطنطينية وأحكم حولها الحصار .

---

(288) ويذكر قدامة بن جعفر في كتابه الخراج ان هناك غزاة ربيعية ، وهي بعد ان يربعوا دوابهم ، أو لعلها تكون في الربيع، ص 259،وانظر البلاذري : فتوح البلدان ص 168 ، وما بعدها ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 3 ص 218، 225، 226.

وفي الوقت الذي تصمت المصادر عن ذكر الفترة التي استغرقتها هذه الحملة والنتائج التي حققتها، نجد الروايات تذكر أن يزيد اظهر في هذه الحرب من الشجاعة والبأس بالرغم من صغر سنه،اذ لم يكن عمره يتجاوز ثمانية عشر عاما مما اكسبه لقب «فتى العرب» (289)،الا أن بطل هذه الحملة الحقيقي هو أبو أيوب الانصاري الذي نزل الرسول في بيته عند الهجرة إلى المدينة وكان يحمل راية النبي في المعارك. وفي أثناء الحصار قتل أبو أيوب الانصارى ، فدفن خارج القسطنطينية بالقرب من سورها (290). ثم اضطر المسلمون للعودة إلى الشام بعد أن فقدوا كثيرا من جندهم .

وحاول العرب مرة ثانية اقتحام القسطنطينية أثناء الحرب المعروفة بحرب السنين السبع (54 ـ 60هـ / 674 ـ 680م)، وبالرغم من صمت المصادر العربية عن هذه الحملة وتناولها، الحملات البحرية باقتضاب وبصفة حولية، الا أن المصادر المسيحية تصف لنا حملة بحرية كبرى على القسطنطينية بشيء من الاسهاب، واختلف الباحثون حول تحديد تاريخ هذه الحملة البحرية، فالبعض يرجح ارسالها قبل حملة يزيد البرية واستمرارها بعد عودته،والبعض الآخر يذكر مصاحبتها لحملة يزيد أو بعد حملته .

وكانت الحملة مشكلة من ثلثمائة مركب ثقيلة عليها اسلحة الحصار من المنجنيقات، تحمل الواحدة ألف رجل، وخمسمائة مركب خفيفة تحمل الواحدة مائة

---

(289) ويروي ابو فرج الاصفهاني في كتابه الاغاني انه في اثناء الحصار نظر يزيد الى قبتين مبنيتين عليهما ثياب الديباج فاذا كانت الحملة للمسلمين ارتفع من احداهما أصوات الدفوف والمزامير، واذا كانت الحملة للروم ارتفعت اصوات من الأخرى، فيسأل يزيد عنهما فقيل له هذه بنت ملك الروم وتلك بنت جبلة بن الايهم وكل واحدة منهما تظهر السرور بما تفعله عشيرتها، فتحمس يزيد يريد أن يقبض على ابنة ملك غسان. انظر ج 16 ص 33، فليب حتى : تاريخ العرب ج 1 ص 265 .

(290) ويروي كل من ابن سعد والطبري ان النصارى من اليونان كانوا يتعاهدون قبره بالترميم والاصلاح ويستسقون به اذا قحطوا.انظر الطبقات الكبرى ج 3 ص 50، تاريخ الأمم والملوك احداث سنة 52 هـ وفي سنة 1453 م خلال حصار الاتراك للقسطنطينية، عثروا على قبر ابي ايوب الانصاري، فبنى الاتراك عنده مسجدا.وهكذا اصبح هذا الشيخ التقى من انصار المدينة وليا عند العرب والروم والترك.انظر فيليب حتى : تاريخ العرب ج 1 ص 265.

(291)، ويبدو أن العرب، قاموا في نفس الوقت بالسيطرة على شرق البحر الابيض المتوسط فاحتلوا بعض الجزر ذات الموقع الاستراتيجي ، مما هيأ لمراكبهم السيطرة على أجزاء كثيرة من سواحل آسية الصغرى الى القسطنطينية مثل جزيرة رودس التي فتحها الصحابي جنادة بن أمية في (53هـ / 672 ـ 673م) وكان الروم يغيرون منها على مراكب العرب ويأخذونها، كما يهاجمون منها السواحل الاسلامية، وانزل معاوية فيها قومًا من المسلمين ورتب لهم العطاء. اذيروى البلاذري ان «رودس من اخصب الجزائر وهي نحو ستين ميلا فيها الزيتون والكروم والثمار والمياه العذبة» وكذلك جزيرة ارواد وهي تقع قرب القسطنطينية، حيث اتخذها المسلمون قاعدة بحرية لهم في بحر مرمره ومقرا للجيش الغازى ومشتى يتربصون فيه ويستقرون حيث كان مجاهدبن جبر مقيمًا بها يقرئ الناس القرآن. (292).

ولكن أجبر العرب على رفع الحصار البحري عن القسطنطينية، بسبب ظهور اختراع حربي جديد، انقذ المدينة من أيدى العرب، وهذا الاختراع هو النار اليونانية وقد كانت من مادة شديدة الاشتعال بحيث تلتهب على سطح الماء، ولقد استفاد الروم من هذا الاختراع بحرق الاسطول العربي المحاصر للقسطنطينية وساعد على زيادة اشتعال النار فيه هبوب عاصفة استمرت ستة أيام. (293).

ومع أن المؤرخين المسلمين لم يشيروا اطلاقا إلى حرق مراكبهم أمام القسطنطينية الا أنهم ذكروا أن معاوية أو ابنه يزيد من بعده أمر بانسحاب العرب من جزيرتي رودس وأرواد، بعد أن بقوا فيها سبع سنوات، وهي مدة حصار القسطنطينية الاول ، ويروى الواقدي : «أقام المسلمون برودس سبع سنين في حصن اتخذ لهم، فلما مات معاوية كتب يزيد إلى جنادة يأمره بهدم الحصن والقفل». ولم يقتصر الأمر على انسحاب المسلمين من جزيرتي أرواد ورودس فقط، بل لقد تعدهما إلى الانسحاب من جزيرة قبرس واضطر يزيد بن معاوية الى دفع مبلغ

---

(291) J.B. Bury : A History of the later Roman Empire (London, 1899) vol II. p. 310 ، عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية جـ 2 ص 46.

(292) انظر البلاذري : فتوح البلدان ص 237.

(293) اغابيوس : العنوان. القسم الثاني ص 492 ـ 493، فليب حتى : تاريخ العرب جـ 1 ص 266، بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص 126.

عظيم من المال كرشوة لكي يتمكن من اعادة الجيش العربي المكون من اثنى عشر الف من المقاتلين وغيرهم من المسلمين، سالمين إلى الشام (294).

ويبدو أن معاوية كان يحس بنوايا الروم وتهديدهم، وبالرغم من عدم نجاح العرب في الاستيلاء على قسطنطينية برا أو بحرا في عهده، ولكنه شغل بيزنطة بالدفاع ضد حملات الشواتي والصوائف، وحينما اضطرت قواته إلى الانسحاب وخشى من موقف المسلمين تجاه يزيد ولي عهده، اشترى السلام من ملك الروم قنسطنطين الرابع (668 ـ 685م) في 60 هـ/ 680م قبل وفاته، حتى يهئ لابنه الفرصة.

ولكن المؤرخين المسيحيين، يذكرون أن سبب عقد معاوية الصلح، هو سبب سوء حالة العرب وقتذاك، الذين اضطروا إلى رفع حصارهم البحرى عن القسطنطينية، والانسحاب من جزر شرق البحر الأبيض المتوسط.

اما موقف يزيد من الصراع مع الروم، فإضافة إلى أوامره الخاصة بسحب الجند والمسلمين من الجزر البحرية، يبدو أنه عمل على تنظيم الدفاع عن ثغور الشام الشمالية، وجعل لها جندا مستقلا عن بقية أجناد سورية عرف بجند قنسرين وذلك خلال انشغاله بفتنة الحجاز، خوفًا من تهديد الروم. (295).

وما أن تولى عبد الملك بن مروان الخلافة (65 ـ 86هـ / 684 ـ 705م) حتى استغل البيزنطيون الاضطراب السياسي وعدم الاستقرار وقام الامبراطور البيزنطي بتحريض الجراجمة ضد العرب فيذكر البلاذرى أن فرسانًا من البيزنطيين دخلوا منطقة الامانوس (اللكام) وتوغلوا حتى لبنان، وقد انضم إلى هؤلاء عدد كبير من الجراجمة والأنباط والعبيد الابقين (296).

وقد وجد عبد الملك نفسه مجبرا على عقد معاهدة معهم ضامنًا لهم اتاوة اسبوعية قدرها الف دينار، ثم استفاد من سابقة معاوية فعرض صلحًا على الامبراطور البيزنطي. وقد حفظت لنا المصادر المسيحية شروط هذا الصلح بين الطرفين وهي:

(294) البلاذري: فتوح البلدان ص 158، 237.

(295) انظر Theophanes, p. 354

Lammens : Etudes sur le régne du calife omaiyade Mo'awe Ier (Leiprig 1908) p 17.

، عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسي للدولة العربية ج 2 ص 172 ـ 173.

(296) البلاذري: فتوح البلدان ص 163 164، 189، انساب الاشراف ج 5 ص 299، اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 321.

ان يدفع عبد الملك 365 ألف قطعة ذهبية، 365 عبدا، 365 فرسا أصيلا سنويًا وان يدفع نصف جزية قبرص وارمينيًا، وإيبريا، وفي مقابل هذا يتعهد الامبزاطور جستنيان الثاني، بسحب الجراجمة من الاراضي الاسلامية، فاستدعى اثنا عشر ألفا منهم فاستقروا داخل الحدود البيزنطية. ومما تجدر الاشارة إليه هنا هو أن المصادر المسيحية تلوم الامبراطور جستنيان الثاني لأنه جرد الحدود البيزنطية بهذه الطريقة من حُماتها (297).

ويستكمل البلاذرى هذه الرواية ويذكر أن عبد الملك بن مروان بعد عقده هذا الصلح ارسل أحد رجاله التقاة وهو سحيم بن المهاجر إلى القائد البيزنطى الذي كان على رأس الجراجمة، ونجح في كسب ثقته بأن تظاهر له أنه قد هرب من عبد الملك، والتجأ إليه. وبعد فترة قصيرة استخدم سحيم قواتا كان قد خبأها في هجوم مفاجئ فقتل قائد الجراجمة وأتباعه اليونانيين.

أما الجراجمة فقد منحهم امانا فاستقر بعضهم في قرى حمص ودمشق، بينما رجعت غالبيتهم إلى منطقة الامانوس وهي جبال في شمالي انطاكية تنشرف على سهل كيليكيا، كانت غاباتها مصدرا للاخشاب، كما رجع الانباط إلى قراهم أيضا والعبيد الآبقين إلى أسيادهم وانضم الآخرون إلى خدمة الخليفة (298).

وهنا أيضا كما في كثير من أحداث هذه الفترة لاتعطى مصادرنا تاريخا محددا لغارات تحالف الروم والجراجمة. فالبلاذرى وابن العديم وابن العبري والذهبي يؤرخون هذه الحادثة بعد وفاة مروان بن الحكم واعتلاء ابنه عبد الملك الخلافة حيث كانت الأوضاع السياسية على درجة كبيرة من الاضطراب، ويشير كل من اليعقوبي والمسعودي إلى نفس هذا التاريخ، ويذكر الطبرى رواية بدون سند يعيدها كل من ابن الأثير وابن كثير تعطى سنة 70 هـ/689م. ومن كل هذه التواريخ التي تقدمها المصادر يبدو ان الفترة 65 ـ 66 هـ/684 ـ 685م هي الأكثر

---

(297) Theophanes : Chronographia p. 617
، عبد الأمير عبد حسين دكسن : الخلافة الأموية ص 200

(298) البلاذري : فتوح البلدان ص 163 ـ 164

احتمالا لما رافقها من اضطراب سياسي وعدم استقرار. (299).

ولكن عبد الملك ما أن انتهى من هزيمة مصعب بن الزبير في 73هـ حتى نقض الهدنة وعاد إلى حرب الروم. فقد استأذنه اخوه محمد بن مروان قائد حملته على العراق في غزو الروم، فأذن له وولاه على الجزيرة وأرمينية وبذلك جعل عبد الملك للجزيرة قيادة مستقلة، مع أنها كانت حتى أيام المروانيين جندا واحدا قنسرين وتمكن محمد بن مروان من دخول ارمينية في 73هـ / 692م بمساعدة عناصر فيها موالية للعرب، كما تمكن العرب من انزال الهزيمة بالجيش البيزنطى المكون من ستين ألفا، الزاحف لمساعدة أرمينية .

وفي الوقت ذاته عادت حملات الشواتي والصوائف السنوية من ثغر الشام بعد ان كانت قد توقفت منذ وفاة معاوية واشتداد الفتن وكان عبد الملك يرسل مع هذه الحملات ابناءه وأفراد أسرته وتمكن العرب من الاستيلاء على حصن المصيصة وهو يقع بين انطاكية وبلاد الروم. (300).

وفي عهد الوليد بن عبد الملك وصلت الامبراطورية الاسلامية إلى أقصى اتساعها واستقرت سيطرة العرب في ارمينية. وقد كفل الوليد حرب الروم إلى أخيه الأمير مسلمة بن عبد الملك وإبنه العباس بن الوليد فأظهر كلاهما قدرة حربية فائقة، وبخاصة مسلمة الذي كان أبوه يسميه ناب بني أمية. وتمكن القائدان من الاستيلاء على حصن الطوانة في 88هـ / 707م (301)، الواقعة قرب المصيصة، بعد حصارها مدة تسعة أشهر بالمنجنيقات، وبلغت خسائر الروم فيها حوالي خمسين ألفا ماعدا

---

(299) البلاذري : فتوح البلدان ص 163 ـ 164 اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 321، المسعودي : مروج الذهب ج 3 ص 93 ـ 100، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 4 ص 251. الذهبي : دول الاسلام ج 1 ص 37 ابن كثير : البداية والنهاية ج 7 ص 313، الطبري : تاريخ الامم والملوك ج 7 احداث 70 هـ.

(300) البلاذري : فتوح البلدان ص 207 ـ 208، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 4 ص 361، انساب الاشراف ج 5 ص 186، عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ج 2 ص 174 ، 175.

(301) تاريخ خليفة بن خياط ج 1 ص 399، الطبري : تاريخ الامم والملوك ج 8 ص 64 ـ 65.

الأسرى والغنائم الهائلة.ويروى اغابيوس أن المسلمين بعد الاستيلاء على المدينة احرق اهلا بالنار، بينما يذكر ان الخليفة الأموي الوليد قام بذبح الأسرى في الكنائس (302).

ونتيجة لسقوط حصن الطوانة، توغل المسلمون في بلاد آسية الصغرى واستولوا على عدد كبير من الحصون واقاموا بها الحاميات مثل سلوقية عند الساحل ومرعش وعمورية بين الشام وبلاد الروم. وكان العرب يخرجون منها لمهاجمة حصون الروم البعيدة (303). وبينما يرجح بروكلمان أن الوليد أراد غزو القسطنطينية، الا أن هذا لم يخرج إلى حيز التنفيذ بسبب أن جند المسلمين كانوا قد انساحوا في اطراف الدولة الاخرى انسياحا كبيرا (304)، نجد حسن ابراهيم حسن يذكر أن الوليد كان قد شرع في إرسال حملة للاستيلاء على القسطنطينية، ولكنه توفي قبل مسير هذه الحملة. فلما ولى سليمان الخلافة، أنفذ هذه الحملة ورابط في مرج دابق على بعد أربعة فراسخ من حلب (305).

وإذا اضفنا إلى ذلك استعادة العرب لنشاطهم البحرى بعد تعرفهم على سر تكوين النار الاغريقية، التي سببت حرق أسطولهم في حرب السنوات السبع، واستعادتهم لبعض جزر شرق البحر المتوسط مثل قبرص (306).

وعدم استقرار الأحوال السياسية بالدولة البيزنطية، نتيجة لتعاقب الاباطرة والثورات المتعددة وطمع جيرانها الاعداء، وكذلك حاول بعض هؤلاء الاباطرة عقد معاهدة صلح مع خلفاء الدولة الاموية، الذين لم يرحبوا بذلك. واستغل الخليفة

---

(302) اغابيوس : العنوان ص 489 ــ 499

Michel le Syrien : Chronique Fasc 3, p. 478.

(303) تاريخ خليفة بن خياط ج 1 ص 400 ، الطبري : الامم والملوك ج 8 ص 67، ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 4 ص 535، 540 ، 547 ، 556 ، 578 .

(304) بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص 136.

(305) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ج 1 ص 323.

(306) راجع البلاذري:فتوح البلدان ص 159، ويبدو ان نشاط العرب في البحر كان على نطاق ضيق بدليل ان البيزنطيين استطاعوا غزو الساحل المصري في 90هـ/709 م واسروا صاحب البحر (قائد البحرية) خالد بن كيسان فاهداه ملكها الى الوليد . أنظر المقريزي : الخطط ج 1 ص 345، عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ج 2 ص 244 ــ 245.

سليمان بن عبد الملك، ثورة حاكم عمورية ليون المرعشي وطلبه معاونة العرب للاستيلاء على الحكم والتبعية للعرب. فوافق على ارسال الحملة.

وقد استعد سليمان لهذه الحملة استعدادا هائلا، ولاسيما أنه كان قد حدثه جماعة من العلماء أن الخليفة الذي يفتح القسطنطينية اسمه اسم نبي، ولم يكن في ملوك بنى أمية من اسمه نبي غيره فطمع في ذلك وجمع في مرج دابق جنودا من كل انحاء الامبراطورية الاسلامية وعلى الأخص من الشام والجزيرة،كما جمع أدوات الحرب من كل صنف للصيف والشتاء، مثل أدوات الحصار من المجانيق والنفط وغير ذلك، وأصبح من اهتمامه بالحملة، يقيم في مرج دابق أكثر مما يقيم في عاصمته.

وخرجت الحملة وعلى رأسها مسلمة بن عبد الملك في 98هـ / 716م وكانت اشبه بالغابة المتحركة بسبب تضخم حجمها. زحف مسلمة من الشام إلى القسطنطينية عبر طريق مرعش بآسية الصغرى ، وفي أثناء زحفه بلغ الذعر مداه عند السكان، بحيث ان الجيش العربي قبل وصوله إلى القسطنطينية جمع كثيرا من أسرى الروم، كما انتاب الخوف والذعر الامبراطور فاعتزل الحكم وحلق رأسه وترهبن .

وصلت الحملة الى القسطنطينية وقامت بمحاصرتها، وفي نفس الوقت وصل الانسطول الاسلامي المشكل من أساطيل كل من الشام ومصر، إلى الساحل البيزنطي وتمكن من الوصول إلى الخليج وهو بحر مرمرة وقام بمحاصرة القسطنطينية بحرا، ولم يكتف العرب بذلك، بل وعبروا المضيق بقواتهم إلى الساحل الاوربي حيث أحكموا حصارهم على المدينة وهاجموا البلغار (برجان) الذين تحولوا من معاداة بيزنطة إلى حلفاء لها وهاجموا العرب خوفًا من أن يؤدي سقوط المدينة إلى غزو العرب لهم حيث استقروا بالبلقان وسيطروا عليه منذ القرن السابع الميلادي .

ويعتبر هذا الحصار الرائع، أشد هجوم قام به العرب على القسطنطينية وأكثره خطرا على الامبراطورية البيزنطية، وهو أشهر حصار لكثرة ماذكر عنه في المصادر التاريخية. فقد تسنت الامدادات للمحاصرين برا وبحرا وأنجدهم الانسطول واستخدم العرب النفط واستعانوا بنوع من المدفعية لمحاصرة الروم من كل جانب .

ورغم ذلك تمكن الثائر ليون المرعشي حليف العرب وهو سوري الأصل من أسرة وضيعة كانت تسكن مرعش وكان يحسن العربية كاليونانية، من خديعة مسلمة

ودخل إلى القسطنطينية حيث تولى عرش بيزنطة باسم ليون الثالث مقابل أن يخلصهم من العرب الغزاة .

ويذكر الطبرى كيفية خديعة ليون لمسلمة بروايتين : الاولى أنه تفاوض مع الروم وتآمر معهم «فأتى مسلمة فقال قد علم القوم أنك لاتصدقهم القتال وانك تطاولهم مادام الطعام عندك ولو أحرقت الطعام اعطوا بأيديهم فأحرقه فقوى العدو وضاق المسلمون»، والثانية أن ليون دخل القسطنطينية «فملكوه فكتب إلى مسلمة يخبره بالذي كان ويسأله أن يدخر من الطعام ما يعيش به القوم ويصدقونه بأن أمره وأمر مسلمة واحد وأنهم في أمان من السباء والخروج من بلادهم وأن يأذن لهم ليلة في حمل الطعام وقد هيأ اليون السفن والرجال فأذن له فما بقى في تلك الحظائر إلا ما لايذكر حمل في ليلة وأصبح اليون محاربًا وقد خدعه خديعة لو كان امرأة لعيب بها » (307).

ومن الواضح ان كلا من الروايتين، يدور حول مخزون العرب من الامدادات فالحملة كانت كثيرة العدد، وازدادت تضخمًا بما أسره العرب من الروم خلال زحفهم إلى العاصمة.ويذكر ابن الاثير انه «لما دنا منها أمر (مسلمة) كل فارس أن يحمل معه مُدين من طعام على عجز فرسه الى القسطنطينية، ففعلوا، فلما أتاها أمر بالطعام فألقى أمثال الجبال، وقال للمسلمين : لاتأكلوا منه شيئًا وأغيروا في أرضهم وازرعوا وعمل بيوتًا من خشب، فشتى فيها وصاف، وزرع الناس، وبقي الطعام في الصحراء والناس يأكلون ما أصابوا من الغارات والزرع» (308).

وقامت المفاوضات بين الطرفين، فقال مندوب بيزنطة : كنا وانتم نقاتل على الدين ونغضب له فأما اليوم فإنا نقاتل على الغلبة والملك، نعطيك عن كل رأس دينارا. ورفض مسلمة. فعرض رؤساء الروم العرش على اليون مقابل التحول عن محالفة العرب وإفشال حملتهم فوافق (309) وهو أعلم الناس بخططهم وامداداتهم ومخازنهم .

---

(307) الطبري : الامم والملوك ج 8 ص 117 ، 118،

(308) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 5 ص 27.

(309) الطبري : الامم والملوك ج 8 ص 117، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 5 ص 27.

فقام اليون باعادة تقوية الحوائط والاسوار، كما إقيمت السلسلة الحديدية في وجه الأسطول العربي المهاجم دون القرن الذهبي، واستعان الروم بالنار الاغريقية لمهاجمة الاسطول للمرة الثانية. وأخيرا التحالف مع البلغار الذين تمكنوا من قطع خطوط امدادات مسلمة.ويروى ابن الخياط انه في 98هـ «شتا مسلمة بضواحى الروم، وشتا عمر بن هبيرة البحر، فسار مسلمة من مشتاة حتى سار إلى القسطنطينية في البحر والبر، فجاوز الخليج وافتتح مدينة الصقالبة، واغارت خيل برجان (أو الصقالبة وهم البلغار) على مسلمة فهزمهم الله، وخرب مسلمة مابين الخليج والقسطنطينية» (310).اما الطبرى فيذكر أنه في 98هـ «فتحت مدينة الصقالبة قال محمد بن عمر : أغارت برجان (بلغار) في سنة 98هـ على مسلمة بن عبد الملك وهو في قلة من الناس فأمده سليمان بن عبد الملك بمسعدة أو عمرو بن قيس في جمع فمكرت بهم الصقالبة ثم هزمهم الله بعد أن قتلوا شراحبيل بن عبدة» (311).

ومن هذه الروايات يتضح أن تحالف البلغار مع الروم ضد العرب لعب دورا اساسيا في هزيمة الحملة، حتى «لقى الجند مالم يلقه جيش آخر، حتى ان كان الرجل ليخاف أن يخرج من العسكر وحده» (312).وهذا يعني أن البلغار اتبعوا مع العرب حرب العصابات فى القضاء على خطوط الامدادات وافساد المخزون منها بالنهب أو الحرق وأخيرا التربص وانتهاز الفرصة .

وأخيرا تحالفت الطبيعة مع العوامل السابقة لهزيمة الحملة، فقد تعرض الجند لاهوال برد الشتاء بدون امدادات، فحلت المجاعة والاوبئة بيهم حتى «أكلوا الدواب والجلود وأصول الشجر والورق وكل شيء غير التراب وسليمان مقيم بدابق ونزل الشتاء فلم يقدر بمدهم حتى هلك» (313).

ويضيف ابن الاثير انه في نفس هذا العام «كانت الزلازل في الدنيا كثيرة ودامت ستة أشهر» (314).واذا ادركنا الطبيعة الجبلية لآسية الصغرى لم نستبعد احتمال تأثير هذه الزلازل على الحملة العسكرية وفشلها .

---

(310) تاريخ خليفة بن خياط ج 1 ص 425.

(311) الطبري : الامم والملوك ج 8 ص 118.

(312) انظر ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 5 ص 28.

(313) الطبري : الامم والملوك ج 8 ص 118.

(314) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 5 ص 36.

ولذلك نرى الخليفة التقى عمر بن عبد العزيز، بعد أن تولى في 99هـ «حمل ... الطعام والدواب الى مسلمة بن عبد الملك إلى بلاد الروم وأمر من كان له هناك حميم أن يبعث إليه، وبعث معه بعثا فأغاث الناس وأذن لهم في القفول»․(315) ويزعم ثيوفانس انه خلال انسحاب الاسطول الاسلامي، استهدف لعاصفة هوجاء أكملت على ما نجا من سفنه حتى آنه لم ينج من الأسطول الاسلامي المكون من ألف وثمانمائة سفينة سوى خمسة (316).

وابتهجت أوربا بزوال هذا الكابوس عن صدرها واعتبرت اليون مؤسس الاسرة الايصورية السورى مخلصًا انقذها من الخطر الاسلامى كما كان هرقل مؤسس الأسرة الهرقلية الارمنى قبلة قد انقذ النصرانية من خطر فارس (317) ..

أما بقية الحملة البرية، فيبدوا انهم على الرغم مما لحق بهم في أثناء انسحابهم، تمكنوا من القضاء على جيش بيزنطى كبير اعترض طريقهم، بحيث انه لما أرسل نحوهم جيش آخر وعلم بهذه المذبحة عاد ادراجه. ولكن لايعنى هذا ان حملات العرب على الروم قد توقفت، وانما اعتبرت دائمًا بلادهم أرض حرب، واستمر خروج الصوائف، وجعلت ملطية كما كانت في أيام معاوية قاعدة لها.

وقد كان عمر يقاتل الروم على أساس السنة القديمة، فكان يدعو الحصن من حصون الروم إلى الاسلام أو الجزية أو القتال. ومن ناحية أخرى نظم للمجاهدين في الثغور حياتهم، فجعل الرباط أربعين يومًا وكان يأخذ مرتكبى المخالفات منهم بالعقاب . (318).

وفي عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك، هدأت الجبهة البيزنطية وتدهورت حالة جندها حتى وصفهم ابن المهلب «برابرة وجرامقة وجراجمة وأنباط وأبناء فلاحين واوباش واخلاط». (319) .

---

(315) تاريخ خليفة بن خياط ج 1 ص 432 . قارن الطبري : الامم والملوك ج 8 ص 130، وابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 5 ص 43.

(316) Theophanes : pp. 395 _ 399

(317) فليب حتى : تاريخ العرب ج 1 ص 268.

(318) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج 5 ص 260 ــ 262

، عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ج 2 ص 267 ـ 268.

(319) انظر ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 5 ص 75.

وما آن تولى هشام بن عبد الملك حتى نشطت الجبهة البيزنطية وقام ببناء الحصون والمسالح في مواجهة الروم، وكان يقوم كل صيف بغزوات كبيرة ، وكان في كل مرة يوجه غزوتين او ثلاثا في وقت معا لتلتقي في نقطة واحدة (320) واستطاع المسلمون التوغل داخل اسية الصغرى، مستغلين الصراع الداخلي ببيزنطة، اذ حاول الابزاطور ليون الثالث، منع عبادة صور المسيح ومريم وهو ما عرف بالحركة الايقونية، فخرج عليه احد الثوار، وزحف المسلمون الى القسطنطينية، ولكنهم انسحبوا عندما نجح ليون في القضاء على منافسه وسمل عينيه (321).

ويموت مسلمة بن عبد الملك، بطلُ الجبهة البيزنطية في 121هـ / 739م (322) منذ خلافة أبيه عبد الملك بن مروان، ارتفعت الروح المعنوية للقوات البيزنطية، حتى تمكنت من انزال الهزيمة بجيش عربي عدده خمسون ألفا في 122هـ / 740 م، حتى لم يبق منه إلا عشرة آلاف، وقتل قائده البطال (323)، ونقل الروم بعد هذا الانتصار القتال إلى الحدود العربية ذاتها. اذ يروى البلاذرى في سنة 123هـ «خرج عشرون ألفا من الروم .... فنزلوا على ملطية فأغلق أهلها أبوابها وظهر النساء على السور عليهن العمائم فقاتلن، وخرج رسول لأهل ملطية مستغيثاً

---

(320) ويروي ابن الأثير في عامي 114 هـ، و 117 هـ غزا معاوية بن هشام الصائفة اليسرى ، وغزا سليمان بن هشام الصائفة اليمنى . انظر ابن الأثير :الكامل في التاريخ ج5 ص 179 ، 195 ، فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص 327.

(321) عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ج 2 ص 294.

(322) يذكر ابن الخياط في تاريخه انه توفي في يوم الاربعاء في المحرم بالشام من سنة 120 هـ انظر تاريخه ج 2 ص 519 ثم يعود في أحداث سنة 121 هـ فيقول "وغزا مسلمة بن عبد الملك على الصائفة وسار معه هشام حتى بلغ ملطية» انظر تاريخه ج 2 ص 524. فلهوزن : الدولة العربية ص 328، عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ج 2 ص 295.

(323) يروي ابن الخياط وفيها (122 هـ) غزا معاوية بن هشام أرض الروم وغزا سليمان بن هشام، فحاصرا جميعا الروم، فلقى المسلمون شدة من الجوع وغلاء السعر، بينما يذكر ابن الاثير في احداث نفس العام قتل البطال واسمه عبد الله ابو الحسين الانطاكي في جماعة" من المسلمين ببلاد الروم وكان كثير الغزاة الى الروم والاغارة على بلادهم، وله عندهم ذكر عظيم وخوف شديد. انظر تاريخ خليفة بن خياط ج 2 ص 526، الكامل في التاريخ ج 5 ص 248.

فركب البريد وسار حتى لحق بهشام بن عبد الملك» ولما جاء هشام من الرصافة بالمدد، كان الروم قد رحلوا (324).

ومن الصفحات السابقة يتضح . أن حروب الثغور بين كل من الخلافة الاموية والدولة البيزنطية استمرت دون انقطاع طوال فترة حكم الامويين. ولكن يجب أن نتساءل هل كانت بين الفريقين علاقات من نوع آخر؟ (325).

ويذكر بعض الباحثين أنه نتيجة لتكوين الجيش الشامي وأصوله وطريقة توزيعه ببلاد الشام، لعب دورا هامًا في العلاقات السلمية بين الدولتين. فقد كان هذا الجيش مقسمًا إلى خمسة أجناد : اثنان في جنوب الشام، واثنان في وسطه وواحد في شماله. وكان أكثر القسمين الجنوبيين يتألف من قبائل من جنوب الجزيرة العربية وغربها، وكان بعض هذه القبائل قد استقر في تلك المواطن قبل زمن طويل من الفتح الاسلامي، وأقام علاقات مع الحكام البيزنطيين. (326) .

أما جندا الوسط فكانا يتألفان كلهما من قبائل قديمة الهجرة والاستقرار التحقت بجيوش الروم قبل الاسلام في حروبهم ضد الفرس. ومنحت الدولة شيوخ تلك القبائل القابا بيزنطية، وتعرفوا منذ زمن بعيد الى القسطنطينية وحضارتها.

أما الجند الشمالي فكان أكثره يتألف من رجال القبائل العربية الشمالية الذين وفدوا ايام الفتح ولم يكن لهم أية علاقات سابقة بالبيزنطيين سوى القتال .

وربط الامويون بينهم وبين جندى الوسط وقبائلهما ـ قبائل دمشق وحمص ـ بأوثق الروابط من مصاهرة وجوار، فكانت تلك القبائل أشد ما تكون ولاء للامويين

---

324) أنظر البلاذري : فتوح البلدان ص 190

(325) أنظر هاملتون جب : دراسات في حضارة الاسلام ص 61 وما بعدها .

(326) بعد فتح العرب لبلاد الشام ابقوا على أقسامها الادارية اذ جعلوا سورية اربعة اجناد تتعادل وأقسام البلاد الادارية على عهد الرومان والبيزنطيين التي كانت لا تزال مرعية اثناء الفتوح وهي جند دمشق وجند الأردن وقبة الجليل وجند فلسطين، وهي الأرض الممتدة الى الجنوب من مرج ابن عامر . أما جند قنسرين في الشمال فانما اضافه الى اجناد الشام يزيد الاول الخليفة الاموي. انظر فليب حتى : تاريخ العرب ج 1 ص 208.

(327) وعن طريق هؤلاء تعرف الامويون على الحضارة البيزنطية وتأثروا بها واقتبسوا المآثر والعادات البيزنطية وحاول بعضهم التشبه بالاباطرة البيزنطيين، ومن أمثلة ذلك :

العناية الفائقة التي أبداها الخلفاء في صيانة الطرق، حتى بلغ بهم الأمر ان اقتبسوا شواهد المسافات الرومانية، لم تكن مستوحاة من عرف أو موروث عربي ، واذا شاء أحد أن يتبين من أين استمدوا ذلك فليتأمل كيف تحولت اللفظتان اللاتينيتان Millia, Veredus إلى لفظتي «بريد» و «ميل» .

ثم ان اقدم دينار أمر عبد الملك بسكه كان بيزنطى الطابع، حتى لقد رسم على احدى صفحتيه صورة الخليفة، ثم حيل بينه وبين أن تتداوله الايدى وسك بدله دينار اسلامى الطابع مراعاة للمشاعر الدينية لدى الرعايا المسلمين .

أما نظام الخراج فقد ظل في الولايات التي كانت تتبع الدولة البيزنطية، بيزنطيا في معالمه .

على أن ابرز ما خلفه التراث البيزنطى من تأثير يتجلى من نهج الامويين في تشييد المساجد الكبرى. ولا مجال للشك في أنهم استوحوا هذا المنهج من بيزنطة. وبعد زمان طويل ظهر عدد من المؤرخين لايعطفون على الامويين، استندوا على روايات عراقية، توهمت أن الامويين حين عمدوا الى تشييد المساجد الكبرى انما كانوا يحاولون أن يحولوا انظار المسلمين عن مكة والمدينة إلى القدس والشام. وليست هذه سوى فكرة خيالية وان المؤرخين الغربيين لايزالون يرددونها.ومما يدل على سخافتها، أن مسجد المدينة نفسه كان أحد المساجد الثلاثة الكبرى التي شيدها الامويون أو أعادوا بناءها . (328).

---

(327) انظر المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ج 4 ص 32 ، 33 ، 42 حيث يصف صعصعة اهل الشام. « اطوع الناس لمخلوق واعصاهم للخالق، عصاة الجبار، وخلفة الاشرار، فعليهم الدمار، ولهم سوء الدار».ويذكر فلهوزن ان ولاية الشام كان لها مركز أنفردت به، لان معظم العرب الذين كانوا يقطنونها لم يذهبوا اليها مهاجرين كغيرهم وكان لهم الى جانب ذلك، تقاليد غير التي كانت لاهل الكوفة والبصرة، وكانوا منذ زمن طويل واقعين تحت التأثير اليوناني الروماني، وكانوا قبل الاسلام تابعين لدولة هي دولة الغسانيين، ولذلك كانوا متعودين على النظام والطاعة بعض التعود. انظر الدولة العربية ص 54.

(328) انظر هاملتون جب : دراسات في حضارة الاسلام ص 65 ، 66

وقد حفظ المقدسى أحد الجغرافيين الشاميين في القرن العاشر الميلادى صدى الرواية الشامية حول أسباب تشييد الأمويين للمساجد الكبرى. فيورد المقدسى رواية محلية تذهب إلى أن ما دفع عبد الملك والوليد الى بناء قبة الصخرة والمسجد الأموى في دمشق هو خوفهما على المسلمين أن تردهم عن دينهم روعة كنيسة القيامة والمباني المسيحية الأخرى في الشام، ولعل هذه الرواية تحمل آثارا من الدوافع الحقيقية لدى الأمويين (329).

ولذلك بعث الخليفة، يستعين بإمبراطور الروم على زخرفة مسجد الرسول في المدينة والمسجد الكبير في دمشق فأجابه الامبراطور إلى ما طلب-اذ يروى الطبرى عن الواقدى قال: « وحدثنى موسى بن أبي بكر عن صالح بن كيسان قال: ابتدأنا بهدم مسجد رسول الله (ص) في صفر من سنة 88هـ وبعث الوليد الى صاحب الروم يعلمه انه أمر بهدم مسجد رسول الله (ص) وان يعينه فيه، فبعث إليه بمائة ألف مثقال ذهب، وبعث إليه بمائة عامل، وبعث إليه من الفسيفساء بأربعين حملا وأمر أن يتتبع الفسيسفاء في المدائن التي خربت فبعث بها إلى الوليد، فبعث بذلك الوليد الى عمر بن عبد العزيز (واليه على المدينة)»(330).

ويضيف المقدسى إلى ذلك بخصوص بناء مسجد دمشق «سوى ما اهدى اليه ملك الروم من الآلات والفسيفساء» (331).

وفي عام 199 هـ/ 814 م، الف عالم من علماء المدينة اسمه ابن زبالة «تاريخ المدينة» وهو كتاب لم يصل إلينا منه إلا ما نقل في المصادر المتأخرة، وتعتمد أهميته على شخص مؤلفه، فهو تلميذ فقيه المدينة مالك بن أنس،وكان حين ألف كتابه في وضع يتيح له أن يجمع الروايات المحلية عن التاريخ القديم للمسجد وهو ملم بالمكان، وهذا يوضح انه كان بإستطاعته تقييد أقوال المعاصرين دون حاجة إلى ذكر عدد كبير من الرواة في سلاسل السند، لأنه كتبه بعد قرن واحد من تنفيذ أوامر الوليد ببناء المسجد.

---

(329) انظر المقدسي: احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص 159.

(330) الطبري: الامم والملوك ج 8 ص 65.

(331) المقدسي: احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص 158.

وقد كتب السمهودى المتوفى في (911هـ / 1506م) كتابا نادر المثال في غزارة العلم والشمول سماه «وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى» وحفظ فيه مقتطفات من تاريخ ابن زبالة منها العبارة التالية :

«وكتب الوليد بن عبد الملك إلى ملك الروم : أنا نريد أن نعمر مسجد نبينا الاعظم، فأعنا فيه بعمال وفسيفساء. فأرسل إليه بالفسيفساء وبضعة وعشرين عاملا ـ وقال : قد بعثت إليك بعشرة يعدلون مائة، وأرسل أيضا ثمانين ألف دينار عونا لهم» .

ويعزز هذه الرواية المؤرخ والمحدث محب الدين بن النجار (1182 ـ 1245م) ـ وهو اقدم من السمهودى بقرنين ونصف ـ في كتابه «الدرة الثمينة في أخبار المدينة» (332) .

ويبدو في ضوء هذه الرواية التى تكمل ما سبق ايراده من روايات انه لايبقى أي مجال للشك بأن الامبراطور البيزنطى امد المسلمين ببعض العمال وبالفسيفساء لمسجدى المدينة ودمشق، وانه بعث كذلك نقودا أو ذهبًا لبناء مسجد المدينة على الأقل .

والان يجب أن نتساءل كيف تأتى للامويين الذين كانوا في حالة حرب مع بيزنطة أن يتقدموا بهذا الطلب مرتين، وأن يلبى طلبهم في كل مرة.اذ من الشائع بين الباحثين انه نتيجة للعمليات العسكرية على الجبهة اليزنطية توقفت العلاقات التجارية توقفا تامًا . .

ولكن المراجع حفظت لنا بعدة اشارات مقتضبة عن وجود علاقات تاريخية بين الطرفين، لاريب انها كانت محدودة جدا .

اذ يروى أبو عبيد حين يتطرق إلى موضوع الضريبة المفروضة على تجار الثغور أو أهل الحرب. وكان مذهب عمر فيما وضع من ذلك أنه كان يأخذ من المسلمين الزكاة بنسبة اثنين ونصف في المائة ومن أهل الذمة خمسة بالمئة. ويأخذ العشر

---

(332) انظر ابن النجار : الدرة الثمينة ص 372 ، السمهودي : وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى (القاهرة 1336 هـ) ص 367.

على تجارة أهل الحرب وانه انما فرض عليهم العشر «لأنهم كانوا يأخذون من تجار المسلمين مثله اذا قدموا بلادهم» ثم يحدد من هم التجار أهل الحرب فيقول: «الروم كانوا يقدمون إلى الشام». (333).

كما أن المصادر العربية تروى و «كانت القراطيس تدخل بلاد الروم من أرض العرب وتأتى من قبلهم الدنانير» (334).

ويضيف ابن عبد الحكم عندما يتحدث عن خطط العرب في الفسطاط وعن «دار الفلفل» وانما سميت «دار الفلفل» لأن اسامة بن زيد التنوخى اذ كان والياً على خراج مصر ، ابتاع من موسى بن وردان فلفلا بعشرين ألف دينار ، كان كتب فيه الوليد بن عبد الملك، أراد أن يهديه إلى صاحب الروم فخزنه فيها» (335). وهكذا نرى أن الوليد لم يكن بحاجة إلى تهديد الامبراطور، في سبيل نيل التعاون من البيزنطيين. والرواية الأخيرة كفيلة بأن تبين لنا أن استمرار العلاقات التجارية جعل تبادل المجاملات بين البلاطين أمرا ممكنا حتى حينما كانت الدولتان في حرب وخصام. (336).

خامسًا : التعـريب

من الأنظمة التي اقتبسها العرب عن الفرس والروم نظام الدواوين الذي كان اداة لتنظيم أمور الدولة في كافة المجالات، والديوان محفوظ يحفظ ما تعلق بحقوق السلطنة من الاعمال والاموال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال . وقد استعمل العرب كلمة «ديوان» في نظامهم الاداري بعد أن عربت عن الفارسية (337).

ولقد وجد الديوان منذ عهد الرسول (ص) دون أن يتسمى بهذه التسمية، فقد استعان الرسول (ص)، بعدد من أصحابه ممن يعرفون القراءة والكتابة في

---

(333) ابو عبيد بن سلام : كتاب الأموال، الفقرتان 1651، 1655.

(334) البلاذري : فتوح البلدان ص 241.

(335) ابن عبد الحكم : فتوح مصر (نشر توري) ص 98 ـ 99

(336) هاملتون جب : دراسات في حضارة الاسلام ص 77

(337) المقريزي : المواعظ والاعتبار ج 1 ص 91

، حسان على حلاق : تعريب النقود والدواوين ص 85.

تدوين ما يوحي به اليه من آيات القرآن الكريم، وفي كتابة رسائله إلى أمراء الاجناد وأصحاب سراياه من الصحابة، والى ملوك الامم المجاورة الذين دعاهم إلى الاسلام، وفي كتابة كل ما يتعلق بأمور أهل المدينة من حوائج ومداينات ومعاملات وعقود، وما يتعلق ايضا بأموال الصدقات والغنائم، وبكتب الهدنة والأمانات وغير ذلك من المكاتبات. (338).

ولقد بلغ عدد كتاب الرسول، نيف وثلاثون كاتبًا كرواية القلقشندى أو أكثر من اثنين وأربعين كاتبًا كرواية الطبرى. (339).

ويذكر البلاذرى أن «أول من كتب لرسول الله (ص) أبىّ بن كعب الأنصارى وكان يكتب له زيد بن ثابت اذا لم يحضر ابى. وكانا يكتبان الوحي، ويكتبان كتبه إلى من كاتبه من الناس وغير ذلك. وكتب له عبد الله بن سعد بن أبي سرح .... وكتب لرسول الله (ص) شرحبيل بن حسنة، وجهيم بن الصلت بن مخرمة ابن المطلب بن عبد مناف. وكان عثمان بن عفان يكتب له، وخالد بن سعيد بن العاص ابن أمية، وأبان بن سعيد بن العاص، والعلاء بن الحضرمى. وأسلم مغاوية عام فتح مكة، فكتب له أيضا» (340).

وكان أكثر هؤلاء الكتاب شهرة زيد بن ثابت الذي كانْ يجيد العربية والعبرانية، فكان يقرأ كتب اليهود الى الرسول ويرد عليها بالعبرانية. وقيل أيضًا أنه تعلم وهو بالمدينة اللغات الفارسية والرومية والقبطية والحبشية وكان يترجم للرسول ما يوجه إليه من كتب بهذه اللغات (341).

---

(338) احمد السيد دراج : صناعة الكتابة وتطورها في العصور الاسلامية ص 12

(339) الطبري : الامم والملوك ج 3 سنة 11 هـ. القلقشندي : صبح الأعشى ج 1 ص 96.

(340) البلادري : انساب الاشراف ج 1 ص 531، 532.

(341) المسعودي : التنبيه والاشراف ص 245، القلقشندي : صبح الأعشى ج 1 ص 91. فرج الهوني : النظم الادارية والمالية في الدولة العربية الاسلامية (منذ قيام حكومة الرسول بالمدينة حتى نهاية الدولة الأموية) ص 30 ـ 32، محمد كرد علي : الادارة الاسلامية في عز العرب ص 14.

ويكفي هذا العدد من الكتاب لأن يؤلفوا ديوانـًا للكتابة والادارة وكان جميع هؤلاء يكتبون بطبيعة الحال باللغة العربية (342).

وفي السنة السادسة للهجرة وبعد صلح الحديبية اتخذ الرسول له خاتمـًا يختم به رسائله، وكان هذا الخاتم في بادئ الأمر من ذهب، إلا أن الرسول تركه بعد ثلاثة أيام واتخذ له خاتمـًا آخر من فضة. وقد نقش على هذا الخاتم «محمد رسول الله» وكان الرسول يلبسه الى أن مات، وأحيانـًا كان يحتفظ به كاتبه حنظلة بن الربيع، وقيل أن السبب في اتخاذه الخاتم أنه كتب إلى قيصر الروم كتابـًا ولم يختمه، فقال له أصحابه أن الملوك لايقرأون كتابـًا غير مختوم.

ولذلك يذهب بعض المؤرخين إلى أن ديوان الانشاء — أو ديوان الرسائل — انما نشأ في المدينة زمن الرسول، وأنه كان أول ديوان وضع في الإسلام. ومما يدعم هذا الرأي أن عدد الكتب والمواثيق والعهود التي تنسب إلى الرسول (ص) بلغ المائتين وستة وأربعين كتابـًا وصلت إلينا نصوصها في مصادر التاريخ المختلفة. وعلى رأس هذه الكتب تلك التي بعث بها النبي الى الملوك والأمراء المجاورين يدعوهم فيها إلى الاسلام (343).

وسارت إدارة الحكومة الاسلامية على النمط الذي كانت عليه في عهد الرسول (ص)، طوال عهد أبي بكر وفي عهد عمر، وبينما يرجح أن نواة «بيت المال» وجدت في أيام الخليفة أبي بكر (344). فمما لاشك فيه انه لما تولى عمر ابن

---

(342) ومن الدلائل على وجود المفاهيم الديوانية عند المسلمين، ان الرسول (ص) اراد مرة احصاء المسلمين فقال: اكتبوا لي من تلفظ بالاسلام من الناس فكتبوا له ألفا وخمسمائة رجل، ولم يكن قبل ذلك يجمع المسلمين كتاب حافظ اي ديوان مكتوب. انظر محمد كرد علي: الادارة الاسلامية في عز العرب ص 19.

(343) انظر البلاذري: فتوح البلدان ص 447، 448، القلقشندي: صبح الأعشى ج 1 ص 91، محمد حميد الله الحيدر آبادي، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة (القاهرة 1941)، احمد السيد دراج: صناعة الكتابة وتطورها ص 14، 16.

(344) فقد اتخذ ابو بكر بيتا للمال لحفظ اموال المسلمين قبل توزيعها عليهم. وكان بيت المال بمنطقة تسمى السنح بالمدينة، والسنح هي احدى محال المدينة التي كان ينزل بها ابو بكر الصديق، وهي منازل بني الحارث بن الخزرج بعوالي المدينة، كان بينها وبين منزل النبي (ص) ميل. انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان ج 3 ص 265.

الخطاب الخلافة، طور الأنظمة السائدة في الدولة، ففي 15هـ فرض على المسلمين الفروض ودون الدواوين لتوزيع الأموال على المسلمين (345).

وكان الديوان الدفتر أو مجتمع الصحف والكتاب يكتب فيه أهل الجيش وأهل العطية. وأول ديوان انشئ في الاسلام هو «ديوان الجند» ويطلق عليه أيضا ديوان العطاء، وغايته الحفاظ على الأموال الفائضة الواردة إلى بيت مال المسلمين، مثل، الزكاة والجزية والعشور وغيرها، وتسجيل أسماء الجند لصرف العطايا لهم. هذا بالطبع اذا لم تأخذ في الحسبان وجهة نظر من يرى أن «ديوان الانشاء» أو «الرسائل» هو أول ديوان وضع في الاسلام. (346).

ولما تولى عثمان بن عفان الخلافة، أقر الأوضاع الادارية السائدة التي وضعها عمر بن الخطاب من قبل. وحذا حذوه الخليفة على بن أبي طالب، خصوصاً وأنه كان مشغولا بما ساد من مشاكل داخلية في عهده.

ويروى أن معاوية بن أبى سفيان جعل على كل قبيلة من قبائل العرب رجلا يدور على المجالس كل صباح ليسأل عما إذا كان مولود قد ولد فيهم، أو ضيف حل بهم، فيكتب أسماءهم واسراتهم ويذهب إلى الديوان ليثبتهم فيه. بالاضافة إلى أن عبد الملك بن مروان سيعمل ـ فيما بعد ـ على تنظيم الدواوين وتطبيقها ليس

---

(345) راجع ادارة الدولة الاسلامية والمناطق المفتوحة في عهد عمر بن الخطاب

وقد اختلف المؤرخون حول التاريخ الذي وضع فيه الديوان، فيذكر الطبري انه وضع في السنة الخامسة عشر من الهجرة، بينما يرى البلاذري وابن الأثير ومن شايعهما من المؤرخين، انهوضع في السنة العشرين من الهجرة، ويرجح الباحثين التاريخ الأول لوضع الديوان، ذلك ان الظروف الجديدة التي نتجت عن فتح اراضي سواد العراق ، وهي اراضي زراعية واسعة، هي التي أملت علىعمر ابن الخطاب انشاء الديوان ، وتقرير الاعطيات بدلا من توزيع هذه الاراضي على الذين فتحوها باعتبارها غنيمة لهم حاربوا عليها،فعندما أتم سعد بن ابي وقاص فتح اراضي السواد من العراق كتب الى عمر يستشيره في توزيع الارض والغنائم على الذين قاتلوا من جند المسلمين، فرد عليه عمر بعد ان شاور اصحابه «انظر ما اجلب الناس عليك به الى العسكر من تراع ومال فاقسمه بين من حضر من المسلمين، واترك الارضين والانهار لعمالها ليكون ذلك في اعطيات المسلمين فانك ان قسمتها بين من حضر لم يكن لمن تعداهم شيء». انظر ابو يوسف : الخراج ص 25 ـ 26 ، 32 ، يحيى بن آدم : الخراج ص 27، البلاذري : فتوح البلدان ص 265، احمد السيد دراج : صناعة الكتابة وتطورها ص 22 ـ 23.

(346) محمد كرد علي : الادارة الاسلامية في عز العرب ص 44 ـ 45.

على المسلمين فحسب وإنما على أهل الذمة، حيث أمر بأن يدون كل شخص اسمه واسم والده وأولاده وممتلكاته وذلك في مكان ولادته (347).

وكانت اللغة المستعملة في هذه الدواوين، هي اللغة العربية، أما دواوين الخراج التي كانت موجودة في الامصار قبل فتحها، والتي ظلت فيها بعد فتحها، يدون فيها باللغة الفارسية في ديوان العراق، وباللغة اليونانية في ديوان الشام، وباللغة القبطية في ديوان مصر، إلى أن تم تعريب هذه الدواوين في خلافتي عبد الملك بن مروان وابنه الوليد. (348).

وفي خلال خلافة معاوية بن أبى سفيان (41 ـ 60هـ) تطورت الادارة الاسلامية بسبب نقل العاصمة الاسلامية من المدينة إلى دمشق وتأثرها بالحضارة البيزنطية والفارسية، فنجد أن الدواوين تعددت وتصبح خمسة (349) وهي :

ديوان الرسائل (الانشاء) (350) وديوان الجند (351) وديوان الخراج

---

(347) المقريزي : المواعظ والاعتبار ج 1 ص 94.

Denys : Chronique publ et traduite par chabot p. 10

، سيده كاشف : عبد العزيز بن مروان ص 99 ، حسان علي حلاق : تعريب النقود والدواوين في العصر الأموي ص 89 ، 90.

(348) انظر فرج الهوني : النظم الادارية والمالية... ص 202 ـ 205 ، 212

(349) بينما يجمع الباحثون على ان عدد الدواوين كان خمسة نجد فرج الهوني يضيف اليها، بيت المال وديوان الزمام ويذكر انها كانت سبعة. ومن المعروف ان زياد بن ابيه والى العراق هو الذي استحدث ديوان الزمام ويبدو ان هذا الديوان كان موجودا هناك قبل الاسلام ضمن الدواوين الفارسية فاعاد زياد انشاءه.

(350) وكان من أعمال هذا الديوان تنسيق العمل بين الدواوين، وتنفيذ ملاحظات الخليفة على اعمال هذه الدواوين. وتميزت مراسلات الخلفاء الأولى بالايجاز وايضاح المعنى. وكان القائم على هذا الديوان، يختارمن أهل الخليفة ومن أهل الثقة حتى لا تتسرب اسرار الدولة والخلافة الى الأعداء . أنظر مولوي .حسين : الادارة العربية ص 168، السيد عبد العزيز سالم : الدولة العربية ص 679 .

(351) وهو الذي انشأ في عهد عمر لتحديد العطاء لجميع المسلمين وخاصة الجند منهم، غير أنه مر بتطورات عديدة خلال حكم الأمويين خصوصا في عهد هشام بن عبد الملك الذي ابطل تقديم العطاء كوسيلة للتعيش مع عدم القيام بالخدمة الحربية، فلم يأخذ احد عطاء حتى ولو كان اميرا أمويًا ما لم يؤد الخدمة الحربية بنفسه أو يرسل من ينوب عنه في ادائها . انظر فلهوزن : الدولة العربية ص 348 .

وديوان الخاتم (352) وديوان البريد (353). وقد استعمل معاوية بعض النصارى في الادارة، بينما كان الخليفة عمر بن الخطاب يمتنع عن استخدامهم إلا إذا أسلموا، لاسيما في الادارة الخاصة بمقر الخلافة .

فعهد معاوية إلى سرجون بن منصور، ثم إلى ابنه منصور بن سرجون من نصارى الشام بادارة دواوين المال. وكان منصور الأول والدسرجون على المال في الشام منذ عهد هرقل وذلك قبل الفتح العربي. والواقع أنه لم يقتصر وجود الدواوين على مقر الخلافة فقط، بل انشئت دواوين محلية في البلاد المفتوحة، كانت استمرارا للدواوين التي كانت موجودة قبل الفتح العربي، ويتولى الوظائف فيها أشخاص من النصارى والفرس .

وكانت بعض الدواوين في البلد الواحد، تكتب باللغة العربية وبعضها الآخر اما باللغة الفارسية أو الرومية، ولم يزل بالكوفة والبصرة ديوانان، احدهما بالعربية لاحصاء الناس واعطياتهم، وقد انشأه عمر بن الخطاب، والآخر لوجوه الأموال بالفارسية. وكان بالشام مثل ذلك، أحدهما بالرومية، والآخر بالعربية واستمر الأمر على ذلك إلى أيام عبد الملك بن مروان. (354).

ولذلك كانت السمة الغالبة على الدواوين سواء ما يتعلق بأشخاصها أو لغاتها السمة الاجنبية البعيدة عن المظاهر العربية، إلى أن تولى عبد الملك بن مروان (65 ـ 86هـ / 684 ـ 705م)، أمر بتعريب الدولة، سواء من الناحية المالية

---

(352) وهو ختم رسائل أو وثائق الخلافة قبل ارسالها الى الولايات او الامصار أو الأقاليم بحيث لا يعلم احد ما تشتمل عليه ولا يستطيع فضها أيضا، ولو حاول حاملها ذلك لاكتشف امره فورا. وقد اتبع ولاة الأمصار نفس الاسلوب. وأول من رسم هذا الديوان هو معاوية بن ابي سفيان. انظر الجهشياري : الوزراء والكتاب ص 24 ، 25، الصولي : أدب الكاتب ص 141، مولوي حسين : الادارة العربية ص 169. حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ج 1 ص 447 .

(353) وقد استحدث نظام البريد بعد اتساع الدولة العربية، وضرورة الاتصالات بين مركز الخلافة وسائر الاقاليم وكان معاوية اول من انشا نظاما للبريد وكان مقتصرا في البداية على تصريف شؤون الدولة اولا ثم اتيح للناس الانتفاع به، وكان من اهم الدواوين. ولذلك نرى عبد الملك بن مروان يصدر اوامره بعدم منع حامل البريد اذا اراد الدخول اليه. انظر مولوي حسين : الادارة العربية ص 169، حسان علي حلاق : تعريب النقود والدواوين ص 99 ـ 100.

(354) احمد مختار عمر : تاريخ اللغة العربية في مصر ص 31.

(تعريب النقود) لتحقيق الاستقلال الاقتصادي عن الدولة البيزنطية والأنظمة النقدية الفارسية، أو من الناحية الادارية الخاصة بتعريب الدواوين لإكمال صبغ الدولة عربيًا. بعد أن كان النظام الديواني والمالي الاسلامي على غرار الأنظمة البيزنطية نظامًا وتعبيرا. (355).

ويرى ابن خلدون أن سبب تعريب عبد الملك للدواوين هو أن العرب في زمنه كانوا قد انطلقوا من طور البداوة، وأقبلوا على تعلم القراءة والكتابة. ويرى أيضا أن الذي ساعد على اتخاذ خطوة التعريب، هو أن اللغة العربية أصبحت في متناول كثير من الكتاب في البلاد المفتوحة وهم الذين كانوا يملأون الدواوين وبخاصة الموالى الذين اسلموا، فمنذ عهد على بن أبي طالب ظهر بعض الموالى المهرة الذين كانوا يبحثون في قواعد اللغة وتبسيطها، مثل ابي الاسود الدؤلى (ت 67هـ / 686م)، الذي عاش إلى زمن الأمويين.

لذلك سعى الحجاج عامل العراق لعبد الملك في إيجاد ضوابط للغة العربية بإستخدام التنقيط، فقد فزع من تغيير الموالى للفظ القرآن لتشابه الحروف مما ترتب عليه تغيير في معانيه، وهو ما عرف «بالتصحيف» فسأل كتابه من العجم أن يصنعوا للحروف علامات، لتميز بعضها عن بعض، فوضعوا له النقط، ولذلك سميت في أول الأمر «بالنقط الاعاجم». (356).

كما أن من الاسباب التي جعلت عبد الملك يقوم بتعريب الدواوين الاختلاف الواضح منذ عهد الخليفة عمر بين احكام الجزية والخراج وعشور الارض وعشور التجارة في العراق وفارس عنها في الشام ومصر، وقد حمل على إيجاد هذا الاختلاف لغات الدواوين فيما بينها في الاراضي المفتوحة، وكان من العسير علي عمر بن الخطاب أن ينقل هذه الدواوين الى العربية، ويستخرج منها نظاما موحدا يفرضه على الدولة العربية كلها.

---

(355) Lammens: un gauverneur Omaiyade d'Egypte p. 102

(356) انظر ابن خلدون: مقدمته ص 193، ابن خلكان: وفيات الاعيان جـ 1 ص 174، 175، ابن الاثير: الكامل في التاريخ جـ 3 ص 200، عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسي للدولة العربية جـ 2 ص 164.

لذا قام عبد الملك بن مروان بتنفيذ هذه المهمة لاخراج نظام موحد في الدولة العربية، واعطى أوامره الى عمال الاقاليم بتنفيذ مهمة التعريب في الدواوين كالحجاج في العراق وعبد الله بن عبد الملك في مصر ، وتولى عبد الملك بنفسه الاشراف على تنفيذ المهمة في بلاد الشام. (357).

وبالاضافة إلى هذه الاسباب الاساسية، لابد للمؤرخين العرب أن يقدموا اسبابًا مباشرة وأخبارية قد لاتتناسب مع أهمية هذا الموضوع الخطير الاثار والدلالات .

ففي الشام يروى الجهشيارى انه «كان يتقلد ديوان الشام بالرومية، لعبد الملك ولمن تقدمه، سرجون بن منصور النصرانى ، فأمره عبد الملك يومًا بشيء فتثاقل عنه وتوانى فيه، فعاد لطلبه، وحث فيه، فرأى منه تفريطًا وتقصيرا، فقال عبد الملك لابي ثابت سليمان بن سعد الخشنى- وكان يتقلد ديوان الرسائل ــ أما ترى ادلال سرجون علينا ؟ وأحسبه قد رأى أن ضرورتنا إليه والى صناعته، أفما عندك حيلة؟ قال : لوشئت لحولت الحساب إلى العربية، قال : فافعل، فحوله، فرد إليه عبد الملك جميع دواوين الشام» (358).

أما البلاذرى فيذكر «قالوا : ولم يزل ديوان الشام بالرومية حتى ولى عبد الملك بن مروان، فلما كانت سنة 81هـ أمر بنقله وذلك أن رجلا من كتاب الروم احتج (أحتاج) أن يكتب شيئًا فلم يجد ماء فبال في الدواة، فبلغ ذلك عبد الملك فأدبه، وأمر سليمان بن سعد بنقل الديوان، فسأله أن يعينه بخراج الاردن سنة ففعل ذلك، وولاه الاردن فلم تنقض السنة حتى فرغ من نقله. وأتى به عبد الملك، فدعا بسرجون كاتبه، فعرض ذلك عليه فغمه وخرج من عنده كئيبًا فلقيه قوم من كتاب الروم، فقال : اطلبوا المعيشة من غير هذه الصناعة». (359).

وفي العراق يروى المدائنى «لم يزل ديوان خراج السواد وسائر العراق بالفارسية، فلما ولى الحجاج العراق استكتب زادان فروخ بن بيرى وكان معه صالح

---

(357) السيد عبد العزيز سالم : الدولة العربية ص 524، تعريب النقود والدواوين ص 105 ــ 106.

(358) الجهشياري : الوزراء والكتاب ص 40.ويروي خليفة بن خياط في تاريخه ان سرجون بن منصور الرومي كان متوليا لشؤون الخراج والجند فلما مات عين بدلا منه سليمان بن سعد مولى خشين حي من قضاعة وهو أول من ترجم ديوان الشام بالعربية. انظر تاريخ خليفة ابن خياط ج 1 ص 345.

(359) البلاذري : فتوح البلدان ص 196 ــ 197.

ابن عبد الرحمن مولى بنى تميم يخط بين يديه بالعربية والفارسية ...... فوصل زادان فروخ، صالحًا بالحجاج وخف على قلبه .... (وتناقشا يومًا فقال صالح لزادان فروخ يومًا) ... والله لوشئت أن أحول الحساب الى العربية لحولته، قال : فحول منه شطرا حتى أرى ، ففعل ... ثم أن زادان فروخ قتل أيام عبد الرحمن بن محمد ابن الاشعث الكندى (سنة 82هـ / 701م) وهو خارج من منزل كان فيه .... فاستكتب الحجاج صالحًا مكانه، فأعلمه الذي كان جرى بينه وبين زادان فروخ في نقل الديوان. فعزم الحجاج على أن يجعل الديوان بالعربية، وقلد ذلك صالحًا» وقد اعطى الحجاج، صالحًا مهلة كافية لقلب الديوان من الفارسية الى العربية (360).

ويناقش بعض الباحثين، تواريخ بدء التعريب في كل من الشام والعراق ويذكرون أن النصوص التاريخية تشير أن تعريب الدواوين بدأ في العراق قبل الشام ويرجعون ذلك إلى عدم معاصرة المؤرخين لتلك الحقبة التاريخية، وعدم تثبتهم من تاريخ بدء التعريب في كلا البلدين (361).

والحقيقة أن هذه المصادر برئية من هذه التهمة.فالبلاذرى يروى لنا أن تعريب دواوين الشام في سنة 81هـ. أما تعريب العراق فبعد سنة 82هـ / 701هـ وهي السنة التى دخل ابن الاشعث فيها مدينة البصرة وانضم إليه معظم أهلها وقراؤها، ولا سيما مواليها لقتال أهل الشام، وذلك لثقل وطأة الحجاج عليهم فوقع في الزاوية التحام شديد تم فيه النصر لابن الاشعث، وقتل من الطرفين خلق كثير. وكان أحد هؤلاء القتلى زادان فروخ بن بيرى . (362).

أما خراسان فقد ظلت اللغة الفارسية مستعملة فيها حتى سنة 124هـ اذ «كان أكثر كتاب خراسان اذ ذاك مجوسًا، وكانت الحسابات تكتب بالفارسية، فكتب

---

(360) انظر البلاذري : فتوح البلدان ص 298.

(361) حسان علي حلاق : تعريب النقود والدواوين ص 108.

(362) ومن الغريب ان زادان فروخ شارك في هذه الفتنة اذ يروي ابن الخياط في تاريخه ان زادان فروخ نصح الحجاج حينما زحف ابن الاشعث الى البصرة بقوله «اخرج له عن البصرة فان الذين معه من البصرة اذا شموا نساءهم وأولادهم قعدوا عنه. فخرج الى ناحية طف البصرة، ودخل ابن الاشعث البصرة فقعد عنه عامة من كان معه من اهل البصرة».انظر تاريخ خليفة بن خياط ج 1 ص 363 ، 365، الطبري : الامم والملوك ج 8 ص 13 وما بعدها، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 4 ص 467 ــ 468.

يوسف بن عمر ـ وكان يتقلد العراق في سنة 124هـ-إلى نصر بن سيار كتابا انفذه مع رجل يعرف بسليمان الطيار، يأمره الا يستعين بأحد من أهل الشرك في أعماله وكتابته»،ويبدو أن نصر بن سيار اسند إلى اسحق بن طليق وهو رجل من عرب بنى نهشل، بنقل الكتابة من الفارسية إلى العربية بخراسان. (363).

وبالرغم من رواية الجيشهارى السابقة والتي تذكر أن تعريب دواوين خراسان تم بعد سنة 124هـ، فيذكر المقريزى أن تحويل الدواوين إلى العربية بخراسان تم في أواخر العصر العباسي الأول في عهد الوليد بن هشام بن قحذم بن سليمان ابن ذكوان المتوفى في 222هـ. (364).

أما في مصر حيث كانت الدواوين تكتب باللغتين القبطية واليونانية فيلاحظ ان التعريب في مصر تأخر عنه في الشام والعراق. وكان أول من دون ديوانا للجند في مصر هو فاتحها عمرو بن العاص. ولما ولى مصر عبد العزيز بن مروان، دون تدوينـًا ثانيا ثم دون قرة بن شريك التدوين الثالث، ودون بشر بن صفوان (101 ـ 120هـ) التدوين الرابع .

ومن المعروف أن عملية التعريب استمرت بعد عبد الملك بن مروان، في عهد خلفه ابنه الوليد بن عبد الملك، ونظرا لأن عبد الله بن عبد الملك بن مروان كان واليـًا على مصر في خلال خلافة كل من عبد الملك والوليد منذ 84هـ أو 85هـ(365) فقد اختلف بعض المؤرخين في أيهما (عبد الملك أو الوليد) قام بتعريب الدواوين في مصر .

ويروى الكندى أن عبد الله بن عبد الملك قام بعزل عبد الله أثيناس عن الديوان وقام بتعيين ابن يربوع الفزاري عليه وأمره بتحويل الديوان من القبطية

---

(363) الجهشياري : الوزراء والكتاب ص 67.

(364) المقريزي : المواعظ والاعتبار ج 1 ص 98.

(365) في تاريخ خليفة بن خياط ان وفاة عبد العزيز بن مروان في 84 هـ،اما الطبري وابن الأثير فيذكران أن وفاته كانت في 85 هـ وتولى بعده عبد الله بن عبد الملك .أنظر تاريخ خليفة بن خياط ج 1 ص 392، الطبري : الامم والملوك ج 8 ص 53 ـ 54، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 4 ص 513 ـ 514.

الى العربية. ويضيف المقريزى أن ذلك تم سنة 87هـ في خلافة الوليد بن عبد الملك. (366).

وبالرغم من تعريب الدواوين في مصر ، إلا أن الوثائق تدل على أن اللغتين اليونانية والعربية كانتا مستعملتين جنبًا إلى جنب في دواوين الحكومة وذلك حتى ولاية قرة بن شريك لمصر (90 ـ 96هـ) والذي اتضحت في عهده معالم النظام العربي المالي. كذلك تدل الوثائق على استخدام اللغة القبطية في الريف حيث كان مستقر العنصر القبطي واستمر استخدام هذه اللغة حتى سقوط الدولة العربية. (367).

ولم يقتصر التعريب في عهد عبد الملك بن مروان فقط على الدواوين بل وشمل نظام العملة إذ يروى ابن عذارى انه «في سنة 76هـ كان حدوث السكة في الاسلام ، وأمر ... عبد الملك بضرب الدنانير والدراهم بنقش الاسلام» إذ لم تكن في أول أمرها عربية ، لأن العرب المسلمين حينما فتحوا البلدان لم يكونوا يعرفون صناعة العملة . وفي أول الأمر ابقوا على العملة السائدة في التداول دون تغيير ، وهي العملة البيزنطية والفارسية وحتى اليمنية القديمة ، فبقيت صورة الصليب منقوشة على الاول ، وصورة بيت النار منقوشة على الثانية ، وإن قيل إن عمر بن الخطاب نقش على نفس هذه العملة العقيدة الاسلامية ، وكلمة جائز ، للدلالة على قبول الدولة الاسلامية لها (368) .

ولم تعرف عملة عربية صرفة إلا في عهد الخليفة الاموى عبد الملك ابن مروان، الذي قدر تمام التقدير أن العملة بالاضافة الى قيمتها الاقتصادية وسيلة للاعلان عن سيادة الدولة الاسلامية بما هو منقوش عليها من عبارات دينية، وإرضاء الشعور الديني والسياسي للشعوب العربية والاسلامية. فضلا عن أنها اعلان لشرعية حكم الخليفة بنقش اسمه عليها، خصوصًا بعد ان اشترك في حق سك العملة كثير من الولاة وفئة من المطالبين بالخلافة والعمال الثائرين منذ أن قامت الحرب الاهلية

---

(366) الكندي : ولاة مصر ص 80، المقريزي : المواعظ والاعتبار جـ 1 ص 98.

(367) راجع حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام جـ 1 ص 450 ، 451 ، النظم الاسلامية ص 175، سيده الكاشف : عبد العزيز بن مروان ص 145.

(368) البلاذري : فتوح البلدان ص 451 ـ 453 . ابن عذارى : البيان المغرب 1 : 34 . عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى ص 42 .

في اعقاب مقتل عثمان بن عفان سنة 35هـ / 656م. فكان هذا الاصلاح النقدي سببًا هامًا في القضاء على الفوضى السائدة تحقيقًا للاستقرار السياسي.

ويضيف بعض الباحثين أسبابًا أخرى، لتعريب العملة، منها ان التعريب كان خطة مرسومة للتخلص من الجزية المفروضة من قبل جستنيان الثاني، الذي لن يقبل ولو شكليًا مثل هذه النقود ذات الطابع الاسلامى. وقد اقدم عليها عبد الملك بعد شعوره بالقدرة على مواجهة البيزنطيين، ولذلك يذكر فلهوزن أن تغيير العملة ارتبط باستئناف الحرب مع الروم. (369).

ومنها أنه بعد سقوط الامبراطورية الفارسية، والصراع مع الامبراطورية البيزنطية وما صاحبه من توتر عسكري، أدى إلى نقص وتقلص التجارة بين العرب والروم وبالتالى ادى إلى نقص العملة المتداولة بين السكان، كما أن العملة المتوفرة أضحت لا تتناسب مع نشاط الدولة المالي وحاجاتها الاقتصادية. كما شاعت العملات الزائفة، ولاسيما الفارسية، مما ادى إلى هبوط قيمة العملة، وارتفاع أسعار الحاجيات، وزوال الثقة المالية ومن أهمها الغبن الذي يقع على الدولة في استيفاء حقوقها من الضرائب فيؤدى ذلك إلى نقص كمية الخراج، ولذلك يمكن القول أن سوء الحالة الاقتصادية كانت مع غيرها من الاسباب التي حدت بعبد الملك إلى تعريب العملة والاشراف على ضربها. (370).

أما السبب المباشر، لتعريب العملة، فتتفق معظم المصادر الاسلامية، على أن النعرة الدينية واستنكار التثليث والاعتقاد بالتوحيد كان السبب في التعريب، اذ يروى البلاذرى «كانت القراطيس تدخل بلاد الروم من أرض مصر، ويأتى العرب من قبل الروم الدنانير» (371) ويضيف البيهقى «وكان أكثر من بمصر نصرانيًا على دين الملك، ملك الروم، وكانت تطرز بالرومية، وكان طرازها: ابا وابنًا وروحًا قدسا» واستمر الامر كذلك طوال الخلافة الاموية إلى عهد عبد الملك بن مروان الذي لاحظ هذا الطراز فاستنكره، خصوصًا عندما علم أن هذه العلامة توضع على جميع من

(369) Syed Ameer Ali : A short History of the Saracens (London 1953) p. 189

، فلهوزن : الدولة العربية ص 210، سيده كاشف : عبد العزيز بن مروان ص 91، عبد الرحمن فهمي : النقود العربية ص 44.

(370) ضياء الدين الرئيس : عبد الملك بن مروان ص 278 ـ 279

، حسان على حلاق : تعريب النقود والدواوين ص 42 ـ 44

(371) البلاذري : فتوح البلدان ص 241

يصنع بمصر من ثوب وقرطاس وستر وغير ذلك فأمر عبد الملك بن مروان واليه على مصر بإبطال هذا الطراز وكتابة سورة التوحيد عوضا عنه «شهد الله أنه لا إله إلا هو» (372).كما كتب إلى عماله في سائر الامصار، يأمرهم بإبطال ما في أعمالهم من القراطيس المطرزة بطراز الروم، ومعاقبة من وجد عنده بعد هذا النهي شيء منها، بالضرب الوجيع والحبس الطويل. (373).

ولما حملت هذه القراطيس إلى بلاد الروم وعلم بها الامبراطور انكر مافيها، واستشاط غيظا، فكتب إلى عبد الملك : ان عمل القراطيس بمصر وسائر ما يطرز هناك للروم ولم يزل يطرز بطرازهم. فإن كان ما تقدمك من الخلفاء قد أصاب فقد أخطأت، وان كنت قد أصبت فقد اخطأوا، فاختر احدى الحالتين وبعث إليه بهدية يسترضيه بها للرجوع إلى الطراز، فرد عبد الملك هديته وأخبر الرسول بأنه لارد عنده، فأعاد إليه أضعافها وطلب الجواب. فلما لم يرد عليه غضب الامبراطور وبعثب يهدده بنقش سب النبي على النقود، لذلك عول عبد الملك على ضرب العملة الاسلامية. (374).

وكان للحجاج دور هام في تحقيق خطة عبد الملك بن مروان في تعريب العملة، حتى أن بعض المصادر تبالغ في دوره في هذا المجال حتى تقرن حركة التعريب بإسمه.فاليعقوبي ، ذكر أنه في أيام عبد الملك نقشت الدراهم والدنانير بالعربية. وكان الذي فعل ذلك الحجاج بن يوسف (375). وكانت أولى أعمال الحجاج جمع دراهم عبد الله بن الزبير وأخيه مصعب وقطرى بن الفجاءة أحد زعماء

---

(372) القرآن الكريم : سورة آل عمران، الآية 18. ويذكر ابن تغرى بردى ان عبد العزيز بن مروان ، هو الذي لفت نظر الخليفة عبد الملك بن مروان الى مثل هذا الطراز، نظرا لوجوده في مصر، ومراقبته أحوالها عن كثب، وهو الذي اشار عليه بضرب الدراهم والدنانير فضربها في سنة 76هـ.ابـر ـجوم الزاهرة ج 1 ص 176 .

(373) البيهقي : المحاسن والمساوئ ج 2 ص 232 ـ 233-

(374) البلاذري : فتوح البلدان ص 241، البيهقي : المحاسن والمساوئ ج 2 ص 233 ـ 234، حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ج 1 ص 449.

(375) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 281.ويروي المدائني «بل ضربها الحجاج في آخر سنة 75 هـ ثم امر بضربها في النواحي سنة 76,هـ، وقيل ان الحجاج خلصها تخليصا لم يستقصه وكتب عليها (الله أحد الله الصمد).أنظر الماوردي : الاحكام السلطانية ص 154:

الخوارج، وصهرها ثم أعاد ضربها من جديد، وكانت هذه النقود على ضرب الاكاسرة، ولكنها تحمل لفظة «بركة» ولفظة «الله» فلما كان الحجاج غيرها، واتخذ دارا لضرب العملة على غرار دور الضرب الفارسية، وجمع فيها الطباعين، فكان يضرب المال مما يجتمع له من التبر وخلاصة الزيوف والستوقة والبهرجة، ثم اذن للتجار وغيرهم في أن تضرب لهم الاوراق وهي العملة المضروبة من فضة (376) .

أما في مصر فلا شك في أن عبد العزيز بن مروان قد أخذ بإصلاح أخيه عبد الملك للعملة على غرار ما فعله سائر الامراء في مختلف الولايات لأن الخلفاء اجازوا للولاة في مصر بضرب سكة على نفس وزن طراز السكة السائدة في الدولة .

ويرجح أن عبد العزيز، استعمل دار الضرب القديمة في الاسكندرية لسك العملة، بالاضافة إلى بتأسيسه دارا أخرى في الفسطاط، وذلك لتلبية حاجة السوق الاقتصادية من السيولة النقدية، لأنه من المعروف أن مصر كانت من كبريات الامصار الاسلامية بما تمثله من كثافة سكانية (377).

وقد عرفت هذه العملة الرسمية بإسم «السكة الاسلامية» وكلمة السكة تعنى خاتم الحديد الذي تطبع عليه العملة أو تضرب عليه بالمطرقة وأصبح يطلق عليها (378) وعلى الدار التي تصنع فيها، اسم «دار السكة» أوهبيت الضرب». وكان يشرف عليها موظف خاص اسمه «صاحب بيت الضرب» يكون تحت يده الصناعون والطباعون، الذين كان بعضهم من أهل الذمة، لخبرتهم في شؤون المال. وكان الخليفة بنفسه هو الذي يحدد لها «المقدار» أي الوزن، لتكون العملة في التداول على أساس العيار الشرعي ، اذ ان العملة وقتئذ كانت توزن ولا تعد .

---

(376) البلاذري : فتوح البلدان ص 454 . الماوردي : الأحكام السلطانية ص 154 ـ 155.

(377) فلهوزن : الدولة العربية ص 263، سيده كاشف : عبد العزيز بن مروان ص 93، حسان على حلاق : تعريب النقود والدواوين ص 40 ـ 41

(378) الماوردي : الاحكام السلطانية ص 155.

ولم تتغير وحدة العملة بتعريبها، فبقى الدينار (379) الذهبي ، والدرهم (380) الفضي والقطع من الدرهم، مثل الدانق والمثقال، ولكن تغير نقش العملة وأصبح كلمات من غير صور، لأن الشرع الاسلامي نهى عن الصور. فكانت الدنانير والدراهم على شكلين مدورين، والكتابة عليهما في دوائر متوازية، فيكتب على أحد الوجهين أسماء الله وصلاة على النبي، وفي الوجه الآخر التاريخ واسم الخليفة. كذلك نقش الحجاج اسمه على الدراهم، فعرفت بالعملة الحجاجية. وقد ظهرت في أول الأمر معارضة من قبل الفقهاء، لأن تنقش عقيدة الاسلام على العملة، خوفاً من أن يمسها غير المطهرين .

ونعرف بعض أسماء من عملة العصر الأموى ، مثل الدنانير الدمشقية التي سكها عبد الملك، والدينار الابيض أي النقى الذي سكه الحجاج، وقد بقي في مصر حتى مجئ الفاطميين اليها. وكانت أجود عملة لبني أمية ماسكة عمالهم بالعراق، حتى عرفت باسمائهم، مثل الهبيرية (381) والخالدية (382) واليوسفية (383).

---

(379) والدينار وحده من وحدات السكة الذهبية عند العرب، اشتقه العرب من اللفظ اليوناني اللاتيني Denarius ولقد عرفت العرب هذه العملة الرومانية الذهبية وتعاملوا بها قبل الاسلام وبعده. والدينار البيزنطي مستدير الشكل، يحمل على أحد وجهيه صورة الامبراطور البيزنطي، وعلى الوجه الثاني للدينار صورة صليب مع بعض العبارات المسيحية، ومكان الضرب بالاحرف اليونانية واللاتينية. انظر جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج 1 ص 141، محمد باقر الحسينى : تطور النقود الإسلامية ص 18.

(380) والدرهم كلمة اعجمية عربت عن اليونانية «الدراخما» Drachma ويقابلها في الفارسية «دراخم وديرام» Drachm .والدرهم عمله فضية استخدمها العرب في معاملتهم نقلا عن الفرس، اذ كانت الاقاليم الشرقية من العالم الاسلامي تتعامل بالدراهم اي انها كانت تتبع قاعدة الفضة باعتبار الدرهم الفضة هو نقدها الرئيسي. انظر عبد الرحمن فهمي : النقود العربية ص 10، ناصر النقشبندي : الدرهم الاسلامي ج 1 ص 1 مطبوعات المجمع العلمي العراقي، بغداد 1970.

(381) نسبة الى عمر بن هبيرة والى العراق الذي جود الدرهم وحسن فيه خلال خلافة يزيد بن عبد الملك.

(382) نسبة الى خالد بن عبد الله القسيري خلال خلافة هشام بن عبد الملك.

(383) نسبة الى يوسف بن عمر والى العراق الذي افرط في الشدة،وامتحن العيار يوما فوجد درهما ينقص حبة، فضرب كل صانع الف سوط، وكان مائة صانع. راجع عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ج 2 ص 168 ـ 169.

الباب الخامس

المعارضة السياسية والدينية وسقوط الخلافة الأموية

أولا : الخوارج
ثانيا : الشيعة
ثالثا : الزبيريون
رابعا : سقوط الدولة الأموية

المعارضة السياسية والدينية
وسقوط الخلافة الأموية

أولا : الـخـوارج

أوضحنا كيفية ظهور الخوارج في خلال خلافة على بن أبي طالب وصراعه مع معاوية بن أبي سفيان. وبعد مقتل على في 40هـ / 661م وتولية معاوية الخلافة ظلت الخوارج شوكة في حلقه، خلال فترة حكمه، وفي جنب الأمويين من بعده .

ويرجع بعض الباحثين أصول الخوارج إلى منابع متعددة منها :

المعارضة التي ظهرت خلال عهد الرسول (ص) أو الى العصبية العربية أو إلى فئة القراء الاتقياء أو إلى الحركة السبئية.

ويروى ابن هشام أن بعض الغنائم جاءت النبي فأخذ يوزعها بين الناس ، فجاءه رجل من تميم، واعترض على قسمته قائلا : « لم أرك عدلت» فغضب النبي (ص) وقال له : «ويحك ! اذا لم يكن العدل عندى ، فعند من يكون !» ولما حاول أحد الصحابة قتل هذا الرجل، قال له الرسول (ص) «ادعه، فانه سيكون له شيعة يتعمقون في الدين، حتى يخرجوا منه كما يخرج . السهم من الرمية» (1) ويعلق ابن الجوزى على هذه الرواية بقوله : «وهو أول خارجي خرج في الإسلام». (2).

ويتفق الباحثون أن هذا الرجل هو حرقوص بن زهير السعدى، الذي أمره عمر ابن الخطاب خلال خلافته، عند فتح الاهواز، كما أشركه في فتح بعض المناطق الأخرى من بلاد فارس (3).

---

(1) هشام : السيرة ج 2 ص 496

(2) ابن الجوزي : تلبيس ابليس ص 90.

(3) الطبري : الامم والملوك ج 4 ص 155 ـ 136 ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 2 ص 545 ـ 546.

وفي خلال خلافة عثمان. لعب حرقوص هذا، وكان منبعثا في قومه من بنى سعد احد بطون تميم، دورا بارزا في التآمر ضد عثمان، وقيادة ثوار البصرة والزحف إلى المدينة، إلى أن انتهى الأمر بمقتل عثمان في 35هـ / 656م (4).

وبعد تولية على بن أبي طالب الخلافة وموقعة صفين، نجد حرقوصا هذا بين قادة الخوارج البارزين، الذين ثاروا على الخليفة، وحينما تحدث المواجهة الحربية بين على وأنصاره وبين الخوارج في وقعة النهروان في 37هـ / 658م أو 38هـ / 659م يتولى حرقوص بن زهير السعدي قيادة ميمنة الخوارج ويقتل في المعركة (5).

أما دور العصبية العربية في التمهيد لنشأة الخوارج، فيظهر هذا الدور ، حينما أراد على بن أبي طالب أن يقوم عبد الله بن عباس بتمثيله في قضية التحكيم، بدلا من أبو موسى الاشعرى الذي حاول أن يحمل أهل الكوفة على الوقوف موقف الحياد وعدم الانضمام إلى علي ، ولهذا احتج على اتخاذه حكمًا. ورشح بدلا منه عبد الله بن عباس ، فاعترض الاشعث بن قيس أحد زعماء أنصار علي وهو من القبائل اليمنية.ويروى اليعقوبي انه قال : «لا والله لايحكم فيها مضريان حتى تقوم الساعة» (6). ويضيف الطبرى قوله : «والله لأن يحكما ببعض ما نكره، واحدهما من أهل اليمن أحب إلينا من أن يكون بعض ما نحب في حكمهما وهما مضريان» (7).

وإذا علمنا أن الخوارج كانوا من قبائل تميم وحنيفة وربيعة وهم من القبائل العربية المضرية الشمالية البدوية، التي ارتدت بعد وفاة الرسول وتزعمت حركة الردة في عهد أبى بكر الصديق (8)، ثم ناصبوا على بن أبى طالب العداء بعد قبوله التحكيم، ومن بعده بنى أمية بصفة خاصة وقبيلة قريش عامة وهي مضرية

---

(4) (الطبري : الامم والملوك جـ 5 ص 118 ـ 119.

(5) ابن الخياط : تاريخ خليفة بن خياط جـ 1 ص 224، الدينوري : الأخبار الطوال ص 204

(6) ابن واضح : تاريخ اليعقوبي جـ 2 ص 189 ، ابن مزاحم : وقعة صفين ص 500

(7) ابن مزاحم : وقعة صفين ص 500، الطبري : الامم جـ 6 ص 28 ـ 30.

(8) بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص 119 ، العبادي : صور من التاريخ الاسلامي ص 176 عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية جـ 2 ص 135.

شمالية كذلك، ادركنا أن الصراع القبلي هنا كان يدور بين القبائل المضرية الشمالية، بعضها البعض .

ولذلك يحق لنا أن نتساءل عن مدى صحة نزعة الخوارج القبلية، وعصبيتهم الموجهة ضد قريش وسلطانها، وانها كانت عاملا فاعلا من عوامل عديدة تضافرت وتداخلت فانجبت حركة الخوارج. (9).

أما بالنسبة لعلاقة القراء بنشأة الخوارج فيذكر فلهوزن في كتابه الخوارج والشيعة أن هذه الفئة يمكن أن يسموا أيضا «المصلين» وكان القرآن على لسانهم يحفظون اجزاء منه عن ظهر قلب ويتلونه بحرارة، جهرا وسرا، نهارا وليلا وكانوا يلقبون بلقب ذوى الجباه المعفرة، بسبب ما يتبين في وجوههم من أثر السجود وكانوا يغشون الجماهير ويؤثرون فيهم. فلما قامت الثورة على عثمان وانتشرت في الكوفة، كانت لهم الكلمة العليا، ولما قتل عثمان وقعت التهمة عليهم وعلى اقدم الصحابة الاحياء. وكانوا في طليعة المحاربين في معركة «الجمل» و «صفين» وفي كل المعارك التالية. ولذلك فعلى المرء الاقرار بإمكان أن يكون هؤلاء هم التربة التي نبت فيها الخوارج. (10).

أما بالنسبة للرأى الذي يرمى إلى البحث عن أصول الخوارج لدى فرقة السبئية وهي تنتمى إلى عبد الله بن سبأ، كان يهوديا من أهل صنعاء، اعتنق الاسلام زمن

---

(9) ويدلك نايف معروف في كتابه الخوارج في العصر الاموي على ذلك بما أنشده شاعر الخوارج بعد سيطرة الضحاك بن قيس الخارجي على العراق في 127 هـ بقوله :

ألم تر أن الله أظهر دينه　　　وصلت قريش خلف بكر بن وائل

وأنشد شاعر آخر متوعدا عبد الملك بن مروان :

فانك الا ترضى بكر بن وائل　　　يكن لك يوم بالعراق عصيب

فلا ضير ان كانت قريش عدى　　　لنا يصيبون منا مرة ونصيب

وكذلك حينما هزم ابو حمزة الخارجي أهل المدينة في وقعة قديد، سنة 130 هـ قام باستعراض اسراه منهم، فمن كان قريشيا قتله، ومن كان انصاريا خلى سبيله.

انظر ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 5 ص 335 ، 348، 349، مجهول :: عيون وحدائق ج 3 ص 169، الخوارج في العصر الاموي ص 28.

(10) انظر فلهوزن : الخوارج والشيعة ص 36 ، 37 ومن العلامات المميزة للعابدين في ذلك العهد لبس البرنس، فكانت في الخوارج القدماء جماعة يلبسون البرانس.

عثمان، وأخذ يتنقل بين الامصار لإثارة الفتنة (11) وأتبعه الكثير ، منهم بعض القادة الذين تولوا رئاسة حركة الخوارج، مثل حرقوص بن زهير السعدي وزيد ابن الحصين، وقد وصفه ابن كثير بأنه كان من السبئية، وشريح بن أوفى العبسى زميل ابن السوداء (عبد الله بن سبأ) عند مسيرة الى الخليفة عثمان. وعبد الله بن وهب الراسبي الذي تولى الخلافة للخوارج وهو رجل غامض النسب، تحوم حوله الشبهات حتى تساءل بعض الباحثين عما إذا كان الراسبي أمير الخوارج الأول هو نفسه ابن سبأ اليهودي ، أم أنه مجرد اتفاق في التسمية والنسب والاهداف فقط (12).

وكيفما كان الحال فان العلائق الوثيقة بين رؤوس الخوارج الاول وبين ابن سبأ وأنصاره، دفعت بعض الباحثين إلى الميل، إلى أن حركة الخوارج قد نمت وترعرعت في أحضان السبئية (13)، كما دفعت البعض الآخر إلى انكار هذه الصلة، اذ أن التلقيب بلقب السبئية انما كان يطلق على الشيعة وحدهم، واستعماله الدقيق ينطبق على غلاة الشيعة فحسب، ولكنه كان كلمة ذم تطلق على جميع الشيعة على السواء، والخوارج انفسهم كانوا ينعتون خصومهم الشيعة في الكوفة بنعت «السبئية» تحقيرا وذمالهم. (14) وحاول البعض التوفيق بين الرأيين فذكر أن هذا العداء لم يظهر الا بعد أن تم الطلاق الحاسم بين الفريقين، وبخاصة حين رضى شيعة علي بمقاتلة الخوارج تحت راية الامويين. (15)..

فالخوارج إذن كانوا حزبًا ثوريًا صريحًا، كما يدل على ذلك اسمهم، كانوا حزبًا ثوريًا يعتصم بالتقوى ، لم ينشأوا عن عصبية العروبة، بل عن الاسلام، وبالتالي فقد انضم إليهم بعض القراء، أصحاب التقوى الاسلامية للجهاد في سبيل الله وحده (16).

---

(11) انظر حالة الامصار (الكوفة والبصرة والفسطاط) خلال الفتنة الكبرى من كتابنا

(12) ابن كثير : البداية والنهاية جـ 7 ص 273.

، راجع ما ورده نايف معروف في رسالته عن العلاقة بين عبد الله بن وهب الراسبي الخارجي وبين عبد الله بن وهب الراسبي الهمداني المعروف بابن سبأ اليهودي. الخوارج في العصر الأموي ص 57، 58.

(13) نايف معروف : الخوارج في العصر الاموي ص 59

(14) فلهوزن : الخوارج والشيعة ص 38

(15) نايف معروف : الخوارج في العصر الاموي ص 59.

(16) فلهوزن : الخوارج والشيعة ص 41.

وقد ظهر للخوارج أن ماصنعوه في حروب علي لم يكن في سبيل اعلاء كلمة الله وحكمه ولكن كان الباعث على اثارة هذه المنازعات فيها هو التماس المصالح الدينوية والسعى للنفوذ والسلطان وتحقيق المطامع الشخصية، وعندهم أن الخلافة ينبغى أن تعقد لأفضل ابناء الأمة الاسلامية عن طريق الاختيار المطلق من كل قيد

وبعد أن اشترطوا حرية اختيار الخليفة استخرجوا من هذه المقدمة كل النتائج المنطقية المترتبة عليها، فلم يقصروا الخلافة، كما كان الحال إلى ذلك الوقت، على قوم تمتعوا وحدهم بهذا الامتياز، بل أنهم انكروه على قبيلة قريش التي ينتمى إليها الرسول (ص)، وذهبوا إلى أن «عبدا حبشيًا» لايقل أهلية للخلافة واستعدادا لها عن سليل أعظم القبائل حسبا ونسبًا.

ولكنهم في مقابل هذا، يشترطون في الخليفة أن يكون أشد الناس خشية لله، وأعظمهم طاعة له، وأقواهم استمساكًا بالدين واتباعًا لأحكامه، فاذا لم يف مسلكه بهذه الشرائط وقصرت سيرته عن ادراكها، جاز للأمة أن تخلعه. (17).

وما أن آلت الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان (41هـ ـ 60هـ) حتى بدأت مقاومة الخوارج لحكمة كما سبق وأوضحنا في قيام الدولة الاموية بالرغم من ادارة معاوية الحكيمة النشيطة التي نجحت في منع ثورة الخوارج من الاندلاع ولكنها عجزت عن إخمادها، عجزها عن كبح مشاعر الشيعة واطماعهم. وتذكر المصادر عدة فتن شبت في الكوفة والبصرة خلال فترة حكمه الطويلة؛ ولكنها سرعان ما أخمدت، ولم يكن لها من ثمرة إلا مضاعفة عدد الشهداء الذين أصبح تقديسهم والثأر لهم من سمات حركة الخوارج (18).

ولكي يوطد معاوية دعائم خلافته، اضطنع في الامصار عدة رجال دهاة مثله، حيث كانت تنتظرهم مهمة شاقة هي السيطرة على عرب الامصار، الذين شاركوا في قتل عثمان وأيدوا عليا. وقد جعلهم أشبه بملوك لهم المقصورة والحراس، وأوجد في ايديهم سلطة رهيبة هي الشرطة، التي كانت تنفذ أوامرهم وتقوم على حمايتهم، لذلك تفانوا في الاخلاص له.

---

(17) اجناس جولد تسيهر: العقيدة والشريعة في الاسلام ص 190 ـ 191.

(18) انظر دائرة المعارف الاسلامية، مادة الخوارج.

فولى الكوفة مركز المقاومة الشيعية بالعراق، وعاصمة على بن أبي طالب السابقة ـ المغيرة بن شعبة في 662/42م ،وهو صحابي من قبيلة ثقيف، اشتهر بجرأته في الفتوح الفارسية والشامية حتى أنه ذهبت عينه يوم اليرموك، كما تولى عمل البصرة والكوفة عدة مرات (19).

ولما تولى المغيرة بن شعبة «فأحب العافية وأحسن في الناس السيرة ولم يفتش أهل الاهواء عن أهوائهم. وكان يؤتى فيقال له : ان فلانا يرى رأى الشيعة. وان فلانـًا يرى رأي الخوارج. وكان يقول : قضى الله الا تزالون مختلفين وسيحكم الله بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون فأمنه الناس» (20).

ولذلك عاد الخوارج الذين سبق أن اضطروا إلى الهروب إلى الريي ، ودأبوا على الاجتماع في دار حيان بن ظبيان السلمى أحد زعمائهم وراحوا يتذاكرون مكان اخوانهم بالنهروان، ويرون ان في الاقامة الغبن والوكف (الاثم) ، وان في جهاد اهل القبلة الفضل والأجر فاتفقوا على إعلان القتال على أهل السنة والجماعة في غرة شعبان 43 هـ بعد ان اتفقوا على مبايعة المستورد ابن علفة التميمي خليفة جديدا لهم.

على أن أحلام الخوارج لم تتحقق، فقد عدل المغيرة على التنكيل بهم بما عرف عنه من الدهاء والمكر، ولاغرو فقد كان ثالث ثلاثة اشتهروا بين العرب بالدهاءهم : عمرو بن العاص ، ومعاوية بن أبي سفيان، والمغيرة هذا الذي كان يقول فيه الناس ، لو كان الدهاء له ثمانية أبواب استطاع المغيرة أن يخرج منها كلها، فقبض المغيرة على جماعة منهم من بينهم حيان بن ظبيان ومعاذ بن جوين الطائى واودعهم السجن. وضيق على اخوانهم حتى اضطرهم إلى مغادرة الكوفة وأخذوا يتنقلون في العراق حتى انتهى بهم الأمر إلى نهير الصراة قرب موقع مدينة بغداد ـ التي ستبنى في خلافة العباسيين ـ ومنها الى بهر سير القريبة من المدائن فأرسل اليهم المغيرة جيشـًا يربو عدده على ثلاثة آلاف نقاوة الشيعة

(19) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 3 احداث سنة 42 هـ، اسد الغابة ج 4 ص 406 ــ 407، ابن قتيبة الدينوري : المعارف ص 150، الذهبي : اعلام النبلاء ج 3 ص 5 وما بعدها .
Lammans : Etudes sur le siècle des Omeyyades, Beyrout 1930 p. 27.
، عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ج 2 ص 26 ــ 27.
(20) الطبري : الامم والملوك ج 6 ص 100.

وفرسانهم بقيادة معقل بن قيس الرياحى من الشيعة، فأدرك الخوارج بالمذار، بين واسط والبصرة، ديلمايا، وهي قرية من قرى إستان بهرسير بجانب دجلة، على مقربة من ساباط حيث تقابل الفريقان واشتد القتال وكادت الدائرة تدور على أهل الكوفة لولا ثبات معقل في عدد من فرسانه ونجدة احد قواده الذي كان المستورد قد ابعده عن ساحة المعركة بحيلة حربية بارعة. وتبارز المستورد ومعقل، فقتل كل واحد منهما صاحبه، وقتل الخوارج (21)، ولم ينج منهم الا احدهم عاد إلى الكوفة وجاء هناك بأول نبأ عن نتيجة هذه المعركة وكان جزاؤه عن هذا أن عفي عنه، ولو جاء الخوارج كلهم إلى المغيرة لكان قد عفا عنهم أيضا. (22) .

وفي سنة 45 هـ / 665 م أقام معاوية بن ابي سفيان، زياد بن ابيه عاملا على البصرة وهي المصر الثاني بالعراق ومركز مقاومة الخوارج على الخصوص. وزياد من قبيلة ثقيف أيضا، كان واليا على فارس لكل من علي بن ابي طالب وابنه الحسن، وأنه من الخطباء الفصحاء، ولكي يجعله يتحول من العلويين، اليه استلحقه بنسبه، لما قدم عليه بالشام سنة 42 هـ / 662، فجعله أخًا له من ولد ابي سفيان، مع ان زياد لم يكن يعرف له أب، ويدعونه بزياد بن أبيه، او بزياد بن سمية، باسم امه سمية احدى البغايا بالطائف، كما انه لم يطالبه بمال فارس اثناء ولايته للعلويين. لما مات المغيرة بالطاعون في 50 هـ/670 م، اضاف معاوية لزياد ولاية الكوفة، وبقي اميرا على العراق كله وما يتبعه من اقليمي خراسان وسجستان وجمع له الهند والبحرين وعمان، وكاد ان يوليه ايضا على الحجاز، حتى وفاته سنة 53 هـ/672 م.

ويتبين حزم زياد في حكمه بالعراق من خطبته المعروفة بالبتراء التي القاها في البصرة اول ولايته، أعلن فيها انه يأخذ بالظنة ويعاقب بالشبهة مما جعل الناس

(21) الطبري : الامم والملوك ج 6 ص 100 ـ 101، 104 ـ 120، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 3 ص 421، 427 وما بعدها، ياقوت الحموي : معجم البلدان مواد الري، الصراه، بهر سير والمذار.

(22) ولزم خوارج الكوفة الهدوء سنوات طوالا الى أن انتخبوا لهم خليفة جديدا، وانتخاب خليفة جديد كان معناه دائما استئناف الكفاح ضد الجماعة، فقد بايع الخوارج حيان بن ظبيان السلمي بعد أن اطلق سراحه وكانوا دون المائة رجل والتقوا بجند الكوفة في بانقيا احدى نواحي الكوفة وكان أكثر ساكنيها من اليهود فقتلوا جميعا في ربيع الأول سنة 59 هـ/678 م وكانت تلك المعركة نهاية الخوارج بالكوفة. أنظر الطبري : الامم والملوك ج 6 ص 172 ـ 174. فلهوزن : الخوارج والشيعة ص 58.

تخافه خوفا شديدا . وبذلك قضى على حركات الشيعة والخوارج في المصرين، فكان يقيم بالبصرة ستة أشهر، وبالكوفة مثل ذلك (23).

وكانت البصرة ابان ولاية زياد بن أبيه وابنه عبيد الله مسرح اكثر الفتن واشدها. وكانت هذه الفتن هي التي قررت خطط الخوارج في القتال، وكانت غاراتهم الى ذلك العهد بحرب العصابات أشبه، ويرجع معظم الفضل في انتصاراتهم الى سرعة فرسانهم، وهي السرعة التي اصبحت بعد قليل اسطورة من الأساطير ـ وقد حفظت اسماء بعض خيلهم في المصنفات العربية عن الخيل ـ وكانوا يتحركون فجأة لا يتوقعهم احد، ويكتسحون البلاد، ويباغتون المدن غير الحصينة، ثم ينسحبون مسرعين تخلصا من مطاردة جيش الدولة لهم (24).

وفي العام التالي لولاية زياد بن ابيه بالبصرة اي في 46 هـ/666 م ثار كل من سهم بن غالب الذي تخلى عنه انصاره و «طلب الامان فلم يؤمنه زياد وطلبه حتىاخذهوقتله وصلبه على بابه». وزميله الخطيم الباهلي الذي حدد اقامته في داره وحينما لم يخضع لاوامر زياد امر بقتله والقى في قبيلته باهلة (25).

وفي 50 هـ/670 م ثار قريب بن مرة الازدي وزميله زحاف الطائي على رأس سبعين رجلا من بني يشكر وهاجموا بني ضبيعةومساجد القبائل، وقتلوا منهم عدد كثير فقاومتهم بعض بطون الازد. وعندما عجز عامل زياد على البصرة عن صدهم، استنجد بزياد من الكوفة، فجاء غاضبا وخطب القبائل قائلا (26) : «يا أهل البصرة ما هذا الذي قد اشتملتم عليه ؟ اني اعطي الله عهدا لا يخرج عليّ خارجي بعدها

---

(23) الدينوري : الأخبار الطوال ص 219 ـ 220، 223، ابن واضح : تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 259، ابن الأثير : أسد الغابة ج 2 ص 225 ـ 216، عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ج 2 ص 28 ـ 29.

(24) أنظر دائرة المعارف الاسلامية، الخوارج.

(25) الطبري : الامم والملوك ج 6 ص 129.

(26) ويروي المبرد في كتابه الكامل في اللغة والادب انه خطب الازد بقوله : «يا معشر الازد : لولا أنكم اطفأتم هذه النار لقلت لكم ارثتموها» فكانت القبائل اذا احست بخارجية فيهم شدتهم وثاقا واتت بهم زيادا، فكان هذا احد ما يذكر من صحة تدبيره. انظر اخبار الخوارج من كتاب الكاملفي اللغة والأدب والنحو والتصريف ص 58.

فأدع من حيه وقبيلته احدا، فأكفوني بوائقكم (شركم) (27)» ويضيف الطبري قوله : «والله لئن افلت منهم رجل لا تأخذون العام من عطائكم درهما (28)».

أخذ زياد يتشدد في ملاحقة الخوارج-ففي 52 هـ/672 م ثار زياد بن خراش العجلي في ثلاثمائة فارس بأرض مسكن من السواد، كما ثار معاذ الطائي على رأس ثلاثين رجلا فأرسل زياد اليهم جنده وقضوا عليهم (29). ويروي المبرد ان الخوارج «اخرجوا معهم امرأة، فظفر بها (زياد) فقتلها، ثم عراها. فلم تخرج النساء بعد على زياد. وكن اذا دعين الى الخروج قلن : لولا التعرية لسارعنا» (30).

ولم يكن زياد يتشدد مع الخوارج، لمجرد التشدد وحب القسوة، ويلخص المبرد سياسة زياد تجاه الخوارج بقوله «فأما زياد فكان يقتل المعلن، ويستصلح المسر، ولا يجرد السيف حتى تزول التهمة» ولذلك حاول استصلاح بعضهم. فقد علم يوما أن رجلا من بني سعد يرأى رأي الخوارج فأحضره واتهمه فأجابه الرجل : «انك قد قلت قولا فصدقه بفعلك، وكان من قولك : ومن قعد عنا لم نهجه، فقعدت، فأمر (زياد) له بصلة وكسوة وحملان».

كما بلغه أن رجلا يكنى ابا الخير، من أهل البأس والنجدة، انه يرأى رأي الخوارج، فدعاه فولاه جنديي سابور وما يليها، ورزقه اربعة آلاف درهم في كل شهر، وجعل عمالته في كل سنة مائة الف، فكان ابو الخير يقول : ما رأيت شيئا خيرا من لزوم الطاعة والتقلب بين أظهر الجماعة».

ولذلك مدحه الخليفة الورع عمر بن عبد العزيز بقوله : «قاتل الله زيادا، جمع لهم (أهل العراق) كما تجمع الذرة، وخاطهم كما تخوط الام البرة، واصلح العراق، بأهل العراق وترك اهل الشام في شامهم، وجبى العراق مائة الف ألف وثمانية عشر الف ألف (31)»

(27) ابن واضح : تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 232
(28) الطبري : الامم والملوك ج 6 ص 133
(29) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 3 ص 491
(30) المبرد : اخبار الخوارج ص 58.
(31) انظر المبرد : اخبار الخوارج ص 68 ـ 69.

ويكفي زياد انْ الامن ساد في عهده، حتى كان الشيء يسقط عن الرجل أو المرأة فلا يعرض له احد حتى يأتيه صاحبه ،وتبيت المرأة فلا تغلق عليها بابها» (32).

ولم يكن زياد، بل ابنه عبيد الله، اشد من اشتد على الخوارج «وسبب ذلك انه كان اطلقهم من حبس زياد لما ولى بعده، فخرجوا عليه (33)».

ففي 58 هـ/678 م بدأ الخوارج في التآمر على بني امية بالبصرة، فاعتقلهم عبيد الله ثم عرض عليهم ان يقتل البريء ،المذنب منهم، فيخلي سبيله، فقاتلوا بعضهم. وندم الذين اطلق سراحهم من الخوارج فثاروا في سبعين من بني عبد القيس فقتلتهم شرطة عبيد الله (34). وتشدد في معاملتهم، و «كان لا يدع بالبصرة احدا ممن يتهم برأي الخوارج الا قتله، حتى قتل بالتهمة والظنة» (35).

وكان ابرز الخوارج في البصرة ابو بلال مرداس بن اديه التميمي، كان من مجتهدي الخوارج، له منزلة عظمية عندهم، انكر اشتراك النساء في الحروب كما انكر الاستعراض وهو قتل كل مسلم لا يرى رأي الخوارج بغير تمييز متى وجدوه في طريقهم.

أما عن أسباب ثورته، فيروي ان اخاه عروة بن أديه سابقت خيله في رهان مع عبيد الله، ففاز، ففاه عروة بكلمات استنتج منها عبيد الله، بدء فتنة، فتوارى عروة ولكن تمكن عبيد الله من القبض عليه وقتله وقتل ابنته معه. ولقي هذا المصير امرأة خارجية شديدة الحماس تدعى «البجاء» (36) كانت تخطب خطبا نارية مثيرة ضد عبيد الله وطغيانه. لم يستطع مرداس مجاورة مثل هذا الظلم فخرج في اربعين رجلا هاربا الى الاهواز،فأسرع عبيد الله بتجهيز جيش من الفي مقاتل ارسلهم الى مرداس فانهزم الجيش من غير قتال فلما ورد على ابن زياد غضب على قائده غضبا شديدا وقال. «ويلك ! أتمضي في ألفين فتنهزم لحملة اربعين ؟ » ثمارسل عبيد الله اليهم

(32) الطبري : الامم والملوك ج 6 ص 126.
(33) المبرد : اخبار الخوارج ص 68
(34) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 3 ص 516 ــ 517
(35) الدينوري : الاخبار الطوال ص 270
(36) وهي امرأة من بني حرام بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد بن مناة بن تميم من رهط سجاح، التي كانت تتنبأت. .

جيشا من اربعة آلاف ادركوهم بتوج مدينة صغيرة بفارس ورغم ذلك لم يتمكن ابن زياد من هزيمتهم الا بالخديعة، حينما شدت عليهم جنده وهم بين قائم وراكع وساجد، فلم يتغير منهم احد فقتلوهم عن آخرهم وذلك في 61 هـ/680م. (37)

ولم تتسع حركة الخوارج اتساعا خطيرا الا في ابان الاضطراب الشامل الذي نشأ من الحروب الأهلية التي اعقبت وفاة يزيد بن معاوية في 64 هـ/683 م.فقد قامت ولايات الخلافة باخراج عمال بني امية والمبايعة لعبد الله بن الزبير منافس الامويين بالحجاز ومنها العراق واليمن ومصر. وزاد من تعقيد الامور ان الشام نفسها اصبحت مضطربة بسبب الصراع بين عنصري سكانها من اليمنية والقيسية.

ولذلك قرر خوارج العراق برئاسة نافع بن الأزرق الانضمام الى ابن الزبير بالحجاز، فسر بمقدمهم ورحب بهم وأظهر لهم انه على رأيهم طمعا في الاستعانة بهم ضد الأمويين بدمشق. ولكن سرعان ما فشل هذا التحالف، لعدم اتفاق اهدافه فانسحب الخوارج من مكة، بعضهم اتجه الى اليمامة والبعض الآخر هو الاكثرية عاد الى البصرة برئاسة نافع بن الأزرق.ازاء تلك الحالة الخطرة، خاف اهل البصرة على مصيرهم فاختاروا جماعة منهم ووجهوهم لقتال الخوارج، مما جعل هؤلاء يرحلون من جديد الىالأهواز، وذلك في اواخر سنة 64 هـ/684 م. (38)

علىان رحيل الخوارج الى الأهواز من جديد كان ايضا بسبب انشقاقهم على انفسهم، فقد انكرت جماعة منهم على نافع احداث امور في مبدأ الخوارج لم يكن عليها السلف من اهل النهروان، وهو الانشقاق الذي عرف عندهم «بالمحنة» فكان من نتائجه ظهور فرق متعددة للخوارج، نسبت اغلبها الى اسماء المنشقين على نافع. وبعد ان كان الخوارج في مكان واحد، اصبحوا بعد المحنة في كل مكان . في أذربيجان وسجستان وخراسان ومكران وكرامان وفارس، بحيث بلغ عدد فرقهم العشرين، وثمة امرا اخر. فقد انتقلت فرق الخوارج ايضا الى بلاد المغرب، في اواخر حكم الدولة العربية، بعد ان كانت في المشرق وحده (39).

---

(37) انظر المبرد : اخبار الخوارج ... ص 59، 60 وما بعدها، ابن قتيبة : المعارف ص 209، فلهوزن : الخوارج والشيعة ص 63.

(38) الطبري : الامم والملوك ج 7 ص 55 ـ 56، المبرد : اخبار الخوارج ص 79، 80 ، 83.

(39) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 4 ص 194 ـ 195، المبرد : اخبار الخوارج ص 90 ، 91، الاصفهاني : الاغاني ج 6 ص 135 ـ 137.

ومن البديهي ان اهم فرق الخوارج هي التي بقيت مع نافع، ونسبت الى ابيه الأزرق، فعرفت «بالازارقة». فهؤلاء غلوا في مبادئ الخوارج الأولى اذ كان نافع نفسه من الفقهاء فبالغوا في الاستعراض بقتل النساء والاطفال واخذ المال، واستحلال «السباء» ـ كذلك تشددوا في تكفير المسلمين، وطلبوا النقاء في الايمان، واعتبروا المؤمن بقلبه ولسانه في النار، فكأنهم اقاموا المسلمين من غير الخوارج مع المشركين سواء بسواء، مع ان المحكمة الأولى يقولون انهم كفرة لا مشركون، وفوق ذلك كانوا يرون «البراء» من مخالفيهم في مذهبهم، وسموهم «بالقعدة» اي الذين لم يخرجوا للقتال معهم، فلا يحل مناكحهم، ولا اكل ذبائحهم، ولا قبول شهادتهم، ولا ميراثهم كذلك كان لهم رأي في الحدود، فأنكروا الرحم، وقطعوا ايد السارق. وقد كانوا يحلقون الرؤوس اقتداء بأهل النهروان (40).

وتمكن ازارقة الاهواز، بعد ان انضم اليهم خوارج كثيرون من عمان واليمامة، من سيطرتهم على ارض فارس وكرمان، التي بقيت قاعدة لهم زمنا طويلا وبايعوا نافعا وسموه «امير المؤمنين» فأخذ في جباية خراج املاكه الواسعة. وما ان فكر ابن الأزرق في الاستيلاء على البصرة حتى دار صراع رهيب بين الخوارج وبين اهل البصرة، ذهب ضحيته كبار زعماء الخوارج وعلى أرسهم ابن الأزرق نفسه وكذا ولاة البصرة لابن الزبير وخيرة جندها، واستمر تهديد الخوارج الازارقة للبصرة مستمرا حتى اصاب اهلها الفزع، وترحل اكثرهم عنها، بينما فزع آخرون للتداول فيمن يولون لحرب الأزارقة (41).

وانتهى الأمر باختيار المهلب بن أبي صفرة لما عرف من شجاعته في حرب الثغور، حتى أنه كان أصيب في عينه أيام معاوية بعد ان اشترط على زعماء البصرة شروطا اقروها له، خصوصا وهو ابن البصرة وبها قبيلته الأزد. فأعد المهلب جيشا، يذكر المبرد ان عدده اثنا عشر الفا، بينما يروي الدينوري انه عشرون الفا، فيهم من الأزد ثمانية آلاف رجل، وبقيتهم من سائر العرب وولى ابنه المغيرة مقدمته في ثلاثة آلاف

---

(40) المبرد : اخبار الخوارج ... ص 100 ، الدينوري : الأخبار الطوال ص 272

(41) المسعودي : مروج الذهب ج 3 ص 100 ـ 101، البغدادي : الفرق بين الفرق ص 54

فارس، وهزم الخوارج، وتتبع فلولهم حتى اضطرهم الى الانسحاب الى الأهواز وانزل العديد من الهزائم بهم حتى بداية 67 هـ / 686 م ولاية مصعب بن الزبير امر العراق (42).

أما الفرع الثاني من الخوارج النجدية، نسبة الى نجدة بن عامر الحنفي، وهم خوارج اليمامة من قبيلة بكر وخاصة من بني حنيفة، فقد اختاروا اولا ابن طالوت زعيمًا لهم في 65 هـ / 684 م واحتلوا حضر موت، الموطن الأصلي لبني حنيفة، ووزعوا العبيد المستقرين بها وكانوا اربعة آلاف فيما بينهم. ولكن تمكن نجدة من اثارة اعجابهم بعد اقتراحه عليهم ان يستخدموا العبيد في استغلال الأراضي كما كانوا في السابق ولكن لصالحهم، واعتراضه لقافلة من البصرة الى مكة فغنمها ووزعها عليهم فانتخبوه خليفة للخوارج بدلا من ابن طالوت في 66 هـ / 685 م وكان له ثلاثين سنة من العمر فقط (43).

ولم تحل سنة 68هـ / 687 هـ حتى كان نجدة قد اخضع الاجزاء الشمالية من البحرين وجمع الصدقة من بني تميم في «كاظمة» كما دخل صنعاء وبايعه اهلها وجمع الصدقة منهم. كما ارسل رسوله الى حضر موت لجمع الصدقة من اهلها، حتى اصبح نفوذه في الجزيرة العربية يفوق نفوذ عبد الله بن الزبير، ونراه يحج في نفس العام ومعه حوالي ستمائة وثمانين من اتباعه بمكة ولا يجرؤ ابن الزبير ان يمنعهم من ذلك (44).

ولكن سرعان ما انقلب الخوارج على رئيسهم الشاب لعدة امور اخذوها عليه منها : المراسلات بين عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي ونجده وتسليم الأخير لعبد الملك، حفيدة لعثمان بن عفان كانت قد اسرت في احدى الغارات. ورفض نجدة قتل اولئك الذين اتبعوه بسبب «التقية». وتقسيمه غير العادل للفيء بين جنده

---

(42) المبرد : اخبار الخوارج ص 84 ، 85 ، 89، البغدادي : الفرق بين الفرق ص 62 ـ 64 ، عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ص 140 ـ 142

(43) البلاذري : أنساب الأشراف جـ 11 ص 126 ـ 128، ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ 4 ص 165 ـ 166،

(44) تاريخ خليفة بن خياط جـ اص 318، 333، البلاذري : انساب الاشراف جـ 11 ص 136 ـ 137 ، الطبري : الامم والملوك جـ 7 ص ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ 4 ص 167 ـ 168 ، 244 ـ 245.

وعدم رغبته في معاقبة احد اتباعه البارزين بسبب شربه الخمر. وأخيرا دفعه لكل من مالك بن مسمع وعبيد الله بن زياد بن ظبيان، عشرة آلاف درهم لكل منهما عندما هربا من مصعب بن الزبير والتجآ اليه في اليمامة (45).

فاختاروا أحد الموالي المسمى ثابت التمار خليفة لهم ولكن سرعان ما استبدلوه بأبي فديك عبد الله بن ثور من عرب بني قيس بن ثعلبة. ولجأ نجدة بن عامر الحنفي الى اخواله بني تميم، ويبدو أنه حين حاول الانضمام الى عبد الملك ابن مروان بدمشق اغتاله انصاره السابقين في 72هـ / 691م. وانتهت بالفشل جميع محاولات الزبيريين لسحق خوارج اليمامة (46).

وعندما دخل العراق تحت سيادة عبد الملك بن مروان، بعد مقتل مصعب ابن الزبير في 72 هـ / 691 م، اصبح من الضروري اتخاذ اجراءات فعالة ومباشرة ضد الآزارقة، اذ كانوا يسيطرون على خوزستان وفارس وكرمان مهددين البصرة والمناطق المجاورة لها.

وما أن سمع المهلب ومن معه من جند البصرة – وكانوا يقاتلون الخوارج – بقتل مصعب، حتى بايعوا لعبد الملك اذ كان اغلبهم يمنية. وقبل أن يغادر عبد الملك العراق عين اخاه بشر بن مروان واليا عليه ومن خلال ولايته من 72 هـ حتى 74 هـ / 693 م تجمد نشاط المهلب ضد الخوارج، بسبب وجود قائد آخر استبد بالامر دونه وانسحاب جند المهلب الى البصرة، ليختفي بين أهلها وعائلاتها فكتب المهلب الى الخليفة «اني ليس عندي رجال اقاتل بهم، فإما بعثت الي بالرجال، وإما خليت بينهم وبين البصرة» (47).

---

(45) ابن حبيب : أسماء المغتالين من الاشراف ص 179، البلاذري : انساب الاشراف ج 11 ص 137 – 138، 143، ابن واضح : تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 325.

(46) اذ حاول مصعب بن الزبير والى البصرة الحد من نشاط خوارج اليمامة فارسل جيشا في 72 هـ/691 م ولكنه فشل في القضاء عليهم. ويذكر البلاذري ان جيشا آخر بقيادة زياد بن القرشي من مقاتلة البصرة والبحرين ارسل ضد ابي فديك ولكن زياد قتل مع عدد كبير من جنده وقتل مصعب في نفس العام على يد عبد الملك بن مروان. انظر البلاذري : مخطوط انساب الاشراف ورقة 140.

(47) الطبري : الامم والملوك ج 7 ص 191 – 193، 207، 208. المسعودي : مروج الذهب ج 3 ص 126.

فولى عبد الملك بن مروان علىالعراق قائده الحجاج بن يوسف الثقفي في 74 ه / 693 م وأمره ان يحشر الناس الى المهلب لحرب الخوارج، فأصدر الحجاج امره الى رئيس شرطته بضرب عنق من يبطئ في الخروج سواء كان من الشباب ام من الشيوخ، وأعطاهم مهلة ثلاثة أيام. فتدفق القوم نحو المهلب يعبرون الجسر حتى سقط بهم، فأقام الحجاج جسرين. وبفضل هذه الامدادات تمكن المهلب من حرب الازارقة كرا وفرا فيما بين فارس والاهواز؛ خصوصا وقد آلت زعامة الخوارج الى قطري ابن الفجاءة وهو لا يقل جرأة وعنادا عن نافع بن الأزرق ويعتبر بحق آخر رؤسائهم الاقوياء وهو من تميم أيضا، ومن الطريف ان قطريا والمهلب كانا معا ،في خدمة عامل معاوية على بلاد سجستان. وكان قطري خطيبا وفارسا (48).

وسرعان ما ظهرت الخلافات بين الأزارقة .وقد ساعد المهلب على تعميقها، الذي وجد فيها فرصة مؤاتية لاضعاف خصمه. وقد كانت خاتمة هذه الخلافات بينهم ان انفصل ثمانية آلاف من الموالي منهم بقيادة احدهم المسمى عبد ربه الصغير وانضم اليه عدد قليل من العرب بقيادة عمرو القنا، أما اغلبية العرب فقد انضمت الى قطري بن الفجاءة الذي انسحب بهم الى طبرستان (49).

بعد ذلك تمكن المهلب من محاصرة اتباع عبد ربه الصغير بوادي جيرفت بأرض كرمان وهزمهم وقتل زعيمهم عبد ربه الصغير، وفي نفس الوقت ارسل الحجاج جيشا الى قطري واتباعه، قضى عليهم. وهكذا انتهت الحرب بين المهلب والأزارقة التي دامت ثلاث سنوات من ولاية الحجاج على العراق بنجاح تام، كما تم على يد الحجاج بمهارة قائده المهلب اخماد فتنة قطري اكبر زعماء الخوارج، الذي استمر يقاتل عشرين سنة، ويسلم عليه بالخلافة، ويقول البغدادي عن هزيمتهم «طهرت

---

(48) تاريخ خليفة بن خياط ج 1 ص 347، المبرد : اخبار الخوارج ص 136، ابن قتيبة : المعارف ص 210، الجاحظ: البيان ج 1 ص 196 ـ 197، المسعودي : مروج الذهب ج 3 ص 129 ـ 131.

(49) البلاذري : أنساب الاشراف (مخطوط) ورقة 936. ب، المبرد : اخبار الخوارج ص 147، 148 ، ابن واضح : تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 329، ويلاحظ ازدياد عدد الموالي بين الازارقة وذلك لاستمرار حركتهم مدة طويلة في الاقاليم الفارسية مثل الاهواز وفارس واصبهان وكرمان، وتبنى الخوارج لمبدأ المساواة ومن هنا كانت الحركة اكثر جذبا لهم من اية حركة اخرى . انظر فلهوزن : الخوارج والشيعة ص 86 ـ 87.

الأرض من الأزارقة، والحمد لله» وعاد المهلب الى البصرة حيث استقبله هو وأبناؤه وجنوده البارزين بحرارة بالغة من قبل الحجاج واهل البصرة سنة 78 هـ/692 م. ويوليه الحجاج على خراسان نيابه عنه، وهي البلاد التي كان وليها من قبل ابن الزبير ايضا، حيث بقي المهلب فيها الى وقت وفاته في سنة 83هـ/702 م فيأواخر فترة حكم عبد الملك (50).

وفي اثناء حرب الأزارقة حدثت ثورة خارجية اخرى خطرة في منطقة الجزيرة، مشكلة خطرا كبيرا على الكوفة وما يجاورها وبخاصة حينما تزعمهم شبيب بن يزيد الخارجي الذي يكنى بأبي الصحاري، وزوجته غزالة في سنة 76هـ/695م ولا يعرف لهؤلاء الخوارج فرقة معينة ،فهم صفرية في الأصل، مع ان شبيبا نفسه يبدو ازرقيا وان كان اغلبية انصارها من قبيلة ربيعة الساكنة في نواحي الموصل وفي كل مرة كان يهزم شبيب جيوش الحجاج مع قلة عدد انصاره الذي لم يزد في اوج قوته عن ألف رجل وان كانوا اقل من هذا عادة، حتى بلغ عدد من قتلهم خمسة قواد.

وقد ظهر شبيب في العراق فجأة، وكان دخوله وقت خروج الحجاج من البصرة يريد الكوفة، واستفحل امرهحتى جبى خراج العراق ، وازاء هذا الخطر الداهم اضطر الحجاج الى طلب المدد من الجند الشامي وحارب به الخوارج فردهم الى الأهواز، ولم ينقذه من عودتهم الا غرق شبيب في نهر دُجَيل في سنة 77هـ/ 697م، وهروب أتباعه الى كرمان واختاروا البطين قائدا لهم واستمروا في تحديهم للدولة باحتلالهم لسوق الأهواز، ولكن دون ان يكون لهم نفس ذلك الحماس السابق، وانتهى امرهم

---

(50) تاريخ خليفة بنخياط جـ 1 ص 356، الدينوري : الاخبار الطوال ص 286 ـ 289 ، ابن واضح : تاريخ اليعقوبي جـ 2 ص 329 ، المبرد : اخبار الخوارج ص 164 ، 166.

بطلب الامان فمنحوا اياه وهرب قائدهم البطين فقبض عليه وقتل بأمر من الحجاج. (51).

وهكذا استطاع الحجاج بقدرته ان يكسر شوكة الخوارج، فبدأ ان مذهبهم قد قضى عليه القضاء المبرم. وثمة عامل آخر شارك كثيرا في القضاء على هذا المذهب الا وهو تعصب الثوار وعدم تسامحهم،فقد انتهت خلافاتهم الدينية بتصدع كيانهم، وكانت هذه الخلافات تفضي في بعض الاحيان الىاقصاء اقدر قوادهم، بحجة انه عجز في مناسبة من المناسبات عن اتباع مبادئهم الصارمة التي كانوا لا يحيدون عنها قيد انملة.

وهناك سبب ثالث من أسباب ضعفهم يمكن أن نلاحظه في المنازعات الدائمة التى اشتجرت بين العرب والموالي، فكانت لها نتائج وخيمة وخاصة على فلول الأزارقة بعد موت قطري بن الفجاءة (52).

ونتيجة لهذه الاسباب ، ركن الخوارج الى الهدوء ولم يرفعوا رؤوسهم لسنوات طويلة، مما مهد للوليد بن عبد الملك (86 ـ 96هـ / 705 ـ 714م) مجال الاستقرار، وأتاح له الجو الملائم لاستئناف حركة الفتوحات الاسلامية، حتى بلغت رقعة الدولة الاسلامية في عهده أطراف أوربا والهند.

---

(51) ابن قتيبة : المعارف ص 209 ، تاريخ خليفة بن خياط ج 1 ص 351 ، 354، 355، 387 ، المسعودي : مروج الذهب ج 3 ص 139 ـ 140. فلهوزن : الخوارج والشيعة ص 91 ـ 97، عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ج 2 ص 152.

ومن الغريب ان تستطيع هذه الحركة ان تضمن نجاحا لفترة طويلة.ففي اوج قوتها لم يزد عدد اتباعها عن الف رجل وان كانوا اقل من هذا عادة. كيف كان لمثل هذا الجيش الصغير ان يتحدى قوات حكومية تفوقه عددا وعدة ؟ يبدو ان ذلك كان يرجع الى أن شبيب كان خبيرا بحرب العصابات وكذلك بسبب المساعدات التي كان يتلقاها من المسيحيين في تلك المناطق . ولكن اللوم يجب ان يوجه الى الحجاج لتسرعه وتفكيره في ارسال الجيوش الكبيرة ضد شبيب واتباعه،فهو لم يدرك حقيقة حاجته الى تبني استراتيجية جديدة كي تقابل تكتيك حرب العصابات مثل المهلب بن ابي صفرة. انظر بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص 144.

(52) انظر دائرة المعارف الاسلامية مادة الخوارج.

2 ـ الشيعة

بمقتل عثمان انقسم المسلمون الى حزبين : حزب علي ، وحزب معاوية، والحزب يطلق عليه في العربية أيضا اسم «الشيعة». لكن لما تولي معاوية الخلافة، لم يعد مجرد رئيس حزب، اصبح استعمال اللفظ «شيعة» مقصورا على اتباع علي.

ولم يتخذ «الشيعة» عليا زعيما بسبب انه ابن عم الرسول وصهره وابو احفاده فقط، بل اختاروه لأنه بدا لهم انه أفضل صحابة الرسول (ص) الأقدمين. ومن هؤلاء كان الخليفة يختار حتى ذلك الحين (53).

وان الانشقاق الديني الذي نجم عن معارضه الشيعة ومقاومتهم لهو أعظم خطرا في تاريخ الاسلام من حركة الخوارج. ان جميع المصادر الاسلامية تبين على وجه التحديد ان الاسلام ينقسم الى قسمين: السني والشيعي. ويرتبط هذا الانشقاق الديني بمسألة ولايه الحكم، فان الحزب المناصر لآل البيت قد شايع في عهد الخلفاء الثلاثة الاول، حقوق البيت النبوي في الخلافة، ملتزما الهدوء والسكينة، ودون أن يدخل مع ذلك في نزاع مكشوف للدفاع عنها. (54)

واستطاع على أن يضم أهل العراق الى صفه، وقد كانوا أشد سند للذين ثاروا على عثمان. فانتقل الى الكوفة ثم كسب البصرة لجانبه بعد ذلك. اما معاوية فكان معه أهل الشام وكان يحكم الشام منذ عهد طويل، وتطور الصراع بينه وبين علي الى كفاح بين اهل الشام وأهل العراق وانتهى هذا الصراع بمقتل علي الى غير صالح أهل العراق، وكانوا ينظرون الى الفترة القصيرة التي كانت فيها الكوفة، لا دمشق، حاضرة الاسلام وفيها بيت المال، على انها المثل الاعلى.

فكان أهل الكوفة سواء كأفراد أو قبائل ورؤساء قبائل، شيعة علي ولم يكونوا في الاصل فرقة دينية، بل تعبيرا عن الرأي السياسي في اقليم العراق بصفة عامة وفي الكوفة بصفة خاصة. (55)

---

(53) فلهوزن : الخوارج والشيعة ص 112

(54) جولد تسيهر : العقيدة والشريعة في الاسلام ص 195

(55) تاريخ خليفة بن خياط ج 1 ص 199، 218، 219 227، فلهوزن : الخوارج والشيعة ص 113.

وتصور ابيات الشاعر كعب بن جُعَيل موقف كل من اهل العراق وأهل الشام اصدق تصوير:

ارى الشام تكره مُلك العراق	وأهل العراق لهم كارهونا
وكل لصاحبه مبغض	يرى كل ماكان من ذاك دينا
وقالو علي امام لنا	فقلنا رضينا ابن هند رضينا (56)

ولذلك قام معاوية، بتعيين المغيرة بن شعبة الثقفي واليا على الكوفة وأوصاه بشتم علي وذمه والترحم على عثمان، واضطهاد انصار علي واللعن لقتله عثمان من فوق المنبر في صلاة الجمعة.اذ يذكر الطبري وصية معاوية للمغيرة ومنها «ولست تاركا ايصاءك بخصلة لاتتَحمّ عن شتم علي وذمه والترحم على عثمان والاستغفار له والعيب على أصحاب علي والاقصاء لهم وترك الاستماع منهم وباطراء شيعة عثمان.. والادناء لهم والاستماع منهم» (57)

وكان حُجْر بن عدى، من بين أنصار عليٍّ، وهو من أبرز رجال كنده، شهد المواقع مع علي في صفين وغيرها. فكان حجر اذا سمع ذم علي قال : بل اياكم فذمم الله ولعن. فكان المغيرة يحذره، ولكن لايؤذيه.

وفي أواخر فترة ولاية المغيرة للكوفة، حدث ذات يوم ان قام المغيرة على عادته يذم عليا، فنهض حجر بن عدى «فنعر نعره بالمغيرة سمعها كل من كان في المسجد وخارجا منه، وقال : انك لاتدري بمن تولع في هرمك ايها الانسان! مر لنا بأرزاقنا واعطياتنا فانك قد حبستها عنا، وليس ذلك لك، ولم يكن يطمع من ذلك من كان قبلك. وقد أصبحت مولعا بذم أمير المؤمنين وتقريظ المجرمين.. فقام معه اكثر من ثلثى الناس يقولون : صدق والله حجر وبر. مر لنا بأرزاقنا وأعطياتنا. فانا لاننتفع بقولك هذا ولايجدى علينا شيئا».

فنزل المغيرة من المنبر وذهب الى بيته، فدخل عليه قومه من بني ثقيف وحدثوه في الامر، فقال لهم المغيرة: «إني قد قتلته! انه سيأتي أمير بعدى فليحسبه مثلى، فيصنع به شبيها بما ترونه يصنع بي، فيأخذه عند أول وهلة

---

(56) الدينوري : الإخبار الطوال ص 160

(57) الطبري : الامم والملوك ج 6 ص 95، 141

فيقتله شر قتلة. انه قد اقترب أجلي وضعف عملي ولاأحب أن أبتديء أهل هذا المصر بقتل خيارهم وسفك دمائهم فيسعدوا بذلك وأشقى. ويعز في الدنيا معاوية ويذل يوم القيامة المغيرة ولكني قابل من محسنهم وعاف عن مسيئهم وحامد حليمهم وواعظ سفيههم» (58).

وبعد وفاة المغيرة، ضم معاوية لواليه زياد بن أبيه على البصرة، الكوفة في 50 هـ/670 م (59). ووفد زياد بن ابيه الى الكوفة، وقام بتولية عمرو بن الحريث نائبا عنه، وعاد الى البصرة مرة ثانية، ونتيجة لرفق المغيرة بأهل الكوفة وتجاوزه عن اخطائهم، تجاسروا على عمرو بن الحريث وحصبوه بالحجارة أثناء الصلاة، فأسرع زياد قادما من البصرة الى الكوفة وصعد المنبر وابرز للحاضرين خطورة الموقف وهدد حجرا وكان جالسا في المسجد حوله أصحابه، فانسحب من المسجد مع أصحابه.

ثم التفت الى أشراف اهل الكوفة وصاح فيهم «ياأهل الكوفة أتشجون بيد وتأسون بأخرى أبدانكم معي وأهوائكم مع حجر هذا الهجهاجة الأحمق المذبوب، أنتم معي واخوانكم وأبناؤكم وعشائركم مع حجر... والله لتظهرن لي براءتكم أو لآتينكم بقوم أقيم بهم أودكم وصعركم» وأثر كلامه هذا فيهم، فأسرع كل منهم يبحث عن قريبه، حتى اقاموا جل من كان مع حجر بن عدى في السوق المجاور للمسجد، واقبل الشرطة بالعمد فاشتدوا على أصحاب حجر، وزياد يشهد هذا وينظر اليهم وهو على المنبر (60).

اما حجر نفسه فقد خلصه أبو العمرطه الكندي (61) وكان وحده الذي معه سيف، ضرب به احد الذين طاردوا حجرا، ولكن لم يقتله. فاستطاع حجر أن يبلغ قومه فاجتمع حوله منهم عدد غير قليل. فلما رأى زياد أن الشرطة غير كافية، استدعى كل

---

(58) الدينوري : الأخبار الطوال ص 223، الطبري : الامم والملوك جـ 6 ص 142، فلهوزن : الخوارج والشيعة ص 114.

(59) تاريخ خليفة بن خياط جـ 1 ص 247.
الدينوري : الأخبار الطوال ص 223، اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي جـ 2 ص 229.

(60) الطبري : الامم والملوك جـ 6 ص 144

(61) فابو عمر طه الشيعي هو أول من استل سيفه وأسال أول دم، بينما كانت الشرطة لا يستخدمون غير العصي.

المحاربين في الكوفة، ولكنه احتفظ بالقبائل المضرية مثل : تميم، وهوازن، وباهلة (اعصر)، وأسد، وغطفان معه في الميدان المواجه للمسجد وارسل قبائل اليمن - وكان حجر منهم - مثل مذحج وهمدان، والازد، وبجيلة، وخثعم والانصار، وخزاعة وقضاعة، بالاضافة الى كندة وحضرموت، ضد حجر حتى لا تختلف مضر واليمن في هذه المهمة الحرجة وتكون القبائل اليمنية مسؤولة عن ابن قبيلتهم وصاحبهم في الرأي لانهم كانوا بقلوبهم شيعة.

ولذلك نجد كنده وحضرموت، لم يذعنوا لأمر زياد لانه كان موجها ضدهم أو على الاقل ضد واحد من بني قومهم. كذلك فعل الازد في الظاهر، وتركوا لمذحج وهمدان ان يتقدموا للقبض على حجر، ولكنهم قوبلوا بمقاومة من بني جبلة، وهم بنو قرابة، ودافعوا عنه، ولكنه رجاهم أن يغمدوا سلاحهم وان يتفرقوا واستطاع حجر الفرار .(62)

والقى زياد مسؤولية فراره على عاتق قبيلة كنده وهدد رئيسها محمد ابن الاشعث بالعقاب الشديد ان لم يسلم حجر في ظرف ثلاثة أيام، ولم يشا حجر ان يجلب الضرر لقبيلته كنده، فنهض بنفسه وتقدم الى زياد بعد ان اخذ منه وعدا بأنه لن يحكم في أمره، بل سير سله الى الخليفة معاوية ليتصرف في شأنه، فحبسه زياد واخذ في البحث عن رؤساء اصحاب حجر فأتى منهم باثنى عشر رجلا تقريبا، وكانوا من قبائل مختلفة، وقد اخبر عنهم أهلهم أو كشفوا بأنفسهم عن انفسهم، ولكن احدا منهم لم ينكر تشيعه لعلي ليخلص من عقاب زياد .(63)

أرسل زياد بالشيعة الى معاوية رفقة شرطيين (64) وتوقف الجميع في مرج

---

(62) الطبري : الأمم والملوك ج 6 ص 145 - 147. فلهوزن : الخوارج والشيعة ص 116 - 117.

(63) الدينوري : الأخبار الطوال ص 223 - 224، الطبري : الامم والملوك ج 6 ص 146 - 149، فلهوزن : الخوارج والشيعة ص 117 - 118

(64) بعد أن حصل على الشهادة اللازمة بثورتهم،اذ يروي الطبري ان زياد « دعا رؤوس الارباع (اقسام الكوفة) فقال اشهدوا على حجر بما رأيتهم منه وكان رؤس الارباع يومئذ عمرو بن حريث على ربع أهل المدينة وخالد بن عرفطة على ربع تميم وهمدان وقيس بن الوليد بن عبد شمس ابن المغيرة على ربع ربيعة وكنده وابو بردة بن ابي موسى على مذحج وأسد فشهد هؤلاء الاربعة ان حجرا جمع اليه الجموع وأظهر شتم الخليفة ودعا الى حرب امير المؤمنين، وزعم ان هذا الأمر لا يصلح الا في آل ابي طالب... ثم ان زيادا دعا الناس فقال اشهدوا على مثل شهادة رؤوس الارباع.. فاسرع الناس لاثبات شهادتهم ضد حجر . » انظر الامم والملوك ج 6 ص 150 - 151.

عذراء وهو يقع على بعد اثنا عشر ميلا من دمشق. وأمر معاوية باخلاء سبيل ستة منهم، وبالرغم من عدم قبوله لشفاعه مالك بن هبيرة السكوني في حجر بن عدى، الا انه وعد باطلاق سراح الباقين. بشرط ان يبرأوا من علي. فقبل أن يفعل ذلك منهم اثنان، فنجوا بحياتهما، اما الستة الباقون فقتلوا. وقد انزعج حجر حينما ابصر الكفن معدا والقبر قد حفر والسيف قد اشهر، ولكنه ثبت مع ذلك على موقفه.

اما مالك بن هبيرة السكوني الذي رد معاوية شفاعته. فقد جاء مع جماعة من كنده وسكون الى مرج عذراء لاطلاق سراح المسجونين بالقوة. ولكنهم كانوا قد قتلوا. وتمكن معاوية من امتصاص غضبه بما ارسله اليه من مائة الف درهم، موضحا له ان قتل حجر وفر على معاوية القيام بحمله ثانية ضد العراق.

وقد اثار هذا العمل ثائره الناس. حتى ان أهل الكوفة عامة قد شعروا بالخزى. وان والى خراسان، ربيع بن زياد، قد مزق قلبه الاسى وان كان غير رقيق القلب. واظهرت عائشة - ام المؤمنين - غضبها الشديد، وكذلك فعل الحسن البصري بعد ذلك بزمان. ويقال ان معاوية لما حضرته الوفاة شعر بتانيب الضمير لقتله حجرابن عدي. وطبعا كان غضب القبائل العربية، خصوصا اليمانيه القوية. على السلطة بالغا. اذ شعرت بأنه من العار ألا تخلص أبناءها من بطش السلطان. واتحدت معارضة القبائل السياسية مع المعارضة الدينية، واشتد غضب الشيعة (65). وكان استشهاده مقدمة لاستشهاد سيد شهداء الشيعة وهو الحسين بن علي (66).

ففي سنة 49 هـ توفي الحسن بن علي بن أبي طالب أكبر ابناء على من فاطمة بعد أن تنازل عن الخلافة لمعاوية، ولما توفي معاوية وانتهت خلافته في

---

(65) انظر تاريخ خليفة بن خياط ج 1 ص 251، الدينوري : الاخبار الطوال ص 223 - 224، تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 230 - 231، الطبري : الامم والملوك ج 6 ص 152 - 156 . المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ج 3 ص 3 - 4 . فلهوزن : الخوارج والشيعة ص 118 - 120.

(66) وهو الابن الثاني لعلي بن ابي طالب وفاطمة، ولد سنة ثلاث أو اربع للهجرة وكان اشبه الناس بالنبي، حتى عرف هو وأخوه الحسن «بسبطي رسول الله»، أي حفيديه، ابني بنته وقد شهد الحسين احداث الفتنة الاولى مع ابيه، وخلع اخيه من الخلافة، ثم رحيلهما الى الحجاز، حيث خصص معاوية لهما بعض المال ولكن الحسين اختلف في سيرته عن اخيه، فعرف لاهل الحجاز بتدينه وصرامته ووصف بانه شديد العزة. انظر البلاذري : انساب الاشراف ج 3 ص 142 ، 148، 150، 155، ابن الاثير : أسد الغابة ج 2 ص 18 وما بعدها . الذهبي : سير أعلام النبلاء ج 3 ص 188، عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ج 2 ص 67.

سنة 60 هـ/680 م اتجهت أنظار الشيعة الى الحسين الذي رفض أن يبايع يزيد ابن معاوية.وحتى يخلص من سلطان يزيد فر من المدينة وهي المركز الدائم لانصار علي، والتجأ الى مكة (68) فدعاه أهل الكوفة اليهم للخروج تحت قيادته على سلطان بني امية مماجر الى وقوع الفتنة من جديد بين المسلمين وهذه الفتنة عرفت عند المؤرخين الحديثين بالفتنة الثانية، ويقصد بها كالأولى ـ التي وقعت بعد مقتل عثمان وأدت الى انفصام وحدة المسلمين السياسية واختلاف آرائهم .وكانت هذه الوحدة قد تمت على يد معاوية منذ بايعه الحسن بن علي، واستمرت أكثر من تسعة عشر عاما ولكن مراجلها كانت أشد غليانا من الاولى، ودامت فترة أطول، اذ استمرت طوال حكم ثلاثة خلفاء بعد معاوية واستطاع الرابع اخمادها والاحتفاظ بالخلافة في اسرته، لتبقى حتى سقوط الدولة العربية (69).

مالت نفس الحسين الى تلبية هذه الدعوة التي وجهها الكثيرون من زعماء قبائل الكوفة، ومن اليمانية على وجه الخصوص. وقد كانت اكبر القبائل عددا وأهمية، ولكنه آثر أن يبعث أولا بابن عمه مسلم بن عقيل ليتحسس الارض ويهيء السبيل أمامه (70).

نزل مسلم في الكوفة أولا عند المختار بن أبي عبيد الثقفي، ثم انتقل بعد ذلك الى رجل بارز من بنى مراد هو هانيء بن عروة بن مذحج. وكان مقامه سرا، مع

---

(67) وقد اختلف المؤرخون حول سنة وفاة الحسن بن ابي طالب فلدينا.تواريخ مختلفة في 47، 49، 50، 51 هـ ولعل ارجحها سنة 49 هـ. انظر تاريخ خليفة بن خياط ج 1 ص 246 ، البلاذري : انساب الاشراف ج 3 ص 64، تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 225، ابن الأثير : اسد الغابة ج 2 ص 10، 14، 15، النوبختي : كتاب فرق الشيعة ص 24.

(68) وهي البلد الحرام التي لا يقاتل فيها.

(69) الطبري : الامم والملوك ج 6 ص 190 ـ 191، ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 16 ـ 17، عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ج 2 ص 66.

(70) بالرغم من معارضة بعض انصاره مثل عبد الله بن مطيع العدوى الذي حذره من أهل الكوفة قائلا : «فإنها بلدة مشؤومة بها قتل ابوك، وطعن اخوك»، انظر البلاذري : أنساب الاشراف ج 3 ص 155، 156، 159، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 4 ص 19، 21، والبعض الآخر الذي نصحه بالاقامة في الحرم وبث رسله في البلدان حتي يقوى امره او أن يسير الى اليمن وبها الحصون والشعاب وشيعة على،فيكون عن الناس في عزلة ويبث دعاته في الآفاق. أنظر الدينوري: الأخبار الطوال ص 244.

انه عقدت حوله اجتماعات وألقيت خطب نارية. وكان كسب الانصار للحسين يتم بسرعة ولكن مع احتياط شديد، وفي مدة قليلة تقدم الالاف بالبيعة للحسين على يد مسلم بن عقيل أو من ينيبهم عنه، وتولى أبو ثمامه الصائدي جمع الاموال والسلاح وجرى كل شيء على مايرام حتى ان مسلما بن عقيل كتب الى الحسين يخبره بالقدوم.

وكان والي الكوفة النعمان بن بشير الانصاري، فاشتبه في وجود شيء، لكنه لم يشأ أن يتخذ اجرا آت شديدة لمجرد الشبهة، فاستبدله يزيد بن معاوية بعبيد الله ابن زياد والى البصرة، فاسرع عبيد الله من أقصر طريق خلال الصحاري متوجها الى الكوفة في نفر قليل من الرجال ودخل الكوفة وهو يلبس عمامة سوداء وعلى فمه لثام، فحسب الناس أولا أنه الحسين، الذي ينتظرونه، فلما عرفهم بنفسه أخليت له المدينة، فانتقل الى المسجد مباشرة وخطب خطبة قصيرة وأمر كل عريف أن يدل على الغرباء القاطنين في عرافته أو أن يضمن أنه لايوجد فيها أحد مشتبه فيه، وإلاصُلب على باب داره ورفُع المال عن عرافته ونفى خارج الكوفة. (71).

ولم يأت العرفاء بخبر أحد، وانما أتاه بالاخبار جاسوس له من الموالى اسمه معقل، استطاع ان يتصل بابن عوسجه الشيعي، وعرض عليه ثلاثة آلاف درهم قال انه جمعها للشيعة ويريد ان يقدمها للشخص المتولى لامر الشيعة، فاقتاده ابن عوسجة الى مسلم بن عقيل واقسم يمين الاخلاص. ومن ذلك الوقت كان في صحبة مسلم وكان يسمع ويرى كل شيء يجري في دار هانيء بن عروة، وينقل ذلك كله الى عبيد الله.

استقدم عبيد الله، هانيء بن عروة وواجهه بما يحدث واهانه وقبض عليه وسجن، وحينما ثار بنو مذحج وأحاطوا بقصر الوالى معلنين انهم «لم نخلع طاعه ولم نفارق جماعة» ولكننا سمعنا ان اخانا يقتل. فهدأ القاضي ثائريهم بأن أكد لهم ان هانئا حى فانسحبوا. (72).

(71) تاريخ خليفة بن خياط ج 1 ص 280، 281، الطبري : الأمم والملوك ج 6 ص 194، فلهوزن : الخوارج والشيعة ص 121، 122.

(72) الطبري : الأمم والملوك ج 6 ص 194، 195، ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 4 ص 23 ـ 28.

اما مسلم بن عقيل، فلم يكد يعلم بحبس هانيء حتى جمع اصحابه بسرعة وسار بهم في اليوم نفسه الى السوق. وتحصن عبيد الله في القصر وغلق الابواب ولم يكن معه الا بعض الموالى وثلاثون رجلا من الشرطة وعشرون رجلا من أشراف الناس واهل بيته. وقام اشراف الناس برغم ان بعضهم كان شيعيا متحمسا وقد سبق وساهم في استقدام الحسين بنصيحة الثائرين على الهدوء وشاركتهم النسوة في ذلك فقد اخذن يحثثن رجالهن وأهلهن على العودة قائلات «ليس لك في هذا الامر شيء».

وسرعان ماانفض الناس من حول مسلم بن عقيل ولم يكن يعرف طرقات الكوفة الضيقة المعقدة، فساقته قدماه الى دور بني جبله من كنده والتجأ الى امرأة أرملة كانت تنتظر بالباب ابنها. وفي الصباح ابلغ هذا الابن محمد بن الاشعث رئيس كنده على موضع مسلم وأخبر ابن الاشعث عبيد الله بالخبر. فأوفد معه بعض الشرطة وحوالي 60 الى 70 قيسيا للقبض على مسلم وبعد دفاع عنيف سلم مسلم نفسه فضربت عنقه. ثم امر عبيد الله بقتل هانيء بن عروة كذلك.

وكان مسلم بن عقيل قد كتب الى الحسين قبل مقتله بشهر تقريبا يطلب اليه القدوم. ففي اليوم الذي ثار مسلم بالكوفة، كان على الحسين الانتقال من مكة في الثامن من ذي الحجة سنة 60 هـ وبينما اغتبط ابن الزبير برحيل ابن بنت رسول الله من مكة، كان المخلصون ينصحونه بالعدول، ولكنه لم يستمع لنصحهم. وخرج ومعه الاهل والابناء وكذلك ابناء عبد الله بن جعفر. (73)

ويبدو ان عامل يزيد على الحجاز، لم يبذل محاولة جدية لمنع الحسين من الخروج الى الكوفة. بسبب وجود كثير من شيعته في عمله، بل لعله قدر سهولة القضاء عليه في الصحراء بعيدا عن انصاره، بحيث ان بنى هاشم فيما بعد اتهموا يزيد بانه هو الذي دس اليه الرجال، حتى يخرج.

على كل حال أفلت الحسين من مكة في الصحراء، ميمما شطر الكوفة وانضم اليه نفر قليل من أهل الكوفة العائدين من الحج وعدد كبير من البدو من الواحات التي

---

(73) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 4 ص 30 ــ 36 ، فلهوزن : الخوارج والشيعة ص 123 ــ 125.

مر بها. وفي الطريق لقي الفرزدق الشاعر، الذي كان أول امره يكره الامويين، وحينما قال له الحسين كيف خلفت الناس بالعراق، قال «الخبير سالت، ان قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني امية! والقضاء من السماء» (74)

وحينما وصلته الانباء الاولى الاليمة كان يود أن يعود أدراجه لولا ان أخوة القتيل مسلم بن عقيل طالبوا بالمضى في الامر لينتقموا لمقتل أخيهم. وكذا وقوع رسوله الى اهل الكوفة بين يدي عبيد لله بن زياد وقتله. فلما علم الحسين بهذا الخبر قال لمن معه: «من احب منكم الانصراف فلينصرف، ليس عليه منا ذمام. فتفرق الناس عنه تفرقا فاخذوا يمينا وشمالا، حتى بقي في اصحابه الذين جاءوا معه من المدينة».

وسار الحسين حتى بلغ ماء ذي خُشم فعسكر هناك وتحصن من الخلف بأرض مرتفعة. وهناك اعترض طريقه فرسان من الكوفة أرسلت من القادسية بقيادة الحر ابن يزيد التميمي. وتلقوا الحسين باحترام وقاموا بالصلاة وهو يؤمهم وحينما اراد الحسين الرجوع الى المدينة. حال الحر بينهم وبين الانصراف وقال: للحسين: اني لم أؤمر بقتالك، وانما أمرت ان لاافارقك حتى اقدمك الكوفة» وسار الفريقان معا وكتب الحر الى عبيد الله بامر الحسين. وفي نفس الوقت لم يمنع الشيعة المخلصين القادمين من الكوفة من الانضمام اليه. وهؤلاء اخبروا الحسين بحقيقة الموقف في الكوفة فقالوا: «اما اشراف الناس فقد اعظمت رشوتهم وملئت غرائرهم. يستمال ودهم ويستخلص به نصيحتهم. فهم الب واحد عليك. وأما سائر الناس بعد فان أفئدتهم تهوى اليك، وسيوفهم غدا مشهورة عليك». (75)

جاء رسول عبيد الله بن زياد الى الحر بن يزيد، يأمره ان يدفع بالحسين واصحابه «بالعراء في غير حصن وعلى غير ماء» بالقرب من نينوى على نهر الفرات في سهل يسمى كربلاء في 2 محرم 61 هـ/2 أكتوبر 680م ورفض الحسين أن يبدأ الحر بالقتال بناء على نصيحة أصحابه «ان قتال هؤلاء أهون من قتال من ياتينا

---

(74) الدينوري : الاخبار الطوال ص 245، البلاذري : انساب الاشراف ج 3 ص 165 ولقب الفرزدق يعني الرغيف الضخم، الذي تحففه النساء للفتوت وقد غلب على الشاعر همام بن غالب بن صعصعه. انظر عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ج 2 ص 73.

(75) الطبري : الأمم والملوك ج 6 ص 223 ـ 226، فلهوزن : الخوارج والشيعة ص 126 ـ 127.

بعدهم. فلعمري لياتينا من بعد من ترى مالا قبل لنابه»، وبالفعل قدم في الغد عمر بن سعد بن ابى وقاص من الكوفة على رأس أربعة آلاف رجل، كارها لقتال الحسين وبعد المفاوضات طلب عبيد الله من قائده «على الحسين أن يبايع يزيد ابن معاوية وأن يسلم نفسه، وألا استعملت القوة ضده» وكان مع الحسين اثنان وثلاثون فارسا وأربعون رجلا، بما فيهم ثمانية عشر من أبناء عمومته. (76)

استعد الفريقان للقتال وفي اللحظة الاخيرة تحول الحر بن يزيد من معسكر بنى امية الى معسكر الحسين، كفارة عن مسلكه السابق، وودع أصحاب الحسين صاحبهم، قبل ان يدخل كل منهم المعركة الواحد بعد الاخر، فقتلوا جميعا، أما الحسين (حفيد النبي) فلم يجسر احد على قتله، الى أن قضى شمر بن ذي الجوشن القيسي على هذا التردد، وعمل على ابعاد الحسين من معسكر النسوة والاطفال وهنالك انقض عليه الكثيرون طعنا وضربا حتى أصابوه بثلاث وثلاثين طعنة واربع وثلاثين ضربة «ومال الناس على الورس والحلل والابل وانتهبوها.. ومال الناس على نساء الحسين وبقله ومتاعه حتى كانت المرأة لتنازع ثوبها عن ظهرها حتى تغلب عليه فيذهب به منها»، ولم يتوقف النهب الا لما جاء عمر بن سعد بن ابي وقاص، فكان قتله في يوم الاثنين 10 محرم 61هـ/ 10 أكتوبر 680 م.

دفن الحسين وأنصاره في الغاضرية، أما رؤوسهم فقد احتزت وارسلت الى عبيد الله بن زياد والى الكوفة الذي ارسلها بدوره الى الخليفة يزيد، اما السبايا والاطفال فقد امر يزيد بعودتهم الى المدينة. ولما وصل ركبهن اليها ارتفع العويل والصراخ والبكاء. (77).

---

(76) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ 4 ص 46 ـ 53.

(77) ويروي ابو مخنف، لما قتل الحسين جيء برؤوس من قتل معه من اهل بيته وأصحابه الى ابن زياد، فجاءت كنده بثلاثة عشر رأسا وصاحبهم قيس بن الاشعث. وجاءت هوزان بعشرين رأسا وصاحبهم شمر بن ذي جوشن.

وجاءت بنو تميم بسبعة عشر رأسا . وجاءت بنو اسد بستة عشر رأسا. وجاءت مذحج بسبعة رؤوس. وجاء سائر قيس بتسعة رؤوس. انظر البلاذري : انساب الأشراف ج 3 ص 189، 194، 202 ـ 205، 207، 217، تاريخ خليفة بن خياط جـ 1 ص 284، الدينوري : الأخبار الطوال ص 251 ـ 261، تاريخ اليعقوبي جـ 2 ص 244 ـ 246.

ومن الاحداث السابقة يتضح لنا ان زعماء القبائل العربية بالكوفة انصرف همهم الى الاحتفاظ بمراكزهم والى صيانة المنافع المحدودة لمدينتهم وقبائلهم. وعلى الرغم من أن ميولهم كانت ضد حكومة الامويين، فقد وضعوا نفوذهم تحت امرتها لتوطيد الهدوء بين القبائل. فقد قام كل من عمرو بن الحجاج الزبيري ومحمد ابن الاشعث الكندي بدور الشرطة وحارب شبث بن ربعي التميمي ضد الحسين بعد أن كان هو أحد الذين دعوه الى الكوفة. ولم يكن عامة أهل الكوفة حريصين على مساعدة الحكومة، ولكنهم مع ذلك لم ينضموا الى صف الحسين ، اذ يذكر البلاذري أن سعد بن عبيدة يروى فقال «ان أشياخنا من أهل الكوفة لوقوف على تل يبكون ويقولون: اللهم انزل عليه نصرك. فقلت: ياأعداء الله ألا تنزلون فتنصرونه؟».وحتى أولئك الذين بعثوا بالكتب الى الحسين وأقسموا على الاخلاص له تخلوا عنه في المحنة ولم يقدموا له يد المعونة، وقصارى مافعلوه انهم راقبوا المعركة من بعيد ومصرعه الاخير ثم بكوا.

وقليلون جداهم أولئك الذين تجاسروا على اللحاق به ومشاركته في مصيره، مثل أبي ثمامة الصائدي خازن بيت المال، وابن عوسجه. وعدا هذا فان بعض الذين شاركوه في مصرعه اما أنهم كانوا من اولئك الذين دفعتهم الحمية الانسانية في (78) اللحظة الاخيرة الى الانضمام اليه وان لم يكن لهم من قبل شأن به! ولم يكونوا من شيعته.

أما أنصار بني أمية وقوادهم، فعمر بن سعد بن أبي وقاص يراجعه ضميره في مسلكهبازاء الحسين. ولهذا ينظر اليه بنوع من الرقة، بينما نراه يتجاوز عن ضميره لا لشيء الا ليحتفظ بما وعد به من ولاية (79).اما شمر فلا ضمير له، ينظر الى الحسين على أنه مثير للفتنة والاضطراب، لهذا انقض عليه بغير تردد، ومن هنا يسود شعور

---

(78) البلاذري : انساب الأشراف ج 3 ص 185، 187، 191، 193، 225، الطبري : الأمم والملوك ج 6 ص 269 ـ 270. ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 4 ص 30، 58، 67، 70، 71، فلهوزن : الخوارج والشيعة ص 130 ـ 143.

(79) الدينوري : الأخبار الطوال ص 241، 253، البلاذري : أنساب الأشراف ج 3 ص 173، 176 ـ 179، 190.

سابق ضده وتصوير ابى مخنف له لايكشف عن انه كان مجرد جلف أو جاهلي صريح مليء بالكراهية لآل بيت الرسول كما يحلو لبعض المصادر ان تصويره، ذلك لأنه مثلا قد احترم قداسة المعسكر ـ الذين فيه الحسين والنساء ـ ولم يهاجم الحسين الا بعد أن ابعده عن المعسكر. (80)

اما أبغض الناس الى أبي مخنف فهو عبيد الله بن زياد، ولكنه يصوره لنا بصورة تدعو الى الاعجاب به : فهذا الوالي قد ارغم الكارهين على أن يكونوا في خدمته، وبقليل من الوسائل ولكن بنظره ثاقبه ويد قوية عرف كيف يحل الصعاب التي اعترضته في طريق وعر حافل بالمتاعب. فأدى واجبه ولم يتجاوز مطلقا حدود هذا الواجب.

اما يزيد بن معاوية، الذي ربما كانت الروايات قد عاملته برفق أكبر جدا مما يستحق، فانه اذا كان مقتل الحسين جريمة، فالمجرم الأكبر فيها يزيد، لأنه هو الذي بعث عبيد الله للقيام باجراءات قاسية، وكانت النتيجة مرضية جدا ليزيد واغتبط لها أيما اغتباط، ولذ له ان يمسك بقضيب وينكث به في ثغر رأس الحسين. فان كان قد غضب على واليه (عبيد الله) من بعيد، فما كان ذلك الا تطبيقا لامتياز الحاكم، في ان يحول الكراهية عنه الى الادوات التي اصطنعها لنفسه. حقا ان المودة التي ابداها نحو من بقي من آل الحسين ليست مما يعيبه، فقد عاملهم يزيد بشهامة وعطف، وأظهر الصداقة لعلي بن الحسين وكان فتى صغير ولكنه على قدر من العقل موفور، وان كانت مودته هذه تنطوي على الدهاء ولم تصدر عن قلب مخلص. (81) اذ يرى البلاذري انه كتب الى عبيد الله بن زياد قائلا: «اما بعد فزد اهل الكوفة، أهل السمع والطاعة في اعطياتهم مئة مئة»(82).

اما استشهاد الحسين فقد افتتح عصرا جديدا لدى الشيعة، بل نظر الى هذا الاستشهاد على أنه أهم من استشهاد ابيه، لأن اباه لم يكن ابن بنت النبى وان هناك من الاحداث مايسبب آثارا هائلة لابذاته وبنتائجه الضرورية، بل بذكراه في القلوب.

---

(80) الطبري : الامم والملوك ج 6 ص 258، 259.

(81) البلاذري : انساب الأشراف ج 3 ص 166 ـ 176، 182، الدينوري : الأخبار الطوال ص 231، 232، 233 ـ 238 ، فلهوزن : الخوارج والشيعة ص 136

ويروى ان ابن زياد كان قد عزم على قتل علي بن الحسين، ليخلص الامويين من هذا النسل، لولا ان عمته زينب تعلقت به فتركه. ولم تكن هذه الذرية تستطيع ان تعمل شيئا ضد بني أمية، بعد أن قتل معظم أفرادها، وبذلك تأكد انتصار هؤلاء على بني هاشم أكبر المنافسين لهم. ولكن هذه البقية من آل ابي طالب أصبحت مقدسة، وظهر لها دُعاة كثيرون بين الفرس على الخصوص، الذين نظروا اليها نظرة كسروية، لان الحسين كان قد تزوج جهانشاه ابنة يزدجرد، آخر ملوك الفرس، وهي أم علي بن الحسين فاعتبر الفرس مقتل الحسين في كربلاء مصيبة قومية عظمى، فأقبلوا على الدعوة لآل البيت (83).

ويذكر الطبري انه «لما قتل الحسين.. تلاقت الشيعة بالتلاؤم والتندم، ورأت انها قد أخطأت خطأ كبيرا بدعائهم الحسين الى النصرة وتركهم اجابته ومقتله الى جانبهم لم ينصروه، ورأوا انه لايغسل عارهم والاثم عنهم في مقتله الا بمقتل من قتله أو القتل فيه» (84) فسموا انفسهم «التوابين» وبدأوا لاول مرة ينظمون أنفسهم، فتكونت بعد مقتل الحسين بقليل جماعة انضم اليها حوالي مائة رجل لم يكن فيهم من هو دون الستين من عمره، كانوا اذن مدفوعين بدافع الضمير الديني، لا العواطف.

---

(82) البلاذري : انساب الأشراف ج 3 ص 220.

(83) أبو مخنف : في مقتل الحسين ص 50، ابن سعد : كتاب الطبقات الكبرى ج 5 ص 156 ـ 157. ويروى ابن سعد ان ام على بن الحسين اسمها غزالة وليست جها نشاه ابنة يزدجرد اخر ملوك الفرس، النوبختي : فرق الشيعة ص 53، دونلدسن : عقيدة الشيعة ص 101، وقد اعتبر سفك دم الحسين في سهل كربلاء عند الشيعة، ذا قيمة في التضحية تشبه سفك دم المسيح عند المسيحيين، واعتبر أنه لم يجر في الاسلام اعظم فحشا منه،ولقد اصبحت التربة التي قتل فيها الحسين مقدسة عند الشيعة كماء زمزم، حتى ان بعضهم ياكلها. اما راس الحسين، فاختلفت الروايات فيما جرى بشانها فدفنت بعسقلان من اعمال فلسطين بعد عرضها على يزيد، فلما جاءت الدولة الفاطمية الشيعية الى مصر، وهاجم الصليبيون عسقلان، نقل الفاطميون الراس الى القاهرةواقاموا لها مشهدا في سنة 549 هـ/1154 م، لا يزال يحمل اسمه الى الان. انظر عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ج 2 ص 77 ـ 78.

(84) الطبري : الأمم والملوك ج 7 ص 47.

تولى رئاسة هذه الجماعة سليمان بن صرَد الخزاعي وهو احد زعماء الشيعة بالكوفة وأحد الذين كتبوا الى الحسين يسألونه القدوم عليهم، وقد قدموه لانه شيخ الشيعة بالكوفة وصاحب رسول الله (ص).(85)

بقيت هذه الحركة سرية حتى وفاة يزيد بن معاوية في 64 هـ/ 683 م فلما توفي انطلقت وثار أهل الكوفة على عبيد الله بن زياد ـ وكان يقيم في البصرة ـ فطردوا نائبه في الكوفة عمرو بن حريث المخزومي وتولى رئاسة هـذا الانقـلاب زعماء اشراف الكوفة لا الشيعة وتوالى الولاة على الكوفة الى أن تمكن عبد الله ابن الزبير من توطيد نفوذه بالعراق وبايعه اشراف الكوفة مضطرين، فأرسل اليهم عبد الله بن يزيد الانصاري واليا على الكوفة في رمضان 64 هـ/مايو 684 م (86)

ازدادت حركة «التوابين» اتساعا وانتشارا حتى بلغ عدد انصارها ستة عشر الف رجل أقسموا على الولاء والمطالبة بثأر الحسين، ولم تقتصر هذه الحركة على الكوفة فقط بل شملت كل من شيعه المدائن، وشيعه البصرة.اذ يروي ابن الاثير ان سليمان بن صرد كتب «الى سعد بن حذيفة بن اليمان... يدعوه الى مساعدتهم ومن معه من الشيعة بالمدائن.. وكتب سليمان أيضا كتابا الى المثنى بن مخرمة العبدي بالبصرة مثل ماكتب الى سعد .. فأجابه المثنى: اننا معشر الشيعة حمدنا الله على ماعزمتم عليه ونحن موافوك ان شاء الله للاجل الذي ضربت».(87)

ونظرا لان قتلة الحسين كانوا هم أشراف الكوفة وفرسان العرب وهم المسؤولون عن دمه بسبب تواطؤهم مع السلطة وطاعتهم لها لذلك اتجهت انظار عامة الشيعة الى الانتقام من هؤلاء الاشراف والاستيلاء على الكوفة، ولكن سليمان فضل مواجهة الاعداء الحقيقيين المباشرين والمستبدين المتمثلين في عبيد الله بن زياد وبني امية وشجعهم على ذلك انصار ابن الزبير بالعراق، حتى يتخلصوا منهم.

---

(85) الدينوري : الاخبار الطوال ص 229. ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ 4 ص 160

(86) الطبري : الامم والملوك جـ 7 ص 52 ـ 54 ، 66. ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ 4 ص 132، 143، 144، فلهوزن : الخوارج والشيعة ص 138.

(87) ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ 4 ص 161 ـ 162.

قرر التوابون التجمع في معسكر النخلية بالقرب من الكوفة في أول ربيع الثاني سنة 65 هـ/ 684 م ودعوا كذلك انصارهم في المدائن والبصرة. ولم يجتمع من بين الستة عشر الف رجل الذين وعدوا بالذهاب الا اربعة آلاف فقط (88) وكانوا مشكلين من جميع قبائل الكوفة وكثير من القراء، ولكن لم يكن فيهم احد من الموالي، ثم زحفوا الى كربلاء حيث اقاموا عند قبر الحسين يوما وليلة يصلون عليه ويبكون ويتضرعون. ويروي الطبري «فو الله لرأيتهم ازدحموا على قبره أكثر من ازدحام الناس على الحجر الاسود» في مكة ثم زحفوا الى قر قيسيا وواليها زفر بن الحارث الكلابى على رأس قبيلة بني قيس يعارض حكم الامويين، فأمدهم بخبز كثير وعلف. ودقيق كما أمر فأقيم لهم سوقا يتزودون منه (89).

وبعد انتصار مروان بن الحكم في مرج راهط، أرسل ابن زياد عاملا له على الجزيرة، على أن يسير بعدها الى العراق، لذلك نصح زفر الشيعة بقوله: «بادروهم الى عين الوردة وهي رأس عين وأجعلوا المدينة في ظهوركم ويكون الرستاق والماء والمادة في أيديكم ومابيننا وبينكم فأنتم آمنون منه.... وان قاتلتموهم فلا تقاتلوهم في فضاء ترامونهم وتطاعنونهم فانهم أكثر منكم، ولا آمن أن يحيطوا بكم، فلا تقفوا لهم فيصرعوكم، ولاتصفوا لهم، فاني لاأرى معكم رجاله ومعهم الرجالة والفرسان بعضهم يحمى بعضا». (90)

فعل التوابون كما أشار زفر، فانتهوا الى عين الوردة فنزلوا في غربيها وعسكروا واستراحوا، تحمى ظهورهم المدينة وأقاموا هناك خمسة أيام قبل ان تهاجمهم فرقتان من فرق جيش الشام الخمس. وبدأت المعركة في يوم الاربعاء 22 جمادى الاولى 65هـ/ 685 م واستمرت لمدة ثلاثة أيام (حتى يوم الجمعة) وقاتل الشيعة قتال الاسود، ولكن رمى النبال والامدادات المتلاحقة من عبيد الله، قضى عليهم، فلم ينج

---

(88) اذ كان المختار بن ابي عبيد الثقفي يريد ان ينتزع شيعة الكوفة فاخذ يثبط هممهم وينفرهم من زعامة سليمان، واصفا اياه بانه غير بصير بامور الحرب، وانه انما يريد ان يقضي عليهم ويقتل نفسه فانضم اليه الفان من اتباع سليمان. انظر المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر جـ 3 ص 93، ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ 4 ص 175 .

(89) الطبري : الامم والملوك جـ 7 ص 70، 72، 73 . ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ 4 ص 178 ـ 180.

(90) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ 4 ص 180.

منهم الا قليل تمكنوا من الانسحاب ليلا ولم يطاردهم احد، والتقوا في الطريق باخوانهم من شيعة المدائن والبصرة الذين لم يصلوا الى الميدان في الوقت المناسب فقرروا العودة (91).

وتعتبر هزيمة التوابين بقيادة سليمان بن صرد في عين الوردة نقطة تحول حاسم في التاريخ الداخلي للشيعة. والفضل في ذلك يرجع الى المختار بن أبي عبيد، وهو ثقفي كالمغيرة وزياد ، وعبيد الله والحجاج، ولايقل عن هؤلاء شأنا، وان كان من طبيعة أخرى مخالفة لطبائعهم تمام المخالفة. فقد تمكن المختار من الاستيلاء على الكوفة في ربيع الاول سنة 66 هـ، وامتد سلطانه حتى شمل سواد العراق والموصل وبعض بلاد الجزيرة والجبال واذربيجان وأرمينية واستمر نفوذه الى أن قتل في معركة القصر بالكوفة في رمضان سنة 67 هـ، فكانت مدة ولايته سنة واحدة ونصف السنة .(92)

كان المختار من أسرة كريمة، وقاد أبوه وهو ابو عبيد مسعود بن عمرو ابن عمير بن عوف من قبيلة ثقيف، معركة الجسر ضد الفرس عند البويب (النخيلة) وقتل في هذه المعركة، وعمه سعد بن مسعود الثقفي والى المدائن لعلي بن ابي طالب، وتزوج اخته عبد الله بن عمر بن الخطاب ذو المكانة البارزة المرموقة، كما تزوج المختار من بنت النعمان بن بشير الانصاري. وعرف المختار في خلال شبابه بكونه مواليا للعلويين ومخلصا لبني هاشم بالرغم مما نسب اليه من انه اراد تسليم الحسن بن علي بن أبي طالب الجريح حينما حمل الى المدائن الى معاوية بن أبي سفيان. حتى ان عمه والي المدائن في ذلك الوقت لعنه، وبالرغم من اختلاف المؤرخين حول تفسير اسباب هذه النصيحة، الا أن قد يكون لقبول الحسن التسوية

---

(91) الطبري : الامم والملوك ج 7 ص 74، 76، 80، ابن الأثير : للكامل في التاريخ ج 4 ص 181 ـ 185، فلهوزن : الخوارج والشيعة ص 138 ـ 141.

(92) تاريخ خليفة بن خياط ج 1 ص 334، الدينوري : الاخبار الطوال ص 292 ، 299، ابن خلدون : العبر ج 3 ص 23 وفيها ان المختار ارسل عماله الى أرض جوخا والمدائن وبهقباذ الاسفل والأوسط والاعلى وحلوان. وكلها من السواد، والى اصبهان وهمذان والماهين والري وقم ودسبتي وماسبذان وغيرها من بلاد الجبال. فكانت الاموال تجبى اليه منها جميعا بالاضافة الى الموصل واذربيجان وارمينية. انظر وداد القاضي : الكيسانية في التاريخ والأدب ص 55 ـ 56، فلهوزن : الخوارج والشيعة ص 142.

السلمية مع معاوية دخل في هذا، اذ أننا نرى ان كثيرا من مؤيدي الشيعة انتقدوا الحسن بعنف وقسوة لعقده الصلح مع معاوية (93).

وحينما ارسل الحسين ابن عمه مسلم بن عقيل الى الكوفة في 60م/679 م انزل مسلم عند المختار،ولكن مايثير التساؤل هو عندما اضطر مسلم بن عقيل الى اعلان الثورة كان المختار خارج الكوفة في ضيعه له وعندما عاد كان مسلم قد قتل واستدعاه عبيد الله بن زياد والى الكوفة ولامه لعلاقته بثورة مسلم، ولكنه انكر ان تكون له اية علاقة بها فضربه على عينيه بقضيب كان في يده فشترها وارسله الى السجن فبقي فيه حتى بعد وقعة كربلاء في 61هـ/680م واطلق سراحه بتوسط زوج أخته عبد الله بن عمر بن الخطاب ولكنه نفي خارج الكوفة. (94).

رحل المختار الى الحجاز وفي الطريق التقى بابن العرق احد موالى ثقيف الذي سأله عما حدث لعينه، فأخبره المختار ان عبيد الله ضربه عليها وقال، «قتلني الله ان لم اقطع أنامله وأباجله وأعضاءه اربا اربا...! ان الفتنة قد ارعدت وأبرقت وكأن قد انبعثت فوطئت في خطامها، فاذا رايت ذلك وسمعت به بمكان قد ظهرت فيه فقل ان المختار في عصائبه من المسلمين يطلب بدم المظلوم الشهيد المقتول بالطف سيد المسلمين وابن سيدها، الحسين بن علي ».

وفي الحجاز علم ان ابن الزبير لم يظهر الثورة علنا بعد ولكنه سيفعل ذلك، قطعا حينما يشعر بأن لديه قوة كافية، وعرض المختار خدماته على ابن الزبير، كراهية للامويين وطموحا في الحصول على مركز هام. ولكن الاخير غضب لان المختار كلمه في المسجد بصوت عال يذيع سره، فهذا الكلام لاينبغي أن يكون الا والستور دونه مرخاة والابواب دونه مغلقة.(95)

(93) البلاذري : فتوح البلدان ص 250، انساب الاشراف ج 5 ص 214، ابن الأثير : أسد الغابة ج 4 ص 336، ابن الجوزي : تذكرة الخواص ص 196 ـ 197. الخربوطلي : المختار الثقفي ص 52.

(94) الدينوري : الاخبار الطوال ص 244، البلاذري : انساب الأشراف ج 5 ص 214، 215 ـ 216، تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 258.

(95) الطبري : الأمم والملوك ج 7 ص 59 ـ 61

فحاول المختـار الحصول على تأييد احد العلويين سواء على بن الحسين أو محمد بن الحنفية،، وبالرغم من ملائمة اختيار على بن الحسين الذي كان شابا وله من العمر حوالي اربع وعشرين سنة، ولكنه رفض ان يتدخل بالسياسة ربما بسبب ماعاصره من مقتل والده وافراد اسرته فيوقعة كربلاء، وبالتالي تحولت انظار الشيعة وكذا المختار الى محمد بن الحنفيه لعدم وجود علوي من نسل فاطمة في عمر مناسب انذاك،ولكن ابن الحنفية كان يتمسك بالرأي القائل ان الخلافة يجب أن تتم باجماع المسلمين وحينما أخبره المختار انه ذاهب الى الكوفة ليأخذ بثأر أهل البيت والانتصار لهم، سكت ابن الحنفية فلم يأمره ولم ينهه ولكنه اوصاه بتقوى الله ما استطاع وحذره من اراقة الدماء وبناء على ذلك استغل المختار اسم ابن الحنفية لاغراضه الخاصة في الكوفة وشجعه على ذلك رأي ابن الحنفية في الخلافة وعدم نشاطه السياسي. (96)

وبعد وفاة يزيد بن معاوية وطرد اهل الكوفة لعبيد الله بن زياد علم المختار ان هناك بالكوفة طائفة من الناس لو كان لهم رجل يجمعهم على رأيهم أكل بهم الارض الى يوم ما فقال المختار : أنا والله لهم، أنا أجمعهم على مر الحق وانفى بهم ركبان الباطل وأقتل بهم كل جبار عنيد. ودخل المختار الكوفة وقد اعتم وتقلد سيفه ثم ركب راحله، لايمر بمجلس الا سلم على أهله وقال: ابشروا بالنصر والفلج، اتاكم ماتحبون.(97)

سعى المختار في ضم صفوف شيعه الكوفة تحت زعامته، وقد اطاعته طائفة منهم، الا أن غالبيتهم ظلوا مع شيخهم سليمان بن صرد ولكن المختار تخلص من منافسه بما وقع لهذا الاخير في حملته المشؤومة ضد أهل الشام وفي نفس الوقت أدرك اشراف الكوفة، خطورة دعوة المختار فلفتوا نظر الوالي عبد الله بن يزيد الذي آمر بايداعه السجن حتى عودة من بقي من أتباع سليمان بن صرد بعد هزيمة عين الوردة في 65 هـ/685م.

---

(96) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج 5 ص 66 ـ 86، البلاذري : انساب الأشراف ج 5 ص 218، 272. المسعودي : مروج الذهب ج 3 ص 74.

B. Lewis : The Origins Ismailism (cambridge, 1940) p. 26.

(97) الطبري : الامم والملوك ج 7 ص 63 ـ 64

وسرعان ما أطلق سراح المختار بشفاعة صهره عبد الله بن عمر بن الخطاب وكفالة عشرة من وجهاء الكوفة وأشرافها ووعد المختار بعدم اثارة الفتن. ولكن تغيير عبد الله بن الزبير لواليه على الكوفة وتوليته عبد الله بن مطيع القرشي دفع المختار للتحلل من وعده السابق وساعده على ذلك، حينما اراد الوالي الجديد ان يشد عنان الكوفة أكثر مما فعل سلفه اللين خلال عرض برنامجه السياسي من فوق المنبر وقلل من قيمة المدينة التي كانت عاصمة للدولة الاسلامية في عهد علي ابن ابي طالب، ثار اهل الكوفة عليه فأسقط في يده وتراجع في قوله: «نسير فيكم بكل سيرة أحببتموها وهو يتموها» .(98)

لقد اظهرت هذه المعارضة العلنية للوالي الجديد بصورة واضحة ضعفه وشعور الشيعة في الكوفة تجاه عبد الله بن الزبير وكذلك عكست القوة التي اصبح عليها المختار واتباعه. اخذ المختار في تنظيم اتباعه وتمكن من التهرب من دعوة الوالي له الذي أراد أن يوقع به،وفي نفس الوقت تمكن من الحصول على تأييد ابراهيم ابن مالك بن الاشتر زعيم قبيلة النخع من مذحج وأبوه كان من مؤيدي علي بن ابي طالب. وبالرغم من تشيعه فقد كان على الحياد خلال حركة سليمان بن صرد زعيم التوابين وفي بداية حركة المختار.ويعلل ذلك بعدم ثقته بأي من الحركتين، وأنه اعتبر نفسه مساو لزعمائهما على الاقل، ان لم يكن يفوقهما كفاءة ـ ولم يتمكن المختار من كسب ابراهيم الا بعد أن ادعى بوصول رسالة من محمد بن الحنفية الى ابراهيم تحضه الى الانضمام الى المختار.فقد ورد بها «فاني قد بعثت اليكم بوزيري واميني ونجيبي الذي ارتضيته لنفسي، وقد امرته بقتال عدوي والطلب بدماء اهل بيتي، فانهض معه بنفسك وعشيرتك ومن اطاعك، فانك ان نصرتني واجبت دعوتي وساعدت وزيري كانت لك عندي بذلك فضيلة ولك بذلك اعنة الخيل وكل جيش غاز وكل مصر ومنبر وثغر ظهرت عليه فيما بين الكوفة واقصى بلاد أهل الشام» .(99)

وفي ربيع الاول 66هـ/685م ثار المختار بالكوفة وقد ابلغ اتباعه بأن امر باشعال النيران في هرادى القصب والنداء بشعاراتهم «يامنصور امت» والمنصور هو

(98) البلاذري : انساب الاشراف ج 5 ص 219 ـ 221. الطبري : الامم والملوك ج 7 ص 94 ـ 95.
(99) الطبري : الامم والملوك ج 7 ص 66 ـ 67.

الشخص الذي ينتظره اليمانيون ليعيد لهم سلطانهم وسيادتهم، اذأن معناه يامنصور اليمن امت اعداء أهل اليمن ولما كان عرب اليمن هم العنصر الغالب من اتباع المختار فان تبنى هذا الشعار كان بمثابة استقطاب لاهدافهم السياسية والدينية. وبالاضافة لهذا الشعار استخدم «يالثارات الحسين» شعار الشيعة الاتقياء.

وتمكن المختار بمعاونة ابراهيم بن الاشتر ومن انضم اليهم من قبائل عرب الكوفة من نخع وهمدان ونهد وشاكر وخثعم وشبام وأسد وحنيفة وعبس والأزد ومزينة وبكر وأحمس من الاستيلاء على الكوفة وهرب الاشراف ومعهم الوالي الى القصر حيث بقوا محاصرين لمدة ثلاثة أيام طلب الاشراف في نهايتها الامان من ابراهيم واستسلموا للمختار اما الوالي فقد هرب الى بيت ابي موسى الاشعري حيث اختفى فيه (100).

سعى المختار لاشاعه العدل والرحمة والطمأنينة في النفوس والصلح بين الاحزاب، كما أرسل مبلغ وفير من المال الى ابن مطيع الوالي السابق وطلب اليه أن يترك الكوفة، ومنع انصاره من القتل وارتكاب المظالم، ووفى يعهده للاشراف بالامان، بل وطلب منهم أن يجالسوه وينصحوه كما كانوا يفعلون من قبل مع سلفه من الولاة، واختار الموظفين والقواد من بين اشراف ورؤساء القبائل العربية. ومع ذلك كانت العناية «بالمستضعفين» وهم الموالي من أهم اهتماماته. (101).

وحتى لايحارب المختار في جبهتين: جبهة ابن الزبير في شبه الجزيرة العربية وجبهة الامويين في الشام. حاول أن يتعامل مع الجبهة الاولى، فعرض المختار على ابن الزبير أن يتعاونا معا ضد العدو المشترك وهو الامويين وأهل الشام، الذين زحفوا على الجزيرة العربية سنة 66 هـ حتى وصلوا الى وادى القرى، وافق ابن الزبير على ارسال المختار جيش من الموالي الى المدينة للاشتراك مع جيش ابن الزبير

---

(100) البلاذري : انساب الاشراف ج 5 ص 225 ، 226 ـ 228، الطبري : الأمم والملوك ج 7 ص 107، 108 ـ 110.

B. Lewis : The Regnal Titles of the First Abbasid caliphs, p. 17.

(101) البلاذري : انساب الأشراف ج 5 ص 228 ، الدينوري : الأخبار الطوال ص 292 ـ 293، تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 259، الطبري : الامم والملوك ج 7 ص 109 ـ 110.

لمحاربة أهل الشام، ولكن ما أن وصل جيش المختار حتى تخلص قائد ابن الزبير منهم وقتلهم غدرا واغتيالا وكانوا ثلاثة آلاف من الموالي.

لم يكتف ابن الزبير بذلك، بل وحينما اتى محمد بن الحنفية للحج في نفس العام حاصره مع اصحابه وهدده ان لم يبايعه: طلب ابن الحنفية النجدة من المختار، فأسرع الاخير بارسال المتطوعين الى المدينة حتى بلغ عددهم اربعة آلاف رجل أدوا المهمة وعادوا الى الكوفة. (102).

وفي أواخر سنة 66هـ أرسل المختار جيشا من ثلاثة آلاف فارس بقيادة يزيد ابن أنس لملاقاة جيش أهل الشام بقيادة عبيد الله بن زياد والتقى الجيشان بالقرب من الموصل، وكان جيش الشام ضعف جيش المختار، ورغم هذا انتصر جيش المختار ولكنه اضطر للانسحاب بسبب وفاة قائده ابن أنس لمرضه. وانتشرت الشائعات من اعداء المختار، بان جيشه قد هزم، فأسرع المختار بارسال ابراهيم بن الاشتر على رأس سبعة آلاف رجل الى ميدان المعركة. (103).

واستغل اشراف الكوفة وجود المختار في قلة من أعوانه وثاروا عليه وحاصروه في قصره، وكادوا أن ينالوا منه، الا أنه تمكن من طلب نجدة قائده ابراهيم ابن الاشتر الذي تمكن من العودة الى الكوفة في مساء اليوم التالي وسرعان مانشب القتال بين الفريقين وارتفعت شعارات «يالثارات عثمان» مقابل شعارات الشيعة «يالثارات الحسين» وحارب الرجل ضد اهله، والابن ضد أبيه، وبعد انتصار المختار اطلق العنان للشيعة لينتقموا من قتلة الحسين، فتوالى القتل في الاسرى أولا ثم في المسؤولين الرئيسيين عن مأساة كربلاء، فقتل شمر بن ذى الجوشن وعمر بن سعد ونفر كثير من أهل قريش. ومن استطاع من الاشراف أن يهرب لجأ الى البصرة عند مصعب بن الزبير. (104)

---

(102) الطبري : الامم والملوك ج 7 ص 134 _ 137، ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 4 ص 247 _ 250.

(103) البلاذري انساب الاشراف ج 5 ص 231، الطبري : الأمم والملوك ج 7 ص 113 _ 116.

104) الدينوري : الاخبار الطوال ص 300 _ 301 ، الطبري : الأمم والملوك ج 7 ص 118 _ 122 ، 127.

قضى المختار على فتنة الاشراف، فأرسل ابراهيم بن الاشتر لاستكمال حرب أهل الشام والتقى الفريقان عند نهر خازر الذي يصب في الدجلة، فانتصر الشيعة على عدوهم الذي كان يبلغ عشرة أضعافهم بفضل مهارة قائدهم ابراهيم وبفضل شجاعة الشيعة وقتل عبيد الله بن زياد والحصين بن نمير السكونى وشرحبيل ابن ذي الكلاع. وهكذا انهزم أهل الشام وتخلص المختار من الجبهة الاموية التي كانت تهدده. (105).

أما جبهة ابن الزبير الذي حاول التحالف معها فقد جاء الخطر منها، فقد حرض أشراف الكوفة الهاربين مصعب بن الزبير والي البصرة من قبل أخيه الاكبر ضد المختار. وقام مصعب باستدعاء جيوش البصرة وقائدها المهلب المظفر للتحول من حرب الخوارج الى حرب الشيعة. والتقى الفريقان بالمذار على نهر دجلة حيث هزم المختار هزيمة نكراء ثم زحف المهلب الى الكوفة فالتقى بالمختار وأصحابه في حروراء فهزمهم وانسحب المختار والموالي الى قصره فقام المهلب بمحاصرته،وحينما حاول أن يشق طريقه بالقوة قتل في 14 رمضان سنة 67هـ/ 3 ابريل 687م. وكان عمره اذ ذاك سبعا وستين عاما. وقتل مصعب جميع الذين سلموا ويتراوح عددهم فيما

(105) البلاذري : انساب الاشراف جـ 5 ص 248 ـ 250،الدينوري : الأخبار الطوال ص 294 ـ 295، الطبري : الامم والملوك جـ 7 ص 144 ـ 145 . وقد ساهمت عدة عوامل في انتصار ابراهيم بن الأشتر. فاذا استثنينا شجاعة ابراهيم وكفاءته العسكرية فان هناك الحماس الديني للشيعة الذين التقوا وجها لوجه مع ابن زياد قاتل الحسين. هذا الحماس الذي اذكته خطبة ابراهيم قبيل المعركة، بالاضافة الى خيانة القيسيين في جيش عبيد الله بن زياد. فقد روى أن عمير بن الحباب السلمي الذي كان على راس القيسيين بجيش ابن زياد زار ابن الاشتر وأخبره بأنهم يكرهون ال مروان بسبب معركة مرج راهط ووعده بالانهزام عندما تبدا المعركة ولكن المصادر تختلف في الوقت الذي انهزم فيه القيسيين، اهو في خلال المعركة ام بعد تقرير مصيرها وهزيمة اهل الشام .

انظر ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ 4 ص 261 ـ 263، عبد الامير عبد حسين دكسن : الخلافة الاموية ص 99 ـ 100.

يذكرون بين الستة والثمانية آلاف وهكذا انتقم اشراف الكوفة لدماء آبائهم واقربائهم من الموالي. (106).

وتتباين وجهات نظر المؤرخين المحدثين بشأن المختار بن ابي عبيد الثقفي وطبيعة ثورته كما تتباين وجهات نظر المؤرخين المسلمين القدماء فكان ينعت بأنه «سحار» وأنه «الدجال» ويوصف عادة بـ «الكذاب». وبينما يعتبره البعض رجلا ذا مقدرات ملحوظة ولايتحرج في اتباع آي وسيلة لتحقيق هدفه،ولذلك تبنى مطالب الموالي بالكوفة للحصول على تاييدهم، نجد البعض الاخر يعتبر المختار انسان مخلص عمل على ازالة الفوارق الاجتماعية بين العرب والموالي واعتقد المختار في دوره الشيعي وافكار المساواة التي جاء بها عن الموالي. وأخيرا هناك من اعتقد ان المختار كان انتهازيا حاول استغلال الفتنة التي حدثت في العالم الاسلامي لصالحه (107).

وتميزت حركة المختار بعدة مميزات لم تكن متوفرة من قبل في الحركات الشيعية التي سبقته ومن هذه المميزات شخصية المختار وتطورها من رسول ووزير لمحمد بن الحنفية الى كاهن وساحر ومتنبيء وتقربه الى الفقراء سواء كانوا من الموالي أو العرب.

---

(106) الطبري : الامم والملوك ج 7 ص 146 ـ 151. ويلاحظ ان ابراهيم ابن الاشتر تخلى عن المختار ولم يسارع لنجدته كما سبق ان فعل. ويرجح ان تغير موقف ابن الاشتر يعود الى موضوع الكرسي الفارغ الذي وضعه انصار المختار على ظهر بغل اشهب واحاطوا به . يستنصرونه فابدى ابن الاشتر امتعاضه منه. وقد عبر ابراهيم عن استيائه من عملهم هذا حين قال : «اللهم لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء سنة بني اسرائيل، والذي نفسه بيده اذ عكفوا على عجلهم» وبعد استقرار ابن الاشتر في الموصل واليا على الجزيرة وتوابعها، فترت العلاقات بينه وبين المختار. وبعد هزيمة المختار في المذار، كتب عدة مرات يطلب مساعدة ابن الاشتر ولكنه رفض.انظر البلاذري : انساب الاشراف ج 5 ص 248. ابن الحكم الكوفي : كتاب الفتوح ورقة 29 أ.

(107) انظر اراء فان خلد Van Gelder وفان فلوتن Van Vloten وولهاوزن Welhausen وليفي ديلا فيدا Della Vida وغيرهم في الدولة الامويه والمعارضة. مدخل الى كتاب السيطرة العربية للمستشرق الهولندي فان فلوتن ترجمة ابراهيم بيضون ص 32. 119 وكتاب الخوارج والشيعة لولهاوزن ترجمة عبد الرحمن بدوي ص 151 ـ 152 . والخلافة الاموية لعبد الامير عبد حسين دكسن ص 57 ـ 58.

والمتتبع للصورة التي رسمها المختار لنفسه في بدء حركته يلاحظ أن المختار شدد فيها على شخصيته من حيث هو داعية لابن الحنفية مثل قوله على لسان الاخير أن المختار «نصيحة» و«ثقته» و«أمينه» المرضى عنده»، أو على وظيفة من قبل ابن الحنفية، فهو من قبله رسول وعامل وأمير وله ظهير ووزير وهذا كله يفيد بوضوح صورة التبعية (108) .

غير انه ما أن استوى السلطان للمختار حتى اخذت شخصيته المتفردة تبرز مستقلة بوضوح، وكان أول ماظهر منها نموذج «الكاهن» الذي كان معروفا في الجاهلية، وكان يتميز بالسجع والاخبار بالغيب، وقد كان ميل المختار الى السجع واضحا قبل أن يقوم بحركته في الكوفة، الا أن وجوده في مركز القيادة جعل ذلك الجانب من شخصيته بارزا فيه.

وبتطور حركة المختار، كانت شخصية «الساحر» هي الشخصية الاخرى التي اتسم بها المختار في حركته، وهذه ناحية كانت تعتمد الى حد كبير على لباقة المختار وتحيله في وضع الاشياء أمام عيون أصحابه، حتى قال بعض المؤرخين أنه كان يظهر لاصحابه الاعاجيب أو المخاريق.

ومن الطبيعي والمحتمل انه لم يكتف بما سبق، بل تطلع الى ماهو أكبر وهو ادعاء النبوة. فادعى ان الوحي ينزل عليه، وان ميكائيل وجبريل هما اللذان يأتيه الوحي عن طريقهما، وانهما يدخلان عليه فيجلسان على وساده فاذا أصح كل هذا الذي روى عن المختار، فانه يظهركم ابتعد هو عن الالتزام بما جاء في القرآن من أن محمدا (ص) خاتم النبيين وهو في ذلك يشبه المتنبئين من أهل الردة مثل مسيلمه وطليحة الاسدى وغيرهم، (109)

---

(108) البلاذري : انساب الاشراف ج 5 ص 218، 222. ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 4 ص 163، 215.

(109) البلاذري : انساب الاشراف ج 5 ص 233، 265 ـ 266، 272، الطبري : الامم والملوك ج 7 ص 122 ، 123، 132، 139 ، وداد القاضي : الكيسانية في التاريخ والأدب ص 110، 111، 113، 114.

وأخيرا يبدو ان المختار، كان قد احضر كرسيه المشهور (110) قبل انقضاء سنة 66هـ وعين سادنه ورتب الطقوس الدينية المرتبطة به : من حمله على بغل اشهب، وتقديمه أمام أصحابه وهم ذاهبون الى الحرب، والطواف حوله والدعاء له والاستنصار به. ويهمنا من ظاهرة الكرسى ان المختار شبهه بتابوت العهد عند اليهود وان الرجلين اللذين اسندت اليهما الروايات سدانة هذا الكرسى على التوالي كانا من العرب اليمنيين، وان القبائل التي ارتبطت طقوسه بها يمينية جميعها، كشبام وشاكر ويرسم ونهد وخارف من همدان. وربما كان هذا يشير الى المؤثرات اليهودية بجنوب الجزيرة العربية. (111).

وبالاضافة الى اعتناق المختار للعوامل الروحية السابقة، فقد اعلن الدفاع عن الضعفاء وهم الموالى، فقد كان العرب لايسمحون للموالى الذين اسلموا بالتساوي معهم في الحقوق التي منحها الاسلام لهم. فقد احتكر العرب الوظائف المهمة في المجتمع مثل القضاء وقيادة الجيوش وأمامة الصلاه، اما الموالي فكانوا يعملون بالاعمال اليدوية كالزراعة والصناعة، وبالرغم ان العرب استخدموهم في الجيش كمشاة فانهم لم يسجلوا في الديوان وبالتالي لم يحق لهم عطاء، وفي الحالات النادرة التي منحوا فيها عطاء كان اقل مما يمنح للعرب.

ويلاحظ انخفاض مكانةالموالي الاجتماعية في مخاطبتهم بالقابهم الخاصة، اذ لايحق لهم استعمال الكنى الا نادرا، كما لم يكن مسموحا لهم ان يتزوجوا من النساء العربيات. كما أن أولاد الرجل العربي من امرأة غير عربية لايأخذون نفس الحصة من

---

(110) ففي فترة ما قبل الاسلام كانت قبائل اليمن عادة ما تحمل علاماتهم القبلية معهم عندما يدهبون للحرب لانهم كانوا يعتقدون بان هذه العلامات او الشعارات تجلب لهم النصر، فهي تزيد من حماس المقاتلين. ولذلك عملت بعض القبائل اليمنية كسدنة للاماكن المقدسة وان السدانة ظلت تنتقل فيها من جيل الى جيل وهذا يوضح لماذا كان جميع سدنة الكرسي من عرب اليمن. ولهذا فان الكرسي عمل هنا عمل الشعار القبلي في منح النصر وزيادة حماس المحاربين.

(111) الطبرى : الامم والملوك ج 7 ص 140 ـ 141. ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 4 ص 258. 259 فلهوزن : الخوارج والشيعة ص 160. وداد القاضي : الكيسانية في التاريخ والادب ص 117. 118.

ارث ابيهم كأولئك الذين امهاتهم عربيات. وطبقا لقاعدة «الكفاءة» الفقهية كان العرب مساوين لامثالهم من العرب فقط والموالي للموالي. (112)

ونتيجة لهذه الوضعية الاجتماعية المنخفضة في العصر الاموي اندفع الكثير منهم ومن غيرهم من العرب الذين لم يكونوا متمتعين بامتيازات الاشراف الى الانضمام الى الحركات الشيعية وكذا الخوارج.

رحب بهم المختار وأيقظ أمل المساواة مع العرب في نفوسهم. وكان يوليهم معظم ثقته ويقربهم اليه كل القرب، فأباح لهم مشاركة العرب في الفيء وركوب الخيل واختار منهم حرسه الخاص برئاسة كيسان ابو عمرة مولى عرينة وهو واحد منهم. وأعلن المختار ان كل عبد ينضم اليه يكون حرا. وسرعان ما ازداد عدد الموالي والعبيد بين اتباعه الى درجة كبيرة.فبعد ان كانوا في بداية الثورة خمسمائة فقط، انضم اليه جميع الموالي في الكوفة تقريبا وكان عددهم اربعين الفا. وللمختار الفضل في أنه أول من ادرك أهمية الموالى كعنصر سياسي هام في المجتمع.ويروي المدائني ان المغيرة بن شعبه كان أول من لفت انتباه المختار الى ذلك حين قال له : «اما والله اني لاعرف كلمة لو دعا بها اريب لاستمال بها اقواما فصاروا له انصارا ثم لاسيما العجم الذين يقبلون مايلقى اليهم، قال المختار وماهي ياعم، قال يدعوهم الى نصرة آل محمد والطلب بدمائهم» (113).

وهكذا قضى على حركة المختار والزمت السلطة الحاكمة الموالي حدودهم. وكان أهل الكوفة جميعا من الشيعة بالقدر الذي كانوا به يعارضون حكم الامويين. ولم يكن تشيعهم عن تفان في آل على بل كان حرصا على ان يكون الامر لهم. لذلك نجد الشيعة الحقيقيون اعتصموا بالهدوء وقتا طويلا حتى قرب نهاية الدولة الاموية.

---

(112) البلاذري : فتوح البلدان ص 457، تاريخ اليعقوبي ج 2ص 213، ابن عبد ربه : العقد الفريد ج 3 ص 412 ــ 413، 417، الاصفهاني : الاغاني ج 6 ص 5، ج 14 ص 150 . فلهوزن : الخوارج والشيعة ص 151 ــ 152، عبد الامير عبد حسين : الخلافة الاموية : ص 80، 81، وداد القاضي : الكيسانية ص 129 ــ 131.

(113) البلاذري : انساب الاشراف ج 5 ص 223، 229 ، 267، تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 262، عبد الامير عبد حسين : الخلافة الاموية ص 81، 82.

ثالثـــا : الزبيريون

يرى كثير من المؤرخين أن نشأة هذا الحزب ترجع الى الوقت الذي دعا فيه عبد الله بن الزبير الى نفسه بمكة سنة 63 هـ. على ان هناك بعض المؤرخين يرى ان نواة هذا الحزب قد ظهرت بعد الفتنة التي ادت الى قتل عثمان وخروج طلحة والزبير وعائشة على، عليّ بن ابي طالب. (114)

فقد كان الزبير بن العوام وهو أحد العشرة الذين بشرهم الرسول (ص) بالجنة وأحد أصحاب الشورى، المرشحين للخلافة بعد مقتل عمر بن الخطاب. وهو حوارى رسول الله (ص) وأمه صفية بنت عبد المطلب عمة النبي وعمته خديجة بنت خويلد زوجة الرسول (ص). (115).

لذلك نجد ابنه عبد الله بن الزبير تطلع الى الخلافة، فقد اتخذ من أصله ونسبه خصوصا ـ بعد مقتل الحسين بن علي في كربلاء خلال خلافةيزيد ابن معاوية، كأحد المبررات لأحقيته في الخلافة، فهو ابن أحد زعماء المهاجرين، وأول مولود منهم بالمدينة في الاسلام، اذ ولد في السنة الاولى من الهجرة، وامه أسماء ذات النطاقين ،بنت ابي بكر الصديق، وخالته عائشة أم المؤمنين وزوجة الرسول (ص) المفضلة. لذلك عرف عبد الله بن الزبير بانه كريم الجدات والامهات والخالات.

وقد اشتهر منذ صغره بالشجاعة، فعندما قدم عمر بن الخطاب وهو يلعب فرّ الصبيان ووقف هو، فقال له عمر : مالك لم تفر معهم فقال: لم أجرم فأخافك، ولم تكن الطريق ضيقة فأوسع لك. وقد شهد فتوحات الدولة الاسلامية في مصر وفارس وبخاصة في افريقية حينما غزاها مع عبد الله بن سعد بن أبي سرح، واعتبر من أشجع قومه (116).

---

(114) انظر حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي ج 1 ص 409

(115) ابن قتيبة : المعارف ص 96 ـ 97.

(116) انظر سيرة عبد الله بن الزبير في ابن قتيبة : المعارف ص 98 ـ 99، ابن الاثير : اسد الغابة جـ 3 ص 105، 161 ـ 164، عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسي للدولة العربية جـ 2 ص 79، 80.

كما اتخذ عبد الله بن الزبير من تأمير عثمان له على داره سببا كافيا لأحقيته بالخلافة، لأن استخلاف عثمان له دون أصحابه الذين كانوا معه يدل على كفاءته ومقدرة على القيام بمهام الامور. وقد استند في ذلك الى تأمير الرسول أبا بكر للصلاة وهو في مرضه الأخير مما عده المسلمون كافيا لاسناد الخلافة اليه. فلا عجب اذا صار ابن الزبير يتحين الفرص من ذلك الوقت للوصول الى الخلافة.

وكان عبد الله في خلال خلافة علي بن ابي طالب، يعمل على تحقيق أغراضه، فأوقع بين معاوية وبين عليّ الذي وقف على ماتنطوي عليه أغراضه، فخاطب أباه الزبير في شأن ابنه عبد الله وقال له: «لقد كنا نعدك من بني عبد المطلب حتى بلغ ابنك ابن السوء ففرق بيننا» كما عمل عبد الله بن الزبير على تقوية حزب الزبير وطلحة وعائشة طمعا في الخلافة. ولاغرو فقد كان يد هذا الحزب ولسانه الناطق، وكان لايألوا بهذا في جمع كلمته. ولاعجب فقد كان عبد الله ربيبا في بيت خالته عائشة أم المؤمنين التي كانت تسعى لتحويل الخلافة إليه ، وكانت تكنى بأم عبد الله ، حيث لم يكن لها ولد وقد قيل أن مروان بن الحكم لما سار الى طلحة والزبير وقال لهما : على ايكما اسلم بالآمرة ، وأوذن بالصلاة ، أرسلت إليه عائشة رسولا يقول له : «فليصل بالناس ابن اختى» تريد عبد الله بن الزبير .

كما قام عبد الله باقناع خالته عائشة عن العودة الى المدينة حين نبحتها كلاب الحوأب، وكيف الح على ابيه الزبير بالعدول عن رأيه حين هم بالانصراف والعودة الى المدينة، ورماه بالجبن حتى كفر عن يمينه وخاض غمار الحرب.(117) اذ يروى كل من اليعقوبي والطبري وابن الاثير ان على بن ابي طالب نادى الزبير وقال له : «أتذكر يوم مررت مع رسول الله (ص) في بنى غنم فنظر الى وضحك وضحكت اليه فقلت لايدع ابن أبي طالب زهوه فقال لك رسول الله (ص) صه أنه ليس به زهو ولتقاتلنه وأنت له ظالم. فقال اللهم نعم ولو ذكرت ماسرت مسيري هذا والله لأقاتلك أبدا... ورجع الزبير الى عائشة فقال لها ماكنت في موطن منذ عقلت الا وأنا اعرف فيه امري غير موطني هذا. قالت فما تريد ان تصنع. قال أريد أن ادعهم وأذهب. فقال له ابنه عبد الله، جمعت بين هذين الغاريين حتى اذا حدد

(117) انظر المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ج 2 ص 358 ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 3 ص 209 ، حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي ج 1 ص 409 . 410 ، الآلوسي : بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب 3 : 196 .

بعضهم لبعض اردت ان تتركهم وتذهب احسست رايات ابن ابي طالب وعلمت انها تحملها فتية انجاد. قال اني قد حلفت ألا أقاتله واحفظه ماقال له فقال كفر عن يمينك وقاتله».(118)

وبعد انتهاء الصراع بين علي ومعاوية لصالح الاخير نرى عبد الله بن الزبير جنديا من جنود معاوية مع الجيوش الاسلامية في محاربة الاعداء، فكان في الجيش الذي سار لغزو القسطنطينية سنة 50هـ/670م بقيادة يزيد بن معاوية. ولاريب ان معاوية كان يلمح في ابن الزبير ميله الى المعارضة، فكان يترضاه ويتودد اليه ويحسن وفادته ويغدق عليه الغطايا والمنح. وطالما كان يقول له : «مرحبا بابن عمة رسول الله وابن حواري رسول الله ويأمر له بمائة الف». وليس ذلك ببعيد على معاوية الذي عرف بالمكر والدهاء. ولذلك نرى ابن الزبير يكمن في داره طوال عهد معاوية تقريبا (119).

وماكاد يزيد بن معاوية يتولى الخلافة، حتى اتضح ان النزاع حول الخلافة انما هو مثلث الاركان فالامويون في ركن والعلويون في ركن آخر وأتباع عبد الله بن الزبير في ركن ثالث، وسرعان مانجد ان عبد الله بن الزبير يغري الحسين بالثورة والانتقال الى الكوفة حتى يخلو له الجو بمكة وأهلها، ونجح من التخلص من منافسه الاول وهو

---

(118) انظر الطبري : الامم والملوك ج 5 ص 200، تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 182، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج 3 ص 240. ويضيف المسعودي ان عبد الله بن الزبير قال لابيه : «ولكنك فررت من سيوف بني عبد المطلب، فانها طوال حداد، تحملها فتية انجاد... قال : لا والله .. ابالجبن تعيرني لا ابا لك ؟ ثم أمال سنانه وشد من الميمنة فقال على : افرجوا له فقد هاجوه، ثم رجع فشد في الميسرة، ثم رجع فشد في القلب، ثم عاد الى ابنه، فقال ايفعل هذا جبان ؟» انظر مروج الذهب ج 2 ص 363.

(119) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 3 ص 225 ، 244 ، 248، اسد الغابة ج 5 ص 143، 144، حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي ج 1 ص 410.

الحسين بعد مقتله بكربلاء، وأصبح ابن الزبير هو المنافس الوحيد ليزيد. (120)

أثبت ابن الزبير أنه أخطر كثيرا من الحسين وبعد أن تخلص من اعظم منافس له في اعين الناس وهو الحسين. استغل ابن الزبير مقتله للتشنيع على أهل الكوفة وعلى الامويين وللتعريض بيزيد ، وكان يبايع الناس سرا، فطالبه أصحابه أن يظهر البيعة خصوصا بعد مقتل الحسين وعدم وجود منازع، فلم يرض بذلك الا سرا، اما علانية فكان يدعى أنه عائذ بالبيت وفي نفس الوقت امتنع من مبايعة يزيد خليفة للمسلمين.

وهكذا خرج اقليم الحجاز عن سلطه الامويين، وماهي الا فترة حتى هُوجم الامويون المقيمون في المدينة. ويبلغ عددهم نحوا من ألف رجل. واضطروا الى أن يحتموا بزعيمهم مروان بن الحكم بن العاص الذي كان أميرا على الحجاز لفترة خلال خلافة معاوية بن ابي سفيان، فأرسل يزيد، جيشا مؤلفا من اثنى عشر الف من جند الشام بقيادة مسلم بن عقبة المرى لنجدتهم. وفي نفس الوقت الذي استسلم الامويون بالمدينة مقابل حرية الخروج الى الشام (121)، تقابلوا بجند الشام بوادي آم القرى وانضموا اليهم وعادوا مرة أخرى الى المدينة للقضاء على تمردها.

وفي 63هـ كان مسلم بجيشه أمام المدينة معسكرا في الحرة الى شمال شرقي المدينة، واعطى الثوار مهلة ثلاثة أيام وخاطبهم بقوله : « يـا أهـل المدينة .. يزيد

---

(120) بعد تولية يزيد، لعثمان بن محمد بن ابي سفيان واليا على المدينة وكان شاب ليس على شيء كبير من الدهاء، بدء عمله بأن اختار وفدا من رجال المدينة وارسلهم الى دمشق لمقابلة الخليفة. وكان يأمل والي المدينة ان يستطيع يزيد ضمهم الى جانبه بفضل الأموال التي يمنحها لهم فاكرم يزيد وفادتهم، واحسن اليهم واغدق عليهم العطايا، وظن انه بذلك يستميل قلوبهم وقلوب اهل المدينة، ولكن اعضاء هذا الوفد ما لبثوا بعد عودتهم الى المدينة ان اذاعوا بين الناس ما شاهدوه في دمشق من معيشة لا تتفق مع الدين وتقاليد الخلفاء الراشدين ، كما اشاعوا ان الخليفة يشرب الخمر ويخرج للعبيد ويجالس الشعراء المجان، فثار الناس بالمدينة وأعلنوا خلع الخليفة الاموي وبايعوا احد زعمائهم وهو عبد الله بن حنظلة الغسيل وهكذا اصبح المبايعون بالخلافة ثلاثة : يزيد بن معاوية في دمشق وعبد الله بن الزبير في مكة. وعبد الله بن حنظلة في المدينة. انظر الطبري : الامم والملوك ج 7 ص 4 ـ 6، ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 4 ص 102 ـ 103.
، محمد جمال الدين سرور : الحياة السياسية في الدولة العربية الاسلامية ص 110.

(121) ويروي الطبري بالاضافة الى ذلك شروط اشترطها أهل المدينة «لا تبغونا غائلة ولا تدلوا لنا على عورة ولا تظاهروا علينا عدوا »انظر الامم والملوك ج 7 ص 7.

ابن معاوية يزعم انكم الاصل، واني أكره هراقة دمائكم، واني اؤجلكم ثلاثا فمن ارعوى وراجع الحق، قبلنا منه، وانصرفت عنكم، وسرت الى هذا الملحد الذى بمكة. وان ابيتم كنا قد اعذرنا اليكم» (122).

ولكن أهل المدينة لم يبالوا، وعولوا على المقاومة دفاعا عن المدينة وحفروا لانفسهم الخندق، الذي كان النبي قد حفره حينما هاجمه الكفار وصمموا على قتال جيش مسلم، ان هو قصد مكة واراد القتال فيها واستحلال حرمتها واخافة أهلها واعتبروا الجيش الشامي «أعداء الله». ولكن أهل المدينة هزموا آخر الامر وقتل كثير من أشراف الانصار ومن قريش، منهم ابن حنظلة الذي بايعه أهل المدينة اميرا للمؤمنين (123) ومعه ثمانية من ابنائه. ويروي كل من الدينورى والطبرى ان السبب في هزيمة المدينة، هو خيانة بنى حارثة، لأنهم ادخلوا من ناحيتهم قسما من جند الشام الى المدينة، هاجم اهلها من ظهورهم. لم يكتف مسلم بما احرزه من نصر، بل دعا الناس في اليوم التالي الى البيعة، وارغم كبار أهل المدينة على مبايعة يزيد في قباء، وهدد كل من لم يجب دعوته بالقتل. (124)

ولما فرغ مسلم بن عقبة المرى من امر المدينة، أراد الخروج الى مكة لمحاربة عبد الله بن الزبير وكان محتميا بالكعبة في مكة وسمى نفسه العائذ بالبيت، غير ان مسلم بن عقبة مالبث ان توفى في الطريق وتولى مكانه الحصين بن نمير السكوني بناء على وصية الخليفة يزيد. وكان خوارج اليمامة قد بادروا قبل ذلك بقيادة نجدة بن عامر، للدفاع عن البيت الحرام أمام هجوم أهل الشام. وحاصر جند الشام مكة ونصب الحصين على جبل ابي قبيس المواجه للكعبة المجانيق، اما أصحاب ابن الزبير فتحصنوا في البيت الحرام.

---

(122) الطبري : الامم والملوك ج 7 ص 8، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 4 ص 114 ـ 115.

(123) ويذكر خليفة بن خياط ان ابن يقظان يروي ان اهل المدينة «دعوا الى الرضى والشورى وأمروا على قريش عبد الله بن مطيع العدوي، وعلى الانصار عبد الله بن حنظلة الغسيل وعلى قبائل المهاجرين معقل بن سنان الاشجعي، واخرجوا عثمان بن محمد بن ابي سفيان من المدينة ومن كان بها من بني امية» انظر تاريخ خليفة بن خياط ج 1 ص 289 ـ 290، المسعودي : التنبيه والاشراف ص 305 .

(124) الدينوري : الاخبار الطوال ص 264 ـ 265، الطبري : الامم والملوك ج 7 ص 11 ـ 13 فلهوزن : الدولة العربية ص 153 ـ 154 .

وبينما القتال دائر بين الفريقين في ربيع الاول سنة 64هـ/683م اشتعلت النار في الكعبة، فاحترقت وانصدع الركن الاسود واختلفت الروايات حول أسباب احتراق الكعبة، فالبعض يروي ان الكعبة احترقت بسبب رجل من أصحاب ابن الزبير أو هو نفسه، أخذ قبسا من رأس رمحه، فطيرت الريح به، فضرب استار الكعبة (125) والبعض الاخر يتهم أهل الشام بحرقها،اذ يروي، خليفة بن خياط ان رجلا من أهل الشام حرق باب بني جُمح «ففشا الحريق حتى أخذ في باب الكعبة فاحترقت» وبعد ذلك بأيام قليلة توفي يزيد بن معاوية.(126)

وعند ذلك شرع الحصين بن نمير في مفاوضة ابن الزبير بقوله: «ان الذي وجهنا لمحاربتك قد هلك، فهل لك في الموادعة وتفتح لنا الأبواب. فنطوف بالبيت ويختلط الناس بعضهم ببعض فأجابه ابن الزبير الى طلبه ووقفت الحرب بين الفريقين. وعرض الحصين أن يبايع ابن الزبير على الخلافة مقابل اهدار الدماء التي اريقت في المدينة ومكة وخروج ابن الزبير معه الى الشام لكن تبقى الشام مقر الخلافة ولكن ابن الزبير رفض وجهر بقوله: «دون ان اقتل بكل رجل من اهل الحجاز عشرة من أهل الشام» فقال الحصين: لقد كذب من زعم أنك من دهاة العرب، اكلمك سرا وتكلمني علانية، وأدعوك الى الخلافة وتدعوني الى الحرب».(127)

عاد الحصين وجيشه الى الشام، حيث بويع معاوية بن يزيد وله من العمر 21 سنة (128) خليفة في 64هـ/683م وسرعان ما مات بعد حكم قصير.ويروي انه تنازل عن الخلافة قبل موته ويرجح فلهوزن أن رواية تنازله ترجع الى محاولة تغطية ماوقع من أن فرع المروانيين قد أزال الفرع السفياني عن الخلافة ظلما وعدوانا وهذه المحاولة هي التي تفسر ان معاوية الثاني لايذكر في كتب التواريخ القديمة بين الخلفاء بل يذكر ان مروان جاء بعد يزيد مباشرة (129).

---

(125) الطبري : الامم والملوك ج 7 ص 14، الأزرقي : اخبار مكة ج 1 ص 135، 137.

(126) تاريخ خليفة بن خياط ج 1 ص 316، 318، الازرقي : اخبار مكة ج 1 ص 137، 138.

(127) الدينوري : الأخبار الطوال ص 268، الطبري : الامم والملوك ج 7 ص 15.

(128) يذكر ابن قتيبة ان معاوية بن يزيد تولى الخلافة وهو ابن سبع عشرة سنة، واربعين يوما انظر المعارف ص 154.

(129) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص 166.

وفي خلال خلافة كل من مروان وابنه عبد الملك، تركزت جهودهما في القضاء على ثورة ابن الزبير. اذ عادت الدولة الاسلامية الى ماكانت عليه بعد مقتل عثمان، ووقفت ولاية الشام وحدها أمام جميع الولايات الاسلامية الباقية، غير ان سيد الشام عند ذلك لم يكن واثقا من ولائها له ثقة معاوية من قبل. (130).

ولذلك نجد ان عبد الملك بن مروان لم يتمكن للخروج لمواجهة ثورة ابن الزبير الا في صيف عام 69 ـ 70هـ ومع ذلك فقد اضطر لترك قاعدته العسكرية في بطنان حبيب والعودة الى دمشق ليواجه ثورة قام بها احد اقربائه عمرو بن سعيد ابن العاص الاشدق من اجل تأكيد حقه في الخلافة الذي نصت عليه معاهدة الجابية بعد ان نقض مروان بن الحكم وعده بان عين ولديه عبد الملك وعبد العزيز خلفاء من بعده.

وبعد أن تخلص عبد الملك من ثورة قريبه عمرو بن سعيد بن العاص الاشدق وكذا من تمرد القبائل القيسية بزعامة زفر بن الحارث الكلابي في قر قيسياء في 71 ـ 72 هـ/69 م. خرج على رأس جيش كبير لاخضاع العراق ومواجهة جيش مصعب ابن الزبير المعسكر في باجميرا، حيث دارت المعركة بين الفريقان في موقع دير الجاثليق (131) بالقرب من باجميرا وانتصر عبد الملك في جمادى الأولى أو الثانية من عام 72 هـ/691 م.

وتعود هزيمة مصعب بن الزبير الى ان عبد الملك قبل المعركة، كتب الى رؤساء القبائل في جيش مصعب يمنيهم الولايات والاموال اذا ماتخلوا عن مصعب. اذ أن بعض المعارضين لابن الزبير بالكوفة سبق ان كتبوا الى عبد الملك، عارضين عليه تأييدهم مقابل تعيينهم كولاة للدولة. كما ان قتل مصعب لستة آلاف من أتباع المختار من أهل الكوفة جلب عليه سخط اقربائهم من أهل الكوفة. وتقسيم مصعب لجيشه الى قسمين الاول بقيادة المهلب بن ابي صفرة ومعه جند البصرة لمقاتلة الخوارج والثاني بقيادة مصعب ضد عبد الملك. وأخيرا عدم اهتمامه بتحذير

---

(130) ابن الاثير: الكامل في التاريخ ج 4 ص 323، فلهوزن، تاريخ الدولة العربية ص 180.

(131) تاريخ خليفة بن خياط ج 1 ص 336 ـ 337، 340، البلاذري: انساب الاشراف ج 4 ص 138 ـ 140، الطبري: الامم والملوك ج 7 ص 175 ـ 178، 181، ابن سعد: الطبقات الكبرى ج 5 ص 168 ـ 169. ابن الاثير: الكامل في التاريخ ج 4 ص 323، 324.

ابراهيم بن مالك بن الاشتر الذي سلمه رسالة عبد الملك قبل أن يفتحها وأخبره بأن جميع رؤساء القبائل الاخرين ربما استلموا رسائل مثلها وحذره منهم. (132).

ولذلك حينما بدأت المعركة، وقتل ابراهيم بن مالك بن الاشتر، نجد أن رؤساء قبائل الكوفة سرعان مارفضوا أوامر مصعب وتركوه يحارب وحيدا تقريبا حتى قتل وابنه عيسى بن مصعب ثم دخل عبد الملك الكوفة حيث بايعه اهلها وعين اخاه بشر بن مروان واليا عليها. ولما سمع أهل البصرة، الذي كانوا يقاتلون الخوارج بقتل مصعب، بايعوا عبد الملك، وبايع قائدهم المهلب بن ابي صفرة ولاسيما انه كان أزديا من اليمن، واليمينة كانت مع عبد الملك.

وقد كان سحق مصعب حافزا لعبد الملك على أن يوجه جهوده الاخيرة للقضاء على فتنة ابن الزبير في الحجاز، بعد ان كانت الخلافة الاموية منذ موت يزيد لاتستطيع ان تفعل ضده شيئا. ويبدو ان ابن الزبير حتى وقت تولية عبد الملك كانت له السيطرة في كل الحجاز، حتى انه لما أرسل مروان حملة لاسترداد المدينة باءت بالفشل سنة 65هـ/684م وتمكن جنود ابن الزبير من هزيمتها في موقعة الربذة بحيث هرب جند الامويين بما فيهم الحجاج، الذي ربما يكون يوسف أبوه قد قتل فيها. (133).

ولكن منذ ان تولى عبد الملك، وهو يرسل نحو الحجاز سراياه، لحماية بلاد الشام من أي هجوم انتقامى من قبل عبد الله بن الزبير، فقد ارسل جيشا من ستة آلاف رجل برئاسة عروة بن انيف وامره أن يعسكر في العرضة شمال المدينة، وقد بقي لمدة شهر رجع بعده الى الشام. ثم ارسل جيشا آخر من اربعة آلاف بقيادة عبد الواحد بن الحكم بن العاص، كما ارسل جيشا ثالثا برئاسة طارق بن عمرو وأمره

---

(132) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج 2 ص 23، البلاذري : انساب الاشراف ج 4 ص 157 ـ 158، ج 5 ص 262 ـ 263 ، 332 ـ 337 340، 344، ج 11 ص 1، 6 ، 11 ـ 14، 27 ، الدينوري : الأخبار الطوال ص 314 ـ 315، ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 4 ص 323 ـ 324 عبد الامير عبد حسين : الخلافة الاموية ص 208 ـ 210.

(133) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج 5 ص 169، تاريخ خليفة بن خياط ج 1 ص 340 ـ 341، ابن قتيبة : المعارف ص 156، الامامة السياسة ج 2 ص 23 ـ 24، ابن عبد ربه:العقد الفريد ج 4 ص 318، فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص 181، 193، عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ج 2 ص 128 ـ 129.

ان يعسكر بين ايله ووادى قرى ليمنع عمال عبد الله بن الزبير من الانتشار ويحفظ مابينه وبين الشام ويسد خللا ان ظهر له. وكثيرا ماحدثت اشتباكات بين جنود عبد الملك وانصار عبد الله بن الزبير ولكنها كانت محدودة الاثر. اذ تمكنت حملات عبد الملك بسهولة من الاستيلاء على الاجزاء الشمالية من شبه الجزيرة العربية وتغلبت على عمال ابن الزبير الذين فروا عند مجيئها، بحيث لم يبق لابن الزبير الا المدينة ومكة. (134)

فارسل عبد الملك، الحجاج بن يوسف الثقفى على رأس الفين من أهل الشام وقيل في ثلاثة الاف لاخضاع الحجاز والقضاء على ثورة ابن الزبير في مكة. وقد ظهرت مهارة الحجاج وأخلاصه في كل من قيادة مؤخرة جيش عبد الملك الذي ارسل لقتال مصعب بن الزبير حينما تفشى (135) فيه عدم الضبط والنظام والتمرد وكذا مفاوضته لزفر بن الحارث الكلابي الثائر ضد عبد الملك.ويبدو ان الحجاج كان متلهفا على قتال ابن الزبير- ربما للثأر لمقتل والده- حتى انه اقسم الا يقرب النساء والطيب، الا اذا قتل ابن الزبير.اذ يروي الفاكهى «ولم يطف الحجاج لحجته سنة 72هـ حتى دخلت عليه سنة 73هـ وابن زبير محصور ولم يطف الحجاج بالبيت ولم يقرب نساء ولاطيبا الى ان قتل ابن الزبير. ولكنه كان يلبس السلاح» (136).

زحف الحجاج الى مكة، ولم يعرض للمدينة لما كان يضمره اهلها من شعور عدائي نحو بني امية. واتخذ طريق الربذة حتى وصل الى بلدته الطائف حيث أخذ في ارسال بعض الغارات على جيوش عبد الله بن الزبير والتي كان فيها هو المنتصر دائما.

اذ يذكر البلاذري ان بعض حاشية عبد الملك بن مروان قالوا له: «ياأمير المؤمنين أوصى هذا الغلام (الحجاج) الثقفي بالكعبة ومره ان لاينفر أطيارها

---

(134) انظر البلاذري : انساب الاشراف جـ 5 ص 355 ـ 356 جـ 11 ص 34 ـ 36، عبد الأمير عبد حسين : الخلافة الاموية ص 212 ـ 213.

(135) ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ 5 ص 169، تاريخ خليفة بن خياط جـ 1 ص 340 ـ 341، البلاذري : انساب الاشراف جـ 5 ص 305 ، 346 ، ص 352 ـ 357، جـ 11 ص 17 ـ 18 ، 34، 39 ـ 40. ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ 4 ص 349.

(136) الفاكهي : كتاب المنتقى في اخبار ام القرى ص 25 ـ الجزء الثاني من اخبار مكة المشرفة . ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ 4 ص 350.

ولايهتك استارها ولايرمي احجارها وان يأخذ على ابن الزبير بشعابها وفجاجها وانفاقها حتى يموت فيها جوعا أو يخرج عنها مخلوعا» فقال عبد الملك للحجاج «افعل ذلك واجتنب الحرم وانزل الطائف» .(137)

وحينما وجد الحجاج أن هذه الغارات غير حاسمة، كتب الى عبد الملك يستأذنه في محاصرة ابن الزبير ودخول الحرم عليه ويطلب منه المدد واستجاب عبد الملك لطلبات الحجاج. كذلك وجه عبد العزيز أخو الخليفة وعامله على مصر حملة بحرية من قبله الى ساحل الحجاز. وفي نفس الوقت نجح طارق بن عمرو وجيشه في احتلال المدينة وطرد عامل ابن الزبير منها فأمره عبد الملك أن يلحق بمن معه من الجند بالحجاج.

بدأ حصار مكة ونصب الحجاج المنجنيق على جبل أبي قبيس ورميت مكة والكعبة بالمنجنيق وأمر ابن الزبير انصاره بالاستيلاء على هذا الجبل ولكن في كل مرة كانوا يهجمون عليه، يرميهم اصحاب الحجاج في الأبطح قبل أن يصلوا. وفي أثناء ذلك قام رعد وبرق وصواعق. وسقطت صاعقة على المنجنيق فأحرقته وقتلت بعض رجال الحجاج، فأعظم ذلك أهل الشام وأمسكوا، اعتقادا منهم ان ذلك شيء من الله بسبب مهاجمتهم الكعبة، ولكن الحجاج استطاع أن يذهب عنهم مااعتقدوه وعاد بمنجنيق آخر وأخذ في قذف مكة بالحجارة (138).

استمر حصار مكة لمدة ستة شهور، عانى ابن الزبير واتباعه كثيرا اذ منعت عنهم المواد الغذائية والتجهيزات وارتفعت نتيجة لذلك الاسعار في مكة ومما زاد في الوضع سوء هو بخل ابن الزبير وتقتيره. هذا في الوقت الذي كان فيه جيش الحجاج ترد اليه المواد الغذائية من الشام بصورة مستمرة مما ادى بكثير من أتباع عبد الله بن الزبير الى التخلي عنه والانضمام الى الحجاج خاصة بعد ان أمن الحجاج

---

(137) البلاذري :انساب الاشراف ج 5 ص 357 ـ 358، ج 11 ص 39 ـ 40، ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 4 ص 350.

(138) الطبري : الامم والملوك ج 7 ص 194 ـ 195، 202، ابن الاثير :الكامل في التاريخ ج 4 ص 351.

جميع من ينضم اليه من اتباع ابن الزبير وقد قيل بان عشرة الاف من اتباع عبد الله ابن الزبير من ضمنهم اثنان من أولاده تركوه وانضمو الى الحجاج. (139)

ولكن ابن الزبير وكان شيخا في الثالثة والسبعين من العمر، ادرك انه مقتول على كل حال، الا انه رفض ان يطلب الامان من الحجاج، دخل على امه اسماء بنت ابي بكر يودعها، وكانت عجوز عمياء، بلغت من السن مائة عام فقال لها : «يا أمه اني اخاف ان قتلني أهل الشام أن يمثلوا بي ويصلبوني» فقالت: يابني ان الشاة اذا ذبحت لم تالم بالسلخ» فقال «هذا رأيي» فودع امه وقبل رأسها، وخرج يقاتل وحده حتى قتل بالمسجد الحرام في جمادى الاخرة سنة 73 هـ/692م وعاد المسلمون جماعة واحدة وأصبح عبد الملك الخليفة الشرعي الوحيد للمسلمين ولهذا فقد اطلق على هذا العام «عام الجماعة». (140)

واختلف المؤرخون في تقييم ثورة عبد الله بن الزبير سواء حول الاسباب التي ادت الى نجاحها حتى استمرت لمدة تسعة سنوات وسيطرت على معظم الدولة الاسلامية وكذا حول الاسباب التي ادت الى نهايتها ومقتل زعيمها في النهاية.

اما الاسباب التي ادت الى نجاحها منها ان غالبية المهاجرين والانصار بالحجاز قد ايدت عبد الله بن الزبير، اذ راى اعضاء طبقة الاشراف وهم أبناء كبار الصحابة انهم اصحاب الحق في الخلافة وبالتالي فالتأييد الذي حصلوا عليه في الحجاز كان بهدف أن تستعيد المدينة العاصمة الاولى للدولة الاسلامية ماكان لها من سيادة ولذلك لم يؤيد الامويين الا أهل الشام دفاعا عن تصدر دمشق للمدن الاسلامية في خلال هذا الصراع ولذلك كان عبد الله بن الزبير في نظر البعض البطل الذي سيعيد سيادة الحجاز السياسية التي كانت قد زالت منذ مقتل الخليفة عثمان بن عفان. كما

---

(139) ابن قتيبة : المعارف ص 99، الامامة والسياسة جـ 2 ص 20، 23، البلاذري : انساب الأشراف جـ 5 ص 194 ـ 195، 360، 364، 376 ـ 377، جـ 11 ص 45 ـ 49 ، 51، 57، الدينوري : الأخبار الطوال ص 314، ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ 4 ص 352، فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص 194، عبدالأمير عبدحسين : الخلافة الاموية ص 213 ـ 214.

(140) ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ 5 ص 169، الفاكهي : كتاب المنتقى ص 23 ، ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ 1 ص 641، ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ 3 ص 16، ابن الأثير : اسد الغابة جـ 5 ص 298 ـ 293، الكامل في التاريخ جـ 4 ص 352، 353.

كان بالنسبة للبعض الاخر البؤرة التي تجمعت حولها احزاب المعارضة للحكم الاموي بعد مقتل الحسين بن علي وعدم وجود شخصية علوية من بعده تتطلع الى الخلافة ومنافسة الامويين. (141).

ولذلك استغل عبد الله بن الزبير مقتل الحسين واساءة الامويون معاملة اسرة الرسول لتدعيم نفسه وثورته، كما حاول تقليد عمر بن الخطاب في حملة الدرة كشعار له واستغلال قدسية مكة والكعبة كمركز لحركته ولذلك فقد اطلق على نفسه «العائذ بالبيت» بالاضافة الى قرابته من الرسول من جهة امه وأبيه. (142)

يضاف الى ذلك ان الاصلاحات المالية التي تمت في بداية الدولة الاموية جعلت كل اقليم من الاقاليم يساهم في نفقات الدولة وكذلك وضعت القاعدة التي تقرر ان العطاء يغطي مقابل الخدمة العسكرية للدولة، فجرد هذا الامر عددا كبيرا من أهل الحجاز من عطائهم باعتبارهم ورثاء لمستلمين العطاء الاولين، مما ادى الى كره الكثير منهم للامويين.

بالاضافة الى ان الامويين كانت لهم بالمدينة المقاطعات الكبيرة حتى انهم سيطروا على سوق الحنطة هناك مما جلب عليهم عداء الناس بسبب تذمرهم من غلاء الاسعار بالمدينة بالمقارنة مع اسعارها في الشام وسائر ا اجزاء الدولة الاسلامية .(143)

هذا بالنسبة للعوامل التي ادت الى تاييد أهل الحجاز لابن الزبير، اما عن الاسباب التي ادت الى فشل حركته، فأولى هذه الاسباب اتخاذ عبد الله بن الزبير من بلاد الحجاز مقرا وقاعدة لحركته، وكان الحجاز بعد أن هجرته العناصر المؤثرة من زعامات قبلية الى الشام والعراق مأوى للطبقة :الاستقراطية العربية التي مالت الى حياة اللهو والمجون لتدفق الثروة عليها، لذلك فثورة ابن الزبير ان وجدت التأييد القولي الشكلي فعند اللزوم لم تجد السيوف التي تحميها وتذب عنها.

---

(141) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص 161، عبد الأمير عبد حسين : الخلافة الاموية ص 215.

(142) انظر تاريخ خليفة بن خياط ج 1 ص 224، طبقات خليفة بن خياط ص 31، البلاذري : انساب الاشراف ج 4 ص 16 ــ 17، ج 5 ص 74، 189 ــ 190، الجاحظ : العثمانية ص 223، 224،

(143) البلاذري : فتوح البلدان ص 443 ــ 445، ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج 1 ص 169، تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 234، عبد الأمير عبد حسين : الخلافةالاموية ص 216.

وثان هذه الأسباب يتمثل في تمسك الزبير بالتواجد في مكة وترك امر دعوته بين أيدي اخوته ودعاته وانصاره مثل مصعب في العراق والضحاك ابن قيس وزفر بن الحارث في الشام. بينما كان يقتضي الواقع ان يخرج عبد اللهابن الزبير بنفسه على رأس اعوانه لتصفية السلطة الأموية بالشام. ولذلك نرى أن الأمر انتهى الى ان اصبح هو نفسه في اثناء الفتنة التي سميت باسمه في مكان ثانوي الى ابعد حد. وكان القتال من حيث الاسم (144) يدور حول شخصه ولكنه لم يشترك فيه. وتقررت نهاية القتال بدونه ايضا.

وكان لظهور الشيعة والخوارج وقيامهم في وجه ابن الزبير أثر كبير في هزيمة ثورته فقد توزعت قوته، فاشتغل فريق من رجاله المحنكين بقتال الخوارج وتعقب فريق اخر الشيعة، وحارب فريق ثالث بني أمية.ولو ان هذه الفرق تجمعت ضد بني أمية لما تمكن الامويون من القضاء على ثورته.

أضف الى ذلك ما اشتهر عن عبد الله بن الزبير من البخل،اذ يروي ان مصعب ابن الزبير لما قتل المختار بن ابي عبيد الثقفي، وقد على اخيه عبد الله ومعه وجوه اهل العراق، فقال: ياأمير المؤمنين: جئتك بوجوه أهل العراق لم أدع لهم بها نظيرا لتعطيهم من هذا المال، فقال له: جئتني بعبيد اهل العراق لاعطيهم من مال الله، والله لافعلت، أما خلفاء بني أمية فقد اجتذبوا الناس اليهم بالاموال الضخمة والعطايا وقد عرف فيه عبد الملك هذا البخل، وقال لمصعب عندما طلب منه أن ينضم اليه ويترك أخاه: «والله ان فيه ثلاث خصال لايسود بها أبدا. عجب قد ملأه، واستغناء برأيه، وبخل التزمه». (145)

وهكذا انتهت ثورة ابن الزبير الذي قال عن نفسه حينما خاطب امه اسماء مودعا «فان ابنك لم يتعمد اتيان منكر، ولاعمل بفاحشة، ولم يجر في حكم الله، ولم يغدر في أمان، ولم يتعمد ظلم مسلم ولامعاهد، ولم يبلغني ظلم عن عمالي فرضيت به، بل انكرته ولم يكن شيء آثر عندي من رضى ربي» (146) وقال عنه اعداؤه اذ

(144) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 4 ص 149، 266، 323، فلهوزن:تاريخ الدولة العربية ص 195.

(145) انظر ابن عبد ربه : العقد الفريد ج 1 ص 209، حسين ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي ج 1 ص 415 ـ 416.

(146) الطبري : الامم والملوك ج 7 ص 203

قال طارق بن عمرو احد رؤساء الجند المحاصرين لابن الزبير حينما قتل: «ماولدت النساء اذكر من هذا، فقال الحجاج: أتمدح مخالف أمير المؤمنين؟ قال: نعم هو أعذر لنا، ولولا هذا لما كان لنا عذر، انا محاصروه منذ سبعة أشهر وهو في غير جند ولاحصن ولامنعة فينتصف منا بل يفضل علينا».

اما منافسوه في السلطة فقد قالوا عنه بعد قتله: «رحمك الله أبا خُبَيْبْ! انك كنت لصواما قواما، ولقد افلحت قريش اذ كنت شرها» اما المحايدون فقد قالوا: «كان ابن الزبير اذا سجد وقعت العصافير على ظهره تظنه حائطا لسكونه وطول سجوده» (147).

رابعـا : سقوط الدولة العربية

على الرغم من النجاح الكبير الذي احرزته هذه الدولة في فتوحاتها وفي سياسة التعريب التي قامت بها، وفي نشرها للاسلام بين شعوب البلاد المفتوحة، ألا ان المعارضة كانت تحيط بها من كل جانب ولم تكن هذه المعارضة عنصرا واحدا أو حزبا واحدا، بل كانت عناصر واحزابا كثيرة (148).

يضاف الى ذلك أن نظام الوراثة الذي اقامه معاوية، لم يعد حلا لمسألة خلافة الرسول (ص) الشائكة، حتى ان افراد بيت بني امية انفسهم تكالبوا على منصب الخلافة في اخريات أيام الدولة العربية، دون احترام للمبدأ الوراثي، مما أدى بدولتهم الى السقوط. (149)

1 ـ الصراع بين الامويين حول السلطة :

خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك (125 ـ 126 هـ / 743 ـ 744 م).

من ملاحظة المصادر، نجد ان المؤرخين العرب اعجبوا اعجابا عظيما بهشام عبد الملك عاشر الخلفاء الامويين وهم بلا شك مصيبون، اذ يضعونه في مرتبة تلي

---

(147) ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ 4 ص 359 ـ 360.

(148) احمد مختار العبادي : في التاريخ العباسي والاندلسي ص 12.

(149) عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية جـ 2 ص 308

معاوية وعبد الملك ويعتبرونه ثالث الساسة الحقيقيين من بني أمية وخاتمتهم. اما الخلفاء الاربعة الذين تعاقبوا على الامر من بعده فهم اذا استثنينا مروان الثاني الذي انتهت به دولتهم ضعفاء، بعضهم قاصر والاخر خليع.

وبعد وفاة هشام بن عبد الملك في ربيع الاخر سنة 125هـ/فبراير 743م تولى الوليد بن يزيد بن عبد الملك (150)، اذ كان يزيد في وصيته التي عهد فيها بالخلافة الى أخيه هشام، قد عين ابنه الوليد وليا لعهد هشام. وكان الوليد ابن يزيد شبيها بأبيه يزيد، وكان حسن الصورة، قوي البنية الى درجة غير مألوفة. ونظرا لأنه كان يعلم من أول الامر انه وارث عرش الخلافة فكان مطمئنا على مستقبله ويقضي وقته في الصيد والشراب مع رفاق من أهل اللهو واللذات والمجون والفسق.. وادى سوء سلوك الامير الذي استعصى على الاصلاح الى خلعه عن ولاية العهد وتولية مسلمة ابن هشام بدلا منه. ولكن مسلمة هذا كان فتى هازلا ولذلك وجد هشام معارضة من جانب بعض أشراف الامويين وكبار العمال، كما لم يرض الوليد نفسه أن يتنازل عن ولاية العهد.(151)

ونتيجة لمضايقة هشام وحاشيته للوليد وكذا «قطع هشام عن الوليد ماكان يجري عليه».. «خرج الوليد ومعه ناس من خاصته ومواليه فنزل بالازرق عى ماء له بالاردن» وهو مكان منعزل في البريه الى الشرق من فلسطين وهناك مضى فيما كان عليه، بل ازداد تماديا الى ان توفي هشام (152).

وأولى أعمال الوليد بن يزيد، هو أنه امر ان تحصى أموال هشام وولده في الرصافة وبأن يؤخذ أبناؤه وعماله وحشمه، انتقاما مما فعله به هشام. وضرب سليمان ابن هشام مائة سوط ونفاه بعد ذلك الى عمان وحبسه بها، وحبس الافقم، يزيد ابن هشام وحبس عدة من ولد الوليد، كما عاقب ابراهيم ومحمد ابنى هشام بن اسماعيل المخزومى على مااقترفاه من التخلي عنه والانضمام الى من بايع مسلمة بن هشام وليا للعهد، لأن مسلمة كان ابن اخت لهما، فوجههما الى المدينة أولا، وكانا قد فعلا

---

(150) تاريخ خليفة بن خياط ج 2 ص 533، فليب حتى : تاريخ العرب ج 1 ص 349.

(151) انظر الطبري :الامم والملوك ج 8 ص 288 ـ 290، فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص 338.

(152) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 5 ص 265.

هناك مابغضهما الى الناس، فأقيما للناس، ثم امر بأن يبعث بهما الى يوسف ابن عمر والى الكوفة وامره ان يبسط عليهما العذاب حتى يتلفا.

كما انتقم من بنى القعقاع العبسيين الذين كانوا قد أيدوا هشاما فيما اراده من خلع الوليد من ولاية العهد وجعلها في ابنه، فعزلوا عن ولايتهم في قنسرين وحمص وأسلموا الى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري لينتقم منهم وهكذا اشتعلت العداوة مرة ثانية بين قبيلتي عبس وفزارة (153).

وفي نفس الوقت استطاع أن يحقق الامال التي عقدت عليه بفضل الاموال التي ادخرها له هشام، فزاد الناس جميعا في العطاء عشرة دراهم، وزاد لكل من أهل الشام خاصة عشرين درهما، ورد الاعطيات الى أهل المدينة ومكة، بعد ان كان هشام قد منعها عنهم عقابا لهم على ميلهم الى زيد بن علي، وزاد من وفد اليه من أهل بيته في جوائزهم الضعف وأجرى الارزاق على زَمْنَى اهل الشام وعميانهم. وكساهم. وأمر لكل منهم بخادم، وأخرج لعيالات الناس الطيب والكسوة وزادهم على ماكان يخرج لهم هشام (154).ويروي الطبري أن الوليد «كان وهو ولي عهد يطعم من وفد اليه من أهل الصائفة قافلا ويطعم من صدر عن الحج بمنزل يقال له زيزا ثلاثة أيام ويعلف دوابهم» (155).

ولكن سرعان مأثار الوليد غضب الخاصة والعامة عليه.اذ يروي المسعودي «وكان الوليد بن يزيد صاحب شراب ولهو وطرب وسماع للغناء، وهو أول من حمل المغنين من البلدان اليه، وجالس الملهين، وأظهر الشرب والملاهي والعزف (156) ورماه بنو هاشم وبنو الوليد بالكفر وغشيان امهات أولاد ابيه وقالوا: قد اتخذ مائة جامعة لبني أمية» (157) وأطلقوا عليه خليع بني مروان (158)،كما قبض على

---

(153) الطبري : الامم والملوك جـ 8 ص 292، 299، ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ 5 ص 268 ،، 267، 273، 274 .

(154) الطبري : الامم والملوك جـ 8 ص 293، ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ 5 ص 268.

(155) انظر الامم والملوك جـ 8 ص 293.

(156) انظر مروج الذهب جـ 3 ص 213.

(157) اي قد أعد مائة سلسلة من الحديد وكتب على كل واحدة منها اسم رجل من بني امية ليقتله بها. انظر ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ 5 ص 280.

(158) المسعودي : مروج الذهب جـ 3 ص 216.

خالد بن عبد الله القسري والى العراق السابق، اذ ارتاب في تآمره عليه بالرغم من ان خالد دافع عنه لدى هشام كما لم ينقلب عليه بعد خلافته وأمر بتعذيبه ثم اسلمه لعدوه يوسف بن عمر والى العراق الذي انزل به اقسى العذاب حتى مات في المحرم 126هـ/743م (159)، وكان مافعله الوليد بخالد بمثابة تخد لقبائل اليمن وكان معنى تسليط يوسف بن عمر على خالد القسري هو اغراء قبائل قيس بقبائل اليمن.

ولذلك يحدث في العراق والشام تذمر سياسي لاول مرة، ويألف هذا التذمر بين اليمن هنا وهناك وانضم الى المتذمرين أعمام الوليد من امراء بني امية وقد كانوا هم نصحاءه الطبيعيين، لكنه انسحب من زمرتهم ونأى بنفسه عن مشورتهم واشرافهم، وأصبح مسلكه مهددا باضاعة ميراث آبائه، الذي كان لهم هم أيضا الحق فيه.

يضاف الى ذلك عدم موافقتهم على عقدة البيعة من بعده لاثنين من ابنائه، من غير ان يدخل بينه وبينهما أحدا، لأنه كان قد لقي في صباه مالقى من دخول هشام بينه وبين أبيه، وذلك بالرغم من ان ولديه لم يكونا قد بلغا سن الرشد، وكانا فوق ذلك ابنين لام ولد كانت جارية عنده، فلم يكونا لهذين السببين وبحسب ماتقضى به العادة العربية والاسلامية أهلا لولاية الحكم. (160)

ثارت اليمانية برئاسة قضاعة حيث كانوا وقتئذ أكثر جند الشام وحرضوا ابن عمه يزيد بن الوليدين عبد الملك على البيعة لنفسه، فاستولى يزيد على دمشق وأرسل جيشا الى الوليد، الذي كان يقيم بقصر البخراء من تدمر في البادية هربا من الطاعون، وسرعان ماوجد الوليد ان انصاره تفرقوا عنه بعد أن شارك في القتال وكان أشجع من قاتل، رجع الى الحصن وحينما عاتب مهاجموه معددا افعاله اجابه احدهم

---

(159) اذ كانت ام الوليد هي أم الحجاج بنت محمد بن يوسف الثقفي، وهي بنت اخي الحجاج بن يوسف الثقفي ولذلك كان الخليفة الوليد بن يزيد هو ويوسف بن عمر وبقية آل الحجاج حزبا واحدا لا يفصل بينهم فاصل،انظر الدينوري : الأخبار الطوال ص 347 ـ 348 ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 5 ص 281، 289.

(160) الدينوري : الاخبار الطوال ص 347 ـ 348، تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 331، 333، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 5 ص 269، 276 ـ 279، فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص 344 ـ 345، 346.

بقوله: «انا مانتقم عليك في انفسنا، انما ننقم عليك في انتهاك ماحرم الله وشرب الخمر ونكاح امهات أولاد ابيك واستخفافك بأمر الله» (161) وأخاطوا به فأخذ الوليد «المصحف وقال: أقتل كما قتل ابن عمى عثمان» (162) فقتلوه في 126هـ/744م (163) وحملوا رأسه الى دمشق، وأخذوا ابنيه الصغيرين عثمان والحكم ولبي عهده وسجنوهما

خلافة يزيد وابراهيم ابنى الوليد بن عبد الملك (126هـ/744م).

بايع يزيد بن الوليد بن عبد الملك لنفسه بالخلافة في جمادى الآخر سنة 126هـ/744) (164) بدمشق وافتتح عهده الذي لم يستمر الا خمسة أشهر تقريبا، بتبرير ثورته ضد الوليد بقوله: «ايها الناس اني والله ماخرجت أشرا ولابطرا ولاحرصا على الدنيا، ولارغبة في الملك... ولكني خرجت غضبا لله ودينه وداعيا الى كتابه وسنة نبيه حين درست معالم الهدى، وطفيء نور اهل التقوى وظهر الجبار العنيد المستحل الحرمة والراكب البدعة والمغير السنة».

ثم تلى ذلك بترغيب العامة في بيعته ووعده لهم بالعدل والمال بقوله: «أيها الناس: ان لكم عندي ان وليت أموركم ألا أضع لبنة على لبنة ولا حجرا على حجر ولا أنقل مالا من بلد الى بلد، حتى اسد ثغره وأقسم بين مسالحة مايقوون به، فان فضل فضل رددته الى البلد الذي يليه وهو احوج اليه حتى تستقيم المعيشة بين المسلمين وتكونوا فيه سواء ولاأجمر بعوثكم فتفتتنوا ويفتتن أهاليكم، فان أردتم بيعتى على الذي بذلت لكم فأنا لكم به وان خلت فلا بيعه لي عليكم، وان رأيتم احدا هو أقوى عليها منى فأردتم بيعته فأنا أول من بايع ودخل فيطاعته» (165).

ويضيف الطبرى ان يزيد وعد الناس فقال: «وان لكم اعطياتكم عندي من كل سنة وأرزاقكم في كل شهر حتى تستدر المعيشة بين المسلمين، فيكون أقصاهم

---

(161) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ 5 ص 285 ـ 287.

(162) تاريخ خليفة بن خياط جـ 2 ص 550.

(163) ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ 5 ص 322 ـ 323.

(164) وكان يزيد بن الوليد اول من ولى هذا الأمر وامه ام ولد وكانت امه سارية بنت فيروز بن كسرى. انظر المسعودي: مروج الذهب جـ 3 ص 226.

(165) انظر تاريخ خليفة بن خياط جـ 2 ص 550 ـ 551.

كادناهم» (166) ولكنه لم يستطع الوفاء بوعده هذا ابدا. بل انه نقص الناس الزيادة التي كان الوليد بن يزيد قد زادهم اياها في أعطياتهم فسمي لذلك : يزيد الناقص.

وكان يزيد على خلاف الوليد ذا دين وورع، يظهر النسك ويتواضع فهو صاحب مذهب القدرية، أي الذي يقول بقدرة الانسان في عمله وانه خالق الافعال، وبالقدر شره وخيره، وهو نفسه مذهب المعتزلة حيث كانوا يلقبون أيضا بالقدرية، فدعا الناس الى القدر وحملهم عليه مع ان مثل هذه الاقوال حوربت في عهد هشام، واعتبر معتنقوها من المجوس، لنفى العمل الالهي أو ماعرف بالجبرية.(167)

قام بالامر من بعده ابراهيم بن الوليد، ولم تستمر خلافته أكثر من اربعة أشهر وقيل شهرين، ويروي العلاء بن برد بن سنان انه لما حضرت الوفاة يزيد ابن الوليد، قصد قطن فافتعل عهدا على لسان يزيد بن الوليد بتوليه ابراهيم ابن الوليد أخيه من بعده (168) بينما يذكر كل من الدينورى وابن خلكان ان يزيد فعلا ولي ابراهيم من بعده على أن يكون عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك وليا لعهده (169)، ويضيف ابن الاثير الى ذلك ان السبب في ذلك أن يزيد مرض، «ولم تزل القدرية بيزيد حتى أمر بالبيعة لهما» (170).

وما أن ظهر مروان بن محمد بن مروان بن الحكم وكان يومئذ شيخ بني امية وكبيرهم، مطالبا بثأر الوليد بن يزيد (171) حتى خلع ابراهيم نفسه، لذلك كان

---

(166) الطبري : الامم والملوك ج 9 احداث سنة 126 هـ.

(167) انظر المسعودي : مروج الذهب ج 3 ص 221، 226-ويروي المسعودي «وكان خروج يزيد ابن الوليد بدمشق مع شائعة من المعتزلة وغيرهم من أهل داريا والمزه من غوطة دمشق على الوليد ابن يزيد لما ظهر من فسقه وشمل. الناس من جوره» وهذا يعني ان طائفة المعتزلة شاركت في القضاء على خلافة الوليد مع القبائل اليمنية.. وأنظر عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ج 2 ص 312.

(168) تاريخ خليفة بن خياط ج 2 ص 569، 570، 573.

(169) الطبري : الامم والملوك ج 9 احداث سنة 127.

(170) المسعودي : التنبيه والاشراف ص 281 ـ 282

(171) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 5 ص 349

«يسلم عليه تاره بالخلافة وتارة بالامارة وتارة لايسلم عليه بواحدة منهما» (172) ويذكر المسعودي:«وكانت أيامه عجيبة الشأن من كثرة الهرج والاختلاط، واختلاف الكلمة، وسقوط الهيبة» وسرعان مادخل مروان دمشق حتى قبض على ابراهيم وولي عهده وقتلهما (193).

خلافة مروان بن محمد الجعدي (127ـ132هـ/744ـ750م) :

كان مصرع الوليد ايذانا بانقضاء الدولة الاموية، وكانت هذه الاسرة الحاكمة قد انتحرت عند ذلك انتحارا سياسيا. وكان عهد الايمان بحقها الشرعي في الملك وبقداسة خلافتها قد ولى، ذلك بأن دعوة الخوارج الثورية التي نجحت نجاحا كبيرا في الامصار مالبثت ان انتشرت في الشام، وكان ولاؤها قبل ذلك لهم، بلا خلاف.

اما رجال قبيلة كلب الذين كانوا حتى ذلك الحين اخلص أولياء الدولة،وكانوا هم الجيش الذي تعتمد عليه الدولة الاموية، فانهم أيضا خرجوا على الولاء لها وانزلقوا الى الثورة على الخليفة، فقامت أنواع مختلفة من التمرد والعصيان في كل مكان.

وفي هذه الاحوال ظهر مروان بن محمد الجعدي، أحد حفدة الخليفة مروان بن الحكم، وابن احدى الاماء الكرديات، وكان أبوه قد قاد الحملات ضد البيزنطيين فترة غير قصيرة من الزمان بوصفه أميرا على الجزيرة وارمينيه، وحارب مروان نفسه في ثغر القوقاز امام هجمات الترك دفاعا لايلين، كما قام بغزوات موفقة في ارض الترك، لمدة اثنتي عشرة سنة فأفاد من ذلك خبرة اعاد على أساسها تنظيم الحملات الحربية. اذ كان النظام القديم يعتمد على اعطاء الجند اعطياتهم من مال الجزية وعلى التنظيم القبلي للجيش ونظرا لطبيعة الغزوات الطويلة الشاقة البعيدة والحاجة الى النظام والانضباط وتنفيذ الاوامر بدلا من الاغراء المالي.

لذلك عمل مروان على انشاء جيش مكون من فرق بالمعنى الحقيقي تحمل الفرقة احيانا اسم قائدها وقد تطور مع هذا التشكيل، طريقة الحرب والخطط

---

(172) ابن الأثير الكامل في التاريخ ج 5 ص 311

(173) المسعودي : مروج الذهب ج 3 ص 220.

العسكرية.. وحل نظام الكراديس، اي الوحدات الصغيرة التي كانت اكثر تماسكا فيما بينها وكانت أسرع حركة، محل نظام الصفوف القديم التي كانت تجري امامها المبارزات الفردية التي تقرر في الاعم الاغلب نتيجة المعركة. وان كان من المحتمل ان بداية هذا التطور، يرجع الى ماقبل ذلك فان مروان هو الذي نفذه. (174)

ونتيجة هذه المكانة العالية رفض مروان مبايعة كل من يزيد وابراهيم ابني الوليد بن عبد الملك وزحف بجيوشه النظامية هذه المشكلة من قيس وربيعة الى الشام للثأر لمقتل الوليد واطلاق سراح ابنيه المسجونيين وارثي الوليد في الخلافة. وفي سهولة هزم جيش الخلافة بقيادة سليمان بن هشام الذي قتل ابني الوليد خلال انسحابه من دمشق. ودخل مروان بن محمد العاصمة حيث بويع بالخلافة في 127هـ/744م. وكان يلقب بالحمار لانه كان لايجف له لبد في محاربة الخارجين عليه، فكان يصل السير بالسير ويصبر على مكايد الحرب. ولقب الجعدي نسبة الى مؤدبة الجعد بن درهم من أصحاب المقالات في الاعتزال. (175).

لم يأمن مروان على نفسه الاقامة في دمشق لكثرة اليمانية بها فانتقل الى حران قصبة ديار مضر، حيث كان يستطيع ان يعزز مركزه لدى القبائل القيسية الموالية له. فأغضب ذلك قبيلة كلب في الشام وثارت على مروان.وبالرغم من تمكنه من القضاء على ثورتها. الا انه سرعان ما اندلعت الثورات في جميع اجزاء الولايات الاسلامية، ومنها الصراع بين القيسية واليمنية وثورات الخوارج والشيعة في أواخر العصر الاموي.

ففي الشام استغل سليمان بن هشام عفو مروان عنه، ولجأ الى الرصافة للراحة. فجاءته القبائل اليمنية والحت عليه في الخروج وأعلنته خليفة في 127هـ/744م. واجتمع الى سليمان نحو سبعين الفا من أهل الشام والذكوانية وغيرهم وعسكر بقرية حسان من أرض قنسرين.

---

(174) تاريخ خليفة بن خياط ص 507، 523 . ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 5 ص 177، 240، فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص 356، 357، 358، بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ص 162 ـ 163.

(175) انظر ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 5 ص 429.

اضطر مروان أن يوقف زحفه الى العراق، ليعود وينقض على سليمان وانصاره فيهزمه هزيمة ثقيلة فر على أثرها الى حمص أولا، ومن ثم الى حيث لجأ لمحالفة اعداء الدولة الاموية من خوارج وشيعة.

وبعد ان اخضع مروان بلاد الشام، تحول الى العراق حيث ان سلطة الامويين في شرق الامبراطورية الاسلامية قد زالت بالكلية. ففي الكوفة قامت ثورة الشيعة بزعامة عبد الله بن معاوية، حفيد جعفر أخى على. كما ان عبد الله بن عمر بن عبد العزيز رفض ان يبايع لمروان بالخلافة، فعين مروان، النضر بن سعيد الحرشي أميرا على العراق ووجهه لقتال عبد الله. ولقد استمر القتال بين الفريقين أربعة اشهر اضطرا بعدها الى ان يتحدا في وجه عدو لهما مشترك، وهو الخوارج الذين ظهروا في الجزيرة الشمالية بين قبائل ربيعة بزعامة الضحاك بن قيس الشيباني الذي بايعوه خليفة عليهم وتقدموا لحرب العاملين الامويين المتقاتلين على أبواب الكوفة (176)

2 ـ ثورات الخوارج الاخيرة :

. ثم اتخذت حركة الخوارج أسلوبا آخر يختلف تماما عمامضى، ولمابدأت الدولة الامويــة تتــداعــي، انقلبت تلك الحركة الى ثورة شاملــة.، ونظرة الى اعدادهم تكشف لنا الفارق بين مرحلتين واضحتين، الاولى تتميز بقلة الاعداد واتباع حروب العصابات والثانية، تتميز بازدياد الاعداد بما انضم الى الحركة من عامة الناس وشكل الخوارج كتائب كبيرة.

وأشد فتن هذا العهد هما الفتنتان اللتان قام باحداهما الضحاك بن قيس الشيباني في الجزيرة والعراق، وقام بالاخرى عبد الله بن يحى الملقب بطالب الحق، وأبو حمزة في جزيرة العرب. (177)

---

(176) انظر تاريخ خليفة بن خياط ج 2 ص 566، تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 338 ـ 339، وقد قتل سليمان بن هشام هذا بيد العباسيين في بداية دولتهم، انظر ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 5 ص 331، 332، 333، 429.

(177) انظر دائرة المعارف الاسلامية مادة خوارج ، فلهاوزن : الخوارج والشيعة ص 16.

ففي عهد سليمان بن عبد الملك (96 ـ 99هـ / 714 ـ 717م) كانت الخوارج ماتزال تلتزم جانب الحذر والسكينة، كما أن الخليفة سليمان كان يكتفي بحبسهم الا من تجاوز الحدود فكان يأمر بضرب عنقه. (178)

أما الخليفة عمر بن عبد العزيز (99ـ101هـ/717ـ719م) فقد كان رجلا فاضلا ورعا تقيا. ويروي ابن الاثير في احداث سنة 100 هـ:

«خرج شوذب، واسمه بسطام، من بنى يشكر، في جوخى، وكان في ثمانين رجلا، فكتب عمر بن عبد العزيز الى عبد الحميد عامله بالكوفة ان لايحركهم حتى يسفكوا دماء ويفسدوا في الارض، فان فعلوا وجه اليهم رجلا صليبا حازما في جند» وكتب عمر الى شوذب قائلا «بلغني انك خرجت غضبا لله ولرسوله ولست اولى بذلك مني، فهلم الى اناظرك، فان كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل الناس، وان كان في يدك نظرنا في امرك»وتمكن عمر عن طريق المحاورة تجميد حركة الخوارج في عهده الى وفاته (179).

وبعد تولية يزيد بن عبد الملك (101 ـ 105 هـ/719 ـ 723 م) هزم الخوارج، الحملات العسكرية التي ارسلت للقضاء عليهم عدة مرات وجرحوا القائد الاول وقتلوا القواد الثلاثة التاليين له (180) مما دفع يزيد الى تولية مسلمة ابن عبد الملك ـ ناب بني امية ـ أمور العراق، فأرسل سعيد بن عمرو الحرشى على رأس عشرة آلاف من أهل الشام «فحملوا عليهم فطحنوهم طحنا وقتلوا بسطاما (شوذب)» بعد أن كشف الخوارج سعيدا وأصحابه مرارا حتى خاف سعيد الفضيحة، فوبخ أصحابه وقال: «من هذه الشرذمة لاأب لكم تفرون ! يا أهل الشام يوما كأيامكم». (181)

---

(178) ابن الجوزي : سيرة عمر بن عبد العزيز ص 39، السيوطي : تاريخ الخلفاء ص 159.

(179) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 5 ص 45 وما بعدها.

(180) فقد جرح القائد الاول وهو ابن جرير وقتل القواد الثلاثة التاليين له وهم : تميم بن الحباب، ونجده بن الحكم الازدي، والسحاج ابن وداع.

(181) الطبري : الامم والملوك ج 8 ص 143.

وخلدت الخوارج مرة ثانية الى السكون طوال خلافة هشام بن عبد الملك (105 ـ 125هـ/723ـ 744م) ماعدا ثورة بهلول بن بشر الشيباني الملقب بكثارة في 119هـ/737م مع أصحابه الاربعين بنواحي الموصل.

وتميزت حركات الخوارج منذ عهد سليمان حتى نهاية خلافة هشام بانها كانت محدودة، وذات اثر محلي ضعيف، وليست بذي خطر شديد على الخلافة الاموية، اذ اعتمدت على اعداد قليلة لاتستطيع الصمود طويلا أمام جيوش الدولة النظامية، ولكن حين جاءت بداية النهاية، وأصبحت الخلافة الاموية على وشك التداعى من الداخل، حتى انتهزت الخوارج الفرصة، فاندلعت ثورتهم في الجزيرة والعراق (182) خصوصا بعد ان تولى رئاسة الثورة الضحاك بن قيس الشيباني الذي انضوى تحت لوائه عدة آلاف، وانضم اليه صُفرية شهرزور الذين حرصوا مع ذلك ان يكون لهم امامهم الخاص في الصلاة، ووجد في هذا الجيش كثير من النسوة اتخذت أسلحة الرجال وقاتلن قتالا مجيدا (183)، ويروي ابن الخياط من قتل في احدى معارك الخوارج من النساء «وقتل من الشراة نحو من ثمانمائة امرأة» (184).

وزحف الضحاك بن قيس الشيباني من شهر زور الى الكوفة على رأس اربعة الاف مقاتل، بعد ان استولى اتباعه على تكريت وحولايا (185) «وأقبل الضحاك فنزل بشاطيء الفرات، وضرب الناس معابر فعبروا..» .وبالرغم من وجود صراع بين عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والي العراق القديم ومؤيديه من القبائل اليمنية والنضر بن سعيد الحرشي والى مروان الجديد على العراق ومؤيديه من المضرية،

(182) بعد اغتيال الوليد الثاني ثار سعيد بن بحدل الشيباني في العراق وهو من النمر بن قاسط ويروى خليفة بن خياط انه كان ثائرا منذ شعبان 126 هـ باقليم الجزيرة ثم زحف الى المرج من كور الموصل في رمضان من نفس العام فلقي رجلا من حمير قد كان خرج في ناس كثير وسمي أمير المؤمنين، فتنازل هذا الرجل له لخروجه قبله واجتمع لسعيد نحو خمسمائة رجل حاصر بهم الموصل اياما فاعطوه الرضى فسار الى شهرازور، فلقي شيبان بن عبد العزيز اليشكري قد خرج ثائرا واتباعه فانضم شيبان اليه. وزحف سعيد بن بحدل الى الكوفة، لكنه مات بالطاعون اثناء الطريق. فخلفه الضحاك انظر تاريخ خليفة بن خياط ج 2 ص 563، 568.

(183) فلهوزن : الخوارج والشيعة ص 102.

(184) تاريخ خليفة بن خياط ج 2 ص 574.

(185) تكريت : بلد بين بغداد والموصل، حولايا قرية كانت بالنهروان خربت بخرابه. انظر مراصد الاطلاع.

ولكنهما اتفقا على الخوارج (186) فهوزموا في 127هـ/745م وأمر الضحاك أتباعه «الا تتبعوا موليا ولاتجرحوا احدا وقد اجلناكم يأهل الشام ثلاثا، فمن دخل فيما دخلنا فيه فله مالنا ومن أحب أن يتوجه حيث شاء من الارض فليتوجه آمنا».

استولى الضحاك على الكوفة، وبعد ان عين واليا عليها من قبله، أخذ في متابعة عبد الله بن عمر الذي تحصن بمدينة واسط الحصينة، وحصاره الخوارج لمدة ستة شهور، «حتى صالحه ابن عمر.. على ان يغطيه الرضى ويقره على عمله» ثم زحف الضحاك الى الموصل واستولى عليها وهكذا اتسعت رقعة المنطقة التي سيطر عليها الخوارج حتى اصبحت خيولهم تهدد ارض الجزيرة وبلغت مدينة الرقة.

ونتيجة لسياسة الضحاك المتسامحة بالنسبة لغيره من فئات الخوارج الازارقة يروي ابن الخياط «واجتمعت (اليه) ملوك أهل الشام ممن هرب من مروان من قريش وغيرهم» (187) فقال شاعر الخوارج:

الـم تـر أن اللـه أظـهـر ديـنــه   فصلت قريش خلف بكر بن وائل(188)

أما مروان فقد اخاطت به الاحداث من كل جانب، فأهل مصر كانوا قد خلعوه واضطر لاخضاعهم، وفي العراق انقسم عماله وحارب بعضهم بعضا، ثم خالفه أهل حمص وخلعوا طاعته (189) ورغم ذلك خرج مروان لملاقاة الضحاك بنواحي كفر توثا من أعمال ماردين من ارض الجزيرة (190) حيث دارت بينهما معركة كبيرة هزمت فيها الخوارج وقتل الضحاك في 128هـ/745م.ويروي خليفة ابن خياط انه في يوم المعركة « وهاجـت يومئذ ضبابة فما كان الرجل يبصر عـرف فرسه ولاسوطه» (191)·وقد يفسر ذلك لنا احد عوامل هزيمة الضحاك بالرغم من كثرة انصاره البالغ عددهم مايزيد على مائة الف·(192)

---

(186) ابن الاثير: الكامل في التاريخ ج 5 ص 335.

(187) تاريخ خليفة بن خياط ج 2 ص 569، 570، 573.

(188) الطبري: الامم والملوك ج 9 احداث سنة 127.

(189) المسعودي التنبيه والاشراف ص 281 ـ 282.

(190) ابن الاثير: الكامل في التاريخ ج 5 ص 349.

(191) تاريخ خليفة بن خياط ج 2 ص 574، الطبري: الامم والملوك ج 9 ص . ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج 5 ص 349 وفي قول اخر ان الموقعة جرت سنة 129 هـ . انظر المسعودي التنبيه والاشراف ص 282.

تولى الخيبري الشيباني قيادة من بقي من الخوارج ودعا في شرائة : من اراد الجنة والموت فلينتدب معي، فانتدب معه ثلاث مائة وخمسون فارسا فحملوا على مروان في القلب فانكشف واعرى القلب... ومضى فل مروان في كل وجه... وجاء الخيبري فدخل عسكر مروان فقطع اطناب رواقه وقعد على سريره وتفرق أصحابه حول الحجرة في النهب والقتل».

وثار احد موالي بني مروان لهذه الهزيمة وهو سليمان بن مسروح من البربر فنادى في العبيد من اتبعني فهو حر، فاجتمع اليه من العبيد وغيرهم نحو من ثلاثة آلاف رجل أو أربعة آلاف وهاجم الخيبري وانصاره، فقتلوا جميعا.(193)

كان لايزال مع الخوارج اربعة آلاف مقاتل، فولوا عليهم شيبان بن عبد العزيز اليشكري.وبناء على نصيحة سليمان بن هشام الذي كان قد اصهر الى شيبان وتزوج اخته عاد بهم شيبان الى الشاطيء الشرقي من نهر دجلة في مواجهة الموصل، وكانت المدينة في حوزتهم ويصلهم بها جسر من السفن. فعسكر مروان في مواجهتهم على الشاطيء الايمن، وقضى شهورا طوالا في سنة 129هـ مقاتلا لهم دون أن يصل الى نتيجة حاسمة (194).ويعلق خليفة بن خياط على ذلك بقوله: «وأتاه مروان فقاتلهم عشرة أشهر كل يوم راية مروان مهزومة».(195)

ولذلك أرسل مروان قائده يزيد بن عمر بن هبيرة على رأس جيش من أهل الشام وأهل الجزيرة للقضاء على خوارج العراق وتمكن ابن هبيرة من الاستيلاء على الكوفة والبصرة وواسط وهكذا تم اخضاع العراق لمروان، وتمكن ابن هبيرة مئذارسال عامر بن ضُبارة المرى احد قواده على رأس قوة كبيرة لمساعدة مروان في القضاء على

---

(192) ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ 5 ص 349، حتى ليقال ان جيشه بلغ 120 الف مقاتل لانه كان يدفع عطاء كبيرا جدا للجند . كما انضم اليه ابن الخليفة المتوفى هشام. وهو سليمان بن هشام القائد المغامر وكان معه جيش من اربعة الاف وبالرغم من المبالغة في انصاره الضحاك، الا أن ثيوفانس يذكر ان الضحاك كان «معه قوة عظيمة جدا. انظر فلهوزن : الخوارج والشيعة ص 103.

(193) تاريخ خليفة بن خياط جـ 2 ص 574، 575.

(193) تاريخ خليفة بن خياط جـ 2 ص 574، 575.

(194) ابن كثير : البداية والنهاية جـ 10 ص 29. الطبري : الامم والملوك جـ 9 احداث سنة 129 هـ. فلهوزن : الخوارج والشيعة ص 104.

(195) تاريخ خليفة بن خياط جـ 2 ص 575.

خوارج الجزيرة، ولما لم يستطع الخوارج ان يقفوا أو يهزموا هذا المدد من الجند تخلوا عن مراكزهم في الموصل حتى لايقعوا بين نارين ومضوا الى الاهواز وفارس، بيد ان اعدائهم طاردوهم الى هناك، فتفرقوا، فمضى سليمان بن هشام ومن معه، فعبر البحر الى السند، وأما شيبان فمضى الى الساحل الشرقي لبلاد العرب، وقتل اثناء قتاله مع أمير عمان من بنى جلندي وهم اسرة جاهلية قديمة وكان ذلك في سنة 134هـ (196).

وفي نفس الوقت الذي كان مروان آخر الخلفاء الامويين مشغولا فيه بالقضاء على ثورة خوارج الجزيرة والعراق، اندلعت ثورة اخرى في شبه الجزيرة العربية وبالرغم ان هذه الثورة كانت اقل أهمية من الناحية السياسية وآخر حركات الخوارج في العصر الاموي، ألا أنها تميزت بسيطرة الخوارج الاباضية على معظم شبه الجزيرة العربية بصفة عامة وعلى كل من مدينتي مكة والمدينة عاصمة الاسلام الاولى.

وتزعم هذه الحركة ابو حمزة الخارجي وهو المختار بن عوف الازدي السلمى البصري احد دعاة الخوارج الاباضية. كان يستغل موسم الحج السنوي ليدعو الناس الى الثورة على الدولة الاموية. فلم يزل كذلك حتى قابل عبد الله بن يحي الكندي من بني شيطان في حضرموت (197) واتفقا معا على الثورة وانضم اليهما بعض خوارج البصرة من بينهم بلج بن عقبة بن الهيصم الاسدي. وفي بداية 129هـ بويع عبد الله بن يحي، خليفة على رأس الثوار ولقب بطالب الحق، بينما لقبه خصومه بالاعور ولعل ذلك لان هذه علامة الدجال وهم كانوا ينظرون اليه على انه كذلك.

استولى عبد الله بن يحي «طالب الحق» على حضرموت وطرد عاملها للدولة الاموية «فاجتمعت الاباضية اليه فبايعوه وعامة أصحابه اهل البصرة» ثم زحف على

---

(196) ابن كثير: البداية والنهاية ج10 ص 29، الطبري: الامم والملوك ج9 احداث سنة 130 هـ ابن الاثير: الكامل في التاريخ ج 5 ص 354، 355، 451 ـ 452. وهناك روايات تذكر ان شيبان بعد هزيمته في ارض كرمان هرب الى سجستان فهلك بها في 130 هـ. ويروي ابن كثير ان ابا مسلم الخراساني ارسل الى شيبان يدعوه الى البيعة له، فرد عليه شيبان بدعوته الى بيعته، فبعث له ابو مسلم من قتله في سرخس. انظر نايف معروف: الخوارج في العصر الاموي، ص 180.

(197) الاصفهاني: الاغاني ج20 ص 97، 108، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج 5 ص 351.

رأس الفي رجل من أتباعه الى اليمن واستولى على صنعاء بعد ان تمكن من هزيمة واليها القاسم بن عمر وهو في نحو ثلاثين الفا. ودخل عبد الله صنعاء«فاخذ الخزائن والاموال فقوى بها» (198) واقام حكمه هناك وابقي على الموظفين. السابقين، وأظهر لين الجانب فاستطاع ان يمتلك قلوب اهل اليمن. وأكد انه لااختلاف بين مذهب الخوارج ومذهب أهل السنة والجماعة في الجوهر، واشتد على مرتكبي الذنوب التي نص عليها القرآن (199).

وفي نهاية سنة 129هـ/ بعث عبد الله جيشا برئاسة صديقه ابي حمزة يتألف من ألف رجل تقريبا حسب رواية الاصفهاني ومن عشرة آلاف كما يروي خليفة ابن خياط للاستيلاء على مكة «فلم يشعر الناس وهم بعرفات حتى اطلعت عليهم الخيل من الجبل من طريق الطائف، فاجتمع الناس الى عبد الواحد بن سليمان ابن عبد الملك بن مروان وهو والى مكة والمدينة، فكره عبد الواحد قتالهم، فمشى عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن ابي طالب بينهم حتى اخذ عليهم ولهم الا يحدثوا حدثا حتى ينقضي امرا الموسم (الحج) ففعلوا» وانسحب عبد الواحد بن سليمان بعد موسم الحج الى المدينة وكتب الى مروان يخبره بخذلان أهل مكة له (200)،

وفي بداية سنة 130 هـ زحف ابو حمزة بأنصاره الى المدينة، بعد ان استخلف على مكة، ابراهيم بن الصباح الحميري واليا عليها، فالتقوا بجيش أهل المدينة المكون من ثمانية آلاف رجل برئاسة عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن عثمان الاموي بقديد يوم الخميس 9 صفر 130 هـ/747م حيث هزم جيش المدينة هزيمة منكرة وذلك بسبب طبيعة تشكيل هذا الجيش،اذ كان افراده كالدهماء ليس عليهم سيماء المقاتلين الحقيقيين، وكان فيهم كثير من بني قريش، يلبسون فاخر الثياب وقد ظنوا ان الامر لايعدو ان يكون مجرد نزهة حربية، خصوصا الامويون وكان لايزال بالمدينة عدد كبير منهم وكانوا متكبرين متعجرفين في حديثهم عن هذه الخشارة من الرعاع، فهكذا كانوا يتصورون الخوارج. (201)

---

(198) تاريخ ابن خياط جـ 2 ص 582، 583

(199) الاصفهاني : الاغاني جـ 20 ص 97 ـ 99، 112، فلهوزن : الخوارج والشيعة ص 106 ـ 107.

(200) تاريخ خليفة بن خياط جـ 2 ص 583، 592

(201) الطبري : الامم والملوك جـ 9 احداث سنة 130هـ ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ 5 ص 388 ـ 389، الاصفهاني : الاغاني جـ 20 ص 101، فلهوزن : الخوارج والشيعة ص 107 .

ولم يبدأ ابو حمزة القتال الا بعد أن هاجمه جيش اهل المدينة وجرحوا احد رجاله. فهاجمهم واضطرهم الى الفرار. ويروي خليفة بن خياط ان أحد قواد الخوارج خاطب أهل المدينة بقوله: «خلوا طريقنا فإتى هؤلاء الذين بغوا علينا وجاروا في الحكم ولاتجعلوا حدنا بكم فانا لانريد قتالكم فأبوا وقاتلهم فانهزم أهل المدينة وجاءهم أبو حمزة، فقال له علي بن الحصين بن الحر: اتبع هؤلاء القوم وأجهز على جريحهم فان لكل زمان حكما، والاثخان في هؤلاء امثل قال (أبو حمزة) ماأرى ذلك ومأأرى ان اخالف سيره من مضى قبلي» (202).

وبلغ عدد القتلى كما يروي ابن الاثير سبعمائة منهم ثلاثمائة رجل من قريش «فكانت المراة تقيم النوائح على حميمها ومعها النساء، فما تبرح النساء حتى تاتيهن الاخبار عن رجالهن فيخرجن امرأة امرأة كل واحدة منهن تذهب لقتل رجلها فلا تبقى عندها امرأة لكثرة من قتل» (203)، ويروى «ماسمع الناس بواكي اوجع للقلوب من بواكي قديد. مابقي بالمدينة أهل بيت الا وفيهم بكى. قالت نائحة تبكيهم:

ما للزمــــان ومـــالــيـــه	افنى قـــديـــد رجــالــيـــه
فلأبكـــيـــن ســـريـــرة	ولأبكين علانـــيـــة (204)

دخل ابو حمزة المدينة وظل بها قرابة ثلاثة شهور، وقام مروان بتجهيز حملة من أهل الشام مكونة من أربعة آلاف فارس من أهل الديوان معظمهم من القيسية برئاسة عبد الملك بن عطية من بني سعد هوازن، جهز كل منهم بفرس عربية وبغل لحمل الامتعة ومائة دينار ذهبي. والتقوا بالخوارج في وادي القرى، فهزم الخوارج وقتل معظمهم في 130هـ/748 ونجا ابو حمزة ومعه ثلاثون رجلا وهرب الى مكة واتبعه ابن عطية بأهل الشام وانتصر عليه مرة اخرى . وبعد أن قام مدة في الطائف زحف ابن عطية الى اليمن حيث خليفة الخوارج «طالب الحق» فهزمه وقتله واستولى

(202) تاريخ خليفة بن خياط ج 2 ص 592 ـ 593

(203) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 5 ص 389، تاريخ خليفة ابن خياط ج 2 ص 593.

(204) تاريخ خليفة بن خياط ج 2 ص 595.

على عاصمته صنعاء ثم استولى كذلك على حضرموت وهكذا قضى على آخر حركات الخوارج في العصر الاموي (205).

3 ـ حركات الشيعة في أواخر العصر الاموي :

ففي نهاية خلافة هشام (105 ـ 125هـ/724 ـ 743م) اختلف الحسنيون مع الحسينيين حول بعض الاوقاف التي حبسها الخليفة على بن ابي طالب أو الرسول (ص) على ذريته، فاحتكم زيد بن علي زين العابدين (206) وهو زعيم الحسينيين الى الخليفة هشام.

وكان يوسف بن عمر، والى الكوفة، قد ارغم يزيد بن خالد القيسري ـ ابن والي الكوفة السابق ـ بالاعتراف بأنه يدين زيد بن على بمبلغ كبير من المال (207)، فسأل هشام زيدا وصحبه عن هذه المسألة. فانكروا هذه الواقعة.-فرأى هشام ضرورة مواجهتهم بيزيد المحبوس بالكوفة. وعند المواجهة انكر يزيد الاعتراف وعادوا الى المدينة (208).

ماعدا زيد بن علي فقد ظل في الكوفة حيث اخذت «الشيعة تختلف الى زيد. بن علي وتامره بالخروج ويقولون انا لنرجو أن تكون المنصور وان يكون هذا الزمان الذي يهلك فيه بنو امية» وان سيطرة الامويين على الكوفة لاتستند الا الى عدد

---

(205) ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ 5 ص 391، 392 ويروي خليفة بن خياط ان ابن عطية اتاه كتاب مروان يأمره بالصلاة بالموسم ..... فانطلق ابن عطية في خمسة عشر رجلا من وجوه اصحابه مبادرا... فنزل واديا من اودية مراد بقرية يقال لها شبام فشدوا عليه فقتلوه وأصحابه. انظر تاريخ خليفة بن خياط جـ 2 ص 597.

(206) اذ كان كثيرالعبادة، يغشى عليه من اجتهاده فيها.انظر الاصفهاني : مقاتل الطالبين ص 93 (النجف 1353 هـ).

(207) ويروي الهيثم بن عدى ان زيدا وبعض صحبه وفدوا على خالد بن عبد الله القسري بالعراق فاجازهم ورجعوا الى المدينة وقيل ان خالد ابتاع من زيد ارضا بالمدينة بعشرة آلاف دينار ثم رد الأرض عليه، وبعد تولية يوسف بن عمر، كتب الى هشام بذلك، فكتب هشام الى عامل المدينة ان يسيرهم اليه ففعل. انظر ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ 5 ص 229.

(208) البلاذري : انساب الاشراف جـ 3 ص 230 ـ 231، 235، الطبري : الامم والملوك جـ 8 ص 260 ـ 262.

قليل من جنود الشام لايستطيعون التغلب على المائة الف جندي من جنود الكوفة، بل ولا على بني مذحج أو بكر أو تميم وحدهم. (209)

استجاب زيد بن علي لشيعة اهل الكوفة رغم نصائح اقربائه، الذين أوضحوا له ان «أهل الكوفة نفخ العلانية خور السريرة هرج في الرخاء جزع في اللقاء، تقدمهم السنتهم ولاتشايعهم قلوبهم.. ومالهم مثل الا ماقال على بن ابي طالب: ان أهملتم خضتم، وان حوربتم (210) خرتم، وان اجتمع الناس على امام طعنتم، وان أجبتم الى مشاقة نكصتم» ولكنه اجاب قد بايعوني ووجبت البيعة في عنقي وأعناقهم وحاول أن يأمن نفسه من ناحية ويدعم ثورته من ناحية أخرى، فكان يغير مركز اقامته في الكوفة باستمرار اذ يروى الطبري انه كان «ينزل بالكوفة منازل شتى في دار امرأته في الازد مرة ومرة في اصهاره السلميين ومرة عند نصربن خزيمة في بني عبس ومرة في بني غُبّر» الخ.. كما ارتبط برباط المصاهرة بكل من ابنه يعقوب ابن عبد الله السلمي أحد بني فرقد وابنه عبد الله بن أبي العَنْبَس الازدى لتدعيم علاقته بالقبائل العربية بالكوفة.(211)

ازداد انصار زيد بن علي حتى بلغ عدد جنده خمسة عشر الفا من أهل الكوفة بخلاف من بايعه من أهل المدائن والبصرة وواسط والموصل وخراسان والرى وجرجان والجزيرة. ويروي البلاذرى انه كان اذا بويع قال: «ادعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه، وجهاد الظالمين، والدفع عن المستضعفين واعطاء المحرومين، وقسم هذا الفيء على اهله ورد المظالم وافضال المحمرة (احقاق مسلمي العجم) ونصرنا اهل البيت على من نصب لنا الحرب» وقد فسر فلهوزن فقرة «أفضال المحمرة» بأنها تعني اعادة من ارسلوا للقتال في اماكن نائية اعتمادا على نص الطبري اما النص الذي ورد بانساب الاشراف فيعلق المحقق عليها ص 238 تعليق (1) « فان صحت فالمراد منه انفاق حقوق مسلمي العجم الذين كانوا بالكوفة والعراق فانهم كانوا محرومين من كثير من

---

(209) الطبري: الامم والملوك جـ 263 ـ 264.

(210) البلاذري: انساب الاشراف جـ 3 ص 240 ـ 241، ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ 5 ص 235.

(211) الطبري: الامم والملوك جـ 8 ص 267، ابن الأثير: الكامل في التاريخ جـ 5 ص 235.

الحقوق العامة الاسلامية». وهذا التفسير هو الأرجح، خصوصا اذا حاول زيد بن علي الحصول على تاييد جميع طوائف الكوفة (212).

ولكن رأى بعض غلاة الشيعة ان زيدا لم يكن متمسكا بحقوق آل البيت كما يجب بسبب اعترافه بشرعية خلافة كل من ابي بكر وعمر بن الخطاب لذلك انفصلوا عنه وسموا باسم «الرافضة». ويذكر البلاذري والطبري انه «لما رأى أصحاب زيد المبايعون، ان يوسف بن عمر (والي الكوفة)، قد علم بأمر زيد... اجتمع الى زيد جماعة منهم من الرؤساء فقالوا: يرحمك الله ماقولك في أبي بكر وعمر؟ فقال: كنا أحق... فاستأثرا علينا، وقد وليا علينا والناس فلم يألوا عن العمل بالكتاب والسنة، ففارقوه ورفضوا بيعته» فسماهم زيد الرافضة وكان يقول: رفضتني الرافضة كما رفضت الخوارج عليا.

ومن النصوص السابقة يتضح أن الاختلاف حول شرعية خلافة ابي بكر وعمر كانت الحجة التي استغلها بعض الشيعة للانفصال عن حركة زيد بن على خوفا من تبعيات تاييد هذه الحركة ويرجح هذا الاحتمال ان الرافضة بايعوا أخا زيد وهو محمد بن علي. ثم ابنه جعفر من بعده على انهما الامامان الحقيقيان بالرغم من عدم موافقتهما على ذلك وتفضيلهما مبايعة زيد ومناصرته (213).

اتفق زيد وانصاره على الثورة في يوم الاربعاء أول صفر 122هـ/ 740م ولكن يوسف بن عمر والي الكوفة والذي كان يقيم في الحيرة مع جنده من أهل الشام تمكن من الحصول على معلومات دقيقة عن تحركات زيد ودعوته وانصاره فاتخذ عدة اجراءات (214) وقائية منها:

قام بالسيطرة على مدينة واسط «فحصنها وتوثق من ابوابها.. وشحن واسطا بالخيول» «وكذلك صنع مع أهل المدائن». كما امر خليفته على الكوفة الحكم ابن الصلت «ان يجمع وجوه اهل الكوفة في المسجد الاعظم ثم يحصرهم فيه، فبعث الحكم الى العرفاء والشرط والمناكب ووجوه المقاتلة، فأدخلهم المسجد ثم نادى

---

(212) البلاذري : انساب الاشراف ج 3 ص 237، 238 وقارن الطبري : الامم والملوك ج 8 ص 267. وفلهوزن : الخوارج والشيعة ص 179.

(213) البلاذري : انساب الاشراف ج 3 ص 240، الطبري : الامم والملوك ج 8 ص 272.

(214) الطبري : الامم والملوك ج 8 ص 272

مناديه: "ايما رجل من وجوه العرب والموالي ادركناه في رحلة الليلة فبرئت منه الذمة! ائتوا المسجد الاعظم، فاتوا المسجد». وقام الجنود الشاميين بحراستهم .

اضطر زيد لتقديم ميعاد الثورة أسبوعا في ليلة الاربعاء لسبع ليالي بقين من المحرم 122هـ وأمر باشعال النيران في الحرادى (الحارات)، كاعلان لبداية الثورة وتجمع الشيعة ولكن نظرا للبرودةالقارسة وتخاذل الانصار لم يلب نداء زيد الا 218 كروايةابي مخنف أو 400 كرواية البلاذري. (215)

حاول زيد ومن تجمع حوله اطلاق سراح انصاره المحبوسين بالمسجد فلم يحركوا ساكنا، ويبدو أنهم كانوا راضين بهذه الحماية الاجبارية التي كانت خير مبرز لتخاذلهم، واضطر زيد الى الانسحاب من المسجد، لأن الفين من جنود الشام قد تحركوا من الحيرة متجهين اليه، فهزمهم الى ان جاءتهم النجدة في المساء بثلثمائة من القواسين القيقانيه والبخارية فأوقع هؤلاء بحشود الشيعة خسائر بالغة، فلما كان الليل انسحب اهل الكوفة الى المدينة وتفرقوا في دورهم (216) ودعا زيد الناس، وناشدهم فلم يجبه الا القليل فقال: أراها والله حسينية، اي سيخذلونه كما فعلوا بالحسين جده. فعرضت نساء الكوفة ان يخرجن ويقاتلن مع زيد فقال: فوالله ماترجا رجالكم فكيف النساء؟.

وحارب زيد حتى اصيب بسهم في جبهته،ولما نزع منه السهم مات ودفن في قاع قناة حبس عنها الماء ثم اطلق ثانية ولكن المكان اكتشف فيما بعد، وانتزعت الجثة، ثم اخذت الى الكوفة وصلبت وبقيت مصلوبة هناك الى موت هشام، اما الرأس فقد ارسل الى دمشق، ثم الى المدينة (217)

لم يكتف يوسف بن عمر والى الكوفة مناهانة اهلها وسبهم وقتل من شارك في الثورة من رجالهم وخطبهم قائلا: ياأهل الكوفة ابشروا «بالصغاروالهوان، لاعطاء لكم.. فانكم أهل بغى وخلاف.. ولقد سألت أمير المؤمنين ان يأذن لي فيكم ولو أذن لقتلت

---

(215) البلاذري : انساب الاشراف جـ 3 ص 239 ـ 240، 243، الطبري : الامم والملوك جـ 8 ص 272، 273.

(216) الطبري : الامم والملوك جـ 8 ص 273 ـ 275.

(217) البلاذري : انساب الاشراف جـ 3 ص 247 ـ 248، 250، فلهوزن : الخوارج والشيعة ص 178 ـ 180.

مقاتلتكم وسبيت ذراريكم» (218)، فقد تعدى ذلك الى اهانة نسائهن والتمثيل بهن فقد هدم دار ام امراة لزيد آزدية وشقوا ثيابها وجلدها بالسياط وهي تقول: ماانت بعربي اتعريني وتضربني؟ وماتت تحت السياط، وأخذ امرأة قوت زيد على أمره فأمر بها أن يقطع يدها ورجلها وضرب عنق زوجها، وطلب من عبد الله ابن يعقوب السلمي ان يحضر ابنته زوجه زيد، فأبى فضرب عنقه وأمر العريف أن يأتيه بها فرفض فامر به فدقت يده ورجله (219).

وهكذا قضى على ثورة زيد بن على، أما ابنه يحي الذي أوصاه ابيه بجهاد بني امية، فكان يسمى ذا الدمعة، وكانت عينه لاتكاد تجف من الدموع حزنا على ابيه.

اختبأ يحي بن زيد بالكوفة ثم انتقل الى نينوى ومنها الى المدائن وكانت ملتقى الطريق التجاري بين العراق وخراسان، فبلغ يوسف خبره فأرسل في طلبه حريث بن أبى الجهم الكلبى، فهرب الى خراسان حيث أقام عند احد زعماء قبيلة ربيعة. حتى مات هشام بن عبد الملك.(220)

ولكن علم يوسف بن عمر بمكان اختفائه فكتب الى نصر بن سيار بالقبض على الحريش بن عمرو بن داود الذي خبأه، فأنكر الحريش مكانه فضرب ستمائة، فلما رأى ابنه قريش مانزل بابيه دل على يحي فقبض عليه ولكن الوليد الثاني أمر باطلاق سراحه وقال: «انما هو رجل هرب واستخفى» وان يرسل الى دمشق. وكتب نصر الى العمال في ازعاجه وان يسلمه كل عامل الى العامل الذي يليه حتى يصل الى الخليفة. وعند الحدود الخراسانيه العراقية في بيهق خشى يحي ان يقع في قبضة يوسف والى الكوفة، فمضى ناحية المشرق عائدا واستطاع أن يصل، هو والسبعين رجلا الذين معه الى هراة وطاردته جيوش نصر بن سيار والى خراسان وفجأة مطاردوه في جوزجان حيث انضم اليه قوم من اهلها وأهل الطالقان والفاريان وبلخ، فبلغ عدد

---

(218) الطبري : الامم والملوك جـ 8 ص 278 ـ 279.
(219) البلاذري : انساب الاشراف جـ 3 ص 254 ـ 255.
(220) الطبري : الامم والملوك جـ 8 ص 300، البلاذري : انساب .الاشراف جـ 3 ص 260 ـ 261.

أصحابه مائة وخمسين رجلا قتلوا جميعا معه، وبعد ذلك حينما ظهر ابو مسلم الخراساني طالب بثأر يحي وقتل قتلته.(121)

وهكذا انتهى مصير ثورة زيد وابنه يحي وكان مصير زيد كمصير جده الحسين اما أولئك الذين بايعوه ولم يفوا بوعدهم، فقد اصبحوا له انصار صادقين بعد مقتله وسموا أنفسهم باسمه: «الزيدية» ويتميزون عن الرافضة بأنهم يتولون سلالة الحسين. (222).

وآخر ثورات الشيعة في عهد بني امية ثورة عبد الله بن معاوية بن عبد الله ابن جعفر بن ابي طالب، وجعفر هذا هو أخو على بن ابي طالب، ولذلك اعتبره المؤرخون ليس من العلويين، ولكن نظرا لاعتماد ثورته على العناصر الشيعية بالكوفة وخراسان فسوف نعتبر هذه الثورة تنتمي الى حد ما الى الثورات الشيعية بالعراق واخرها في عهد الامويين.

ففي 126هـ حضر عبد الله بن معاوية مع اخوته الى الكوفة ليطلب العطاء من عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والى الكوفة للخليفة يزيد بن الوليد الاموي. فاكرمه ابن عمر وأجرى عليه وعلى اخوته كل يوم ثلاثمائة درهم، فتزوج عبد الله بن معاوية بابنة حفيد شبث بن ربعي التميمي واستقر بالكوفة.

وبعد موت الخليفة يزيد بن الوليد اضطربت شؤون الخلافة في الشام وتزعزعت سلطة والي الحكومة ابن عمر وسائر الولاة عامة، فانتهز الشيعة في الكوفة هذه الظروف وبايعوا عبد الله بن معاوية واقتادوه الى القصر، كذلك بايعه سائر اهل الكوفة والمدائن (223) وخرج عبد الله لقتال أهل الشام الذين كانوا مع والي الكوفة في الحيرة وذلك في سنة 127هـ/744م ولكن انصار عبد الله فروا حينما

---

(221) البلاذري : انساب الأشراف ج 3 ص 260 ـ 262 الطبري : الامم والملوك ج 8 ص 300 ـ 301.

(222) النوبختي : الفرق بين الفرق ص 25، فلهوزن : الخوارج والشيعة ص 181،وكانت لهم مدرسة فقهية لها أراؤها في القرآن والشرع ، وتمكنوا في أيام العباسيين من تكوين دولة في جنوب بحر قزوين.

(223) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 5 ص 324 ـ 327، فلهوزن : الخوارج والشيعة ص 181 ـ 182.

نشب القتال ولم يثبت معه غير ربيعة والزيدية فقاتلوا بشجاعة وتابعوا القتال عدة أيام في شوارع الكوفة الى ان أعطوا الامان وسمح لعبد الله بن معاوية للخروج من الكوفة سالما.

انتقل عبد الله بن معاوية من الكوفة شرقا الى المدائن ثم ميديا فازداد عدد أتباعه بما انضم اليه من الموالى والعبيدمن الكوفة وغيرها من المواضع وانتهى به الامر في سنة 128 هـ حيث استقر باصطخر في اقليم فارس ومن هناك سيطر على منطقة واسعة تشمل فارس وكورها مثل حلوان وقومس واصبهان والري.

وتجمع حول عبد الله بن معاوية طوائف مختلفة وعديدة منهم عباسيون مثل عبد الله بن علي، ومنهم أمويون مثل سليمان بن هشام بن عبد الملك والخوارج الذين طردهم مروان بن محمد من الموصل برئاسة شيبان بن عبد العزيز الخارجي، ولكن سرعان ماانهزم عبد الله بن معاوية أمام جند مروان بن محمد، فانفض انصاره كأن لم يكن وانهارت دولته ففر حتى بلغ هراة، لاجئا الى ابي مسلم الخراساني في 130هـ «لانه يدعو الى الرضى من ال محمد» ولكن ابا مسلم أمر بالقبض عليه وقتله (224).

4 ـ العصبية القبلية:

يذكر المسعودي ان العصبية القبلية كانت من دواعي زوال ملك بني امية فيقول: «وافتخرت نزار على اليمن، وافتخرت اليمن على نزار وادلى كل فريق بما له من المناقب، وتخربت الناس ، وثارت العصبية في البدو والحضر، ففتح بذلك امر مروان بن محمد الجعدى، وتعصبه لقومه من نزار على اليمن، وانحراف اليمن عنه الى الدعوة العباسية وتغلغل الامر الى انتقال الدولة عن بني امية الى بني هاشم ثم ماتلا ذلك من قصة معن بن زائدة باليمن، وقتله أهلها تعصبا لقومه من ربيعة وغيرها من نزار، وقطعه الحلف الذي كان بين اليمن وربيعة في القدم، وفعل عقبة بن سالم بعمان والبحرين، وقتله عبد القيس وغيرهم من ربيعة وسائر نزار ممن بأرض البحرين

(224) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 5 ص 371 ـ 372،فلهوزن : الخوارج والشيعة ص 181 ـ 182.

وعمان كيدا لمعن، وتعصبا من عقبة بن سالم لقومه من قحطان وغير ذلك مما تقدم وتأخر مما كان بين نزار وقحطان» .(225)

هذا هو نص المسعودي ولا يضاحه نضيف، ان الاثرة الفردية والعصبية القبلية من الملامح الاساسية لمجتمع العصر الجاهلي، وقد عمل الاسلام على القضاء على هذه الملامح. ومنذ تولى الخليفة عثمان اخذت نعرة الاسرة تظهر مرة ثانية بعد ان كانت قد اخمدت في عصر الرسول (ص) وماتلاه في عهد كل من ابي بكروعمرابن الخطاب.

وكانت القبائل العربية الشمالية قد هاجرت في عهود الجاهلية الى العراق حيث نشأت ديار ربيعة على ضفاف دجلة وديار مضر على الفرات وآلت رئاستهم الى قيس وكانت قبائل أخرى من جنوب الجزيرة العربية قد هاجرت كذلك الى بلاد الشام فعرفت باليمانية وآلت رئاستهم الى كلب، اما في خراسان فقد هاجرت اليها بعض القبائل العربية التي كانت مستقرة بالبصرة اغلبها من القبائل الشمالية بزعامة تميم واقلها من اليمانية بزعامة الازد، وعلى مر الزمن أصبح الشماليون نواة لحزب سياسي عرف بالقيسيين، كما أصبح الجنوبيون نواة لحزب آخر عرف باليمانيين. (226)

واعتمد معاوية بن ابي سفيان على القبائل اليمنية لتأسيس الدولة الاموية ببلاد الشام، وكان ابنه يزيد خليفته من زوجته الكلبية اليمنية، قد تزوج من امرأة كلبية أيضا ، لذلك بعثت روح العصبية بين القبائل العربية عقب موت معاوية، غير انها لم تكن من الشدة بحيث تؤثر في انحلال الحزب الاموي الذي ظل حافظا لكيانه كحزب سياسي يناضل خصومه من الاحزاب الاخرى.

واعتبارا من الفترة التالية سوف نجد المنازعات القبلية تسود بين اليمنية والمضرية (القيسية) وكان الولاة انفسهم اما يمنيين أو مضريين وكثيرا ماكانوا يتحيزون لعصبيتهم فتقع حروب دامية تنتهي بقتل الوالى نفسه. وبدلا من ان

(225) المسعودي : مروج الذهب ج 3 ص 232.
(226) أنظر فليب حتى : تاريخ العرب ج 1 ص 350 ــ 351.

يعمل خلفاء بني أمية على حسم هذا النزاع. اذا بهم ينحازون الى فريق دون آخر مما ساعد على اتساع الهوة بين العصبيتين. (227)

وفي مرج راهط سنة 64هـ/684م وكان الانتصار لكلب على القيسيين الذين كرهوا الخضوع لأمير كلبي الجدة والأم وارتضوا مروان بـن الحكم خليفة بعد أن تعهد ان يقلدهم ارفع المناصب ,والإيبرم أمرا دون مشورتهم، وأن يصلهم سنويا بمبلغ جسيم من المال وأن يخلف خالد الاموي الصغير مروان. (228)

ولم يتأت قط للنسيان أن يسحب ذيوله على ذكرى وقعة «مرج راهط» هذه لدى الكلبيين أو القيسيين، فلقد عادت الى الظهور بالاندلس (اسبانيا) من جديد بعد اثنتين وسبعين سنة (138 هـ). وكانت الموضوع الاثير لشعراء كلا الفريقين المتنافسين، فكانت عند احدى الجماعتين انشودة السرور والنصر، وعند الاخرى صرخة الالم والانتقام. (229)

وفي عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك، أخذ جانب المضرية، بفضل كبار عماله المضريين الحجاج بن يوسف الثقفي والى العراق وصهره محمد بن قاسم فاتح الهند وقتيبة بن مسلم فاتح آسيا الوسطى. اما سليمان اخو الوليد فمال الى اليمانية لانه كان حانقا على الحجاج وقتيبة لاعتراضهما على تولية الخلافة .اعتمد على زعماء اليمنية ومنهم يزيد بن المهلب بن ابي صفرة الازدي اليمني.(230)

وفي عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز، حاول التوفيق بين العصبيتين. فلم يتعصب لقبيلة دون أخرى. ولم يول واليا الا لكفايته وعدالته. سواء اكان من كلب أو من قيس. فسكنت في عهده الفتن التي كانت تنتاب الدولة وتكاد أن تذهب بريحها. وماان خلفه يزيد بن عبد الملك حتى تاثر بميول أمه المضرية فاخذ جانب

(227) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي جـ 1 ص 337، احمد مختار العبادي : في التاريخ العباسي والاندلسي ص 12

(228) المسعودي : مروج الذهب جـ 86 ـ 87.

(229) دوزي : تاريخ مسلمي اسبانيا جـ 1 ص 89

(230) انظر تاريخ خليفة بن خياط جـ 1 ص 384، 385، 386، 388، 405، 410، الطبري : الامم والملوك جـ 7 ص 59، 91 .

القيسية وقضى على افراد بيت المهلب بن ابي صفرة اليمنى الذي أخلص في خدمة بني امية. (231)

ثم تلاه هشام بن عبد الملك فانحاز الى اليمنية في بادئ الامر ليعيد التوازن بين قوتي العنصرين اليمنى والقيسى. فعزل العمال المضريين وولى مكانهم يمنيين. فولى خالد بن عبد الله القسري على العراق وولى آخاه آسدا على خراسان وتعصب خالد واخوه لليمنية فاخذوا ينتقمون من المضريين. ولكن سرعان ماتحول هشام من اليمنية الى المضرية فولى يوسف بن عمر الثقفي العراق، ونصر بن سيار خراسان وكذلك ببقية الولايات الاسلامية.

وثارت ثائرة اليمنية خصوصا بعد مقتل خالد بن عبد الله القسري زعيمهم، بعد اتهامه بممالاة العلويين واغداقه عليهم، واتهامه بالزندقة والالحاد، فاعاد الامويون لاذهان اليمنية ماقاموا به من تصفية آل المهلب اليمنيين. فعادت القلاقل سيرتها الاولى.. خصوصا بعد تولية الوليد بن يزيد المعروف بخليع بني مروان الذي قام باقصاء العنصر اليمنى عن مناصب الدولة. (232) وينسب اليه قوله :

شددنا مُلكنا ببني نزار	وقومنا بهم من كان مالا
ولو كانت بنو قحطان عُرّبا	لما ذهبت صنائعه ضلالا (233)

استغل اليمنيون سخط الناس عليه بسبب مجونه واستهتاره وبايعوا يزيد ابن الوليد بن عبد الملك الذي كان يظهر التنسك والتواضع وقام يزيد بتوليتهم الولايات، فاضطهدوا المضرية، الذين اشعلوا الثورات في حمص وفي فلسطين والاردن واخيرا انضمت المضرية الى جانب مروان بن محمد الجعدي اخر الخلفاء الامويين فتعصب مروان للقيسية وفي عهده ثارت روح العصبية القبلية في جميع انحاء الدولة الاموية بشكل لم يسبق له مثيل،وهكذا فقد آصبح الخليفة في أواخر العهد

(231) المسعودي : مروج الذهب ج 3 ص 183 ـ 184، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 5 ص 43 ـ 44، 59، 63، 64. حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي ج 1 ص 338 .

(232) أنظر تاريخ خليفة ابن خياط ج 2 ص 491، 493، 535 ـ 537، الدينوري : الاخبار الطوال ص 335 ـ 336، 344 ـ 345 ـ 349.

(233) الدينوري : الاخبار الطوال ص 348

الاموي زعيم حزب خاص اكثر منه خليفة للامبراطورية الاسلامية الموحدة الاجزاء. (234)

وانسعت شقة الخلاف بين حزبي قيس واليمن اللذين عرفا أيضا باسماء اخرى ونقلت الخصومة بينهما الى مختلف انحاء العالم الاسلامي وتم الانفصال بحيث اصبح من العسير الجمع بينهما فآل ذلك الى سقوط الدولة الاموية. اذ لاشك ان هذه الحروب الداخلية قد شغلت الخلافة الاموية واستنفذت قوتها.

هذا ويلاحظ ان شعراء العرب في ذلك الوقت كان لهم تاثير كبير في اذكاء نار هذه العصبيات. ومن يقرا الاخطل والفرزدق وجرير وغيرهم من شعراء القبائل المختلفة، تبدو له هذه الظاهرة بوضوح. (235)

5 ـ سياسة الامويين إزاء حركات الموالى

الموالي هم اهالى البلاد المفتوحة الذين اعتنقوا الاسلام والحقوا بالقبائل العربية. وهؤلاء كانوا في عهد الدولة الاموية يعاملون معاملة غير معاملة العرب. فقد حرموا من المساواة السياسية والاجتماعية بالعرب. حرموا من الوظائف الكبرى في الدولة، ومن العطاء الذي يستحقونه نظير التحاقهم بالجيش، بل وفرضت عليهم الجزية رغم اسلامهم.

وهذه التفرقة لم يكن مصدرها الاسلام، لان الإسلام لم يفرق بين العناصر والاجناس. بل ينص صراحة على أن المسلمين أخوة في الدين، ولا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى، وانما مصدر هذه التفرقة هو سياسة الدولة الأموية التي تقوم على اساس سيادة الجنس العربي. (236).

وإذا كان الاعاجم (الموالى) قد اقبلوا في بادئ الأمر على الدخول في الاسلام فانهم لم يفعلوا ذلك من أجل الاسلام نفسه بمقدار ما فعلوه ابتغاء المزايا التي كان

---

(234) المسعودى : مروج الذهب ج 3 ص 213 ، 232، حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي ج 1 ص 338 ـ 340

(235) المسعودي : مروج الذهب ج 3 ص 228 ـ 232، احمد مختار العبادي : في التاريخ العباسي والاندلسي ص 13، فليب حتى : تاريخ العرب ج 1 ص 351.

(236) احمد مختار العبادي : في التاريخ العباسي والاندلسي ص 14

يمكنهم منها، فهم قد اتخذوا الاسلام وسيلة للتقرب من الطبقة الحاكمة وللمشاركة فيما كان لها من مزايا، أي انهم اتخذوه وسيلة لكي يستعربوا وينالو ما كان للعرب من حقوق ومزايا. ثم سموا أنفسهم بأسماء عربية والحقوا بالقبائل العربية (237).

وقد استطاع بعض أهل الطموح منهم أن ينالوا حظوة عند العرب وأن يلعبوا دورا ذا وجهين في التوسط بين القوميتين العربية والفارسية، وكانوا يسمون النصحاء، وأشهرهم سليم مولى عبيد الله بن أبي بكرة وحيان النبطي مولى بنى شيبان (238).

ونظرا لاستمرار الحروب في تلك الحقبة وتلك البلاد، فقد اعتمد السادة من العرب على حاشية من الغلمان وهم «الشاكرية» للمعاونة في الجيش الاسلامي ، وكان هؤلاء الغلمان أيضا يشتركون في بعض الأحيان في القتال . وإلى جانب ذلك كانت هناك في الجيش العربي فرق من الموالى خاصة على رأسها قواد منهم، ومن امثلة ذلك حريث بن قتيبة وأخوه ثابت في الحقبة الاولى ، وحيان النبطى وابنه مقاتل في الحقبة الأخيرة (239).

فكان الموالى ، يحاربون إلى جانب العرب وهكذا تأصل الاسلام في قلوبهم، بعد أن كانوا في أول الأمر قد اعتنقوه لأسباب خارجية. ولكن العرب رغم ذلك لم يكونوا ينظرون إلى الموالى نظرتهم إلى أنفسهم فإذا كان الموالى في الجيش فإنهم كانوا يحاربون مترجلين لا على الخيل، وكانوا اذا برزوا ينظر اليهم بشيء من الريبة، وهم وأن كانوا يتقاضون رزقا يأخذون نصيبا في الغنيمة فإنهم لم تكن لهم اعطيات ثابتة، فلم يكونوا مقيدين في الديوان، أعنى في سجل المقاتلة الذين تفرض لهم الأعطيات .

ومع انهم كانوا قد اندمجوا في القبائل العربية، فإنهم كانوا يسمون «أهل القرى» تمييزا لهم عن «أهل القبائل» ومع أنهم كانوا مسلمين، فإنهم لم تسقط

---

(237) البلاذري : فتوح البلدان ص 429، 443، 444

(238) فبعد تولية قتيبة بن مسلم خراسان حاول مصالحة نيزك طرخان صاحب باذغيس « وكتب اليه قتيبة مع سُليم الناصح مولى عبد الله بـن ابي بكرة يدعوه الى الصلح والى أن يؤمنه». انظر ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 4 ص 543، ج 5 ص 14، 15، فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص 470.

(239) الدينوري : الأخبار الطوال ص 176، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 5 ص 15، 183، 308، فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص 470.

عنهم الجزية. اما الخراج الذي كان يؤديه كل من يملك أرضًا حتى العرب منهم، فيظهر انه على كل حال لم يحدث من التذمر بين أهل خراسان مثل ما احدثه بين أهل ماوراء النهر، لأن هؤلاء لم يدخلوا الاسلام إلا على أمل أن تسقط عنهم الجزية، ولكن لاشك من أن عدوى التذمر تسربت من أهل السغد الى أهل خراسان. (240).

وما ان قامت ثورة المختار بن أبي عبيد الثقفي ، حتى انضم الموالى إليه. وقام المختار بتعيين كيسان أبو عمرة وهو مولى ، من موالى عرينة من بجيلة رئيسًا لحرسه وربما كان هذا التعيين لأنه يثق به أكثر من غيره أو لأنه كان أكثر نفوذا بين الموالى من مؤيديه. اذ سرعان ما ازداد عدد الموالى بين اتباعه إلى درجة كبيرة. بعد أن كانوا في بداية ثورته خمسمائة فقط (241) فاحتج عليه بعض العرب بقولهم «عمدت الى موالينا وهم فيء أفاءة الله علينا، وهذه البلاد جميعًا فاعتقنا رقابهم، نامل الاجر في ذلك والثواب والشكر، فلم ترض لهم بذلك حتى جعلتهم شركاءنا في فيئنا» (242).

على ان الموالى مالبثوا أن تعرضوا لإضطهاد الحجاج أثناء ولايته على العراق حتى اضطروا لترك ما يملكونه من الاراضي والرحيل إلى المدن والاقامة بها مع العرب. ولما رأى الحجاج كثرة القادمين من الموالى إلى أمصار العراق حتى ازدحمت بهم، عول على إعادتهم إلى القرى.ولا ريب أن سياسة الحجاج إزاء الموالى كانت من العوامل التي ساعدت على زوال الحكم الأموى الذي كان عماده العنصر العربي، فوقف الموالى منذ ذلك الوقت من الامويين موقف المعارضة، فقاوموا الحجاج مقاومة عنيفة، واظهروا سخطهم بإنضمامهم إلى ثورة عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث في 81هـ / 700م (243).

ومن يتصفح الشعر العربي في عهد الدولة الأموية، يجد تعبيرا واضحًا لهذه السياسة العربية. فالعربي في نظر الشعراء قد خلق ليسود، بينما خلق غيره

---

(240) انظر ابن قتيبة : الامامة والسياسة جـ 2 ص 45، تاريخ اليعقوبي جـ 2 ص 209، فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص 471.

(241) البلاذري : انساب الاسراف جـ 5 ص 244 ـ 245

(242) الطبري : الامم والملوك جـ 7 ص 116

(243) محمد جمال الدين سرور : الحياة السياسة في الدولة العربية الاسلامية ص 155.

ليخدم، وصاروا لايفخرون الا بمن كان الدم العربي يجري في عروقه، ويحتقرون من سواه، ويميزون بين الصريح والدخيل. وكل هذا كان مدعاة لتذمر الموالى.

وقد حاول الخليفة عمر بن عبد العزيز اصلاح هذه الحالة فأمر عماله بأن يضعوا الجزية عمن أسلم قائلا عبارته المشهورة : «أن الله بعث محمد هاديا ولم يبعثه جابيا» وكان من آثر هذه السياسة العمرية ان ازداد اعتناق أهل الذمة للاسلام ولكن في الوقت نفسه نقص ايراد بيت المال في الوقت الذي كانت فيه الدولة في حاجة ماسة الى بذل الأموال في مشروعاتها التوسعية وفتوحاتها الكبرى.

ومن هنا حدث تضارب بين السياسة المالية والسياسة الدينية في الدولة وانتهى الأمر بفشل هذه السياسة بعد موت صاحبها عمر بن عبد العزيز، والعودة من جديد إلى فرض الجزية على الموالى. ولهذا يرى بعض المؤرخين في سياسة عمر الاصلاحية، كانت سببا غير مباشر في سقوط الدولة الاموية، لأنها ايقظت في نفوس الموالى ا مالا كبيرة لم تلبث أن خابت بعد موته. (244).

ففي عهد هشام بن عبد الملك ، ارسل اشرس بن عبد الله السلمى وإلى خراسان، أبى الصيداء صالح بن طريف مولى بني ضبة إلى ما وراء النهر لدعوة اهلها الى الاسلام، لكن ابا الصيداء،وكان من زعماء الموالى ، اشترط قبل مسيره ألا ياخذ الجزية ممن يدخل من أهلها في الاسلام، فأجيب إلى طلبه، وزحف إلى سمرقند ومعه قوم من العرب، فدعا أهلها ومن يقيم الى جوارهم الى الاسلام على أن توضع عنهم الجزية، فلقيت دعوته نجاحا كبيرا وأخذ الوثنيون من السغد يدخلون إلى الاسلام. فجاء دهاقين بخاري الى أشرس فقالوا ممن تأخذ الخراج وقد صار الناس كلهم عربا (أي مسلمين) فتراجع اشرس وأمر بالقبض على أبي الصيداء وفرض الجزية عمن أسلم فثارت السغد في 110هـ / 728م (245) واستعانوا بالترك ليتحرروا من سلطان العرب. واضطروالى خراسان لمقاتلهم.

واشتهر في الحروب بين المسلمين والاتراك في بلاد ماوراء النهر رجل من عرب تميم يدعى الحارث بن سريج، ابلى بلاد حسنا في محاربة الاتراك ولكنه سرعان ما اخذ على عاتقه اتمام حركة ابى الصيداء فحرض الموالى ووعدهم بالعمل على إسقاط

---

(244) انظر احمد مختار العبادي : في التاريخ العباسي والاندلسي ص 14 ـ 15

(245) الطبري : الامم والملوك ج 8، ص 196، 197

الجزية عنهم واشراكهم في الاعطيات التي كانت تعطى للمقاتلة، واشترك معه في ثورته على الحكومة الاموية كثير من العرب من تميم والازد، كما انضوى الدهاقين وأهل القرى تحت لوائه الى ان قتل الحارث في رجب 128هـ / 745م (246). ولم يخفف من غضب الموالي على الخلافة، الا لما عين هشام على خراسان نصر بن سيار، الذي عاد الى تنفيذ سياسة عمر بن عبد العزيز، لكي يقضي على تمردهم، وقضى على المظالم وعفا عمن كان مسلما فارتد عن الاسلام، ووضع الجزية عمن اسلم (247).

وفي السنة التالية لوفاة الحارث بن سريج اشعل أبو مسلم في خراسان نار الثورة على بنى أمية وانضوى تحت لوائه عدد كبير من الموالى، كما توافد على الدعاة العباسيين من قبل كثير من سكان قرى خراسان، بل أسهم الموالى أنفسهم في نشر الدعوة العباسية، فكان من بين نقباء هذه الدعوة الاثنى عشر، أربعة من الموالى إلى جانب ثمانية من العرب (248).

6 ـ الدعوة العباسية ونهاية الدولة الأموية

قامت الدولة العباسية على اثر دعاية واسعة النطاق دامت حوالي ثلث قرن تقريبا، فضمت إلى صفوفها كل العناصر المعادية للأمويين وكلمة دعوة هي المقصود بها حديثا كلمة الدعاية. والغرض من الدعاية هو استعمال طرق مختلفة شريفة أو ملتوية للاعلان عن مبدأ أو فكرة بقصد تهيئة الأفكار لقبول هذا المبدأ أو هذه الفكرة.

وأول دعاية قامت في الدولة الاسلامية هي دعوة العباسيين التي نظمت تنظيما دقيقا بإسم الرضى من آل محمد وتمكنت في النهاية من أن تؤدى الغرض المقصود منها، وهو اسقاط الدولة الاموية وإقامة الدولة العباسية.

ثم قامت بعد ذلك دعوة سرية أخرى بإسم المهدى المنتظر تمخضت عنها قيام الدولة الفاطمية في المغرب (249).

---

(246) انظر ابن الاثير: الكامل في التاريخ جـ 5 ص 183 ـ 184، 250، 346.
، محمد جمال الدين سرور: الحياة السياسية في الدولة العربية الاسلامية ص 166 ـ 167.
(247) الطبري: الأمم والملوك جـ 8 ص 279.
(248) محمد جمال الدين سرور: الحياة السياسية في الدولة العربية الاسلامية ص 167.
(249) احمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي والاندلسي ص 17

وتنسب الدولة العباسية إلى العباس بـن عبـد المطلب عم النبي ومؤسس هذه الأسرة العباسية، امه نتيلة من احدى قبائل ربيعة بن نزار ولد قبل عام الفيل بثلاث سنين فهو اسن من الرسول بثلاث سنين. وهو لم يكن ذا سابقة في الاسلام، فقد اسلم في عام فتح مكة، أي أن اسلامه كان اسلام ضرورة. فقد كان صديقا وفيًا لأبي سفيان صخر بن حرب، وكان سببًا في نجاة أبي سفيان وفي تشريفه بقول الرسول : «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن». ولهذا لم يكن من المعقول أن يطمع العباس في الخلافة بعد وفاة الرسول نظرا لتأخر اسلامه.وتشير بعض الروايات فقط إلى اهتمامه بتولية ابن أخيه على بن أبي طالب، اذ قال له « امدد يدك لنبايعك»، وهذا يدل على أنه لم يكن له أي طموح في الخلافة. وتوفي العباس في سنة 32هـ وهو ابن 88 سنة في خلال خلافة عثمان بن عفان (250).

أعقب العباس أولادا كثيرين أهمهم ابنه الثاني عبد الله بن العباس الذي من نسله جاء البيت العباسي، أما بقية أبناء العباس فلم يكن لهم عقب باق .

وعبد الله بن العباس شخصية علمية فريدة، معروفة لدى الأدباء والعلماء واللغويين، اذ كان يؤخذ عنه رواية الحديث وتفسير القرآن. ويروى ابن خلكان أن الرسول دعا له فقال : اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل. وكان عمر بن الخطاب يحبه ويدخله مع كبار الصحابة في مجلس شوراه الخاص ويستفتيه في كثير من المسائل على صغر سنه. ولم يكن عبد الله يطمع في الخلافة لإيمانه القوى بحق علي بن أبي طالب فيها. ولهذا انضم إليه وأيده، وولاه علي بن أبي طالب البصرة وأعمالها. وبعد مقتل علي، ترك البصرة وعاد الى الحجاز حيث أقام بالطائف مسالما للأمويين الى أن توفي في خلافة عبد الملك بن مروان سنة 68هـ. (251).

ولقد انجب عبد الله بن العباس ولدا اسماه عليا لأنه ولد في نفس الليلة التي قتل فيها الامام علي سنة 40هـ وهو شخصية غامضة. ويذكر الطبرى أن الوليد ابن عبد الملك بن مروان اقطعه الحميمة في سنة 95هـ. ولعل اهتمام الأمويين بهذا

---

(250) الشيخ محمد الخضري : محاضرات تاريخ الامم الإسلامية (الدولة العباسية) ج1 ص 6، احمد مختار العبادي : في التاريخ العباسي والاندلسي ص 18.

(251) راجع طبقات الفقهاء للشيرازي : الورقة 10، الحكمي ابن حمدون : تذكرة الحفاظ ص 40، ابن خلكان : وفيات الأعيان وانباء ابناء الزمان ج 3 ترجمة 338 ص 62.

المكان بالذات راجع إلى غرض سياسي اساسه الشك والتوجس في نوايا هؤلاء القوم فجعلوهم تحت اشرافهم ورقابتهم بالشام (252) وتوفي على في الحميمة سنة 116هـ وأنجب ولدا اسمه محمد.

ويعتبر محمد بن على بن عبد الله بن العباس الشخصية القوية، العباسى الحقيقي الذي أظهر طموحًا نحو الخلافة وسعى سعيًا سريًا منظمًا لنيلها وهو والد الامام إبراهيم وأبى العباس عبد الله وأبي جعفر المنصور الذين سيتولوا الامامة والخلافة للعباسيين من بعده. ولكن ماهو الحق الشرعي الذي استند عليه محمد والعباسيون من بعده كأساس للمطالبة بالخلافة ؟

ان ادعاء العباسيين بحقهم في الخلافة تم على عدة خطوات متالية:

الاولى خلال فترة الدعوة السرية ضد الحكم الاموى ، تلك الفترة التي كان الدعاة العباسيون فيها يهدفون إلى كسب أكبر عدد ممكن من المعارضين للدولة الاموية. رفعت الدعوة شعارات عامة مثل «حق أهل البيت» أو «بنى هاشم» أو «الرضى من آل محمد»، وتثبت هذه الشعارات حرص العباسيون على اخفاء أطماعهم نحو الخلافة. وان البيعة تؤخذ لشخص معين من آل البيت يتفق عليه فيما بعد.

وفي هذه الخطوة ادعى العباسيون أن الامام أبا هاشم بن محمد بن الحنفية ابن على بن أبي طالب امام الشيعة الكيسانية والملقب بالمهدي تنازل عن الامامة لتلميذه وصديقه محمد بن على العباسي.

والشيعة الكيسانية نسبة إلى أبي عمرو كيسان احد قوادها الثائرين، حركة سرية تولى قيادتها محمد بن الحنفية لذلك عرفت كذلك بالحنفية وبعد وفاته في 81هـ ـ 700م انقسمت الحركة إلى عدة فرق وكتل أهمها الفرقة التي اعترفت بانتقال الامامة الى أبى هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية الذي نظم اتباعه في منظمة سرية سميت «بالهاشمية». وبوفاة أبى هاشم في 97 أو 98هـ من دون أن

---

(252) ويروي ابن خلكان أن الوليد بن عبد الملك كان اتخذ لُبابة ابنة عبد الله بن جعفر بن أبي طالب زوجة له ثم طلقها فتزوجها علي بن عبد الله بن العباس فعاقبه الوليد وقال : انما تتزوج بأمهات الخلفاء لتضع منهم، لانه سبق لمروان بن الحكم ان تزوج بأم خالد بن يزيد بن معاوية لكي يصل الى الخلافة الأموية، وفيات الاعيان ج 3 ص 275، الطبري : تاريخ الرسل والملوك حوادث سنة 118، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 2 ص 217.

يكون له ولد انقسم اتباعه إلى عدة أقسام، بعضها اعتقد أن الامامة انتقلت من أبى هاشم إلى اخيه على بن محمد بن الحنفية، والبعض الاخر ادعى أن الامامة انتقلت من البيت العلوى الى البيت العباسي وذلك بناء على وصية أبى هاشم إلى محمد ابن على بن عبد الله بن العباسي (253).

فيروى الطبرى في سنة 98هـ «قدم أبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية على سليمان بن عبد الملك فأكرمه، وسار أبو هاشم يريد فلسطين، فانفذ سليمان من قعد له على الطريق بلبن مسموم، فشرب منه أبو هاشم فاحس بالموت، فعدل إلى الحميمة واجتمع بمحمد بن على بن عبد الله بن العباس واعلمه أن الخلافة في ولده.... وسلم إليه كتب الدعاة وأوقفه على ما يعمل بالحميمة» (254). وبينما الكثير من المؤرخون العرب يؤكدون أن ابا هاشم قد أوصى فعلا لمحمد العباسي. أمثال البلاذرى (ت 279هـ) وابن واضح المشهور باليعقوبي (ت 284) والطبرى (ت 310) (255).

فقد اختلف المؤرخون المحدثون حول صحة هذه الوصية، ففان فلوتن وبرنارد لويس وموسكتي يقبلونها ويعتقدون في صحتها. اما فلهاوزن ودي خويه فينكرونها ويعتبرونها رواية اسطورية او خيالية (256) للاسباب التالية :

اذا كان هذا التنازل قد حدث فعلا لدعى العباسيين لانفسهم صراحة ولم يموهوا في الدعوة بإسم آل البيت. ويستنتج من الرسائل المتبادلة بين كل من الخليفة العباسي المنصور والامام العلوى محمد النفس الزكية ان العباسيين والعلويون اجتمعوا في أواخر الدولة الاموية واتفقوا انه في حالة سقوط الامويين يكون خليفة المستقبل محمد النفس الزكية. (257).

---

(253) النوبختي : فرق الشيعة ص 28 ـ 29، القمي : المقالات والفرق ص 38، الأشعري : مقالات الاسلاميين ج 1 ص 23، فلهاوزن : تاريخ الدولة العربية، ص 181 وما بعدها، فاروق عمر : بحوث في التاريخ العباسى ص 52 ـ 56.

(254) عن ابن خلكان : وفيات الاعيان ج 4 ص 188.

(255) انظر البلاذري : مخطوط انساب الأشراف ص 687 ، ابن واضح : تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 296 ـ 298، الطبري : الامم والملوك ج 3 ص 24.

(256) انظر فان فلوتن : السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات، ص 92 وما بعدها، برنارد لويس : العرب في التاريخ ص 78. ولهاوزن : الدولة العربية وسقوطها ص 185.

(257) انظر احمد مختار العبادي : في التاريخ العباسي والاندلسي ص 20 .

والخطوة التالية، بعد أن تأسست الدولة العباسية، وقبض العباسيون على السلطة أعلنوا في أكثر من مناسبة عن عزمهم على اقامة سياسة ممزوجة بالدين وأعلنوا أنهم يريدون احياء السنة واقامة العدل وارجاع الخلافة الحقة بدلا من الملك الذي اقامه الامويون «أهل الجور» فأحاطوا أنفسهم بهالة من الدين، وجذبوا الفقهاء والعلماء حولهم، وتلقبوا بالائمة.

وهكذا تنكر العباسيون من كل العناصر ، وخاصة المتطرفة منها، التي ساندتهم في ثورتهم وبدأت السلطة الجديدة تضرب بشدة على كل حركة معارضة أو كل ثائر حاول أن يعبر عن سخطه لأن النظام الجديد لم يكن كما توقعه أو لم ينفذ مارفع من شعارات أثناء الثورة.

وكان لابد للعباسيين أن يجدوا أساسًا جديدا لتثبيت دعواهم بالخلافة عليه فلم تعد (وصية أبى هاشم) ملائمة لهم بعد تسلمهم الحكم ذلك لأنها من الناحية السياسية تربطهم بالعلويين وتظهر أن حقهم بالخلافة جاء عن طريق ابناء الامام على بن أبي طالب، ثم انها من الناحية العقائدية تفضح أن جذور حركتهم السرية تعود إلى المنظمة الكيسانية والهاشمية المتطرفة. وبمعنى آخر فان حاجة العباسيين إلى تأييد الفقهاء والناس لنظامهم الجديد هو الذي دعاهم إلى أن يتبرؤوا من صلتهم بأبى هاشم ومنظمته الشيعية المتطرفة ويعلنوا تمسكهم بالكتاب والسنة.

أما الاساس الجديد لدعوى العباسيين فقد كان يستند إلى تطبيق قانون الوراثة في الشريعة الاسلامية على اعتبار أن الخلافة تركة بعد النبي. فقالوا أنهم من نسل العباس عم النبي، بينما العلويون من نسل فاطمة الزهراء بنت النبي، والعم في الميراث والعصبية مقدم على ابن البنت .

ولكن هذا التحول لم يحدث فجأة وانما كان هناك فترة انتقال بين الادعاء الاول والثاني، وتمتاز هذه الفترة بمرونتها وغموضها وتنعكس فيما ورد بخطب الخلفاء العباسيين.

ففي خطبة أبى العباس (132 ـ 136هـ) أول الخلفاء العباسيين، التاريخية المشهورة التي أوردها الطبرى في تاريخه ينوه أبو العباس بفضائل أهل البيت وحقهم الشرعى في الخلافة لقرابتهم من الرسول، ويؤكد أن العباسيين ينتمون إلى

الرسول من جهة الاباء فيقول « .. والزمنا كلمة التقوى وجعلنا أحق بها وأهلها وخصنا برحم رسول الله وقرابته وأنشأنا من ابائه وانبتنا من شجرته». ثم يتكلم عن حق «أهل البيت» و«ذوي القربي» ولا يخفي مالهذه الاصطلاحات من مرونة في المعنى تختلف الروايات في تفسيره مما يدل أن الخطبة رسمية موضوعة على غرار الخطب الرسمية لرؤساء الدول.وواضح من صيغة الخطبة وألفاظها انها كانت موضوعة ومعدة من قبل، أي أنها لم تكن مرتجلة ثم أن الطبرى يقول بأن العباس لم يستطع إتمام الخطبة لمرضه، فقعد على المنبر وقام عمه داود بن على فأكمل الخطبة، وهذا دليل اخر على أنها كانت معدة من قبل. وبالتالي لم تختلف خطبة داود بن علي عن خطبة الخليفة. (258).

وفي الرسائل التي تبودلت بين المنصور العباسي وبيـــن محمـــد النفـــس الزكية، نجد كلاما في هذا المعنى حينما يقول له المنصور : وأما قولك انكم بنو رسول الله (صلعم)، فان الله تعالى يقول في كتابه : «ما كان محمد أبا أحد من رجالكم». ولكنكم بنو بنته، وانها لقرابه قريبة ولكنها لايجوز لها الميراث ولا تحدث الولاية، ولا يجوز لها الامامة، فكيف تورث بها ؟».

والواقع أن العباسيين وجدوا حزبين متعارضين وهما : الأمويون والعلويون وكان الحزب العلوى أقرب الحزبين إليهم بحكم قرابتهم للرسول. ولهذا وجهوا نشاطهم السياسي نحو هذا الحزب الذي يتفق معهم. ثم جاءت وفاة أبى هاشم آخر امام للشيعة الكيسانية،اذ لم يكن له عقب بعده، فاستغل العباسيون هذه الفرصة واندمجوا في الدعوة الشيعية الكيسانية ووضعوا تلك الرواية التي تقول بأن هاشم ابن محمد بن الحنفية سلم زمام الدعوة الكيسانية للعباسيين قبل وفاته. فالدعوة العباسية بدأت شيعية في الأصل ثم تحولت بعد نجاحها إلى خلافة سنية كما يبدو من سير الحوادث. (259).

---

(258) انظر الطبري : تاريخ الامم والملوك ج 3 ص 32 ـ 33، الدينوري : الأخبار الطوال ص 467 ـ 468، المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ج 6 ص 97 ـ 99 ، احمد مختار العبادي : في التاريخ العباسي والاندلسي ص 28، فاروق عمر : بحوث في التاريخ العباسي ص 64 ـ 66.

(259) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 5 ص 539، احمد مختار العبادي : في التاريخ العباسي والاندلسي ص 20 ـ 21.

وكيفما كان الأمر فالمهم هنا هو أن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس هو العباسي الحقيقي الذي سعى لنيل الخلافة. ومن مقره بالحميمة أخذ ينظم الدعوة أو الدعاية تنظيماً سرياً دقيقاً ويرسل الدعاة والنقباء والعمال إلى الجهات الملائمة لهذه الدعوة التي ابتدأت من بداية القرن الثاني الهجري واستمرت حتى اسقاط الدولة الاموية في 132هـ أي لمدة 32 عام ،ويمكن تقسيم الدعوة العباسية إلى مرحلتين :

المرحلة الاولى (100 ـ 127هـ) : وهي المرحلة التي تميزت بالدعاية السرية واتخذت كل من مدينة الكوفة وولاية خراسان مركزان للدعوة.

وعاون الداعي اثنا عشر نقيباً معظمهم من العرب بعضهم ينتمى إلى قبيلة خزاعه والبعض الآخر ينتمى إلى قبيلة تميم واحدهم ينتمى إلى قبيلة طي، والاقلية من الموالى .

ولكل نقيب سبعون عاملا، والعمال يشرفون على الخلايا السرية التي تندس بين الناس في جميع الامصار.

وكان هؤلاء الرجال في العادة على قسط كبير من المهارة والخبرة بالطبيعة البشرية وما فيها من ضعف وقوة كي يتمكنوا من احراز النجاح المطلوب. وكانت دعوتهم تنصب على الثورة وقلب الدولة الاموية متخذين في ذلك الشعارات الجذابة التي تستهوى نفوس الموالى، كالمناداة بالمساواة التي ينص عليها الاسلام والتنبيه على أن هذه البلاد هي بلدهم قبل أن تكون للعرب مثل قول القائد قحطبة ابن شبيب «ياأهل خراسان هذه البلاد كانت لأبائكم». (260) .

أما الاسباب التي أدت إلى اختيار كل من الكوفة وخراسان مركزان للدعوة فالكوفة مهد التشيع لأهل البيت من قديم «اما الكوفة وسوادها فشيعة علي وولده». كما تتميز بمركزها الهام في المواصلات. اما خراسان فهي تتميز بالتأثر بالثقافة والحضارية الفارسية والتي كانت من السهل أن تتمثل فكرة التشيع وتتأثر بها لأن مؤداها نقل الخلافة إلى بيت النبي (ص) وذلك قريب من قانون الوراثة للأسرات الحاكمة الفارسية السابقة. بالاضافة إلى المعاملة السيئة التي لاقاها الموالى الفرس

---

(260) الشيخ محمد الخضري : محاضرات تاريخ الامم الاسلامية (الدولة العباسية) ص 13 ـ 16 ، احمد مختار العبادي : في التاريخ العباسي والاندلسي ص 21 ـ 23.

من الخلفاء الامويين، وكذا ميل الفرس إلى أهل البيت لأن الحسين تزوج منهم بنت يزدجرد آخر ملوك الفرس.

ومن أهم الظواهر التي أدت إلى انتشار الدعوة العباسية بخراسان غير ظواهر الصراع بين الفرس والعرب أو التمييز الاجتماعي والاقتصادي الذي مارسته السلطة الأموية تجاه الموالى ، ظاهرة السياسة الادارية والمالية الأموية في خراسان وردود الفعل لدى أهل خراسان من عرب وعجم تجاه هذه السياسة.

ان دراسة حالة خراسان قبيل الثورة توضح لنا أهمية هذه الظاهرة ودورها في اختيار خراسان كمجال خصب للدعاة العباسيين. لقد فتحت خراسان أيام الخليفة عثمان بن عفان ووقع حاكم مرو الفارسي معاهدة مع المسلمين تتضمن قيام الدهاقين بتقدير الضرائب وجبايتها من أهل البلاد، كما اشترطت المعاهدة السماح باستقرار القبائل العربية في قرى خراسان بجوار أهل البلاد من الفرس .

ومنذ سنة 45هـ / 665م قرر الأمويون انشاء قواعد ثابتة للمقاتلة العرب في خراسان. فبدأت عملية استيطان العرب في القرى المحيطة بمرو. وتتابعت عملية الاستيطان بتتابع الهجرات القبلية من الكوفة والبصرة. وبمرور الزمن أخذت بعض القبائل العربية تفضل الاستقرار والاشتغال بمهن مدنية كالتجارة والزراعة بدلا من الجندية. (261).

واضطر الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك (105 ـ 125هـ / 724 ـ 473م) ، تجاه هذا التطور في موقف المقاتلة العرب من الجندية إلى أن يأمر عامله على خراسان باسقاط أسماء العرب من ديوان الجند، الذين يرفضون الاشتراك في الحملات العسكرية في بلاد ماوراء النهر، ويحرمهم من العطاء، كما أرسل جندا جددا بدلا منهم.

وهكذا نرى أن عملية الاستيطان والاندماج بين العرب وأهل خراسان قد بدأت فعلا، وبدأ العرب يألفون الحياة المدنية والاشتغال بالمهن وانقسم العرب بخراسان إلى قسمين : الاول استقروا واستوطنوا البلاد، والثاني المقاتلة، يضاف إلى ذلك أن

---

(261) صالح احمد العلي : استيطان العرب في خراسان، مجلة كلية الاداب 1959.

ارسال دفعات جديدة من العرب إلى خراسان أدى إلى حدوث شقاق وتصادم بين القادمين الجدد والعرب الفاتحين.

أما عملية الاستيطان فلقد اتخذت أشكالا مختلفة.وبناء على المعلومات القليلة المبعثرة بين سطور الكتب التاريخية والتراجم والكتب الجغرافية يمكن أن نذكر أن عرب خراسان استقروا في مرو والقرى المحيطة بها مثل سينان وميهرجان وفنين واللين وغيرها .

وكانت قرية بونيه، تابعة لقبيلة طي ، وقرية باسان لبنى نصر وقرى سفينذج واللين وفنين لقبيلة خزاعة وهناك قرى أخرى لكندة وبنى العنبر.

كما استوطن العرب القرى المحيطة ببلخ واستوطن قسم منهم مدنـًا أخرى في بلاد ماوراء النهر بصورة مؤقتة أو دائمة. وعدا هذا وذاك فقد كان للعرب مسالح وهي مراكز عسكرية وقتية تتبدل مواضعها بتبدل خطة القواد العسكرية ولذلك فقد كان استقرار الجند فيها وقتيـًا. (262).

ولقد انتشر الدعاة العباسيون وكان أغلبهم من القبائل العربية مثل خزاعة وتميم وطي بين مواطن استقرار العرب في خراسان وفي ذهنهم خطة واضحة رسمها الامام العباسي لهم تتلخص في نصائحه الموجهة إلى كبير دعاته بخراسان.

«وأنظر هذا الحي من اليمن فأكرمهم وحل بين أظهرهم فان الله لايتم هذا الأمر إلا بهم. وانظر هذا الحي من ربيعة فاتهمهم في أمرهم، وانظر هذا الحي من مضر فانهم العدو القريب الدار فاقتل من شككت فيه ومن كان في أمره شبهة ومن وقع في نفسك منه شيء ..... ولا تخالف هذا الشيخ (يعنى سليمان بن كثير الخزاعي شيخ النقباء والقائم بأمر خراسان) ولا تعصه وان اشكل عليك أمر فاكتف به منى».

وانما قرب أهل اليمن لأنهم اعداء الدولة الاموية ومعظمهم استوطن خراسان بينما كانت مضر عصبية أصحاب الدولة وسيوفها ضد أعدائها.(263)

---

(262) محمد عبد الحي شعبان : الجذور الاجتماعي والسياسية للثورة العباسية هارفرد 1960 ص 157 وما بعدها [بالانجليزية] ، فاروق عمر : بحوث في التاريخ العباسي ص 41 ـ 42

(263) الشيخ محمد الخضري : محاضرات تاريخ الامم الاسلامية (الدولة العباسية) ص 21

وكان أتباع الدعوة، يدفعون، الخمس للامام، ليعينه· هذا المال على القيام بواجبه، في «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، وكان النقباء عادة ينتهزون فرصة الحج، ليلتقوا بالامام، ويسلموه المال والهدايا، (264)

والمرحلة الثانية (127 ـ 132) : وفي هذه المرحلة ظهر أبو مسلم الخراساني وأصله غامض . وهو أعجميًا وكان مملوكًا أو مولى في الكوفة، وقد استرعى ، وهو ما يزال صغير السن، انتباه شيعة بنى العباس هناك، مما دعا إلى ارساله إلى الامام ابراهيم بن محمد بن على ، فأخذه وضمه إلى اسرته وعلمه لنفسه وجعله من خاصته، وفي سنة 128هـ صار أبو مسلم هو الممثل الدائم لبيت ابن العباس في خراسان، فأقام هناك وجعل رئيسًا للدعوة.

قام أبو مسلم بأمر الدعوة في 129هـ، فضم اليه الموالى الفرس وهم الاغلبية المطلقة، ثم أخذ يستميل القبائل اليمنية مستغلا الخصومات القبلية التي بينها وبين المضرية. وكان والى خراسان نصر بن سيار مضريًا، وقد حاول أن يجمع كلمة العرب ضد الفرس كما حاول تسوية الخلاف مع اليمنية، غير أن هذه المحاولات باءت بالفشل أمام دسائس أبى مسلم.

ولما قويت شوكة أبى مسلم، جاهر بالدعوة علنًا وأشعل النارعلى قمم الجبال لجمع الأنصار. واستطاع أبو مسلم في وقت يسير أن يسيطر على زمام الموقف في خراسان، وشعر الوالى نصر بن سيار بخطورة الحالة فكتب الى الخليفة الأموى مروان بن محمد يطلب منه مددا لانقاذ الموقف. غير أن الخليفة كان مشغولا هو الآخر باخماد ثورات الخوارج فرد عليه قائلا : «احفظ ناحيتك بجندك». ولكنه في الوقت نفسه أخذ يبحث عن اسم الهاشمى الذي قامت الثورة من أجله، وتوصل أخيرا إلى معرفته، فأمر بالقبض على ابراهيم بالحميمة، وسجنه في مدينة حران في شمال العراق حيث أمر بقتله بعد ذلك .

ومن خلال ذلك الوقت استطاع أبو مسلم الخراساني بما تجمع لديه من جيوش بأن يهزم نصر بن سيار وأن يستولى على مدينة مرو عاصمة خراسان سنة 131هـ واضطر نصر بن سيار أن يفر هاربًا إلى العراق تتبعه الجيوش العباسية، ولكنه

---

(264) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ 5 ص 339، فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص 490، 492.

مات في الطريق بنواحى الري في نفس العام. وبينما كان أبو مسلم يقوم بإتمام فتح خراسان، واصلت جيوشه زحفها نحو العراق بقيادة قحطبة بن شبيب، واضطر عامل العراق يزيد بن هبيرة الى الانسحاب والتقهقر نحو مدينة واسط جنوبي العراق والتحصن بها.

أما عامل الكوفة محمد بن خالد بن عبد الله القسرى ، فانه لم يستطع الصمود أمام العباسيين، فسلم لهم المدينة، وهنا يظهر أبو العباس الذي ،سبقأنأوصى الامام إبراهيم عند القبض عليه بالامامة له من بعده ورحل باخوته وأهله الى الكوفة حيث اختبأوا بدار أحد الموالى نحو من شهرين الى أن تم الامر لهم.

دخل أبو العباس المسجد الجامع بالمدينة (الكوفة) حيث يعلن أبو سلمة الخلال رئيس الدعاة امامته ويطلب من الناس مبايعته بالخلافة فيبايعونه في ربيع الاول سنة 132هـ. فأرسل أبو العباس جيشًا كبيرا بقيادة عمه عبد الله بن على للقضاء على الدولة الاموية. وعند ضفاف نهر الزاب الاعلى بالقرب من الموصل، التقى عبد الله، بالخليفة الأموى مروان بن محمد، ودارت بينهما معركة فاصلة دامت يومين في جمادى الآخر 132هـ وانتهت بانتصار الجيش العباسي وهزيمة الجيش الأموى وغرق معظمه في نهر الزاب، وهرب مروان الى مصر حيث قبض عليه عند بلدة بوصير وقتله العباسيون في أواخر سنة 132هـ / 750م،وهكذا انتهت الدولة الأموية .(265)

---

(265) انظر فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص 494 وما بعدها ، احمد مختار العبادي : في التاريخ العباسي والاندلسي ص 25 ـ 28.

ثبت أهم أسماء المراجع

أولا : المصادر العربية القديمة :

- الابشيهي (بهاء الدين محمد) ت 1446 م :
- المُستَظرف في كل فن مُستطرَف، جزءان، بولاق 1268 هـ
- الاشعري (ابو الحسن على) ت 324 هـ / 936 م :
- مقالات الاسلاميين.
- ابن الاثير (ابو الحسن على محمد بن الجزري) ت 630 هـ / 1233 م :
- الكامل في التاريخ، الاجزاء 1 ـ 5، بيروت 1965 م.
- اسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق محمد صبيح القاهرة 1964 م.
- الازرقي (ابو الوليد محمد بن عبد الله) ت نحو 250 هـ / 854م.
- كتاب اخبار مكة شرفها الله، وما جاء فيها من آثار
تحقيق Wustenfeld ، طبعة Leipzig ، 1858.
- ابن اسحق (ابو عبد الله محمد بن اسحاق بن يسار) ت 150 أو 151 هـ / 767 أو 768 م :
- كتاب السير والمغازي، نشر سهيل زكار، بيروت
- الاصفهاني (حمزة بن الحسن) ت بعد 350 هـ / 961 م :
- تاريخ سنى ملوك الارض والانبياء، بيروت 1961 م
- الاصفهاني (ابو الفرج علي بن الحسين) ت 360 هـ / 967 م :
- الاغاني، 20 جزءا، بولاق 1285 هـ.
- مقاتل الطالبيين، النجف، 1353 هـ.
- ابن انس (مالك) ت 179 هـ / 795 م :
- الموطا، رواية يحيى بن يحيى الليثي، بيروت 1977 م.
- البكرى (ابو عبيد الله) ت 1094 م :

ـ المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب من كتاب المسالك والممالك
ـ **البلاذري** (احمد بن يحيى بن جابر) ت 279 هـ / 892 م
ـ فتوح البلدان، بيروت 1978 م.
ـ انساب الاشراف، الجزء الأول تحقيق محمد حميد الله، القاهرة 1959 م. الجزء الثاني، القسم الخاص بمعاوية، روما 1938 م. الجزء الثالث تحقيق محمد باقر المحمودي، بيروت 1977 م. الجزء الرابع، القدس 1938م.. الجزء الخامس، القدس 1936 م. الحادي عشر جرايفسفلد 1883 م.
ـ **البيروني** (ابو الريحان) ت 1048 م :
ـ الا ثار الباقية من القرون الخالية، تحقيق Sachan ، طبعة Leipzig 1923 م.
ـ **البغدادي**
ـ الفرق بين الفرق، القاهرة 1910 م.
ـ **ابن تغرى بردى** (أبو الحسن يوسف) ت 1469 م
ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الجزء الثاني، القاهرة
ـ **التجاني** أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد) ت 717 هـ تقريباً
ـ رحلة التجاني (تونس ـ طرابلس 706 ـ 708هـ) . تونس 1981م .
ـ **الجاحظ** (ابو عثمان) ت 868 م
ـ كتاب الحيوان، تحقيق محمد هارون، القاهرة 1938 م.
ـ العثمانية، تحقيق محمد هارون، القاهرة 1955 م.
ـ **الجَهشَياري** (محمد بن عبدوس ، ابو عبد الله) ت 942 م
ـ الوزراء والكتاب.
ـ **ابن الجوزي** (عبد الرحمن) ت 1200 م
ـ سيرة عمر بن عبد العزيز، القاهرة 1331 هـ.
ـ تلبيس ابليس.
ـ تذكرة الخواص.
ـ **ابن حزم الاندلسي** (محمد بن علي) ت 456 هـ / 1064 م
ـ جوامع السيرة، تحقيق احسان عباس، ناصر الدين الاسد، مجموعة تراث الاسلام.
ـ حجة الوداع، تحقيق ممدوح حقي، بيروت 1966 م.

- الحموي (ياقوت بن عبد الله) ت 1229 م.
- معجم الادباء، الجزء الخامس.
- معجم البلدان، تحقيق امين الخانجي، القاهرة 1906 م.
- ارشاد الاريب الى معرفة الاديب، طبعة فريد رفاعي، القاهرة 1936 م
- ابن حوقل (ابو القاسم النصيبي) ت 977 م
- كتاب صورة الارض، بيروت
- الخطيب البغدادي (احمد بن علي، ابو بكر) ت 463 هـ / 1072 م
- تاريخ بغداد، مجموعة اجزاء، بيروت.
- ابن خلدون (عبد الرحمن، أبو زيد) ت 808 هـ / 1406 م
- العبر وديوان المبتدا والخبر، بيروت 1958 م
- ابن خلكان (احمد بن محمد) ت 681 هـ / 1282 م
- وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان، 8 أجزاء حققه احسان عباس، بيروت 1972 م.
- ابن خياط (خليفة) ت 240 هـ / 854 م
- تاريخ خليفة بن خياط، رواية بقي بن مخلد، تحقيق سهيل زكار، جزءان، دمشق 1967، 1968 م.
- الدينوري (ابو حنيفة احمد بن داود) ت 895 م
- الاخبار الطوال، القاهرة 1960 م.
- الذهبي (محمد بن احمد، شمس الدين) ت 748 هـ / 1348 م
- تذكرة الحفاظ
- دول الاسلام، الجزء الاول، حيدر اباد 1365 هـ.
- سير اعلام النبلاء، الجزء الثالث، القاهرة.
- الرقيق القيرواني :
- تاريخ افريقية والمغرب، تونس 1967م.
- ابن السبكي (عبد الوهاب، تاج الدين) ت 771 هـ / 1370 م.
- طبقات الشافعية الكبرى، الجزء الثاني، القاهرة.
- ابن سعد (محمد الزهري) ت 230 هـ / 845 م.
- كتاب الطبقات الكبير (الكبرى)، بيروت 1958 م.
- السمهودي (علي نور الدين) ت 911 هـ / 1506 م

ـ وفاء الوفا باخبار دار المصطفى، القاهرة 1336 هـ.

السهيلي (عبد الرحمن بن عبد الله)، ت 581 هـ / 1185 م

ـ الروض الانف في تفسير ما اشتمل عليه حديث السيرة النبوية لابن هشام، جزءان، القاهرة 1914 م.

ـ **السمعاني** (عبد الكريم بن محمد، تاج الاسلام ابو سعد) ت 562 هـ / 1167 م

ـ الانساب، ليدن 1912 م

ـ **ابن سلام** (أبو عبيد)

ـ كتاب الاموال، القاهرة. 1975م

ـ **السيوطي** (جلال الدين، عبد الرحمن) ت 911 هـ / 1505م

ـ تاريخ الخلفاء امراء المؤمنين القائمين بامر الامة، القاهرة 1351 هـ.

ـ حسن المحاضرة من أخبار مصر والقاهرة، جزءان، القاهرة 1327 هـ.

ـ كتاب الاتقان في علوم القران، جزءان، القاهرة 1941 م.

ـ بغية الوعاة، القاهرة.

ـ **الشهرستاني** (أبو الفتح محمد بن القاسم) ت 548 هـ / 1153 م

ـ الملل والنحل، القاهرة 1948 م.

ـ **ابن طباطبا** (المعروف بابن الطقطقى).

ـ الفخري في الآداب السلطانية، بيروت 1966 م.

ـ **الطبري** (ابو جعفر محمد بن جرير) ت 310 هـ / 923 م.

ـ تاريخ الامم (الرسل) والملوك، بيروت 1979 م.

ـ **ابن عبد ربه** (احمد بن محمد) ت 940 م

ـ العقد الفريد، تحقيق سعيد العريان، القاهرة، 1294 هـ.

ـ **ابن عبد الحكم** (ابو القسم عبد الرحمن) ت 276 هـ / 889 م

ـ فتوح مصر والمغرب، القاهرة

ـ **ابن عبد الحكم** (عبد الله)

ـ سيرة عمر بن عبد العزيز

ـ **ابن العبري** (غريغريوس الملطي) ت 1286 م

ـ تاريخ مختصر الدول، بيروت 1958 م.

ـ ابن عذارى : ٠

ـ البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب، الجزء الأول، تحقيق ليفي بروفنسال وكولان، بيروت.

ـ ابن عساكر (على بن الحسن) ت 1175 م

ـ تاريخ مدينة دمشق، تحقيق صلاح الدين المنجد، مطبوعات المجمع العلمي، بدمشق، المجلد الاول 1951 م. المجلد العاشر 1963 م.

ـ ابو الفداء (اسماعيل بن محمد بن عمر) ت 1331 م.

ـ المختصر في أخبار البشر، استانبول 1869 م.

ـ ابن قتيبة (ابو محمد عبيد الله بن مسلم الدينوري) ت 276 هـ / 889 م.

ـ كتاب المعارف، القاهرة 1300 هـ.

ـ عيون الأخبار، القاهرة، 1963 م.

ـ الامامة والسياسة وهو المعروف بتاريخ الخلفاء وينسب اليه، جزءان في مجلد، بيروت.

ـ القلقشندي

ـ صبح الأعشى في صناعة الانشاء، 14 جزء، القاهرة،

ـ ابن كثير :

ـ البداية والنهاية في التاريخ، القاهرة 1932 م.

ـ ابن الكردبوس :

ـ الاكتفاء في أخبار الخلفاء، تحقيق احمد مختار العبادي، مدريد 1966 م

ـ ابن الكلبي (هشام بن محمد) ت 819 م

ـ كتاب الاصنام، القاهرة، 1965 م

ـ الكندي :

ـ كتاب الولاة والقضاة، تحقيق Cuest ، لندن 1912 م

ـ المالكي (ابو عبد الله) ت في 5 هـ.

ـ كتاب رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وأفريقية وهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة، 1951 م.

ـ الماوردي (ابو الحسن على بن محمد) ت 450 هـ / 1058 م

ـ الأحكام السلطانية، القاهرة 1960 م

- **مجهول :**

-العيون والحدائق في أخبار الحقائق، نشر دي غويه، ابريل 1869 ، الجزء الخاص بالوليد وسليمان بن عبد الملك.

- **مجهول :**

- مخطوط الخزانة الملكية في وصف الاندلس وتاريخه بالرباط.

- **المعسودي** (ابو الحسن على بن الحسين) ت 346 هـ / 956 م

- التنبيه والاشراف، بيروت 1965 م.

- مروج الذهب ومعادن الجوهر، اربعة أجزاء، بيروت 1965 م.

- **المقدسي** (شمس الدين) ت نحو 380 هـ / 990 م

- احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، بيروت.

- **المبرد**

- اخبار الخوارج من كتاب الكامل فى اللغة والادب والنحو والتصريف، بيروت.

- **ابو مخنف :**

- في مقتل الحسين عليه السلام، ورسالة اخذ الثار وانتصار المختار على الطغاة الفجار، تحقيق محمد الشيرازي، بمباي 1361 هـ.

- **المقري**

- نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب، تحقيق احسان عباس، بيروت،.

- **المقريزي** (تقي الدين احمد بن علي) ت 1441 م :

- امتاع الاسماع بما للرسول من الابناء والاموال والحفده والمتاع، تحقيق محمد شاكر، القاهرة، 1941 م.

- المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والا ثار، القاهرة 1326 هـ.

- **ابن منبه** (وهب) ت 114 هـ / 732 م :

- التيجان من ملوك حمير، حيدر آباد 1347 هـ.

- **ابن النجار** (محب الدين) ت 1245 م

- الدرة الثمينة في أخبار المدينة.

- **ابن النديم** (ابو الفرج، محمد بن اسحق) ت بعد 390 هـ / 1000 م

- الفهرست، القاهرة.

- **النويري :**
- نهاية الارب فى فنون الادب، 14 جزء طبعة دار الكتب 1923.
- **ابن هشام** (ابو محمد بن عبد الملك) ت 213 هـ / 828 م
- السيرة النبوية، القاهرة 1955 م.
- **الهمداني** (الحسين بن أحمد، ابن الحائك) ت 945 م
- صفة جزيرة العرب، نشر محمد بن عبد الله النجدي، القاهرة، 1953
- الاكليل، الجزء الثامن، تحقيق نبيه فارس، 1940، الجزء العاشر تحقيق محب الدين الخطيب، القاهرة 1368 هـ.
- **الواقدي** (محمد بن عمر) ت 207 هـ / 822 م
- المغازي ، القاهرة 1948 م
- فتوح افريقية، جزءان تونس 1315 هـ.
- **اليعقوبي** (احمد بن يعقوب بن واضح) ت 817 م
- تاريخ اليعقوبي، جزءان، بيروت - دار صادر،
- **ابو يوسف** (يعقوب ابراهيم) ت 182 هـ / 798 م
- كتاب الخراج، القاهرة 1346 هـ.

ثانيا : مراجع عربية حديثة

- **ابراهيم احمد العدوي دكتور :**
- قوات البحرية العربية في مياه البحر المتوسط، القاهرة، 1963 م.
- الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم، القاهرة 1958 م.
- **أحمد أمين :**
- فجر الاسلام «الحياة العقلية في صدر الاسلام الى اخر الدولة الأموية، بيروت 1969 م.
- **احمد مختار عمر :**
- تاريخ اللغة العربية في مصر.
- **احمد السيد دراج دكتور :**
- صناعة الكتابة وتطورها في العصور الاسلامية، السعودية

ـ احمد فكري دكتور :
ـ المدخل الى مساجد القاهرة ومدارسها، الاسكندرية 1961 م.
ـ أحمد مختار العبادي دكتور :
ـ فى التاريخ العباسي والاندلسي، بيروت 1971 م.
ـ دراسات في تاريخ المغرب والاندلس، الاسكندرية 1968 م.
ـ فى تاريخ المغرب والاندلس، الاسكندرية 1976 م.
ـ اجناس جولد تسيهر :
ـ العقيدة والشريعة في الاسلام، ترجمة محمد يوسف موسى، وعلي حسن عبد القادر وعبد العزيز عبد الحق ، القاهرة 1959 م.
ـ أرثر كريستينسن :
ـ ايران في عهد الساسانيين، ترجمة يحيى الخشاب وعبد الوهاب عزام، القاهرة 1957 م.
ـ السلاوي :
ـ الاستقصا في تاريخ المغرب الاقصى، الجزء الاول، الدار البيضاء.
ـ السيد عبد العزيز سالم دكتور :
ـ تاريخ العرب قبل الاسلام، الاسكندرية 1969 م.
ـ تاريخ الدولة العربية، الاسكندرية
ـ تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس، بيروت 1962 م.
ـ الماذن المصرية، القاهرة، 1959 م
ـ ارنست كونل :
ـ الفن الاسلامي.
ـ الويس موسل :
ـ شمال الحجاز، ترجمة عبد المحسن الحسيني، الاسكندرية 1952 م
ـ الفرد بتلر دكتور :
ـ فتح العرب لمصر، ترجمة محمد فريد ابو حديد، القاهرة 1933 م.
ـ بروفنسال ليفي :
ـ نص جديد عن فتح العرب للمغرب، صحيفة المعهد المصري بمدريد سنة 1954 م.
ـ بروكلمان كارل دكتور :
ـ تاريخ الشعوب الاسلامية، ترجمة أمين فارس ومنير البعلبكي، بيروت 1979 م
ـ تاريخ الادب العربي، عدة اجزاء، القاهرة.

- برنارد لويس دكتور :
- العرب فى التاريخ.
- ترتون :
- اهل الذمة فى الاسلام، ترجمة وتعليق حسن حبشي، القاهرة 1949 م
- توماس ارنولد دكتور :
- الدعوة الى الاسلام، ترجمة حسن ابراهيم حسن وعابدين والنحراوي، القاهرة 1947 م.
- تيودور نلدكه :
- امراء غسان، ترجمة بندلى جوزى وقسطنطين زريق، بيروت 1933 م.
- جواد علي دكتور :
- المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام، عشرة اجزاء، بيروت 1968 - 1973 م.
- جورجي زيدان :
- العرب قبل الاسلام، مراجعة حسين مؤنس، القاهرة 1958 م
- تاريخ التمدن الاسلامى، بيروت 1965 م.
- حسان علي حلاق :
- تعريب النقود والدواوين، بيروت.
- حسن ابراهيم حسن دكتور :
- تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافي والاجتماعى الجزء الاول، بيروت 1968 م.
- النظم الاسلامية، بالاشتراك مع على ابراهيم، القاهرة 1939 م.
- حسن احمد محمود دكتور :
- العالم الاسلامي فى العصر العباسى بالاشتراك مع احمد الشريف، القاهرة.
- حسن مؤنس دكتور :
- فتح العرب للمغرب ، القاهرة 1947 م.
- خليل يحيى نامي دكتور :
- نقوش خربة ترافش ، مجلة كلية الاداب، جامعة القاهرة، مجلد 16 ، 1954 م.
- دوزي :
- تاريخ مسلمى اسبانيا ، الجزء الاول ترجمة حسن حبشي، القاهرة.

ـ ديتلف نيلسون :

ـ الديانة العربية القديمة، فصل في كتاب التاريخ العربي القديم، ترجمة فؤاد حسنين على، القاهرة، 1958 م.

ـ رينيه ريسو :

ـ العرب في سوريا قبل الاسلام، ترجمة عدد الحميد الدواخلي، القاهرة، 1959 م

ـ سعد زغلول عبد الحميد دكتور :

ـ تاريخ المعرب العربي، الجزء الاول، الاسكندرية 1980 م.

ـ في تاريخ العرب قبل الاسلام، بيروت 1976 م.

ـ سعيد عاشور دكتور :

ـ اوربا في العصور الوسطى، القاهرة

ـ سيده اسماعيل كاشف دكتور :

ـ مصر في فجر الاسلام، القاهرة 1947 م.

ـ عبد العزيز بن مروان، القاهرة.

ـ سهيل زكار دكتور :

ـ تاريخ العرب والاسلام، بيروت 1979 م.

ـ سيديو (ل. م.).

ـ تاريخ العرب العام، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة 1948 م.

ـ شاكر مضطفى :

ـ التاريخ العربي والمؤرخون، الجزء الاول، بيروت

ـ شكري فيصل دكتور :

ـ حركة الفتح الاسلامي في القرن الاول الهجري، القاهرة 1952 م.

ـ صالح احمد العلي دكتور :

ـ محاضرات في تاريخ العرب، الجزء الاول، بغداد 1959 م.

ـ استيطان العرب في خراسان، مجلة كلية الاداب ببغداد 1959 م.

ـ صلاح الدين المنجد دكتور :

ـ معجم بني أمية.

ـ ضياء الدين الريس دكتور :

ـ عبد الملك بن مروان، موحد الدولة العربية ، سلسلة اعلام العرب القاهرة 1961 م.

ـ عبد الأمير عبد حسن دكسن كدتور :
ـ الخلافة الاموية (65 ـ 86 هـ) ، الجزء الأول، بغداد 1973 م.
ـ عبد الحميد بخيت دكتور :
ـ عصر الخلفاء الراشدين، التاريخ الديني والسياسي والحضاري ، القاهرة 1977 م.
ـ عبد الحميد العبادي :
ـ صور وبحوث من التاريخ الاسلامي، الاسكندرية 1948 م.
ـ الاسلام والنفرقة العنصرية.
ـ عبد العزيز الدوري دكتور :
ـ علم التاريخ عند العرب.
ـ عبد المنعم ماجد دكتور :
ـ التاريخ السياسى للدولة العربية، جزءان، القاهرة 1979 م.
ـ تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى ، القاهرة 1978 م.
ـ عبد الوهاب عزام :
ـ مهد العرب، سلسلة اقرأ عدد 40 ، القاهرة 1946 م.
ـ على حسن الحزبوطلي دكتور :
ـ الدولة العربية الاسلامية ، القاهرة 1960 م.
ـ المختار بن عبيد الثقفي، سلسلة اعلام العرب ، القاهرة
ـ فرج الهوني :
ـ النظم الادارية والمالية في الدولة العربية الاسلامية ، منذ قيام حكومة الرسول بالمدينة حتى نهاية الدولة الأموية.
ـ فلهوزن يوليوس دكتور :
ـ تاريخ الدولة العربية، ترجمة محمد عبد الهادي ابو ريدة، القاهرة.
ـ أحزاب المعارضة الدينية السياسية في صدر الاسلام، «الخوارج والشيعة» ترجمة عبد الرحمن بدوي، القاهرة 1958 م.
ـ فليب حتى دكتور :
ـ تاريخ العرب، جزءان ترجمة ادوارد جرجي وجبرائيل جبور، بيروت 1955 م.
ـ تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة جورج حداد، عبد الكريم رافق بيروت 1958.

- فان فلوتن :
- الدولة الاموية والمعارضة ترجمة ابراهيم بيضون، بيروت وقد ترجمه حسن ابراهيم حسن واخر باسم السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني امية، القاهرة 1933 م.
- فاروق عمر دكتور :
- بحوث في التاريخ العباسي، بيروت
- قاسم عبده قاسم دكتور :
- اهل الذمة في مصر العصور الوسطى - القاهرة 1980 م
- لانكستر هاردنج :
- اثار الاردن، ترجمة سليمان موسى، عمان 1965 م.
- محمد باقر الحسيني :
- تطور النقود الاسلامية
- محمد جمال الدين سرور دكتور :
- قيام الدولة العربية الاسلامية ، القاهرة ، 1956 م
- الحياة السياسية في الدولة العربية الاسلامية ، القاهرة.
- محمد حميد الله الحيدر آباري :
- مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي، والخلافة الراشدة، القاهرة 1941 م
- محمد الخضري :
- محاضرات تاريخ الامم الاسلامية «الدولة الاموية» جزءان، بيروت 1969 م
- محاضرات تاريخ الامم الاسلامية « الدولة العباسية» جزءان بيروت 1969 م
- محمد عبد العميد خان :
- الاساطير العربية قبل الاسلام، القاهرة ، 1937 م
- محمد عبد الهادي شعيرة دكتور :
- الممالك الحليفة، او الممالك ما وراء النهر، مجلة كلية الاداب (القاهرة) المجلد الرابع لسنة 1948 م.
- محمد كرد علي :
- الادارة الاسلامية في عز العرب .
- مصطفى ابو ضيف احمد دكتور :
- اثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصري الموحدين وبني مرين،

ـ مولاي حسني :
ـ الادارة العربية.
ـ ناصر النقشبندي :
ـ الدرهم الاسلامي، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1970 م
ـ نايف معروف دكتور :
ـ الخوارج في العصر الاموي، بيروت.
ـ هاملتون جب :
ـ دراسات في حضارة الاسلام، ترجمة احسان عباس، ومحمد يوسف نجم ومحمد زايد، بيروت 1974 م.
ـ هيكل حسين :
ـ حياة محمد، القاهرة 1947 م.
ـ وداد القاضي دكتور :
ـ الكيسانية في التاريخ والادب بيروت ، 1974 م.
ـ يوسف احمد :
ـ المحمل والحج، القاهرة 1937 م.
ـ يوسف رزق الله غنيمة :
ـ الحيرة، المدينة والمملكة العربية، بغداد 1936 م.

ثالثا : مراجع اجنبية

— **Aly Mohamed Fahmy** : Muslim Sea-Power in the Eastern Mediterranean, Cairo 1966).

— **Alexander B.W. Kennedy** (Sir) : Petra its History and Monuments (London 1925).

— **Anonymons** : Syriac chronicle

— **Axel Moberg** : The Book of the Himyarites.

— **Bar Hebraens** : Chronicle

— **Bertram Thomas** : — Arabia Felix, Across the Empty Quarter of Arabia.

— The Near East and India

— **Boer** : History of philosophy in islam.

— **Browne** : A Literary, History of Persia 4 vols, cambridge (1920-1930).
— **Burton** : Royal inscriptions of sumer and Akkad
— **Bury** (J.B) : History of the later Roman Empire
— **Cantineau** (J) : Le Nabatéén (1932).
— **Charles Ō man** : A History of the Art of war in the Middle Ages (London 1924)
— **Cheire** : La Lutte entre Arabes et Byzantins, (Alexandrie 1947).
— **Denys** : Chronique, publ. et traduite par chabot. Paris 1895.
— **De Goeje** : Mémoire sur la conquête de la Syrie, Mém d'hist et de géog, arabe II (Leidien 1901)
— **Dhorme** : Palmyre dans les Textes Assyriens, Revue Biblique 1924.
— **Dorner** (I.A.) : A System of christian Doctrine (London 1885).
— **George A. Barton** : Semetic and Hamitie Origins
— **Phillby** : The Back — ground of Islam.
— Le Muséon South Arabian chronology, L XII, 1949.
— **George Francis Hill** : Catalogue of the Greek coins of Arabia Mespotamia and Persia, (London 1922)
— **Glueck** (N) : The story of the Nabateans
— **Gibb** : the Arab conquest in Central Asia, (London 1923).
— **Hommel** : Geographie und Geschichte des Alten Orients (Munchen, 1904, 1926).
— **Hugo Winckler** : The History of Babylonia and Assyria.
— **Jean Stracky** : Palmyre, (Paris, 1952)
— **Joseph Halevy** : in Bulletin de la Societi de Géographie, Rappórt sur une Mission Archéologique dans le Yemen, in Journal Asiatique, Series O, vol XIX. (1873, 1877).
— **Julien** : Hist de l'Afrique du Nord.
— **Lammens** (H) : L'age de Mahomet et la chronologie de la Sira, Journal Asiatique série X.
— Etudes sur le siecle de Omeyyades (Beyrouth 1930)
— Etudes sur le régne du calife omaiyade Mo'awa Ler (Leipzig 1908).
— Un gauverneur O maiyade d'Egypte.
— **Le Strange** : The iands of the Eastern Caliphate, (Cambridge 1905).

— **Leone Caetani** : Annale dell Islam (Milan 1910).

— **Leonard Woolley (C)** : Sumerians.

— **Lewis (B)** : The Origins of Ismailism, (Cambridge — the Regnal Titles of the First Abbasid caliphs.

— **Murry** : The Rock city Petra.

— **Noldeke** (T.H.) : Zur tendenziosen Gestaltung der Urgeschichte des Islams.

— **Olmstead** : History of Assyrie, New York 1923.

— **Procopins** : History of the Wars, Musil, Palmyrena

— **Robertson** (J.C.) History of the christian church (London 1875)

— **Sauvaget** : Les Monuments Historiques de Damas (Beyrouth 1932)

— La Mosquée Omeyyade de Medine. Etude sur les origines architecturales de la Mosquée et de la Basilique. Inst. F, de Damas. Paris 1947.

— **Schefer** : Notice sur les relations les relations des peuples musulmans avec les chinois.

— **Syed Ameer Ali** : Ashort History of the Saracens (London 1953)

— **Theophanes** : Chronographia in Patrologia Graece de Migne t 108 ; ed Carl Boor. Vol I Leipzig 1883.

— **Zotenberg** (H) : Chronique de Jean, évéqué de Nikiou. Texte ethiopien, withtr, (Paris 1883).

بيان الخرائط والأشكال التاريخية

الفهارس

فهرس الاعلام

– ب –

- خ -

– د –

– ذ ، ر –

– ز –

ـ غ ـ

ـ ف ـ

ـ ق ـ

ـ ك ـ

ـ ل ـ

ـ م ـ

- ي -

فهرس الاماكن

ـ خ ـ

ـ د، ذ ـ

ـ ر ، ز ـ

ـ س ، ش ـ

ـ ص ، ط ، ظ ـ

– ع –

– غ –

ـ ف ، ق ـ

ـ ك ، ل ـ

ـ م ـ

ـ هـ ، و ، ي ـ

فهرس القبائل والامم

ـ ح ـ

ـ خ ـ

ـ ذ ، ر ، ز ـ

ـ س ـ

ـ ش ـ

ـ ص ، ض ، ط ـ

ـ ع ـ

ـ غ ـ

ـ ف ـ

ـ ق ـ

ـ ك ، ل ـ

ـ م ـ

— ن —

— هـ ، و —

— ي —

فهرس

الباب الثالث
الخلفاء الـراشـــدون

الدولة الأمـويـة

الباب الخامس
المعارضة السياسية والدينية
وسقوط الخلافة الأمويـة